

صَحِيحُ

ثَالِثُ الْطَّبَرِيِّ
عَنْهُ

قِصْصَاتُ النَّبِيِّ

وَتَارِيخُ مَا قَبْلَ الْعَثَّةِ

لِإِمَامِ أَيِّ جَعْفَرِ بْنِ جَرِيرِ الطَّبَرِيِّ

(٤٤٤ - ٢١٥)

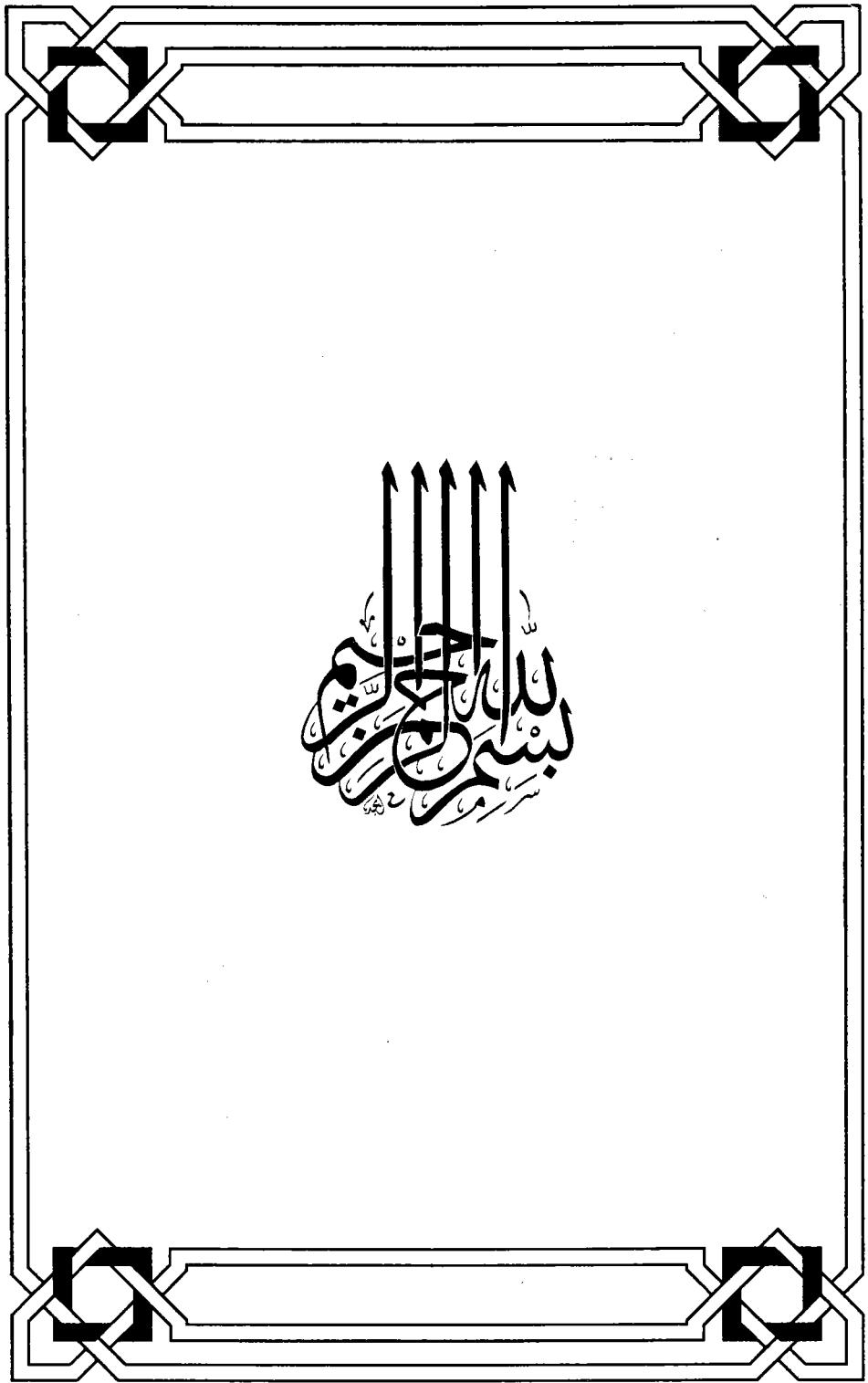
مَقْقَهُ وَضَرَّجُ رَوَايَاهُ وَعَلَّمَ عَلَيْهِ
مُحَمَّدُ بْنُ طَاهِرِ الْبَرْزَنجِيِّ
مُحَمَّدُ صَبَّاحُ حَسَنِ حَلَاقِ

الْمُجْلِدُ الْأُولُّ

كِتابُ الْأَنْتِيَكِيَّةِ

دَمْشَقُ - بَيْرُوتُ

بِسْمِ اللّٰهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيْمِ



صَحِيفَةٌ

الْخَطَّابِيُّ

فِي حِلْمِ الْأَنْدَلُسِ

وَتَابِعٌ لِمَا قَبْلَهُ الْمُعْتَدِلُ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الطبعة الأولى

1428 هـ - 2007 م

جميع الحقوق محفوظة

يمنع طبع هذا الكتاب أو جزء منه بكل طرق الطبع
والتصوير والنقل والترجمة والتسجيل المرئي والمسنون
والحسوبى وغيرها من الحقوق إلا باذن خطى من



للطباعة و النشر و التوزيع

دمشق - بيروت

التنفيذ الطباعي : مطبع المستقبل
التجلييد : مؤسسة فؤاد البعينو للتجلييد

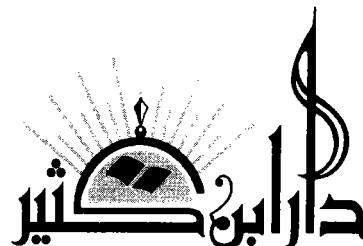
دمشق - حلبيونى - جادة ابن سينا - بناء الجابى

من.ب : 311 - هاتف : 2225877 - 2228450 - فاكس : 2243502

بيروت - برج أبي حيدر - خلف ديوس الأصلى - بناء الحديقة

ص.ب : 03/204459 - تلفاكس : 01/817857 - جوال : 113/6318

www.ibn-katheer.com - info@ibn-katheer.com



المقدمة

الحمد لله والصلوة والسلام على رسول الله :

أولاً

١ - تعريف التاريخ :

لغة: تعريف الوقت والتاريخ مثله يقال: أرخت وورخت [الجوهري] والأصمعي يفرق بين لهجتين فبنو تميم يقولون: ورخت الكتاب توريخاً وقيس يقول: أرخته تاريحاً هذا ما ذكره السخاوي في كتابه الإعلان بالتوبیخ [ص ١٩].
التاريخ اصطلاحاً: لعل ابن خلدون (٨٠٨ هـ) أول من عرف التاريخ تعريفاً شافياً وسبق بذلك علماء المسلمين وغير المسلمين.

قال ابن خلدون [العلامة المؤرخ] رحمة الله تعالى وهو يعرف التاريخ:

[هو في ظاهره: لا يزيد على أخبار عن الأيام والدول ، والسوابق من القرون الأولى تنمو فيها الأقوال وتضرب فيها الأمثال].

وفي باطنه: نظر وتحقيق وتحليل للكتائن ومبادئها دقيق ، وعلم بكيفيات الواقع وأسبابها عميق .

ولقد كان ابن خلدون دقيقاً في تقييمه لكم الهائل من الروايات التاريخية فقال وإن فحول المؤرخين في الإسلام قد استوعبا أخبار الأيام وجمعوها وسطروها في صفحات الدفاتر وأودعوها ، وخلطها المتطللون بدسائس من الباطل وهموا فيها أو ابتدعوها وزخارف من الروايات المضعة لفقوها وضعوها [مقدمة ابن خلدون].

أما السخاوي (٩٠٢ هـ) فقد عرف التاريخ اصطلاحاً فقال:

التعريف بالوقت الذي تضبط به الأحوال من مولد الرواة والأئمة ووفاة وصحة عقل وبدن ورحلة وحج وحفظ وضبط وتوثيق وتخرير وما أشبه هذا مما مر جمعه الفحص عن أحوالهم في ابتدائهم وحالهم واستقبالهم ويلتحق به ما يتفق من الحوادث والواقع الجليلة من ظهور حكمة وتجديد فرض ، وخليفة وزير وغزوة ولحمة وحرب وفتح بلد وانتزاعه من متغلب عليه وانتقال دولة [الإعلان بالتبسيخ : ص ٢٠].

الكافيجي : وأما علم التاريخ فهو علم يبحث عن الزمان وأحواله وعن أحوال ما يتعلق به من حيث تعين ذلك وتوثيقه وأما موضوعه فالإنسان والزمان [المختصر في علم التاريخ : ٣٢٧].

وأما التاريخ بمعنى التقويم فالصحيح أنه بدأ به في خلافة أمير المؤمنين عمر ابن الخطاب حين أمر المسلمين أن يجعلوا من مقدم النبي عليه الصلاة والسلام إلى المدينة بداية التاريخ الإسلامي فسمي [الهجري]. قال السخاوي والمحفوظ كما قال ابن عساكر أن الأمر به في زمن عمر وكذا صححه الجمهور بل هو الصحيح المشهور أنه كان في خلافة عمر وأنه ابتدأ بالهجرة النبوية وبالمحرم منها [الإعلان بالتبسيخ / ٩٥].

أسباب اهتمام الأمة المسلمة بكتابه التاريخ :

- ١ - لاهتمام القرآن الكريم بقصص الأنبياء والأمم السابقة وبيان أحوالهم واستخراج الدروس وال عبر من أحوالهم وما لهم وكذلك قصص الفراعنة وقارون وغير ذلك كقوله تعالى : «**لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ**» .
- ٢ - اهتمام القرآن الكريم بدراسة تبدل الأحوال والأوضاع و حتى الناس على تدبر الواقع واكتشاف سين الله في الكون ومنها السنن التاريخية كقوله تعالى : «**وَتِلْكَ الْقُرْآنُ أَهْلَكَنَّهُمْ لَمَا ظَمَّوْا**» وقوله سبحانه : «**وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُذَاوِلُهَا بَيْنَ أَنَّاسًا**» .
- ٣ - اهتممت السنة النبوية الشريفة بقصص الأنبياء والصالحين من الأمم السابقة واستنباط العظات وال عبر - كقوله عليه الصلاة والسلام : «إنه كان فيمن قبلكم ... الحديث» .

٤ - أوصى الإسلام [كتاباً وسنة] بتبع سيرة الرسول عليه الصلاة والسلام فكان ذلك عاملاً آخر من عوامل اهتمام المسلمين بالسير والمغازي كجزء من التاريخ الإسلامي.

يقول الدكتور الدوري: إن القرآن نص على أن أقوال الرسول ﷺ موصى بها وأن سيرته مثل للMuslimين يقتدون به وهنا نجد دافعاً مباشراً لدراسة أقوال الرسول وأفعاله [بحث في نشأة علم التاريخ / ١٨].

٥ - كان العرب أصحاب شعر وحكايات وقصائد تروي بطولات القبيلة ومواقف رموزها المشهودة - يضاف إلى ذلك كله قوة الحافظة عند العرب تعويضاً عن أميتهم كما قال عليه الصلاة والسلام «إنا أمة أمية». يقول الأستاذ محمد فتحي عثمان وهو يتحدث عن خصائص العرب يومها: فهي أمة تميزت بالحفظ والهداية وبالبلاغة والشعر ، وبالحرص على الأنساب والفخر بها وكل هذه الثلاثة معين على ازدهار التاريخ [المدخل إلى التاريخ الإسلامي / ١١٤].

٦ - اهتمام الخلفاء المتعاقبين على إدارة الحكم بالمغازي والسير وتاريخ من سبّقهم من الملوك والخلفاء وحثّ النسبة والإخباريين على تدوين ما لديهم من الأخبار والأنساب وغير ذلك يقول الأستاذ شاكر مصطفى: فلقد كانت رغبة بعض الأميين والولاة في المعرفة التاريخية وإن كانت لها أسبابها بالنسبة إليهم مشجعاً لإدخال هذه المعرفة بين المعارف النبيلة المطلوبة في المجتمع الإسلامي . وإذا كان معاوية قد استدعاي عبيد بن شرية من صنعاء ليسأله عن ملوك العرب والعجم ويأمر بتسجيل ما يقول ويجلس كل مساء لسماع أخبار التاريخ وكان مروان بن الحكم يدّني مجلس حكيم بن حزام ليسمع منه أخبار المغازي وعبد الملك يطلب أخبارها من التابعين وكان عروة بن الزبير راوية التاريخ على صلة بعد الملك وابنه الوليد وبعمر بن عبد العزيز فقد عرفنا أيضاً أن هشام بن عبد الملك وضع لابن شهاب الزهري كاتبين يكتبان عنه سنة فلما مات الزهري وجدت له أكواם من الكتب في خزائن الأميين [التاريخ العربي والمؤرخون / ص ٦٧].

٧ - إن إنشاء أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه للدواوين وتسجيل أسماء المجاهدين الفاتحين حسب قبائلهم وأسرهم شجّع ظهور النسبة الخبراء في أنساب القبائل على اختلافها وأضحى الأنساب فيما بعد جزءاً من التاريخ حتى

أن البلاذري قد ألف سفراً عظيماً بترتيب أشهر الأنساب متضمناً الآباء والأبناء ومنهم الخلفاء الراشدون وبقية الخلفاء من بنى العباس وبني أمية ويعتبر كتابه مصدراً متقدماً ثميناً.

يقول الأستاذ محمد فتحي عثمان [وقد اشتهر الصديق أبو بكر بحفظ الأنساب وأعان إنشاء عمر (لليديوان) على حفظ الأنساب أيضاً وكان من دواعيه تنظيم العطاء... وقد شجع الأمويون على حفظ الأنساب وظهر النسابون الأوائل في عهدهم واشتهر في هذا المجال دغفل بن حنظلة الشيباني سنة ٧٠ هـ]. [المدخل إلى التاريخ الإسلامي / ١٣٦].

٨ - كان الخلفاء الأمويون ومن بعدهم العباسيون حريصين كل الحرص على تمييز الأراضي المفتوحة صلحاً أو عنوة وما إلى ذلك إلى أراضي خراجية أو عشرية حرصاً منهم على نظافة بيت المال وعدم السماح لدخول المال الحرام فيه وكان ذلك يعني اهتمامهم وسؤالهم عن الفتوحات الإسلامية الكبرى وأخبارها.

وحتى غير الخلفاء وبالأخص العلماء ومنهم الفقهاء قد اهتموا بهذا الجانب كثيراً حتى ترى إماماً فقيهاً كالقاضي أبي يوسف يؤلف كتاباً في الخارج يروي فيه بالسند الموصول وقائع بعض الفتوحات الإسلامية في العراق وغيره.

٩ - حدّث الرسول عليه الصلاة والسلام أمته من بعده على احترام الصحابة الكرام وإجلالهم والاقتداء بهم وخاصة الخلفاء الراشدين وتتبع سيرتهم وخاصة في أبواب السياسة الشرعية كقوله عليه الصلاة والسلام في الحديث النبوي الشريف «عليكم بستي وسنة الخلفاء الراشدين المهديين من بعدي عضواً عليها بالنواجد».

وهذا عامل آخر يضاف إلى عوامل أخرى دفعت الأئمة الأعلام إلى الاهتمام بتاريخ الراشدين كجزء من التاريخ الإسلامي وكتاب حلية الأولياء للحافظ الأصفهاني زاخراً بسير الصحابة رضوان الله تعالى عليهم.

١٠ - إن ورود نصوص من السنة الشريفة تبيّن فضل جيل الصحابة وقوتهم على التابعين والتابعين على من بعدهم وكذلك تجمهر عدد كبير من التابعين حول الصحابة لأخذ العلم الشرعي دفع العلماء إلى تصنيف كتب في الطبقات وخاصة

طبقات الصحابة والتابعين فهذا سابق وهذا مهاجر وذاك أنصاري وهذا بدرى وهذا من مسلمة الفتح ثم تأتي طبقات التابعين من بعدهم وكتاب الطبقات الكبرى لابن سعد خير شاهد على ذلك.

نشأة التاريخ عند المسلمين رواية ثم تدويناً وتبويباً أو تصنيفاً:

من الثابت عند أئمة المسلمين جمياً أن الرسول عليه الصلاة والسلام قد اتخذ من الصحابة من سمواً (كتاب الوحي) كسيدنا علي وسیدنا معاوية وسیدنا عثمان وغيرهم رضي الله عنهم أجمعين.

ومعلوم كذلك أن عدداً من الصحابة قد كتبوا جزءاً من السنة النبوية في صحف خاصة بهم ولكنها اندثرت ولكن حفظها تلامذتهم من التابعين الكرام ونقلوها إلى من بعدهم.

وللجمع بين أقوال العلماء في معرفة أول من دون الحديث مصنفاً مبوباً قالوا:
أول من دون مصنفاً ومبوباً:

محمد بن إسحاق بالمدينة (توفي ١٥١ هـ).

وابن جريج بمكة (١٥٠ هـ).

وحماد بن سلمة (١٦٧ هـ) بالبصرة.

ومعمر بن راشد (١٥٣ هـ) باليمن.

وسفيان الثوري (١٦١ هـ) بالковفة... الخ.

والإمام الذهبي رحمة الله يحدد سنة ١٤٣ هـ كبداية وانطلاقه لتدوين الحديث والتغيير وغيرها فيقول: فصنف ابن جريج بمكة ومالك بن أنس الموطاً بالمدينة والأوزاعي بالشام وابن أبي عروبة وحماد بن سلمة وغيرها بالبصرة ومعمر باليمن وسفيان بالковفة مصنف ابن إسحاق المغازي مصنف أبو حنيفة رحمة الله الفقه والرأي... إلى أن يقول الذهبي: وقبل هذا العصر كان الأئمة يتكلمون من حفظهم أو يروون العلم من صحف صحيحة غير مرتبة [تذكرة الحفاظ ٢٥٩/١].

ويعلق الأستاذ شاكر مصطفى على هذا المقطع من كلام الحافظ الذهبي فيقول: ويتبينه الذهبي في هذا النص إلى عدد من الحقائق المتصلة بشأة العلوم

الإسلامية ولعل أهمها مرورها في القرن الثاني في سنة ١٤٣ هـ كما يقول من مرحلة التسجيل غير المرتب إلى التصنيف المبوب [ص ٩٢] إلى أن يقول شاكر مصطفى وإذا نحن تجاوزنا تحديد سنة ١٤٣ هـ كسنة انقلابية - وهو تحديد ليس بالخطيء تماماً على أي حال... إلخ) [التاريخ العربي والمؤرخون ص ٩٣] ثم يمضي الأستاذ شاكر في تعقيبه على كلام الحافظ الذهبي ويبين أن من سبق هذا التاريخ بالكتابة في التاريخ كعروة بن الزبير والزهري إنما كتبوا في أبواب متفرقة ولم يكن محاولة للإحاطة بكل الأخبار لكافة المواضيع وأن هذا النشاط في تسجيل مثل هذه الأدوار التاريخية لم يكن بعد قد أخذ انطلاقته الواضحة لأنه بقي رسمياً لحد ما ديننا ولم يصبح تياراً فكرياً ثقافياً واضع التدوين... [التاريخ العربي والمؤرخون ص ٩٥ باختصار وتصرف] وهذا كلام نوزع فيه الأستاذ.

فأما تحديد هذه السنة بالذات (١٤٣ هـ) كحد فاصل بين التدوين المبوب وغير المبوب ففيه نظر لأن عروة بن الزبير رضي الله عنه والمتوفى سنة (٩٣ هـ) معروف بالمعازي والسير ومروياته في السيرة خاصة في حنايا كتاب المعازي صحيح البخاري وكذلك الطبرى وغيرهما ويعتبره الدورى مؤسساً لمدرسة المعازى (ص ٢١) ولو اتفقنا مع الأستاذ شاكر في عدم اعتبار كتابات عروة كذلك فإننا لا نستطيع أن نتجاوز مرويات الزهري ذلك الإمام المحدث الفقيه الذي ساهم في تدوين السيرة النبوية الشريفة وشطراً من تاريخ الخلافة الراشدة وخاصة أيام الفتنة وردحاً من بدايات الخلافة في عهد الأمويين حتى أن البعض يعتبره مؤرخاً [انظر ما كتبه الدكتور الدورى - عبد العزيز - في كتابه (بحث في نشأة علم التاريخ) فهو يعتبر الزهري (١٢٤ هـ) مؤرخاً ومختصاً بالمعازى (ص ٢١) وليس الرجل متهولاً في ذلك فللمسألة أصل معتمد فقد قال الطبرى رحمة الله: كان الزهري مقدماً في العلم بمعازى رسول الله ﷺ وأخبار قريش والأنصار راوية لأخبار رسول الله ﷺ وأصحابه [الم منتخب من كتاب ذيل المذيل / ٩٧].

ولابد لنا من دراسة المدارس التاريخية في المدن الإسلامية في القرنين الأول والثاني ومعرفة عدد من رواد ومنظري هذه المدارس [مدرسة المدينة] [مدرسة الشام] [مدرسة العراق] [مدرسة مصر].

أ— مدرسة المدينة :

١ - عروة بن الزبير : توفي سنة ٩٤ هـ المحدث الفقيه بل أحد الفقهاء السبعة في المدينة يومها قال الحافظ ابن حجر في ترجمته ثقة فقيه مشهور من الثانية مات سنة ٩٤ على الصحيح ومولده في أوائل خلافة عمر الفاروق [تقريب/٥١٣١].
أول من ألف في المغازي ^(١).

٢ - أبان بن عثمان بن عفان : توفي (سنة ١٠٥ هـ) وهو ثقة من الثالثة [تقريب/١٦٣].

٣ - سعيد بن المسيب : توفي سنة ٩٤ هـ وهو نسابة مؤرخ فقيه ^(٢).

٤ - محمد بن مسلم بن شهاب الزهرى : (٥٠ - ١٢٤ هـ) ويعتبره بعضهم مؤسساً لمدرسة التأريخ في المدينة والشام ^(٣).

وقال آخرون صاحب دراسات وأبحاث في التاريخ والفقه والحديث ^(٤).

ومن خلال تخييرنا لروايات الزهرى التأريخية عند الطبرى وغيره وجدنا اهتمامه بالسيرة والمغازي ثم بأحداث الفتنة في عهد الخلفاء الراشدين وصلح سيدنا الحسن مع سيدنا معاوية رضي الله عنهم أجمعين بالإضافة إلى اهتمامه بأعمار الخلفاء من بعدهم وسني حكمهم.

وهؤلاء وغيرهم نواة لمدرسة المدينة وهم متاثرون بشكل أو باخر بمرويات عبد الله بن عباس (فيما يتعلق بالمغازي) وغيره من الصحابة فعبد الله بن عباس اشتهر بالتدريس فيما يتعلق بكافة العلوم ومنها المغازي والسير وقد ورد ذكره في أسانيد الطبرى في أكثر من (٢٨٠) موضعاً. ومن تلاميذه الكبار (سعيد بن المسيب ، عروة بن الزبير ، وهب بن منبه ... إلخ) وكريب بن أبي مسلم مولى ابن عباس الذي كان يحتفظ بصحف ابن عباس وكتبه ^(٥).

(١) شاكر مصطفى [التاريخ العربي والمؤرخون / ١٥٢].

(٢) المصدر السابق [١٥٢].

(٣) المصدر السابق [١٥٧].

(٤) مجلة المجمع العلمي العراقي (١٩٥٤ هـ).

(٥) الطبقات الكبرى (٢١٦/٥).

ب - مدرسة الشام :

- ١ - الأوزاعي : (عمرو بن عبد الرحمن) توفي سنة ١٠٧ هـ إمام في الحديث والمغازي والسير .
- ٢ - عوانة بن الحكم الكلبي : (توفي سنة ١٤٧ هـ) عاش العقود الأخيرة من عهد الأمويين ثم ما يقرب من عقدين أيام الخلافة في عهد العباسين .
- ويعتبره الأستاذ شاكر مصطفى صاحب فضل على التاريخ الإسلامي فيقول : ونحن ندين لعوانة هذا بتسمية علم التاريخ فهو صاحب أول كتاب تاريخي يحمل اسم (كتاب التاريخ) في الإسلام وقد كتب كذلك سيرة معاوية وبني أمية ولكن الكتابين فقدا ولم يبق منها إلا ما تناول لدى المدائني وابن الكلبي والطبرى وغيرهم^(١) .

وقد أكثر الكلبي والمدائني وابن عدي (الهيثم) من مرويات عوانة ومن كتبهم أخذ الطبرى مرويات عوانة .

- ٣ - عبيد بن شريعة الجرهمي : اليماني الأصل ، الشامي المتزوج ، وهو مخضرم استدعاه أمير المؤمنين معاوية ليدون ما لديه من الأنساب والأخبار^(٢) .

ومن قبل هؤلاء شارك عروة بن الزبير والزهري في تأسيس مدرسة الشام التاريخية وإن كانوا مدنيين فقد ترددوا بين الحجاز والشام وإن كان الزهري أكثر تواجداً في الشام بل قضى عقوده الأخيرة هناك حتى توفاه الله تعالى في أواخر خلافة أمير المؤمنين هشام بن عبد الملك رحمه الله تعالى .

ج - مدرسة مصر في التاريخ :

إن لأهل الحديث فضلاً كبيراً في تدوين التاريخ الإسلامي وبين الأمويين روابط من الإسناد والتراجم وعلم الرجال والطبقات وما إلى ذلك فكما أن المحدث عروة بن الزبير ومن بعده الزهري المحدث قد شاركا في تشكيل نواة مدرسة التاريخ في المدينة . فإن أئمة الحديث في مصر لهم الفضل الكبير في

(١) التاريخ العربي والمؤرخون (١٢٨).

(٢) الفهرست لابن النديم (٨٩) [مروج الذهب / ٤ / ٩٠].

إنشاء مدرسة التاريخ هناك: ومنهم الإمام الليث بن سعد المصري وهو ثقة ثبت فقيه إمام مشهور من السابعة ت ١٧٥ هـ أخرج له الستة وله مرويات في التاريخ عند الطبرى وغيره ولعل أقدم مصدر من المصادر التاريخية لمصر هو كتاب فتوح مصر لابن عبد الحكم القرشي المصري الذي توفي سنة ٢٧٦ هـ^(١).

د- مدرسة العراق :

١ - لعل الإمام عامر بن شراحيل الشعبي (المتوفى سنة ١٠٣ هـ) الكوفي من مؤسسي مدرسة العراق في التاريخ وشهد أحاديث جساماً طبعت في ذاكرة التاريخ منها الصلح بين سيدنا الحسن وأمير المؤمنين معاوية رضي الله عنهمَا وشارك في وقعة دير الجماجم فيما سمى بحركة ابن الأشعث أيام الحجاج ومن قبله شهد الأضطرابات التي وقعت في العراق أيام موت يزيد بن معاوية - في العقد السادس من القرن الهجري الأول -.

وأخرج له الطبرى في تاريخه في أكثر من (١٠٠) موضع وتمتد مروياته من قصص الأنبياء وحتى أحداث نهاية القرن الهجرى الأول.

٢ - سيف بن عمر التميمي (ستتحدث عنه بعد قليل).

٣ - قحذم بن سليمان (المتوفى سنة ١٥٨ هـ) كان يعمل كاتباً للخراج في ولاية يوسف بن عمر الثقفي على العراق وأكثر عنه خليفة من طريق حفيده (الوليد بن هشام بن قحذم) ونقل عنه الطبرى ولكن بروايات قليلة جداً لا تعدو عدد أصابع اليد.

وهنالك آخرون بعضهم أكثر أهمية وشهرة من قحذم شاركوا في بناء مدرسة العراق التاريخية في القرن الثاني الهجرى سنذكرهم بعد قليل عند حديثنا عن الإخباريين.

هـ- مدرسة اليمن :

١ - دغفل بن حنظلة الشيباني النسابة المخضرم - يروي ابن حبيب أنه شارك

(١) المدخل إلى التاريخ الإسلامي ١٧٦.

في تأديب يزيد بن معاوية بن أبي سفيان^(١).

٢ - عبيد بن شريعة الجرمي سبقت ترجمته في الحديث عن مدرسة الشام.

٣ - وهب بن منبه الدمشقي توفي سنة ١١٤ هـ.

وقد روى تلاميذه عنه المغازي قصص الأنبياء وتاريخ اليمن القديم^(٢).

الأخباريون [الثقات وغير الثقات]:

الأخباري لفظة دون المؤرخ أو قبله زماناً ومنصباً - فالناس أطلقوا هذه التسمية على من جمع الأخبار في أيام العرب والقصص الغابرة ثم الفتوح وهم طلائع التأليف التاريخي عند المسلمين^(٣) وسمى من كتب في غزوات النبي ﷺ وسيرته بصاحب المغازي والسير ومن كتب في أنساب العرب بالنسبة ثم تراجع الأخباري عندما بدأ التصنيف والتبويب فأصبح اسماً فقط على راوي القصص والنواذر والحكايات^(٤).

وقد اشتهر في سماء التدوين أئمة أعلام حفظوا لنا التاريخ الإسلامي وأئمة أعلام حفظوا لنا السيرة النبوية الشريفة واشتهر آخرون كذلك كأصحاب روايات ولكن لطخوا التاريخ الإسلامي وشوهوه كالتحالف الهالك أبي مخنف ومنهم من لم ينسب إلى الكذب أو الوضع ولكن إلى الضعف كسيف بن عمر ومنهم من نسب إلى الكذب حتى ترك كالواقدي والهيثم بن عدي والكلبي وسنذكر ترجمة مختصرة لكل واحد منهم وعدد مروياتهم في تاريخ الطبرى.

١ - لوط بن يحيى (أبو مخنف) الكوفي :

أخرج له الطبرى في أكثر من (٣٠٠) موضع ابتداء بخبر سقيفةبني ساعدة وانتهاء بأحداث سنة (١٣٢) هـ ودخول الحسن بن قحطبة إلى الكوفة بعد هرب عاملها ابن هبيرة (من قبل الأمويين).

وبعد سير لرواياته عميق ومن خلال تخریجنا لروايات الطبرى وجدهنا بارعاً

(١) المعجم (٤٧٨).

(٢) التاريخ والمؤرخون (١٣٨).

(٣) المدخل إلى التاريخ الإسلامي (١٢٩).

(٤) الإمام الطبرى - د. محمد الزحيلي / ٢٠٢ .

في التلخيص وتزوير الحقائق والطعن في عدالة الصحابة وتشويه سمعتهم ولعل روایة واحدة أو روایتين من مروياته وجدت لها مكاناً في قسم الصحيح من بحثنا هذا وإليك أقوال العلماء فيه: قال ابن عدي شيعي محترق صاحب أخبارهم [الكامل ٦ / ٩٣ / ١٦٢١] [وقال الذهبي أخباري تالف لا يوثق به تركه أبو حاتم وغيره وقال ابن معين ليس بشيء [ميزان مع ذيل الميزان/ تر ٧٤٥١].

٢ - سيف بن عمر التميمي: (توفي سنة ١٨٠ هـ) وهو كوفي أخباري بدأ حياته العلمية بالمدينة ثم سافر إلى العراق واشتهرت مروياته في الردة والفتورات ووقة الجمل - ونقل عنه الطبرى (٣٠٠) موضع أو يزيد قال ابن حبان يروى الموضوعات عن الأنبياء وقال الذهبي في ترجمته: مصنف الفتوح والردة وغير ذلك هو كالواقدى.

وقال ابن عدي: عامة حديثه منكر ، وقال أبو حاتم: متزوك ، وقال أبو داود: ليس بشيء ، وقال ابن حجر في التقريب: ضعيف في الحديث عمدة في التاريخ من الثامنة مات في زمان الرشيد.

وعقب المحرر ان (الشيخ شعيب والدكتور بشار) على قول الحافظ (ضعيف الحديث عمدة في التاريخ) بقولهما: بل متزوك فحديثه ضعيف جداً... وحتى أخباره في التاريخ ليست بشيء فقد قال أبو حاتم الرازي متزوك يشبه حديثه حديث الواقدى وقال البرقاني والدارقطنی متزوك [تقریب التهذیب/ تر ٣٠١٥] [المجموعین ١ / ٣٤٥] ، [ميزان الاعتدال مع ذيل الميزان/ تر ٣٩٨٩] ، [تحرير التقریب/ تر ٢٧٢٤].

٣ - محمد بن إسحاق إمام المغازي: (ت ١٥١ هـ) كتب كتاباً في الخلفاء بالإضافة إلى سيرته المشهورة وقد أكثر الطبرى من إخراج روایاته فزادت على (٣٥٠) روایة معظمها في السيرة النبوية الشريفة وهو حسن الحديث إذا صرّح بالتحديث والله أعلم.

٤ - محمد بن السائب الكلبي وابنه هشام أما الأب فقد توفي سنة ١٤٦ هـ وله في تاريخ الطبرى (١٦) روایة وهو نسبة متشيّع وقد أخذ عنه ابنه هشام الذي

توسّع أكثر من أبيه بالأخبار والتاريخ وألف في ذلك كله فقائمة كتبه قرابة (١٥٠) كتاباً^(١).

وقد روى له الطبرى في (٢٨٠) موضعًا من تاریخه.

وقال الدكتور جواد علي : لقد كان جلّ اعتماد الطبرى في أخبار العرب قبل الإسلام على مؤلفات ابن الكلبى ، وقال أيضاً :

أما ابن الكلبى . . . هو وأبوه في طليعة من عُنوا بجمع أخبار الجاهلية وتدوينها ومن طريقهما عرفنا أموراً عن العرب قبل الإسلام لم يذكرها غيرهما من الأخباريين ، بالرغم من نواحي الضعف التي تظهر عليها ، وبالرغم مما رمي به من الكذب والتزوير ، والحق أننا نجد في روایاتهما ، وخاصة روایات هشام. تناقضًا غريباً في بعض الأحيان يُستغرب صدوره من رجل له علم ومعرفة وتميز في الأمور^(٢).

ومحمد بن السائب الكلبى ترجم له أئمة الجرح والتعديل وذكروا مختلف الأقوال فيه وخلاصة القول فيه ما قاله ابن حجر في ترجمته : النسابة المفسر متهم بالكذب ورمي بالرفض من السادسة مات سنة ١٤٦ هـ [تقريب/٦٦٢٤].

وأما ابنه هشام الكلبى فقد قال الذهبي في ترجمته : الأخباري النسابة العلامة قال الدارقطني وغيره متروك وقال ابن عساكر راضي ليس بثقة وقال أحمد إنما كان صاحب سمر وتسَبَّ ما ظنت أن أحداً يحدث عنه وقال الذهبي في نهاية ترجمته وهشام لا يوثق به وقيل إن تصانيفه أزيد من مئة وخمسين مصنفاً مات سنة ٢٠٤ هـ [ميزان الاعتدال مع ذيل الميزان/٩٧٣٧].

٥ - أبو عشر السندي : (توفي سنة ١٧٠ هـ) واسمه نجح بن عبد الرحمن وأخرج له الطبرى في (١٠٩) مواضع من تاریخه وهو ضعيف من الطبقة السادسة أخرج له الأربع [تقريب/٧٩٩٤].

وقال أحمد حدیثه عندي مضطرب لا يقيم الإسناد ولكن أكتب حدیثه أعتبر به [العلل / ١٣٥].

(١) التأريخ والمؤرخون (١٩١).

(٢) مدخل إلى التأريخ الإسلامي / ٦٨٦ / نقلًا عن مجلة المجمع العلمي العراقي ١٩٥٢.

وقد أخذ الواقدي من مغازيه وأخذ ابن سعد ، بينما أخذ الطبرى عن التاريخ [يعنى تاريخ الخلفاء - على الحوليات] حتى توقف سنة ١٧٠ هـ^(١).

٦ - محمد بن عمر الواقدي : (١٣٠ - ٢٠٧ هـ) نشأ في المدينة وأخذ العلم فيها ثم انتقل إلى العراق حتى توفي فيها.

أخرج الطبرى من روایاته فيما يقرب من (٣٠٠) موضع .

وهذه أقوال أئمة الجرح والتعديل فيه :

قال أحمد بن حنبل : هو كذاب يقلب الأحاديث ، وقال البخاري : متروك ، وقال أبو حاتم والنسائي : يضع الحديث ، وقال ابن عدي : أحاديثه غير محفوظة والباء منه وقال الذهبي : أحد أوعية العلم على ضعفه ، وقال الذهبي في نهاية ترجمته : واستقر الإجماع على وهن الواقدي ، وقال ابن حجر : متروك مع سعة علمه من التاسعة [تقريب/تر ٦٩٥١] ، [ميزان الاعتدال مع ذيل الميزان/تر ٨٤٥٧] ، [الكامل/٦/٢٤١/تر ١٧١٩] ، [التاريخ الصغير/٢/٣١١] ، [الجرح والتعديل/٨/٢٠].

ثم ظهرت في نهاية القرن الأول الهجري وبداية القرن الثاني الهجري طبقة من الأعلام ما بين أخباري ومؤرخ نذكر منهم على سبيل المثال لا الحصر [المدائني ١٣١ - ٢٢٥ هـ] ، [ابن سعد ١٦٨ - ٢٣٠ هـ] ، [خليفة بن خياط ٢٤٠ هـ] ، [عمر بن شبة النميري ١٧٢ - ٢٦٢ هـ] ، ولقد أدرك الطبرى رابعهم وهو عمر بن شبة ومن طريقه أخذ مرويات المدائني ومن طريق شيخه الحارث بن محمد أخذ مرويات ابن سعد في طبقاته الكبرى - وهذه نبذة مختصرة عن ثلاثة من هؤلاء الأعلام ودورهم في تطوير علم التاريخ عند المسلمين الأوائل :

١ - علي بن محمد (أبو الحسن المدائني) (١٣١ - ٢٢٥ هـ) :

اعتبره الأستاذ شاكر مصطفى قمة الطور الأخباري السابق للتاريخ^(٢) وأخرج الطبرى من مروياته في أكثر من (٣٠٠) موضع وهذه أقوال العلماء فيه :

(١) التاريخ العربي والمؤرخون (٦٣).

(٢) المصدر السابق (١٨٦).

قال ابن معين : ثقة ثقة ثقة ، وقال الطبرى : كان عالماً بأيام الناس صدوقاً في ذلك ، وقال الذهبي : العلامة الحافظ الصادق الأخباري وقال أيضاً صدوق [سير أعلام النبلاء ٤٠١ / ١٠] ، [ميزان الاعتدال ٣ / ١٥٣] ، [تأريخ بغداد ٥٥ / ١٢].

وقد كثرت مروياته عند الطبرى وخاصة في تاريخ الخلافة على عهد الأمويين ثم العصر العباسي الأول - ولقد حصل الطبرى على كتابه من طريق اثنين من شيوخه الثقات [عمر بن شبة وأحمد بن زهير بن حرب]. وهم من تلاميذ المدائني مع غيرهما كالزبير بن بكار وقال أحمد بن أبي خيثمة : كان أبي وابن معين ومصعب الزبيري يجلسون على باب مصعب فمرّ رجل على حمارٍ فاره وبزة حسنة فسلم وخص بسلامه يحيى فقال له يا أبو الحسن إلى أين . . . إلخ فلما ولّى قال يحيى : ثقة ثقة ثقة ، فسألت أبي من هذا؟ فقال : هذا المدائني [ميزان الاعتدال / تر ٦٣٦٧].

وقال شاكر مصطفى [وقد اتبع المدائني في المنهج التأريخي طريقة المحدثين في نقد الروايات وإثبات الإسناد مما أعطاه لوناً من الثقة لدى الناس كما نظم المادة الواسعة التي وقعت له تنظيمًا متوازناً خدم التأليف التأريخي وكان بذلك كلّه خطوة هامة في تطور عملية التاريخ ما أضحت المصدر الرئيسي للمؤرخين التاركين^(١).]

وقال الدكتور الدوري : وتصل دراسات الأخباريين قمتها عند المدائني (١٣٥ - ٢٢٥ هـ) وهو بصري استقرَّ بعدئذ في بغداد ويظهر أثر الإسناد عليه أقوى من سبقه نتيجة للتطورات الثقافية ويظهر عنده الاتجاه نحو جمع أوسع وتنظيم أوثق للروايات التاريخية . . . ويمثل المدائني درجة أعلى من أسلافه في البحث والدقة [بحث في نشأة علم التاريخ / ٣٩].

٢ - محمد بن سعد البصري الزهري (كاتب الواقدي) (١٦٨ - ٢٣٠ هـ) :

يعتبر الإمام المحدث الثقة ابن سعد رائداً من رواد كتابة التاريخ بنظام الطبقات لا الحوليات وقد بدأ بالسيرة النبوية الشريفة في كتابه الطبقات الكبرى ثم الصحابة ومن تلاميذه من التابعين ومن بعد هؤلاء - وكان دقيقاً في كل طبقة فقد

(١) التاريخ العربي والمؤرخون (١٨٨).

ذكر الصحابة حسب أسبقيتهم ثم هجرتهم أو نصرتهم ، ثم مشاركتهم في معركة بدر... إلخ مما هو معروف من طبقات الصحابة وخصص جزءاً من طبقاته لأعلام النساء [صحابيات وغيرهن].

قلت : وإن كان معاصره خليفة بن خياط قد ألف كتاباً عرف باسم طبقات خليفة^(١) إلا أن ابن سعد رحمة الله فاق خليفة وغيره من جاؤوا من بعدهما فقد ميّز خليفة بين تسجيله الحولي لأحداث التاريخ وبين الطبقات بينما استطاع ابن سعد أن يمزج بين الطبقات مميزة الواحدة عن الأخرى وبين تاريخ الأحداث وتفاصيلها مستندة بطريقة أهل الحديث ولقد رد الأستاذ أكرم ضياء العمري قول من وصف الطبقات بأنها جلّها من طريق الواقدي المتروك وبين أن ابن سعد أخرج روایات كثيرة من غير طريق الواقدي ، والباحث المنصف يتبيّن له ذلك .

يقول الأستاذ أكرم ضياء العمري :

ولكن من الإجحاف لابن سعد أن نقتصر بقول ابن النديم عنه أنه صنف كتبه من تصنیفات الواقدي ، لأن ابن سعد استقى من مصادر أخرى كثيرة حتى بلغ عدد شيوخه في الطبقات الكبرى أكثر من ستين شيئاً معظمهم من المحدثين ويزيد ما نقله عن أبي نعيم الفضل بن دكين وعفان بن مسلم وعبد الله بن موسى العبسي ومن بن عيسى الأشعري مجتمعين على ما نقله عن الواقدي فكيف وقد نقل عن غيرهم أيضاً ! وبذلك يتضح ما في اتهام ابن النديم له من مجازفة وبعد عن الحق [عصر الخلافة/١٢] ، [وأشار العمري في الحاشية إلى رسالة جامعية بعنوان خلافة أبي بكر الصديق لعبد العزيز بن سليمان المقبل / ص ١٧] .

٣ - خليفة بن خياط العصيري (شباب) :

قال الذهبي في ترجمته : الحافظ الإمام أبو عمرو العصيري البصري المعروف بشباب محدث نسبة إبخاري عالمة صنف التاريخ والطبقات ... قال ابن عدي مستقيماً الحديث صدوق من متيقظي الرواة [تذكرة الحفاظ ٤٣٦/٢].

وقال الذهبي أيضاً لينه بعضهم بلا حجة - وقال أيضاً : حدث عنه البخاري

(١) اعتبر شاكر مصطفى خليفة وابن سعد أقدم من قسم رجال الطبقات على أمصارهم المصدر السابق / ص ٢٣٦.

بسعة أحاديث أو أزيد في صحيحه وكان صدوقاً نسابة عالماً بالسير والأيام والرجال وثقة بعضهم وقال ابن عدي هو صدوق [سir أعلام النبلاء ٤٧٣/١١].

وقال ابن حجر في التهذيب [١٦٠/٣]: ذكره ابن حبان في الثقات وقال: كان متقدناً عالماً بأيام الناس وأنسابهم . . . قلت لم يحدث عنه البخاري إلا مقولوناً وإذا حدث عنه لمفرده علق أحاديثه وقال مسلمة الأندلسى لا يأس به أهـ.

وقال أبو حاتم لا أحدث عنه هو غير قوي [الجرح والتعديل ٣٧٨/٣] وقال ابن حجر في التقريب [تر ١٩٠٩] صدوق ربما أخطأ وكان أخبارياً عالمة من العاشرة مات سنة ٢٤٠ هـ/خ ١هـ.

وقد اعتبره شاكر مصطفى من طليعة المؤرخين الكبار والذي ظهر في وقت مبكر^(١).

و ضمن هذه الطبقة التي سبقت ظهور المؤرخين الكبار أئمة آخرون يطول ذكرهم ذكرنا بعضهم ضمن شيوخ الطبرى في التاريخ.

النصف الثاني من القرن الهجرى الثالث وظهور المؤرخين الكبار أو العمالة:

قال الأستاذ عبد العزيز الدورى: وقد شهد النصف الثاني للقرن الثالث الهجرى ظهور مؤرخين لاتحدهم مدرسة ولا اتجاه سابق بل حاولوا أن يستفيدوا من مواد السيرة ومن كتب الأخباريين والأنساب والمصادر الأخرى المتيسرة وشملت دراستهم الأمة بصورة منتظمة وكان عملهم في انتقاء المادة بعد النقد والفهم عاماً أو عالماً^(٢).

ويقول الأستاذ محمد الزحيلي: وفي القرن الثالث الهجرى استوى علم التاريخ على سوقة^(٣).

ويقول الأستاذ شاكر مصطفى: من نسمائهم بالمؤرخين الكبار هم طبقة كاملة من مؤرخي النصف الثاني من القرن الثالث كانوا النهاية الطبيعية لخط من التطور

(١) التاريخ العربى والمؤرخون / ٢٣٤.

(٢) نشأة التاريخ / الدورى.

(٣) الإمام الطبرى / أعلام المسلمين / ص ٢٠٣.

المستمر أصاب علم الأخبار وما يتصل به خلال أكثر من قرنين^(١).

وستذكر ضمن هذه الطبقة على سبيل المثال لا الحصر أربعة من المعاصرين لبعضهم البعض وهم [يعقوب بن سفيان البسوبي ٢٧٧ هـ] ، [اليعقوبي أحمد بن إسحاق ٢٩٢ هـ] ، [البلادري أحمد بن يحيى ٢٧٩ هـ] ، وأخيراً [الطبرى محمد بن جرير) ٣١٠ هـ].

١ - يعقوب بن سفيان البسوبي الهمذاني الفارسي توفي سنة ٢٧٧ هـ عن بضع وثمانين سنة قال الذهبي في ترجمته: الحافظ الإمام الحجة وقال ابن عمار الحنبل في ترجمته: أحد أركان الحديث: وقال الحكم النيسابوري: إمام أهل الحديث بفارس [وقال ابن حجر ثقة حافظ من الحادية عشرة [تقريب/تراث ٨٨٦] ، [تذكرة الحفاظ ٥٨٢/٢] ، [شذرات الذهب ١٧١/٢] ، [البداية والنهاية ٦٠/١١].

وقال الأستاذ العمري في مقدمة تحقيقه لكتاب المعرفة والتاريخ [١٩/١] وتدلّ مؤلفات يعقوب على أنه كان معانياً بالحديث وعلم الرجال والتاريخ والعقائد والرقائق وكان متقدناً في علمه واسع الاطلاع حتى ذكر أبو زرعة الدمشقي أن يحيى ابن معين كان ينتخب منه في التاريخ ١ هـ.

قلت وكعادة الأئمة الكبار فإن البسوبي أكثر من الرحلة في طلب العلم ويكتفى دلالة على ذلك ذكر أسماء المدن والبلدان التي زارها طلباً للعلم [دمشق - حمص - فلسطين - مصر - مكة - العراق - ثم مصر وأخيراً العراق].

وقد اشتهر يعقوب بن سفيان البسوبي بكتابه الضخم «المعرفة والتاريخ» وقد فقد منه جزء غير يسير والباقي مرتب على السنين ابتداءً من سنة ١٣٦ هـ وإلى حوادث سنة ٢٤٢ هـ. ويلحقه قسم يتناول تراجم الصحابة والتابعين.

وقد شرح الأستاذ العمري أهمية الكتاب وموارده التاريخية وثناء العلماء عليه واقتباسهم منه ومنهم الخطيب وابن عساكر والذهبي وغيرهم وانظر لزاماً كتاب «المعرفة والتاريخ» تحقيق العمري من ص ٧ وإلى ص ٥٧.

(١) التأريخ العربي والمؤرخون / ٢٠٢.

٢ - اليعقوبي: أحمد بن إسحاق ٢٩٢ هـ: من أشهر من كتب في التاريخ الموضوعي لا على الترتيب الحولي - ولكنه لم يعتمد الإسناد في روایاته بل اكتفى بذكر الكتب التي اطلع عليها إجمالاً - وهو من يعبر عن فكرة التاريخ العالمي.

والعيوب في اليعقوبي أنه مؤرخ منحاز لم يستطع أن يحافظ على الحياد المطلوب كما فعل الطبرى رحمه الله وكما سنبين في موضعه وقد كثرت الدراسات الحديثة حول المؤرخين المتقدمين ونذكر هنا رأي أستاذين كبيرين من أساتذة التاريخ في اليعقوبي هذا ، الأول هو الأستاذ عبد العزيز الدوري إذ يقول فيه: [فهو في حديثه عن الراشدين والأمويين يظهر ميلاً علويّةً أحياناً ويسلّب في ذكر أقوال الأئمّة وخطبهم ويعطي سيرهم عند ذكر وفياتهم ولعلنا نكون أدق إن قلنا إن وجهة نظره إمامية^(١) .]

وأما المؤرخ الثاني الذي خبر روایاته وأبدى رأيه فيها فهو الأستاذ أكرم غباء العمري إذ يقول في اليعقوبي: مؤرخ شيعي إمامي ويقول أيضاً: ويتسم بالانحياز العقدي من ناحية أخرى^(٢) .

٣ - البلاذري (أحمد بن يحيى) ٢٧٩ هـ:

قال عنه الذهبي صاحب التاريخ المشهور من طبقة أبي داود السجستانى حافظ أخباري علامه [تذكرة الحفاظ ٨٩٢/٣] اشتهر بكتابه الق testim فتوح البلدان - وأنساب الأشراف والحق يقال فإن أنساب الأشراف سفر تاريجي عظيم بلبوس الأنساب كما قال الأستاذ الدوري^(٣) :

أما كتاب أنساب الأشراف فهو كتاب عام في التاريخ الإسلامي في إطار الأنساب وهو يمثل مزيجاً فدّاً في الخطبة والمادة ، فخطبه تجمع بين أساليب كتابة كتب الطبقات وكتب الأخبار وكتب الأنساب .

ويقول الأستاذ العمري :

ويعدّ البلاذري أبرز المؤرخين المسلمين بعد الطبرى من حيث سعة

(١) نشأة علم التاريخ عند العرب للدوري / ٥٣ .

(٢) عصر الخلافة الراشدة / ١٦ - العمري .

(٣) نشأة علم التاريخ عند العرب للدوري / ٤٩ .

المعلومات التي دونها والفترات التاريخية التي غطاها لكن كتابه (أنساب الأشراف) أحسن انتقاء للروايات وأنقى للأسانيد وأكثر اتفاقاً مع روايات أهل الثقة والصدق من تاريخ الطبرى^(١).

قلت: ويعتبر البلاذري قمة التطور في علم الأنساب بدأ بالنسبة أبي اليقطان ١٩٠ هـ ثم هشام الكلبي (٢٠٤) والهيثم بن عدي (٢٠٦ هـ) ومصعب الزبيري (٢٣٣ هـ) وأخيراً البلاذري (٢٧٩ هـ) وهؤلاء يشكلون المحطات البارزة ولا يعني أن غيرهم لم يكن له دور في سلم التطور التاريخي هذا بل هم كثيرون.

٤ - الإمام المؤرخ المحدث المفسر محمد بن جرير (أبو جعفر) الطبرى ٢٢٤ هـ - ٣١٠ هـ:

عصره: عاش الإمام الطبرى رحمة الله تعالى في ظل الخلافة الإسلامية على عهد العباسين ولم يتجاوز السابعة من عمره حتى انتهى عصر القوة العباسى وبدأ ما يسميه المؤرخون العصر العباسى الثاني.

كان عصر الطبرى من الناحية السياسية عصر خلاف ونزاع على السلطة المركزية بين اتجاهات مختلفة.

وفي الوقت نفسه كان عصر ازدهار علمي بكل ما تعنيه الكلمة وكان سوق التبوب والتصنيف رائجاً حتى أن الحكماء على اختلاف نزعاتهم كانوا يتوددون إلى العلماء ويتنافسون على دعمهم وتقربيهم من مجالسهم.

ولقد عاش الطبرى رحمة الله سبعة عقود (أو أقل) من عمره في القرن الثالث الهجري وعقده الأخير في مطلع القرن الرابع.

ويعتبر الباحثون القرن الثالث الهجري قرن المؤرخين الكبار أو العمالقة الذين مثلوا قمة النضج في كتابة التاريخ سواء كان بطريقة الحواليات أو مرتبأ حسب الحوادث السياسية أو على شكل طبقات أو أنساب... إلخ.

وهذه أسماء أبرزهم:

١ - ابن قتيبة الدينوري ت ٢١٣ هـ [صاحب كتابي عيون الأخبار والمعارف].

(١) عصر الخلافة الراشدة / ١٣ .

- ٢ - ابن سعد صاحب الطبقات الكبرى ت ٢٣٠ هـ.
 - ٣ - خليفة بن خياط صاحب التاريخ ت ٢٤٠ هـ.
 - ٤ - أحمد بن إسحاق اليعقوبي ت ٢٩٢ هـ.
 - ٥ - يعقوب بن سفيان البسوبي ت ٢٧٧ هـ.
 - ٦ - الطبرى صاحب تاريخ الأمم والملوك ت ٣١٠ هـ.
- نشاته وطلبه للعلم ورحلاته :

يقول الطبرى رحمه الله : حفظت القرآن ولی سبع سنين وصليت بالناس وأنا ابن ثمانى سنين وكتبت الحديث وأنا ابن تسع سنين^(١) ولقد بدأ الطبرى طلب العلم منذ سن مبكرة في مدينة آمل بطبرستان ثم الري حيث شيخه ابن حميد الرازى - وقد أرخ العلماء بسنة ٣٦ هـ كبداية لطلبه العلم وكان عمره يومها (١٢) عاماً^(٢).

يقول تلميذه ابن كامل : [فأول ما كتب الحديث بيده ثم الري وماجاورها ، وأكثر من الشیوخ حتى حصل كثيراً من العلم وأكثر عن محمد بن حميد الرازى وعن المثنى بن إبراهيم الأملى وغيرهما]^(٣).

ويقول الطبرى : [كنا نمضي إلى أحمد بن حماد الدولابي وكان في قرية من قرى الري بينها وبين الري قطعة ثم نجدو كالمجانين حتى نصير إلى ابن حميد فنلتحق مجلسه]^(٤).

والدولابي مشهور بالمعاذي والسير وله كتاب (المبتدأ والمعاذي) وهذا يعني أن الاهتمام بالتاريخ قد شغل بالطبرى جنباً إلى جانب مع التفسير والحديث.

وتقول المصادر : إن الطبرى قد اشتاق لرؤية الإمام الجليل أحمد بن حنبل في بغداد مدينة العلم ، فشد الرحال ولكن الوفاة عاجلت الإمام أحمد فدخلها الطبرى وقد توفي أحمد رحمه الله تعالى وذلك في سنة (٢٤١) هـ.

(١) معجم الأدباء : ٤٣٠ / ٦ .

(٢) لسان الميزان نقلاً عن مسلمة بن القاسم [٥/١١٧ تر ٧١٢٩] .

(٣) معجم الأدباء : ٤٩ / ١٨ .

(٤) المصدر السابق . ٤٩ / ١٨ .

فجلس الطبرى برهة في بغداد يكتب عن شيوخها ثم ارتحل صوب البصرة . وسمع من أشهر شيوخها ثم إلى الكوفة ثم إلى الشام ثم إلى مصر ثم عاد إلى بلده (طبرستان سنة ٢٩٠ هـ ثم عاد عندها إلى بغداد ليستقر فيها ويدوّن فيها أروع أسفاره (في التفسير ثم التاريخ) ^(١) .

يقول الخطيب البغدادي : استوطن الطبرى بغداد وأقام بها إلى حين وفاته وكان أحد الأئمة الأعلام ^(٢) .

أقوال العلماء فيه وترجمتهم له :

قال الخطيب البغدادي : كان أحد الأئمة الأعلام يحكم بقوله ويرجع إلى رأيه لمعرفته وفضله وكان قد جمع من العلوم ما لم يشاركه فيه أحد من أهل عصره وكان حافظاً لكتاب الله عارفاً بالقراءات بصيراً بالمعاني فقيهاً في أحكام القرآن عالماً بالسنن وطرقها وصحيحها وسقيمها ونسخها ومنسوخها ، عارفاً بأقوال الصحابة والتابعين إلى أن يقول : عارفاً بأيام الناس وأخبارهم وله الكتاب المشهور في تاريخ الأمم والملوك وكتاب في التفسير لم يصنف أحد مثله وكتاب سماه تهذيب الآثار لم أر سواه في معناه إلا أنه لم يتمه ، وله في أصول الفقه وفروعه كتب كثيرة ^(٣) .

وقال الخطيب : حدثني محمد بن أحمد بن يعقوب قال أباينا محمد بن عبد الله النيسابوري الحافظ قال سمعت أبا بكر بن بالويه يقول : قال لي أبو بكر محمد بن إسحاق يعني ابن خزيمة - بلغني أنك كتبت التفسير عن محمد بن جرير؟ قلت : بل كتبت التفسير عنه إملاءً . قال كله؟ قلت : نعم . قال : في أي سنة؟ قلت : في سنة ثلاث وثمانين إلى سنة تسعين . قال فاستعاره مني أبو بكر فرده بعد ستين ثم قال : نظرت فيه من أوله إلى آخره وما أعلم على أديم الأرض أعلم من محمد بن جرير ^(٤) .

(١) معجم الأدباء : ٥٦ / ١٨ .

(٢) تاريخ بغداد (٢ / ١٦٢) .

(٣) المصدر السابق (٢ / ١٦٢) .

(٤) المصدر السابق (٢ / ١٦٤) .

وقال الإمام السبكي الإمام الجليل المجتهد المطلق أبو جعفر الطبرى من أهل آمل طبرستان أحد أئمة الدنيا علمًا وديناً ومولده سنة أربع أو خمس وعشرين ومئتين طوف الأقاليم في طلب العلم^(١).

وقال الحافظ الذهبي: الإمام العلم الفرد الحافظ أحد الأعلام وصاحب التصانيف من أهل آمل طبرستان أكثر التطواف^(٢).

وقال عبد الله بن أحمد السمسار قال ابن جرير لأصحابه: هل تنشطون لتأريخ العالم قالوا كم يجيء ذكر نحوًا من ثلاثة ألف ورقة فقالوا: هذا مما يفني الأعمار قبل تمامه فقال: إنا لله ، ماتت همم!! فأملاه في نحو ثلاثة آلاف ورقة ولما أراد أن يملئ التفسير قال لهم ذلك ثم أملأه على نحو من التاريخ^(٣).

وقال العلامة ابن خلkan: وكان ثقة في نقله وتاريخه أصح التواريХ وأثبتها^(٤).

وقال الحافظ ابن عساكر في ترجمة الطبرى: الإمام صاحب التصانيف المشهورة^(٥).

وذكر ابن عساكر بسنده الموصول إلى أبي سعيد بن يونس قوله: محمد بن جرير بن يزيد يكنى أبي جعفر طبرى من أهل آمل كان فقيهاً قدم إلى مصر قديماً سنة ثلاث وستين ومئتين وكتب بها ورجع إلى بغداد وصنف تصانيف حسنة تدلّ على سعة علمه وكانت وفاته ببغداد في العشر الأواخر من شوال سنة عشر وثلاثمائة^(٦).

وفاته: سبق أن ذكرنا قول من قال أنه توفي في سنة ٣١٠ هـ في شوال منها وذكر الخطيب البغدادي عن عيسى بن حامد بن بشر القاضي قال: مات محمد بن

(١) طبقات الشافعية الكبرى (٣/١٢٢).

(٢) تذكرة الحفاظ (٢/٧١٠).

(٣) تاريخ بغداد (٢/١٦٣) وتذكرة الحفاظ (٢/٧١٢) والذي في تاريخ بغداد أنه سألهم أولاً عن التفسير والله أعلم.

(٤) وفيات الأعيان [٤/١٩١].

(٥) تاريخ دمشق (٥٢/١٨٨) [٦١٦٠].

(٦) تاريخ دمشق (٥٢/١٩١).

جزير الطبرى يوم السبت بالعشى ودفن يوم الأحد بالغداة في داره لأربع بقين من
شوال سنة عشر وثلاثمائة^(١).

وقال الحافظ ابن كثير في ترجمة الطبرى: وكانت وفاته وقت المغرب من
عشية يوم الأحد ليومين بقيا من شوال من سنة عشر وثلاثمائة وقد جاوز الثمانين
سنة بخمس أو ست سنين^(٢).

وكذلك أرخ الحافظ الذهبي لوفاته سنة (٣١٠) هـ^(٣).

شيوخه في التاريخ [تراجم أهم شيوخه وأشهرهم] :

لقد أخذ الطبرى رحمة الله تعالى خلال رحلاته الطويلة والمتمدة من شيوخ
أجلاء من البصرة والكوفة وبغداد ودمشق ومصر - وهذه تراجم لبعض شيوخه في
التاريخ :

١ - أحمد بن حماد الدولابي :

من أوائل شيوخه في بلده طبرستان قبل أن يبدأ برحلاته البعيدة وهو صاحب
كتاب [المبتدأ والمغازي] وهو والد الدولابي صاحب الكنى والأسماء [تذكرة
الحفظ ٢/٢٩١] ، [الجرح والتعديل ١/٤٩].

وأحمد بن ثابت الرازي - فرخويه (راجع فرخويه).

٢ - أحمد بن زهير بن حرب (ابن أبي خيثمة) توفي ٢٧٩ هـ :

أخذ الرواية عن أحمد بن حنبل والمدائني - قال الخطيب - كان ثقة عالماً متقناً
حافظاً بصيراً بأيام الناس وقال : ولا أعرف أغزر فوائد من تأريخه وقال الفرغانى :
له معرفة بأيام الناس وأخبارهم وقال ابن أبي حاتم : كتب إلينا وهو صدوق [لسان
الميزان/تر ٥٦٣/٣٧٩] ، [الجرح والتعديل ٢/٥٧].

قلت : وقد روى عنه الطبرى في (٨٠) موضعًا من تاريخه.

(١) تاريخ بغداد (٢/١٦٦).

(٢) البداية والنهاية (٩/١٤).

(٣) ميزان الاعتدال (تر ٧١٩٠).

وهو يشكل حلقة وصل بينه وبين المدائني وكتبه - وأكثر مروياته تبدأ من أيام هشام بن عبد الملك إلى أحداث سنة ١٣٧ هـ..

٣- بشر بن معاذ العقدي البصري الضرير :

قال أبو حاتم صالح الحديث صدوق وقال ابن حجر صدوق من العاشرة مات سنة بضع وأربعين [الجرح والتعديل ٢/٣٦٨] ، [تقريب التهذيب / تر ٧٩٠].

٤- الحارث بن محمد بن أبيأسامة التميمي - صاحب المسند -:

قال الدارقطني : قد اختلف فيه أصحابنا وهو عندي صدوق وقال ابن حزم ضعيف ولتهن بعض البغدادية لكونه يأخذ على الرواية ، وذكره ابن حبان في الثقات وقال الذهبي : كان حافظاً عارفاً بالحديث عالي الإسناد تكلم فيه بلا حجة [ميزان الاعتدال ١/٤٤٢ / تر ١٦٤٤] ، [الثقات ٨/١٨٣] ، [سؤالات الحاكم للدارقطني ١١٤ / تر ٩١] ، [لسان الميزان ٢/٢٢٣٤].

قلت : وقد روى عنه الطبرى في أكثر من (١١٠) مواضع وأهميته بالنسبة للطبرى أنه حلقة الوصل بينه وبين صاحب الطبقات الكجرى ابن سعد.

٥- السرى بن يحيى التميمي الكوفى (أبو عبيدة) :

وهو ابن أخي الهناد بن السرى كان يراسل الطبرى وابن أبي حاتم وقد التقى الطبرى وأخذ عنه الطبرى مشافهة ولكن قليلاً وأغلب ما رواه عنه الطبرى بالمراسلة [وكتب إلى السرى قال :]. والسىرى هذا ترجم له ابن أبي حاتم وقال : لم يقض لنا السماع منه وكتب إلينا بشيء من حديثه وهو صدوق ، وذكره ابن حبان في الثقات وقال الدارقطنى صاحب كتاب الفتوح لسيف بن عمر [الثقات ٨/٣٠٢] ، [المؤتلف والمختلف ١٣٦٧] ، [الإكمال ٥/١٠].

وقد ذكره الأستاذ جواد علي في بحثه القى [موارد تاريخ الطبرى] الذي نشر في أعداد من مجلة المجمع العلمي العراقي قبل نصف قرن من الزمان - ولكنه لم ينصفه فقال : والظاهر من سكوت ابن النديم و أصحاب التراجم عن ذكر شعيب بن إبراهيم (شيخ السرى بن يحيى) والسىرى أنه لم يكونا من أصحاب التأليف وإنما كانوا من رواة سيف والظاهر أيضاً من تاريخ الطبرى أن كتب سيف كانت عند

السري بن يحيى وأن الطبرى قرأ أجزاء منها على السري وأخذ قسماً منها كتابة منه] ، [مجلة المجمع العلمي / ١٩٥٢].

قلت: أما شطر كلامه الأخير فصحيح لا غبار عليه أما قوله [سكت ابن النديم وأصحاب الترجم عن ذكر السري بن يحيى] غير صحيح فقد ذكره ابن حبان في الثقات كما ذكرنا قبل قليل وعده ابن أبي حاتم (وهو معروف بتشدده في الرجال) وقال عنه أنه صدوق وذكره الدارقطنی في المؤتلف والمختلف وقال صاحب كتاب الفتوح سيف بن عمر: وقد ذكر أصحاب الترجم أنه أخذ الرواية والحديث من قبيصة وأبي غسان وعثمان بن زفر ثم إن العدد (٢٤١) قليل بالنسبة لمروياته في تاريخ الطبرى فقد روى عنه.

٦ - عبيد الله بن سعد الزهرى: ثقة من الحادية عشرة توفي سنة ٢٦٠ هـ وله (٧٥) سنة أخرى له البخاري والنسائي والترمذى [تقريب/تر ٤٨٢٠] وأخرج له الطبرى (٤٥) رواية ويمثل عبيد الله هذا حلقة وصل أخرى بين الطبرى وبين مرويات سيف بالإضافة إلى السري.

٧ - عمر بن شبة النميري [صاحب كتاب تاريخ المدينة]:
الأخباري النحوى - نزيل بغداد - صدوق له تصانيف من كبار الحادية عشرة توفي سنة ٢٦٢ هـ وقد جاوز التسعين [تقريب التهذيب/تر ٥٥٢٦] وقال الخطيب في ترجمته ثقة [تاريخ بغداد/١١/٢٠٨].

وقال ابن حبان: مستقيم الحديث وكان صاحب أدب وشعر وأخبار ومعرفة بتأريخ الناس [الثقات / ٨ / ٤٤٦].

قلت: ولقد أخرج الطبرى عن شيخه هذا (عمر بن شبة) أكثر من مئتي رواية جلّها عن تاريخ الخلافة الإسلامية في عهد الأمويين وبداية العباسيين - وعمر بن شبة طريق آخر للطبرى للوصول إلى مرويات الأخباري المشهور المدائىي - .

٨ - عمرو بن علي الفلاس الباهلي البصري:
وثقه النسائي وقال الحافظ ابن حجر: ثقة من العاشرة توفي سنة ٢٤١ هـ [تأريخ بغداد/١٢/٢٠٧] ، [التقريب/تر ٥٧١٤].

٩ - فرخويه (أحمد بن ثابت) الرازي :

قال ابن أبي حاتم عن أبي العباس بن عبد الله الطهراني : لا يشكون أنه كذاب [ميزان الاعتدال / تر ٣١٤] ، [لسان الميزان / ٤٦١].

وقد أخرج الطبرى عنه في أكثر من (١٠٠) موضع وخاصة فيما يتعلق بحج الخلفاء أو من ينوب عنهم من الأمراء في كل سنة .
الطبرى في أكثر من (٤٠٠) موضع والله تعالى أعلم .

١٠ - محمد بن بشار (بندار) البصري : الحافظ أحد أعلام السنة قال أبو حاتم وغيره : صدوق وقال الذهبي : احتاج به أصحاب الصحاح كلهم وهو حجة بلا ريب وقال أيضاً : كان من أوعية العلم . . . روى عنه الأئمة السادة وابن خزيمة وابن صاعد والناس وقال العجلي : ثقة كثير الحديث وقال ابن حجر : ثقة من العاشرة توفي ٢٥٢ هـ وله بعض وثمانون سنة [تقريب / تر ٦٤٥٥] ، [ميزان الاعتدال / تر ٧٢٦٩] ، [الجرح والتعديل / ٢١٤ / ٧] ، [التفقات : ١١١ / ٩].

أخرج الطبرى من مروياته في (٣٦) موضعاً من تاريخه .

١١ - محمد بن حميد الرازي : أكثر عنه الطبرى في تاريخه فأخرج له في أكثر من (٤٢٠) موضعاً وهو ضعيف عند جمهور أئمة الحديث وتبدأ مروياته بالحديث عن بدء الخليقة وتكثر بصفة خاصة في السيرة النبوية الشريفة ومن بعد في تاريخ الخلفاء الراشدين .

قال البخاري : فيه نظر وقال يعقوب بن شيبة : كثير المناكير وكذبه أبو زرعة وقال صالح بن جرارة : كان يأخذ أحاديث الناس في قلب بعضه على بعض توفي سنة ٢٤٨ هـ .

١٢ - محمد بن العلاء الهمданى الكوفى الحافظ (أبو كريب) : توفي سنة ٢٤٨ هـ مشهور بكنيته ثقة حافظ من العاشرة مات سنة سبع وأربعين ومئتين وهو ابن سبع وثمانين سنة أخرج له السنة [تقريب / تر ٦٩٨٥] ، [الجرح والتعديل / ٥٢ / ٨].

أخرج الطبرى من طريقه روایات كثيرة متداولة بين العهود المختلفة .

١٣ - محمد بن المثنى بن عبد الله بن قيس العنزي البصري: ثقة ثبت من العاشرة وكان هو وبندار فرسي رهان وماتا في سنة واحدة أخرج له الستة [تقريب/ تر ٧٠٥٠] وقال الخطيب: كان ثقة ثبتاً احتج سائر الأئمة بحديثه [تأريخ بغداد/ ٢٨٣/ ٣].

قلت: ولم يكثر الطبرى عنه في تأريخه فقد بلغت مروياته (٣٥) أو أكثر بقليل وتبداً مروياته بتاريخ ما قبل البعثة وتنتهي بعهد عمر بن الخطاب.

١٤ - يعقوب بن إبراهيم الدورقي صاحب المستند: ثقة من العاشرة توفى سنة ٢٥٢ هـ وله ست وتسعون سنة وكان من الحفاظ أخرج له الستة وقال الخطيب كان ثقة متقدماً [تقريب/ تر ٨٨٠٩] ، [تأريخ بغداد/ ١٤/ ٢٧٧].

وأخرج عنه الطبرى في أكثر من ثلاثين (٣٠) موضعًا من تأريخه.

١٥ - يونس بن عبد الأعلى الصدفي المصري: ثقة من صغار العاشرة توفى سنة ٢٦٤ هـ وله ست وتسعون سنة أخرج له مسلم والنسائي وأخرج له الطبرى في (٣٢) موضعًا من تأريخه [تقريب التهذيب/ تر ٨٩٢٠].

ولا نريد أن نحصر في هذه المقدمة شيخ الطبرى في تأريخه وإنما ذكرنا أشهر شيوخه ثقاتٍ كانوا أو ضعفاء وقد ترجمنا لجميع شيوخه في كتابنا [رجال تأريخ الطبرى جرحًا وتعديلًا].

وكثرة شيخ الطبرى في التأريخ تدلّ على غزارة مصادره في التأريخ وتنوع طرقه وذلك سبب من أسباب اشتهر كتابه رحمة الله تعالى واعتماد المؤرخين من بعده عليه.

وأخيراً الطبرى مؤرخاً ومنهجه في التأريخ ما له وما عليه:

كان لا بد من المقدمة السابقة حتى تفهم التطور في علم التأريخ الذي أدى بالنتيجة إلى ظهور الإمام المؤرخ الطبرى ضمن جيل المؤرخين العمالقة ولقد بلغ به التدوين التأريخي نهاية عمر التكوين والنشأة^(١).

ولكي نفهم الجوانب الإيجابية لتاريخ الطبرى والمآخذ التي أخذت عليه نبدأ

(١) التأريخ العربي والمؤرخون / ٢٥٣ .

بسرد الصفات الإيجابية والسلبية ولكن قبل ذلك نرجع على موارد الطبرى في تأريخه.

فتقول:

١ - موارد الطبرى متنوعة وغزيرة ومختلفة المشارب.

٢ - ولقد شاركت جميع الكتب والمروريات المحفوظة التي سبقت الطبرى في نسج لحمة تاريخ الطبرى ومئات الروايات التي رواها الأخباريون من قبله حفظها الطبرى من الضياع فاندثرت أصول كتبهم وصحفهم وأبقى الله لهذه الأمة تاريخ الطبرى يحيى بين جنباته جل تلك الروايات ولقد تحدثنا عن أولئك الأخباريين وذكرنا حلقات الوصل بينهم وبين الطبرى من شيوخه الثقات والضعفاء ولقد كتب المعاصرون أبحاثاً حول موارد الطبرى في تأريخه وأسانيده إلى رواة الأخبار وفي مقدمتهم الدكتور جواد علي الذي نشر له حلقات بعنوان موارد الطبرى في تأريخه في مجلة المجمع العلمي العراقي قبل نصف قرن من الزمان وقبل عقد ونصف أو يزيد كتب الإستاذ عماد الدين خليل فصلاً عن أسانيد الطبرى فيما يتعلق ببدايات العباسين والبحثان قيمان لا يستغني عنهما كل باحث في هذا المجال.

ميزات منهج الطبرى في تأريخه:

١ - الترتيب الحولي للحوادث ولعله تأثر بسلفه خليفة بن خياط رحمه الله تعالى في ذلك فقد راعى الطبرى ترتيب الواقع والأحداث ترتيباً زمنياً سنة بعد سنة من مبعثه عليه الصلاة والسلام حتى سنة ٣٠٢ هـ.

٢ - اعتماد الإسناد والرواية وذلك من صفات تأريخ الطبرى الإيجابية إذ سهل على النقاد من بعده نقد الرواية داخلياً وخارجياً كما يسميه المؤرخون المعاصرون... وكما يقول أهل الحديث... - نقد السنن والمتن - وقد حرص الطبرى على بيان صيغة التلقى فإن كانت مشافهة قال حدثني أو حديثنا أو أخبرنا وإذا كان مراسلة قال كتب إليّ وإذا أخذ من كتاب ذكر اسم مؤلفه (قال المدائنى - أو ذكر الواقدى... إلخ).

ولكن الإسناد يختفي تدريجياً كلما اقتربنا من نهاية كتابه.

٣ - تنوع المصادر وغزارتها: إن الدارس لروايات الطبرى يستغرب من كثرة

الطرق التي حصل عليها الطبرى للوصول إلى تفاصيل الأحداث ولكن هذا الاستغراب يزول إذا ما تذكّرنا كثرة أسفاره رحمه الله بين طبرستان وبغداد والكوفة والبصرة ودمشق ومصر والحجاج مما سهل له الالتقاء بجمع غفير من الشيوخ أصحاب الميول المختلفة والمتممون إلى مدارس عدّة.

٤ - استطاع الطبرى رحمه الله أن يحافظ على حياديه كمؤرخ ثقة لا تجتذبه الميول إلى هذا التيار أو ذاك حتى أنه وهو السنى في مذهبه نقل كثيراً من روایات الشيعة والرافضة والمعترضة والقدرية بينما لم يستطع كثيرون من الكبار أن يكونوا حياديين فاليعقوبى إمامى شيعي في تاريخه والمسعودى لم يستطع المحافظة على حياديه كمؤرخ وهكذا يقول شاكر مصطفى لم يمل الطبرى مع أيٍ هو في إبراد الأخبار التاريخية الإسلامية وكان حياده في الغالب عن ورع ودقة علمية^(١).

اعتبر الطبرى التاريخ الإسلامي ممتداً من نزول آدم وھبوطه على الأرض ثم مروراً بقصص الأنبياء وتاريخهم إلى مبعث خاتم الأنبياء عليه الصلاة والسلام وعروجاً على سيرته وسيرة الخلفاء الراشدين من بعده وتاريخ الخلافة في عهد الأمويين وأخيراً تاريخ الخلافة في عهد العباسين.

وهذا الصنيع من الطبرى تفسير إسلامي للتاريخ نابع من الثوابت المؤكدة في الكتاب والسنّة فآدم أبو البشر ونوح أبو الأنبياء والأنبياء كلهم موحدون وإبراهيم عليه السلام هو الذي أطلق كلمة مسلم على الأمة كما قال تعالى: «هُوَ سَمِّنَكُمُ الْمُسْلِمِينَ» والطبرى بذلك صاحب نظرة عالمية إلى التاريخ ولذلك لا تتفق مع الأستاذ شاكر مصطفى في كتابه القيم (التاريخ العربي والمؤرخون) حين يقول:

كان فهمه للتاريخ العالمي أضيق من فهم بعض المؤرخين السابقين له كاليعقوبى مثلاً أو ابن قتيبة فتأريخ العالم عنده محدود بالخط الذي يصل ما بين الأنبياء والعهد الجاهلي عبر الساسانيين وتاريخ اليمن ثم يأتي التاريخ الإسلامي تتوسعاً ضخماً لكل ذلك التاريخ .

٦ - اختتم الطبرى عهد كل خليفة بسيرة موجزة عن حياته بعيداً عن الحواليات مع ذكر شيء من حياته الأسرية ومناقبه أو مثالبها .

٧ - ولأنه رتب التأريخ بنظام الحواليات فقد أعطى مساحة كافية للخلفاء الذين حكموا عقدين من الزمان كما في حالة سيدنا معاوية و هشام بن عبد الملك فكان دقيقاً في هذا التوزيع وإن كان له جانب سلبي فيما يخص مراحل التاريخ بصورة عامة كما سنذكر إلا أنه في هذا الجانب المتعلق بسيرة الخلفاء خاصة أعطى مساحة لكل خليفة يناسب السنين التي حكم فيها بينما نجد مؤرخين كباراً أعطوا مساحة واسعة ل الخليفة بينما خصصوا مساحة أصغر بكثير ل الخليفة آخر ولو كان راشداً !!

فالمسعودي مثلاً وهو صاحب مروج الذهب (ت ٣٤٦) خصص أقل من عشرين صفحة لخلافة سيدنا عثمان محسوباً بالطعن في عدالة الصحابة بينما استغرق حديثه عن خلافة سيدنا علي أكثر من ثمانين (٨٠) صفحة ومع ذلك قال في نهاية عهد سيدنا علي : وفضائل علي ومقاماته ومناقبه ووصف زهره ونسكه أكثر من أن يأتي عليه كتابنا هذا أو غيره من الكتب أو يبلغه إسهاب مسهب أو إطناب مطبب^(١) .

علمًا بأن مدة خلافة أمير المؤمنين عثمان رضي الله عنه كانت اثنى عشرة (١٢) سنة بينما مدة خلافة أمير المؤمنين علي رضي الله عنه لا تصل إلى نصف هذه المدة لأنه بويع في سنة ٣٥ هـ واستشهد في سنة ٤٠ هـ أي أقل من نصف المدة التي قضتها في الحكم سيدنا عثمان بينما اختصر المسعودي مدة اثنى عشرة سنة من حكم خليفة راشد هو عثمان في أقل من عشرين صفحة بينما أعطى مساحة (٨٠) صفحة لعهد سيدنا علي (ال الخليفة الراشد الرابع) أي أنه اختصر المسافات والسنين فقد وسطيته وحياده حتى في إعطاء السنين حقها بينما لم يفعل الطبرى مثل المسعودي .

٨ - استطاع الطبرى أن يحشد قصائد وأبيات شعرية من روائع الشعر العربى تضاف إلى الأدلة الأخرى من الرواية الخبرية تقوية لأدلة رحمة الله تعالى ويعتبر كتابه بذلك توثيقاً لآيات الشعرية لشعراء فحول أي أنه مرج الأدب مع

التاريخ مع علم الإسناد متزامناً مع تنوع المصادر فكان نسيج وحده رحمه الله تعالى واستحق أن يتربع على قمة التطور التاريخي في نهاية القرن الهجري الثالث.

٩ - فيما يتعلّق بتاريخ الروم والفرس: حفظ الطبرى لتلك الأمم جزءاً كبيراً من تأريخهم وذلك رصيده يضاف إلى الذخيرة التاريخية لديهم فالطبرى ناقل أمين نقل التاريخ الرومانى والفارسى من مصادرهم بعد الترجمة ولم يغير منها شيئاً بحججه أنهم ليسوا جزءاً من الأمة الإسلامية بل أدى الأمانة كما وصلت إليه امثلاً لقوله تعالى: ﴿وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءً هُنَّ﴾ وقوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمْنَاتِ إِنَّ أَهْلَهَا﴾، وقوله تعالى: ﴿وَكُنُّوا مَعَ الصَّادِقِينَ﴾.

يبينما ترجم كثير من المستشرقين التاريخ الإسلامي إلى لغتهم وحرّفوا كثيراً من الحقائق التاريخية وشوّهوها ولكن الله قيض لهذه الأمة رجالاً كابن العربي والذهبي وابن حجر وابن كثير وابن خلدون والعلامة شاكر ومحب الدين الخطيب ومن جاء من بعدهم فحفظوا لنا تاريخ الأمة فجزاهم الله خيراً.

ولقد أثني الباحثون على تسجيل الطبرى للأحداث السياسية الجسام التي حدثت لملة الروم وغيرهم قبل الإسلام:

يقول الأستاذ شاكر: إنه كان دقيقاً في تاريخ الروم دقة تدعو إلى العجب مع قلة المصادر حوله في هذا الموضوع فقد ذكر أباطرة الروم والرومان قبلهم حتى عصر هرقل وهم واحد وستون عدا من اشتراكوا مع أبنائهم أو غير أبنائهم ومدة حكمهم جميعاً ستة قرون وبضم سنوات ويدعى الباحث من صحة المعلومات التي أوردها ومن دقتهها وترتيبها^(١).

النقد الموجّه للتاريخ الطبرى :

١ - اختفاء النقد إلا في حالات نادرة جداً صحيح أن الطبرى يورد الآراء المختلفة والروايات المتضاربة في المسألة الواحدة لكي تسهل المقارنة بينها بغية الوصول إلى حقيقة الواقعية وصحيح أنه يشكك أحياناً في أمور معينة فيقول: وزعم الواقدي مثلاً إلا أنه لم يحكم على الأسانيد والمتون إلا في حالات نادرة جداً.

(١) التاريخ العربي والمؤرخون/ ٢٥٦

يقول الأستاذ شاكر مصطفى عند تقييمه لمنهج الطبرى في تاريخه : [وأهم ما يؤخذ على الطبرى في منهجه : ضمور النقل عنده - كان يقف خارج الأحداث وخارج الرواية نفسها في بروز عقلي واضح]^(١).

ويقول الأستاذ أكرم العمري [ويذكر الطبرى روایات تأريخه بالإسناد ، ورغم أنه ينتقىها من كتب الأخباريين لكنه لم يحاول استخلاص الروایات الموثقة بل ترك للقارئ حرية النقد والترجيح مكتفياً بالعزو إلى مصادره التي نفذ معظمها وبذلك حفظ لنا مادة تأريخية واسعة تحتاج دراستها إلى موازين نقدية واضحة قبل اعتمادها في التدليل والتعليل لأنها تمثل مدارس فكرية وسياسية متعددة فلا غرابة إذا تضاربت آراؤها ورواياتها في الأحداث^(٢) .

قلنا: إن مجرد وجود الروایات المنكرة (في تاريخ الطبرى) أو المستشنعة والتي لا أصل لها من الصحة حسب تعبير الطبرى نفسه وتراكمها لقرون طويلة دون تمييزها إلى صحيح وضعيف أدى بالتالي إلى ترسیخ أباطيل وأوهام وطاقات في أذهان الناس عن أحداث التاريخ الإسلامي ولكن لا حقيقة لها في الأصل أو كما قال الطبرى لا أصل لها من الصحة ولا بأس أن نذكر هنا مقوله شيخ من شيوخنا الأجلاء ألا وهو الشيخ صادق المزوري (وهو من أقران الدكتور القرداغي ومن كبار تلاميذ الشیخین مصطفی البنجوبینی وطاهر البرزنجی) وكان يتحدث عن روایات الطبرى الكبير وما في صفحاته من أخبار غير صحيحة لا بد من بيانها فقال إن الطبرى عُرف كإمام ثقة في الفقه والتفسير والحديث فلما أن كتب تاريخه الضخم وانتشر بين الناس بعد وفاته أعطى الناس لمروایاته تمام الثقة له.

قلنا: ولم ينتبهوا إلى تحذيره وهو أي الطبرى من الأخذ بكل ما جاء في تاريخه فلم يعتد الناس بما في مقدمة تاريخه ولكن أخذوا بعين الاعتبار أنه محدث ثقة حافظ فصدقوا كل ما في تاريخه وتلك مصيبة تركت أثراً في كتابة التاريخ الإسلامي إلى يومنا هذا.

٢ - عدم التركيز أو الاهتمام اللازم بواقع تأريخية هامة كبناء المسجد النبوى

(١) التأريخ العربي والمؤرخون / ٢٥٩ .

(٢) عصر الخلافة الراشدة / ١٩ .

لأول مرة وفتح الأندلس والخلافة الأموية في الأندلس . . . وغير ذلك.

وفي المقابل سلط الطبرى الأضواء على تفاصيل وأعطها أكثر من اللازم وأورد مرويات بعضها متكررة ومتتشابهة.

٣ - تجزئة الأحداث التاريخية وتوزيعها بين السنين لأنه رتب التاريخ ترتيباً حoliaً. ولذلك تراه يترك الحديث عن واقعة معينة ثم يعود إليها بعد حين فلا تكتمل الصورة بل تتجزأ بين السنين وذلك العيب تفاداه اليعقوبي والمسعودي لأنهما لم يجزئا الواقعه بين السنين.

٤ - يقطع الطبرى أحياناً رواية أخباري معين كأبي مخنف ليذكر في وسط الرواية مثلاً رواية أخباري آخر روى نفس الواقعه ولكن بشكل مختلف - ولو أنه انتهى من رواية الأخباري الأول مثلاً ثم بدأ برواية الثاني لتكونت لدى القارئ صورة متكاملة من الطريق الأول ثم من الثاني وهكذا.

ولقد ذكر الأستاذ شاكر هذين الأمرين فقال [كان (أي الطبرى) يقطع الأحداث بالروايات المتعددة وبالسنين على السواء . ويسرد في الحديث إلى أخبار عارضة تقطع الخبر الأصلي مما جعل تاريخه يفتقر إلى الوحدة وارتباط السياق]^(١).

والحق يقال فإن ابن الأثير نبه إلى هذا المأخذ فقال رحمة الله في مقدمة الكامل [ورأيهم يذكرون الحادثة الواحدة في سنين ويذكرون منها في كل شهر أشياء فتأتي الحادثة مقطعة لا يكمل منها غرض ولا تفهم إلا بعد إمعان النظر.

وكذلك النويري في مقدمة كتابه نهاية الأرب في فنون الأدب قد أشار إلى هذا المأخذ وقال : إن تقطيع الحادثة على السنين يقطع على المطالع لذة متابعة الحادثة وإنما الصورة الكاملة ونحو ذلك.

٥ - الإكثار من الحكايات الخرافية وخاصة عند حديثه عن بدء الخليقة وقصص الأنبياء وتاريخ العرب قبل الإسلام وأخذ كل ذلك من الروايات الإسرائيلية وخالف أحياناً صريح الكتاب والسنة رحمة الله دون أن يشعر فالله سبحانه لم يبين لنبيه وخليله متى تنتهي هذه الدنيا وتقوم الساعة قال تعالى : ﴿ قُل

(١) التاريخ العربي والمؤرخون / ٢٦٠

إِنَّا عَلِمْنَا عِنْدَ رَبِّي لَا يُجْلِيهَا لِوَقْنَاهَا إِلَّا هُوَ ﴿١﴾ ولكن الطبرى رحمة الله أسرف في ذكره عشرات الروايات التي تتحدث عن عمر هذه الدنيا ومن سلبيات هذا الإسراف في الاستشهاد بالإسراطيليات أنه ابتعد في أحايin كثيرة عن الأهداف الكبرى من القصص القرآني وخاصة فيما يتعلق بالأنباء.

الطبرى والتفسير الإسلامي للتاريخ:

لقد ذكر بعض الأساتذة المعاصرون ومنهم الأستاذ شاكر ضمن مآخذهم على أن الطبرى متأثر بالنظرية الدينية أكثر من تأثيره بالنظرة التجارية . . . فهو عنده تعبير عن المشيئة الإلهية أولًا ثم مستودع خبرات عليا للأمة الإسلامية تكشف عن وحدة هذه بقدر ما تبين قيمة تجاربها ووحدة رسالتها التاريخية^(١).

قلنا وهذا من إيجابية منهجه رحمة الله فهو المفسر المحدث الفقيه ولا بد له من تفسير التاريخ تفسيراً إسلامياً وإن كان الطبرى لم يتحدث بالتفصيل عن هذا التفسير إلا أنه أشار إلى ذلك في مقدمة تاريخه ولعله طبق ذلك أثناء سرده لأحداث التاريخ إلا أن أول تصنيف في التفسير الإسلامي في التاريخ بدأ بظهور ابن خلدون وكتابه القيم [المقدمة] كما سذكر فيما بعد.

٦- أوجز الحديث عن وقائع عصره وأهمل ذكر أسماء الذين أخبروه بتلك الواقع لأسباب معينة.

٧- عدم ذكره لأسماء الكتب التي أخذ منها بعد اطلاعه عليها ودراستها عن طريق شيوخه الذين شكلوا حلقة الوصل بينه وبين أصحاب هذه الكتب كالمدائني وعوانة بن الحكم وابن سعد وغيرهم.

٨- أكثر من الأخذ عن بعض المتروكين والتألفين ومن اتهموا بالكذب وذلك في وقائع وأحداث خطيرة كالفتنة.

نقد الرواية التاريخية ومسألة إعادة كتابة التاريخ الإسلامي:

نستطيع أن نقول: إن الإمام الطبرى رحمة الله (وهو المحدث والمؤرخ) فتح الباب على مصراعيه لنقد الرواية التاريخية وذلك لسبعين:

(١) التاريخ العربي والمؤرخون / ٢٦١.

الأول: استخدم الطبرى الإسناد والرواية وبذلك جعل سند الرواية التاريخية ومتناها عرضة للنقد.

الثاني: فتح الطبرى باب النقد مرة أخرى عندما نبه في مقدمته إلى وجود روایات تأریخیة غير صحيحة وذلك بقوله :

[فما يكن من كتابي هذا من خبر ذكرناه عن بعض الماضين مما يستنكره قارئه أو يستشنعه سامعه من أجل أنه لم يعرف له وجهاً صحيحاً ولا معنىً في الحقيقة؛ فليعلم أنه لم يؤت ذلك من قبلنا وإنما أوتى من بعض ناقليه إلينا وإنما أدينا ذلك على نحو ما أدي إلينا].^(١)

ولكن الطبرى رحمه الله تعالى مع إقراره هذا بوجود أخبار غير صحيحة في تأريخه لم يستخدم النقد خلال تأريخه الطويل إلا في حالات نادرة جداً (بالنسبة لكترة الروایات).

وهذا مثل نادر من أمثلة نقد الرواية التاريخية عند الطبرى :

ذكر الطبرى ضمن أحداث سنة ١٢ هـ فتح ميناء الأبلة وتمصير البصرة من روایة سيف بن عمر التميمي (الأخبارى الضعيف) (٣٥٠/٣) ثم علق الطبرى نفسه على هذه الرواية فقال : وفي هذه القصة في أمر الأبلة وفتحها خلاف ما يعرفه أهل السير وخلاف ما جاءت به الآثار الصحاح وإنما كان فتح الأبلة أيام عمر رضي الله عنه وعلى يد عتبة بن غزوان في سنة أربع عشرة من الهجرة وسنذكر أمرها وقصة فتحها إذا انتهينا إلى ذلك إن شاء الله [تأريخ الطبرى ٣٥٠/٣].

قلت : وقد تحدث الطبرى في موضوع آخر (٥٩٠/٣) عن فتح ميناء الأبلة وتمصير مدينة البصرة بسند صحيح .

وفيمما عدا حالات نادرة جداً فقد ترك الطبرى نقد الرواية التاريخية حتى قال أحد المعاصرین وهو الأستاذ شاكر مصطفى وهو يصف الطبرى : [ومما يؤخذ على الطبرى في منهجه ضمور النقد عنده وكان يقف خارج الأحداث وخارج الرواية نفسها في بروء عقلي واضح]^(٢).

(١) تأريخ الطبرى ١/٧.

(٢) التأريخ العربي والمؤرخون ٢٥٩.

وبمرور الزمن ظهر بين المحدثين والمؤرخين وحتى الفقهاء والمفسرين من نادى بضرورة تمحیص الروایات التأریخیة ابتداءً بالإمام المالکی القاضی ابن العربي ومروراً بابن تیمیة والحافظ الذہبی ثم ابن خلدون والحافظان ابن حجر وابن کثیر.

يقول الدكتور محمد السلمی: [ومن أبرز من تصدی لإیضاح المغالط التأریخیة ورد زیوف الروایات المکذوبة ، القاضی ابن العربي فی كتاب العواصم ، والإمام ابن تیمیة فی کثیر من کتبه ورسائله خاصة كتابه القيم منهاج السنة النبویة فی نقض کلام الشیعہ والقدریة وكذا الحافظ الناقد الذہبی فی کثیر من مؤلفاته التأریخیة مثل كتاب سیر أعلام البلاء وتاریخ الإسلام ومشاهیر الأعلام ومیزان الاعتدال فی نقد الرجال وأیضاً الحافظ ابن کثیر المفسر المؤرخ فی كتابه البداية والنهاية وأیضاً الحافظ ابن حجر العسقلانی فی كتابه فتح الباری وكتاب لسان المیزان وتهذیب التهذیب والإصابة] .

قلت: إن نقد الروایة التأریخیة والذي تطور أخیراً ليصل إلى فكرة إعادة كتابة التأریخ الإسلامي ثم بلورة منهج واضح المعالم لهذه الإعادة هي في الحقيقة عمل تراکمی جماعی وكتاب العواصم من القواسم أنمودج صغیر ونادر لإعادة كتابة التأریخ دون أن يكون هذا المصطلح معروفاً يومها ولكن الفكرة والمنهج أفصح عند العالمة المؤرخ ابن خلدون الذي مثل فی مقدمته منهج المؤرخ الملزوم والذي يعتبر (باعتراف المستشرقین) مؤسس علم التأریخ.

ولا بد لكل باحث يطرق هذا الباب أن تكون لديه فكرة عن منهج ابن خلدون هذا. يقول العالمة ابن خلدون رحمه الله وهو يتحدث عن علم التأریخ قائلاً: [فهو محتاجٌ إلى مأخذ متعددة و المعارف متنوعة وحسن نظر وثبتت يفضيان بصاحبِه إلى الحق وينکبان به عن المزلات والمغالط] .

ويقول أيضاً: [وكثيراً ما وقع للمؤرخین والمفسرین وأئمۃ النقل من المغالط في الحکایات والواقع لاعتراضهم فيها على مجرد النقل غثاً أو سميناً ولم يعرضوها على أصولها ولا قاسوها بأشباهها ولا سيروها بمعيار الحکمة والوقف

على طبائع الكائنات وتحكيم النظر وال بصيرة في الأخبار ، فضلوا عن الحق وتأهوا في بداء الوهم والغلط ولا سيما في إحصاء الأعداد في الأموال والعساكر إذا عرضت في الحكايات إذ هي مظنة الكذب ومطية الهراء ولا بد من ردها إلى الأصول وعرضها على القواعد^(١).

ثم ذكر ابن خلدون بعضاً من الأسباب التي تقتضي الكذب في الأخبار ومنها:

- ١ - التشيعات للآراء والمذاهب.
- ٢ - الثقة بالناقلين.
- ٣ - الذهول عن المقاصد.
- ٤ - توهם الصدق.
- ٥ - الجهل بتطبيق الأحوال على الواقع لأجل ما يدخلها من التلبيس والضمة.
- ٦ - التقرب لأصحاب التجلة والمراتب.

ثم ذكر ابن خلدون في مقدمته أمثلة كثيرة من أمثلة النقد التاريخي ابتداءً من قصص بني إسرائيل وانتهاءً بالخلافة في عهد العباسين ومنها قصة العباة مع جعفر بن يحيى بن خالد وبين ابن خلدون زيف القصة التي حاكها الوضاعون في هذه المسألة ومسألة نكبة البرامكة . وسنعود مرة أخرى للحديث عن منهج ابن خلدون عندما نتناول مسألة التفسير الإسلامي للتاريخ.

قلت : ومن بين الذين ذكرهم الأستاذ السلمي الحافظ ابن كثير والحافظ الذهبي والحافظ ابن حجر أما الخبر فتناوله للنقد التاريخي واضح من خلال روایات مناقب الصحابة وبعض الأحاديث النادرة في صحيح البخاري حول أحداث الفتنة في عهد الخلفاء الراشدين ومن بعدهم.

وأما الذهبي فقد استخدم النقد على نطاق لا يأس به في كتابيه العظيمين تاريخ الإسلام وسير أعلام النبلاء ولكن الحافظ ابن كثير استعمل النقد أكثر منها بكثير ولعل كتابه القيم [البداية والنهاية] هي المحاولة الأولى لإعادة كتابة التاريخ

الإسلامي برمته وأثناء دراستنا لروايات الطبرى ومقارنتها بما ذكره ابن كثير من روايات الطبرى وغيره وجذنا الحافظ ابن كثير ناقداً بصيراً لأنَّه محدث مشهور له في علم الحديث وترجم الرجال ولم يكثُر قبله أحد في النقد كما أكثر هو من استخدامه ، وتخميناً لا حسراً نقول إنه نقد ما يقرب من (٢٠٪) من أصل الروايات التاريخية ورجح وصحح .

وفي القرن الرابع عشر الهجرى ومع ظهور كتابات الأستاذ محب الدين الخطيب ومنها تعليقه وتعليقه على كلام ابن العربي في العاصم تعلَّت الأصوات الصادقة بضرورة إعادة كتابة التاريخ الإسلامي مع مراعاة شروط منها التفسير الإسلامي للتاريخ .

الخطوط العريضة التي رسمها الأساتذة المعاصرون لإعادة كتابة التاريخ [اعتماداً على معطيات وذخائر تركها لهم أسلافهم] :

ما لا شك فيه لدى الباحثين في مجال التاريخ الإسلامي تزايد اهتمام أساتذتنا الكرام بوضع منهج واضح المعالم لإعادة كتابة التاريخ الإسلامي وخلال هذا الفصل نستعرض الخطط التي رسمها أبرز من بحثوا في هذه المسألة مع الاستشهاد بمقولات من سبقهم أو عاصرهم وانتهاءً باخر محاولة جادة في هذا الموضوع وأعني بهذه المحاولة الأخيرة رسالة دكتوراه قدمها الشيخ الفاضل إبراهيم الشهريزوري بعنوان [مناهج المحدثين في نقد الرواية التاريخية] عام ١٤٢٢ هـ في المعهد العربي للدراسات التاريخية .

ولبندأ بأبحاث الأستاذ عماد الدين خليل لأنَّه رسم الخطوط العريضة وأما الأستاذ العمري فقد دخل في التفاصيل وأعطى نماذج عملية إما مباشرة وذلك من خلال كتابيه [صحيح السيرة النبوية] و[عصر الخلافة الراشدة] أو بصورة غير مباشرة عن طريق إشرافه على رسائل جامعية عديدة .

ولعلَّ الرسالة الجامعية [روايات أبي مخنف في تاريخ الطبرى] للأستاذ يحيى إبراهيم اليحيى هي التي فتحت الطريق أمام الرسائل الأخرى التي قاربت العشرين وتناولت جميعاً مرويات الطبرى إسناداً ومتناً .

كتب أستاذنا الفاضل عماد الدين خليل فصلاً بعنوان :

الشروط والضوابط المنهجية لكتابه التاريخ الإسلامي

أولاً: التأكيد على ضرورة ملاحظة ملامح التفسير الإسلامي للتاريخ من جهة والقيم الأساسية التي يتمخض عنها تحليل التاريخ الإسلامي نفسه في توجهاته الشمولية من جهة أخرى^(١).

لا أكون مغالياً إذا قلت إن أول من أبان عن معالم التفسير الإسلامي للتاريخ هو العلامة ابن خلدون - وإن لم يستعمل هو هذا المصطلح - وبلغت تلك المعالم أوجهاً في كتابات الأستاذ عماد الدين خليل سواء كان من خلال كتابه القيم التفسير الإسلامي للتاريخ أو من خلال كتابه حول سيرة عمر بن عبد العزيز وعشرات الكتب والمقالات كتبها حول هذه المسألة ولعل الأستاذ عماد الدين خليل أوجز أهمية التفسير الإسلامي للتاريخ بقوله:

من خلال نظرة شمولية إلى التاريخ الإسلامي في مساراته ومصائره يبدو ذلك الاتصال الوثيق بين المسببات والأسباب ، ذلك التلامم المحظوم بين المقدمات والنتائج ، إنها النواميس والسنن التي حدّتنا عنها الله سبحانه في كتابه المبين .

ولقد أخطأ كثير من المؤرخين في فهم وحدة هذا التاريخ وطبيعة نسيجه ذي الخيوط الواحدة ، أخطأوا لأنهم نظروا إلى هذا التاريخ نظرة تتسم بالتجزئية وال المباشرة والتقطع حيناً ، وبقياس التحولات بمقاييس التغير الدائم في الأسر الحاكمة حيناً آخر ، دون أن يأخذوا بنظر الاعتبار حركة المجتمع الإسلامي ووحدته وصيرورته التي كانت تجد في قيم الإسلام ومبادئه ومثله مراكز ثقلها وضبطها ، ومؤشرات تميّزها الدائم عن المزيد من الواقع والأحداث^(٢).

قلنا: ولقد تحدثنا عن بعض أصول التفسير الإسلامي للتاريخ في ثنايا

(١) إسلامية المعرفة / ٦٧.

(٢) المصدر السابق (٦٣).

تخریجنا لروايات تأریخ الطبری وعلی سبیل المثال لا الحصر عند حديثنا عن
أسباب انتقال إدارة الخلافة من الأمويين إلى العباسین فلينظر .

ويکمل الأستاذ عماد الدين شروطه قائلاً :

ثانياً : إن العمل التأريخي الجاد بحاجة إلى البناء الذين يملكون الحس الندي
بطبيعة الحال أكثر من النقاد^(١) .

ويشرح الأستاذ عبارته هذه ويقول في آخر شرحه :

باختصار ، فإن التوجّه الأكثـر أهمـية وجدوـي يـجب أن يـتجاوز الدـفاع المـتشـنج
إـزاء كل ما طـرـحـه الخـصـومـوـنـ حولـ هـذـهـ النـقـطـةـ أوـ تـلـكـ فيـ مـجـرـىـ التـارـيـخـ الإـسـلامـيـ
صـوبـ أـبـحـاثـ فيـ تـكـوـينـ التـارـيـخـ وـالـحـضـارـةـ الإـسـلامـيـةـ ،ـ نـظـمـاـ وـصـيرـورـةـ ،ـ وـأـعـمـالـ
بنـائـيـةـ فيـ هـذـاـ الجـانـبـ أوـ ذـاكـ ،ـ تـقـدـمـ بـذـاتـهاـ القـنـاعـاتـ المـوـضـوعـيـةـ الـتـيـ تـهـافـتـ
عـنـدـهـاـ مـقـولـاتـ الخـصـومـ(٢)ـ .

ثالثاً : تحقيق قدر من التوازن بين دراسة الجوانب السياسية العسكرية وبين
فحص الجوانب الحضارية وتحليلها ، مع الأخذ بعين الاعتبار ضرورة أن ينظر
إلى المعطيات الحضارية باعتبارها أجزاء متفرقة تتسمى إلى كل نظرة أوسع
يتضمنها جمـعاـ وـيـمـنـحـهاـ معـنىـ وـهـدـفـاـ(٣)ـ .

ومن الضروري هنا أن ننقل كلاماً قيماً للأستاذ عمر عبيد حسنة إذ يقول وهو
يتحدث عن التأریخ الإسلامي [ليس هو تأریخ الدولة بأجهزتها المتعددة وإنما هو
تأریخ الأمة بشكل عام وعطائها الحضاري على مختلف الأصعدة الثقافية
والسياسية والاجتماعية والاقتصادية والأخلاقية والعلمية... إلخ].

لذلك نقول : إنه من الخطأ المنهجي والموضوعي الاقتصار على تأریخ الحكام
والأمراء والخلفاء وتغليب تأریخ المجددين والمصلحين والعلماء العاملين
والطوائف التي تحمل الحق وتظهر به وتدافع عنه وتتولى حسبة الأمر بالمعروف

(١) إسلامية المعرفة (٦٧).

(٢) المصدر السابق (٦٨).

(٣) المصدر السابق (٦٨).

والنهي عن المنكر وتحقيق الرقابة العامة في الأمة^(١).

ونعود إلى الشروط والضوابط التي ذكرها الدكتور عماد الدين خليل:

رابعاً: الأخذ بأسلوب نقي رصين في التعامل مع الروايات التي قدمتها مصادرنا (القديمة) وعدم التسليم المطلق بكل ما يطرحه مؤرخنا القديم ، وإحالة الرواية التاريخية ، قبل التسليم النهائي بها على المجرى العام للمرحلة التاريخية لمعرفة هل يمكن أن تتعانس في سداها ولحمتها مع نسيج تلك المرحلة لحمة وسدى؟ هذا فضلاً عن ضرورة اعتماد مقاييس النقادين الخارجي والباطني ومعاييرهما وصولاً إلى قناعة كافية بصحة الرواية.

ويمكن الإفادة في مجال النقد الخارجي ، إلى حد ما ، من علمي : «مصطلح الحديث» و«الجرح والتعديل» اللذين مورسا على نطاق واسع في عمليات تمحيص الأحاديث النبوية ، ومن كتب التراجم الغنية الخصبة ، فما من أمة في الأرض عنيت بتمحيص مصادر أخبارها وتاريخها كالأمة الإسلامية ، فهناك تراجم لنصف مليون رجل أسهموا جمِيعاً في تقديم الأحاديث والأخبار والروايات التاريخية التي لا يمكن توثيقها والأخذ بها إلا بعد فحص أولئك الرجال الذين تناقلوها. ومن ثم فإن دراسة التاريخ الإسلامي دراسة جادة تستلزم ، بالضرورة ، دراسة هذا الموضوع الخطير لكي تقوم الأعمال التاريخية معتمدة على أوثق المصادر وأدق الأخبار ومنظفة من الدسائس والسموم وسائل الروايات الموضوعة التي نفثتها القوى المضادة في جسد تاريخنا المتشابك الطويل .

ومن قبله قال محب الدين الخطيب ومن الإنصاف أن نشير إلى أن اتساع صدور أئمة السنة - من أمثال أبي جعفر الطبرى - لإيراد أخبار المخالفين من الشيعة وغيرهم - دليل على حرفيتهم وأمانتهم ورغبتهم في تمكين قرائهم من أن يطلعوا على كل مافي الباب واثقين من أن القارئ الحصيف لا يفوته أن يعلم أن مثل أبي مخنف مخفف موضع تهمة - هو ورواته - إلخ .

وقال الخطيب رحمه الله أيضاً: وإنما يتتفع بأخبار الطبرى من يرجع إلى تراجم رواته في كتب الجرح والتعديل ، فتراجم شيوخه مباشرة وشيوخهم توجد في

(١) قيم المجتمع الإسلامي من منظور تاريخي / ١١ .

الأكثر في مثل: تذكرة الحفاظ للذهبي وترجم الرواية الذين كانوا إلى أواخر المئة الثانية توجد في خلاصة تذهب الكمال للصفي الخزرجي وتقريب التهذيب للحافظ ابن حجر والذين تناولهم الجرح من الصعفاء: يترجم لهم الحافظ الذهبي في ميزان الاعتدال والحافظ ابن حجر في لسان الميزان فضلاً مما ورد في طبقات ابن سعد وتاريخ دمشق لابن عساكر وتاريخ الإسلام للذهبي والبداية والنهاية لابن كثير من آلاف الأخبار إلا بالرجوع إلى ترجم رواته في كتب الجرح والتعديل ، وإن كتب مصطلح الحديث بين الصفات اللازمية للراوي ، ومتى يجوز الأخذ برواية المخالف ، ولا نعرف أمة عنى مؤرخوها بتمحيص الأخبار وبيان درجاتها وشروط الانتفاع بها ، كما عنى بذلك علماء المسلمين ، وأن العلم بذلك من لوازم الاستغلال بالتاريخ الإسلامي ، أما الذين يحتطرون الأخبار بأهوائهم ، ولا يتعرفون إلى رواتها ، ويكتفون بأن يشيروا في ذيل الخبر إلى الطبرى: رواه في صفحة كذا من جزئه الفلانى ، يظلون أن مهمتهم انتهت بذلك ، فهؤلاء من أبعد الناس عن الانتفاع بما حفلت به كتب التاريخ الإسلامي من ألف الأخبار ، ولو أنهم تمكنا من علم «مصطلح الحديث» وأنسوا بكتب الجرح والتعديل واهتموا برواية كل خبر ، كاهتمامهم بذلك الخبر ، لاستطاعوا أن يعيشوا في جو التاريخ الإسلامي ، ولتمكنوا من التمييز بين غث الأخبار وسمينها ، ولعرفوا الأخبار أقدارها على أقدار أصحابها^(١) .

ثم نعود إلى الشروط والضوابط كما وضعها الدكتور عماد الدين خليل:

خامساً: يقابل هذا ضرورة الاعتماد في بناء البحث التاريخي على الواقع نفسها دون الواقع في مظنة اعتماد هيكل مرسومة مسبقاً ، ووجهات نظر مصنوعة سلفاً ، ومحاولة تطويق الواقع وإرغامها على الانسجام مع هذه الهياكل والوجهات حتى ولو أدى هذا إلى تشويه ملامح الواقعية التاريخية ، أو إعادة تركيبها ، لكي تنسجم والأطروحات المسبقة ، مما نجده واضحاً ، على سبيل المثال ، في الدراسات التي تنطلق من المفهوم المادي في تفسير التاريخ ، الأمر الذي أوقعها في بحر من الأخطاء والتناقضات.

(١) المدخل إلى التاريخ الإسلامي / (١٦٥ - ١٦٤).

سادساً: كما أنه يتوجب في مقابل هذا وذاك اتخاذ موقف علمي تجاه معطيات المستشرقين ، الغربيين والشريقيين ، على مستوى المنهج والموضوع وعدم التسليم المطلق بها أو تجاوزها كلية ، لأن هذه المعطيات تتضمن الجيد والرديء... الأبيض والأسود.. .

ويضيف الأستاذ عماد الدين قائلاً:

إن مناهج البحث الغربية (نصرانية ومادية) لا يمكنها بحال أن تقدم تفسيراً معقولاً شاملاً متماسكاً للتاريخ الإسلامي ، فهي إن نجحت في تفسير التاريخ الغربي وتقويمه فستتحقق حتماً في تفسير التاريخ الإسلامي وتقويمه ، ذلك أنها مناهج لا تقوم على أساس (متوازن) ينظر إلى القيم الروحية والمادية كعوامل فعالة مشتركة في صنع التاريخ ، بل على العكس ، تسعى بداعف من ماديتها أو علمانيتها إلى ترجيع الدافع المادي وتقليل مساحة الدوافع الروحية في حركة التاريخ ، بل طمسها أحياناً ، وإنكارها أساساً في أحيان ثالثة كعوامل في صدوره التاريخ البشري .

سابعاً: يجب ألا يقع العاملون في حقل المنهج الجديد للتاريخ الإسلامي تحت وطأة المواقف المعاصرة في كافة مناحي الحياة البشرية: السياسية والاقتصادية والأخلاقية والروحية والاجتماعية ، لأن هذا من شأنه أن يصبح روئيتهم للتاريخ الإسلامي بألوان تستمد تركيبها من واقع عصرنا الراهن ، الأمر الذي يفسد موضوعية الرؤية ، وبالتالي يصد المؤرخ عن الوصول إلى كنه الواقع التاريخية التي قد لا تمت بصلة إلى موضوعات القرن العشرين .

ثامناً: ولابد من الإشارة أخيراً - وليس آخرأ - إلى أن الدعوة لإعادة كتابة أو عرض التاريخ الإسلامي وتحليله لا تعني بالضرورة البدء من نقطة الصفر ، أو الرفض المطلق للصيغ التي قدمها بها مؤرخونا القدماء ، ومحاولة قلب معطياتهم رأساً على عقب... ومن يخطر على باله أمر كهذا؛ فهو ليس من العلم في شيء .

[فصل من كتاب إسلامية المعرفة / ٦٣ - ٧٣ / مخطط مقترن لإسلامية علم التاريخ]

ولقد استمر أستاذنا الفاضل عماد الدين خليل في ذكر شروط وضوابط أخرى إلا أنها لم نذكرها هنا لأنها بحاجة أن تعتمد في حالة كتابة موسوعة للتاريخ

الإسلامي أوسع بكثير من تاريخ الطبرى وأشمل منه كذلك - إلا أننا اكتفينا بذكر الضوابط التي نراها لزاماً للباحث في مجال تاريخ الطبرى وتخریج روایاته والله أعلم.

ونضيف هنا شرطاً آخر ذكرها بعض من أساتذتنا الأفضل:

تاسعاً: يقول الأستاذ عمر عبيد حسنة: كما أن الخطأ التربوي والثقافي والديني أيضاً الاقتصر على إبراز الجوانب المشرقة وتضعيفها في التاريخ الإسلامي وتصویر مجتمع المسلمين على أنه مجتمع ملائكة معصومين من الخطأ - وتغيب أو إسقاط فترات الانكسار والهزيمة والسقوط التي قد تمثل النقاط السوداء والسلبية في مسيرة الأمة - إذا ما تمت معايرتها بالقيم وإن كانت مسامحتها في التاريخ الإسلامي لا تكاد تذكر أمام الإنجازات العظيمة والعطاء الحضاري^(١).

التفاصيل العملية لمنهج إعادة كتابة التاريخ الإسلامي ومنها مسألة نقد المتن والإسناد:

وهنا نركّز بالذات على أبحاث أستاذنا الفاضل أكرم ضياء العمري الرائد في مجال تطبيق قواعد المصطلح والجرح والتعديل لنقل وتقدير الرواية التاريخية . وما سندكره هنا من شروطٍ وضوابطٍ مأخوذه من عدة أبحاث وكتب لأستاذنا العمري ورأينا في جمعها في فصل واحد فائدة عظيمة والله أعلم.

نظراً لأن المصادر المتعلقة بالحديث والعلوم الشرعية والتاريخ الإسلامي معظمها يسرد الروايات بالأسانيد ، فلا بد من تحكيم قواعد علماء المصطلح في نقد هذه الروايات مع عدم التخلّي عن الروايات التي لا تصل إلى مستوى الصحة الحديثية ، ففي الأبحاث التاريخية تعتبر الروايات المسندة من طرق رواة لا يبلغون مستوى الثقات أفضل من الروايات والأخبار غير المسندة ، لأن فيها ما يدل على أصلها ، ويمكن من التحكم بنقدها وفحصها بصورة أفضل من الأخبار الحالية من السند.

أما في الدراسات المتصلة بالعقيدة والشريعة فلا بد من الاعتماد فيها على

(١) قيم المجتمع الإسلامي من منظور تأريخي / ١١ .

الروايات والأحاديث الصحيحة ونقد وبيان الضعفية منها ، وستسلم في هذا الجانب أحاديث صحيحة على شرط المحدثين تكفي لبيان العقيدة وأحكام الشريعة ، لأن المحدثين أولوا الأحاديث عناية كبيرة وأحاطوا رواتها بدراسة دقيقة واسعة ، واهتموا بطرق تحملها وأدائها ، فإذا طبقت قواعدهم على الأحاديث فهي أهل لذلك لما بلغته من الدقة والإتقان.

ثم يذكر الأستاذ العمري بيت القصيد هنا فيقول:

أولاً: أما اشتراط الصحة الحديثية في قبول الأخبار التاريخية التي لا تمس العقيدة والشريعة ففيه تعسف كثير ، والخطر الناجم عنه كبير ، لأن الروايات التاريخية التي دونها أسلافنا المؤرخون لم تعامل معاملة الأحاديث بل تم التساهل فيها ، وإذا رفضنا منهاجهم فإن الحلقات الفارغة في تاريخنا ستتشكل هوة سحيقة بيننا وبين ما مضينا مما يولد الحيرة والضياع والتمزق والانقطاع.

إن تاريخ الأمم الأخرى مبني على روايات مفردة ومصادر مفردة في كثير من حلقاته ، وهم ينقدون متون الروايات فقط ويحللونها وفق معايير نقدية تمكنتهم من الوصول إلى صورة ماضيهم لعدم استعمال الأسانيد في رواياتهم التاريخية لأن الأسانيد اختصت بها الأمة الإسلامية.

لكن ذلك لا يعني التخلّي عن منهج المحدثين في نقد أسانيد الروايات التاريخية فهي وسيلة إلى الترجيح بين الروايات المتعارضة ، كما أنها خير معين في قبول أو رفض بعض المتون المضطربة أو الشاذة عن الإطار العام لسير تاريخ أمتنا ، ولكن الإفادة منها ينبغي أن تتم بمرورنة آخذين بعين الاعتبار أن الأحاديث غير الروايات التاريخية ، وأن الأولى نالت من العناية ما يمكنها من الصمود أمام قواعد النقد الصارمة.

ويرى أستاذنا العمري علاقة قوية بين التاريخ والحديث في كتابه القيم «بحوث في السنة المشرفة»:

ولكن بسبب انشغال كثير من المحدثين في التاريخ فإن قواعد النقد هذه استعملت إلى حد مافي التاريخ أيضاً وقد ساعد على ذلك أن الروايات التاريخية كانت تتصدرها الأسانيد كما هو شأن الأحاديث كما أن مقاييس المحدثين سرت

إلى علم التاريخ فقد اشترطوا في المؤرخ ما اشترطوه في رواة الحديث من العدالة والضبط^(١).

وبذلك أمكن تطبيق قواعد نقد الحديث في نقد الروايات التاريخية أيضاً ولكن ذلك لم يتم بنفس الدقة بل حدث تساهل كبير. في ميدان التاريخ فالمؤرخون الأوائل مثل خليفة بن خياط والطبرى أستقوا كثيراً من مادتهم التاريخية عن رواة ضعفهم أهل الحديث وبذلك لم يتشددوا في نقد رواة الأخبار كما فعلوا بالنسبة لرواية الحديث . . .

ثانياً: ثم يذكر الأستاذ العمري بيت القصيد هنا فيقول:

وعندما يقوم المؤرخون اليوم بمحاولة تدقيق مصادرنا التاريخية ونقد متونها فإن بالإمكان الاستفادة من قواعد نقد الحديث وعلم الرجال في ترجيح الروايات التاريخية المتعارضة كأن تكون إحدى الروايتين المتعارضتين بإسناد متصل ، رجاله ثقات والأخرى وردت بإسناد منقطع أو عن طريق رواة مجرورحين فعندئذ ينبغي ترجيح الرواية الأولى على الثانية.

ومن شروط الأستاذ يحيى إبراهيم اليحيى لإعادة كتابة التاريخ كما قال:

إن من أراد أن يكتب عن عصر من العصور لابد أن يتصور حياة ذلك العصر بأخلاقياته وصفاته وعاداته حتى يستطيع أن يصدر الأحكام عليه وتكون عنده القدرة على نقد الروايات والمتون التي بين يديه من خلال موافقاتها أو معارضتها لحال ذلك العصر الذي قام بدراساته.

[مرويات أبي مخنف في تاريخ الطبرى اعتبارات تهم دارس التاريخ / ٩].

وكما أن استعمال قواعد المصطلح في نقد الروايات التاريخية ينبغي أن يتشدد على قدر تعلق المادة بالأحداث الخطيرة التي تؤثر فيها الأهواء ويشتبط عندها الهراء كأن تكون الروايات لها مساس بالعقائد والفتن التي حدثت في حياة الصحابة أو ذات صلة بالأحكام الشرعية كالسوابق الفقهية ، فإن التشدد في قبولها يجعل استعمال قواعد نقد الحديث بدقة أمراً مقبولاً^(٢).

(١) دراسات تاريخية / د. أكرم ضياء العمري / ٢٦ - ٢٧.

(٢) أبحاث في السنة المشرفة (٢١٠ - ٢١١).

قلت: ولعل أحدث رسالة دكتوراه في هذا الباب وهي [مناهج المحدثين في نقد الروايات التاريخية] لأنينا الدكتور إبراهيم الشهري هو أوسع ما كتب فيه. جمع فيه أخونا الشيخ ما ذكره أسلافه وأضاف إضافات قيمة أثرت هذا الموضوع ومن إضافاته أنه يرى الاستعانة بأصول الفقه والفقه نفسه في نقد الرواية التاريخية بالإضافة إلى قواعد الحديث.

ولقد لخص فكرة كتابه القائم بقوله: [إن هذه الرسالة محاولة متواضعة لوضع وجمع وترتيب جميع المناهج وقواعد المحدثين إضافة إلى قواعد الأئمة الفقهاء والمؤرخين وكل ما لا يسع المؤرخ جهله بما يتعلق بالتاريخ الإسلامي] ص ٩٣.

ومن الأمور القيمة التي فطن إليها الشيخ الشهري في رسالته هو تطبيق القواعد الفقهية على الروايات التاريخية إذ يقول [إن ربط التاريخ الإسلامي بمختلف العلوم الشرعية أمر لا بد منه لأنه تاريخ عقيدة وشريعة يختلف عن تاريخ بقية الأمم ، وأن أي مسألة تاريخية قد ترتبط بمسألة عقدية أو شرعية ، وقد تجد لتلك المسألة أساساً في العلوم الشرعية الأخرى كعلم العقائد والتوحيد والفقه أو أصول الفقه] ص ٣٥١.

ومن ثم ذكر إبراهيم الشهري أمثلة عدة لاستخدام القواعد الفقهية على الروايات التاريخية كعامل مساعد في تحقيقها نذكر منها مسألة الخروج على السلطان و موقف أبي حنيفة من الخليفة العباسي ، بعض المصادر التاريخية تذكر أن أبو حنيفة قد بايع للخليفة العباسي علينا بينما كان يمدّ يد العون للخارجين عليه.

ثم يناقش الدكتور إبراهيم هذه المسألة من وجوه ويرأها غير صحيحة للأسباب التالية :

- ١ - تعارض هذه الروايات مع القواعد الفقهية التي أقرها الإمام أبو حنيفة وبقية الفقهاء .
- ٢ - تعارض هذه الروايات مع مرويات أخرى صادرة عن هؤلاء الأئمة والتي تفيد تعاؤنهم مع خلفاء المسلمين وعدم خروجهم عليهم .

٣ - مناقشة أسانيد ومتون هذه الروايات وبين أنها غير صحيحة والسد والمنت.

وخلاصة كلام الأستاذ إبراهيم الشهري أن حركة النفس الزكية كانت سنة ١٤٥ وكان عمر الإمام أبي حنيفة يومها (٦٥) عاماً على رأي جمهور المؤرخين وهو عمر الاستقرار العلمي حيث يبلغ الإنسان أشدّه من النضج العقلي وينظر في كل آرائه السابقة إن احتجت إلى التغيير أو الترجيح أو غيرهما ، وبما أن كل الآراء الواردة عن هذا الإمام سابقاً ولاحقاً وكذلك إجماع فقهاء مذهبه ضد الخروج على السلطان فإن هذه الروايات باطلة - ثم استشهد الشهري بنقول من كتب الأئمة الأحناف ومنهم الإمام السرخسي إذ يقول : اعلم أن الفتنة إذا وقعت بين المسلمين فالواجب على كل مسلم أن يعتزل الفتنة ، وهذا القول رواه الحسن عن أبي حنيفة ثم ناقش الأستاذ إبراهيم أسانيد هذه الروايات وبين أنها ضعيفة لا يعول عليها وتخالف مذهب الإمام أبي حنيفة وفقهاء مذهبة .

ثم بين أن بعض طرق القصة جاءت عن أبي الفرج الأصفهاني في كتابه: «مقاتل الطالبين» ، وهو تالف متروك .

وبعدها الآخر من طريق أئمة ثقات ولكتهم من أهل الحديث يومها وأبو حنيفة من أهل الرأي ولا تقبل رواية القرآن في بعضهم البعض إذا كانت بينهم مثل هذه الأمور - كما قالوا: [رواية القرآن تطوى ولا تروى].

وأخيراً فإن الأستاذ إبراهيم الشهري يرى في متن هذه القصة تناقضاً واضحاً حيث تذكر الرواية أن أبو حنيفة لما جهر بالكلام أيام إبراهيم لم يلبث أن جيء به إلى بغداد وعاش خمسة عشر يوماً ثم سقي سماً فمات سنة ١٥٠ هـ ومن المعلوم أن إبراهيم قتل سنة ١٤٥ فكيف جيء بأبي حنيفة أيام إبراهيم مباشرة ولم يعش إلا (١٥) يوماً ثم مات سنة ١٥٠ هـ؟! [مناهج المحدثين في نقد الروايات التاريخية ٣٥٩ - ٣٦٩ - ٣٧٠].

وأخيراً منهج هذا التحقيق [تخریج روایات الطبری وتمیزها إلى صحيح وضعیف ومسکوت عنه].

بعد توفیق الله تعالیٰ لنا وتأییده بذلنا بتخریج روایات تاریخ الطبری [تاریخ

الأمم والملوک] انطلاقاً من القواعد التي ذكرها المتقدمون والمتاخرون والمعاصرون وبالأخص منهما الأستاذان الفاضلان (العمري وعماد الدين) فكان تقسيمنا لتأريخ الطبری كالتالي:

أولاً: صحيح تأريخ الطبری [قصص الأنبياء وتاريخ ما قبلبعثة].

ضعيف تأريخ الطبری [قصص الأنبياء وتاريخ ما قبلبعثة].

ثانياً: صحيح السيرة النبوية [تأريخ الطبری].

ضعيف السيرة النبوية [تأريخ الطبری].

ثالثاً: صحيح تأريخ الطبری [تأريخ الخلافة الراشدة].

ضعيف تأريخ الطبری [تأريخ الخلافة الراشدة].

رابعاً: صحيح تأريخ الطبری [تمة القرن الهجري الأول].

ضعيف تأريخ الطبری [تمة القرن الهجري الأول].

خامساً: صحيح تأريخ الطبری [تمة تاريخ الخلافة في عهد الأمويين].

الضعيف والمسكوت عنه تأريخ الطبری [تمة تاريخ الخلافة في عهد الأمويين].

سادساً: تاريخ الطبری [الصحيح والضعيف والمسكوت عنه].

تاريخ الخلافة في عهد العباسين.

سابعاً: رجال تأريخ الطبری جرحأ وتعديلأ.

أولاً: فيما يتعلق ببدء الخليقة وقصص الأنبياء.

حاولنا أن نوضح بكل جلاء عصمة الأنبياء عليهم الصلاة والسلام فنفيينا عنهم تشويهات وخرصات اليهود ومزاعمهم حول الأنبياء ولم نقبل من الروايات إلا ما كان مسندأ موصولاً صحيحاً وتشددنا كتشدد العلماء في قبول أحاديث الأحكام تماماً لأنها تتعلق بمسألة خطيرة ألا وهي عصمة الأنبياء وانظر مقدمتنا لقصص الأنبياء.

ثانياً: فيما يتعلق بالسيرة النبوية الشريفة:

استعنا للمقارنة بالطبقات الكبرى لابن سعد وكمصدر متقدم موثوق به ، وكتب أخرى لأئمة الحديث كدلائل النبوة للبيهقي ، والحافظ أبي نعيم مع الاستعana بالسيرة التي أخرجها الحافظ ابن كثير لأنها من طريق آخر غير طريق ابن هشام وابن حميد الرازي - [ونفي سيرة ابن إسحاق].

بالإضافة إلى المعازي والسير في الصحيحين وبقية الصحاح والمسانيد والسنن والمصنفات - وبالاستعana من تخريجات الذهبي وابن كثير وابن حجر وبما حققه الأساتذة المعاصرون من روایات السيرة كالأستاذ العمري وهمام وأبو صعيديك وإبراهيم العلي وقد أشرنا إلى أقوالهم القيمة في مواضعها بالإضافة إلى تعليقات العلامة الألباني رحمه الله على السيرة النبوية للغزالى رحمه الله تعالى .

ولقد تشددنا في تخرير روایات السيرة النبوية الشريفة كالتشدد في الأحكام إلا ما كان متعلقاً بقصص إسلام بعض الصحابة فقبلنا منها ما ورد بأسانيد مرسلة متعددة المخارج صحيحة الإسناد إلى من أرسلها .

ثالثاً: تعاملنا بنفس الأسلوب عند تخريرنا لروایات تاريخ الطبرى فيما يتعلق بالخلافة الراشدة وجعلنا نصب أعيننا هنا مسألة عدالة الصحابة التي قال عنها ابن حجر رحمه الله تعالى : [اتفق أهل السنة على أن الجميع عدول ولم يخالف في ذلك إلا شذوذ من المبتدعة]^(١) .

ولقد فصل الخطيب البغدادي رحمه الله في هذه المسألة في كتابه الكفاية في علم الرواية ونقل إجماع علماء أهل السنة والجماعة إلى عدالتهم^(٢) .

ولعل الإمام الذهبي رحمه الله خير من أوجز ولخص في هذه المسألة دون إخلال فقال :

كما تقرر الكفّ عن كثير مما شجر بين الصحابة ، وقتلهم - رضي الله عنهم أجمعين ، وما زال يمر بنا ذلك في الدواوين والكتب والأجزاء ، ولكن أكثر ذلك

(١) الإصابة ١/١٠ .

(٢) الكفاية في علم الرواية ٩٥ - ٩٦ .

منقطع وضعيف ، وبعضه كذب ، وهذا فيما بأيدينا ، وبين علمائنا ؛ فينبغي طيه وإخفاوئه ، بل إعدامه لتصفوا القلوب ، وتتوفر على حب الصحابة ، والترضي عنهم وكتمان ذلك متى عجزنا عن العامة وأحاديث العلماء ، وقد يرخص في مطالعة ذلك خلوة للعالم المنصف العربي من الهوى ، بشرط أن يستغفر لهم ، كما علمنا الله تعالى حيث يقول : ﴿وَالَّذِينَ جَاءُوكُمْ مِنْ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَعْفُرْ لَنَا وَلَا إِخْرَجْنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالإِيمَانِ وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غُلَالًا لِلَّذِينَ آمَنُوا﴾ فالقوم لهم سوابق ، وأعمال مكفرة لما وقع بينهم ، وجهاد ماء ، وعبادة ممحضة ، ولسنا من يغلو في أحد منهم ؛ ولا ندعى فيهم العصمة ، نقطع أن بعضهم أفضل من بعض ، ونقطع بأن أبا بكر وعمر أفضل الأمة ، ثم تمت العشرة المشهود لهم بالجنة ، وحمزة وجعفر ومعاذ وزيد وأمهات المؤمنين ، وبينات نبينا ﷺ ، وأهل بدر مع كونهم على مراتب ، ثم الأفضل بعدهم ، مثل أبي الدرداء وسلمان الفارسي ، وابن عمر وسائر أهل بيعة الرضوان الذين رضي الله عنهم بنص آية سورة الفتح ، ثم عموم المهاجرين والأنصار كخالد بن الوليد والعباس وعبد الله بن عمرو وهذه الصحبة ، ثم سائر من صحاب رسول الله ﷺ وجاحد معه ، أو حج معه ، أو سمع منه ، رضي الله عنهم أجمعين وعن جميع صوابح رسول الله ﷺ المهاجرات والمدنيات وأم الفضل وأم هانىء الهاشمية وسائر الصحابيات ، فأما ما تنقله الرافضة وأهل البدع في كتبهم من ذلك ، فلا ندرج عليه ، ولا كرامة له ، فأكثره باطل وكذب وافتراء فدأب الروافض روایة الأباطيل ، أوردة ما في الصاحب والمسانيد^(١).

ولقد اعتمدنا مصادر المتقدمين سواء منهم من توفي قبل الطبرى بسنوات أو من عاصره ومنها بالأخص :

- ١ - تاريخ خليفة بن خياط ٢٤٠ هـ.
- ٢ - الطبقات الكبرى لابن سعد ٢٣٠ هـ.
- ٣ - فتوح البلدان للبلاذري ٢٧٩ هـ.
- ٤ - أنساب الأشراف للبلاذري ٢٧٩ هـ.

(١) سير أعلام النبلاء : ١٠/٩٣ .

- ٥ - فتوح مصر لابن عبد الحكم المصري ٢٧٦ هـ.
- ٦ - وبالاستعانة بروايات نادرة تتعلق بتاريخ الخلافة الراشدة آخر جها البخاري ومسلم وأصحاب السنن والمسانيد والمصنفات مع الكتب أخرى متخصصة كالخرج لأبي يوسف وغير ذلك مما ذكرنا في مقدمة تاريخ الخلفاء.
- رابعاً : فيما يتعلق بتاريخ الخلافة في عهد الأمويين والعباسيين .
- فقد تشددنا فيما يتعلق بتتمة تاريخ القرن الهجري الأول وخاصة عهد أمير المؤمنين معاوية رضي الله عنه وعهد أمير المؤمنين عبد الله بن الزبير وحتى نهاية عهد أمير المؤمنين عمر بن عبد العزيز .
- وما يتعلّق بذلك الفترة من تاريخ الفتنة المشهورة [وقعة الحرّة ، وقعة كربلاء].
- وفي حال عدم حصولنا على رواية صحيحة الإسناد قبلنا رواية الراوي الذي ذكره ابن حبان في الثقات ولم نعلم فيه جرحاً شريطة خلو المتن من نكارة أو طعن في عدالة الصحابة .
- ومن ثم بدأنا بإبداء المرونة في مسائل معينة كذكر الوفيات وذكر أمر الفتوح وتولية الأمراء والقضاء وعزلهم فهذه أمور تستهير ، واكتفينا باتفاق عدة مصادر تاريخية موثوقة في هذه الأمور وإن حصلنا على رواية مستندة فيها ونعمت .
- وأما بالنسبة للمصادر التي استخدمنا للمقارنة فهي كالتالي :
- ١ - الطبقات الكبرى لابن سعد ٢٣٠ هـ.
 - ٢ - تاريخ خليفة بن خياط ٢٤٠ هـ.
 - ٣ - أنساب الأشراف للبلاذري ٢٧٩ هـ.
 - ٤ - فتوح البلدان للبلاذري ٢٧٩ هـ.
 - ٥ - المعرفة والتاريخ ليعقوب بن سفيان البسوبي ٢٧٧ هـ.
 - ٦ - وبالاستعانة بروايات نادرة تتعلق بالفتنة في بداية عهد الأمويين ، آخر جها أصحاب الصحاح والمسانيد والسنن والمصنفات .
 - ٧ - مصادر متنوعة أخرى استقينا منها روايات وإن كانت قليلة كالكتب الآتية

[تاریخ مکة - کتاب المتوارین - المعارف لابن قتيبة - المحن لأبی أیوب التمیمی - وغیرها].

٨ - وفي المرحلة الثانية استعنا بكتب الأئمة الذين جاؤوا من بعد الطبری بقرن أو قرنین وهي کتب تأریخیة قيمة بل هي موسوعات في الحديث والتاریخ ، أصحابها ثقات وهي ثلاثة على التوالي .

١ - تاریخ بغداد للخطیب البغدادی .

٢ - المنتظم لابن الجوزی .

٣ - تاریخ دمشق لابن عساکر .

وهؤلاء أئمة حفاظ استخدمو الإسناد في روایاتهم التي أخرجوها وقد سهلت لنا. مروایاتهم التحقق والتأكد من مسائل تأریخیة هامة والحمد لله على نعمة الإسناد .

وللمرة الثالثة استوثقنا من تخریجنا بالاستعانة بتخریجات الحفاظ الثلاثة المتأخرین [الذهبی - ابن کثیر - ابن حجر] [تاریخ الإسلام والسیر للذهبی والبداية والنهاية لابن کثیر خاصة] .

الاستفادة من عشرات الرسائل (الجامعیة) في مجال تحقیق وتخریج الروایات التأریخیة مع کتب قيمة کتبها أساندتنا الأفضل في هذا الباب كالخلافة الراشدة وكتب الأستاذ الدوري والعلامة شاکر رحمة الله تعالى في موسوعته التأریخیة القيمة والأستاذ یوسف العش رحمة الله وغیرهم کثیر ذکرنا كل واحد منهم ، في موضعه - وإذا لم نوافقهم في بعض المسائل بینا ذلك في موضعه .

ملاحظاتي حول الطبری مؤرخاً ومنهجه في التاریخ مع نقاط أخرى .

بالرغم من كل ما وُجّه إلى منهجه الطبری في تاریخه يظل الإمام الطبری عملاً يتریغ على قمة كتابة التاریخ - ولا يدرك دقة الطبری وأمانته العلمیة تماماً إلا من درس تاریخه فقرة وخرج روایاته روایة روایة لاحظ عباراته عبارۃ فجزاه الله عن المسلمين وتأریخهم خیر الجزاء ، وجزى الله من جاء بعده من تلامیذه ومن بعدهم ممن نقلوا إلينا هذا السفر العظیم بكل أمانة .

ثانياً: ما من غرابة أو نكارة في المتن إلا ويقابله ضعف في السند [فيما يتعلق بالرواية التاريخية].

ثالثاً: من علامات الوضع التأريخي ما يأتي: لاحظنا خلال تخریجنا لروايات الطبری أن غلاة المبتدعة والهالکین من أمثال لوط بن يحيیٰ يکثرون استخدام الألفاظ البذیئة وينسبونها إلى السلف وهم منها براء - ولقد شهد الكل بطهارة لسانهم من الشتائم والبذاءات ، ولكن الرواة المتروکین التالفين يصيّبون جام حقدّهم على شكل سهل من الألفاظ الساقطة [يا بن أم کذا - أو يا کذا أو فلان الطاغیة... إلخ] من الألفاظ التي كانت الصحابة تتورع حتى عن سماعها ناهيك عن التلفظ بها.

رابعاً: ومن علامات الوضع كذلك كثرة استخدام الأیمان المغلظة لتأكيد تفاصیل حادثة معينة - وعلى ما يبدو فإن الوضاع كان يشعر بهشاشة تلفیقه ووضوح کذبه فيستر کذبه وراء هذه الأیمان الغليظة.

خامساً: عادة (وليس دائمًا) تكون الروایات الصحیحة قصیرة المتن بينما يغلب على الوضاعین الإطالة في روایاتهم الملفقة.

سادساً: ما وجدنا أمیراً أو قائداً فاتحاً من قواد السلف الصالح ابتداءً من سیدنا خالد رضی الله عنه ، ووصولاً إلى الجراح بن عبد الله الحکمي وغيرهما إلا وتهافت الوضاعون على کيل الاتهامات نحوه - وخاصة إذا كان شديداً على الخوارج وأهل البدع .

سابعاً: الأعداد المذکورة في الروایات المکذوبة مبالغ فيها جداً فلو كان عدد الجيش ألفاً في الأصل لوجدت الألف صار عشرين ألفاً وهكذا ، وكذلك تبالغ الروایات المکذوبة في إحصاء عدد القتلى وعلى سبيل المثال لا الحصر فإن الروایات التي لا تصح عن واقعة الحرة تذكر أن أعداد القتلى كان بالآلاف بينما لم يتجاوز عددهم الخمسين أضف إلى ذلك فإن في متونها قصوراً وفجواتٍ وهفواتٍ ونکاراتٍ فكيف بالآلاف القتلى في المدينة التي عرفت بجوها الحار ولم تكن يومها ثلاثة حفظ الموتى موجودة أقول فكيف لم تتعفن هذه الجثث علمًا بأن هذه الروایات تذكر أن المدينة استبيحت ثلاثة أيام وأن أهلها الباقيون قد فروا

إلى خارج المدينة ، وهذا يعني أن آلاف الجثث قد تركت في الطرقات والأزقة ولو كان ذلك صحيحاً لتفسخ الجثث وتفشت الأمراض وهلك البلاد والعباد وكل ذلك لم يحصل وذلك دليل آخر على كذب تلك المبالغات .

ومثال آخر فيما يتعلق بأمير العراق القسري الذي ولاه هشام بن عبد الملك العراق فالمصادر التاريخية تشير إلى تملكه لبساتين وغلال وأموال ولعلها كانت سبباً لعزله من قبل أمير المؤمنين هشام بن عبد الملك ولكن الروايات الضعيفة جداً تصور بذاته فوق الخيال حتى أنها تقول بأنه أهدى أحد المقربين إليه ألف جارية وما أشبه ذلك فماذا يفعل هذا المهدى إليه بهذا الجيش الجرار من الجواري ومن أين للقسري بهذا العدد وهو القائد المنشغل بضبط أمور العراق المتاجح حركة وخروجاً ثم لو كان كذلك لذاع الخبر في الآفاق ولسجلته معظم المصادر التاريخية الموثوقة وبالأسانيد المعتبرة ولكن كل ذلك لم يحصل .

ثامناً: إن غلاة المبتدعة الذين أرادوا أن يصورووا كل خليفة أموياً كان أو عباسيًّا عدواً لآل البيت - وقعوا في تناقض عجيب فهم من جانب يصوروون عداء الخليفة لآل علي مثلاً بينما يصفون آل علي بحب الدنيا والطمع والمنافسة فيما بينهم على المال وسب بعضهم البعض والرضا إذا أدى الخليفة إليهم أعطياتهم والخروج بالسيف إذا منعوا المال أو سئلوا عنه - أي أنهم لم يراعوا لل الخليفة حرمة ولا لآل بيت رسول الله ﷺ حرمة .

ولقد التقينا بعدد من أساتذة التاريخ الإسلامي وشيخ الحديث وغيرهم من علماء المسلمين وناقشتـا معهم هذا المنهج في تحرير روايات الطبرى (كالأستاذ أكرم ضياء العمري والأستاذ عماد الدين خليل والأستاذ يحيى إبراهيم اليحيى وغيرهم) .

وأفادونـا كثيراً بآرائهم وملحوظاتهم القيمة ولقد استعـنا بخبراتهم القيمة التي أودعوها كتبـهم ولقد أشرـنا إلى جهودـهم تلك في مواضعـها ولقد تركـ شـيخـنا وأساتـذـتنا بصـماتـهم على صـفحـاتـ هذا المـشـروعـ العلمـيـ وـسـذـكـرـهمـ بـاسـمـائـهمـ إن شـاءـ اللهـ فيـ نـهاـيـةـ المـجـلـدـ الأـخـيـرـ وجـزـاهـمـ اللهـ عـنـاـ وـعـنـ الـسـلـمـيـنـ وـالتـارـيـخـ الإـسـلـامـيـ خـيـرـ الـجـزـاءـ وـآخـرـ دـعـوـانـاـ أـنـ الـحـمـدـ لـلـهـ رـبـ الـعـالـمـيـنـ .

ثانياً

كتاب تاريخ الطبرى^(١)

وكتابه «المسمى تاريخ الرسل والملوك»^(٢) ، أو تاريخ الأمم والملوك^(٣) يعدّ أوفى عمل تارىخي بين مصنفات العرب ، أقامه على منهج مرسوم ، وساقه في طريق استقرائي شامل؛ بلغت فيه الرواية مبلغها من الثقة والأمانة والإتقان أكمل ما قام به المؤرخون قبله ، كاليعقوبي والبلاذري والواقدي وابن سعد؛ ومهدّ السبيل لمن جاء بعده كالمسعودي وابن مسكويه وابن الأثير وابن خلدون.

وقد كان التاريخ عند العرب في الجاهلية أخباراً متفرقة تتناقلها الشفاه ، وروايات منتاثرة تدور حول الأشعار والأمثال والأيام ، وأساطير تكسوها المبالغة ويحوطها التهويل؛ عدا نقوشاً كتبت بالخط المستند على حوائط المعابد والأديرة وأعمدة الحصون والقصور في الحيرة واليمن. ثم كانتبعثة محمد عليه الصلاة والسلام ، ومضى عهده وعهد الخلفاء الراشدين من بعده ، وإذا المسلمين يخفون لتدوين أخباره عليه الصلاة والسلام ، ويررون أنباء مولده وبعثته وهجرته ومغازييه؛ فكان من تدوين تلك السيرة اللينة الأولى في تاريخ الإسلام؛ على أنها لم تعد في ذلك الحين أن تكون نوعاً من رواية الحديث. وكان أول من وضع في ذلك كتاباً عروة بن الزبير بن العوام ، ثم تلاه أبان بن عثمان بن عفان؛ إلى أن بلغ فنُّ السيرة أوجهه في كتاب ابن إسحاق.

ثم خرج المسلمون للغزو والجهاد ، فهَزَّوا عروش كسرى وقيصر ، وقضوا دعائِمَ الملك في بلاد الفرس والشام ومصر والروم ، ودخلوا البلاد فاتحين. ثم

(١) مأخوذة من مقدمة الأستاذ محمد أبو الفضل إبراهيم.

(٢) معجم الأدباء ١٨ : ٦٨.

(٣) تاريخ بغداد ٢ : ١٦٣ ، وكشف الظنون ٢٩٧.

بنض عرق العصبية والقبيلية ، وشاعت أخبار الأمم القديمة ، وتاريخ الديانات عند الأمم الأخرى ؛ كلّ هذا وذاك دعا إلى إضافة مادة تاريخية جديدة ؛ فالعلماء حاولوا أن يفهموا إشارات الكتاب الكريم إلى تلك الأمم ، والخلفاء رغبوا في معرفة أخبار الملوك من الأمم قبلهم ؛ كان يفعل ذلك معاوية وعبد الملك بن مروان وأبو العباس السفاح وأبو جعفر المنصور ؛ ومست الحاجة إلى معرفة ما فتح من البلاد صلحاً ، وما فتح منها عنوة ؛ ليقيموا الجزية والخرج على أساس ما رسمه الإسلام في ذلك من تشريع ؛ وأخذت الرواية التاريخية تأخذ لوناً جديداً ، أطلق عليها اسم الأخبار ، ودعي من يرويها بالأخباري ، كما أطلقوا على من يروي الحديث اسم المحدث ؛ وظهرت في ذلك مؤلفات ، فصنف محمد بن السائب الكلبي كتاباً في الأنساب ، وعوانة بن الحكم في أخباربني أمية وأبو مخنف في أخبار الردة والجمل وصفين ، وسيف في أخبار الفتوح ، وابن هشام في ملوك حمير وما إن انقضى القرن الثاني حتى أخذت المادة التاريخية تزيد تبعاً لتطور الحياة العربية ، واستقرت دواعين الإنشاء والجند والبرد ، وتنوعت العهود والوثائق والمراسلات ، ومست الحاجة إلى معرفة المواليد والوفيات ، ومدد ولايات الخلفاء والولاة والقضاة والقادات وأمراء المasons في الحج ؛ ثم ظهرت الكتب المترجمة عن الفرس واليونان والسريان ، وكثرت الرحلة بين البلاد ؛ وتعددت المشاهد ، واطلع العرب على ما لم يكونوا رأوه من عجائب البلاد ، وحضارات الأمم ؛ عدا ما كان من اتساع الفتوح ، وكثرة الأحداث ؛ فوجد العلماء للتاريخ منابع رائدة ، ومناهل متنوعة ، ومصادر كثيرة ؛ وأحسوا أن لعلم التاريخ أثراً في بناء الأمم ، وفهم الثقافات ، وإرساء العلوم على قواعد ثابتة ؛ ولم ير الأفضل منهم بأساً في أن يضعوا أسفاراً في التاريخ ؛ فعل ذلك الواقدي في كتب الفتوح ، والبلذري في كتابيه البلدان وأنساب الأشراف ، وابن قتيبة في المعارف ، وابن حبيب في المजَبَر ، والدينوري في الأخبار الطوال ، إلى أن انتهى الأمر إلى الإمام محمد بن جرير الطبرى ، فوضع فيه كتابه العتيد^(١) .



(١) انظر ترجمة علم التاريخ لهرنشو ، والفصل الذي ألحقه به مترجمه عبد الحميد العبادي عن التاريخ عند العرب .

ولا يعلم على وجه التحديد التاريخ الذي بدأ فيه أبو جعفر إملاء هذا الكتاب؛ ويظهر أنه ألفه بعد كتاب التفسير ، روى الخطيب أن أبو جعفر الطبرى قال لأصحابه: أنشطون لتفسير القرآن؟ قالوا: كم يكون قدره؟ قال: ثلاثون ألف ورقة ، فقالوا: إن هذا مما يفني الأعمار قبل تمامه ، فاختصره في نحو ثلاثة آلاف ورقة ، ثم قال: أنشطون لتأريخ العالم من آدم إلى وقتنا هذا؟ قالوا: كم قدره؟ ذكر نحواً مما ذكره في التفسير ، فأجابوه بمثل ذلك ، فقال: إنا لله! ماتت الهمم . فاختصره في نحو مما اختصر التفسير»^(١) .

وجاء في تاريخه: «وقيل أقوال في ذلك قد حكينا منها جملة في كتابنا المستمسى: «جامع البيان عن تأويل آي القرآن» ، فكرهنا إطالة الكتاب بذكر ذلك في هذا الموضوع»^(٢) .

وذكر ياقوت عن أبي بكر بن بالويه قال: قال لي أبو بكر محمد بن إسحاق - يعني ابن خزيمة -: بلغني أنك كتبت التفسير عن محمد بن جرير؟ قلت: نعم؛ كتبنا التفسير عنه إملاء ، قال: كله! قلت: نعم ، قال في أي سنة؟ قلت: سنة ثلاثة وثمانين إلى ستة وتسعين^(٣) .

وإذاً يكون قد أملى التاريخ بعد سنة تسعين ومئتين .

أما الانتهاء من هذا التاريخ ، فقد ذكر ياقوت أنه فرغ من تصنيفه وعرضه على المستملين له: «في يوم الأربعاء لثلاث بقين من شهر ربيع الأول سنة ثلاثة وثلاثمائة ، وقطعه على آخر سنة اثنتين وثلاثمائة»^(٤) .

بدأ أبو جعفر تاريخه بذكر الدلالة على حدوث الزمان ، وأن أول ما خلق بعد ذلك القلم وما بعد ذلك شيئاً فشيئاً ، على ما وردت بذلك الآثار؛ ثم ذكر آدم ، وما كان بعده من أخبار الأنبياء والرسل؛ على ترتيب ذكرهم في التوراة؛ متعرضاً للحوادث التي وقعت في زمانهم؛ مفسراً ما ورد في القرآن الكريم بشأنهم ،

(١) تاريخ بغداد ٢: ١٦٣.

(٢) تاريخ الطبرى ١: ٨٩ (طبعة دار المعرفة).

(٣) معجم الأدباء ١٨: ٤٢.

(٤) معجم الأدباء ١٨: ٤٤.

معراجاً على أخبار الملوك الذين عاصروهم ، وملوك الفرس على الخصوص ؛ مع ذكر الأمم التي جاءت بعد الأنبياء حتى بعث الرسول عليه الصلاة والسلام .

أما القسم الإسلامي فقد رتبه على الحوادث من عام الهجرة ، حتى سنة ثلاثة واثنتين ؛ وذكر في كلّ سنة ما وقع فيها من الأحداث المذكورة ؛ والأيام المشهورة ؛ وإذا كانت أخبار الحوادث طويلة جزاها على حسب السنين ، أو يشير إليها بالإجمال ؛ ثم يذكرها في الموضوع الملائم .

وترجع قيمة هذا الكتاب إلى أنه قد استطاع أن يجمع بين دقيقه جميع المواد المودعة في كتب الحديث والتفسير واللغة والأدب والسير والمغازي وتاريخ الأحداث والرجال ؛ ونصوص الشعر والخطب والعقود ؛ ونسق بينها تسليقاً مناسباً ، وعرضها عرضاً رائعاً رائقاً ؛ ناسباً كلّ رواية إلى صاحبها ، وكلّ رأي إلى قائله ؛ كما أنه أودع هذا الكتاب فصولاً صالحة وتنفّاً متنوعة من متون الكتب التي أتت عليها عوادي الأيام ، وأورد من أقوال العلماء ما لا نجد له إلا في هذا الكتاب .

مصادر الطبرى في هذا التاريخ هي كل ما سبقه من المواد التي عرفها العرب من قبله ، وأخذ من كل متخصص في فنه ، أخذ التفسير عن مجاهد وعكرمة وغيرهما من نقل عن ابن عباس ، ونقل السيرة عن أبيان بن عثمان وعروة بن الزبير وشرحيل ابن سعد وموسى بن عقبة وابن إسحاق ، وروى أخبار الدرة والفتح عن سيف بن عمر الأسدى ، وحوادث يومي الجمل وصفين عن أبي مخنف والمدائى ، وتاريخ الأمويين عن عوانة بن الحكم ، وأخبار العباسين من كتب أحمد بن أبي خيثمة ؛ كما أخذ أخبار العرب قبل الإسلام من عبيد بن شريعة الجرهمى ومحمد بن كعب القرظى و وهب بن متبه ، وأخبار الفرس من الترجمات العربية من كتب الفرس ، ولاسيما كتب ابن المقفع وابن الكلبى ؛ وغير هذا مما تراه في مباحث مواد تاريخ الطبرى المستفيضة التي نشرها الدكتور جواد علي تبعاً في مجلة المجمع العلمي العراقي ببغداد .

نشر الدكتور جواد علي في مجلة المجمع العلمي بالعراق مقالات ضافية بعنوان «مواد تاريخ الطبرى» ، بلغ فيها الغاية في عمق البحث ودقة التحليل وحسن الأداء ، مع الإلمام الكامل بالموضوع من كل نواحيه ، وقد أثبتت منه في هذا المقام .

والطريقة التي سار عليها الطبرى في كتابه هي طريقة المحدثين؛ لأن يذكر الحوادث مرؤية بمقدار ما عنده من الطرق ، ويذكر السنن حتى يتصل ب أصحابه ، لا يبدي في ذلك رأياً في معظم الأحيان؛ وهذه الطريقة هي التي سلكها في معظم الكتاب ، وفيما عدا ذلك ينقل من الكتب؛ فيصرح باسم الكتاب أحياناً ، أو ينقل عن المؤلفين من غير تعين الكتاب الذي نقل عنه أحياناً.

وقد كان اعتماده هذا المنهج مثاراً للنقد عند بعض الباحثين ، قالوا: إن سيادة الأخبار دون تمحيصها أمر لا يليق بالمؤرخ الناقد البصير؛ وإذا كانت طريقة روایة الخبر في السنن - ورجاله معروفون عند علماء الجرح والتعديل - تضمن صحة الأخبار وتحميصها في الأخبار التي وقعت في الإسلام؛ فإن هذه الطريقة تقصر عن ضمان صحة ذلك فيما قبل الإسلام؛ وخاصة وقد وقع في هذا التاريخ كثير من الأخبار الواهية ، والقصص الزائفة ، كالإسرائيлик وبعض أخبار الفرس؛ كما أورد أيضاً كثيراً من الأحاديث الموضوعة كالأحاديث الواردة في بدء الخلق وسير الأنبياء؛ مما لا يرتضيه المحدثون.

وربما كان عذر الطبرى في ذلك هو عذر رواة الحديث؛ فيذكرون الحديث بطريقه ورجاله؛ تاركين الحكم للقارئ؛ أمانة للعلم وإبراء للذمة؛ قال في مقدمة كتابه: «وليعلم الناظر في كتابنا أن اعتمادي في كلّ ما أحضرت ذكره فيه؛ مما شرطت أنني راسمه فيه؛ إنما هو على ما رويت من الأخبار التي أنا ذاكرها فيه ، والآثار التي أنا مستندها إلى رواتها؛ دون ما أدرك بحجج العقول واستنباط بفكر النفوس؛ إلا اليسير القليل منه؛ إذ كان العلم بأخبار الماضين ، وما هو كائن من أبناء الحادثين غير واصل إلى من لم يشاهدهم ولم يدرك زمانهم إلا بأخبار المخبرين ونقل الناقلين ، دون الاستخراج بالعقل ، والاستنباط بفكر النفوس ، فما يكن في كتابي هذا من خبر ذكرناه عن بعض الماضين؛ مما يستنكره قارئه ، أو يستشنعه سامعه؛ من أجل أنه لم يعرف له وجهاً من الصحة ولا معنى في الحقيقة؛ فليعلم أنه لم يؤت في ذلك من قيلنا؛ وإنما أتى من بعض ناقليه إلينا؛ وإنما أدينا ذلك على نحو ما أدى إلينا»^(١).

(١) تاريخ الطبرى ١ : ٧ ، ٨ (طبعة المعارف).

وفي هذا النص الصريح؛ ما يشير إلى مذهبه فيما ورد في كتابه من تلك الأخبار.

وأيّاً ما كان؛ فإن كتاب تاريخ الرسل والملوك سيظلّ بما اشتمل عليه من الروايات الأصيلة ، والنصوص النادرة في أسلوبه الرائع الرصين أشمل كتاب للتاريخ عند العرب .

* * *

وقد وقع لهذا الكتاب كثير من التكملات والمختصرات والترجمات. ولعلّ أول من ذيّل عليه هو الطبرى نفسه؛ وإن لم يصل إلينا شيء من ذلك؛ قال السخاوي: «وله على تاريخه المذكور ذيل ، بل ذيل على الذيل أيضاً^(١) ، كما أن عبد الله بن أحمد بن جعفر الفرغانى عمل صلة له على ما رواه ياقوت . وقال ابن النديم: وقد ألحق به جماعة من حيث قطع إلى زماننا هذا لا يعوق على إلحاهم؛ لأنّه ليس من يختص بالدولة ولا بالعلم^(٢)»؛ وفي المكتبة الأهلية بباريس نسخة مخطوطة من الجزء الأول من كتاب محمد بن عبد الملك الهمذاني؛ المتوفى سنة ٥٢١ ، الذي جعله تكملة له ، يبدأه من الأيام المقتدرية إلى بدء خلافة المستظهر. أما بقية الكتاب؛ فتنتهي بأخبار عضد الدولة أبي شجاع في أول سنة ستين وثلاثمائة .

وقد اختصره كثيرون؛ ذكر ابن النديم منهم محمد بن سليمان الهاشمي وأبا الحسن الشمشاطي من أهل الموصل وأجل يعرف بالسليل بن أحمد^(٣) .

من اختصره أيضاً مع إيراد زيادات عريب بن سعد القرطبي؛ ونقل ابن عذاري منه ما يختص بتاريخ إفريقيا والأندلس ، وأودعه كتابه «المغرب»؛ وأما أخبار العراق فطبعت ملحقة بالتاريخ باسم «صلة تاريخ الطبرى» ، من سنة ٢٩١ إلى سنة ٣٢٠ .

أما الترجمة؛ فكان أول من قام بها أبو علي محمد بن عبد الله العلقمي ،

(١) كتاب الإعلان بالتوبیخ لمن ذم التاريخ ، للسخاوي ١٤٤ .

(٢) معجم الأدباء ١٨ : ٤٤ .

(٣) الفهرست : ٢٣٥ .

المتوفى في النصف الثاني من القرن الرابع الهجري إلى الفارسية ، بأمر الأمير أبي صالح منصور بن أحمد بن إسماعيل بن سامان الساماني ؛ وكان مشغوفاً به مكثراً لمطالعته ؛ ترجمة راعي فيها الاقتصار على إيراد الأخبار دون الأسانيد ؛ وتصرّف فيه بعض التصرف^(١) . ثم نقلت هذه الترجمة من الفارسية إلى التركية في عهد أمير الأمراء أحمد باشا ، ثم ترجم مرة ثانية ما بين ٩٢٨ - ٩٣٨ هـ ، وطبعت الترجمة التركية سنة ١٢٦٠ في الأستانة.

كما ترجم أيضاً من الفارسية إلى الفرنسية وطبعت سنة ١٨٧٤ ، في أربع مجلدات قام بها زوتينبرج Zotentberg ؛ ونقلت أيضاً إلى بعض اللغات اللاتينية ، وطبعت في غريفزوالد ١٨٦٣^(٢) .

وذكر سيديو Sedillote في كتابه « تاريخ العرب » أن جرجس النصراني المتوفى سنة ١٢٧٣ م ، والمعروف بالمكين بن العميد لخصه وذيله ؛ وترجم قسم من كتاب^(٣) المكين إلى اللغة اللاتينية ، من قبل إربينيوس Eroininus وإلى الفرنسية من قبل فاتيه^(٤) Vatter .

* * *

ومنذ أن صدر هذا الكتاب عن مؤلفه ، تتابع الوراقون في نسخه ، وتنافس الأمراء والملوك في اقتنائه ؛ وعمرت به خزائن الكتب ودور العلم ؛ ذكر المقريزي أنه كان بخزانة كتب العزيز الفاطمي ما ينفي على عشرين نسخة منه ؛ إحداها بخط المؤلف^(٥) ؛ ومع مرور الزمن وعوادي الأيام ذهبت هذه النسخ شرقاً وغرباً ، و تعرض معظمها للضياع ؛ وحينما شرع في طبعه جماعة المستشرقين سنة ١٨٧٩ م ؛ لم يتيسر لهم الحصول على نسخة كاملة ؛ وكل الذي عثروا عليه - بعدبذل أقصى الجهد وإخلاص النية - أجزاء متفرقة ألغوا منها نسخة ، بها نقص يسير

(١) كشف الظنون ٢٩٨ .

(٢) جواد علي ١٧٧ : ١٧٨ (مجلة المجمع العلمي ببغداد الجزء الأول) ، وتاريخ أداب اللغة العربية لزيدان ٢ : ١٩٩ ، وكشف الظنون ٢٩٨ .

(٣) من هذا الكتاب نسخة خطية بدار الكتب المصرية .

(٤) تاريخ العرب لسيديو ٤٧٦ .

(٥) خطط المقريزي ١ : ٤١٨ .

أكملوه من تاريخ ابن الأثير وكتاب المغازي والفتح لابن حبيش^(١) ، وقد طبعوه طبعة علمية؛ على أكمل ما يكون التحقيق؛ وأدق ما تكون المقابلة؛ وذلك بين سنتي ١٨٧٩ و ١٨٩٨ م في ثلاثة أقسام:

(القسم الأول): حياة ما قبل الإسلام ، ثم حياة محمد عليه الصلاة والسلام والخلفاء الراشدين من بعده إلى سنة ٤٠ هـ.

(القسم الثاني): من سنة ٤١ إلى سنة ١٣٠ هـ.

(القسم الثالث): من سنة ١٣١ هـ إلى سنة ٣٠٢ هـ؛ وهو نهاية الكتاب ، وألحقوا به الكتاب المنسى بالمنتخب من ذيل المذيل في أسماء الصحابة والتابعين ، وقائماً من مختصر الطبرى لعرى بن سعد القرطبي ، أسموه «صلة تاريخ الطبرى» ، مع مقدمة لاتينية؛ تشمل على ترجمة المؤلف ووصف نسخ الكتاب؛ وشرح الكلمات اللغوية والاصطلاحية فيه؛ ثم التصويبات والاستدراكات. ثم مجلداً كبيراً بالعربية يشتمل على الفهارس العامة ، ثم أعيد طبعه مرة أخرى في ليدن من سنة ١٧٧٩ إلى سنة ١٩٠١ وقد أشرف على تحقيقه وتصحيحه العالمة دي خويه De Goeje وعاونه من المستشرقين: بارت Barth ، Primm ، نولدكه Noeldeke ، ولوت Loth ، ديونج De Jong ، ويريم Guidi ، ثوربك Thorbecke ، فرانك Fraenkel وجويدي Mueller .

أما المخطوطات التي رجعوا إليها فتنتمي إلى المكتبات الآتية:

١ - المكتبة الأهلية بباريس؛ رقم: ١٤٦٦ ، ١٤٦٧ ، ١٤٦٨ ، وقد رمز إليها بالحرف p.

٢ - مكتبة كبريلي بالأستانة رقم ١٠٤٠ إلى ١٠٤٢ ، وقد رمز إليها بالحرف C.

٣ - مكتبة جامعة الزيتونة بتونس ، وقد رمز إليها بالحرف Tn.

٤ - مكتبة الجمعية الآسيوية في كلكتا بالبنغال رقم: ٤٤٣ ، وقد رمز إليها برمز Ca.

٥ - مكتبة برلين برقم: ٩٤١٤ ، ٩٤٣٤ ، ٩٤١٦ ، ٩٤١٧ ، ٩٤١٨ ، ٩٤١٩ ، ٩٤٢٠ ، ٩٤٢١ ، ٩٤٢٢ ، وقد رمز إليها بالحرف B.

(١) هذا النص يقع في المطبوعة الأوربية ما بين ٢٢٨٣ ، ٢٤١٤ ، من الجزء الأول.

- ٦ - مكتبة المتحف البريطاني ، رقم: ٢٧١ ، ١٢٠٥ ، ١٦١٨؛ وقد أشير إليها برمز BM.
- ٧ - مكتبة توبنegen؛ وقد رمز إليها بالحرف T.
- ٨ - مكتبة بودليان بأكسفورد رقم: ٧٨١ ، ٧٢٢ (أوري) ٦٥٠ (أوري) ٧١١ ، ٧٢٢ ، ٦٧٦ ، وقد أشير إليها بالحرف O.
- ٩ - مكتبة الجزائر ، رقم: ١٥٧٢ ، ١٥٩٤ وقد أشير إليها بالحرف A.
- ١٠ - مكتبة المكتب الهندي ، وقد رمز إليها بحرف M.
- ١١ - مكتبة جامعة استراسبورج ، وقد رمز إليها بالحرف S.
- ١٢ - مكتبة ليدن رقم ٤٩٧ ، وقد رمز إليها بالحرف L.

أما كتاب المنتخب من ذيل المذيل فقد رجعوا فيه إلى نسخة مكتبة المتحف البريطاني برقم ٦١٨ ، والجزء المعروف بالصلة رجعوا فيه إلى نسخته المحفوظة بمكتبة غوطة رقم ١٥٥٤ .

وقد بذل هؤلاء العلماء الأفضل جهداً كبيراً ، في صبر وأناة ، مع دأب ومثابرة؛ ووشوا حواشيه بمقابلات للنسخ دققة ، وتعليقات مستفيضة مفيدة؛ وستظل هذه الشرة من أمثل المطبوعات العربية وأدقها.

وعن هذه النسخة الأولىية قامت المطبعة الحسينية بطبعه في سنة ١٣٣٩ هـ ، ومطبعة الاستقامة بالقاهرة؛ بعد حذف التعليقات والفالهارس. وإن يكن في هاتين الطبعتين شيء من الخير فهو أنهما قد سدّتا حاجة جمهور العلماء والباحثين من هذا الكتاب؛ بعد أن عزّت الطبعة الأولىية ، وتغدر على الناس اقتناها.

وقد رمت لمخطوطات باريس بالحرف (ر) ، ولمخطوطات كبريلي بالأستانة بالحرف (س) ، ولمخطوطة تونس بالحرف (ن) ، ولمخطوطة كلكتا بالحرف (ك) ، ولمخطوطات برلين بالحرف (ب) ، ولمخطوطات المتحف البريطاني بالحرف (ح) ، ولمخطوطة توبنegen بالحرف (ت) ، ولمخطوطة ليدن بالحرف (ل) ، ولمخطوطات أوكسفورد بالحرف (ف) ، ولمخطوطي الجزائر بالحرف

(ج) ، ولمخطوطة المكتب الهندي بالحرف (م) ، ولمخطوطة استراسبورج بالحرف (و).

وأما المخطوطات التي حصلت عليها مما لم يرجع إليه مصححو نسخة أوربا ، فقد أشرت لمخطوطات أحمد الثالث بالحرف (أ) ، وإلى مخطوطة مكتبة بنته بالحرف (ه) ، ولمخطوطة دار الكتب بالحرف (د) ، ولمخطوطة المكتبة التيمورية بالحرف (ي).

* * *

وقد وافقت المخطوطة الأولى من نسخة أحمد الثالث من هذا الجزء من أوله إلى ص ٥١ السطر العاشر؛ وهي جزء ناقص من آخره ، يقع في ٢٣٨ ، كتب على غلافه: «الجزء الأول من كتاب التاريخ تأليف أبي جعفر محمد بن جرير الطبرى ، رواية القائد أبي محمد عبد الله بن أحمد الفرغانى رضي الله عنه». وعليه وققية من المقر الأشرف الجمالى محمود الأستادار لهذا المجلد وما بعده من المجلدات ، وعددتها خمسة عشرة مجلداً، على مدرسته التي أنشأها بخط المؤذنين. بالشارع الأعظم ، وعليها تملك بتاريخ جمادى الأولى سنة إحدى وستمائة؛ ثم في موضع آخر تملك نصه: «أول رمضان سنة ٧٢٦» ، ومسطرتها ١٩ سطراً؛ في كل سطر ١٢ كلمة.

وأما باقي النسخ فسيأتي وصفها عند موضعها في الأجزاء المقبلة».

أرجو حينما يتم طبع بقية الأجزاء - بعونه تعالى وتوفيقه - أن الحق به كتاب المنتخب من ذيل المذيل ، والمختصر لعرب؛ وتكاملة الهمданى؛ ثم الفهارس العامة .

* * *

وأذكر بالفضل والشكر للأساتذة: الدكتور عبد الحليم النجار والأب قنواتي والدكتور هنس إرنس Hans Frnse لما لقيت منهم من عون في الانتفاع بمقديمة الطبعة الأولى، وما جاء في تعليقاتها باللاتينية؛ فلهم مني أطيب الثناء والتقدير^(١).

(١) * مصادر البحث

إنباء الرواة على أنباء النحاة للققطى ٣: ٨٩ - ٩٠ .

والله سبحانه الموفق والمعين؛ ومنه الرضا والتوفيق.

١٩ جمادى الأولى سنة ١٣٨٠ هـ.

٨ نوفمبر سنة ١٩٦٠ م.

- تاریخ ابن الأثیر ٦ : ١٧١ - ١٧٢ .
- تاریخ ابن کثیر ١١ : ١٤٥ .
- تاریخ بغداد ٢ : ١٦٢ - ١٦٨ .
- الأنساب للسمعاني ٣٦٧ .
- تاریخ التشريع الإسلامي لمحمد الخضري .
- تاریخ ابن عساکر ١٨ : ٣٣٩ - ٣٧٠ .
- (محفوظة دار الكتب) .
- تذكرة الحفاظ للذهبي ٢١ - ٢٥٥ .
- تهذيب الأسماء واللغات للنووي ١ : ٧٨ - ٧٩ .
- ابن خلکان ١ : ٤٥٦ .
- الرجال للنجاشي ٢٢٥ .
- روضات الجنات ٦٧٢ - ٦٧٥ .
- شدرات الذهب ٢ : ٢٦٠ .
- طبقات الشافعية للسبكي ٢ : ١٣٥ - ١٤٠ .
- طبقات القراء لابن الجزری ٢ : ٢٦٠ - ٢٦١ .
- طبقات المفسرين للداودي الورقة ٢٣٠ - ٢٣٤ .
- طبقات المفسرين للسيوطی ٣٠ - ٣١ .
- علم التاریخ لهرنشو ترجمة العبادی ٥١ - ٦٩ . عيون التاریخ لابن شاکر (وفیات سنة ٣١٠). الفهرست لابن النديم ٢٣٤ - ٢٣٥ .
- كشف الظنون ٢٩٨ ، ٢٣٧ ، ٥١٤ ، ١٤٤٩ .
- اللباب لابن الأثیر ٢ : ٨١ .
- لسان المیزان ٥ : ١٠٠ - ١٠٣ .
- المحمدون من الشعراء ٦٦ - ٦٧ .
- مرأة الجنان للیافعی ٢ : ٢٦١ .
- معجم الأدباء ١٨ : ٤٠ - ٩٤ .
- المتنظم لابن الجوزی ٦ : ١٧٠ - ١٧٢ .
- مواد تاریخ الطبری للدكتور جواد علی (مجلة المجمع العلمي العربي ببغداد).
- الواffi بالوفیات ٢ : ٢٦٤ - ٢٨٦ .

ثالثاً

الإمام الطبرى مؤرخاً^(١)

المبحث الأول علم التاریخ والطبری

(أولاً): تعريف علم التاریخ :

التاریخ في اللغة تعريف الوقت ، يقال : أَرَخْتُ الكتاب تاریخاً إذا جعلت له تاریخاً ، وهو بيان انتهاء وقته ، وقيل : وهو معرّب ، وقيل : عربي^(٢) .

والتاریخ في العرف هو تعین الوقت بأسناده إلى أول حدوث أمر شائع من ظهور ملة أو دولة أو أمير هائل ، أو من الآثار العلوية والحوادث السفلية مما يندر وقوعه ، ويجعل ذلك مبدأ لمعرفة ما بينه وبين أوقات الحوادث والأمور التي يجب ضبط أوقاتها في مستأنف السنين ، وقيل عدد الأيام والليالي بالنظر إلى ما مضى من السنة والشهر^(٣) .

وأول من وضع التاریخ الإسلامي الخليفة العادل عمر بن الخطاب رضي الله عنه عندما أتى بصلك مكتوب إلى شعبان ، فقال : فهو شعبان الماضي أو شعبان

(١) هذه المقدمة مأخوذة من كتاب «الإمام الطبرى شيخ المفسرين ، وعمدة المؤرخين ، ومقام الفقهاء المحدثين ، صاحب المذهب الجريري» (ص ١٩٧ - ٢٤٥) للدكتور : محمد الزحيلي .

(٢) القاموس المحيط ٢٥٦/١ ، المصباح المنير ١٥/١ ، مختار الصحاح ص ١٣ .

(٣) كشف الظنون ٢١٣/١ ، كشاف اصطلاحات الفنون ٥٦/١ ، أبجد العلوم ١٨١/٢ .

القابل؟ ثم أمر بوضع التاريخ ، واتفقت الصحابة على ابتداء التاريخ من هجرة النبي ﷺ إلى المدينة ، وجعلوا أول السنة المحرّم^(١) .

أما علم التاريخ فقد عرّفه وبيته طاش كبرى زادة بقوله: «هو معرفة أحوال الطوائف ، وبلدانهم ، ورسومهم ، وعاداتهم ، وصنائع أشخاصهم وأنسابهم ، ووفياتهم . . . إلى غير ذلك ، وموضوعه: أحوال الأشخاص الماضية ، من الأنبياء والأولياء ، والعلماء والحكّماء ، والشّعراء ، والملوك والسلطانين . . . وغيرهم ، والغرض منه: الوقوف على الأحوال الماضية ، وفائدة: العبرة بتلك الأحوال ، والتنصّح بها ، وحصول ملكة التجارب بالوقوف على تقلبات الزّمن ، ليُحتَرِز عن أمثل ما نقل من المضمار ، ويُستجلب نظائرها من المنافع ، وهذا العلم كما قيل: عمر آخر للناظرين ، والانتفاع في مضره بمنافع تَحصلُ للمسافرين»^(٢) ، وينحصر حديثنا في علم التاريخ.

(ثانياً): أهمية علم التاريخ ومشروعاته:

يمثل التاريخ أحد مصادر المعرفة الإنسانية التي اهتم بها الناس ، فتدارسوه ، وألقوا مجالسه ، واستمعوا أخباره ، وصنفوا فيه ، لأنّه يفيد تسلية ولذّة ، ويعطي المتعة الكافية ، ويرضي غريزة حب الاستطلاع ، ويبعث على العبرة والتفكير في الأحداث ، فالعقل من اعظّم بغيره ، والمحنة من تخطّي تجارب غيره ، فالتأريخ يعطي القارئ والسامع نماذج من السلوك البشري بما فيه من غرائز ، وعواطف ، وميل ، وسلوك ، وطموحات ، وأمال وألام ، فرداً وجماعة ، مع بيان النتائج التي تترتب على كل تصرف ، سواء كان صواباً أم خطأ ، عاماً أم خاصاً ، مادياً أم معنوياً ، فردياً أم اجتماعياً ، وهذا يثير الهم للنهوض ، أو التأسّي بالسلف ، أو الاقتداء بالأمم الحية ، أو التحرّز والتحفظ من المسالك الوعرة ، والمتزلقات الخطيرة التي لا تُحمد عقباها.

(١) المصباح المنير ١٥/١ - ١٦ ، المختصر في علم التاريخ ص ٣٣٠ المطبوع ضمن كتاب علم التاريخ عند المسلمين.

(٢) مفتاح السعادة ٢٥١/١ ، وانظر: أبجد العلوم ١٨١/١/٢ ، والمختصر في علم التاريخ ص ٣٢٥ ، الإعلان بالتوريّخ لمن ذم أهل التاريخ ص ٣٨٢ وما بعدها.

وقد اهتم العرب بعلم التاريخ ، بسبب اهتمامهم بالانتساب إلى الآباء والأجداد ، والعشيرة والقبيلة ، فحفظوا أنسابهم ، وتفاخروا بها حتى وصلوا إلى التعصب والعصبية ، فكانوا يهتمون أصلاً بتاريخهم ، وتاريخ الأمم قبلهم ، ومن حولهم . وجاء القرآن الكريم يذكر أخبار الأمم السابقة ، وقصص النبيين والمرسلين ، ولكنه باختصار شديد ، مركزاً على موطن العبرة والعظة ، ومكان الإثارة والاستفادة ، مع النص القرآني المتكرر على هذا الهدف ، قال الله تعالى : ﴿تِلْكَ الْقُرْئَنِ نَقْصٌ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَيْهَا وَلَقَدْ جَاءَهُمْ رَسُولُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا إِيمَانًا كَذِبًا مِنْ قَبْلِ كَذِلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِ الْكَافِرِينَ﴾ [الأعراف: ١٠١] ، وقال تعالى : ﴿وَلَكُلُّ نَّاقْصٌ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الرَّسُولِ مَا تَشِيدُ بِهِ فَوَادُكَ وَجَاءَكَ فِي هَذِهِ الْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذُكْرٌ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [هود: ١٢٠] ، وخطب الله رسوله أمراً له بقسوة الأخبار الهدافة ، فقال تعالى : ﴿فَأَقْصِصِ الْقَصْصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [الأعراف: ١٧٦] ، وخصص الله تعالى سورة في القرآن الكريم باسم «سورة القصص» .

ومن هنا اتجه كثير من العلماء المسلمين إلى جمع الأخبار ، ومعرفة الأماكن والأحوال التي أشارت إليها الآيات القرآنية والأحاديث النبوية ، واشتافت نفوسهم إلى التوسيع في فهم القصص المذكورة في القرآن ، وفي ذات الوقت اعتنوا عنابة شديدة بسيرة رسول الله ﷺ ، وما يتبعها من المغازي ، وكانت هذه المعلومات تصب في مخزنين ، الأول : محور الأخبار والقصص التاريخية ، وكان صاحبها يسمى أخبارياً ، وتشتمل أكثر قصصه بالأوهام والخرافات والأساطير القديمة ، والمحور الثاني : علم الحديث والمصطلح ، وكان علماء الحديث يذكرون أخبار السيرة النبوية وأثار الصحابة والخلفاء الراشدين مع الحديث برواياته وأخباره وإسناده ، ولما دُوّنت كتب السنة النبوية خُصص بباب مستقل بعنوان المغازي والسير ، إلى أن استقل علم السيرة النبوية ، وخُصصت له المصنفات والكتب^(١) .

(١) ظهر الإسلام ٢٠١/٢ ، ٢٠٢ ، التاریخ العربي والمؤرخون ص ٥٧ ، علم التاریخ عند المسلمين ، مقدمة المترجم الدكتور صالح أحمد العلي ص/أ ، تاریخ الأدب العربي لبروكلمان ٧٦٣ ، ضحى الإسلام ٣١٩/٢ ، مقدمة ابن خلدون ص ٣ ، ٩ ، الإعلان ص ٤١٢ ، ٤٠٦ ، ٣٨٥ .

(ثالثاً) : تدوين علم التاريخ :

يذكر مؤرخ الإسلام الحافظ الذهبي أنَّ تدوين العلوم ، وتحديد ذاتيتها ، وظهور كيانها كان من متتصف القرن الهجري الثاني ، فيقول «في سنة ثلاثة وأربعين (ومئتان) شرع علماء الإسلام في هذا العصر في تدوين الحديث والفقه والتفسير . . . ، وكثير تدوين العلم وتبويه ، ودُوّنت كتب العربية واللغة والتاريخ وأيام الناس ، وقبل هذا العصر كان الأئمة يتكلمون من حفظهم ، أو يَرْوُون العلم من صحف صحيحة غير مرتبة»^(١).

وهكذا نشا علم التاريخ ، واستقل عن علم الحديث ، ولم يعد المؤرخ يسمى أخبارياً ، واقتصر مدلول الأخباري على راوي القصص والنواذر والحكايات ، وأقبل العلماء والفقهاء على دراسة التاريخ والتأليف فيه ، وصار لهم مكانة عالية بين الناس ، واعتنى الخلفاء بسماع توارييخ الملوك في الأمم الأخرى لتكون لهم عِظة ، ويستفيدوا من تجاربهم ، ورأوا أن قراءة التاريخ تفيد الفطنة والجِنَّة^(٢) ، ولذلك قال الجاحظ : «علم النسب والخبر علم الملوك»^(٣).

وفي القرن الثالث الهجري استوى علم التاريخ على سوقه ، وتوطدت دعائمه ، وظهرت فيه المؤلفات والكتب التي تجمع المواضيع المتعاقبة ، إما على أساس السنين ، وإما على أساس الطبقات ، وإما على تاريخ المدائن ، وأصبح لعلم التاريخ منهج مرسوم ، وصار له رواده وأعلامه ، ويقصده طلاب العلم لذاته ، وترجمت توارييخ الأمم الأخرى إلى العربية ، وأصبحت مائدة التاريخ حافلة وشهية ونافعة ، منها «الطبقات الكبرى» لابن سعد (٢٣٠ هـ) وكتاب «أخبار أو تاريخ مكة المشرفة» لأبي الوليد الأزرقي الحميد (٢٤٤ هـ) ، كتاب «تاريخ اليعقوبي» (٢٧٨ هـ أو ٢٨٤ هـ) ، وكتاب «الأخبار الطوال» لأبي حنيفة الدِّينَوري (٢٩١ هـ)^(٤).

(١) انظر: تاريخ الخلفاء للسيوطى ص ٢٦١ ، النجوم الزاهرة ١/٣٥١ ، تذكرة الحفاظ ١/١٦٠.

(٢) ظهر الإسلام ٢٠١/٢ ، ضحى الإسلام ٣١٩/٢ ، الطبرى للحوفى ص ١٨٣ ، تاريخ الطبرى ١/٥ ط دار المعارف.

(٣) تاريخ الأدب العربي ٧/٣.

(٤) انظر: ظهر الإسلام ٢٠٢/٢ ، تاريخ الأدب العربي ٣/٧ وما بعدها ، الطبرى للحوفى =

(رابعاً) : الطَّبَرِيُّ يدرس التاريخ :

رأينا سابقاً أن الطَّبَرِيَّ جمع من علوم الإسلام ما لم يجتمع لأحد ، وكان له حافظة نادرة ، وذكاءً حادّاً ، وأنه من كبار علماء الحديث الذين ينقلون الأحاديث والأخبار والأسانيد ، ويجمعون الروايات المتعددة في الموضوع الواحد ، مما كان له صلة بكتب الروايات والتاريخ للأمم الأخرى ، واستفاد منها في تفسيره للقرآن الكريم ، وأورد جانباً منها في كتابه الذي أملأه في ثمان سنوات (٢٨٣ هـ - ٢٩٠ هـ) ، ولما فرغ منه اتجه إلى تصنيف كتابه الثاني في التاريخ حتى انتهى منه يوم الأربعاء ٢٧ ربيع الآخر عام (٣٠٣ هـ) وأخر حتى سنة ٣٠٢ هـ الموافق ٩١٥ م^(١).

وكان الطَّبَرِيَّ رحمة الله تعالى قد أطَّلَعَ على جميع كتب التاريخ وأجزائه وصُنْفُه في القرن الثالث الهجري ، كما درس بتوسيع كتب السيرة النبوية وما صُنْفَ فيها ، وأخذ علم التاريخ عن المختصين به ، وهم شيوخ الطَّبَرِيَّ في ذلك ، وعنهم أخذ مصادره والمواد الأولية لكتابه.

ولما أراد الطَّبَرِيَّ أن يبدأ في كتابه التاريخ قال لתלמידه: «تنشطون لتاريخ العالم من آدم إلى وقتنا هذا؟ فقالوا: كم قدره؟ فذكر نحو ما ذكره في التفسير (أي ثلاثون ألف ورقة) ، فأجابوا: هذا ما يُقْنَى الأعمار قبل تمامه ، فقال الطَّبَرِيَّ: إنما الله ، ماتت الأهمم ، فاختصره في نحو مما اختصر به التفسير» (أي في نحو ثلاثة آلاف ورقة)^(٢).

* * *

= ص ١٨٢ ، وانظر أصول علم التاريخ في كتاب «المختصر في علم التاريخ» للكايجي ، ص ٣٣٧ وما بعدها.

(١) انظر: معجم الأدباء ٤٤/١٨ ، الفهرست ص ٣٢٧ .

(٢) تذكرة الحفاظ ٢/٧١٢ ، تاريخ بغداد ٢/١٦٣ ، معجم الأدباء ١٨/٤٢ ، سير أعلام النبلاء ١٤/٢٧٥ ، ظهر الإسلام ٢/٢٠٤ ، وفي قول آخر اختصره إلى ألف ورقة ، وفي قول ثالث أنه خمسة آلاف ورقة ، ويمكن الجمع بين هذه الأقوال بسهولة ، وذلك بحسب النسخ التي كتبت ، وحجم الورق الذي استخدم في كل نسخة .

المبحث الثاني

كتُب الطَّبَرِيِّ فِي التَّارِيخ

إن الألقاب الرفيعة التي أُعطيت للطبرى المؤرخ لم تكن عبثاً ، فقد صنف أعظم كتب التاريخ على الإطلاق ، وقدم للبشرية إنتاجاً ثرياً ، وكتباً قيمة ، ومصنفات جليلة ، ومجلدات كبيرة ، مع ما بَثَه من أخبار تاريخية في سائر كتبه الأخرى .

أما الكتب التاريخية فله اثنان ، الأول: «تاريخ الأمم والملوک» ، والثاني: «ذَيْل المذَيْل» ، ونبأ بتعريف الثاني لصغره ، ثم نعود للكتاب الأول لأهميته .

(أولاً): ذَيْل المذَيْل للطَّبَرِيِّ :

وهو كتاب في تاريخ الصحابة والتابعين وتابعيهم إلى عصر الطبرى ، ويشتمل على تاريخ من قُتل أو مات من أصحاب رسول الله ﷺ في حياته ، وتاريخ من عاشوا بعده من أصحابه ورَوَوْهُ عنده على ترتيب الأقرب فالأقرب من رسول الله ﷺ ، أو من قريش من القبائل ، ثم ذكر الطبرى تاريخ التابعين وتابعى التابعين من السَّلَف ، ومن بعدهم إلى أن بلغ شيوخه الذين سمع منهم .

وذكر الطبرى أخبار هؤلاء ، ومذاهبهم ، وبيان الضعفاء من المحدثين ، والدفاع عن ذوي الفضل منهم ، ومن رُمي بمذهب هو بريء منه ، أو أثُرُهم برأي لم يقله ، مثل الحَسَن البصْرِيِّ وقَتَادَة وعَكْرِمَة وغيرهم .

وذكر تاريخ النساء الصحابيات اللائي أسلَمْنَ على عهد رسول الله ﷺ ، ومن مات منهنَ قبل الهجرة ، ومن مِتْنَ بعدها .

وفي آخر الكتاب أبواب حسان عن حَدَثَ عنه الإِخْوَةُ ، أو الرَّجُلُ وَوْلَدُهُ ،
وَمِنْ اشْتَهِرَ بِكَنْيَتِهِ دُونَ اسْمِهِ ، أو بِاسْمِهِ دُونَ كَنْيَتِهِ^(١) .

قال عنه ياقوت: «وهو من محاسن الكتب وأفضلها ، يرغب في طلاب
الحديث وأهل التواريХ ، وكان خرج إملاءه بعد سنة ثلاثة ، وهو في نحو من
ألف ورقة»^(٢) .

وسماه الذهبي باسم «تاریخ الرجال» من الصحابة والتابعین وإلى شیوخه
الذین لقیهم^(٣) .

وهذا الكتاب مفقود حتى الآن ، ولم يُعثر على نسخة منه ، ولكن عُرَيْبُ بن
سعد الكاتب القرطبي (٩٨٠ هـ / ٣٧٠ م) الذي اختصر تاريخ الطبرى كما
سرى ، اختصر أيضاً ذيل المُذَكَّر بعنوان «المُنتَخَبُ من ذِيَّلِ المُذَكَّرِ» من تاريخ
الصحابة والتابعین» وطبع هذا «المُنتَخَبُ» مع «تاریخ الطبرى» في الجزء الأخير
في لیدن ، في الطبعة التي أشرف عليها ونشرها دي غويه سنة ١٨٩٧ / ١٩٠١ م ،
ثم طبع «المُنتَخَبُ» مع «تاریخ الطبرى» في معظم طبعاته ، منها طبعة مطبعة
الاستقامۃ بالقاهرة ١٣٥٨ هـ / ١٩٣٩ م ، وجاء «المُنتَخَبُ» في نهاية الجزء الثامن
والأخير من «تاریخ الأُمَمِ وَالْمُلُوكِ» للطبرى ، ويقع في ١٦٤ صفحة ، وأربع
صفحات للفهرس^(٤) ، وطبع «المُنتَخَبُ» في الجزء الحادى عشر من «تاریخ
الطبرى» من طبعة دار المعارف بمصر ١٩٦٠ - ١٩٦٧ م بتحقيق الأستاذ محمد
أبو الفضل إبراهيم.

أما الكتاب الأصلي فيقع في ألف ورقة ، وإذا قورن هذا الرقم بكتاب «تاریخ
الطبرى» الذي يقع في ثلاثة آلاف ورقة ، وطبع في ثمانية مجلدات ، فإننا نجد أن
كتاب «ذِيَّلِ المُذَكَّرِ» يساوى ثلث كتاب التاريخ ، وهذا يعني أنه كتاب كبير في
التاريخ وتراث الصحابة والتابعین وبقیة السلف الصالح .

(١) انظر: معجم الأدباء ١٨ / ٧٠ ، الطبرى للحوفى ص ٨٩ .

(٢) معجم الأدباء ١٨ / ٧١ .

(٣) سیر أعلام النبلاء ١٤ / ٢٧٢ .

(٤) انظر: تاريخ التراث العربي ١ / ٢ / ١٦٣ ، تاريخ الأدب العربي ٣ / ٤٧ .

(ثانياً) : تاريخ الأمم والملوک :

ويعرف بـ تاريخ الطبری ، وبه اشتهر اسمه ، ولَمَعَ صيته ، وتخَلَّدَ اسمه ، وإذا أطلق على الطبری : المؤرخ ، فإنما بسبب هذا الكتاب .

واسم الكتاب المشهور به هو « تاريخ الأمم والملوک »^(١) وطبع بهذا العنوان ، ولكن ياقوت الحموي ذكر اسمًا آخر له وهو « تاريخ الرسل والأنبياء والملوک والخلفاء »^(٢) ، وكلا الاسمين يدلان على موضوع الكتاب ، ويسمى الكتاب أيضًا : « التاريخ الكبير »^(٣) .

قال ياقوت : « وهذا الكتاب من الأفراد في الدنيا ، فضلاً ونباهة ، وهو يجمع كثيراً من علوم الدين والدنيا ، وهو في نحو خمسة آلاف ورقة »^(٤) .

وبين الطبری رحمة الله تعالى خطة كتابه ، وذَكَرَ بفائدة علم التاريخ وأهميته في المقدمة ، ويَحْسُنُ بنا أن نطلع عليها ، ونسجلها هنا .

« قال أبو جعفر : وأنا ذاكر في كتابي هذا : من ملوك كل زمان من ابتداء ربنا جل جلاله خلق خلقه إلى حال قيامهم ، من انتهى إلينا خبره ، ومن ابتدأه الله تعالى بالآله ونعمه ، فشكر نعمه ، من رسول له مُرسِل ، أو مَلِك مُسَلَّط ، أو خليفة مُسْتَخْلَف ، فزاده إلى ما ابتدأه به من نعمه في العاجل نعمًا ، وإلى ما تفضل به عليه فضلاً ، ومن أَخَرَ ذلك له منهم ، وجعله له عنده دُخْراً ، ومن كفر منهم نعمه فسلبه ما ابتدأ به عليه إلى حين وفاته وهلاكه ، مقروناً ذكر كل من أنا ذاكره منهم في كتابي بذكر نعمائه وجعل ما كان من حوادث الأمور في عصره وأيامه ، إذ كان الاستقصاء في ذلك يقصر عنه العمر ، وتطول به الكتب ، مع ذكري مع ذلك مبلغ مدة أُكْلِه ، وحين أجله ، بعد تقديمي أمام ذلك ما تقدمه بنا

(١) تاريخ بغداد ١٦٣ / ٢ ، كشف الظفون ١ / ٢٢٧ .

(٢) معجم الأدباء ٤٤ / ١٨ ، وطبع الكتاب دار المعارف بمصر باسم « تاريخ الرسل والملوک » ، وسماه فؤاد سزكين « أخبار الرسل والملوک » (تاريخ التراث العربي

١٦٢ / ٢ / ١) ، وطبع بمطبعة خياط باسم « تاريخ الرسل والملوک » .

(٣) معجم الأدباء ٦٨ / ١٨ .

(٤) معجم الأدباء ٧٠ / ١٨ .

أولى ، والابتداء به قبله أحجى من البيان عن الزمان ، ما هو؟ وكم قدرُ جمیعه؟ وابتداء أوله ، وانتهاء آخره ، وهل كان قبل خلق الله تعالى إیاه شيءٌ غيره؟ وهل هو فان؟ وهل بعد فنائه شيءٌ غير وجه المسبح الخلاق تعالى ذکرہ؟ وما الذي كان قبل خلق الله إیاه؟ وما هو كائن بعد فنائه وانقضائه؟ وكيف كان ابتداء خلق الله تعالى إیاه؟ وكيف يكون فناوه؟ والدلالة على أن لا قديم ، إلا الله الواحد القهار الذي له مُلك السموات والأرض وما بينهما وما تحت التّرى ، بوجيز من الدلالة غير طويل إذ لم نقصد بكتابنا هذا قصد الاحتجاج لذلك ، بل لما ذكرنا من تاريخ الملوك الماضين ، وجملًا من أخبارهم وأزمان الرسل والأنبياء ومقادير أعمارهم ، وأيام الخلفاء والسالفين ، وبعض سيرهم ومبالغ ولاياتهم ، والكائن الذي كان من الأحداث في أعصارهم ، ثم أنا متبع آخر ذلك كله ، إن شاء الله ، وأئد منه بعون وقوه ، ذكر صحابة نبينا محمد ﷺ وأسمائهم وكُنائهم ، ومبالغ أنسابهم ، ومبالغ أعمارهم ، ووقت وفاة كل إنسان منهم والموضع الذي كانت به وفاته ، ثم متبعهم ذكر من كان بعدهم من التابعين لهم بإحسان على نحو ما شرطنا من ذكرهم ، ثم ملحق بهم من ذكر من كان بعدهم من الخلف لهم كذلك ، وزائد في أمورهم للإبانة عن حمدَة منهم روایته ، ونُقلت أخباره ، ومن رُفضَت منهم روایته ، وثبتت أخباره ، ومن وَهَنْ منهم نقله ، وضَعَفَ خبره ، والسبب الذي من أجله تُبَذِّلُ منهم خبره ، والعلة التي من أجلها وَهَنَ من وَهَنْ منهم نقله ، وإلى الله عز وجل أنا راغب في العون على ما أقصده وأنويه ، والتوفيق لما أتمسه وأبغيه ، فإنه ولِي الحول والقوة ، وصَلَّى اللهُ عَلَى مُحَمَّدٍ نَبِيِّهِ ، وَآلِهِ وَسَلَّمَ تَسْلِيمًا^(١).

ثم ذكر الطبرى رحمه الله تعالى منهجه في الكتاب ، كما سنوضحه فيما بعد إن شاء الله تعالى .

(ثالثاً): محتويات «تاريخ الأمم والملوك» :

يعتبر «تاريخ الطبرى» ذروة التأليف التاريخي عند المسلمين في القرون الثلاثة الأولى ، وهو أوثق مصدر للتاريخ الإسلامي ، ويحتل هذا التاريخ مكانة ممتازة

بين كتب التاريخ الإسلامي ، وبين لنا ياقوت الحموي محتويات الكتاب ، فقال :

«بدأ فيه بالخطبة المشتملة على معانيه ، ثم ذكر الزمان ما هو؟ ثم مدة الزمان على اختلاف أهل العلم من الصحابة وغيرهم والأمم المخالفة لنا في ذلك ، والشئن الدالة على ما اختاره من ذلك ، وهذا باب لا يندر وجوده إلا له... ، ثم ذكر أبو جعفر في «التاريخ» الكلام في الدلالة على حدث الزمان «الأيام والليالي» ، وعلى أن مُحدِّثها هو الله عز وجل وحده ، وذكر أول ما خلق ، وهو القلم وما بعد ذلك شيئاً فشيئاً على ما وردت به الآثار ، واختلاف الناس في ذلك ، ثم ذكر آدم وحواء ، واللعين إبليس وما كان من نزول آدم عليه السلام ، وما كان بعده من أخبار نبي نبي ، ورسول رسول وملك ملك ، على اختصار منه كذلك إلى نبينا عليه السلام مع ملوك الطوائف ، وملوك الفرس والروم ، ثم ذكر مولد رسول الله ﷺ ونسبه وأباءه وأمهاته ، وأولاده وأزواجه ، وبمعته ومعازيه ، وسراياه وحال أصحابه رضي الله عنهم ، ثم ذكر الخلفاء الراشدين المهديين بعده ، ثم ذكر ما كان من أخبار بني أمية ، وبني العباس في القطعرين : المنصب أحدهما إلى قطع بني أمية ، والثاني إلى قطع بني العباس وما شرحه في كتاب التاريخ ، وإنما خرج ذلك إلى الناس على سبيل الإجازة إلى سنة أربع وتسعين ومئتين ، ووقف على الذي بعد ذلك ، لأنه كان في زمن المقتدر ، وقد كان سُئل شرح القطعرين ، فلما سُئل ذلك شَرَحَه وسماه القطعرين»^(١).

ومن هذا النص ، ومن الرجوع إلى كتاب «تاريخ الأمم والملوك» نجد أن خطة الكتاب تتضمن تاريخ العالم من بدء الخليقة إلى سنة ٣٠٢ هـ / ٩١٥ م ، وتشتمل على ما يلي :

* الخطبة: وفيها الحمد والثناء على الله تعالى ، والصلوة على رسول الله ﷺ ، ثم بيان خلق الله للناس ، وخطة الطبرى في تصنيف الكتاب ، ومنهجه في ذلك (ص ٢ - ٥).

* المقدمة: وتتضمن الحديث عن الزمان في ضوء العقيدة الإسلامية ، والأقوال في قدر جميع الزمان من ابتدائه إلى انتهائه ، وحدود الأوقات

والأزمان ، وأن الله تعالى خلق الزمان والليل والنهار ، وأنه القادر على فنائهما ، ولا يبقى غير الله تعالى ، فهو الأول والآخر والمحدث لكل شيء بقدرته ، ثم تحدث الطبرى عن ابتداء الخلق ، وأن أول ما خلق القلم ، ثم بين ما ورد في الخلق في الأيام الستة من السموات والأرض ، والليل والنهار ، والشمس والقمر ، وخلق إيليس وأخباره (ص ٥ - ٦٠) .

* القسم الأول: تاريخ العالم قبل الإسلام ، وببدأ بخلق آدم أبي البشر في الجنة ، وقصته مع إيليس في الجنة ، وهبوط آدم إلى الأرض ، والروايات الواردة في ذلك ، ثم ذكر الطبرى الأحداث التي وقعت في زمن آدم ، وخاصة قصة قتل قابيل لهابيل ، والروايات الواردة في ذلك ، ثم فصل القول في موت آدم وسنه حينما مات .

ثم عرض الطبرى لسيرة الأنبياء من أولاد آدم ، إلى نوح وإبراهيم ولوط وإسماعيل وإسحاق ويعقوب ، وأئوب وشعيب ، ويُوسف وإلياس ، وموسى واليسع ، وداود وسليمان ، صالح ويوسوس وعيسى ومحمد عليهم الصلاة والسلام ، وعرض لأخبار أممهم من خلال تاريخ أنبيائهم .

وأرَّخ بصفة خاصة لبعض الأمم ، وخاصة ملوك الفرس في العهد الساساني وعلاقتهم ببلاد العرب ، وكذلك الرؤوم وملوكيهم منذ المسيحية إلى الإسلام ، وكذا اليهود وأنبيائهم وقصصهم وتاريخهم وملوكيهم ودولهم ، وأخيراً عن العرب ، فتحدث عن عاد وقوتهم وظلمهم وعصيانهم لنبيهم هود وإهلاك الله لهم ، وثモد وغُوثٌ وکفرهم ومعصيتهم لنبيهم صالح ، وهلاكهم بسبب ذلك ، ثم ذكر طسم وجديس ، وجُرْهم ، وأصحاب إسماعيل ، وأخبار العرب في الجاهلية ، وملوك اليمن وعلاقتهم بالحبش ثم بالفرس ، وأشهر حكماء العرب ، ثم تحدث عن أجداد الرسول ﷺ من عدنان إلى عبد المطلب ، وذكر طرفاً من أخبار الرسول قبلبعثة ، وحال قريش ومكة ، وذلك تمهيداً لعصر الرسالة (ص ٦٠ - إلى آخر الجزء الأول) ، جاء ذكر نسب رسول الله ﷺ وأخبار أجداده وأنسابه وزواجه في الجزء الثاني حتى (ص ٤٣) .

وأورد الطبرى حوادث هذا القسم على أساس المواضيع ، وليس على طريقة الحواليات ، ويمثل هذا القسم من تاريخ الطبرى عن العالم والعرب قبل الإسلام

حوالي عشر الكتاب كله ، ومع ذلك يعتبر أطول مصنف كُتب عن الفترة التي سبقت الإسلام في كتب التاريخ العام عند المؤرخين العرب .

* القسم الثاني : تاريخ العالم بعد الإسلام ، ابتداء من نزول الوحي على رسول الله ﷺ ، وابتداء الوقت الذي عمل فيه التاريخ الإسلامي بالهجرة النبوية ، ويستمر هذا القسم إلى سنة ٣٠٢ هـ / ٩١٥ م ، ويشمل هذا القسم أربعة عهود متميزة :

أ - العهد النبوية ، والبعثة النبوية ، وسيرة الرسول ﷺ ، وغزواته ، حتى سنة ١١ هـ الموافق ٦٢٠ م .

ب - العهد الرّاشدي ، وتاريخ الخلفاء الرّاشدين ، والفتورات التي تمت في عصرهم ، والأحداث التي وقعت حتى سنة ٥٤٠ هـ / ٦٦٠ م .

ج - العهد الأموي ، وفيه تاريخ الأمويين وخلفائهم وفتحاتهم ، والأحداث والفتور التي وقعت حتى سقوط الخلافة الأموية سنة ١٣٢ هـ / ٦٤٩ م .

د - العهد العباسي ، وخلفاء بني العباس ، وما جرى في زمانهم ، والحروب الداخلية والفتور والطوائف والفرق التي ظهرت في عصرهم حتى سنة ٣٠٢ هـ / ٩١٥ م ، وفرغ الطبرى من تأليف تاريخه وتصنيفه سنة ٣٠٣ هـ .

ويغطي هذا القسم بقية تاريخ الطبرى من الجزء الثاني حتى الأخير بحسبطبعات ، هو الجزء الثامن في الطبعة التي تعتمد عليها في مطبعة الاستقامة بالقاهرة ١٣٥٨ هـ / ١٩٣٩ م .

وسار الطبرى في القسم الخاص بالتاريخ الإسلامي على ترتيب السنين ، بذكر الأحداث سنة فـ سنة ، وهو ما يُدعى بالنـظام الحـولي ، أو الحـوليـات^(١) .

(رابعاً) : مصادر الطبرى في تاريخه :

اعتمد الطبرى في كتاب «التاريخ» على مصادر متنوعة ، ولم يأخذ المادة

(١) انظر: معجم الأدباء ٧١/١٨ ، الطبرى للحوفى ص ١٨٤ وما بعدها ، الفهرست ص ٣٢٧ ، تاريخ الأدب العربي ٤٦/٣ ، تاريخ الطبرى ، المقدمة ٢٣/١ طبعة دار المعارف .

التاريخية من مَرْوِيَات شفهية ، أو مصادر مَدْوَنَة متفرقة ، ولكنَّه اعتمد على كتب مَدْوَنَة كبيرة ، ومشهورة أُتيح له الاطلاع عليها ، وروايتها أو الأخذ منها ، وهي كتب جامعة ، وألَّفت في القرنين السابقين ، الثاني والثالث الهجري ، ولم يستمد الطبرى شيئاً من كتب معاصريه^(١).

وقد بُذلت مساعٌ كثيرة للتعرف على مصادر الطبرى من خلال سلاسل الإسناد التي سجَّلها الطبرى في كتابه ، وأسماء الرواة الذين صرَّح بأسمائهم ، لكنه أغفل أسماء كتبهم ، فرجع العلماء إلى مصنفاتهم التي ذكرها ابن النديم في «الفهرست» ورجحوا أقرب الاحتمالات في تحديد اسم الكتاب^(٢).

والطبرى استمد تاریخه من المصادر المتعددة التي اطمأن إلى حجَّيتها في الغالب ، واعتبرها مؤثرة إلى حدٍ ما ، وهي في حقيقتها متنوَّعة بحسب الموضوع ، ويمكننا الإشارة إلى أهمها:

- ١ - في تاريخ الرسل والأنبياء اعتمد الطبرى على كتب التفسير ، وكتب السيرة النبوية ، وخاصة كتب وَهْب بن منبه ومنها كتابه «المبتدأ والخبر» وسيرة ابن إسحاق ، ومن هنا تسربت الإسرائيليات إلى كتابه .
- ٢ - في تاريخ الفرس استمد الطبرى معلوماته من ترجمات عربية لكتب فارسية ، منها كتب ابن المُقْفَع ، ومنها كتب هشام الكلبى الذي كان يعتمد في تاريخ ملوك فارس والحقيقة على وثائق ومَدْوَنَات لديه .
- ٣ - وفي تاريخ الروم رجع الطبرى إلى ما كتبه وترجمه نَصَارَى الشَّام عن تاريخ الدولة الرومانية والإمبراطورية البيزنطية .
- ٤ - وفي تاريخ اليهود وبني إسرائيل نقل الطبرى قصصهم وأخبارهم من كتب

(١) انظر: التاريخ العربي والمؤرخون ص ٢٥٤ - ٢٥٦ ، الطبرى للحوفى ص ١٨٨ ، تاريخ الطبرى ، المقدمة ١/٢٣ طبعة دار المعارف.

(٢) قام الأستاذ جواد علي بجهود طيبة لتحديد «موارد تاريخ الطبرى» ونشرها في مجلة المجمع العراقي العدد الأول لعام ١٩٥٠ م والعدد الأول لعام ١٩٥٢ م ، والعدد الأول لعام ١٩٥٤ م ، ومجموعها ١٨٤ صفحة. انظر: تاريخ التراث العربى ١/٢١٦٠ ، التاريخ العربى والمؤرخون ص ٢٥.

اليهود مباشرة التي كانت متوفرة لديهم ، وما تتضمنه من حكايات إسرائيلية عن أنبيائهم وتاريخهم وأحداثهم .

٥ - وفي تاريخ العرب قبل الإسلام اعتمد على الكتب التي دُوّنت في هذا الموضوع خلال القرنين الثاني والثالث الهجري ، ومنها كتب عُبيد بن شريبة الجُزْهُمي ، ومحمد بن كعب القرطي ، و وهب بن مُنبه ، وهشام الكلبي ، وابن إسحاق .

٦ - وفي السيرة النبوية استند إلى كتب كُتاب السيرة الأوائل ، وهم أبيان بن عثمان بن عفان ، وعُزْوة بن الرَّبِير بن العوَام ، وموسى بن عقبة ، وعاصر بن عمر بن قتادة ، وابن شهاب الرُّهْري ، و محمد بن إسحاق ، و شُرَحْبَيل بن سعد .

٧ - وفي العهد الراشدي أخذ أخبار ووقائع حروب الردة والفتح وموقعة الجمل وموقعه صفين من كتب سيف بن عمر الأَنْدِي ، والمدائني ، وأبي مَخْفَ.

٨ - وفي العهد الأموي أخذ تاريخبني أمية من مُدوّنات عَوَانَةَ بن الحكْم الكلبي ، وأبي مَخْفَ ، والمدائني ، والواقدِي ، وعُمرَ بن شَبَّة ، وهشام الكلبي .

٩ - وإذا انتهى إلى العباس عَوَّل على كتب أَحْمَدَ بن أَبِي خَيْثَمَة ، وأَحْمَدَ بن زهير ، والمدائني ، وعمر بن راشد ، والهيثم بن عَدِي ، والواقدِي .

وكان لهؤلاء المؤلفين كتب كثيرة متداولة ، كان الطبرى يذكر اسم الكاتب ، دون أن يحدد اسم الكتاب ، فكان لسيف بن عمر كتاب الفتوح الكبير ، وكتاب الردة ، وكتاب في موقعة الجمل ، ومسير عائشة وعلي ، وكان للمدائني (٢١٥ هـ) كتاب في الردة ، وكتاب أمهات النبي ﷺ ، وكتاب صفة النبي ﷺ ، وكتاب أخبار المنافقين ، وكتاب عهود النبي ﷺ ، وكتاب تسمية المنافقين ، وكتاب رسائل النبي ﷺ ، وكتاب المغازى ، وله كتب في أخبار قريش ، وأخبار مناكح الأشراف ، وأخبار النساء ، وأخبار الخلفاء ، وكتب في الأحداث في خلافة عثمان وعلي رضي الله عنهما ، وكتب الفتوح ، وأخبار العرب ، وأخبار الشعراء وغيرها ، ولعمر بن شبة مؤلفات منها كتاب الكوفة ، وكتاب مكة ، وكتاب البصرة ، وكتاب المدينة ، وكتاب أمراء الكوفة ، وأمراء البصرة ، وأمراء

المدينة ، وأمراء مكة ، وكتاب السلطان ، ومقتل عثمان ، وأخبار المنصورة ، وكتاب التاريخ وغيرها^(١).

(خامساً) : أهمية «تاریخ الطبری» وقيمتها العلمية :

وصل كتاب «تاریخ الأمم والملوک» إلى قمة التأليف التاريخي عند العرب والمسلمين في القرون الثلاثة الأولى ، واحتل ذروة التقدير والاهتمام لدى معاصرى الطبرى ، وفيما بعد ، وخلال التاريخ الإسلامي ، وحتى وقتنا الحاضر ، وسيبقى تاريخ الطبرى في القمة والذروة في المستقبل ، وسيبقى المرجع الأول ، والمصدر الأصيل ، والموئل الموثوق لدى كل باحث وكاتب في التاريخ الإسلامي^(٢).

وتظهر أهمية الكتاب وقيمتها العلمية في الأمور التالية :

١ - أول كتاب في التاريخ العام ، جمع فيه الطبرى جوانب التاريخ في كتاب واحد ، ونسقها ، وضم بعضها إلى بعض ، وأكمل فيه الجهود التي قام بها العلماء السابقون في التاريخ لجانب منه ، كتاريخ الأقاليم ، أو الطوائف ، أو الرجال ، أو الأحداث العظام التي كُتبَت منفردة ، من كبار العلماء في القرن الثاني والثالث الهجريين ، كأمثال ابن سعد واليعقوبي والدينوري والواقدي والبلاذري وابن إسحاق ، ولما صاغ الطبرى كتابه الكامل الشامل أقبل الناس عليه ، وأعرضوا عن الكتب الصغيرة الأخرى ، ثم ضاع أكثرها ، فكان فضل الطبرى من جديد أنه سجل لنا ما ضاع ، وحفظ لنا هذا التراث النفيس.

ومما ساعد الطبرى على ذلك مؤهلاته الفطرية كحدة الذكاء ، وقوة الحافظة ، ثم جهده الدؤوب على العلم ، وتفرغه له ، وسعة اطلاعه وثقافته ،

(١) انظر الفهرست ص ١٣١ ، ١٣٦ ، ١٣٧ ، ١٤٤ ، ١٤٥ ، ١٤٧ ، ١٦٣ ، الطبرى للحوفى ص ١٩٠ ، تاريخ التراث العربى ١٢٢/٢/١ ، ١٢٧ ، ١٣٣ ، ١٣٩ ، ظهر الإسلام ٢٠٤/٢.

(٢) انظر : تاريخ الأدب العربي ٤٥/٣ ، الطبرى للحوفى ص ٢٢٦ ، ظهر الإسلام ٢٠٤/٢ ، التاريخ العربى والمؤرخون ص ٢٥٦.

وكترا رحلاته ، وجمعه بين العلوم المختلفة التي كان لها الأثر الكبير في تاريخه كعلم التفسير والحديث واللغة والفقه .

٢ - أقدم مصدر كامل للتاريخ العربي وفي اللغة العربية منذ أوائل الزمان إلى أول القرن الرابع الهجري ، العاشر الميلادي ، ولذلك أصبح الأساس لتاريخ العرب ، والمصدر الأصيل لمن جاء بعده ، كالمسعودي ، وابن مسكوني ، وابن الأثير ، وابن خلدون ، وابن كثير ، وكتاب السيرة ، ولا يزال كتاب الطبرى قيلاً الأنظار حتى اليوم .

٣ - جمع الطبرى في تاريخه كثيراً من أخبار العرب في الجاهلية ، وحفظها من الضياع ، كما أرَّخ للقرون الثلاثة الأولى بعد الإسلام ، ودوَّن بعض الروايات التي سمعها شخصياً ، فكان عمله تسجيلاً أميناً للأجيال اللاحقة .

٤ - ذكر الطبرى في كتابه تاريخ الفرس ، وابدع في ذكر كثير من الحقائق التي لا توجد عند غيره ، فأصبح كتاب الطبرى مرجعاً أيضاً في تاريخ الفرس أيام بنى ساسان ومعرفة صلة العرب بهم ، ولذلك أسرع العلماء إلى ترجمته إلى اللغة الفارسية كما سنرى .

٥ - كان الطبرى دقيقاً جداً في تاريخ الرومان ، وذكر أسماء الأباطرة إلى نهاية عصر هرقل سنة ٦٤١ م / ٢١ هـ ، وهو تاريخ فتح العرب لمصر ، واعتمد الطبرى في ذلك على نصارى الشام والوثائق التي كانوا يحفظونها ، وأدَّوها إلى الطبرى بأمانة ، وسجلها بدقة تدعو إلى العجب ، وليكون مصدرأً أيضاً لتاريخ الرومان .

٦ - يعتبر كتاب الطبرى المنبع الصافى والأصيل للمؤرخين بعده الذين استقروا منه الأخبار والمادة التاريخية ، وتفتَّنوا في عرضها ، كابن مسكوني (٤٢١ هـ) وابن الأثير (٦٣٠ هـ) وأبى الفداء (٧٣٢ هـ) وابن كثير (٧٧٤ هـ) وابن خلدون (٨٠٨ هـ) .

٧ - إن تاريخ الطبرى حافل بالنصوص الأدبية التي ذكرها في تراجم أصحابها ، سواء كانت شعراً أم خطباً أم رسائل أم محاورات ، ولا توجد في كتاب آخر ، ولو لا تدوين الطبرى لها لفقد من تراثنا ذخائر قيمة يعتمد عليها في الدراسات الأدبية واللغوية .

٨ - وتأكد أهمية كتاب الطبرى وقيمة العلمية باقبال العلماء في العصر الحاضر على جمعه وتحقيقه ونشره ، وحرصهم على وجوده وتوفّره في كل مؤسسة علمية ، وتحت أيدي الباحثين والعلماء والطلاب كما سرى ، كما يتأكد ذلك ببناء المصنفين والمؤرخين له ، وهو ما سفرده في فقرة خاصة ، وتنظر ذلك أهميته بالإقبال على تلخيصه وترجمته ، كما سرى .

٩ - قال الأستاذ محمد أبو الفضل إبراهيم: «وتراجع قيمة هذا الكتاب إلى أنه قد استطاع أن يجمع بين دفتيره جميع المواد المودعة في كتب الحديث والتفسير واللغة والأدب والسير والمعارض وتاريخ الأحداث والرجال ، ونصوص الشعر والخطب والعقود ، ونسق بينها تنسيقاً مناسباً ، وعرضها عرضاً رائعاً رائقاً ، ناسباً كل رواية إلى صاحبها ، وكل رأي إلى قائله ، كما أنه أودع هذا الكتاب فصولاً صالحة ونفطاً متنوعة من متون الكتب التي أتت عليها عوادي الأيام ، وأورد من أقوال العلماء ما لا نجده إلا في هذا الكتاب»^(١).

(سادساً): ثناء العلماء على تاريخ الطبرى :

تعدّدت أقوال العلماء في هذا الخصوص اعترافاً منهم بفضل الطبرى ومكانته التاريخية وسجلوا ذلك بعبارات مُضيئه ، وأحرف من نور ، نقبس بعضها:

١ - قال المسعودي (٣٤٦ هـ): «وأما تاريخ أبي جعفر محمد بن جرير الطبرى الزاهي على المؤلفات ، والزائد على الكتب المصنفات ، فقد جمع أنواع الأخبار ، وحوى فنون الآثار ، واشتمل على صنوف العلم ، وهو كتاب تكثر فائدته ، وتنفع عائذته ، وكيف لا يكون كذلك ، ومؤلفه فقيه عصره ، وناسٍ دَهْرِه ، إليه انتهت علوم فقهاء الأمصار ، وحملة السنن والآثار»^(٢).

٢ - قال الخطيب البغدادي (٤٦٣ هـ) في ترجمة الطبرى: «وله الكتاب المشهور في تاريخ الأمم والملوك»^(٣).

٣ - قال ابن الأثير (٦٣٠ هـ) في مقدمة كتابه «الكامل»: «لقد جمعت في

(١) تاريخ الطبرى ، المقدمة ١/٢٤ طبعة دار المعارف.

(٢) مروج الذهب ٣/١٥ .

(٣) تاريخ بغداد ٢/١٦٢ .

كتابي هذا ما لم يجتمع في كتاب واحد ، فابتدأ بالتأريخ الكبير الذي صنّفه الإمام أبو جعفر الطبرى ، إذ هو الكتاب المعوّل عليه عند الكافة ، والرجوع إليه عند الاختلاف ، فأخذت ما فيه من جميع تراجمه ، لم أخل بترجمة واحدة منها»^(١).

٤ - وقال ياقوت الحموي (٦٢٦ هـ) : «وهذا الكتاب من الأفراد في الدنيا فضلاً ونباهة ، وهو يجمع كثيراً من علوم الدين ، وهو في نحو خمسة آلاف ورقة»^(٢) ، وذكر في مكان آخر أنه في نحو ألف ورقة.

٥ - وقال ابن خلّakan (٦٨١ هـ) عن الطبرى : «صاحب التفسير الكبير ، والتاريخ الشهير . . . ، وتاريخه أصح التواريخ وأوثقها»^(٣).

٦ - وقال ابن كثير (٧٧٤ هـ) : «وصفت التاريخ الحافل»^(٤).

٧ - وقال الحاج خليفة (١٠٦٧ هـ) : «تاريخ الطبرى . . . ، وهو من التواريخ المشهورة الجامعة لأنباء العالم»^(٥).

٨ - وقال فرانز روزثال : «أما تاريخ الأمم والملوك للطبرى ، فأعظم أهمية من كتاب اليعقوبى الذى نسيه الناس تقريباً ، ولقد أسبغ الطبرى على كتابه تدقير المتكلمين وطول تفسيرهم ما للفقيه العالم من دقة وحب للنظام ، وما للسياسي القانوني العملى من بصيرة في الأمور السياسية ، كل هذه الخصائص أدت إلى إحلاله مكانة مرموقة دائمة ومتزايدة في الأوساط الفكرية الستينية في الإسلام . . .»^(٦).

٩ - وقال الأستاذ أحمد أمين (١٣٧٣ هـ / ١٩٥٤ م) : «وقد عُني الناس بتاريخه

(١) الكامل في التاريخ ٢/١.

(٢) معجم الأدباء ١٨/٧٠.

(٣) وفيات الأعيان ٣/٣٢٢ ، وانظر أبيجد العلوم ١٨٢/١/٢ فقد نقل صديق بن حسن خان القنوجي (١٣٠٧ هـ) نفس عبارة ابن خلّakan ، كما فعل غيره ذلك ، وترددت هذه العبارة في الكتب.

(٤) البداية والنهاية ١١/١٤٥.

(٥) كشف الظنون ١/٢٢٧.

(٦) علم التاريخ عند المسلمين لروزنثال ص ١٨٦ - ١٨٧.

كثيراً ، حتى ليكاد أن يكون عماد كل مؤرخ بعده»^(١) .

١٠ - وقال الأستاذ محمد أبو الفضل إبراهيم عن تاريخ الطبرى : «وكتابه يُعدُّ أولى عمل تارىخي بين مصنفات العرب ، أقامه على منهج مرسوم ، وساقه في طريق استقرائي شامل ، بلغت به الرواية مبلغها من الثقة والمتنانة والإتقان ، أكمل ما قام به المؤرخون قبله كاليعقوبي والبلادرى والواقدى وابن سعد ، ومهدى السبيل لمن جاء بعده كالمسعودى وابن مسکونه وابن الأثير وابن خلدون»^(٢) .

١١ - وقال الأستاذ عبد الهادى أبو طالب ، المدير العام للمنظمة الإسلامية للتربية والعلوم والثقافة : «وتعددت جوانب المعرفة لدى الطبرى ، فكان مؤرخاً عظيماً ، يفهم حركة الأحداث ، ذا قدرة على ربطها وتفسيرها ، لم يحصر تاريخه في زمان خاصٍ أو بلاد واحدة ، فجاء كتابه امتداداً لتاريخ البشرية جغرافياً وزمانياً ، لم يؤرخ للعرب وحدهم ، وإنما أرَّخ للروم واليونان والترك وفارس والهند والصين ، وظل كتابه في التاريخ المرجع الأساسي الذي يعتمد عليه كلُّ باحث في سُنن التاريخ لسعة مادته وتنوعها ، ولغزارة مضمونه ، وعلو نفسمصنفه ، موجز تاريخ الطبرى شهرة عالمية ، وسارع المستشرقون إلى ترجمة أجزاء منه إلى اللغة الألمانية واللاتينية ، وترجمته الأتراك إلى التركية ، والفرس إلى الفارسية ، حتى صار مرجعاً عالمياً عظيم القيمة»^(٣) .

١٢ - وأخيراً قال الأستاذ شاكر مصطفى عن الطبرى : «وهو عَلَمٌ معروف في التاريخ الإسلامي (وفي التفسير) بلغ به التدوينُ التارىخي نهاية عهد التكوين والنشأة قمةً من قمم التاريخ الحقيقى»^(٤) .

(سابعاً) : ذيول تاريخ الطبرى وتكلماته :

ونظراً لأهمية كتاب تاريخ الطبرى ومكانته العلمية فقد اتجهت الأنظار إلى

(١) ظهر الإسلام / ٢٠٤.

(٢) تاريخ الطبرى ، المقدمة / ١ وهذه شهادة من محقق هذا الكتاب الذي خبر جوهره ، وعاش مع كل حرف فيه.

(٣) من كلمته في افتتاح ندوة الإمام الطبرى بالقاهرة ١٤٠٩ هـ / ١٩٨٩ م.

(٤) التاريخ العربي والمؤرخون ص ٢٥٣.

السير على مِنْوَاهُ ، وكتابة الذِيول عليه ، والتكميلات لسنواته ، منها:

١ - ذِيئل تاريخ الطبرى ، للطبرى نفسه الذى كان أول من ذَيَّلَ على كتابه ، وله ذِيئل على الذِيئل ، ولم يصل إلينا شيء من ذلك^(١).

واعتبر بروكلمان كتاب الطبرى «ذِيئل المذِيئل من تاريخ الصحابة والتتابعين» الذي أتته يوم ٢٧ من ربيع الآخر سنة ٣٠٣ هـ / ١٠ من نوفمبر (تشرين الأول) ٩١٥ م ، ذِيئلاً لتاريخه^(٢).

٢ - أكمل عُرَيْب بن سعد تاريخ الطبرى إلى سنة ٣٢٠ هـ ، بعنوان «صلة تاريخ الطبرى» ويوجد منه نسخة خطية ، وحققه دي خويه في ليدن سنة ١٨٩٧ م ، وأكمله ثابت بن سنان الصَّابِي (٣٦٣ هـ) حتى سنة ٣٦٠ هـ^(٣).

٣ - وأكمله هلال بن المُحْسِن الصَّابِي إلى سنة ٤٤٨ هـ.

٤ - وأكمله ابن هلال المذكور محمد غرس النَّعْمَة إلى سنة ٤٧٩ هـ بعنوان «عيون التواریخ».

٥ - وأكمله محمد بن عبد الملك الهمَدَانِي (ت ٥٢١ هـ / ١١٢٧ م) إلى سنة ٤٨٧ هـ / ١٠٩٤ م ، ويوجد نسخة مخطوطة منه في مكتبة باريس - أول برقم ١٤٦٩ ، وطبع الموجود من الكتاب مستقلاً^(٤) ، كما طبع ضمن ذِيول تاريخ الطبرى^(٥).

٦ - وأكمله نجم الدين بن الملك الكامل الأيوبي (ت ٦٤٧ هـ / ١٢٤٩ م).

(١) قال السخاوي عن الطبرى: «وله على تاريخه المذكور ذِيئل ، بل ذِيئل على الذِيئل أيضاً» انظر: الإعلان بالتوضيح لمَنْ ذَمَّ أهل التوريخ ، ضمن كتاب علم التاریخ عند المسلمين لفرانز روزنثال ص ٦٧٠ .

(٢) تاريخ الأدب العربي ، بروكلمان ٤٧/٣ ، التاريخ العربي والمؤرخون ص ٢٦٢ ، كشف الظنون ١/٢٢٨ .

(٣) تاريخ الأدب العربي ٤٧/٣ ، تاريخ التراث العربي ١/١٦٤ ، الطبرى للحوفى ص ٢٣٢ .

(٤) تكميلة تاريخ الطبرى ، تحقيق يوسف كنعان ، المطبعة الكاثوليكية ، بيروت ، انظر: تاريخ التراث العربي ١/١٦٥ .

(٥) ذِيول تاريخ الطبرى ، طبعة دار المعارف ، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم.

٧ - وأكمله عبد الله بن أحمد الفَرْغاني (ت ٣٦٢ هـ / ٩٧٣ م) بعنوان «الصلة» ، ثم كتب الفرغاني نفسه «ذيل الصلة» وكلاهما في حكم المفقود. قال ابن النديم (٤٣٨ هـ) : «وقد ألحق به جماعة من حيث قطع إلى زماننا هذا ، لا يُعوَّل على إلحاقيهم ، لأنهم ليس ممَّن يختص بالدولة ولا بالعلم»^(١). (ثامناً) : مختصرات تاريخ الطبرى وترجماته :

ولمزيد الأهمية بتاريخ الطبرى والعنایة به ، والحرص على الانتفاع به على أوسع صعيد ممكن ، فقد قام عدد من العلماء باختصاره لتقريريه إلى القراء ، ومختلف المستويات ، وترجمته إلى لغات أخرى ، فمن ذلك :

١ - ذكر ابن النديم أن تاريخ الطبرى قد اختصره وحذف أسانيده جماعة ، منهم محمد بن سليمان الهاشمى ، وأبو الحسن الشِّمشاطي المعلم من أهل الموصل ، وثالث يعرف بالسليل ابن أحمد^(٢).

٢ - مختصر لتاريخ الطبرى ، مع ترجمة قسم منه إلى اللغة الفارسية ، أعده أبو علي محمد البَلْعَمِي (٣٦٣ هـ / ٩٧٣ م) وهو من وزراء الدولة السامانية ، ترجمه بأمر منصور بن نوح السامانى^(٣).

وترجم هذا المختصر من الفارسية إلى الفرنسية في أربعة أجزاء طبعت في باريس .

وقام خضر بن خضر الأَمْدِي (٩٣٥ - ٩٣٧ هـ / ١٥٢٨ - ١٥٣٠ م) بترجمة هذا المختصر أيضاً من الفارسية إلى العربية ، ويوجد منه نسخة في ليدن برقم ٨٢٥ ، وتوجد ترجمة عربية أخرى للمختصر ، وتوجد منه نسخة في ليدن برقم ٨٢٦.

وُترجم هذا المختصر أيضاً إلى اللغة التركية في ثلاثة أجزاء ، طبعت باستنبول سنة ١٢٦٠ هـ ، ثم طبع ثانية ١٢٨٨ هـ ، ١٣٢٧ هـ ، ثم طبع في بولاق مصر

(١) الفهرست ص ٣٢٧.

(٢) الفهرست ص ٣٢٧ ، والشِّمشاطي هو أبو الحسن علي بن محمد العدوى (٣٨٠ هـ) انظر : التاريخ العربى والمؤرخون ص ٢٦٢.

(٣) تاريخ الأدب العربى ٤٨/٣ ، تاريخ التراث العربى ١٦٥/٢/١.

١٢٧٥ هـ ، ويوجد ترجمات أخرى إلى اللغة التركية أيضاً^(١).

وترجم هذا المختصر المذكور إلى اللغة الجغطائية ٩٢٧ هـ / ١٥٢١ م ، بقلم واحدي بلخي ، بأمر عبد اللطيف بن كوجكنجي الشيناني الذي حكم في سنة (٩١٦ - ٩٣٧ هـ / ١٥١٠ - ١٥٣٠ م) وتوجد منه نسخة في مكتبة بطرسبurg العامة^(٢).

٣ - مختصر تاريخ الطبرى مع إيراد زيادات إلى سنة ٣٢٠ هـ لعُرَيْبِ بن سعد القرطبي (٣٦٦ هـ) مع إصلاحات وزيادات في تاريخ إفريقية والأندلس ، ويوجد منه نسخ خطية في وتأ برقم ١٥٥٤ ، ونقل ابن عذاري منه ما يختص بتاريخ إفريقية والأندلس ، وأودعه في كتابه «البيان المغرب» وطبعت أخبار العراق ملحقة بالتاريخ باسم «صلة تاريخ الطبرى» من سنة ٢٩١ هـ إلى سنة ٣٢٠ هـ^(٣).

٤ - مختصر تاريخ الطبرى لمؤلف مجهول ذكره فؤاد سزكين ، ويوجد منه نسخ خطية في الأحمدية بتونس وباريس^(٤).

(تاسعاً) : تحقيق تاريخ الطبرى وطبعه ونشره :

ولاستمرار أهمية تاريخ الطبرى ، وال الحاجة إليه في الحاضر والمستقبل ، فقد اتجه العلماء إلى تحقيقه وطبعه ونشره ، وطبع عدة طبعات في عدد من الدول والبلاد ، فمن ذلك :

١ - طبعة ليدن بين سنتي ١٨٧٩ و ١٨٩٨ م ، أشرف عليها بعض المستشرقين ، وهي طبعة ناقصة لعدم الحصول على نسخة كاملة في ذلك الوقت ، وألحق بهذه الطبعة كتاب «الم منتخب من ذيل المذيل في تاريخ الصحابة والتبعين للطبرى» وقسمًا من «مختصر تاريخ الطبرى» ، وفي هذه الطبعة مجلد للفهارس العامة.

(١) تاريخ التراث العربي ١٦٥/٢/١.

(٢) تاريخ الأدب العربي ٤٨/٣ ، تاريخ التراث العربي ١٦٥/٢/١ ، التاريخ العربي والمؤرخون ص ٢٦٢.

(٣) المراجع السابقة ، كشف الظنون ١/٢٢٧.

(٤) تاريخ التراث العربي ١٦٥/٢/١.

٢ - الطبعة الثانية في ليدن ما بين سنتي ١٨٩٧ و ١٩٠١ م ، وأشرف على التحقيق عدد من المستشرقين بإشراف دي غويه ، ورجعوا إلى عدة مخطوطات من اثنتي عشرة مكتبة في أوروبا والعالم الإسلامي.

وقال الأستاذ محمد أبو الفضل إبراهيم عن هذه الطبعة بأنها من أمثل المطبوعات العربية وأدقها^(١)، وتقع في خمس عشرة مجلدة ، منها اثنان للفهارس .

٣ - قامت المطبعة الحسينية بالقاهرة بطبع تاريخ الطبرى عن النسخة الأوربية ، وبإشراف يُوسُف بك حنفى ، ومحمد أفندي عبد اللطيف الخطيب سنة ١٣٢٦ هـ ، وجاءت في ثلاثة عشر جزءاً مع ذيله «صلة تاريخ الطبرى» لعُرِيب بن سعد ، و«الم منتخب من ذيل المذيل» .

٤ - قامت المكتبة التجارية الكبرى بمصر بنشر تاريخ الطبرى ، وطبعه في مطبعة الاستقامة بالقاهرة سنة ١٣٥٨ هـ / ١٩٣٩ م ، في ثمانية مجلدات ، ومعها «صلة تاريخ الطبرى» و«الم منتخب من ذيل المذيل» ، ثم طبع في نفس المطبعة سنة ١٣٧٥ هـ / ١٩٥٥ م ، وصوّرت هذه الطبعة مجدداً في مطبعة الأمير ، قم ، إيران سنة ١٤٠٤ هـ ، وحذف في طبعة المطبعة الحسينية ومطبعة الاستقامة التعليقات والفالس .

٥ - قامت دار المثنى بيغداد بتصوير تاريخ الطبرى بالاعتماد على طبعة دي غويه في أربعة عشر جزءاً .

٦ - وجاءت مكتبة خياط في بيروت بصورة تاريخ الطبرى سنة ١٩٦٥ م .

٨ - وأهم طبعة لتاريخ الطبرى صدرت عن دار المعارف بمصر ما بين سنتي ١٩٦٠ و ١٩٦٧ م في أحد عشر مجلداً بتحقيق الأستاذ محمد أبو الفضل إبراهيم ، وخصص ثلاثة أرباع الجزء العاشر للفهارس ، والجزء الحادى عشر لذيول الكتاب ، وهي «صلة تاريخ الطبرى» لعُرِيب بن سعد ، و«تمكملة تاريخ الطبرى» لمحمد بن عبد الملك الهمذاني ، و«الم منتخب من ذيل المذيل للطبرى» لعُرِيب بن سعد .

(١) تاريخ الطبرى ، المقدمة ٢٩/١ طبعة دار المعارف .

ورجع المحقق إلى الطبعات السابقة والأصول الخطية التي لم يقف عليها المستشرقون ، كما رجع إلى المصادر ذات الصلة بالكتاب مثل تفسير الطبرى وسيرة ابن هشام وكتب التاريخ واللغة والأدب ودواوين الشعر ، وسجل ذلك كله في مقدمته^(١) .

ويعتقد الأستاذ شاكر مصطفى أن جميع هذه العناية لم تمنع ضياع بعض تاريخ الطبرى ، ولكن ذلك لا يشكل نقصاً هاماً في جملة الكتاب أو يقلل من قيمة السخن المطبوعة والمتداولة^(٢) .

وهكذا تحقق لهذا الكتاب العظيم القيمة البقاء والحفظ ، واستفادت منه الأجيال على مر التاريخ ، وانتشر في أيدي الناس في العالم أجمع ، وطبع عدة طبعات ، وتوفرت نسخه في كل البلاد ، وبقي ذكرى غالبة وثمينة للإمام الطبرى ليتجدد له الثواب والأجر بسبب الانتفاع بعلمه.

قلنا : فلذا اعتمدنا في تحقيقنا وتخريجنا لهذا السفر العظيم على هذه الطبعة الأخيرة.

كما قمنا بتقسيم الكتاب إلى مراحله الخمسة :

١ - قبلبعثة النبوة.

٢ - عصر النبوة.

٣ - الخلفاء الراشدون.

٤ - عصر بنى أمية.

٥ - عصر بنى العباس.

وكل مرحلة قسمناها إلى صحيح وضعيف.

اللهم أجعل أعمالنا كلها صالحة ولو جهك خالصة ولا تجعل فيها شركاً لأحد.

* * *

(١) تاريخ الطبرى ، المقدمة ٢٠ / ١ طبعة دار المعارف ، وانظر مقدمات بقية الأجزاء ، تاريخ الأدب العربى ٤٧ / ٣ ، تاريخ التراث العربى ١ / ٦٣٢ .

(٢) التاريخ العربى والمؤرخون ١ / ٢٦٣ .

المبحث الثالث

مَنهجُ الطَّبَرِيِّ فِي تَارِيْخِهِ

(أولاً) : المنهجية عند الطبرى :

بدأت تدوين العلوم عامة ، وكتابة التاريخ خاصة في منتصف القرن الثاني الهجري كما سبق ، وكانت بشكل ابتدائي وكيفي ، ثم اتجهت العلوم إلى التدقيق والتنظيم والترتيب في القرن الثالث الهجري .

وكان الطبرى رحمة الله يتسم بالموسوعية والشمولية من جهة ، والتدقيق والتنظيم والمنهجية من جهة ثانية ، وكان منهجه واضحاً ومنظماً في مختلف العلوم والفنون التي شارك فيها ، وكان يصرّح بخطته ومنهجه في مقدمات كتبه ومصنفاته .

ويبلغ التحقيق والترتيب والمنهجية في كتابة التاريخ قمةً عند الطبرى ، فكان أكثر من غيره تنظيماً ، وأميل إلى تنسيق الحوادث وترتيبها^(١) ، ولذلك يُعتبر الطبرى شيخ مدرسة التاريخ المنقول التي امتدت خلال القرون الثلاثة السابقة ، وكان الطبرى يقصد تحرّي الدقة في نقل الخبر ، دون أن يتحول التاريخ على يديه إلى مجال التحليل والنظر العقلي والاستنتاج .

وصرح الطبرى بمنهجه في مقدمة تاريخه ، والتزم بهذا المنهج ، فقال :

«وليعلم الناظر في كتابنا هذا أنَّ المتمادي في كل ما أحضرت ذكره فيه ، مما آتى راسِمه فيه ، إنما هو على ما رَوَيْتُ من الأخبار التي أنا ذاكرُها فيه ، والأثارِ

(١) وهذا ما دفع بعض الباحثين إلى تشبيه عمل الطبرى في التاريخ الإسلامي بما قام به البخارى ومسلم في الحديث . انظر : التاريخ العربي والمؤرخون ص ٢٥٧ .

التي أنا مُسْتَنِدُها إلى رُوَايَهَا فِيهِ ، دون مَا أَدْرِكَ بحجج العقول ، واستُنْبِطَ بفَكِيرِ
النفوس إِلَّا اليسير القليل مِنْهُ ، إذ كَانَ الْعِلْمُ بِمَا كَانَ مِنْ أَخْبَارِ الْمَاضِينَ ، وَمَا هُوَ
كَائِنٌ مِنْ أَنْبَاءِ الْحَادِثَيْنَ غَيْرَ وَاصِلٍ إِلَى مَنْ لَمْ يَشَاهِدُهُمْ ، وَلَمْ يُدْرِكْ زَمَانَهُمْ ، إِلَّا
بِأَخْبَارِ الْمُخْبِرِيْنَ ، وَنَقْلِ النَّاقِلِيْنَ ، دونِ الْاسْتِخْرَاجِ بِالْعُقُولِ ، وَالْاسْتِبْنَاطِ بِفَكِيرِ
النفوس ، فَمَا يَكُنْ فِي كِتَابِي هَذَا مِنْ خَبْرٍ ذَكَرْنَاهُ عَنْ بَعْضِ الْمَاضِينَ مَا يَسْتَنْكِرُهُ
قَارئُهُ ، أَوْ يَسْتَشْنِعُهُ سَامِعُهُ مِنْ أَجْلِ أَنَّهُ لَمْ يَعْرِفْ لَهُ وَجْهًا فِي الصَّحَّةِ ، وَلَا مَعْنَى
فِي الْحَقِيقَةِ ، فَلَيَعْلَمَ أَنَّهُ لَمْ يُؤْتَ فِي ذَلِكَ مِنْ قِيلَنَا ، وَإِنَّمَا أُوتِيَ مِنْ قِيلَ بَعْضِ
نَاقِلِيهِ إِلَيْنَا ، وَإِنَّمَا أَدَّيْنَا ذَلِكَ عَلَى نَحْوِ مَا أَذَّى إِلَيْنَا»^(١).

وبالتأمل في هذه المنهج المحدد ، وبالرجوع إلى نصوص «تاريخ الأمم والملوك» استخرج علماء التاريخ منهج الطبرى في التاريخ ، وأبدوا عليه المأخذ والملاحظات .

وسبق البيان أن تاريخ الطبرى ينقسم إلى قسمين رئيسين ، تاريخ قبل الإسلام ، وتاريخ بعد الإسلام ، ولكل قسم منهجه وطبيعته ، كما سنبيّنه إن شاء الله تعالى .

(ثانية): سمات منهج الطبرى في «التاريخ» قبل الإسلام:

ويتضمن هذا القسم مقدمة عن الكون والزمان وخلق إبليس وأدم وتاريخ البشرية منذ هبوط آدم إلى الأرض ، وتاريخ الأنبياء والفرس والروم والعرب قبلبعثة النبوة .

وجعل الطبرى في هذا القسم تاريخ الأنبياء هو المنطلق لتاريخ الإنسانية ، فيذكر النبي ومن يعاصره من الأمم والملوك ، والمقارنة بين الدول .

ولم يرتب الطبرى الحوادث على حسب وقوعها سنة فسنة ، لأن ذلك غير ممكن له ، وإنما قلل طريقة علماء التوراة بالبدء بالخليقة ، ثم بذكر تاريخ الأنبياء على حسب ما ورد في التوراة ، وفي أثناء ذلك يتعرّض للحوادث التي وقعت في أيام كلنبي ، ويذكر الملوك والحكام الذين كانوا يعارضونهم ، وما جرى بينهم

(١) تاريخ الطبرى ٥ / ١.

من حوادث وحروب ، ثم عرض للأمم التي جاءت بعد الأنبياء حتى ظهور الإسلام .

ويُعرف هذا الترتيب من أهل الكتاب ، ويطلق على تدوين التاريخ بهذه الطريقة «التاريخ» تميّزاً له عن «الحواليات» أو النظام الحولي أو النظام السَّنوي .

ويتسم هذا القسم من تاريخ الطبرى بالقصص الخيالى ، ويكثر فيه الأساطير والخرافات التي تتحدث عن العهود التاريخية القديمة للإنسان ، كما تظهر الحكايات والأخبار الإسرائيلية التي ترجع إلى العهد القديم وكتب اليهود ، ويدرك الطبرى أيضاً بعض الأساطير الشعبية الوثنية عن الأمم الأخرى .

واقتصر الطبرى في هذا القسم على أصول الحوادث ، وأعرض عن التفصيات إما لخشية الإطالة ، وإما لعدم الثقة بها نظراً لطول العهد ، ودخول التحريف ، وعدم اتصال الأسانيد ، وإما لعدم أهميتها في نظره ، وأنها كانت من نسج الخيال والتسليات ، خلافاً لما سرّاه في التاريخ الإسلامي^(١) .

(ثالثاً) : معالم منهج الطبرى في التاريخ الإسلامي :

عرض الطبرى تاريخ ما بعد الإسلام من خلال منهج محدد ، واتبع طريقة واضحة في معظم الأحوال^(٢) ، والتزم بهذا المنهج والطريقة التي نذكر معالمها فيما يلي :

١ - نظام الحواليات: سلك الطبرى في تاريخ القسم الخاص بالتاريخ الإسلامي نظام الحواليات ، فراعى ترتيب الحوادث ترتيباً زمنياً ، عاماً بعد عام ، وحولأً بعد حول ، ابتداءً من الهجرة النبوية حتى سنة ٣٠٢ هـ / ٩١٥ م ، وذكر في كل سنة ما وقع فيها من أحداث مهمة ، فإن كانت الحادثة طويلة جزأها ، وأشار إليها مجملة ثم يذكرها مفصّلة في الوضع الملائم ، ولذلك يختلف حجم الحواليات عنده بحسب كثرة الأحداث وأهميتها في كل حول .

(١) الطبرى للحوفي ص ١٩٥ .

(٢) انظر: الطبرى للحوفي ص ١٩١ وما بعدها ، تاريخ التراث العربي ١٦٠/٢/١ ، ظهر الإسلام ٢٠٤/٢ ، التاريخ العربي والمؤرخون ص ٢٥٧ وما بعدها ، تاريخ الطبرى ، المقدمة ١/٢٤ طبعة دار المعارف .

وطريقة الحوليات انفرد بها المؤرخون المسلمين عن اليونان والرومان وأوربا في العصور الوسطى ، ولم يبتكر المؤرخون المسلمين عن اليونان والرومان وأوربا في العصور الوسطى ، ولم يبتكر الطبرى هذه الطريقة ، بل سبقه إليها بعض المؤرخين المسلمين مثل **الهيثم بن عدی** (٢٠٧ هـ) وجعفر بن محمد بن الأزهر (٢٧٦ هـ) وعمار بن وسيمة المصري (٢٨٩ هـ) والواقدي (٢٠٧ هـ) لكن تاريخ الطبرى أقدم كتاب وصل إلينا على ترتيب السنين ، ثم سار على هذه الطريقة بعد الطبرى كثيرون ، مثل ابن مسکویه (٤٢١ هـ) ، وابن الجوزي (٥٩٧ هـ) وابن الأثير (٦٣٠ هـ) وأبو الفداء (٧٣٢ هـ) ، وخالفهم في ذلك **اليعقوبي** (٢٨٤ هـ) والدينوري والمسعودي (٣٤٦ هـ) وابن خلدون (٨٠٨ هـ) الذين كتبوا تاريخ الحوادث بشكل كامل ومتصل ولو استغرق سنوات ، إلى أن أدخل مؤرخ الإسلام الذهبي (٧٤٨ هـ) في كتابه «تاريخ الإسلام» تعديلاً عليه بالتقسيم الفرعى للحوادث متبعاً نظام العقود ، أي من السنة الأولى إلى السنة العاشرة ، وهكذا ، وطبق هذا التقسيم إلى عقود على كل أجزاء كتابه (وهو ٢١ جزءاً من بداية التاريخ الإسلامي حتى بداية القرن الثامن الهجري) ، واستمد الذهبي أصول هذا التقسيم من تاريخ السيرة النبوية مع الربط بآداب الطبقات والترجمات.

وطريقة الطبرى في سرد أحداث كل حَوْلَية ليست على نسق واحد ، فتارة يذكر الحدث التاريخي ، ثم يبدأ بذكر تفاصيله ، والروايات التي فيه ، وتارة يذكر جملة أحداث وقعت في سنة واحدة ، ثم يعود إلى تفاصيلها ، ويختتم الحولية غالباً بذكر من توفي فيها من الأعلام المشهورين ، ويدرك باستمرار في ختام كل حَوْلَية أسماء عمال الأقاليم وأمراء الحج في تلك السنة ، كما يذكر أخبار المرابطين في الشغور للجهاد ، خاصة مع الروم.

أما الأخبار التي لا ترتبط بسنة معينة فكان الطبرى يذكرها كاملة ، فمثلاً كان يختتم الحديث عن كل خليفة واستعراض الأحداث التي وقعت في عهده بذكر سيرته وترجمته .

٢ - نقل الروايات : عَوَّل الطبرى في أكثر كتابه على الرِّواة ، كما صرَّح في مقدمته السابقة ، متحاجاً أنَّ المؤرخ لا يصحُّ له أن يستند إلى المنطق والقياس

والاستنباط وإنما يعتمد على ما ينقل إليه ، ليدوّن الأخبار على عهدة رواتها ، ويعرضها بشكل موضوعي محايد ، مع عَزْوٍ كُلّ رواية لصاحبها.

وكان الطبرى - رحمة الله تعالى - يذكر الروايات المختلفة ، سواء كانت موافقة لفكرة ورأيه ، أم مخالفة لذلك ، ولم يعلق غالباً بترجح ، أو نقد ، وترك ذلك للقارئ ، لكن كان أحياناً يُدلّي برأيه ، ويرجح بعض الروايات مبيّناً وجه الترجيح ، ومستخدماً في هذه الطريقة معرفته بالحديث وطرقه.

ويذكر الطبرى سند الرواية موصولاً إلى صاحبه على طريقة علم الحديث ، فإذا سمع الرواية من إنسان مشافهه قال: «**حدَثَنَا**» وإذا اشترك معه آخرون في السماع قال: «**حدَثَنَا**» ، وإذا كان بالمراسلة قال: «**كَتَبَ إِلَيْيَ**» ، وإذا أخذ الأخبار عن الكتب أو بطريق الإجازة قدّم لعبارة يقول: «**قَالَ**» و«**ذُكِرَ**» و«**رُوِيَ**» و«**حُدُثَتْ** عن فلان» ويهمّل اسم المحدث ، كما يذكر اسم مؤلف الكتاب ، ولا يذكر اسم الكتاب ، واستخدم الطبرى اصطلاحات الحديث ، التزاماً منه بمنهج المحدثين ، في رواية الحديث النبوى ، لذلك كان رجال الحديث هم واضعو أسس المنهج التاريخي.

ولكنّ الطبرى ، وغيره من المؤرخين ، لم يتزموا بجميع قواعد مصطلح الحديث في كتابة التاريخ لفارق الكبير بينهما ، فالحديث مصدر من مصادر التشريع الإسلامي ، وتوّخذ منه الأحكام الشرعية ، ويتمثل التطبيق العملي لأحكام الدين ، وهو مصدر العقيدة ، وهو المنبع لسيرة الرسول ﷺ التي يعتمد عليها في الاقتداء والتأسيّ ، ولا يرقى التاريخ إلى هذا المستوى ، لذلك تساهل الطبرى رحمة الله في الروايات التاريخية ، ولم يطبّق على رجال السنّد منهج الجرح والتعديل ، واكتفى بإلقاء العهدة في الخبر على الرّاوي ، كما ذكر في مقدمته ، واعتمد قيمة الروايات بقوة أسانيدها من جهة ، وقرب السنّد إلى الحادثة من جهة أخرى ، ومن هنا يظهر السبب في قبول الطبرى لرواية الضعفاء - عند المحدثين ، مثل محمد بن السائب الكلبى ، وابنه هشام بن محمد الكلبى ، وإسماعيل بن عبد الرحمن السُّدي الكبير - كما يقبل رواية المجهولين ، والروايات المرسلة إلى ابن عباس وغيره.

وتسهّل الطبرى أكثر فأكثر في الأجزاء الأخيرة من الكتاب ، فيقول مثلاً:

«ذكر لي بعض أصحابي» و«ذكر لي جماعة من أصحابنا» و«ذكر من رأه وشاهده» و«حدثني جماعة من أهل كذا» ولعل الباعث على زيادة التساهل خوفه على محدثيه الأحياء من غضب الآخرين الذين تمثّلهم الرواية ، ويقلّ السنّد أكثر فأكثر في الأجزاء الأخيرة حتى ليندر أحياناً في صفحات متالية .

وإن استخدام الإسناد والروايات قد شاع في مختلف التصانيف والعلوم ، وصار هو الصفة الغالبة على منهج تدوين العلوم الإسلامية الأخرى ، واستمر حتى نهاية القرن الخامس الهجري تقريباً ، ثم قلل الاعتناء به ، وحل محله تدريجياً النقل من الكتب والمؤلفات ، وبقي شيء منه عند علماء الحديث للتبرك والمحافظة على قدسيّة الحديث وخاصيّة الأمة الإسلامية بالإسناد ومصطلح الحديث .

وكان السبب في استعمال طريقة الإسناد والروايات في التاريخ أن المؤرّخين الأوائل جمعوا بين صفتى المحدث والمؤرخ ، وأن الدراسات التاريخية ظهرت في أحضان علم الحديث ، وما فيه من سيرة رسول الله ﷺ وشمائله ومعازيه وهديه ، كما لجأ المؤرخون إلى طريقة الرواية لاختيار الروايات والسلالس التي تتفق مع ميلهم ورغباتهم وعقائدهم .

وطريقة الإسناد تقابل في زماننا الالتزام بمنهج البحث العلمي في ذكر المصادر والمراجع للمادة المعروضة في مختلف العلوم ، وفي بيان الأجزاء المركّب منها الدواء والجهاز وغير ذلك .

٣ - الاعتماد على المصادر: كان جلّ اعتماد الطبرى في الأخبار التاريخية على المصادر التاريخية التي صنفّت قبله ، وكان الطبرى يذكّر غالباً الإسناد إلى المصادر عن طريق الرواية الذين يذكر أسماءهم ، دون كتبهم ، ومعظم هؤلاء الرواة صنفوا المؤلفات في الموضوعات التي تطرق إليها الطبرى ، ويأخذ من المؤلف نفسه مباشرة ، أو بالواسطة عن نقل عنهم .

وكان الطبرى - رحمة الله تعالى - في اقتباس الروايات التاريخية يخالف منهج المحدثين الذين يحرصون على نقل كل حديث بمفرده ، ثم ضمّه إلى حديث آخر ولو اختلف الموضوع ، أما في التاريخ فكان الطبرى وعلماء التاريخ يجمعون بين

الرّوايات العديدة ، ويُمْزجُون بعضها مع بعض لإخراج الحادثة متكاملة ووافية في المعنى والموضوع وأطراف الحادثة ، وهذا ما يُسمّى تاريخياً بالإسناد الجمعي ، لحاجة كتب التاريخ والقصص والأخبار إلى السّرد الموضوعي ، واستمرار الحوادث في نسق تاريخي متتابع ، فتتكامل الصورة التاريخية في الموضوع ، لكنهم يضطرون إلى ذكر السندي لكل رواية لإتاحة الفرصة للتحقق من صحتها ، والتأكيد من سندتها .

٤ - جمع الأخبار وضبط النصوص : حرص الطبرى - رحمه الله - على ذكر أحداث كل سنة بشكل أخبار ، ولكنه يذكر غالباً للمحادثة الواحدة روايات مختلفة لاعتقاده بوجوب ذكرها ، ويقف غالباً عند هذا الحدّ ، فلا ينفرد الروايات المختلفة التي ذكرها ، ولا يناقش مضمونها ، ولا يرجح بعضها على بعض ، لذلك أطلق عليه بعض المؤرخين اسم «الجماعّة» وأطلقوا على كتابه اسم «مجموع» خلافاً لمنهج الطبرى في التفسير ، فإنه يناقش الروايات ، ويبين الرابع ، ويفيد رأيه باستمرار .

وكان الطبرى يحرص أيضاً في التاريخ على ضبط النصوص التي يرويها دون تبديل ، حتى ولو كان في النص كلمات أعمجمية ، ونصوص أعمجمية ، وشعار فارسية .

٥ - الاستطراد في ذكر الأسباب والتفاصيل المصاحبة : فيذكر الطبرى السبب في كل حادث يسجله ، وهذا أمر طيب لإلقاء الضوء عليه ، كما كان يستطرد في عرض التفاصيل المتعلقة بالأحداث ، ويعرض الحواشى المصاحبة لها ، لأنها تتعلق بها ، ثم يعود إلى الموضوع الرئيس الذي بدأ به ، ويدرك القارئ فيه بقوله : «نعود إلى سياق خبر كذا وكذا ، أو سياق خبر فلان أي راوي الخبر ، أو نرجع إلى حديث فلان» .

٦ - وضع العناوين للأحداث : ويمتاز الطبرى في منهجه التاريخي بوضع عناوين للأحداث التي يعرضها ، وخاصة للأحداث المهمة التي تحتل المكانة الأولى في السنة التي يُورّخ لها ، ويقدم عناوينه بمقدمة عن الحادث المعين للتأكيد على كلمة «سبب» ، أما الأحداث الصّغيرة فإنه يذكرها متعاقبة دون عناوين .

٧ - التوسيع في سيرة الخلفاء: يظهر من تاريخ الطبرى أنه يعطي الخلفاء أولوية خاصة ، وأهمية متميزة ، وكأنَّ التاريخ محاط بهم ، ويدور في فلكهم ، وأن حياتهم ذات أثر كبير في غيرهم ، للمثال القائل «الناس على دين ملوكهم» ، وانعكاس أعمالهم على فعالities الأمة ، فكان الطبرى إذا ذكر خليفة بين سبب وفاته ، وساق الروايات في ذلك ، وعرض جانباً من أحواله وأقواله وتصرّفاته وسيرته العامة والخاصة ، ويطيل أحياناً في الخلفاء المهمّين كما فعل في سيرة الخلفاء الراشدين ، ومعاوية بن أبي سفيان ، عبد الملك بن مروان ، وعمر بن عبد العزيز ، والمنصور ، والمهدى ، والرشيد .

٨ - الإكثار من الوثائق التاريخية: أكثر الطبرى من إيراد الوثائق التاريخية لمادته العلمية ، لذلك اعتبر تاريخه أوثق مصادر التاريخ الإسلامى ، كما وصفه ابن خلkan سابقاً بأنه «أصح التواريخت وأثبتها» وكذلك يعتبر تاريخ الطبرى أوثق ما دُوِّن في السيرة النبوية ، وهذا ينمّ عن دقة الطبرى وتحقيقه وسعة اطلاعه ، وهو ينسجم مع منهج الطبرى العلمي والدقيق في مختلف كتبه ومصنفاته .

وعلى سبيل المثال تضمن تاريخ الطبرى حوالي ثلاثين وثيقة تتعلق بالسيرة النبوية ، أكثرها في العهد المدنى ، وتضمن حوالي خمسين وثيقة تتعلق بعصر الخلفاء الراشدين ، وذكر الطبرى بعض الوثائق للعهد الأموي ، تُعتبر فريدة وهامة ، كما التزم هذه الدقة في تاريخ الروم والفرس والعرب ، بالإضافة إلى الوثائق الأدبية .

٩ - تسجيل النصوص الأدبية: وهنا يُكثر الطبرى من ذكر النصوص الأدبية المرتبطة بالأحداث ، كالشعر والخطابة والرسائل والمحاورات ذات الصلة بالمناسبات التاريخية^(١) .

والطبرى في هذه الناحية يتبع منهج المؤرخين في عصره ، ورواة الأخبار قبله ، الذين يحرِّصون على تدوين الشعر الذي يتصل بالموضوع ، كما كان

(١) يقول أحمد أمين: «وكتابه هذا ، مع أنه تاريخي في أصله ، فالقارئ له يقف على ثروة كبيرة في الأدب ، لأنَّه في حكاياته للروايات المختلفة يقصُّها في لغة رصينة بلغة ، غاية في القوة» (ظهر الإسلام / ٢٠٤).

الأدباء يستعينون بالأخبار التاريخية لبيان مناسبات القصائد ، والأحداث التي سبقتها ، والأخبار التي عرضتها ، وأسماء الأشخاص المذكورين فيها ، ولذلك امتزج التاريخ بالأدب ، وصار المؤرخ غالباً راوية للأدب ، وصار الأدب مؤرخاً.

من الأمثلة الأدبية التي ذكرها الطبرى خطبة زيد بن أبيه بالبصرة سنة ٤٥ هـ ، (١٢٤/٦) وخطبة الحجاج بالكوفة سنة ٧٥ هـ (٢١٠/٧) وخطبة عبد الملك بن مروان بدمشق (١٧٥/٧) وخطبة خالد القسري بمكة (٨٠/٨) وخطبة الحسين بن علي في أصحابه (٢٢٩/٦) والحوار بين عبد الله بن الزبير وأمه أسماء حينما حاصره الحجاج بمكة (٢٠٢/٧) والحوار بين الخوارج والمهلب بن أبي صفرة (١٩١/٧) ورسالة المختار الثقفي إلى محمد ابن الحنفية (١٢٧/٧) والقصائد الكثيرة التي تظهر جلية على صفحات «تاريخ الطبرى».

١٠ - الحياد والواقعية : كان الطبرى ورعاً وتقيناً ودقيقاً ، وكان في الوقت نفسه ملتزماً بمذهب أهل السنة والجماعة ، وعقيدة السلف ، ومع ذلك كان يورد الروايات المختلفة في الأحداث ، دون ميل مع أي هوى في إيراد الأخبار التاريخية ، وكان في الغالب حيادياً بتصوير الأحداث ، وترك الحكم عليها للقارئ ، وعدم ممارسة النقد في الروايات وفي المتن ، لأنه يعتقد أن أحاديث التاريخ لا تُبنى عليها أحكام شرعية ، باستثناء الشؤون السياسية ، وخاصة في العصر الراشدي ، فكانت هذه الأحداث ذات انعكاس إيجابي وسلبي على المجتهدين في التطبيق الصحيح للشرع .

والطبرى في نفس الوقت جرى في قول الحق ، لا تأخذه في الله لومة لائم ، وقد تعرض في «تاريخه» لذكر كثير من الأحداث التي لا يرضى عنها العباسيون أنفسهم ، وهم الخلفاء وأصحاب السلطة والنفوذ^(١) .

رابعاً: المآخذ على تاريخ الطبرى :

قلما يسلم عمل إنسان من نقص ، أو يصدر بشكل كامل ، فإن الكمال لله وحده ، وكل عمل للبشر معرض للنقص والخطأ ، والنقد والمآخذ ، ولذلك

(١) انظر: ظهر الإسلام ٢٠٤/٢ .

سجل علماء التراث والتاريخ عدة ملاحظات على تاريخ الطبرى والمادة العلمية فيه ، وعلى منهجه الذى سلكه ، ونبأ الآن بالماخذ التى أوردها العلماء على المادة التاريخية فيه^(١) ، وأهمها .

١ - لم يحفظ الطبرى التوازن بين فترات التاريخ قبل الإسلام وبعده ، لأنه عرض تاريخ العالم منذ بدء الخليقة وهبوط آدم وتاريخ الأنبياء والأمم والدول في مجلد واحد يساوى تقريباً عشر الكتاب ، بينما عرض التاريخ الإسلامي بتوسيع ، وأفرد له تسعة عشر الكتاب .

ولكن هذه الملاحظة لا تَرِدُ على الطبرى رحمة الله ، لأنه لا يريد حقيقة أن يؤرخ للعالم ، ليتحقق التوازن ، ولكنه قصد أن يكتب التاريخ الإسلامي فحسب ، وقدم لكتابه بتمهيد ومدخل للتاريخ السابق ، ولذلك كان تاريخ الطبرى أجمل وأعظم كتاب عن التاريخ الإسلامي في القرون الثلاثة الأولى ، وصار المرجع لكل من جاء بعده .

٢ - أسرف الطبرى بذكر الإسرائييليات والخرافات والأوهام والحكایات فيما يتعلق ببدء الخليقة وقصص الأنبياء والتاريخ القديم ، دون أن يمحض ذلك ويعرضه على النقد والمنطق والعقل وما جاء في القرآن والسنة .

وهذه الملاحظة لم ينفرد بها الطبرى ، بل شاركه فيها بقية المؤرخين ، لأن مصدر المعلومات لهم غالباً في ذلك هم أهل الكتاب ، الذين عَرَضُوا هذه المعلومات عن بدء الخليقة ، ولا يوجد مرجع آخر فيها ، فنقل المؤرخون ذلك دون تمحیص أو تدقیق أو تعليق^(٢) .

٣ - اقتصر الطبرى في تاريخه عما نقله من المصادر والأسناد الماضية ، وهذا صرفه عن النظر في أحداث عصره ، فلم يُسجّلها في كتابه ، ولم يؤرخها ، فجاءت

(١) التاريخ العربي والمؤرخون ص ٢٦٠ وما بعدها ، الطبرى للحوفى ص ٢٠٤ ، ظهر الإسلام ٢٠٤ / ٢.

(٢) قال أحمد أمين : «إن كثيراً من تاريخ الأمم القديمة ليس إلا خرافات وأوهاماً ، ولكن عندر الطبرى في ذلك أن هذا هو ما كان محدوداً في وقته ، وليس له من الوثائق ما يستطيع أن يذكر به التاريخ الصحيح» ظهر الإسلام ٢٠٣ / ٢.

الأحداث التي عاصرها باهتة ومحضرة جداً ، مع أن الطبرى كان على اطلاع واسع بها ، وكانت خبرته جيدة ورحل إلى عدة أقطار في العالم الإسلامي ، وعاش دهراً طويلاً وقعت فيه أحداث كبيرة وأمور مهمة ، فلم يولي اهتمامه بجيشه وعصره ، وظهر فيما كتبه عنه الضعف والإيجاز المخل.

ولعل الباعث للطبرى على ذلك تصوّره لدراسة التاريخ وفهمه له بأنه مستودع خبرات الأجيال السابقة فقط ، وأنه يكتب لأبناء جيشه الذين يشاركونه في معرفة الأحداث ومجريات الأمور ، فلا يأتينهم بجديد ، وفاته أن الأجيال اللاحقة بحاجة ماسة للمعرفة التفصيلية للجيش الذي عاصر الطبرى ، وخاصة أنه شاهد صدق على ما يقول ، وأنه أقرب من غيره لتسجيل هذه الأحداث ، فحرّم التالين من ذلك ، ولو أرّخ لعصره لقدم لغيره مادة غزيرة وموثقة .

٤ - كان فهم الطبرى للتاريخ العالمي أقل وأضيق من فهم بعض المؤرّخين السابقين له كاليعقوبى وابن قتيبة مثلاً - في نظرتهم الشمولية ، بينما اقتصرت نظرية الطبرى إلى تاريخ العالم على الخط الذي يصل بين الأنبياء والعهد الجاهلي كمقدمة للتاريخ الإسلامي .

وقد يكون عذر الطبرى في ذلك أنه يريد التاريخ الإسلامي بحد ذاته ، وذكر تاريخ الأمم والملوك الآخرين كمقدمة فقط ، هذا من جهة ، ومن جهة أخرى فإن التاريخ القديم قليل المصادر ، ومصادره غير معتمدة ، والثقة فيها غير متوفّرة ، والخيال فيها والخرافة والأساطير من بنات الأفكار أكثر من الحقائق ، فأخذ الطبرى جانباً من ذلك ، لأن ما لا يُدرك كله لا يُترك جله .

٥ - كان الطبرى مهتماً في تاريخه بالأحداث السياسية ، فحصر تاريخه غالباً في المشاكل الداخلية للدولة ، وما يتصل بالسياسة الداخلية ، وأغفل كثيراً الحديث عن الفتوحات الإسلامية كالأندلس وغيرها ، وأعرض عن بيان العلاقات الدولية ، وحتى في العلاقات بين الدولة الإسلامية والدول المجاورة لها كالبيزنطية والإفرنجية ، وأحوال هذه الدول وأمرائهم ، وفي الأمور الداخلية اهتم

بالحدث السياسي ، ولم يول أمر الإدارة والقضاء والاقتصاد ، والمجتمع أيّ^(١) عناية .

وهذا الأمر يشتراك فيه الطبرى مع بقية المؤرخين ، لأنَّ التاريخ كان مرتكزاً على الحُكَّام والأمراء ، ولم يتلفت إلى الجوانب الحضارية والإدارية والاقتصادية ، إلى أن تطور علم التاريخ ، واتجه إلى بقية عناصر الحياة ، وبلغ أوجهه في عهد ابن خلدون وكتبه .

٦ - كان مفهوم التاريخ عند الطبرى متأثراً بالنزعية الدينية أكثر من تأثيره بالنظرية التجارية ، فأحداث التاريخ تعبير عن المشيئة الإلهية ، والتاريخ مستودع بخبرات عليا للأمة ، دون اهتمام بقيمة التجارب التي مرت بها ، ورسالتها التاريخية الواحدة .

وهذه الملاحظة تُعتبر مزيَّة لتأريخ الطبرى المحدث والمفسر والمجتهد والعالم والحافظ للقرآن ، والإمام لمذهب فقهى عملى في الحياة ، وأنَّ الطبرى المحدث عبر عن وجهة النظر الدينية الإسلامية عامة ، ووجهة نظر المحدثين في كتابة التاريخ بفكرة تكامل الرسالات السماوية في التاريخ ، وأنَّه تعبير عن المشيئة الإلهية ، فكان تاريخه قريباً ومكملاً لتفسيره ، فالتفصير لتوضيح إرادة الله في كلامه ، والتاريخ يوضح إرادة الله في مسيرة البشرية^(٢) .

خامساً: المأخذ على منهج الطبرى :

تعرض علماء التاريخ لبيان المأخذ على منهج الطبرى في تاريخه وقدّموا عدة ملاحظات عليه^(٣) ، نذكر أهمها:

١ - ضمور النقد عند الطبرى: وذلك أنه اكتفى بسرد الروايات ، وبين في مقدمته أنه يرمي العهدة على الرواية ، ووقف خارج الأحداث ، وملتزماً بالرواية ، ولم يعدّ الرواية ، ولم يجرّحهم ، مع أنَّ الطبرى من علماء الحديث ، ويمكنه

(١) ظهر الإسلام ٢٠٤/٢ .

(٢) انظر: ظهر الإسلام ٢٠٦/٢ .

(٣) التاريخ العربي والمؤرخون ص ٢٥٩ ، الطبرى للحوفي ص ٢٠٤ ، ظهر الإسلام ٢٠٤/٢ وما بعدها ، تاريخ الطبرى ، المقدمة ١/٢٥ طبعة دار المعارف .

الالتزام بطريقة المحدثين في مجرد سرد الرواية دون تعرّض لمنتها ، كما أنه يفعل فعلهم في التعديل والتجريح للرواية ، ولذلك يعتبر ضمور النقد عند الطبرى في التاريخ نقطة ضعف ونقص ، وإن اعتُبرت في الحديث أمانة وميزة ، وقد ذكر الطبرى أحياناً روايات غير معقولة ، أخذها عليه المؤرخون بعده بإيرادها دون نقد وتفكير ، وأنها منافية للعقل ، ولا يجوز أن تُسْطَر في الكتب ، ولم يشر إلى الروايات المكذوبة .

وهذه النظرة من الطبرى إلى التاريخ تحصره في نطاق المعرفة ، وتجزّده من العلة والاعتبار والتأسي من جهة ، خلافاً لابن مسكونية في كتابه «تجارب الأمم» قاصداً بيان التجارب التي مرت بالسلف ، ويحسن بالخلف أن يطلع عليها ، ويستفيد منها ، ويتعظ بها ، كما أبعدت نظرهُ الطبرى للتاريخ المؤرخ عن التدخل في الأحداث وتحليلها وبيان مدلولاتها ، وهو ما يتوجه إليه المؤرخون المتأخرلون .

لكن الطبرى رحمة الله أذلى بدلوه أحياناً ، وأبدى رأيه ، ورجح ما يراه قوياً بقوله «والصحيح عندنا» ، و«أنا أشك في ذلك» وقوله «وقد زعم بعضهم كذا» وهو توجيه نقدي واضح ، كما أنه لم يعتمد من الأصل في النقل على من كان فيه مظنة شبهة ، من أمثال محمد بن السائب الكلبي ، ومقاتل بن سليمان إلا في الثدرا ، واعتمد على المؤلفات التي يثق بها مثل كتب سيف بن عمر في التاريخ ، كما أن رجال الحديث والتاريخ في الأصل لم يتشددوا في الرواية التاريخية تشددَهم في الحديث النبوى الشريف ، وكان عمل الطبرى في التاريخ جلياً ، لأنَّه حفظ لنا الروايات من الضياع ، ونسقها تنسيقاً جيداً ، ولو لواه لضاع معظمها ، وحرمنا من معرفتها .

٢ - عدم ذكر الكتب والمؤلفات : كان الطبرى يَرَوِي التاريخ عن الرواية والمؤرخين ، دون أن يحدّد الكتاب المأخوذ منه ، وكان لكثير منهم عدد من الكتب ، فسيف بن عمر له كتاب الفتوح ، والردة ، وموقعة الجمل ، وغيرها ، والواقدي له كتاب المغازى ، والردة ، والتاريخ الكبير ، وهشام الكلبي له مئة وأربعون كتاباً ذكرها ابن النديم ، واستخرج فرانز روزنثال أسماء الكتب الواردة

في الفهرس لكل واحد من المؤلفين ، ومصنفة حسب مواضعها^(١) .

ولو ذكر الطبرى أسماء الكتب لاستطاع الباحثون الرجوع إلى ما بقى منها ، ولعرف الخلف مؤلفات السلف للتنقيب عنها ، وتحقيق ما سلم من الضياع منها ، والمقارنة بين نصوصها ونصوص الطبرى .

٣ - كان الطبرى يقطع الأحداث بالروايات المتعددة ، وبالسنن المتعاقبة ، فيقطع الرواية الواحدة إذا وقع فيها خلاف ، فيذكر الرواية أو الروايات المخالفة ثم يعود للرواية الأولى ، فتتدخل الروايات وتشابك ، ويتشتت معها القارئ ، وينشغل بالفروع عن الحادث الأصيل ، مع ما في طريقة الطبرى من أمانة ودقة ، وكان يمكنه تحقيق هدفه عرض كل رواية عرضاً كاملاً ، ثم بالتعقب عليها بغيرها ، ثم بالموازنة فيما بينها ، وترجح بعضها على بعض .

وكان منهج الطبرى «الحولي» يضطره إلى تجزئة الحادث الذي امتد عدة سنوات ، فتتبادر صورته ، ويفقد وحدته و موضوعه ، مما يصعب معه على القارئ أن يلّم بالحادث الواحد متكاماً .

٤ - التركيز على الجانب السياسي ، وهو ما فعله أكثر المؤرخين الذين كتبوا في التاريخ العام ، وتأثر الطبرى رحمه الله بهم وبروح العصر الذى عاش فيه ، ولذلك قال السحاوى عنه: «وهو جامع لطرق الروايات ، وأخبار العالم ، لكنه مقصور على ما وضعه لأجله من علم التاريخ والجروب والفتوات»^(٢) ، وحتى في الجانب السياسي يُغفل الطبرى أسماء الولاة والموظفين ، ويُغفل أحياناً بعض الحركات المعارضة للسلطة .

وبعد: فإن هذه الملاحظات على تاريخ الطبرى ، والمأخذ على منهجه ، لا تقلل من قيمته ، ولا تُنقص من أهميته ، وأنه كتاب جليل القدر ، عظيم القيمة ، وأنه المرجع الأول للتاريخ العربى الإسلامى ، ويحتل الصدارة عند المؤرخين ، ويتبؤ المكانة الأولى بين كتب التاريخ ، وأنه المرجع الأصيل لكل من كتب في التاريخ ، والمصدر الأساسى لمن جاء بعده من المؤرخين ، ويمثل

(١) انظر: الفهرست ص ١٣١ وما بعدها ، علم التاريخ عند المسلمين ص ٢٧٣ .

(٢) الإعلان بالتربیخ لمن ذم أهل التواریخ ص ٦٦٩ ضمن كتاب علم التاريخ عند المسلمين .

صفحة مشرقة ، وصورة ناصعة للثقافة التي جمعها الطبرى في ذهنه ، ومثلها لأبناء عصره وجيئه ، وبقي تاريخ الطبرى ماثلاً في الأذهان طوال الأجيال الماضية ، وسيبقى بمشيئة الله تعالى أمام العين والقلب ، والعقل والتفكير ، في المستقبل ، فجزاه الله خيراً ، وأعطاه ما يستحق من الثواب والأجر .

يقول الأستاذ شاكر مصطفى : « وعلى أي حال ، فإن ما قد يُوجَّه إلى منهج الطبرى ، وإلى تاريخه من نقد لا يمكن أن يُلْغِي شيئاً من قيمته كمؤرخ أول ، انتهى به العصر الأول للتدوين التاريخي ، وكمؤلف ظلت أجيال المؤرخين في العصور التالية عِيالاً على كتابه في كل ما يتصل بالقرون الثلاثة الأولى من تاريخ الإسلام »^(١) .

* * *

(١) التاريخ العربي والمؤرخون ص ٢٦١ .

رابعاً

تاریخ الطبری - قسم الصحيح

الحمد لله والصلوة والسلام على رسول الله.

وبعد :

فلقد وفقنا الله تعالى للقاء أستاذ التاريخ الإسلامي الكبير فضيلة الدكتور / أكرم ضياء العمري / قبل مراجعتنا للمسودة فشجعنا جزاه الله خيراً واطلع على فصول من قسم الصحيح يتعلق بتاريخ الخلافة في عهد الأمويين ، وأبدى ملاحظاته القيمة ومن هذه الملاحظات :

ضرورة كتابة فصل في بداية (كل فترة) نبيان فيها أسانيد الطبری ، مع بيان درجاتها من الصحة أو الضعف ، وذلك لأن الطبری رحمة الله يعيد عدداً من الأسانيد ، عشرات بل مئات المرات ، فالأولى أن نحكم على هذه الأسانيد في المقدمة قبل الشروع في تحرير الروايات^(١) .

وهذه ملاحظة قيمة من الأستاذ العمري جديرة بالاعتبار والاهتمام إلا أن الإشكال أننا قد انتهينا من التحرير والتحقيق سنة ١٩٩٩ م بينما كان اللقاء مع فضيلة الأستاذ العمري سنة ٢٠٠١ م الموافق لـ (١٤٢٢ هـ) وذلك في شهر شعبان ، فتداركنا الأمر من باب ما لا يدرك كله لا يترك جلها ، فكتبنا فصلاً في مقدمة المجلد المتعلق بتاريخ الخلافة في عهد الأمويين ضمناه تراجم الرواية وذكرنا الحكم النهائي على كل راوٍ في هذا الفصل ، ومن لم نذكر اسمه هناك ،

(١) اكتفينا ببيان أسانيد الطبری في بداية الصحيح - هنا - خشية التكرار في كل جزء من الصحيح ، ودفعاً للإطالة على القارئ.

اكتفينا بترجمته في كتابنا (رجال تاریخ الطبری جرحًا وتعديلًا) واكتفينا بذلك بتعليق مختصر وحكم موجز على إسناد كل روایة من روایات الطبری.

وهكذا ترك الأستاذ العمري بصماته على صفحات هذا التحقيق والتخریج فجزاه الله عنا وعن المسلمين والتاريخ الإسلامي خير الجزاء ، وهو بحق رائد في مجال تطبيق قواعد الحديث على الروایات التاريخية - ونكتفي بهذا القدر ونعود مرة أخرى إن شاء الله لنكتب مقدمة أخرى قبل البدء بعهد سیدنا معاویة ، وثالثة قبل البدء بعهد يزید بن معاویة .

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين .

المحققان

تراجم رواة أسانيد الطبرى

- ١ - **أحمد بن ثابت بن عتاب الرازي (فرخويه).**
قال ابن أبي حاتم: عن أبي العباس الطهراني كانوا لا يشكون أن فرخويه كذاب. [الجرح والتعديل ٤٤ / ٢].
- ٢ - **أحمد بن زهير بن حرب.**
ثقة حافظ ، توفي ٢٢٩ هـ [لسان الميزان ١ / ١٧٤].
- ٣ - **أحمد بن محمد بن ثابت بن شبويه (أبو الحسن).**
ثقة من العاشرة توفي ٢٣٠ هـ. [تقريب / ت ٩٤].
- ٤ - **أبان بن صالح بن عمير القرشي.**
ثقة من الخامسة ، أخرج له الأربعة. ت سنة بضع عشرة ومئة. [تقريب / ت ١٥٩].
- ٥ - **إبراهيم بن ميمون بن صائغ.**
قال الحافظ مغلطاي: ذكره ابن حبان في الثقات وخرج حديثه هو والحاكم في صحيحهما ، وقال الحافظ ابن حجر: صدوق من السادسة قتل سنة ١٣١ هـ.
[إكمال تهذيب الكمال / ت ٣٠٧] [تقريب التهذيب / ت ٢٩١] [الثقات ١٩ / ٦].
- ٦ - **إبراهيم بن سليمان الحنفي.**
لم نجد له ترجمة فيما بين أيدينا من المصادر.
- ٧ - **إسحاق بن إبراهيم الثقفي (أبو يعقوب) الكوفي.**
وثقه ابن حبان وقال ابن عدي: روى عن الثقات ما لا يتبع عليه ، وروى

الذهبي من مناكيره ، وقال الحافظ : وثقة ابن حبان وفيه ضعف .

[تقريب / ت ٣٣٦] [ميزان الاعتدال / ت ٧١٦].

٨ - إسحاق بن إدريس الأسواري البصري .

قال يحيى : كذاب يضع الحديث ، وقال النسائي : متروك .

[ميزان الاعتدال / ت ٧٣٤] [لسان الميزان (١/٤٤)].

٩ - إسحاق بن خليل مولى^١ سعيد بن العاص .

ذكره ابن حبان في الثقات ، وقال : روى عنه وكيع وأبو نعيم .

[الثقة / ٦ (٤٧)].

١٠ - إسحاق بن عبد الله بن أبي فروة الأموي .

متروك من الرابعة توفي سنة ١٤٤ هـ .

[تقريب التهذيب (ت ٤١٥)].

١١ - إسحاق بن عيسى الطباع .

صدق من التاسعة . ت ٢١٤ هـ .

[تقريب التهذيب (ت ٤٢٤)].

١٢ - إسحاق بن يحيى بن طلحة .

قال أبو زرعة : واهي الحديث . وقال أبو داود الطیالسي ، إسحاق بن يحيى بن طلحة متروك الحديث منكر الحديث ، وضعفه ابن معين وقال : لا يكتب حدیثه .

وقال ابن حبان : فإذا الاجتهاد أدى إلى أن يترك ما لا يتبع عليه ويحتاج بما وافق الثقات بعد أن استخروا الله فيه .

[ميزان الاعتدال (ت ٨٠٢) ، الجرح والتعديل (٢/٨٣٥)].

١٣ - إسماعيل بن إبراهيم (ابن علية) .

ثقة . قال أحمد : ابن علية إليه المنتهى في التثبت بالبصرة ، وقال أبو حاتم : ثقة ثبت في الرجال ، توفي ١٩٣ هـ .

[الجرح والتعديل (١١/١٥٤) ، التقريب (ت ٤٧٦)].

١٤ - إسماعيل بن راشد السلمي .

ذكره ابن حبان في الثقات ، وقال أبو حاتم : مجهول . [٦/٣٤].

١٥ - إسماعيل بن يزيد الأزدي .

لم نجد له ترجمة .

١٦ - أسود بن قيس العبدى الكوفى .

ثقة من الرابعة ، أخرج له الستة .

[تقريب (ت ٥١١)].

١٧ - إياس بن زهير (أبو طلحة) .

عن علي ، وسويد بن هبيرة ، قال أبو حاتم : يعد في البصريين وسكت عنه
وذكره ابن حبان في الثقات .

[الجرح والتعديل (٢/٢٧٩ ت ١٠٠٤) ، الثقات (٤/٣٦)].

١٨ - أشعث بن عبد الله بن جابر الحданى البصري .

صدوق من الخامسة .

[تقريب (ت ٥٣١)].

(ب)

١٩ - بسر بن عبيد الله الحضرمي .

ثقة حافظ من الرابعة .

[تقريب (ت ٦٧٣)].

٢٠ - بشر بن عيسى بن ميمون .

قال مغلطاي : يكنى أبا عمرو ذكره مسلم .

[إكمال التهذيب (ت ٧٤٣)].

(ج)

٢١ - جارود بن أبي سبرة الهدلي .

صادق من الثالثة . ت ١٢٠ هـ ، ذكره ابن حبان في الثقات وقال
الدارقطني : بصرى ثقة .

[إكمال التهذيب (ت ٩٢٧) ، تقريب (ت ٨٨٩)].

٢٢ - جبلة بن أبي رواد .

ذكره ابن حبان في الثقات ، وقال : روى عنه ابنه عثمان بن جبلة ، قتلها

أبو مسلم بن يسابور سنة ١٣٢ هـ ، وترجم له البخاري وسكت عنه .
[الكبير (١/٢١٩) ، الثقات (٦/١٤٧)].

٢٣ - جرير بن حازم الأزدي .

ثقة ولكن في روایته عن قتادة ضعف ولا يعبأ باختلاطه إذ لم يحدث بعد أن اختلط كما قال ابن مهدي ، وهو من السادسة .

[تقريب (ت ٩١٣) ، تهذيب الكمال (ت ٩١٣) وانظر كتابنا رجال تاريخ الطبرى جرحًا وتعديلًا].

٢٤ - جرير بن يزيد بن جرير .

ذكره ابن حبان في الثقات ، وترجم له البخاري وابن أبي حاتم ، وسكتا عنه .
[الثقات (٦/٢٤٣) ، الكبير (١/٢١٢) ، الجرح (١/٥٠٢)].

٢٥ - جعفر بن برقان الكلابي .

صدق من السابعة ت ١٠٥ هـ ، يهم في حديث الزهرى وقد رأى المحرران [شعيب وبشار] أن لقب (ثقة) أولى به من صدوق ، قلنا: والذي يراجع ما كتبه مغلطاي في الإكمال يترجح لديه أنه صدقه كما قال ابن حجر والله أعلم .

[إكمال تهذيب الكمال (ت ٩٨٣) ، تقريب (ت ٩٣٤) وانظر تحرير التقريب].

٢٦ - جعفر بن حذيفة الطائي .

قال أبو حاتم: مجهول . وقال الذهبي: لا يدرى من هو .
[ميزان الاعتدال (١/٤٠٥) ، الجرح والتعديل (٢/٤٧٦)].

٢٧ - جويرية بن أسماء الضبعي .

صدق من السابعة ت ١٧٣ هـ
[تقريب (ت ٩٩٠)].

(ح)

٢٨ - حاتم بن قبيصة البصري .

ترجم له ابن أبي حاتم وسكت عنه .
[الجرح والتعديل (٣/٢٦٠)].

- ٢٩ - الحارث بن حصيرة الأزدي الكوفي .
صدوق يخطيء ، ورمي بالرفض من السادسة وله ذكر في مقدمة مسلم .
[تقريب التهذيب (ت ١٠٢١)].
- ٣٠ - الحارث بن محمد بن أبيأسامة .
قال الدارقطني : صدوق ووثقه إبراهيم الحربي ، وقال ابن حجر كان حافظاً عارفاً بالحديث عالي الإسناد تكلم فيه بلا حجة .
[لسان الميزان (٢/٢٢٣٤) ، تاريخ بغداد (٨/٤٣٣٢)].
- ٣١ - حبان بن علي العنزي (أبو علي الكوفي) .
ضعيف من الثامنة .
[تقريب / ت ١٠٧٩].
- ٣٢ - حبان بن موسى السلمي .
ثقة من العاشرة خ م ت س .
[تقريب ت ١٠٨٠].
- ٣٣ - حجاج بن قتيبة .
لم نجد له ترجمة .
- ٣٤ - حرملة بن عمران التجيبي .
ثقة من السابعة .
[تقريب / ت ١١٧٨].
- ٣٥ - الحسن بن أبي الحسن البصري .
ثقة فقيه فاضل مشهور ، وكان يرسل كثيراً ويجلس أخرج له الستة .
[تقريب (١/١٢٣١)].
- ٣٦ - الحسن بن رشيد .
من أهل مرو ، يروي عن إبراهيم الصائغ ، ذكره ابن حبان في الثقات أما الذي يروي عن ابن جريج وعن نصر بن حاجب فقد قال أبو حاتم : مجھول ، وقال الحافظ : فيه لين والذى في تاريخ الطبرى هو الأولى على الأغلب ، والله أعلم .
[لسان الميزان (٢/٩٢١)] ، الثقات (٨/١٧٠) ، الجرح والتعديل (٣/١٤)].

٣٧ - الحسين بن مجاهد الرازى .

لم نجد له ترجمة .

٣٨ - الحسين بن نصر الأملبي .

لم ندر من هو؟ والذى في كتب التراجم باسم الحسين بن نصر إنما هو المصرى كما ترجم له ابن أبي حاتم وهو صدوق ، والله أعلم .

[الجرح والتعديل (١/٦٦) وانظر رجال الطبرى جرحًا وتعديلًا] .

٣٩ - الحكم بن عثمان .

لم نجد له ترجمة في كتب التراجم ، إلا أن القاضي أبو بكر الدينورى ، قال: حدثنا أحمد بن علي الخزار قال: سمعت أبي يقول: قال الحكم بن عثمان قال: أبو جعفر المنصور .. الخبر [.] .

[كتاب المجالسة (٢/٧٦) (٢١٠/٢)].

٤٠ - حماد بن سلمة البصري .

ثقة عابد أثبت الناس في ثابت تغير حفظه في آخره من كبار الثامنة .

[تقريب (٤/١٥٠)].

٤١ - حمزة بن إبراهيم (شيخ المدائن) .

لم نجد له ترجمة .

٤٢ - حميد بن مسلم الأزدي .

لم نجد له ترجمة ، والذى في كتب التراجم حميد بن مسلم القرشى (أبو عبد الله) ذكره ابن حبان في الثقات (٦/١٩٠) .

وانظر [الجرح (١/٢) (٢٢٩)، الكبير (١/٣٥٥) (٢/١)].

٤٣ - حنبل بن أبي حريدة .

لم نجد له ترجمة .

٤٤ - حيان النبطي البلاخي .

والد مقاتل ومصعب ، يروى عن الحكم بن عمرو الغفارى .

[المؤتلف والمختلف (١/٢٤٦ ت ١٣٨)].

(خ)

٤٥ - خارجة بن مصعب السرخسي.

قال ابن معين: عندنا مستقيم الحديث ، وقال مرة: ليس بشقة ، وقال أبو حاتم: مضطرب الحديث ليس بقوى يكتب حدبه ولا يحتاج به ، وقال: لم يكن محله الكذب وذكره ابن حبان في الثقات (٣٣/٨). [لسان الميزان (٦/٤٣ ت ١٦٦)].

٤٦ - خالد بن عبد العزيز.

لم نجد له ترجمة.

٤٧ - خالد بن القاسم المدائني.

متروك الحديث.

[ميزان الاعتدال (١/٦٣٧)].

٤٨ - خالد بن يزيد بن عبد الله المقسري.

قال ابن عدي: وهو عندي ضعيف إلا أن أحاديثه إفرادات ومع ضعفه كان يكتب حدبه ، وقال أيضاً: وأحاديثه كلها لا يتبع عليها.

وقال أبو حاتم: ليس بالقوى ، وذكره ابن حبان في الثقات وسكت عنه الحافظ في التقريب ووافقه المحرران (بشار وشعيـب) على سكوته.

قلنا: والأولى أن يقال: ضعيف يكتب حدبه كما قال ابن عدي.

[ميزان الاعتدال (ت ٢٤٧٩) ، الكامل (٨/٥٧٨)].

٤٩ - خلاد بن يزيد الباهلي (الأرقط).

صدقوق جليل من التاسعة.

[تقريب (ت ١٧٧٩)].

(د)

٥٠ - داود بن سليمان الجعفي.

الذى يروى عن عمر بن عبد العزيز ، ذكره ابن حبان في الثقات (٦/٢٨٩).

(ر)

٥١ - رؤبة بن العجاج.

قال النسائي : ليس بالقوى ، وقال الحافظ : لين الحديث ، وذكره ابن الجوزي في الضعفاء ، وقال : قال يحيى : دع رؤبة العجاج .
[الضعفاء لابن الجوزي (١/٢٧٧ ت ١١٩٧) ، العقيلي (٢/٦٤)].

(ز)

٥٢ - ذكر يا بن أبي زائدة الهمданى .

ثقة وكان يدلس وسماعه من أبي إسحاق بأخره أخرج له الستة .
[تقريب (ت ٢٠٣٣)].

٥٣ - ذكر يا بن يحيى بن أيوب الضرير .

ترجم له الخطيب وذكر أسماء ثلاثة من الرواة الثقات عنه ولم يذكر فيه جرحاً
ولا تعديلاً .

[تاریخ بغداد (٨/٤٥٧ ت ٤٥٧١)].

٥٤ - ذهير بن حرب .

ثقة ثبت روى عنه مسلم أكثر من ألف حديث من العاشرة ت ٢٣٤ هـ .
[تقريب (ت ٢٠٥٣)].

٥٥ - ذهير بن الهنيد (أبو الذيال) العدوى .

قال ابن حجر ، مقبول ، فعقب المحرران بقولهما : بل صدوق حسن الحديث
فقد روى عنه جمع وذكره ابن حبان في الثقات .

قلنا : والذي في المقتني في سرد الكنى ذهير بن هنية (ت ٢١٢٢).

[تحرير التقريب (٢٠٥٣ ت)، تقريب التهذيب (٢٠٥٨)].

٥٦ - زياد بن جبل ، ويقال : ابن حبل .

روى عنه هشام بن يوسف ومعمر وغيرهما بشيخ مجهول كما قال أبو حاتم
[الجرح والتعديل (٣/٥٢٧ ت ٢٣٨٠)].

ترجم له البخاري في التاريخ الكبير (٣٤٧/٣).

وانظر المؤتلف والمختلف (١/٥١٦) وذكره ابن حبان في الثقات (٤/٢٥٣).

٥٧ - زياد بن الربيع (شيخ المدائن) اليحمدي البصري (أبو خداش) .

وثقة أبو داود وله في البخاري فرد حديث توفي ١٨٥ هـ .

[خلاصة تهذيب التهذيب للخزرجي]

- ووثقه أحمد وابن خلفون [إكمال تهذيب الكمال (ت ١٧١٨)].
وانظر التقرير حيث قال الحافظ: ثقة من الثامنة [ت ٢٠٧٨] والله أعلم.
٥٨ - زياد بن عبد الله البكائى .
- صدقوق ثبت في المغازى وفي حديثه من غير ابن إسحاق لين ولم يثبت أن
وكيعاً كذبه ، وله في البخاري موضع واحد متابعة من الثامنة .
[تقرير (ت ٢٠٩٦)].
- (س)
- ٥٩ - سبرة بن يحيى .
ذكره ابن حبان في الثقات (٤ / ٣٤١) .
- ٦٠ - سعيد بن زيد الأزدي (أبو الحسن) البصري .
صدقوق له أوهام من السابعة . [تقرير (٢٣١٩)].
- ٦١ - سعيد بن عبد العزيز التنوخي .
ثقة إمام ، ولكنه اخترط في آخر أمره من السابعة . بخ م ٤ .
[تقرير التهذيب (ت ٢٣٦٥)].
- ٦٢ - سعيد بن كيسان (ابن أبي سعيد) المقبرى .
ثقة من الثالثة أخرج له الستة .
[تقرير (ت ٢٣٢٨)].
- ٦٣ - سفيان بن عيينة الهلالي .
ثقة إمام ربما دلس عن الثقات ع .
[التقرير (ت ٢٤٥٨)].
- ٦٤ - سكن بن قتادة العرييني .
عن الأحنف وعن مسلمة بن محارب .
[توضيح المشتبه لابن ناصر الدين (٦ / ٢٤٨)].
- ٦٥ - سلم بن جنادة (أبو السائب) الكوفي .
قال النسائي : صالح ، وقال أبو بكر البرقاني ثقة حجة لا يشك فيه يصلح
لل الصحيح .
وذكره ابن حبان في الثقات ، وقال الحافظ : ثقة ربما خالف من العاشرة .

[الثقات (٢٩٨/٨) ، تهذيب الكمال (١١/٢٤٢٦) تقریب التهذيب (ت ٢٤٧١)].

٦٦ - سلمة بن عثمان.

ترجم له ابن أبي حاتم دون جرح أو تعديل (٤/١٦٧).

٦٧ - سليمان بن أرقمن البصري.

ضعيف من السابعة [تقریب (ت ٢٥٤٧)].

٦٨ - سليمان بن بلال التيمي.

ثقة من الثامنة. [تقریب (ت ٢٥٤٧)] ع.

٦٩ - سليمان بن أبي سليمان الشيباني.

قال أبو حاتم: أبو إسحاق سليمان بن فيروز الشيباني صدوق ثقة صالح الحديث ، ووثقه العجلي وابن معين ، والنسائي ، وكان من كبار أصحاب الشعبي ، [تهذيب الكمال (ت ٢٥٢٥) ، تاريخ الثقات (٢/٦١٢) ، الجرح والتعديل (٢/١٣٥)].

٧٠ - سليمان بن صالح الليثي (أبو صالح المرزوقي) سلمويه.

ثقة من العاشرة مات قبل ٢١٠ هـ وقد بلغ المئة.

[تقریب (ت ٢٥٨٠)].

٧١ - سليمان بن كثير.

الذي في كتب التراجم بهذا الاسم هو العبدی ترجم له ابن أبي حاتم فقال نقلًا عن أبيه: ضعيف يكتب حدیثه ، وقال العجلي: جائز الحديث لابأس به ، وقال العقيلي: هو في غير الزهری أثبت مضطرب الحديث عن ابن شهاب ، وذكره ابن خلفون في الثقات ، وقال ابن عدی: أحادیثه عندي مقدار ما يرویه لابأس به وضعيته ابن معین ، وقال النسائي: ليس بالقوى إلّا في الزهری ، وقال الذہبی: بعد سردہ لأقوال العلماء فيه - خرجوا له في الدواوین الستة مات سنة ١٣٦ هـ ورمز الذہبی أمام ترجمته بعلامة (صح).

والذي في تاريخ الطبری سليمان بن كثير العمی والله أعلم.

[إكمال تهذيب الكمال لمغلطای (ت ٢٢١٦)، الجرح والتعديل (٤/٦٣)، میزان الاعتدال (ت ٣٥٠٣)].

وقال مغلطای: خرج الحاکم حدیثه في مستدرکه ، وأبو عوانة في صحیحه .

٧٢ - سليمان بن مسلم النخعي العجلي .
من أهل الكوفة ذكره ابن حبان في الثقات ، وترجم له البخاري في الكبير روى عنه التبودكي .

[الكبير (٢/٣٨) ، الثقات (٦/٣٩٣)].

٧٣ - سليمان بن المغيرة القيسي البصري .
ثقة ثقة قاله يحيى بن معين من السابعة توفي ١٦٥ هـ .
[تقريب (ت ٢٦٢٧)].

٧٤ - سويد بن عبد العزيز الدمشقي .
ضعيف جداً من كبار التاسعة توفي ١٩٤ هـ .
[تقريب (ت ٢٧٠٧)].

(ش)

٧٥ - شعيب بن عمرو الأموي .
ترجم له البخاري في الكبير (٢/٢١٩) وابن أبي حاتم (٤/٣٥٠) وسكتا عنه وذكره ابن حبان في الثقات (٤/٣٥٦) .

٧٦ - شهاب بن شرنفة [شريعة] المجاشعي .
المقرئ قال ابن ناصر الدين : بصرى أدرك الحسن روى عنه ابن المبارك ،
وذكره ابن حبان في الثقات ، وقال أبو حاتم : شيخ صدوق .
[الجرح والتعديل (٤/٣٦٢) ، الثقات (٦/٤٤٣) ، توضيح المشتبه
٥/٣٢٢) ، المؤتلف والمختلف (٣/١٤٢٠)].

(ص)

٧٧ - الصقعب بن زهير الأزدي الكوفي .
ثقة من السادسة [تقريب (ت ٢٩٦٢)].

(ع)

٧٨ - عامر الشعبي (ابن شراحيل) .

ثقة مشهور فقيه فاضل من الثالثة ، قال مكحول : ما رأيت أفقه منه ، مات بعد المئة وله نحو من ثمانين .

[تقريب (ت ٣١٠٩) [.] .

٧٩ - عامر بن حفص التميمي (أبو اليقظان) .

النسبة ، سحيم وهو عامر بن الأسود من شيوخ المدائن . وخليفة بن خياط : كان عالماً بالأخبار والأنساب والمأثر والمثالب .

ثقة فيما يرويه من الأخبار ، غير ثقة في الحديث . توفي ١٧٠ هـ .

[نزهة الألباب (١/٣٦٣ ت ١٤٧١) ، الفهرست لابن النديم (١٠٧) ، موضع أوهام الجمع والتفريق (٢/٢٤٣ ت ٢٤٣) .

٨٠ - عباد بن عبد الله الأسدية الكوفي .

قال البخاري : فيه نظر ، وقال ابن المديني : ضعيف الحديث ، وقال ابن حجر ضعيف من الثالثة .

[التهذيب (٥/٨٦ ت ١٦٥) ، التاريخ الكبير (٣٢/٢/٣ ت ١٥٩٤) ، تقريب (ت ٣١٤٧) [.] .

وأما عباد بن عبد الله بن الزبير ، فثقة من الثالثة [التقريب (ت ٣١٤٦) [.] .

٨١ - عبد الأعلى بن مسهر الغساني .

ثقة فاضل من كبار العاشرة أخرج له الستة .

[تقريب (ت ٣٧٦٢) [.] .

٨٢ - عبد الأعلى بن منصور .

لم نجد له ترجمة .

٨٣ - عبد الأعلى بن ميمون بن مهران .

ذكره ابن حبان في الثقات سمع منه جعفر بن برقان أحاديث مراسيل وروى عنه عمرو بن الحارث .

[الجرح والتعديل (٦/١٣٦ ت ١٢٩) ، الثقات (٧/١٢٩) [.] .

٨٤ - عبد الرحمن بن أبان بن عثمان الأموي المدني .

ثقة عباد مقل من السادسة أخرج له الأربعة .

[تقريب (ت ٣٨١٦) [.] .

٨٥ - عبد الرحمن بن جندي الأزدي .

ترجم له البخاري في الكبير (٣/٢٦٨) ، وذكره ابن حبان في الثقات ، يروي عن محمد بن إسحاق (الثقة ٧/٦٩) .

٨٦ - عبد الرحمن بن صبيح الأزدي .

ذكره ابن حبان في الثقات والذي عند الطبرى (ابن صبح) وهو تصحيف ، وال الصحيح (ابن صبيح) .

[الجرح والتعديل (ت ١١٦٧) ، الثقة (٦/٦١٢)] .

٨٧ - عبد الرحمن بن صالح الأزدي .

قال أبو داود : ألف كتاباً في مثالب الصحابة ، رجل سوء نزيل بغداد صدوق ، يتشيع ، من العاشرة توفي ٢٣٥ هـ .
[تقريب (ت ٣٩٢٣)] .

٨٨ - عبد الرحمن بن عبد الله بن ذكوان .

صدوق تغير حفظه لما قدم بغداد من السابعة . خت فق ٤ .
[تقريب (ت ٣٨٧٥)] .

٨٩ - عبد الرحمن بن عمرو الأوزاعي .

ثقة إمام من السابعة توفي ١٥٧ هـ أخرج له الستة .
[تقريب (ت ٣٩٨١)] .

٩٠ - عبد العزيز بن خالد بن رستم الصنعاني .

سمع زياد بن جيل سمع منه إسحاق بن أبي إسرائيل ، ترجم له ابن أبي حاتم دون جرح أو تعديل وكذلك البخاري وقال : حديثه في أهل اليمن . وذكره ابن حبان في الثقات .

[الجرح والتعديل (٥/٣٨٠ ت ١٧٧٨) ، التاريخ الكبير (ت ١٥٢٥) ، الثقات (٨/٣٩٤ ت ١٤٠٥١)] .

٩١ - عبد القاهر بن سري .

قال ابن معين : صالح ، وقال مغلطاي : من ولد قيس بن الهيثم السلمي . ذكره ابن خلفون في الثقات ، وابن شاهين في الثقات ، وقال يعقوب : كان منكر الحديث .

[إكمال تهذيب الكمال (ت ٣٣٠٨) ، الجرح والتعديل (٦/٢٧ ت ٣٠٤)] .

٩٢ عبد الله بن أحمد بن شبوه المروزي (من شيوخ الطبرى). ذكره ابن حبان في ثقاته وقال : مستقيم الحديث.

قلنا : وعند تبعتنا لرواياته عند ابن أبي حاتم وجدنا أكثر من ثلاثة من الرواية الثقات قد رووا عنه ، وقال أبو حاتم في ترجمته : روى عنه علي بن الحسين بن الجنيد حافظ حديث الزهرى ومالك ، وقال الخطيب البغدادي في ترجمته : من أئمة الحديث سمع أباه . . . إلخ . وقال أيضاً : وكان رحل مع أبيه ولقي عدة من شيوخه وقدم بغداد وحدث بها فروي عنه من أهلها أبو بكر بن أبي الدنيا ، وأبو يحيى بن زكريا بن يحيى الناقد ، وأبو حامد محمد بن هارون الحضرمي ، وذكر الخطيب بإسناده إلى يحيى بن محمد الصاعد أن عبد الله بن أحمد بن شبوه حدثه سنة ٢٤٥ هـ . ونقل الخطيب عن أبي سعد الإدريسي أنه قال : عبد الله بن أحمد بن شبوه المروزي من أفضلي الناس من له الرحلة في طلب العلم ، توفي سنة ٢٧٥ هـ .

[تاریخ بغداد (٣٧١/٩ ت ٤٩٤٦) ، الثقات (٣٦٦/٨) ، الجرح والتعديل (٥/٦ ت ٢٧) والجرح (١١/٩٦ - ٢٦٤ - ٣١٠) .

وعلى ما يبدو فإن الأستاذ الفاضل خالد بن محمد الغيث فاته كلام الخطيب وابن حبان وإن خراج ابن أبي حاتم لمروياته من طريقه في مناقب الإمام أحمد ولذلك اكتفى في كتابه القيم [مرويات خلافة معاوية] في ترجمة عبد الله هذا : أورده ابن حبان في ثقاته ، ولذلك حكم على أسانيد الطبرى في مسألة مبلغ الحسن مع معاوية رضي الله عنهمما بأنها ضعيفة لأسباب سنذكرها في حينها بالإضافة إلى ما ذكرناه في عبد الله هذا .

وهذا لا ينقص من قيمة كتابه [مرويات خلافة معاوية] بل يحتوي على أبحاث نفيسة سنذكرها في حينها إن شاء الله وسبحان من لا ينسى ولا يسهو .

٩٣ عبد الله بن أبي بكر بن محمد بن عمرو بن حزم الأنباري المدني . أخرج له الستة ، وروى عن أنس بن مالك من الصحابة وقال النسائي : ثقة ثبت ، وقال ابن سعد : كان ثقة كثير الحديث عالماً ، توفي سنة خمس وثلاثين ووثقه ابن معين وأبو حاتم ، وقال أحمد : حديبه شفاء [الجرح والتعديل (١٧/٢ ت ٣٥١) ، تهذيب الكمال (١/٣٢٩٠ ت ٣٢٩٠) الطبقات الكبرى .].

٩٤ - عبد الله بن شوذب الخراساني .
صدوقي عابد من السابعة .
[تقريب (ت ٣٤٠٨) .]

٩٥ - عبد الله بن صالح بن محمد الجهنمي (أبو صالح المصري).
كاتب الليث ، صدوقي كثير الغلط ثبت في كتابه وكانت فيه غفلة من العاشرة
[تقريب (ت ٣٤٠٩) .]

وعقب المحرران (بشار وشعيـب) بقولهما: بل صدوقي في حفظه شيء ، حسن
ال الحديث في المتابعات [تحذير (ت ٣٣٨٨) .]
قلنا: وقال الذهبي في الميزان: هو صاحب حديث وعلم وله مناكير .
[ميزان الاعتدال (ت ٤٣٨٢) .]

وقد ذكر الحافظ مغلطاي أقوال العلماء فيه [إكمال (ت ٢٩٩٠)] ومن قبله
شيخه المزري .

وقال ابن عدي: وهو عندي مستقيم الحديث إلا أنه يقع في حديثه في أسانيده
وم-tone غلط ولا يعتمد الكذب ، وقد روى عنه يحيى بن معين كما ذكرت
[الكامل (١٥ / ٥٨) .]

٩٦ - عبد الله بن أبي عبيدة بن محمد بن عمارة بن ياسر .
لم نجد له ترجمة .

٩٧ - عبد الله بن عطيـة (الكوني) .
ذكره ابن حبان في الثقات وسكت عنه أبو حاتم ، وقال الحافظ في التقريب:
مقبول من الخامسة (ت ٣٤٨٠) .

[الجرح والتعديل (٥ / ت ٦١٢) ، الكبير (٣ / ١ / ١٦٣) ، الثقات (٧ / ٣٥) .]
وفرق البخاري بين عبد الله بن عطيـة الكوفي ، وعبد الله بن عطيـة الخطاب ،
والذي ذكره ابن حبان في الثقات هو عبد الله بن عطيـة بن الخطاب وفي لسان
الميزان عبد الله بن عطيـة العوفي لا يتبع على حديثه وأخوهما (أي أخو
عبد الله والحسن) يقاربهما في الضعف .
[لسان الميزان (٣ / ت ٣١٧) .]

قلنا: والعجب من الحافظ ابن حجر إذ نقل كلام ابن عدي مبتوراً ولم يكمله
وتمام كلام ابن عدي: وهذه الأسماء التي يذكرها البخاري ليس قصده فيه أنه

يضعف هذه الأسماء التي يذكرها وإنما قصده فيه أن يذكر كل من اسمه عبد الله ممن روى المسند أو روى عن التابعين أو عن الصحابة أو روى الحرف أو الحرفين فيعزّ وجود روایات هؤلاء.

الكامل في ضعفاء الرجال (٤/٢٣٢ ت ١٠٥٤) [١].

٩٨ - عبد الله بن عون بن أرطaban.

ثقة ثبت فاضل من السادسة ع.

[التقريب (ت ٣٥٣٠)].

٩٩ - عبد الملك بن شيبان بن عبد الملك.

لم نجد له ترجمة.

١٠٠ - عبد الملك بن عمير اللخمي.

ثقة من الرابعة تغير حفظه وربما دلّس أخرى له الستة [التقريب (٤٢١٤)] [٢].

١٠١ - عبد الملك بن قریب (الأصمی).

صدوق سني من التاسعة توفي ٢٦٦ هـ وقد قارب التسعين في عهد المؤمنون

وهو نحوی أخباری عاصر الرشید ، وقال الذهبي في ترجمته: الإمام الحافظ

العلامة حجة الأدب لسان العرب أبو سعيد عبد الملك بن قریب.

[سير أعلام النبلاء (١٠/١٧٥ ت ٣٢) [تقريب (٤٢١٩)]].

١٠٢ - عبد الملك بن نوفل العامري.

ذکره ابن حبان في الثقات ، وقال الحافظ: مقبول من الثالثة. [تقريب

(ت ٤٢٢٦)] [٣].

روى عنه ابن عيينة . [الثقافات (٧/١٠٧)].

١٠٣ - عبيد الله بن الحر الجعفي.

ترجم له ابن أبي حاتم وسكت عنه وذکره ابن حبان في الثقات ، روی عنه

سلیمان ابن یسار و عمر بن حبیب .

[الثقافات (٥/٦٦) ، الجرح والتعديل (٥/٣١١ ت ١٤٧٩)].

١٠٤ - عثمان بن عبد الرحمن الحراني الطرائفي المؤدب.

روی عنه أبو كریب ، وأحمد بن سلیمان الرهاوي وأبو شعیب السوس ، ووثق

[الکاشف (٢/١٠ ت ٣٧١٨)].

١٠٥ - عروة بن الزبير.

ثقة فقيه مشهور من الثالثة توفي ٩٤ هـ. ع.
[تقريب (ت ٤٥٧٧) []].

١٠٦ - عفان بن مسلم.

قال أبو حاتم ، ثقة متقن متين. وقال الذهبي : الحافظ الثبت. وقال ابن حجر : ثقة ثبت.

[تقريب (ت ٤٦٤١) ، ميزان (ت ٥٦٧٨) ، الجرح والتعديل (٣٠ / ٢)].

١٠٧ - علي بن رباح اللخمي.

ثقة من كبار الثالثة أخرج له مسلم والأربعة.
[تقريب (ت ٤٧٣٢) []].

١٠٨ - علي بن مجاهد الكابلي.
كذاب متزوك من الناسعة.

[تقريب (ت ٤٧٩٠) ، الجرح والتعديل (٦ / ٢٠٥)].

١٠٩ - علي بن محمد المدائني (أبو الحسن) الأخباري [١٣٢ - ٢٢٥ هـ].

قال الطبرى : كان عالماً بأيام الناس صدوقاً في ذلك ، وقال ابن معين : ثقة ثقة ثقة. وقال الذهبي : العلامة الحافظ الصادق الأخباري. وقال أيضاً : صدوق.
[سير أعلام النبلاء (٤٠١ / ١٠) ، ميزان الاعتدال (١٥٣ / ٣) ، تاريخ بغداد (٥٥ / ١٢)].

١١٠ - عمر بن بشير الهمданى [أبو هانىء].

ضعفه يحيى وقال ابن عمار : ضعيف ، وذكره ابن الجوزي في الضعفاء
(ت ٢٤٤١).

[لسان الميزان (٤ / ٢٨٧ / ٨٢٠)].

وقال أبو حاتم : ليس بالقوى يكتب حدثه وجابر الجعفي أحب إليني منه.
[الجرح والتعديل (٦ / ١٠٠ / ت ٥١٨)].

قلنا : والغريب أن الأستاذ الفاضل خالد الغيث اكتفى بقوله : أورده ابن حبان في الثقات [مرويات خلافة معاوية (٥٨ / ت ٨٠)] ولم يذكر تضييف الأئمة له ولو ذكره لكان ذلك أقوى حجة له عندما ناقش مسألة استلحاق معاوية نسب زياد بن سمية بأبيه فالأستاذ لم يعلق على سند رواية الطبرى هناك.

أحمد بن زهير قال: حدثنا عبد الرحمن بن صالح قال: ثنا عمرو بن هشام عن عمر بن بشير الهمданى عن أبي إسحاق أن زياداً... الخبر [تاریخ الطبری (٢١٥/٥)].

ولكنه قال في صفحة ٣٧٦: أما اتهام معاوية رضي الله عنه باستلحاق نسب زياد فإني لم أقف على رواية صريحة للعبارة تؤكّد ذلك [مرويات خلافة معاوية (ص ٣٧٦)]، وهذا فصل قيم من كتاب الأستاذ غيث ولكن لو ذكر تضعيف الأئمة لعمر بن بشير الهمدانى لكان أفضل وأولى في الحجة والله أعلم.

أضف إلى ذلك فإن في الإسناد عبد الرحمن بن صالح الأزدي الرافضي الذي عرف بوضعية روایات في مثالب الصحابة رضي الله عنهم وهذا ما ذكره الأستاذ غيث في المقدمة في فصل التراجم.

إضافة إلى عمرو بن هاشم وهو لين الحديث (كما ذكر الغيث أيضاً).

ورحم الله الحافظ ابن عدي فكم كان دقيقاً إذ قال في ترجمة عمرو بن هاشم هذا: وإذا حديث عن ضعيف كأن يكون فيه بعض الإنكار وهذا يعني أن هذا الإسناد مسلسل بالضعفاء.

ولو ذكر الأستاذ غيث ذلك لكان أقوى في حجته وجزاه الله خيراً.

١١١ - عمر بن شبه النميري [أبو زيد]: الأخباري النحوى.

نزل بغداد صدوق له تصانيف من كبار الحادى عشرة. توفي سنة ٢٦٢ هـ.

وقد جاوز التسعين [تقريب/٤٩١٨] وقال ابن حبان: مستقيم الحديث وكان صاحب أدب وشعر وأخبار ومعرفة بتاريخ الناس [الثقة (٤٤٦/٨)].

١١٢ - عمر بن صالح الأزدي (أبو حفص) البصري.

يروى عن أبي حمزة قال النسائي: مترونك الحديث ، وقال البخاري: منكر الحديث [الضعفاء والمتروكين للنسائي (١/٨٣ ت ٤٦٥) ميزان الاعتدال (٥/٢٤٨ ت ٦٤٩)].

١١٣ - عمر بن قيس بن الماسن الكوفي.

وثقه أبو حاتم وجماعة كما قال الذهبي روى عنه زائدة وابن عون وغيرهما. وقال ابن حجر: صدوق ربما وهم ورمي بالإرجاء من السادسة. [تقريب (٤٩٥٨)، ميزان الاعتدال (٦١٩٥)].

١١٤ عمرو بن هاشم الكوفي (أبو مالك).

لين الحديث أفرط فيه ابن حبان ، قال ابن حجر : وقال ابن عدي : إذا حدث عن ثقة فهو صالح الحديث ، وإذا حدث عن ضعيف كان يكون فيه بعض الإنكار وهو صدوق إن شاء الله .

قلنا : وهو في تاريخ الطبرى يروي عن عمر بن بشير الهمданى (ضعيف) .
[تقريب التهذيب (ت ٥١٢٦) ، الكامل (ت ١٣٠٥) .]

١١٥ عوانة بن الحكم الأخبارى .

الضرير أحد الفقهاء له كتاب في التاريخ ، وكتاب سير معاوية وبني أمية وغير ذلك ، وكان صدوقاً في نقله [سير أعلام النبلاء (٢٠١ / ٧٨) ت ٧٨] .
وقال ابن حجر : الأخبارى المشهور الكوفي ، وقال أيضاً : وهو كثير الرواية عن التابعين وأكثر المدائين عنه ، توفي سنة ١٤٧ هـ أو ١٥٧ هـ .
وقال ابن النديم من علماء الكوفيين راوية للأخبار عالم بالشعر والنسب .
[الفهرست (ص ١٠٣) ، لسان الميزان (٤ / ٣٨٦ ت ١١٦٧) .]

قلنا : ولقد عَدَ شاكر مصطفى (الأستاذ) في كتابه التاريخ العربي والمؤرخون (١٢٦ / ١) من العلماء الذين شكلوا نواة مدرسة الشام التاريخية من جيل الأوزاعي وغيره .

وقال شاكر : ونحن ندين لعوننة هذا بتسمية علم التاريخ فهو صاحب أول كتاب تاريخي يحمل اسم [كتاب التاريخ] في الإسلام . [التاريخ العربي (١٢٨ / ١)] .

١١٦ حوف بن أبي جميلة الأعرابي البصري .

ثقة رمي بالقدر وبالتشيع من السادسة توفي سنة ست أو سبع وأربعين وله ست وثمانون آخر له الستة .
[تقريب (ت ٥٢١٥) .]

١١٧ حيسى بن عاصم الأسدى الكوفي .

ثقة من السادسة . [تقريب (ت ٥٣٠٢) .]

١١٨ حياش بن عبد الله الهمدانى .

عن عمرو بن سلامة ما روى عنه سوى ولده عبد الله المسوف الأخباري الذي عاصر المنصور .

[لسان الميزان (ت ١١٨٤) ، الجرح والتعديل (٢١ / ٥ / ٧) .]

(غ)

١١٩ - غالب بن خطافقطان .

وثقه النسائي وابن معين وابن حبان ، وقال أبو حاتم : صدوق صالح ، وقال ابن حجر : صدوق من السادسة .

[الكافر (٣٢١ / ٢) ، التقرير (ت ٥٣٦٣) .]

١٢٠ - غالب بن سليمان العتكى (أبو صالح) الخراسانى .

أصله من البصرة ثقة من السابعة [تقرير (ت ٥٣٤٧) .]

١٢١ - غسان بن مصر الأزدي (أبو مصر) البصري .

ثقة من الثامنة توفي ١٨٤ هـ .

[ميزان الاعتدال (ت ٦٦٦٥) ، تحرير التقرير (ت ٥٣٦٠) .]

١٢٢ - غيلان بن محمد .

شيخ عمر بن المثنى كما عند الطبرى وهو كذلك عند البخارى إذ قال : حدثني يحيى بن محمد بن أعين حدثني أبو عبيدة عمر بن المثنى ثنا

غيلان بن محمد اليافعى عن عبد الرحمن بن جوش .

[التاريخ الصغير (٩٣ / ١ ت ٣٧٦) .]

(ف)

١٢٣ - الفضل بن سويد .

قال أبو حاتم : ليس بالمشهور ولا أرى بحديثه بأساً وذكره ابن حبان في الثقات وقال الحافظ : مقبول . وقال في اللسان : قواه أبو حاتم وقال : ليس بالمشهور ولا أرى بحديثه بأساً .

قلنا : ولو قال الحافظ لا بأس به لكن أقرب في حق الفضل بن سويد هذا والله أعلم .

- [اللسان (ت ٤٣٦٩) ، تقريب (ت ٥٤٠٤) ، الجرح والتعديل (٣٠٦ / ٧) .
الثقات (٣١٨ / ٧) .]
- ١٢٤ - الفضل بن عطية بن عمرو المروزي .
صدوق ربما وهم من السادسة .
[التقريب (ت ٥٤٠٩) .]
- ١٢٥ - فضيل بن خديج .
روى عنه أبو مخنف ، وقال أبو حاتم : جهول روى عنه رجل متزوك الحديث .
[الجرح والتعديل (٧٢ / ٧) .]
- ١٢٦ - فليح بن سليمان الأسلمي الخزاعي (أبو يحيى) المدنى .
ويقال : فليح لقب واسمه عبد الملك ، صدوق كثير الخطأ من السابعة أخرى
له الستة . وقال ابن عدي : يروي عن سائر الشيوخ من أهل المدينة مثل
أبي النضر وغيره ، أحاديثه مستقيمة وغرائب وقد اعتمد البخاري في صحيحه
وروى عنه الكثير وقد روى عنه زيد بن أبي أنيسة وهو عندي لا بأس به .
[الكامل في الضعفاء (ت ١٥٧٥) .]
- ١٢٧ - فيل مولى زياد بن أبيه .
ترجم له ابن أبي حاتم وذكر عنه راوينين (حماد بن زيد ومحمد بن الزبير) .
[الجرح والتعديل (٧٢ / ٧) ، (٥٠٩) .]
- (ق)
- ١٢٨ - قبيصة بن جابر الأسدى (أبو العلاء) الكوفي .
ثقة من الثانية محضرم توفي سنة ٦٩ هـ .
[تقريب (ت ٥٥١٠) .]

(ك)

- ١٢٩ - كثير بن زياد البرساني (أبو سهل) بصرى .
نزل بلخ ثقة من السادسة .
[التقريب (ت ٥٦١٠) .]

(ل)

١٣٠ - لبطة بن الفرزدق (أبو غالب المجاشعي).

ذكره ابن حبان في الثقات وقال: روى عنه سفيان بن عيينة والقاسم بن الفضل وقال الحافظ في اللسان في ترجمة أبيه الفرزدق - ذكر ابن حبان في الثقات ابنه لبطة بن الفرزدق فقال: يروي عن أبيه وترجم له البخاري وسكت عنه [التاريخ الكبير (٤/١٢٥١) ت ١٠٧٠] ، الثقات (٧/٣٦١) ، لسان الميزان (ت ١٣٢٣) [].

(م)

١٣١ - مبارك بن فضالة. (خت دت ق).

صدق يدلس ويسيوي من السادسة توفي سنة ١٦٦ هـ. ذكره ابن حبان في الثقات وقال: روى عنه ابن المبارك ووكيع وكان يخطيء .
[تقريب (ت ٦٤٦٤) ، الثقات (٧/٥٠٢)].

١٣٢ - مجالد بن سعيد الهمданى (أبو عمرو) الكوفي.

ليس بالقوى وقد تغير في آخر عمره روى له مسلم مقرضاً بغيره ، وقال في اللسان: ضعفه ابن معين ، وقال النسائي: ليس بالقوى وقال مرة: ثقة ، توفي ١٤٤ هـ أخرج له الأربعة وقال الذهبي: مشهور صاحب حديث على لين فيه ، وقال: الهيثمي في المجمع: تكلم فيه ووثق .
[لسان الميزان (ت ٥٢٨٦) ، تحرير التقريب (ت ٦٤٧٨) ، ميزان الاعتدال (ت ٧٠٧٥)].

١٣٣ - محارب الزيادي (أبو مسلمة بن محارب).

ترجم له ابن أبي حاتم وقال: روى عن معاوية ، روى عنه ابن مسلمة وسكت عنه ، وذكره ابن حبان في الثقات (٥/٤٥٢) [الجرح والتعديل (٤/١٩٠٠)].

١٣٤ - محل بن خليفة الكوفي.

ثقة من الرابعة أخرج له البخاري والنسائي وغيرهما .
[تقريب (ت ٦٥٠٨)].

١٣٥ - محمد بن أبان الطحان الواسطي .

صدق تكلم فيه من العاشرة ، أخرج له البخاري توفي ٢٣٨ هـ وقال أبو حاتم : ليس هو بقوى الحديث يكتب حديثه وضعفه ابن معين ، وقال الذهبي : محدث شهير ، وقال الأزدي : ليس بذلك ، وقال ابن حبان في الثقات : ربما أخطأ و كان أسنداً من بقي بواسط ، روياً عنه أبو يعلى الموصلي والباغندي .

[ميزان الاعتدال (ت ٧١٣٣) ، تقريب التهذيب (ت ٥٦٨٨) ، من روياً عنهم البخاري في الصحيح (٢٠٧) ، الثقات (٩/٨٧)].

١٣٦ - محمد بن إبراهيم بن أبي عدي .

وثقه النسائي وابن سعد وأبو حاتم وابن حبان وروى له الجماعة .
[الجرح والتعديل (١٨٦/٢/٣) ، تهذيب الكمال (ت ٥٦٢٩) ، الثقات (٤٤٠/٧)].

١٣٧ - محمد بن إسحاق بن يسار .

إمام في المغازي نزيل العراق صدوق يدلّس ورمي بالتشيع والقدر من صغره الخامسة مات سنة ١٥٠ هـ . م ٤ . هذا قول الحافظ ابن حجر .

وخلاصة القول فيه : أنه حسن الحديث إذا صرخ بالتحديث ولم يعنون والله أعلم .

[تقريب التهذيب (٥٧٤٣)].

١٣٨ - محمد بن حفص التميمي .

ترجم له ابن أبي حاتم ، وسكت عنه ، وذكره ابن حبان في الثقات (٩/٦٢) .
[الجرح والتعديل (٢٣٦/٧ ت ١٢٩٦)].

١٣٩ - محمد بن حميد الرازي .

شيخ الطبرى في التاريخ والتفسير ، وثقة أحمد وابن معين وأبو زرعة في رواية منه ، وقال أحمد : أما حدديثه عن المبارك وجرير فهو صحيح ، وأما حدديثه عن أهل الري فهو أعلم . وضعفه جمهور المحدثين كالبخاري والنسائي ويعقوب بن شيبة وقال : كثير المناكير واتهمه النسائي وغيره بالكذب ، وقال الترمذى : كان محمد (أى : البخاري) حسن الرأى فيه ثم ضعفه بعد .
وقال ابن حجر في التقريب : حافظ ضعيف .

- [التاريخ الكبير (١٦٧/١) ، الجرح والتعديل (٧/٢٧٥) ، تهذيب الكمال (٢٥/٦٦٧) تحرير التقريب (٣/٥٨٣٤) .]
- ١٤٠ - محمد بن الزبير الحنظلي البصري .
متروك من السادسة . [التقريب / ت ٥٨٨٥] .
- ١٤١ - محمد بن السائب بن أبي النضر الكوفي الكلبي .
النسابة ، المفسر متهم بالكذب ، ورمي بالرفض من السادسة توفي ١٤٦ هـ .
[التقريب (ت ٥٩١)] .
- ١٤٢ - محمد بن سعد بن رفيع .
نزيل بغداد كاتب الواقدي . قال الخطيب : البغدادي ومحمد بن سعد عندها من أهل العدالة وحديثه يدل على صدقه فإنه يتحرى في كثير رواياته ، وقال ابن أبي حاتم : سألت أبي عنه فقال : يصدق ، وقال ابن حجر : صدوق فاضل من العاشرة توفي ٢٣٠ هـ وهو ابن اثنين وستين .
[التقريب (ت ٥٩٠٣) ، تاريخ بغداد (٥٢١/٥) ، الجرح والتعديل (٢٦٢/٢/٣) .]
- ١٤٣ - محمد بن سلام الجمحي .
شيخ ابن شبة ، من أئمة الأدب ، قال صالح بن جرزاً : صدوق ، وقال أبو خيثمة : لا يكتب عنه الحديث إنما يكتب عنه الشعر ، توفي ٢٣١ هـ .
[لسان الميزان / ت ٧٤٧٩] .
- ١٤٤ - محمد بن سليم أبو هلال العبدي البصري .
النازل في راسب ، وثقة أبو داود ، وقال أبو حاتم : محله الصدق ، ليس بذلك المتنين ، وقال النسائي : ليس بالقوي ، وقال ابن معين : صدوق يرمي بالقدر ، وقال ابن حبان : والذي أميل إليه في أبي هلال الراسيبي : ترك ما انفرد به من الأخبار التي خالف فيها الثقات والاحتجاج بما وافق الثقات وقبول ما انفرد من الروايات التي لم يخالف فيها الأثبات التي ليس فيها مناكير .
وقال الحافظ في التقريب : صدوق فيه لين من السادسة .
قلنا : والقول ما قاله ابن حبان فيه والله أعلم .
[تقريب التهذيب (ت ٥٩٢٣) ، الكامل (٦/٢٨٥) ، المجرورين (٢٨٣/٢) ، الميزان (ت ٧٦٥٢)] .

١٤٥ - محمد بن طلحة بن مصرف .

ذكره ابن حبان في الثقات ، وقال : كان يخطيء ، توفي ١٧٦ هـ .
[الثقات (٣٨٨ / ٧)].

١٤٦ - محمد بن عبد الرحمن بن مغيرة بن أبي ذئب القرشي .
ثقة فقيه فاضل من السابعة توفي ١٥٨ هـ . أخرج له الستة .
[الترقيب (ت ٦٠٨٢)].

١٤٧ - محمد بن عمر الواقدى .
قاضي بغداد ، توفي سنة ٢٠٧ هـ . قال البخاري : سكتوا عنه تركه أحمد وابن
نمير وقال أحمد : هو كذاب ، وقال ابن عدي : ومتون أخبار الواقدى غير
محفوظة .

وقال النسائي : مترونك الحديث . وقال ابن حجر : مترونك مع سعة علمه .
[الترقيب (ت ٦١٧٥) ، الكبير (١٧٨ / ١) ، الكامل (١٧١٩ / ٢٤١ / ٦) ،
تهذيب الكمال (٢٦ / ت ٦١٠١) ، الضعفاء والمتروكين (٢١٧ / ت ٥٥٧) .

١٤٨ - محمد بن أبي عبيدة .
ذكره ابن حبان في الثقات وقال كان شاعرًا هجاءً يروي الحكايات ، ليس من
أهل العلم الذي يرجع إلى روایته .
وترجم له ابن أبي حاتم وسكت عنه .

[الثقات (٤١٨ / ٧) ، الجرح والتعديل (٨ / ت ٩٤)].

١٤٩ - محمد بن الفضل بن عطية العبدى .
نزيل بخارى كذبوا حتى الثامنة توفي ١٨٠ هـ . أخرج له الترمذى وابن ماجه .
[الترقيب (ت ٦٢٢٥)].

١٥٠ - محمد بن المثنى أبو موسى .
أخرج له الستة . توفي سنة ٢٥٢ هـ ، وثقة ابن معين ، وقال الذهلي : حجة .
وقال أبو عروبة الحراني : ما رأيت بالبصرة أثبت من أبي موسى ويحيى بن
حكيم ، وقال الخطيب : كان ثقة ثبتاً احتاج سائر الأئمة بحديثه .
[تهذيب الكمال (٢٦ / ت ٦١٧٩) ، الجرح والتعديل (٤ / ١ / ٤) ، تاريخ
بغداد (٣ / ٢٨٦)].

١٥١ - محمد بن مخنف .

عن علي رضي الله عنه ، مجهول .
[لسان الميزان (ت ١٢٢٠)] .

١٥٢ - محمد بن مسلم بن شهاب الزهرى .

الحافظ متفق على جلالته وإتقانه وهو من رؤوس الطبقة الرابعة توفي ١٢٥ هـ ، وقيل قبل ذلك . أخرج له الستة . [التقريب (ت ٦٢٩٦)] .

قلنا : ولقد دخل الزهرى على الخليفة الأموي عبد الملك بن مروان بعد وفاة الخليفة عبد الله بن الزبير ، وعاصر عبد الملك ومن بعده وأشار عليهم ونصحهم ، وأخر منجاور من الخلفاء أمير المؤمنين هشام بن عبد الملك ذلك الخليفة الحازم رحمة الله تعالى .

١٥٣ - محمد بن يحيى (أبو غسان) المدنى الكنانى .

ثقة . لم يصب السليماني في تضعيقه من العاشرة خ .
[التقريب / (ت ٦٣٩٠)] .

١٥٤ - مخلد بن الحسين المهلبي الأزدي .

ثقة من كبار التاسعة توفي سنة ٢٩١ هـ .
[التقريب (ت ٦٥٣٠)] .

١٥٥ - مزاحم بن زفر بن الحارث .

الذى قاتل مع قتيبة فيما وراء النهر ، وثقة ابن معين ، وقال ابن حبان : كان من خير الرجال كان غازياً مع قتيبة بن مسلم .

[الثقات (٧/٥١١) ، الجرح والتعديل (٤٠٥/٨)] .

١٥٦ - مسلم بن عبد الرحمن الجرمي .

ترجم له ابن أبي حاتم وسكت عنه .

[الجرح والتعديل (٨/١٨٨)] .

١٥٧ - مسلم العجلي .

له ترجمة في التاريخ الكبير (٤/١٢٦٩) ، وذكره ابن حبان في الثقات (٥/٣٩٨) .

١٥٨ - مسلمة بن محارب الزيادي .

شيخ المدائن الذي أكثر عنه في تاريخ الخلافة أيام بنى أمية ، وترجم له ابن

أبي حاتم وسكت عنه ، وذكره ابن حبان في الثقات .
[الجرح والتعديل (٢٦٦/٨) ، الثقات (٤٩٠/٧)].

قلت (البرزنجي) : وكان يحرّ في نفسي أن أرى كثيراً من روایات الطبرى وغيره من طريق المدائني عن مسلمة بن محارب هذا ولم أجد من يزكيه فيما بين أيدينا من المصادر ، وحتى الدراسات الجامعية في التاريخ الإسلامي اكتفى أصحابها بقولهم : [ذكره ابن حبان في الثقات] ، حتى فتح الله علیَّ في ليلة من ليالي القدر المبارك وأنا أقرأ كلاماً للحافظ الذهبي وهو يتحدث عن أخباري غير ثقة فقل أثناء ترجمته كلاماً أظنه للحافظ المزي رحمه الله فيه توثيق

لروایات مسلمة بن محارب في التاريخ إذ قال الذهبي :

غمزهم الحافظ ثم قال : من أراد الأخبار فليأخذها من مثل فتادة وأبي عمرو بن العلاء - ثم سرد أسماءهم إلى أن قال -: وأبي عبيدة ، ومسلمة بن المحارب ، وخلاد بن زيد .. إلخ فإنهم مأمونون .
[ميزان الاعتدال (ت ٦٩٨٨)].

وهذا الكلام والتوثيق بالنسبة لنا يعدل ذهباً وجزى الله الذهبي عنا خير الجزاء .
١٥٩ - مصعب بن حيان النبطي (أخو مقاتل) البلخي .

ذكره ابن حبان في الثقات ، وقال الحافظ : لين الحديث ، وقال في تهذيب التهذيب : صدوق فاضل أخطأ الأزدي في زعمه أن وكيعاً كذبه وإنما كذب الذي بعده . [تهذيب التهذيب (١٤٥/١٠/٣٠٥) ، التقرير (٦٦٨٧) ، الثقات (٤٧٩/٧)].

١٦٠ - معاوية بن قرة .
ثقة أخرج له الستة .

[تهذيب الكمال (ت ٦٦٥٧)].

١٦١ - معبد بن خالد الجدلبي .

ثقة عابد من الثالثة توفي سنة ١١٣ هـ .
[التقرير (ت ٦٧٧٤)].

١٦٢ - معمر بن راشد البصري الأزدي أبو عروة .
نزيل اليمن ثقة ثبت فاضل من كبار السابعة توفي ١٥٤ هـ . ع .
[التقرير (ت ٦٨٠٩)].

- ١٦٣ - المفضل بن فضالة بن عبيد بن ثمامه القتبا尼 (أبو معاوية).
القاضي المصري. ثقة فاضل أخطأ ابن سعد في تضعيفه من الثامنة توفي
١٨١ هـ. ع. [التقريب (ت ٦٨٥٨)].
- ١٦٤ - المفضل بن محمد الضبي.
قال أبو حاتم: متوك الحديث القراءة، وقال الخطيب: كان أخبارياً كلامه
موثقاً. [لسان الميزان (٦/٨١)].
- ١٦٥ - المفضل بن مهلب الضبي.
تابع ذكره ابن حبان في الثقات.
[٤٣٦/٥٥٨٥] [لسان الميزان (ت ٨٥٩٧)].
- ١٦٦ - مقاتل بن حيان النبطي.
ضعفه ابن خزيمة، وقال النسائي: ليس به بأس، وقال الدارقطني: صالح
الحديث ووثقه أبو داود وابن معين. وقال ابن حجر: صدوق فاضل.
[ميزان الاعتدال (ت ٨٧٤٥)، إكمال تهذيب الكمال (ت ٤٧٢٢)].
- ١٦٧ - موسى بن عبد الرحمن بن سعيد المسروفي (أبو عيسى) الكوفي.
ثقة من كبار الحادية عشرة. توفي ٢٥٨ هـ.
[التقريب (ت ٦٩٨٧)].
- ١٦٨ - ميمون بن مهران الجزري (أبو أبوب) الكوفي.
نزل الرقة، ثقة فقيه من الرابعة، توفي ١١٧ هـ وكان يرسل: [التقريب
(ت ٧٠٩٨)].
- (ن)
- ١٦٩ - النضر بن صالح بن حبيب العبسي (أبو زهير).
يروي عن سنان بن مالك، روى عنه أبو مخنف، قال أبو حاتم: النضر
وسنان مجاهلان.
[الجرح والتعديل (٨/٤٧٧)].

١٧٠ - نوح بن قيس بن رباح الأزدي (أبو روح).
صدق رمي بالتشيع من الثامنة.
[التقريب (ت ٧٢٥٨) [٢]].

(هـ)

١٧١ - هارون بن عيسى.
لم يبين الطبرى كنيته ولا نسبه ولا لقبه.
والذى في كتب التراجم بهذا الاسم اثنان:
أ - هارون بن عيسى الهاشمى الذى قال فيه الدارقطنى : ليس بالقوى . [لسان الميزان (ت ٨٩٤٢) [٢]].
ب - والآخر هارون بن عيسى بن هليل له عند الطبرانى حديث واحد [المعجم الصغير للطبرانى (ح ١٢٢٥) [٢]].

[توضيح المشتبه (٢٦٦/٨) [٢]].

١٧٢ - هشام بن حسان الأزدي (أبو عبد الله البصري).
قال ابن المدينى : كان يحيى وكبار أصحابنا يثبتون هشام بن حسان ، وكان يحيى يضعف حدیثه عن عطاء ، وثقة ابن سعد وابن معین . وقال مرة أخرى : لا بأس به ، وقال الذهبي : هشام بن قفز القنطرة واستقر توثيقه ، واحتج به أصحاب الصلاح . قوله أوهام في بحر ما روى .
[سير أعلام النبلاء (٣٦٢/٦) ، تهذيب الكمال (٣٠/٩٠ ت ٧١٧٢) [٢]].

١٧٣ - هشام بن سعد المدنى (أبو عباد).

صدق له أوهام ورمي بالتشيع ، من كبار السابعة .
وقال مغلطاي : ذكره العقيلي وأبو العرب وابن الجارود وابن السكن والفسوبي وأبو بشر الدولابي في جملة الضعفاء .
وقال ابن معین : ضعيف وحديث مختلط .

قلنا : والذى يراجع أقوال العلماء فيه كما ذكرها العلامة مغلطاي يتبيّن له أنه إلى الضعف أقرب منه إلى الصدق . والله أعلم .
[إكمال تهذيب الكمال (١٢/٤٩٤٧ ت ٧٣٢٠) [٢]].

١٧٤ - هشام بن محمد بن السائب الكلبي (أبو المنذر).
 قال الدارقطني : متزوك ، وقال ابن عساكر : رافضي ليس بثقة ، وقال ابن معين : غير ثقة وليس عن مثله يروى الحديث ، وقال ابن حبان : يروي عن أبيه ، والمعروف مولى سليمان ، والعرaciين العجائب والأخبار التي لا أصول لها .

وقال أيضاً : وكان غالياً في التشيع أخباره في الأغلظات أشهر من أن تحتاج إلى الإغراق في وصفها .
 وقال الذهبي : تركوه كأبيه وكأنا رافضين .

[لسان الميزان (١٩٦/٦) ، ميزان الاعتدال (٤/٣٠٤) ، المجرورين (٣/٩١)].

١٧٥ - الهلواث الكلبي المدائني (أبو الربع).
 الذي يروي عن سعيد بن جبير ، وعن الثوري ، فقد ترجم له ابن أبي حاتم وسكت عنه .

[الجرح والتعديل (٩/١٢٢ ت ٥١٨)].

١٧٦ - همام بن غالب (الفرزدق).
 الشاعر التميمي ، ولد في خلافة سيدنا عمر ، وتوفي سنة ١١٠ هـ ضعفه ابن حبان وقال : كان قد افأ للمحسنات فيجب مجازاته روایته .
 [لسان الميزان (٤/٤٣٣)].

١٧٧ - همام بن منبه الصنعاني .
 ثقة من الرابعة ، توفي سنة (١٣٢) هـ على الصحيح .
 [التقريب (ت ٧٣٦٧)].

١٧٨ - الهيثم بن عدي الطائي .
 قال البخاري : ليس بثقة ، كان يكذب ، وقال كذلك : سكتوا عنه ، وقال أبو حاتم : متزوك الحديث محله محل الواقدي ، وقال أبو داود : كذاب ، وكذلك قال العجلي . [تاريخ الثقات (٤٦٢/ت ١٧٥٧) ، الجرح والتعديل (٤/٨٥)، التاريـخ الكبير (٤/٢١٨)، لسان الميزان (٧/٢٩٦ ت ٩٠٥)].

(و)

١٧٩ - الوليد بن هشام القحدمي.

ذكره ابن حبان في الثقات كما قال ابن حجر . وقال الذهبي في الميزان : ثقة وفرق بينه وبين الوليد بن هشام بن الوليد المجهول .

[الميزان الاعتدال (ت ٩٤١٥) ، لسان الميزان (٦/٨١٠)].

١٨٠ - وهب بن جرير بن حازم (أبو العباس البصري) الأزدي .

وثقه ابن معين ، وقال أبو حاتم : صدوق ، وقال ابن حجر : ثقة من التاسعة أخرى له الستة ، وقال الذهبي : ثقة حافظ حديثه في الكتب ضعف في شعبه .

[الرواية الثقات المتalking فيها بما لا يوجب الرد (١٨٨ / ت ٨٤)].

(ي)

١٨١ - يحيى بن زكريا (ابن أبي زائد) الهمданى .

وثقه أحمد وغيره وقال أبو حاتم : صدوق ثقة توفي ١٨٠ هـ .

وقال ابن حجر : ثقة متقن من كبار التاسعة .

[الجرح والتعديل (٩/٦٠٩) ، التقريب (ت ٧٥٧٥)].

١٨٢ - يزيد بن أبي حبيب المصري .

ثقة فقيه ، وكان يرسل ، من الخامسة ، توفي ١٢٨ هـ وقد قارب الثمانين . ع .

[التقريب (ت ٧٧٢٩)].

١٨٣ - يعقوب بن إبراهيم الدورقى .

قال الخطيب : كان حافظاً متقدناً صنف المسند ووثقه ابن حبان والنسائي وقال أبو حاتم : صدوق .

[تهذيب الكمال (٩/٢٨٦) ، ثقات ابن حبان (٢٨٦/٩) ،

الجرح والتعديل (٤/٢٠٢)].

١٨٤ - يونس بن يزيد بن أبي النجاد الأيلى .

ثقة إلا أن في روايته عن الزهرى وهماً قليلاً ، وفي غير الزهرى خطأ . من كبار السابعة . ع .

[التقريب (ت ٧٩٤٨)].

الكتاب

(أ)

١٨٥ - أبو إسحاق السباعي (عمرو بن عبد الله الهمданى). ثقة مكث عابد ، من الثالثة ، اختلط بأخره ، مات سنة ١٢٩ هـ ، وقيل قبل ذلك . ع. [الترىب (ت ٥٠٦٥)].

(ب)

١٨٦ - أبو بردة بن أبي موسى الأشعري. ثقة من الثالثة. توفي ٦٠٤ هـ ، وقد جاوز الثمانين . ع. [الترىب (ت ٧٩٨١)].

١٨٧ - أبو بكر بن أبي سمرة.

رموه بالوضع ، وقال مصعب الزبيري : كان عالماً ، من السابعة . [تحرير التریب (٧٩٧٣) ، التریب (ت ٨٠٠٢)].

١٨٨ - أبو بكر بن عياش الكوفي المقرئ.

ثقة عابد إلا أنه لما كبر ساء حفظه وكتابه صحيح ، من السابعة توفي ١٩٤ هـ . وقد قارب المئة ، روایته في مقدمة مسلم .

وقال الذهبي : أحد الأئمة الأعلام صدوق ثبت في القراءة لكنه في الحديث يغليط ويهم ، وقد أخرج له البخاري وهو صالح الحديث . [ميزان الاعتلال (ت ١٠٠١٦) ، التریب (ت ٨٠٤٢)].

١٨٩ - أبو بكر الهدلي .

أخبارى متrock الحديث من السادسة ، توفي سنة ١٦٧ هـ . [التریب (ت ٨٠٣١)].

(ح)

١٩٠ - أبو حفص الأزدي (عمر بن صالح).
 الذي حدث عن أبي جمرة نصر بن عمران بموضوعات ، كناه سليمان بن عبد الرحمن الدمشقي والبخاري .
 [إكمال تهذيب الكمال (ت ١٧٥٢)].

(س)

١٩١ - أبو السري (الأزدي ، الأودي) ثابت بن زيد .
 روى عنه يحيى بن سعيد القطان .
 قال أحمد: ليس بشيء ، وقال ابن معين: ليس بالقوي ، وقال النسائي: ليس به بأس ، وذكره ابن حبان في جملة الثقات ، وقال: روى عنه يحيى بن سعيد القطان ، وقال ابن حجر: ضعيف من الثامنة . وقال الذهبي: أبو السري الأزدي لين .

[المقتني في سرد الكنى (٢٩٨/١ ت ٢٤٨٠)، إكمال تهذيب الكمال (ت ٨٧١)، التقرير (ت ٨٣٥)].
 وأما أبو السري؛ الذي هو هناد بن السري فثقة من العاشرة .
 [التقرير (ت ٧٣٤٦)].

١٩٢ - أبو السوار العدوى البصري (حسان بن حديث) أو حريف .
 ثقة من الثانية خ م س .
 [التقرير (ت ٨١٨٧)].

(ص)

١٩٣ - أبو صادق الأزدي .
 قال الحافظ: صدوق ، وحديثه عن علي مرسلا ، من الرابعة ، أخرج له النسائي وابن ماجه ، وقال الذهبي في الكاشف: وُثق .
 [التقرير (ت ٨٢٠٣)، الكاشف (٣٠٧/٣ ت ٢٢٠)].

١٩٤ - أبو صفوان (عبد الله بن سعيد الأموي).

روى عنه أَحْمَدُ بْنُ حِنْبَلَ ، وَزَهْيِرُ بْنُ حَرْبَ ، وَابْنُ الْمَدِينِيَّ ، روى عن سعيد بن عبد الملك بن مروان ، وثقة ابن حبان والدارقطني وابن معين .
[تهذيب الكمال (ت ٣٢٠٦)].

(ع)

١٩٥ - أبو عبيد (القاسم بن سلام) البغدادي .
الإمام المشهور ثقة فاضل مصنف من العاشرة ، توفي ٢٢٤ هـ .
[الترقیب (ت ٥٤٩٧)].

١٩٦ - أبو عبيدة (معمر بن المثنى) .
صدقوق أخباري رمي برأي الخوارج ، من السابعة ، توفي سنة ٢٠٨ هـ وقد قارب المئة .
[الترقیب (ت ٦٨١٢)].

١٩٧ - أبو عمرو المدنی .
لم ندر من هو .

وقال الأستاذ محمد خالد الغيث: لعله سعيد بن سلمة بن أبي الحسام .
صدقوق . صحيح الكتاب يخطئ من حفظه .
[انظر مرويات خلافة معاوية (ص ٥٢ / ت ٤١) والله أعلم .

١٩٨ - أبو العلاء التميمي .

لعله أيوب بن أبي مسكين ، يروي عن سعيد المقبري ، وعبد الله بن شيبة .
يروي عنه يزيد بن هارون .

وثقه غير واحد (مسلم والنمسائي وابن سعد وأحمد) وقال أبو حاتم: لا بأس به .
شيخ صالح يكتب حدثه ولا يحتاج به .

وقال الحافظ: صدقوق له أوهام . والذى عند الطبرى أبو العلاء التميمي ، والله أعلم .

[إكمال تهذيب الكمال (ت ٦٢٤) ، تحرير الترقیب (ت ٦٢٣) ، الترقیب (ت ٦٢٤)].

١٩٩ - أبو عوانة (وضاح بن عبد الله اليشكري).

ثقة ثبت من السابعة .ع. وقال الذهبي : مجمع على ثقته.

[التقريب (ت ٧٤٣٤) ، الميزان (ت ٩٣٥٠)].

(غ)

٢٠٠ - أبو غسان (مالك بن إسماعيل) النهدي.

ثقة صحيح الكتاب من صغار التاسعة . توفي ١٢٧ هـ.

وقال ابن عدي : وهو في نفسه صدوق ، وإذا حدث عن صدوق مثله أو حدث عنه صدوق فلا بأس به وب الحديثه .

[الكامل (ت ٢١٣٦) ، تحرير التقريب (ت ٦٣٢٤)].

(م)

٢٠١ - أبو محمد الأموي .

لم يبين الطبرى من هو .

وقال الأستاذ محمد الغيث : لعله إسماعيل بن عمرو بن سعيد بن العاص ،

تابعى ثقة توفي في المدينة في أول خلافة بنى العباس .

[مرويات خلافة معاوية (ص ٦١)].

٢٠٢ - أبو محمد الثقفى .

إن كان هارون بن أبي إبراهيم الذي يروى عن عمر بن عبد العزيز : وعنده وكيع

وأبو نعيم ، فقد وثقه أحمد وابن معين وأبو حاتم .

[الجرح والتعديل (٩٦/٩) ، تهذيب الكمال (ت ٦٥٣٤)].

وإلا فلا ندرى من هو .

٢٠٣ - أبو مخنف (لوط بن يحيى).

قال أبو حاتم : متrocك . وقال الدارقطنى : أخباري ضعيف ، وقال ابن عدي :

شيعي محترق صاحب أخبارهم ، وقال الذهبي : ساقط ، وقال أيضاً : أخباري تالف لا يوثق به .

[الجرح والتعديل (١٨٢/٧) ، المغني في الضعفاء (ت ٥١٢١) ، لسان

الميزان (٤/٤٩٢) ميزان الاعتدال (٣/٤١٩)، سير أعلام النبلاء (٧/٣٠١ ت ٩٤). [١]

٢٠٤ - أبو معاوية (محمد بن خازم). ثقة ، من السابعة أحفظ الناس لحديث الأعمش ، وقد يهم في غيره ، وقال ابن خراش: صدوق ، وهو في الأعمش ثقة ، وفي غيره اضطراب ، وذكره ابن حبان في الثقات ، وقال: كان حافظاً متقدناً.

[الثقات ٧/٢٤١)، تاريخ الخطيب ٥/٢٤٨)، العلل ومعرفة الرجال (١/٥٤١ ت ١٢٨١). التقريب (١/٥٨٥٩). [٢]

٢٠٥ - أبو معشر (نجيح بن عبد الرحمن السندي). قال ابن أبي حاتم: سمعت أبي - وذكر مغازي أبي معشر فقال -: كان أحمد بن حنبل يرضاه ويقول: كان بصيراً بالمغازي وقد تحدث الناس عن حديثه في المغازي - هشام ونافع وابن المنذر - وقال أبو زرعة: كان حافظاً كيساً وحدث عنه عبد الرحمن بن مهدي.

وقال الحافظ: ضعيف من السادسة أسنَ واختلط ، توفي ١٧٠ هـ أخرج له الأربعة.

[التقريب (٦٣٨٦ ت ٧١٢٦)، تهذيب الكمال (٦٣٨٦ ت ٧١٢٦).]

(ن)

٢٠٦ - أبو نعامة العدوبي (عمرو بن عيسى البصري). قال الحافظ في التقريب: صدوق اختلط.

فعقب الشیخان المحرران (شعیب وبشار) بقولهما (في تحریر التقریب): ضعفه ابن سعد وحده ، ولم يصفه أحد بالاختلاط قبل موته غير احمد لذا مرّضه الذهبي بقوله: قيل تغير بأخرة. اـ.

قلنا: والذی فی میزان الاعتدال: وروی الأثر عن أحمـد: ثـقة لـكـنه اختـلط قـبـل موته ولـم نـجـد صـيـغـة التـمـرـیـض فـی المـیـزاـن وـلـا فـی الـکـاـشـف فـلـعـله فـی مـوـضـع آخر. والله أعلم.

وأـما التـضـعـیـف فـهـو كـمـا قـالـا: لم يـضـعـفـه سـوـى ابن سـعـد وـالـله أـعـلـم.

وقـالـ العـلـامـة مـغـلـطـايـ: خـرـجـ أـبـو عـوـانـة حـدـيـثـه فـی صـحـيـحـه وـكـذـلـكـ الدـارـمـيـ.

وابن الحارود والحاكم ، وذكره ابن شاهين وابن خلفون في الثقات ، وضعفه ابن سعد.

ويبدو أن المحررين (شعب وبشار) استندا إلى شرح مغلطاي ، وقولهما أصوب من قول الحافظ في هذه الترجمة ، والله أعلم .
[إكمال تهذيب الكمال (ت ٤٦٠) ، التقريب (ت ٥١٠٥) ، تحرير التقريب (ت ٥٠٨٩) .

الأبناء

٢٠٧ - ابن جعدة .

يزيد بن عياض بن جعدة الليثي أبو الحكم المدني ، انتقل إلى البصرة ومات بها في زمن المهدي .

وقال أبو حاتم والبخاري ومسلم : منكر الحديث ، وقال النسائي : كذاب .
[تهذيب الكمال (ت ٧٠٣٥) .

الألقاب

٢٠٨ - الأشجعي (عبيد الله بن عبيد الرحمن)
ثقة مأمون من أثبت الناس كتاباً في الشوري ، من كبار التاسعة .
[التقريب (ت ٤٣٤٧) .

٢٠٩ - الهذلي .

هو أبو بكر الهذلي الأخباري المتروك (انظر رقم ١٨٩) .



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

[مقدمة الطبرى]

الحمد لله الأول قبل كلّ أول ، والآخر بعد كلّ آخر ، [والدائم بلا زوال] ، والقائم على كلّ شيء بغير انتقال ، والخالق خلقه من غير أصلٍ ولا مثال؛ فهو الفردُ الواحد من غير عدد؛ وهو الباقي بعد كلّ أحد ، إلى غير نهاية ولا أمد. له الكبرياءُ والعظمة ، والبهاء والعزّة ، والسلطان والقدرة ، تعالى عن أن يكون له شريك في سلطانه أو في وحدانيته نديداً ، أو في تدبیره مُعين أو ظهير ، أو أن يكون له ولد ، أو صاحبة أو كفء أحد ، لا تحيط به الأوهام ، ولا تحويه الأقطار ، ولا تدركه الأبصار ، [وهو يدرك الأبصار] ، وهو اللطيف الخبير.

أحمدَه على آلائه ، وأشكره على نعمائه ، حمدَ منْ أفرده بالحمد ، وشكراً منْ رجا بالشكر منه المزيد ، وأستهديه من القول والعمل لما يقربني منه ويرضيه ، وأومنُ به إيماناً مخلصاً له التوحيد ، ومفرد له التمجيد.

وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأشهد أنَّ محمداً عبدَ النجيب ، ورسولَ الأمين ، اصطفاه لرسالته ، وابتاعه بوجيه ، داعياً خلقه إلى عبادته؛ فصدّع بأمره ، وجاهدَ في سبيله ، ونصح لأمته ، وعبدَ حتى أتاه اليقين من عنده ، غير مقصّر في بلاغ ، ولا وانٍ في جهاد؛ صلى الله عليه أفضّل صلاة وأزكّها ، وسلم.

أما بعد ، فإنَّ الله جلَّ جلاله ، وتقديست أسماؤه ، خلقَ خلقه من غير ضرورة كانت به إلى خلقهم ، وأنشأهم من غير حاجة كانت به إلى إنشائهم ، بل خلق من خصّه منهم بأمره ونهيه ، وامتحنه بعبادته ، ليعبدوه [فيجود عليهم بنعمه] ، وليحمدواه على نعمه فيزيدُهم من فضله ومنته ، ويُسْعَ عليهم فضله وطوله ، كما

قال عز وجل: «وَمَا خَلَقْتُ لِجَنَّ وَالإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونَ ﴿٦﴾ مَا أُرِيدُ مِنْهُمْ مِنْ رِزْقٍ وَمَا أُرِيدُ أَنْ يُطِيعُونَ ﴿٧﴾ إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَاقُ دُوَّلَ الْفُوْةَ الْمَتَّيْنُ». فلم يزده خلقه إياهم - إذ خلقهم - في سلطانه على ما لم يزل قبل خلقه إياهم مثقال ذرة ، ولا هو إن أفناهم وأعدمهم ينتصه إفناوه إياهم ميزان شعرة ، لأنه لا تغيره الأحوال ، ولا يدخله الملال ، ولا ينقص سلطانه الأيام والليالي؛ لأنه خالق الدهور والأزمان ، فعم جميعهم في العاجل فضله وجوده ، وشملهم كرمه وطوله ، فجعل لهم أسماعاً وأبصاراً وأفendas ، وخصهم بعقول يصلون بها إلى التمييز بين الحق والباطل ، ويعرفون بها المنافع والمضار ، وجعل لهم الأرض بساطاً ليسلكوا منها سبلاً فجاجاً ، والسماء سقفاً محفوظاً ، [وببناء مسموكاً]؛ وأنزل لهم منها الغيث بالإدرار ، والأرزاق بالمقدار ، وأجرى لهم [فيها] قمر الليل وشمس النهار يتعاقبان بمصالحهم دائمين ، فجعل لهم الليل لباساً ، والنهار معاشاً ، وخالف - مناً منه عليهم وتطولاً - بين قمر الليل وشمس النهار ، فمحا آية الليل وجعل آية النهار مبصرة ، كما قال جل جلاله وقدست أسماؤه: «وَجَعَلْنَا أَيَّلَ وَالنَّهَارَ أَيَّنَ فَحَوْنَاءِ أَيَّهَا أَيَّلَ وَجَعَلْنَا أَيَّهَا أَيَّهَا مُبَصِّرَةً لَتَبَغُوا فَضْلًا مِنْ رِبْكُمْ وَلَتَعْلَمُوا عَدَدَ الْسَّيْنَ وَالْحِسَابَ وَكُلَّ شَيْءٍ فَصَلَّتْهُ نَفْسِيَّلَا».

وليصلوا بذلك إلى العلم بأوقات فروضهم التي فرضها عليهم في ساعات الليل والنهار والشهور والسنين؛ من الصلوات والزكوات والحج والعصام وغير ذلك من فروضهم ، وحين حلّ ديونهم وحقوقهم؛ كما قال عز وجل: «يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَهْلَةِ قُلْ هِيَ مَوَاقِيتُ لِلنَّاسِ وَالْحَجَّ» ، وقال: «هُوَ الَّذِي جَعَلَ الْشَّمْسَ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُورًا وَقَدَرَهُ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا عَدَدَ الْسَّيْنَ وَالْحِسَابَ مَا خَلَقَ اللَّهُ ذَلِكَ إِلَّا بِالْحَقِّ يُعَصِّلُ الْأَيَّتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٨﴾ إِنَّ فِي أَخْيَالِ أَيَّلَ وَالنَّهَارِ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَآيَتِ لِقَوْمٍ يَتَّقُونَ» إنعاماً منه بكل ذلك على خلقه ، وتفضلاً منه به عليهم وتطولاً ، فشكراً على نعمه التي أنعمها عليهم من خلقه خلق عظيم ، فزاد كثيراً منهم من آلائه وأياديه ، على ما ابتدأهم به من فضله وطوله ، كما وعدهم جل جلاله بقوله: «وَإِذَا تَذَذَّتْ رَبُّكُمْ لَئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِنْ كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ» ، وجمع لهم إلى الزيادة التي زادهم في عاجل دنياهم ، الفوز بالنعم المقيم ، والخلود في جنات النعيم ، في آجل آخرتهم ، وأخر لكتير منهم الزيادة التي وعدهم فمدّهم إلى حين مصيرهم [إليه] ، وقت قدومهم

عليه ، توفيراً منه كرامته عليهم يوم تُبلى السرائر . وكفر نعمه خلق منهم عظيم ، فجحدوا آلاءه وعبدوا سواه ، فسلب كثيراً منهم ما ابتدأهم به من الفضل والإحسان ، وأحلّ بهم النعمة المهلكة في العاجل ، وذخر لهم العقوبة المخزية في الآجل ، ومتّع كثيراً منهم بنعمة أيام حياتهم استدراجاً منه لهم ، وتوفيراً منه عليهم أوزارهم ؟ ليستحقوا من عقوبته في الآجل ما قد أعدّ لهم .

نعود بالله من عمل يقرب من سخطه ، ونسأله التوفيق لما يُدْني من رضاه ومحبته .

قال أبو جعفر : وأنا ذاكر في كتابي هذا من ملوك كل زمان ، من [لدن] ابتدأ ربّنا جل جلاله خلق خلقه إلى حال فنائهم ، من انتهى إلينا خبره ومن ابتدأه الله تعالى بالآله ونعمه فشكر نعمه ؟ من رسول له مرسال ، أو ملك مسلط ، أو خليفة مستخلف ، فزاده إلى ما ابتدأه به من نعمه في العاجل نعمماً ، وإلى ما تفضل به عليه فضلاً ، ومن أَحَرَ ذلك له منهم ، وجعله له عنده ذخراً . ومن كفر منهم نعمه فسلبه ما ابتدأه به من نعمه ، وعجل له نعمة . ومن كفر منهم نعمه فمتعه بما أنعم به عليه إلى حين وفاته وهلاكه ؛ مقروناً ذكر كل من أنا ذاكره منهم في كتابي هذا بذكر زمانه ، وجمل ما كان من حوادث الأمور في عصره وأيامه ؛ إذ كان الاستقصاء في ذلك يقصر عنه العمر ، وتطول به الكتب ، مع ذكري مع ذلك مبلغ مدة أُكله ، وحين أجله ، بعد تقديمي أمام ذلك ما تقديمها بنا أولى ، والابتداء به قبله أحججى ؟ من البيان عن الزمان : ما هو ؟ وكم قدر جميعه ، وابتداء أوله ، وانتهاء آخره ؟ وهل كان قبل خلق الله تعالى إياه شيء غيره ؟ وهل هو فان ؟ وهل بعد فنائه شيء غير وجه المسيح الخلاق ، تعالى ذكره ؟ وما الذي كان قبل خلق الله إياه ؟ وما هو كائن بعد فنائه وانقضائه ؟ وكيف كان ابتداء خلق الله تعالى إياه ؟ وكيف يكون فناؤه ؟ والدلالة على أن لا قديم إلا الله الواحد القهار ، الذي له ملك السموات والأرض وما بينهما وما تحت الشري بوجيز من الدلالة غير طويل ؛ إذ لم نقصد بكتابنا هذا قصد الاحتجاج لذلك ، بل لما ذكرنا من تاريخ الملوك الماضين وجملًا من أخبارهم ، وأزمان الرسل والأنبياء ومقادير أعمارهم ، وأيام الخلفاء السالفين وبعض سيرهم ، ومبان لياتهم ، والكائن الذي كان من الأحداث في أعصارهم . ثم أنا متبع آخر ذلك كله - إن شاء الله وأيدَ منه بعون وقوة - ذكر

صحابة نبينا محمد ﷺ وأسمائهم وكناهم ومبانع أنسابهم ومبانع أعمارهم ، وقت وفاة كلّ إنسان منهم ، والموضع الذي كانت به وفاته : ثم متبوعهم ذكر من كان بعدهم من التابعين لهم بإحسان ، على نحو ما شرطنا من ذكرهم . ثم ملحق بهم ذكر من كان بعدهم من الخلف لهم كذلك ، وزائد في أمورهم للإبانة عن حمدة منهم روايته ، وتُقْرِّبُ أخباره ، ومن رفضت منهم روايته ونبذت أخباره ، ومن وُهَنَ منهم نقله ، وضُعِّفَ خبره . و[ما] السببُ الذي من أجله نُبْذَ من نُبْذَ منهم خبره ، والعلة التي من أجلها وُهَنَ من وُهَنَ منهم نقله .

وإلى الله عز وجل أنا راغب في العون على ما أقصده وأنوبيه ، والتوفيق لما ألتمسه وأبغيه ؛ فإنه ولِيُّ الحول والقوة ، وصَلَّى اللهُ عَلَى مُحَمَّدٍ نَبِيَّهُ وَآلِهِ وَسَلَّمَ تسلیماً .

وليعلم الناظر في كتابنا هذا أنّ اعتمادي في كلّ ما أحضرت ذكره فيه مما شرطت أنني راسمه فيه ؛ إنما هو على ما رويت من الأخبار التي أنا ذاكرها فيه ، والآثار التي أنا مستندها إلى رواتها فيه ، دون ما أدرك بحجج العقول ، واستنباط بفكّ النفوس ، إلا اليسير القليل منه ، إذ كان العلم بما كان من أخبار الماضين ، وما هو كائن من أنباء الحادثين ، غير واصل إلى من لم يشاهدهم ولم يدرك زمانهم ؛ إلا بإخبار المخبرين ، ونقل الناقلين ، دون الاستخراج بالعقل ، والاستنباط بفكّ النفوس . فما يكن في كتابي هذا من خبر ذكرناه عن بعض الماضين مما يستنكره قارئه ، أو يستشنه سامعه ، من أجل أنه لم يعرف له وجهاً في الصحة ، ولا معنى في الحقيقة ، فليعلم أنه لم يؤت في ذلك من قبلنا ، وإنما أتي من قبل بعض ناقليه إلينا ؛ وإنما أدينا ذلك على نحو ما أدى إلينا^(١) .

(١) ٤/٣/٦/٧/٨ .

القول في الزمان ما هو

قال أبو جعفر : فالزمانُ هو ساعات الليل والنهر ، وقد يقال ذلك للطويل من المدة والقصير منها ، والعرب تقول : أتيتك زمان الحجاج أمير ، وزمان الحجاج أمير - تعني به : إذ الحجاج أمير . وتقول : أتيتك زمان الصرام [وزمان الصرام] -

تعني به وقت الصرام. ويقولون أيضاً: أتيتك أزمان الحجاج أمير ، فيجمعون الزمان ، يريدون بذلك أن يجعلوا كلّ وقت من أوقات إمارته زماناً من الأزمنة ، كما قال الراجز:

جاء الشتاء وقميصي أخلاق شرادي يضحك منه التواب
 يجعل القميص أخلاقاً ، يريد بذلك وصف كل قطعة منه بالإلحاد؛ كما يقولون: أرض سبابس ، ونحو ذلك.

ومن قولهم للزمان: «زمن» قول أعشىبني قيس بن ثعلبة:
وُكْنِتُ امْرَأً زَمَنًا بِالْعَرَاقِ عَفِيفَ الْمُنَاخِ طَوِيلَ التَّغَنِ
يريد بقوله: «زمنا» «زماناً» ، فالزمان اسم لما ذكرت من ساعات الليل والنهار
على ما قد بيّنت ووصفت^(١): (١: ٩).

القول في كم قدر جميع الزمان من ابتدائه إلى انتهائه وأوله إلى آخره

قال أبو جعفر: والصواب من القول في ذلك ما دل على صحته الخبر الوارد عن رسول الله ﷺ، وذلك ما حدثنا به محمد بن بشار وعلي بن سهل ، قالا: حدثنا مؤمل ، قال: حدثنا سفيان ، عن عبد الله بن دينار ، عن ابن عمر ، قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «أجلكم في أجل من كان قبلكم ، من صلاة العصر إلى مغرب الشمس»^(٢): (١١: ١).

حدثنا ابن حميد، قال: حدثنا سلمة ، قال: حدثني محمد بن إسحاق ، عن

(١) صحيح.

(٢) حديث صحيح أخرجه البخاري من طريق سفيان عن عبد الله بن دينار عن ابن عمرو مرفوعاً ضمن حديث أطول مما عند الطبرى ولفظه: «إنما أجلكم في أجل من خلا من الأمم كما بين صلاة العصر ومغرب الشمس ، ومثلكم ومثل اليهود والنصارى ... الحديث».

وكذلك أخرجه أحمد من طريق مؤمل هذا (كما عند الطبرى) عن سفيان عن عبد الله بن دينار عن ابن عمر مرفوعاً مختصراً (كما عند الطبرى) مع اختلاف في الألفاظ يسير جداً.
(مسند أحمد ح/ ٥٩١١). وانظر صحيح البخاري / فضائل القرآن / (ح ٥٠٢١).

نافع ، عن ابن عمر ، قال : سمعت النبي ﷺ يقول : «ألا إنما أجلكم في أجل من خلا من الأمم ، كما بين صلاة العصر إلى مغرب الشمس»^(١) . (١٠ : ١٠) .

حدثنا الحسن بن عَرْفَةَ ، قال : حدثني عمَّارُ بْنُ مُحَمَّدٍ ، ابْنُ أَخْتِ سَفِيَّانَ الثُّورِيِّ ، أَوْ الْيَقْظَانَ ، عنْ لَيْثَ بْنِ أَبِي سُلَيْمٍ ، عنْ مُغِيرَةَ بْنِ حَكِيمٍ ، عنْ عَبْدِ اللَّهِ ابْنِ عَمْرٍ ، قال : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : «مَا بَقَى لِأَمْتِي مِنَ الدُّنْيَا إِلَّا كَمْقَدَارٌ مَغْرِبُ الشَّمْسِ إِذَا صُلِّيَتِ الْعَصْرُ»^(٢) . (١٠ : ١٠) .

حدثني محمد بن عوف ، قال : حدثنا أبو نعيم ، قال : حدثنا شريك ، قال : سمعت سلمة بن كهيل ، عن مجاهد ، عن ابن عمر ، قال : كنا جلوساً عند النبي ﷺ والشمس مرتفعة على قعيقان بعد العصر ، فقال : «ما أعمَّازُكُمْ فِي أَعْمَارٍ مِنْ مَضِيِّ إِلَّا كَمَا بَقَى مِنْ هَذَا النَّهَارِ فِيمَا مَضَى مِنْهُ»^(٣) . (١١ : ١١) .

حدثنا ابن بشار و محمد بن المثنى - قال ابن بشار : حدثني خلف بن موسى ، وقال ابن المثنى : حدثنا خلف بن موسى - قال : حدثني أبي ، عن قتادة ، عن أنس بن مالك أن رسول الله ﷺ خطب أصحابه يوماً - وقد كادت الشمس أن تغيب ، ولم يبق منها إلا سُقُّ يسير - فقال : «والذي نفس محمد بيده ما بقي من

(١) إسناده ضعيف والحديث صحيح لغيره (انظر الرواية السابقة) وانظر كذلك (صحيح البخاري / ح ٥٥٧ / ح ٢٥٦٩ ، ح ٧٥٣٣).

(٢) في إسناده ليث بن سليم ، صدوق اختلط ، والمتن صحيح كما سبق ، ولقد أشرنا سابقاً إلى روایات البخاری لهذا الحديث ورواية لأحمد ، ونشر هنا إلى رواية الترمذی في سننه (كتاب الأمثال / ح ٢٨٧١) ضمن حديث طويل : وقال الترمذی : حسن صحيح . ولفظه : (إنما أجلكم فيما خلا من الأمم كما بين صلاة العصر إلى مغرب الشمس وإنما مثل لكم مثل اليهود... الحديث).

(٣) في إسناده أبو نعيم ضعفه غير واحد وشريك النخعي ضعيف وكذلك أخرجه أحمد (٥٩٦٦) من طريق شريك : سمعت سلمة بن كهيل يحدث عن مجاهد . عن ابن عمر قال : كنا جلوساً عند النبي ﷺ والشمس على قعيقان... الحديث) كما عند النطيري .
قلنا : وإن كان إسناده ضعيفاً فالحديث صحيح لغيره أخرجه البخاري وغيره (انظر الروايات السابقة).

دنياكم فيما مضى منها إلا كما بقي من يومكم هذا فيما مضى منه ، وما ترؤن من الشمس إلا اليسير»^(١). (١٢ / ١١ : ١).

حدثنا هناد بن السري وأبو هشام الرفاعي ، قالا: حدثنا أبو بكر بن عياش ، عن أبي حصين ، عن أبي صالح ، عن أبي هريرة ، قال: قال رسول الله ﷺ: «بعثت [أنا] وال الساعة كهاتين» - وأشار بالسبابة والوسطى^(٢). (١٢ : ١).

حدثنا أبو كُرَيْب ، حدثنا يحيى بن آدم ، عن أبي بكر ، عن أبي حصين ، عن أبي صالح ، عن أبي هريرة ، عن النبي بنحوه^(٣). (١٢ : ١).

حدثنا هناد ، قال: حدثنا أبو الأحوص وأبو معاوية ، عن الأعمش ، عن أبي خالد الوالبي ، عن جابر بن سمرة ، قال: قال رسول الله ﷺ: «بعثت أنا وال الساعة كهاتين»^(٤). (١٢ : ١).

حدثنا أبو كُرَيْب ، قال: حدثنا عثام بن علي ، عن الأعمش ، عن أبي خالد الوالبي ، عن جابر بن سمرة ، قال: كأنني أنظر إلى إصبعي رسول الله ﷺ - وأشار

(١) في إسناده موسى بن خلف العمي قال فيه الحافظ: صدوق له أوهام ، وأخرج أحمد في مسنده (ح ٦١٧٣) من طريق كثير بن زيد عن المطلب بن عبد الله عن عبد الله بن عمر أنه كان واقفاً بعرفات فنظر إلى الشمس حتى تدللت مثل الترس للغروب ، فبكى واشتد بكاؤه فقال له رجل عنده: يا أبا عبد الرحمن قد وقفت معي مراراً لم تصنع هذا فقال: ذكرت رسول الله ﷺ وهو وافق بمحكاني هذا فقال: (أيها الناس إنه لم يبق من دنياكم فيما مضى إلا كما بقي من يومكم هذا فيما مضى منه).

وأخرجه الحاكم من طريق غير هذا مع زيادة فقال الحاكم: صحيح الإسناد ، لكن الذهبي لم يوافقه بل قال: كثير ضعفه النسائي ومشاه غيره . (المستدرك مع التلخيص ٤٤٢ / ٢).

(٢) في إسناده أبو صالح فإن كان هو الأشعري الشامي فالإسناد حسن وإن كان أبو صالح السمان فالإسناد صحيح والحديث صحيح كما سذكر فيما يلي .

(٣) حديث صحيح وانظر ما بعده.

(٤) في إسناده الأعمش وهو مدلّس وقد عنون ولم يصرح بالتحديث ، وأبو خالد الوالبي ، قال أبو حاتم: صالح الحديث ، وقال الحافظ: مقبول.

وهذا الحديث صحيح تعددت مخارجه كما سنبين بعد روایات وأما من حديث سمرة فكذلك أخرجه الطبراني في الكبير (١٨٤٣) وأحمد (٤ / ٣٠٩).

وقال الهيثمي: ورجال أحمد رجال الصحيح غير أبي خالد الوالبي وهو ثقة (مجمع الزوائد ح ١٨٢٢٦).

بالمسيحة والتي تليها - وهو يقول: «بعثت أنا والساعة كهذه من هذه»^(١).

. (١٢: ١).

حدثنا ابن حميد ، قال: حدثني يحيى بن واضح ، قال: حدثنا فطر ، عن أبي خالد الوالبي ، عن جابر بن سمرة ، قال: قال رسول الله ﷺ : «بعثت من الساعة كهاتين» - وجمع بين إصبعيه السبابة والوسطى^(٢) . (١٢: ١).

حدثنا ابن المثنى ، قال: حدثنا محمد بن جعفر ، قال: حدثنا شعبة ، قال: سمعت قتادة يحذّث ، قال: حدثنا أنس بن مالك ، قال: قال رسول الله ﷺ : «بعثت أنا والساعة كهاتين». قال شعبة: سمعت قتادة يقول في قصصه: كفضل إدحاما على الأخرى ، قال: لا أدرى أذكره عن أنس أو قاله قتادة^(٣) . (١٣: ١).

حدثنا خلاد بن أسلم ، قال: حدثنا النضر بن شمائل ، قال: حدثنا شعبة ، عن قتادة ، قال: حدثنا أنس بن مالك ، قال: قال رسول الله ﷺ : «بعثت أنا والساعة كهاتين»^(٤) . (١٣: ١).

حدثنا مجاهد بن موسى ، قال: حدثنا يزيد ، قال: حدثنا شعبة ، عن قتادة ، عن أنس بن مالك ، عن النبي ﷺ مثله ، وزاد في حديثه: وأشار بالوسطى والسبابة^(٥) . (١٣: ١).

حدثنا محمد بن عبد الله بن عبد الحكم ، قال: حدثنا أبوبن سويد ، عن الأوزاعي ، قال: حدثنا إسماعيل بن عبيد الله ، قال: قدم أنس بن مالك على

(١) حديث صحيح.

(٢) إسناده ضعيف ، ورواه من طريق فطر (ابن خليفة) هذا الحارث بن أبي أسامة كما ذكر البوصيري في الإتحاف ولفظه: [(بعثت أنا وقيام الساعة) قال: أبو زكريا: ورأى فطر بن خليفة ضم إصبعيه الوسطى والسبابة] وقال البوصيري: رواه الحارث بن أبيأسامة عن يحيى بن هاشم وهو ضعيف ورواه أحمد من وجه آخر (إتحاف الخيرة/ ح ١٠٠٣٤).

قلنا: والحديث صحيح كما سئلنا بعد الآتي.

(٣) حديث صحيح أخرجه البخاري (ح ٦٥٠٤) ومسلم (ح ٢٩٥١) والترمذى (ح ٢٢١٤) من طريق شعبة عن قتادة عن أنس مرفوعاً.

وقال الترمذى: هذا حديث حسن صحيح.

(٤) هذا إسناد صحيح والحديث صحيح (انظر ما قبله).

(٥) هذا إسناد صحيح والحديث صحيح (انظر ما قبله).

الوليد بن عبد الملك ، فقال له الوليد: ماذا سمعت رسول الله ﷺ يذكر به الساعة؟ قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «أنتم [و] الساعة كهاتين» ، وأشار بإصبعيه^(١). (١٣ : ١٣).

حدثني العباس بن الوليد ، قال: أخبرني أبي ، قال: حدثنا الأوزاعي ، قال: حدثني إسماعيل بن عبيد الله ، قال: قدم أنس بن مالك على الوليد بن عبد الملك ، فقال له الوليد: ماذا سمعت [من] رسول الله ﷺ يذكر به الساعة؟ قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «أنتم والساعة كتين»^(٢). (١٣ : ١٣).

حدثني ابن عبد الرحيم البرقي ، قال: حدثنا عمرو بن أبي سلمة ، عن الأوزاعي ، قال: حدثني إسماعيل بن عبيد الله ، قال: قدم أنس بن مالك على الوليد بن عبد الملك ، فذكر مثله^(٣). (١٤ / ١٣).

حدثني محمد بن عبد الأعلى ، قال: حدثنا المعتمر بن سليمان ، عن أبيه ، قال: حدثني معبد ، حدث أنس عن رسول الله ﷺ أنه قال: «بعثت أنا والساعة كهاتين» ، وقال بإصبعيه: هكذا^(٤). (١٤ : ١٤).

حدثنا ابن المثنى قال: حدثنا وهب بن جرير ، قال: حدثنا شعبة ، عن أبي التياح ، عن أنس ، قال: قال رسول الله ﷺ: «بعثت أنا والساعة كهاتين» ، قال أبو موسى: وأشار وهب بالسبابة والوسطى^(٥). (١٤ : ١٤).

حدثني عبد الله بن أبي زياد ، قال: حدثنا وهب بن جرير ، قال: حدثنا شعبة ، عن أبي التياح وقتادة ، عن أنس ، قال: قال رسول الله ﷺ: «بعثت أنا والساعة كهاتين» ، وقرن بين إصبعيه^(٦). (١٤ : ١٤).

حدثني محمد بن عبد الله بن بزيع ، قال: حدثنا الفضيل بن سليمان ، حدثنا

(١) في إسناده أبوبن سعيد ، ضعيف ولكن حديث أنس حديث صحيح كما ذكرنا سابقاً.

(٢) هذا إسناد حسن صحيح وحديث أنس حديث صحيح إلا أنّا لم نجد بهذه اللفظة (كتين).
(٣) انظر ما قبله.

(٤) إسناده صحيح والحديث أخرجه البخاري كما عزونا آنفاً وكما سنبيه بعد الحديث الآتي.
الحديث صحيح ، كما سنبيه بعد الآتي.

(٥) حديث أنس هذا حديث صحيح أخرجه البخاري (ح ٦٥٠٤) ومسلم (٢٩٥١ / ١٣٤) من طريق شعبة عن أبي التياح وقتادة عن أنس مرفوعاً.

أبو حازم ، قال: حدثنا سهل بن سعد ، قال: رأيت رسول الله ﷺ قال بإصبعيه هكذا ، الوسطى والتي تلي الإبهام: «بعثت أنا والساعة كهاتين»^(١) . (١: ١٤) .

حدثنا أبو كريب ، قال: حدثنا خالد ، عن محمد بن جعفر ، عن أبي حازم ، عن سهل بن سعد ، قال: قال رسول الله ﷺ : «بعثت أنا والساعة كهاتين» ، وجمع بين إصبعيه^(٢) . (١: ١٤) .

حدثنا أبو كريب ، قال: حدثنا خالد ، قال: حدثنا سليمان بن بلال ، قال: حدثني أبي حازم ، عن سهل بن سعد ، قال: قال رسول الله ﷺ : «بعثت أنا والساعة هكذا» ، وقرن بين إصبعيه: الوسطى والتي تلي الإبهام^(٣) . (١: ١٥) .

حدثني ابن عبد الرحيم البرقي ، قال: حدثنا ابن أبي مريم ، قال: حدثنا محمد بن جعفر ، قال: حدثني أبو حازم ، عن سهل بن سعد ، قال: قال رسول الله ﷺ : «بعثت أنا والساعة كهاتين» ، وجمع بين إصبعيه^(٤) . (١: ١٥) .

حدثني أحمد بن محمد بن حبيب ، قال: حدثنا أبو نصر ، قال: حدثنا المسعودي ، عن إسماعيل بن أبي خالد ، عن الشعبي ، عن أبي جبيرة ، قال: قال رسول الله ﷺ : «بعثت مع الساعة كهاتين - وأشار بإصبعيه الوسطى والسبابة - كفضل هذه على هذه»^(٥) . (١: ١٥) .

حدثنا تميم بن المتصر ، قال: أخبرنا يزيد ، قال: أخبرنا إسماعيل ، عن

(١) في إسناده الفضل بن سليمان ، حديثه في الكتب الستة ضعفه غير واحد منهم إلا أنه متتابع هنا فقد أخرج مسلم في صحيحه من طريق يعقوب بن عبد الرحمن وعبد العزيز بن أبي حازم عن أبي حازم عن سهل بن سعد أنه سمع سهلاً يقول: سمعت النبي ﷺ يشير بإصبعيه التي تلي الإبهام والوسطى وهو يقول: (بعثت أنا والساعة هكذا).

(صحيح مسلم / كتاب الفتنة / باب قرب الساعة / ١٣١ / ٢٩٥٠).

(٢) حديث صحيح من حديث سهل وأنس (وانظر ما سبق).

(٣) حديث صحيح (انظر ما قبله).

(٤) رواه أحمد (٥/ ٣٤٨) وفيه: (وضم إصبعيه السبابة والوسطى بدلاً من عباره (وجمع بين إصبعيه) وقال الهيثمي: رواه أحمد والبزار ، ورجال أحمد رجال الصحيح (ح / ١٨٢٢٥).

(٥) أورده الهيثمي في المجمع وفيه (فسبّقتها ، كما سبقت هذه هذه).

وقال: رواه الطبراني بإسناد حسن (مجمع الزوائد ح / ١٨٢٣٠).

شُبِيلُ بْنُ عَوْفَ، عَنْ أَبِي جَيْرَةَ، عَنْ أَشْيَاخَ الْأَنْصَارِ، قَالُوا: سَمِعْنَا رَسُولَ اللَّهِ يَقُولُ: «جَئْتُ أَنَا وَالسَّاعَةُ هَكُذَا» - قَالَ الطَّبَرِيُّ: وَأَرَانَا تَمِيمًا، وَضَمَ السَّبَابَةَ وَالوَسْطَى وَقَالَ لَنَا: أَشَارَ يَزِيدَ بْنَ أَبِي سَبَابَةِ إِلَى سَبَابَةِ وَالوَسْطَى وَضَمَهُمَا - وَقَالَ: «سَبَقْتُهُمَا كَمَا سَبَقْتُ هَذِهِ فِي نَفْسِي مِنَ السَّاعَةِ»، أَوْ «[فِي] نَفْسِ السَّاعَةِ»^(١). (١٥/١٦).

فَمَعْلُومٌ إِذْ كَانَ الْيَوْمُ أُولُهُ طَلُوعُ الْفَجْرِ وَآخِرُهُ غَرْبُ الْشَّمْسِ، وَكَانَ صَحِيحًا عَنْ نَبِيِّنَا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، مَا رَوَيْنَا عَنْهُ قَبْلَ ، أَنَّهُ قَالَ بَعْدَ مَا صَلَى الْعَصْرَ: «مَا بَقَى مِنَ الدُّنْيَا فِيمَا مَضَى مِنْهَا إِلَّا كَمَا بَقَى مِنْ يَوْمَكُمْ هَذَا فِيمَا مَضَى مِنْهُ». وَأَنَّهُ قَالَ لِأَصْحَابِهِ: «بُعْثِتُ أَنَا وَالسَّاعَةُ كَهَاتِينِ» - وَجَمِيعُ بَيْنِ السَّبَابَةِ وَالوَسْطَى - «سَبَقْتُهُمَا بِقَدْرِ هَذِهِ مِنْ هَذِهِ»، يَعْنِي الْوَسْطَى مِنَ السَّبَابَةِ. وَكَانَ قَدْرُ مَا بَيْنَ أَوْسَطِ أَوْقَاتِ صَلَاةِ الْعَصْرِ - وَذَلِكَ إِذَا صَارَ ظُلُّ كُلِّ شَيْءٍ مِثْلِهِ - عَلَى التَّحْرِيِّ إِنَّمَا يَكُونُ قَدْرُ نَصْفِ سَبْعِ الْيَوْمِ ، يَزِيدُ قَلِيلًا أَوْ يَنْقُصُ قَلِيلًا ، وَكَذَلِكَ فَضْلُ مَا بَيْنَ الْوَسْطَى وَالسَّبَابَةِ ، إِنَّمَا يَكُونُ نَحْوًا مِنْ ذَلِكَ وَقَرِيبًا مِنْهُ^(٢). (١٦: ١).

وَكَانَ صَحِيحًا مَعَ ذَلِكَ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مَا حَدَّثَنِي أَحْمَدُ بْنُ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ وَهْبٍ ، قَالَ: حَدَّثَنِي عَمِي عَبْدُ اللَّهِ بْنُ وَهْبٍ ، قَالَ: حَدَّثَنِي مَعاوِيَةُ بْنُ صَالِحٍ ، عَنْ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ جَبَيرٍ بْنِ نُفَيْرٍ ، عَنْ أَبِيهِ جَبَيرٍ بْنِ نُفَيْرٍ ، أَنَّهُ سَمِعَ أَبا ثَلَبَةَ الْخَشْنَى صَاحِبَ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ: إِنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «لَنْ يُعْجِزَ اللَّهُ هَذِهِ الْأُمَّةُ مِنْ نَصْفِ يَوْمٍ» ، وَكَانَ مَعْنَى قَوْلِ النَّبِيِّ ذَلِكَ أَنَّ «لَنْ يُعْجِزَ اللَّهُ هَذِهِ الْأُمَّةُ مِنْ نَصْفِ يَوْمٍ» الَّذِي مَقْدَارُهُ أَلْفُ سَنَةٍ^(٣). (١٦: ١).

(١) الحديث من هذا الوجه رواه الطبراني ، وقال الهيثمي : ورجال هذه الطريقة رجال الصحيح غير شبل أو شبيل بن عوف وهو ثقة (مجمع الزوائد / ١٨٢٣٠).

وقال الهيثمي وروى البزار منه (نسم الساعة) فقط (مجمع الزوائد / ١٨٢٣١).

والحديث ذكره ابن حجر في المطالب العالية عن مشيخة من الأنصار أنهم سمعوه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقول: (بعثت في قسم الساعة : قال سفيان : يعني نفس الساعة).

وقال المحدث الأعظمي : رواه البزار أيضاً ورجاله ثقات (المطالب العالية / ٤٥٧٧). والله أعلم.

(٢) صحيح.

(٣) إسناده صحيح وحديث أبي ثعلبة الخشنى رضي الله عنه أخرجه أبو داود مرفوعاً (٤٣٤٩) من طريق حاجاج بن إبراهيم عن ابن وهب به (كما عند الطبرى) والطبرانى في الكبير (٥٧٢/٢٢).

القول في الدلالة على حدوث الأوقات والأزمان والليل والنهار

قد قلنا قبلُ إن الزمان إنما هو اسم لساعات الليل والنهر ، وساعات الليل والنهر إنما هي مقادير من جرِي الشمس والقمر في الفلك ، كما قال الله عزَّ وجلَّ : ﴿وَإِيَّاهُ لَهُمْ أَيْتُلْ سَلَخَ مِنْهُ النَّهَارَ إِذَا هُمْ مُظْلِمُونَ ۚ وَأَشَمَّسْ تَجْرِي لِمُسْتَقَرِّ لَهَا دَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيِّ ۚ وَالْقَمَرُ قَدَرْنَاهُ مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَالْعَرْجُونَ الْقَدِيرُ ۗ لَا الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَهَا أَنْ تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلَا أَيْتُلْ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلُّ فِي فَلَكِ يَسْبِحُونَ﴾ .

فإذا كان الزمان ما ذكرنا من ساعات الليل والنهر ، وكانت ساعات الليل والنهر إنما هي قطْع الشمس والقمر درجات الفلك ، كان بيقين معلوماً أن الزمان محدث والليل والنهر محدثان ، وأن محدث ذلك الله الذي تفرد بإحداث جميع خلقه ، كما قال : ﴿وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ أَيْتُلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلُّ فِي فَلَكِ يَسْبِحُونَ﴾ .

ومن جهل حدوث ذلك من خلق الله فإنه لن يجعل اختلاف أحوال الليل والنهر؛ بأن أحدَهما يَرِد على الخلق - وهو الليل - بسواد وظلمة ، وأن الآخر منهما يَرِد عليهم بنور وضياء ، وَنَسْخٍ لسواد الليل وظلمته ، وهو النهر.

فإذا كان كذلك ، وكان من المجال اجتماعهما مع اختلاف أحوالهما في

قال : رفعه معاوية مرأة ولم يرفعه أخرى ، والحاكم في المستدرك (٤٢٤/٤) وقال الحاكم :
صحيح على شرط الشيفين ولم يخرجه .

وقال الحافظ ابن حجر : رواه ثقات ، ولكن رجح البخاري وقفه (فتح الباري ٣٥١/١١)
وأخرجه أحمد موقوفاً (١٧٧٣٤). قلنا : ومعنى نصف يوم هنا خمسينية سنة من باب قوله تعالى : ﴿وَلَيْكَ يَوْمًا عِنْدَ رَبِّكَ كَلَفْ سَنَةٌ وَمِنَاعِدُوكَ﴾ .

والمقصود من هذا الحديث والله أعلم أنهم يدركون مقدار نصف اليوم المذكور ، ولا يدل الحديث على نفي ما زاد على ذلك والله أعلم .

والحديث من معجزات النبوة على صاحبها الصلاة والسلام فلم تمت الأمة قبل مضي خمسينية عام من بعده عليه الصلاة والسلام بل عاشت تلك المدة وعمرت أكثر من ذلك وإلى يومنا هذا والحمد لله على نعمائه وصدق رسوله الصادق الأمين .

وقت واحد في جزء واحد - كان معلوماً يقيناً أنه لا بد [من] أن يكون أحد هما كان قبل الآخر منهما؛ وأيّهما كان منهما قبل صاحبه فإن الآخر منهم كان لا شك بعده ، وذلك إبانةً ودليل على حدوثهما ، وأنهما خلقان لخالقهما.

ومن الدلالة أيضاً على حدوث الأيام والليالي أنه لا يوم إلا وهو بعد يوم كان قبله ، وقبل يوم كائن بعده ، فمعلوم أنَّ ما لم يكن ثم كان ، أنه محدث مخلوق ، وأنَّ له خالقاً ومحدثاً.

وأخرى ، أن الأيام والليالي معدودة ، وما عدَّ من الأشياء غير خارج من أحد العددين: شفع أو وتر؛ فإن يكن شفعاً فإن أولها اثنان ، وذلك تصحيف القول بأن لها ابتداء وأولاً ، وإن كان وترًا فإنَّ أولها واحد ، وذلك دليل على أن لها ابتداء وأولاً ، وما كان له ابتداء فإنه لا بد له من مبدئ ، هو خالقه^(١). (٢٠ / ٢١).

القول في الإبابة عن فناء الزمان والليل والنهر وأن لا شيء يبقى غير الله تعالى ذكره

والدلالة على صحة ذلك قول الله تعالى ذكره: ﴿كُلُّ مَنْ عَنِيهَا فَإِنَّ ٢٦٣ أَيَّمَّهُ وَجْهُ رَبِّكَ دُوَّلُ الْجَلَلِ وَالْإِكْرَامِ﴾ ، قوله تعالى: ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ﴾ . فإن كان كُلُّ شيء هالك غير وجهه - كما قال جلَّ وعزَ - وكان الليل والنهر ظلمة أو نوراً خلقهما لمصالح خلقه ، فلا شك أنهما فانيان هالكان ، كما أخبر؛ وكما قال: ﴿إِذَا أَشْتَمْسُ كُورَت﴾ يعني بذلك أنها عميت فذهب ضوءها ، وذلك عند قيام الساعة ، وهذا ما لا يُحتاج إلى الإكثار فيه؛ إذ كان مما يدين بالإقرار به جميع أهل التوحيد من أهل الإسلام وأهل التوراة والإنجيل والمجوس ، وإنما ينكرون قومٌ من غير أهل التوحيد ، لم نقصد بهذا الكتاب قصد الإبابة عن خطأ قولهم . فكل الذين ذكرنا عنهم أنهم مُقررون بفناء جميع العالم حتى لا يبقى غير القديم الواحد ، مقررون بأن الله عزَّ وجلَّ محييهم بعد فنائهم ، وباعثهم بعد هلاكهم ، خلا قومٍ من عَبَدة الأوَّثان ، فإنهم يُقررون بالفناء ، وينكرون البعث^(٢). (٢٧ : ١).

(١) صحيح.

(٢) صحيح.

القول في الدلالة على أن الله عز وجل القديم الأول قبل كل شيء
وأنه هو المحدث كل شيء بقدرته تعالى ذكره

فمن الدلالة على ذلك أنه لا شيء في العالم مشاهد إلا جسم أو قائم بجسم ، وأنه لا جسم إلا مفترق أو مجتمع ، وأنه لا مفترق منه إلا وهو موهوم فيه الائتلاف إلى غيره من أشكاله ، ولا مجتمع منه إلا وهو موهوم فيه الافتراق ، وأنه متى عُدِم أحدهما عدم الآخر معه ، وأنه إذا اجتمع الجزءان منه بعد الافتراق ، فمعلوم أنَّ اجتماعهما حادث فيهما بعد أن لم يكن ، وأنَّ الافتراق إذا حدث فيهما بعد الاجتماع ، فمعلوم أن الافتراق فيهما حادث بعد أن لم يكن .

وإذا كان الأمر فيما في العالم من شيء كذلك ، وكان حكم ما لم يشاهده وما هو من جنس ما شاهدنا في معنى جسم أو قائم بجسم ، وكان ما لم يخلُ من الحدث لا شك أنه محدث بتأليف مؤلف له إن كان مجتمعاً ، وتفريق مفترق له إن كان مفترقاً . وكان معلوماً بذلك أن جامع ذلك إن كان مجتمعاً ، ومفترقه إن كان مفترقاً من لا يشبهه ، ومن لا يجوز عليه الاجتماع والافتراق ، وهو الواحد القادر الجامع بين المختلافات ، الذي لا يشبهه شيء ، وهو على كل شيء قدير في بين بما وصفنا أن باريء الأشياء ومحدثها كان قبل كل شيء ، وأن الليل والنهار والزمان والساعات محدثات ، وأن محدثها الذي يُدبرها ويُصرّفها قبلها ، إذ كان من المحال أن يكون شيء يُحدث شيئاً إلا ومحدثه قبله ، وأن في قوله تعالى ذكره : ﴿أَفَلَا يَنْظُرُونَ إِلَى الْأَيْلَلِ كَيْفَ خُلِقَتْ﴾^{١٧} و﴿إِلَى السَّمَاءِ كَيْفَ رُفِعَتْ﴾^{١٨} و﴿إِلَى الْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ﴾^{١٩} و﴿إِلَى الْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ﴾^{٢٠} ، لأبلغ الحاجج ، وأدلُّ الدلائل - لمن فَكَرَ بعقل ، واعتبر بفهم - على قِدَم بارئها ، وحدوث كل ما جانسها ، وأن لها خالقاً لا يشبهها .

وذلك أن كل ما ذكر ربنا تبارك وتعالى في هذه الآية من الجبال والأرض والإبل فإنَّ ابنَ آدم يعالجها ويدبرُه بتحويل وتصريف وحفر ونحت وهدم ، غير ممتنع عليه شيء من ذلك . ثم إن ابنَ آدم مع ذلك غير قادر على إيجاد شيء من ذلك من غير أصل ؛ فمعلوم أن العاجز عن إيجاد ذلك لم يحدث نفسه ، وأن الذي هو غير ممتنع ممن أراد تصريفه وتقليله لم يوجده من هو مثله ، ولا هو أوجد

نفسه ، وأن الذي أنشأه وأوجده عينه هو الذي لا يعجزه شيء أراده ، ولا يمتنع عليه إحداث شيء شاء إحداثه ، وهو الله الواحد القهار.

فإن قال قائل : فما تنكر أن تكون الأشياء التي ذكرت من فعل قد咪ين؟

قيل : أنكرنا ذلك لوجود اتصال التدبير وتمام الخلق ، فقلنا : لو كان المدبر اثنين ، لم يخلوا من اتفاق أو اختلاف ؛ فإن كانا متفقين فمعناهما واحد ، وإنما جعل الواحد اثنين من قال بالاثنين . وإن كانا مختلفين كان محلاً وجودُ الخلق على التمام والتدبير على الاتصال ؛ لأن المختلفين ، فعل كل واحد منهما خلاف فعل صاحبه ؛ بأن أحدهما إذا أحيا أمات الآخر ، وإذا أوجد أحدهما أفنى الآخر ، فكان محلاً وجودُ شيء من الخلق على ما وجد عليه من التمام والاتصال . وفي قول الله عز وجل ذكره : «*لَوْ كَانَ فِيهِمَا إِلَهٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا فَسَيُحْكَمَ اللَّهُ رَبُّ الْعَرْشِ عَلَيْهِ يَصْفُونَ*» ، قوله عز وجل «*مَا أَنْجَدَ اللَّهُ مِنْ وَلَيْ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَهٌ إِذَا لَذَّهَ كُلُّ إِلَيْهِ بِمَا حَلَّ وَلَعَلَّ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ سُبْحَنَ اللَّهُ عَمَّا يَصِفُونَ*» ١١ عَلِيمُ الْغَيْبِ وَالشَّهِيدَةِ فَعَنِّيَ عَمَّا يُشْرِكُونَ *أَبْلَغُ حَجَةً* ، وأوجز بيان ، وأدل دليل على بطلول ما قاله المبطلون من أهل الشرك بالله ، وذلك أن السموات والأرض لو كان فيهما إله غير الله ، لم يخلُ أمرهما مما وصفت من اتفاق واختلاف . وفي القول باتفاقهما فساد القول بالثنية ، وإقرار بالتوحيد ، وإحالـة في الكلام بأن قائله سمى الواحد اثنين . وفي القول باختلافهما ، القول بفساد السموات والأرض ، كما قال ربنا جل وعز : «*لَوْ كَانَ فِيهِمَا إِلَهٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا*» لأن أحدهما كان إذا أحدث شيئاً وخلقـه كان من شأن الآخر إعدامـه وإبطالـه ؛ وذلك أن كل مختلفين فأفعالـهما مختلفة ، كالنار التي تسخـن ، والثلج الذي يبرد ما أـسـختـه النار .

وأـخـرى ، أن ذلك لو كان كما قالـه المـشرـكونـ بالـلهـ لمـ يـخلـ كـلـ واحدـ منـ الـاثـنـيـنـ اللـذـيـنـ أـبـتوـهـمـاـ قـدـيمـيـنـ منـ أـنـ يـكـونـاـ قـويـيـنـ أوـ عـاجـزـيـنـ ؛ـ فإـنـ كـانـاـ عـاجـزـيـنـ فالـعـاجـزـ مـقـهـورـ وـغـيرـ كـائـنـ إـلـهـاـ .ـ وإنـ كـانـاـ قـويـيـنـ فـإـنـ كـلـ وـاحـدـ مـنـهـمـ بـعـجزـهـ عـلـىـ صـاحـبـهـ عـاجـزـ ،ـ وـالـعـاجـزـ لـاـ يـكـونـ إـلـهـاـ .ـ وإنـ كـانـ كـلـ وـاحـدـ مـنـهـمـ قـويـيـاـ عـلـىـ صـاحـبـهـ ؛ـ فـهـوـ بـقـوةـ صـاحـبـهـ عـلـىـ عـاجـزـ ،ـ تـعـالـىـ ذـكـرـهـ عـمـاـ يـشـرـكـ المـشـرـكونـ !ـ

فتـبـيـنـ إـذـاـ أـنـ الـقـدـيمـ بـأـرـيـءـ الـأـشـيـاءـ وـصـانـعـهـ هـوـ الـوـاحـدـ الـذـيـ كـانـ قـبـلـ كـلـ شيءـ ،ـ وـهـوـ الـكـائـنـ بـعـدـ كـلـ شيءـ ،ـ وـالـأـوـلـ قـبـلـ كـلـ شيءـ ،ـ وـالـآـخـرـ بـعـدـ كـلـ

شيء ، وأنه كان ولا وقت ولا زمان ، ولا ليل ولا نهار ، ولا ظلمة ولا نور ، إلا نور وجهه الكريم . ولا سماء ولا أرض ، ولا شمس ولا قمر ولا نجوم ، وأن كل شيء سواه محدث مدبر مصنوع ، انفرد بخلق جميعه بغير شريك ولا مُعين ولا ظهير ، سبحانه من قادر قادر !^(١) (٢٨ / ٢٩). (٣٠ / ٢٩).

وقد حديثي علي بن سهل الرملي ، قال : حدثنا زيد بن أبي الزرقاء ، عن جعفر ، عن يزيد بن الأصم ، عن أبي هريرة ، أن النبي ﷺ قال : «إنكم تُسألون بعدي عن كل شيء ، حتى يقول القائل : هذا الله خلق كل شيء فمن ذا خلقه !»^(٢) . (٣١ / ٣٠). (١ : ٣١).

حديثي علي ، حدثنا زيد ، عن جعفر ، قال : قال يزيد بن الأصم : حديثي نجيبة بن صبيح ، قال : كنت عند أبي هريرة فسألوه عن هذا فكبير وقال : ما حديثي خليلي بشيء إلا قد رأيته أو أنا أنتظره . قال جعفر : فبلغني أنه قال : إذا سألكم الناس عن هذا فقولوا : الله خالق كل شيء ، والله كان قبل كل شيء ، والله كائن بعد كل شيء .^(٣) (١ : ٣١).

(١) صحيح .

(٢) رجال هذا الإسناد ثقات وجعفر هو ابن بردان وإن كان مضطرب الحديث عن الزهري إلا أنه ثقة في غيره وإسناده صحيح والحديث صحيح آخرجه البخاري ومسلم من حديث أبي هريرة .

فقد أخرج البخاري في صحيحه / كتاب بدء الخلق / (٣٢٧٦) عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « يأتي الشيطان أحدكم فيقول : من خلق كذا؟ من خلق كذا؟ حتى يقول : من خلق ربك؟ فإذا بلغه فليستعد بالله ولبيته ».

وآخرجه مسلم بروايات عدة منها (١٣٥ / ٢١٦) من طريق جعفر بن زيردان حدثنا يزيد الأصم قال : سمعت أبي هريرة يقول : قال رسول الله ﷺ : « ليسأنكم الناس عن كل شيء حتى يقولوا : الله خلق كل شيء فمن خلقه؟ ».

(٣) هذا إسناد موقوف على أبي هريرة ونجية بن صبيح ونرجحة بن صبيح ترجم له ابن أبي حاتم فلم يذكر فيه جرحًا ولا تعديلاً ، إلا أن البخاري أخرجه بصيغة أخرى دون شطره الأخير .

فقد أخرج من طريق زهير بن حرب وبعقوب الدورقي قالا : حدثنا إسماعيل وهو ابن علية عن أيوب عن محمد قال : قال أبو هريرة : (لا يزال الناس) بمثل حديث عبد الوارث غير أنه لم يذكر النبي ﷺ في الإسناد ولكن قال في آخر الحديث : صدق الله ورسوله . (١٣٥ / ٢١٥).

وحديثي عبد الله بن الرومي حدثنا النضر بن محمد حدثنا عكرمة وهو ابن عماد حدثنا =

فإذا كان معلوماً أن خالق الأشياء وبائرها كان ولا شيء غيره ، وأنه أحدث الأشياء فدبّرها ، وأنه قد خلق صنوفاً من خلقه قبل خلق الأزمنة والأوقات ، وقبل خلق الشمس والقمر اللذين يُحرِّيَهما في أفالاكمهما ، وبهما عُرِفت الأوقات وال ساعات ، وأرْخَت التأريخات ، وفصل بين الليل والنهر ، فلُنُقل : فيمَ ذلك الخلق الذي خُلِق قبل ذلك؟ وما كان أوله^(١)؟ (١: ٣٢) .

القول في ابتداء الخلق ما كان أوله

صحَّ الخبر عن رسول الله ﷺ بما حديثي به يونس بن عبد الأعلى ، قال: أخبرنا ابن وهب ، قال: حدثني معاوية بن صالح - وحدثني عبيد بن آدم بن أبي إياس العسقلاني ، قال: حدثنا أبي ، قال: حدثنا الليث بن سعد ، عن معاوية بن صالح - عن أيوب بن زياد ، قال: حدثني عبادة بن الوليد بن عبادة بن الصامت ، قال: أخبرني أبي ، قال: قال أبي عبادة بن الصامت: يا بني سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إن أول ما خلق الله القلم فقال له: اكتب ، فجرى في تلك الساعة بما هو كائن»^(٢) . (١: ٣٢) .

حدثني أحمد بن محمد بن حبيب ، قال: حدثنا عليّ بن الحسن بن شقيق ، قال: أخبرنا عبد الله بن المبارك ، قال: أخبرنا رباح بن زيد ، عن عمر بن

يعيى ، حدثنا أبو سلمة عن أبي هريرة قال: قال لي رسول الله ﷺ : «لا يزالون يسألونك يا أبا هريرة حتى يقولوا هذا الله ، فمن خلق الله؟ قال: فيينا أنا في المسجد إذ جاءني ناس من الأعراب فقالوا: يا أبا هريرة هذا الله ، فمن خلق الله؟ قال: فأخذ حصى بكفه فرماهم ، ثم قال: قوموا ، قوموا ، صدق خليلي .
صحيح مسلم / كتاب الإيمان (٢١٥/٢١٥).

(١) صحيح .

(٢) حديث عبادة هذا حديث صحيح آخرجه أبو داود مرفوعاً ولفظه: إن أول ما خلق الله القلم فقال له: اكتب قال ربّ وماذا أكتب قال اكتب مقادير كل شيء حتى تقوم الساعة . يا بني إني سمعت رسول الله ﷺ يقول: من مات على غير هذا فليس مني . والحديث أخرجه أحمد من حديث عبادة (المستند/ ح ٢٢٧٦٨).

والبيهقي (١٠/٢٠٤ ح ٢٠٨٧٥) ولفظه كلفظ أبي داود ، وأبو يعلى عن ابن عباس (٢٣٢٩).
وقال الهيثمي: رجال أبي يعلى ثقات (٧/١٩٠) وانظر الحديث الآتي .

حبيب ، عن القاسم بن أبي بَرَّةَ ، عن سعيد بن جبير ، عن ابن عباس أنه كان يحدّث أنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «إِنَّ أَوَّلَ شَيْءٍ خَلَقَ اللَّهُ الْقَلْمَ، وَأَمْرَهُ أَنْ يَكْتُبَ كُلَّ شَيْءٍ». ^(١) (١: ٣٢).

حدّثني موسى بن سهل الرملي ، حدّثنا نعيم بن حماد ، حدّثنا ابن المبارك ، أخبرنا رَبَاحُ بْنُ زَيْدٍ ، عن عمر بن حبيب ، عن القاسم بن أبي بَرَّةَ ، عن سعيد بن جُبَيرَ ، عن ابن عباس ، عن رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِنَحْوِهِ ^(٢). (١: ٣٢).

حدّثني محمد بن معاوية الأنطاطي ، حدّثنا عباد بن العوام ، حدّثنا عبد الواحد بن سليم ، قال: سمعت عطاء ، قال: سألت الوليد بن عبادة بن الصامت: كيف كانت وصية أبيك حين حضره الموت؟ قال: دعاني فقال: أيّ بنيّ، اتق الله واعلم أنك لن تتقى الله ، ولن تبلغ العلم حتى تؤمن بالله وحده ، والقدر خيره وشره ، إني سمعت رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقول: «إِنَّ أَوَّلَ مَا خَلَقَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ خَلْقَ الْقَلْمَ، فَقَالَ لَهُ: اكْتُبْ، قَالَ: يَا رَبِّنِي وَمَا أَكْتُبْ؟ قَالَ: اكْتُبِ الْقَدْرَ، قَالَ: فَجَرَى الْقَلْمَ فِي تِلْكَ السَّاعَةِ بِمَا كَانَ وَبِمَا هُوَ كَائِنٌ إِلَى الأَبَدِ» ^(٣). (١: ٣٣/٣٢).

وقد اختلف أهل السلف قبلنا في ذلك ، فنذكر أقوالهم ، ثم نتبع البيان عن ذلك إن شاء الله تعالى .

فقال بعضهم في ذلك بنحو الذي روی عن رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فيهِ .

ذكر من قال ذلك:

حدّثني واصل بن عبد الأعلى الأَسْدِي ، قال: حدّثنا محمد بن فضيل ، عن الأعمش ، عن أبي طبيان ؛ عن ابن عباس ، قال: أَوْلُ مَا خَلَقَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ الْقَلْمَ

(١) حديث صحيح وكذلك أخرجه البيهقي من طريق عبد الله بن المبارك به عن ابن عباس مرفوعاً ولفظه: إن أول شيء خلقه الله جل ثناؤه القلم وأمره أن يكتب كل شيء (السنن الكبرى ١٧٧٠٤ ح ٣/٩).

(٢) في إسناده نعيم بن حماد ضعفه عدد من أئمة الحديث ولكن الحديث صحيح كما سبق.

(٣) إسناده ضعيف والحديث صحيح كما سبق ، وكذلك أخرجه الترمذى من طريق عبد الواحد بن سليم مع تقديم وتأخير في الأنفاظ وزيادة .
وقال الترمذى: وهذا حديث غريب من هذا الوجه (سنن الترمذى / كتاب القدر / ح ٢١٥٥).
قلنا: وفي إسناده عبد الواحد بن سليم ضعيف .

فقال له: اكتب ، فقال: وما أكتب يا رب؟ قال: اكتب القدر ، قال: فجري القلم بما هو كائن من ذلك إلى قيام الساعة ، ثم رُفع بخار الماء ففتق منه السموات^(١). (١: ٣٣).

حدثنا واصل بن عبد الأعلى ، قال: حدثنا وكيع ، عن الأعمش ، عن أبي ظبيان ، عن ابن عباس نحوه^(٢). (١: ٣٣).

حدثنا محمد بن المثنى ، قال: حدثنا ابن أبي عدي ، عن شعبة ، عن سليمان ، عن أبي ظبيان ، عن ابن عباس ، قال: أَوَّلُ مَا خلق اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ الْقَلْمُ ، فجَرَى بِمَا هُوَ كَائِنٌ^(٣). (١: ٣٣).

حدثنا تميم بن المتصر ، أخبرنا إسحاق ، عن شريك ، عن الأعمش ، عن أبي ظبيان - أو مجاهد - ، عن ابن عباس بنحوه^(٤). (١: ٣٣).

حدثنا محمد بن عبد الأعلى ، حدثنا ابن ثور ، قال: حدثنا معمر ، حدثنا الأعمش أن ابن عباس قال: إِنَّ أَوَّلَ شَيْءٍ خُلِقَ الْقَلْمُ^(٥). (١: ٣٤).

حدثنا ابن حميد ، حدثنا جرير ، عن عطاء ، عن أبي الضحى مسلم بن صبيح ، عن ابن عباس ، قال: إِنَّ أَوَّلَ شَيْءٍ خُلِقَ رَبِّي عَزَّ وَجَلَّ الْقَلْمُ ، فقال له: اكتب ، فكتب ما هو كائن إلى أن تقوم الساعة^(٦). (١: ٣٤).

قال أبو جعفر: وأولى القولين في ذلك عندي بالصواب قول ابن عباس ،

(١) أخرجه الحاكم من طريق الأعمش هذا ، وقال: صحيح على شرط الشيفيين ولم يخرجاه (المستدرك ٤٩٧/٢).

قلنا: إلا أن الأعمش مدلّس وقد عنون هنا ولم يصرح بالتحديث وشطره صحيح مرفوعاً كما سبق سوى عبارة (ثم رفع بخار الماء ففتق منه السموات) فلم نجده مرفوعاً بحسب صحيح والله أعلم.

(٢) وأخرجه البيهقي من طريق وكيع (١٧٧٠٣/٩) مع زيادة على ما عند الطبرى وانظر ما سبق.

(٣) هذا إسناد صحيح إلى ابن عباس وقد صحيحاً مرفوعاً كما سبق والله أعلم.

(٤) انظر ما قبله.

(٥) انظر ما قبله.

(٦) إسناده ضعيف وقد صحيحاً الحديث مرفوعاً كما سبق.

للخبر الذي ذكرت عن رسول الله ﷺ [قبل] ، أنه قال: أول شيء خلق الله القلم^(١) . (١: ٣٤) .

قيل: أما قولُ ابن عباس: إن الله تبارك وتعالى كان عرشه على الماء قبل أن يخلق شيئاً ، فكان أول ما خلق الله القلم - إن كان صحيحاً عنه أنه قاله - فهو خبرٌ منه أنَّ الله خلق القلم بعد خلقه عرشه ، وقد روىٌ عن أبي هاشم هذا الخبر شعبةُ ، ولم يقل فيه ما قال سفيان؛ من أن الله عز وجلَّ كان على عرشه ، فكان أول ما خلق القلم ، بل روى ذلك كالذى رواه سائر من ذكرنا من الرواية عن ابن عباس أنه قال: أول ما خلق الله عز وجلَّ القلم^(٢) . (١: ٣٥) .

وكذلك قولَ ابن إسحاق الذي ذكرناه عنه معناه أنَّ الله خلق النور والظلمة بعد خلقه عرشه ، والماء الذي عليه عرشه . وقول رسول الله ﷺ الذي روينا عنه أولى قول في ذلك بالصواب ، لأنَّه كان أعلم قائل في ذلك قوله^(٣) بحقيقة وصحته ، وقد روينا عنه عليه السلام أنه قال: «أولُ شيء خلقه الله عز وجلَّ القلم» من غير استثناء منه شيئاً من الأشياء أنه تقدَّم خلق الله إياه خلق القلم ، بل عمَّ بقوله^(٤) : «إن أول شيء خلقه الله القلم» ، كلَّ شيء ، وأن القلم مخلوق قبله من غير استثنائه من ذلك عرشاً ولا ماء ولا شيئاً غيرَ ذلك .

فالرواية التي رويناها عن أبي ظبيان وأبي الضحى ، عن ابن عباس ، أولى بالصحة عن ابن عباس من خبر مجاهد عنه الذي رواه عنه أبو هاشم؛ إذ كان أبو هاشم قد اختلف في رواية ذلك عنه شعبة وسفيان ، على ما قد ذكرت من اختلافهما فيها .

أما ابن إسحاق فإنه لم يستند قولهُ الذي قاله في ذلك إلى أحد ، وذلك من الأمور التي لا يدركُ علمها إلا بخبر من الله عز وجل ، أو بخبر من رسول الله ﷺ ، وقد ذكرت الرواية فيه عن رسول الله ﷺ . (١/ ٣٥ - ٣٦) .

(١) هذا ترجيح الطبرى وسنذكر ما رجحه ابن كثير وابن حجر وما نسب إلى الجمهور والله أعلم .

(٢) سنناقش رأى الطبرى هذا في نهاية الباب .

(٣) صحيح .

القول في الذي ثنى خلق القلم

حدثنا خلاد بن أسلم ، حدثنا النضر بن شمبل ، قال: حدثنا المسعودي ، أخبرنا جامع بن شداد ، عن صفوان بن محرز ، عن ابن حصين - وكان من أصحاب رسول الله ﷺ - قال: أتى قوم رسول الله ﷺ فدخلوا عليه ، فجعل يبشرهم ويقولون: أعطينا ، حتى ساء ذلك رسول الله ﷺ ، ثم خرجوا من عنده. وجاء قوم آخرون ، فدخلوا عليه فقالوا: جئنا نسلم على رسول الله ﷺ ، ونتفقه في الدين ، ونسأله عن بدء هذا الأمر ، قال: فاقبلاوا البشري إذ لم يقبلها أولئك الذين خرجوا ، قالوا: قبّلنا ، فقال رسول الله ﷺ : «كان الله لا شيء غيره ، وكان عرشه على الماء ، وكتب في الذكر قبل كل شيء ، ثم خلق سبع سموات». ثم أتاني آت فقال: تلك ناقلك قد ذهبت ، فخرجت ينقطع دونها السراب ، ولَوْدَدْتُ أني تركتها^(١). (١: ٣٨).

حدثني أبو كريب ، حدثنا أبو معاوية ، عن الأعمش ، عن جامع ابن شداد،

(١) في إسناده عبد الرحمن بن عبد الله المسعودي ثقة اختلفت في آخر عمره إلا أن النضر بن شمبل سمع منه قبل الاختلاط ويتقى حديثه عن عاصم بن بهلة وسلمة بن كهيل وليس هنا كذلك فالإسناد صحيح.

وقد توبع عن جامع بن شداد عند الطبرى نفسه كما بعد رواية وكما عند البخارى (كتاب بدء الخلق/ ح ٣٩١).

عن عمران بن حصين رضي الله عنهما قال: دخلت على النبي ﷺ وعقلت ناقتي بالباب فأتأه ناس من بني تميم فقال (اقبلاوا البشري يا بني تميم ، قالوا قد بشرتنا فأعطينا) (مرتين) ثم دخل عليه ناس من أهل اليمين فقال أقبلاوا البشري يا أهل اليمين إذ لم يقبلها بني تميم قالوا: قبّلنا يا رسول الله. قالوا: جئنا نسألك عن هذا الأمر قال: (كان الله ولم يكن شيء غيره وكان عرشه على الماء وكتب في الذكر كل شيء وخلق السموات والأرض... الحديث).

وفي لفظ آخر للحديث عند البخارى (كان الله ولم يكن شيء قبله وكان عرشه على الماء ثم خلق السموات والأرض وكتب في الذكر كل شيء) (صحيح البخارى / كتاب التوحيد/ ح ٧٤١٨) وأخرج مسلم في صحيحه (نحو حديث عمران بن حصين هذا) من حديث عبد الله بن عمرو بن العاص قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «كتب الله مقادير الخالقين قبل أن يخلق السموات والأرض بخمسين ألف سنة قال: وعرشه على الماء». (صحيح مسلم / كتاب القدر/ ح ٢٦٥٣).

عن صفوان بن محرز ، عن عمران بن الحصين ، قال : قال رسول الله ﷺ : «اقبلاوا البشري يابني تميم» ، فقالوا : قد بشرتنا فأعطينا ، فقال : «اقبلاوا البشري يا أهل اليمن» ، فقالوا : قد قيلنا ، فأخبرنا عن هذا الأمر كيف كان؟ فقال رسول الله ﷺ : «كان الله عز وجل على العرش ، وكان قبل كل شيء ، وكتب في اللوح كل شيء يكون». قال : فأتأني آت فقال : يا عمران ، هذه نافتك قد حلّت عقالها ، فقمت ، فإذا السراب ينقطع بيني وبينها ، فلا أدرى ما كان بعد ذلك^(١) .

(١) حديث صحيح أخرجه البخاري كما بينا قبل قليل.

عود على بدء : والقول الراجح عند الطبرى وغيره في هذه المسألة :

لقد ذكر الطبرى رأيه في هذه المسألة بعد إخراجه لروايات مرفوعة وموقوفة.

وخلالصة رأيه أنه يصحح الحديث النبوى الشريف (أول شيء خلقه الله عز وجل القلم).

ويقول بأن مفهوم الحديث واضح دلالته واضحة من غير استثناء شيء من المخلوقات قبل خلقه القلم وأن القلم أول مخلوق من غير استثنائه من ذلك عرضاً ولا ماءً ولا شيئاً غير ذلك ، وانظر تاريخ الطبرى (٣٥ / ١ - ٣٦).

قلنا : والمعلوم أن أئمة الحديث على جملة قدرهم قد تفوتهم أحاديث وأحاديث ويرووها غيرهم . فقد أخرج البخاري كما أشرنا حديثاً آخر لم يذكره الطبرى رحمه الله .

وهو حديث عمران بن حصين السابق وفيه (كان الله ولم يكن شيء غيره . وكان عرشه على الماء وكتب في الذكر كل شيء وخلق السموات والأرض) وفي رواية (ثم خلق السموات والأرض) (صحيح البخاري / ح ٣١٩١ / ٧٤١٨ و ح ٧٤١٨) :

قلنا : أما الحافظ ابن حجر فقد صار إلى الجمع بين المتعارضين ظاهراً إذ قال في الفتح عقب الحديث (٣١٩١) :

وأما أول ما رواه أحمد والترمذى وصححه من حديث عبادة بن الصامت مرفوعاً (أول ما خلق الله القلم ثم قال : اكتب . فجرى بما هو كائن إلى يوم القيمة).

فجمع بينه وبين ما قبله بأن أوله القلم بالنسبة إلى ما عدا الماء والعرش أو بالنسبة إلى ما منه صور من الكتابة أي أنه قيل له اكتب أول ما خلق .

وحكى أبو العلاء الهمданى أن للعلماء قولين في أيهما خلق أولاً : العرش أو القلم؟ قال : والأكثر على سبق خلق العرش ، واختار ابن جرير ومن تبعه الثاني (فتح البارى / ٦ / ٤٣٠ ط . الفكر).

وقال الحافظ ابن كثير رحمة الله : والذى عليه الجمهور فيما نقله الحافظ أبو العلاء الهمدانى وغيره أن العرش مخلوق قبل ذلك . . . ثم ذكر حديث عبد الله بن عمرو بن العاص عند مسلم .

= وقال رحمة الله : وقد دلّ هنا الحديث أن ذلك بعد خلق العرش فثبت تقديم العرش على القلم =

وقد قيل إن الأيام سبعة لا ستة .

* ذكر من قال ذلك :

حدثني محمد بن سهل بن عسکر ، حدثنا إسماعيل بن عبد الكريما ، حدثني عبد الصمد بن معقل ، قال: سمعت وهب بن منبه : يقول: الأيام سبعة^(١) . (٤٣ / ١) .

وكلا القولين - اللذين رويانا أحدهما عن الصحاك وعطاء ، من أن الله خلق الأيام ستة ، والآخر منها عن وهب بن منبه من أن الأيام سبعة - صحيح مؤتلف غير مختلف ، وذلك أن معنى قول عطاء والضحاك في ذلك كان أنَّ الأيام التي خلق الله فيها الخلق من حين ابتدائه في خلق السماء والأرض وما فيهنَّ إلى أن فرغ من جميعه ستة أيام ، كما قال جل ثناؤه ﴿وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سَتَّةِ أَيَّامٍ﴾ ، وأن معنى قول وهب بن منبه في ذلك كان أنَّ عدد الأيام التي هي أيام الجمعة سبعة أيام لا ستة^(٢) . (٤٣ : ١) .

وأولى القولين في ذلك عندي بالصواب قولُ من قال: اليوم الذي ابتدأ الله تعالى ذكره فيه خلق السموات والأرض يوم الأحد؛ لإجماع السلف من أهل العلم على ذلك .

الذي كتب به المقادير كما ذهب إلى ذلك الجمهور . =
ويحمل حديث القلم على أنه أول المخلوقات من هذا العالم ، و يؤيد هذا ما رواه البخاري عن عمران بن حصين قال: قال أهل اليمن لرسول الله ﷺ : جئناك لتتفقه في الدين ولنسألك عن أول هذا الأمر فقال: (كان الله ولم يكن شيء قبله) .

وفي رواية (معه) وفي رواية (غيره). (وكان عرشه على الماء وكتب في الذكر كل شيء وخلق السموات والأرض) .

وفي لفظ (ثم خلق السموات والأرض) فسألوه عن ابتداء خلق السموات والأرض ولهذا قالوا:

جئناك نسألك عن أول هذا الأمر فأجابهم بما سألوا فقط ، ولهذا لم يخبرهم بخلق العرش كما أخبر في حديث أبي رزين المتقدم (البداية والنهاية ١ / ٣٢) .

(١) صحيح .

(٢) صحيح .

فأما ما قال ابن إسحاق في ذلك ، فإنه إنما استدل - بزعمه - على أن ذلك كذلك؛ لأن الله عز ذكره فرغ من خلق جميع خلقه يوم الجمعة ، وذلك اليوم السابع ، وفيه استوى على العرش ، وجعل ذلك اليوم عيداً للمسلمين؛ ودليله على ما زعم أنه استدل به على صحة قوله فيما حكينا عنه من ذلك هو الدليل على خطئه فيه ، وذلك أن الله تعالى أخبر عباده في غير موضع من [محكم] تنزيله ، أنه خلق السموات والأرض وما بينهما في ستة أيام ، فقال : ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ أَسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ مَالَكُمْ مَنْ دُونَهُ، مِنْ وَلَىٰ وَلَا شَفِيعٌ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ . وقال تعالى ذكره ﴿قُلْ أَيْنُكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِاللَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَجَعَلَ لِعِنْدِكُمْ رَبَّ الْعَالَمِينَ ﴾ وجعل فيها رؤسي من فوقها وبذر فيها وقدر فيها أقواتها في أربعة أيام سواء للسائلين ﴿إِنَّمَا أَسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلأَرْضِ أَتَيْنَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا فَأَلَّا أَبْلِغَنَا طَلَابَيْنِ ﴾ فقضى هن سبع سموات في يومين وأوحى في كل سماء أمرها وزين السماء الدنيا بمصابيح وحفظا ذلك تقدير العزيز العليم﴾ .

ولا خلاف بين جميع أهل العلم أن اليومين اللذين ذكرهما الله تبارك وتعالى في قوله : ﴿فَقَضَيْنَاهُ سَبَعَ سَمَوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ﴾ داخلان في الأيام الستة اللاتي ذكرهن قبل ذلك ، فمعلوم إذ كان الله عز وجل إنما خلق السموات والأرضين وما فيهن في ستة أيام ، وكانت الأخبار مع ذلك متظاهرة عن رسول الله ﷺ بأن آخر ما خلق الله من خلقه آدم ، وأن خلقه إيه كان في يوم الجمعة - أن يوم الجمعة الذي فرغ فيه من خلق خلقه داخل في الأيام الستة التي أخبر الله تعالى ذكره أنه خلق خلقه في سبعة فيهن؛ لأن ذلك لو لم يكن داخلاً في الأيام الستة ، كان إنما خلق خلقه في سبعة أيام ، لا في ستة ، وذلك خلاف ما جاء به التنزيل؛ فتبين إذاؤ - إذاؤ كان الأمر كالذى وصفنا في ذلك - أن أول الأيام التي ابتدأ الله فيها خلق السموات والأرض وما فيهن من خلقه يوم الأحد؛ إذ كان الآخر يوم الجمعة ، وذلك ستة أيام ، كما قال ربنا جل جلاله .

فأما الأخبار الواردة عن رسول الله ﷺ وعن أصحابه بأن الفراغ من الخلق كان يوم الجمعة ، فستذكرها في مواضعها إن شاء الله تعالى^(١) . (٤٥ / ٤٦) .

القول فيما خلق الله في كل يوم من الأيام الستة التي ذكر الله في كتابه
أنه خلق فيهن السموات والأرض وما بينهما

وقال آخرون: خلق الله عز وجل الأرض قبل السماء بأقواتها من غير أن يدحُوها ، ثم استوى إلى السماء فسواهـ سبع سموات ، ثم دحا الأرض بعد ذلك .

* ذكر من قال ذلك :

حدثني عليّ بن داود ، قال: حدثنا أبو صالح ، قال: حدثني معاوية ، عن علي بن أبي طلحة ، عن ابن عباس: قوله عز وجل حيـث ذكر خلق الأرض قبل السماء ، ثم ذكر السماء قبل الأرض ، وذلك أن الله خلق الأرض بأقواتها من غير أن يدحـوها قبل السماء ، ثم استوى إلى السماء فسواهـ سبع سموات ، ثم دحا الأرض بعد ذلك ، فذلك قوله تعالى: ﴿وَالْأَرْضَ بَعْدَ ذَلِكَ دَحَنَهَا﴾^(١) . (٤٨) : ١ .

حدثني محمد بن سعد ، قال: حدثني أبي ، قال: حدثني عمـي ، قال: حدثني أبي ، عن أبيه ، عن ابن عباس: ﴿وَالْأَرْضَ بَعْدَ ذَلِكَ دَحَنَهَا﴾ أخرـج منها ماءـها ومرـعـها ﴿وَالْجِبَالَ أَرْسَاهَا﴾ ، يعني أنه خلق السموات والأرض ، فلما فرغ من السماء قبل أن يخلق أقوـات الأرض بـثـ أقوـات الأرض فيها بعد خلق السماء؛ وأرسـى الجبالـ يعني بذلك دحوـها - ولم تكن تصلـح أقوـات الأرض ونبـاتـها إلا بالليل والنـهـار ، فذلك قوله عز وجل: ﴿وَالْأَرْضَ بَعْدَ ذَلِكَ دَحَنَهَا﴾ ألم تسمع أنه قال: ﴿أَخْرَجَ مِنْهَا مَاءً هـا وَمَرـعـها﴾^(٢) ؟ (٤٨) : ١ .

وغير مستحيل ما رويـنا في ذلك عن ابن عباس من القول ، وهو أن يكون الله تعالى ذـكرـه خـلقـ الأرض ولـم يـدـحـوها ، ثم خـلقـ السـمـوـات فـسـواـهـ ، ثم دـحاـ الأرض بـعـدـ ذلك ، فأـخـرـجـ منها مـاءـها وـمـرـعـها ، والـجـبـالـ أـرـسـاهـ ، بل ذلك عنـدي هو الصـوابـ من القـولـ فيـ ذـلـكـ؛ وـذـلـكـ أـنـ معـنى الدـحـوـ غـيرـ معـنى الـخـلـقـ ، وقد قال الله عـزـ وـجـلـ: ﴿إِنَّمـا أـشـدـ خـلـقاـمـ أـلـمـلـأـ بـنـهـا﴾ رـفـعـ سـمـكـهـ فـسـوـنـهـا ﴿وَأـغـطـشـ لـيـلـهـا﴾

(١) بين عليـ وـابـنـ عـبـاسـ انـقطـاعـ إـلاـ أـنـ المـتنـ يـشـهـدـ لـهـ ماـ أـخـرـجـهـ الـبـخـارـيـ كـمـاـ سـنـذـكـرـ .

(٢) إـسـنـادـ ضـعـيفـ إـلاـ أـنـ الـبـخـارـيـ أـخـرـجـ فـيـ صـحـيـحـهـ ماـ يـؤـيدـهـ كـمـاـ سـنـذـكـرـ بـعـدـ الـآـتـيـ .

وَأَخْرَجَ صُنْهَا ﴿٣﴾ وَالْأَرْضَ بَعْدَ ذَلِكَ دَحَّهَا ﴿٤﴾ أَخْرَجَ مِنْهَا مَاءً هَا وَمَرَّ عَنْهَا ﴿٥﴾ وَلِجَالَ أَسْكَنَهَا ﴿٦﴾ . (١ : ٤٩ / ٤٨) .

فإن قال قائل: فإنك قد علمت أن جماعةً من أهل التأويل قد وجّهت قول الله: «وَالْأَرْضَ بَعْدَ ذَلِكَ دَحَّهَا» إلى معنى «مع ذلك دحها» ، فما برهانك على صحة ما قلت ، من أن «ذلك» بمعنى «بعد» التي هي خلاف «قبل»؟

قيل: المعروف من معنى «بعد» في كلام العرب هو الذي قلنا من أنها بخلاف معنى «قبل» لا بمعنى «مع» ؛ وإنما توجّه معاني الكلام إلى الأغلب عليه من معانيه المعروفة في أهله ، لا إلى غير ذلك (٢) . (١ : ٤٩) .

وإذا كان الأمر كذلك كان خلق الأرض قبل خلق السموات ، ودحو الأرض وهو بسطها بأقواتها ومراعيها ونباتها ، بعد خلق السموات ، كما ذكرنا عن ابن عباس (٣) . (١ : ٥٠ / ٥١) .

(١) صحيح.

(٢) رجح الطبرى هنا أن الأرض خلقت قبل السموات (ولكن بدون دحو) ثم خلق الله سبحانه السموات ثم دحا الأرض واعتمد على المعنى اللغوى واستشهد بروايتين ضعيفتين عن ابن عباس.

(٣) صحيح.

لقد ذكر الطبرى رحمه الله آثاراً عن عدد من الصحابة والتابعين رضي الله عنهم تبين جميعها أن كل يوم من الأيام الستة التي خلق الله فيها السموات والأرض تعادل ألف سنة مما يعد البشر ، وهي أخبار راجحة فيها.

وهي تفاسير متأثرة بروايات أهل الكتاب ، والله سبحانه يقول في محكم التنزيل: ﴿١٧﴾ أَتَهُمْ حَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَا حَلَقَ أَنفُسَهُمْ﴾ .

فلا حجة إلا بخبر صحيح عن الصادق المصدق عليه الصلاة والسلام وتبقى هذه الأقوال والأخبار احتمالات لا دليل لها سواء كانت راجحة عند الطبرى أو غير راجحة عند غيره كابن الأثير (١ / ٤١) .

ولقد روى غير واحد من الأئمة عن ابن عباس خبراً لم يذكره الطبرى في تاريخه حول هذه الآية:

قال الإمام الشوكاني رحمه الله تعالى: أخرج عبد الرزاق وسعيد بن منصور وابن المنذر وابن أبي حاتم وابن الأنباري في المصاحف والحاكم وصححه عبد الله بن أبي مليكة قال: (دخلت على عبد الله بن عباس أنا وعبد الله بن فيروز مولى عثمان بن عفان فقال له ابن =

القول في الليل والنهار أيهما خلق قبل صاحبه

وفي بدء خلق الشمس والقمر وصفتهما إذ كانت الأزمنة تعرف

حدثنا القاسم ، قال: حدثني الحسين ، قال: حدثني حجاج ، عن ابن جريج ، عن مجاهد **﴿وَجَعَلْنَا الَّيْلَ وَالنَّهَارَ أَيَّتِينِ﴾** ، قال: ليلاً ونهاراً كذلك خلقهما الله عزّ وجلّ^(١). (١ : ٧٧).

قال ابن جريج: وأخبرنا عبد الله بن كثير ، قال: **﴿فَحَوَّنَا إِيَّاهُ أَيَّتِلَ وَجَعَلْنَا إِيَّاهُ الَّنَّهَارِ مُبَصِّرَةً﴾** ، قال: ظلمة الليل وسداف النهار^(٢). (١ : ٧٧).

حدثنا يثرب بن معاذ ، قال: حدثنا يزيد بن زريع ، قال: حدثنا سعيد عن قتادة ، قوله عز وجل: **﴿وَجَعَلْنَا أَيَّلَ وَالنَّهَارَ أَيَّتِينِ فَحَوَّنَا إِيَّاهُ أَيَّتِل﴾** ، كنا نحدث أن محوا آية الليل سواد القمر الذي فيه ، **﴿وَجَعَلْنَا إِيَّاهُ الَّنَّهَارِ مُبَصِّرَةً﴾** ، منيرة ، وخلق الشمس أنوراً من القمر وأعظم^(٣). (١ : ٧٧).

حدثنا محمد بن عمرو ، قال: حدثنا أبو عاصم ، قال: حدثنا عيسى . وحدثني الحارث ، قال: حدثنا الحسن ، قال: حدثنا ورقاء جميعاً عن ابن

فiroz: يا أبا عباس قوله: **﴿يُدِيرُ الْأَمْرَ مِنَ السَّمَاءِ إِلَى الْأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ أَلْفَ سَنَةً﴾** . فكأن ابن عباس اتهمه فقال:

ما يوم كان مقداره خمسين ألف سنة؟ قال: إنما سألك لتخبرني ، فقال ابن عباس: هما يومان ذكرهما الله في كتابه الله أعلم بهما ، وأكره أن أقول في كتاب الله ما لا أعلم ، فضرب الدهر من ضرباته حتى جلست إلى ابن المسيب فسألته عنهما إنسان فلم يخبره ، ولم يدر. فقلت: ألا أخبرك بما حضرت من ابن عباس؟ قال: بلى ، فأخبرته فقال للسائل: هذا ابن عباس قد أبى أن يقول فيها ، وهو أعلم مني (فتح القدير ٤ / ٣٠٢).

قلنا: ولو كان في بيان حقيقة الأيام الستة فائدة للمكلفين لذكره سبحانه في كتابه أو بيته على لسان نبيه عليه أفضل الصلاة والسلام.

(١) صحيح.

(٢) صحيح.

(٣) صحيح.

أبي نجحـ ، عن مجاهـ : ﴿ وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ أَيْمَنَنِ ﴾ ، قال : ليلاً ونهاراً ، كذلك جعلهما الله عز وجل^(١) . (١ : ٧٧) .

ولو صح سند أحد الخبرين اللذين ذكرتهما لقلنا به ؛ ولكن في أسانيدهما نظر ؛ فلم يستجز قطع القول بتصحيح ما فيهما من الخبر عن سبب اختلاف حال الشمس والقمر ؟ غير أنا يقين نعلم أن الله عز وجل خالف بين صفتيهما في الإضاءة لما كان أعلم به من صلاح خلقه باختلاف أمريهما ، فخالف بينهما ، فجعل أحدهما مضيئاً مُبصراً به ، والآخر ممحوا الضوء^(٢) . (١ : ٧٨) .

وإنما ذكرنا قدر ما ذكرنا من أمر الشمس والقمر في كتابنا هذا ، وإن كنا قد أعرضنا عن ذكر كثير من أمرهما وأخبارهما ، مع إعراضنا عن ذكر بدء خلق الله السموات والأرض وصفة ذلك ، وسائل ما تركنا ذكره من جميع خلق الله في هذا الكتاب ؛ لأنَّ قصتنا في كتابنا هذا ذكر ما قدمنا الخبر عنه آنذاك روه فيه من ذكر الأزمنة وتاريخ الملوك والأنبياء والرسل ، على ما قد شرطنا في أول هذا الكتاب ، وكانت التأريخات والأزمنة إنما توقّت بالليالي والأيام التي إنما هي مقادير ساعات جري الشمس والقمر في أفلاكهما على ما قد ذكرنا في الأخبار التي رويناها عن رسول الله ﷺ ، وكان ما كان قبل خلق الله عز ذكره إياهما من خلقه في غير أوقات ولا ساعات ولا ليل ولا نهار^(٣) . (١ : ٧٩ / ٧٨) .

ذكر السبب الذي به هلك عدو الله

وسولت له نفسه من أجله الاستكبار على ربه عز وجل

قال أبو جعفر : وأولى الأقوال في ذلك عندي بالصواب أن يقال كما قال الله عز وجل : ﴿ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةَ اسْجُدُوا لِلَّادَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِلَيْلِيسَ كَانَ مِنَ الْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ ﴾ ؛ وجائز أن يكون فسوقه عن أمر ربّه كان من أجل أنه كان من الجن ، وجائز أن يكون من أجل إعجابه بنفسه لشدة اجتهاده في عبادة ربّه ، وكثرة

(١) صحيح.

(٢) صحيح.

(٣) صحيح.

علمه ، وما كان أوثق من مُلْك السماوات والأرض وحَزْن الجنان . وجائز أن يكون غير ذلك من الأمور ، ولا يدرك علم ذلك إلَّا بخِبر تقوم به الحجَّة ، ولا خبر في ذلك عندنا كذلك ، والاختلاف في أمره على ما حكيناه ورويناه^(١) . (١ : ٨٨) .

(١) صحيح وانظر تعليقنا بعد قليل .

الآيات القرآنية والأحاديث الصحيحة

الواردة في خلق إبليس وقصته مع آدم عليه السلام

لقد ذكر الإمام الطبرى رحمة الله روايات كثيرة في خلق إبليس للعين وطبيعة عمله قبل طرده من رحمة الله وهل كان من الملائكة أم من الجن وما إلى ذلك ، ولم نجد فيها رواية مرفوعة صحيحة ، بل فيها روايات منكرة مخالفة لما في كتاب الله من آيات صريحة واضحة المعنى ، وسنذكر هنا طرفاً من الآيات القرآنية الكريمة وبعضاً من الأحاديث الصحيحة الواردة في إبليس .

ولكن قبل ذلك نود أن نذكر رأي الطبرى نفسه في بعض تلك الروايات ثم رأى الحافظ ابن كثير رحمة الله فيها :

قال الإمام محمد بن جرير الطبرى رحمة الله تعالى بعد أن ذكر روايات عدة في أسباب إخراج آدم عليه السلام (وهي أسباب محتملة) . قال الطبرى :
ولا يدرك علم ذلك إلَّا بخِبر تقوم به الحجَّة ، ولا خبر في ذلك كذلك والاختلاف في أمره على ما حكيناه ورويناه (تأريخ الطبرى ٨٨ / ١) .

قلنا : وأما الحافظ ابن كثير وهو مؤرخ ومحدث ومفسر فقد ذكر روايات عدة (من روايات الطبرى وغيره) تذكر أن إبليس كان صاحب عبادة وأنه كان رئيس الملائكة في السماوات الدنيا ، أو أنه كان خازناً من خزنة الجنة وأنه كان يدبر أمر السماوات الدنيا . . . إلخ .

ثم عقب الحافظ ابن كثير رحمة الله قائلاً :

وقد روی في هذا آثار كثيرة عن السلف وغالبها من الإسرائييليات التي تنقل لينظر فيها ، والله أعلم بحال كثير منها ، ومنها ما يقطع بكذبه لمخالفته الحق الذي بأيدينا ، وفي القرآن غنية عن كل ما عداه من الأخبار المتقدمة لأنها لا تقاد تخلو من تبديل وزيادة ونقصان وقد وضع فيها أشياء كثيرة وليس لهم (يعني لأهل الكتاب) من الحفاظ المتقين الذي ينفعون عنها تحريف الغالبين وانتفال المبطلين ، كما لهذه الأمة من الأئمة العلماء والساسة الأتقياء البررة النجباء . ومن الجهابذة النقاد والحفاظ الجياد الذين دُوَّنوا الحديث وحرزروه وبينوا صحيحة من حسنه ومن ضعيفه ، ومن منكره وموضعه ومتروكه ومكتوبه .

وعرفوا الوضاعين والكلذابين والمعجهولين وغير ذلك من أصناف الرجال ، كل ذلك صيانة للجناب النبوى والمقام المحمدى خاتم الرسل وسيد البشرية عليه أفضل التحيات والصلوات والتسليمات أن ينسب إليه كذب أو يحدث عنه بما ليس منه . فرضي الله عنهم وأرضهم (تفسير القرآن العظيم ٢١٧١) .

١ - قال الله سبحانه وتعالى في محكم كتابه :

﴿خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ صَلْصَلٍ كَالْفَخَارِ ۝ وَخَلَقَ الْجَنَّانَ مِنْ مَارِجٍ مَنْ نَارٍ﴾ [الرحمن: ١٤ - ١٥] .

وقال سبحانه وتعالى : **﴿وَلَيَأْتَنَّ حَقْنَةً مِنْ قَبْلِ مِنْ نَارَ السَّمُومِ﴾** [الحجر: ٢٧] .

وأخرج الإمام مسلم في صحيحه كتاب الزهد (٢٩٩٦ / ٦٠) من حديث عائشة رضي الله عنها قالت : قال رسول الله ﷺ : « خلقت الملائكة من نور ، وخلق الجن من مارج من نار ، وخلق آدم مما وصف لكم » .

وقال الحق سبحانه في كتابه الكريم : **﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةَ أَسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسُ كَانَ مِنَ الْجِنِ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ فَنَسَخَدُونَهُ وَذَرْتَهُ أَوْلِيَّكَاءَ مِنْ دُونِ وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّ يُنَسِّلُ لِلظَّالِمِينَ بَدَلاً﴾** [الكهف: ٥٠] .

وأخرج الطبراني في تفسيره (١٥ / ٢٦٠) عن الحسن البصري رحمه الله قال : (ما كان إبليس من الملائكة طرفة عين قط... الخبر).

وقال الحافظ ابن كثير : رواه ابن جرير بسنده صحيح (تفسير القرآن العظيم / ٥ / ٢١٧٠) .

٢ - وقال الحق سبحانه : **﴿قَالَ أَرَءَيْنَاكَ هَذَا الَّذِي كَرَمْتَ عَلَيْنَا لِئَنْ أَخْرَتْنَاهُ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَا حَتَّى كَذَرْبَتْهُ إِلَّا قَلِيلًا ۝ قَالَ أَذْهَبْنَا فَمَنْ يَعْكُبْنَاهُمْ فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَرَاؤُكُمْ جَرَاءً مَوْفُورًا ۝ وَاسْتَفِرْنَا مِنْ أَسْطَعْتُهُمْ مِنْهُمْ بِصَوْتِكَ وَاجْتَبَعْنَاهُمْ بِخَيْلَكَ وَرَجْلَكَ وَشَارَكُهُمْ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ وَعَدْهُمْ وَمَا يَعْدُهُمْ الشَّيْطَنُ إِلَّا عُرُودًا ۝ إِنَّ عَبَادَى لَنَا لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ وَكَفَ بِرَبِّكَ وَكَيْلًا﴾** [الإسراء: ٦٥ - ٦٦] . المعنى أن إبليس اللعين قال للرب جراءة وكفراً : هذا الذي شرفته وعظمته علي لئن آخرتني (أنظرني) لأحتنك أي لا أصلن ذريته إلا قليلاً منهم.

ومعنى (اذهب) : أي فقد أنظرتك كما في الآية الأخرى **﴿قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ الْمُظَرِّبِينَ ۝ إِلَى يَوْمِ الْوَقْتِ الْمُعْلُومِ﴾** ثم أوعده ومن تبعه من ذريه آدم جهنم فقال :

﴿فَمَنْ يَعْكُبْنَاهُمْ فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَرَاؤُكُمْ﴾ أي : على أعمالكم **﴿جَرَاءً مَوْفُورًا﴾** أي : وافرًا لا ينقص منه ، **﴿وَاسْتَفِرْنَا مِنْ أَسْطَعْتُهُمْ بِصَوْتِكَ﴾** كل داع دعا إلى معصية الله عز وجل **﴿وَاسْتَفِرْنَا﴾** أي : استغفهم بذلك .

﴿وَلَمْ يَلْبِطْ عَلَيْهِمْ بِخَيْلَكَ وَرَجْلَكَ﴾ أي : واحمل عليهم بجنودك خيالتهم ورجلتهم فإن الرجل جمع راجل ومعناه تسلط عليهم بكل ما تقدر عليه .

ومنه قوله تعالى : **﴿أَلَمْ تَرَ أَنَا أَرْسَلْنَا أَشَيَّطِينَ عَلَى الْكُفَّارِ تَوْزِعُهُمْ أَرَاً﴾** أي : تزعجهم إلى المعاصي إزاعجاً وتسوقيهم إليها سوقاً ، وقال مجاهد : **﴿بِخَيْلَكَ وَرَجْلَكَ﴾** كل راكب وماش في معصية الله ، وقال قتادة : إن له خيلاً ورجالاً من الجن والإنس وهم الذين بطيئونه .

قلنا : وقريباً من هذا المعنى تفسير قوله تعالى : **﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيْطَنَ الْإِنْسَانَ﴾**

وَالْجِنِّ يُؤْجِي بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ رُّحْرُقَ الْقَوْلِ غَرْوَرًا). (تفسير ابن كثير بتصرف واختصار وإضافات).

٣ - وأخرج مسلم في صحيحه (كتاب الجننة/٤ ٢١٩٧) قال رسول الله ﷺ : «يقول الله عز وجل إني خلقت عبادي حفاء فجاءتهم الشياطين فاجتالتهم عن دينهم وحرمت عليهم ما أححلت لهم».

وأخرج البخاري (٦/٣٣٥) ومسلم (٢/١٠٨٥) قال رسول الله ﷺ : «لو أن أحدهم إذا أراد أن يأتي أهله قال: باسم الله ، اللهم جنينا الشيطان وجنب الشيطان ما رزقنا ، فإنه إن يقدر بينهما ولد في ذلك لم يضره الشيطان أبداً».

وقد أورد الحافظ ابن كثير هذين الحديثين الشريفين في تفسير قوله تعالى ﴿ وَشَارِكُهُمْ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ﴾ ثم ذكر رأي الطبرى في تفسير هذه الآية فقال: قال ابن جرير: وأولى الأقوال بالصواب أن يقال كل مولود ولدته أنشى عصى الله فيه بتسميته بما يكرهه الله أو يأدخله في غير الدين الذي ارتضاه الله ، أو بالزنى بأمه ، أو بقتله ووالده ، أو غير ذلك من الأمور التي يعصى الله بفعله به أو فيه ، فقد دخل في مشاركة إبليس فيه من ولد ذلك الولد له أو منه ، لأن الله لم يخصص بقوله ﴿ وَشَارِكُهُمْ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ وَعَدُهُمْ وَمَا يَعْدُهُمُ أَسْتَيْطَنُ إِلَّا غُرُورًا﴾ معنى الشركة فيه بمعنى دون معنى فكل ما عصى الله فيه أو به ، وأطيع في الشيطان أو به فهو مشاركة).

ثم قال الحافظ ابن كثير: وهذا الذي قاله متوجه ، وكل من السلف رحمهم الله فسر بعض المشاركة ثم ذكر ابن كثير الحديث الآخر الذي (تفسير القرآن العظيم/٥ ٢١٠٨).

٤ - وأخرج الإمام مسلم في صحيحه من حديث جابر رضي الله عنه قال: قال النبي ﷺ : «إن الشيطان يضع عرشه على الماء ثم يبعث سراياه في الناس فأقربهم عنده منزلة أعظمهم عنده فتنـة ، يجيء أحدـهم فيقول ما زلت بفلان حتى تركـته وهو يقول كذا وكذا ، فيقول إبليس والله ما صنعت شيئاً ، ويجيء أحدـهم فيقول ما تركـته حتى فرقـت بينـه وبينـ أهـله قال فيقرـبه ويدـنه ويـلتـمه ويـقول نـعـم أـنت». صحيح مسلم (كتاب المنافقين ح/٦٧ ٢٨١٣).

٥ - وأخرج الترمذى في سننه (كتاب تفسير القرآن/ح/٢٩٨٨) وابن حبان (كتاب الرقاقة/ح/٩٩٧) من حديث ابن مسعود مرفوعاً:

«إن للشيطان للمة بابن آدم ، وللملك لمة ، فاما لمة الشيطان فإنها بالشر وتكذيب بالحق وأما لمة الملك فإياعاد بالخير وتصديق بالحق ، فمن وجد ذلك فليعلم أنه من الله فليحمد الله ، ومن وجد الأخرى فليتعوذ من الشيطان) ثم قرأ: ﴿ أَشَيْطَنُ يَعْدُكُمُ الْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُمْ بِالْمُحْشَأَ وَاللَّهُ يَعْدُكُمْ مَعْزَفَةً مِنْهُ وَفَضْلًا وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلَيْهِمْ﴾.

وقال الترمذى: هذا حديث حسن غريب وهو حديث أبي الأحوص لا نعلمه مرفوعاً إلا من حديث أبي الأحوص.

٦ - وأخرج البخاري في صحيحه (كتاب بدء الخلق / ح ٣٢٩٢) (قال رسول الله ﷺ : «الرؤيا الصالحة من الله والحلُّ من الشيطان فإذا حلم أحدكم حلماً يخافه فليصدق عن يساره ولি�تعوذ بالله من شرها فإنها لا تضره»).

٧ - وأخرج البخاري في صحيحه عن عائشة رضي الله عنها قالت: قال النبي ﷺ : «الملائكة تحدث في العنان» والعنان: الغمام (بالأمر يكون في الأرض فتسمع الشياطين الكلمة فتقرها في أذن الكاهن كما تقر القارورة فيزيرون معها مئة كلمة» (صحيح البخاري / كتاب بدء الخلق / صفة إبليس وجنوده / ح ٣٢٨٨).

وفي رواية أخرى «فيخلطون معها مئة كذبة» صحيح البخاري / كتاب التوحيد / ح ٧٥٦١).

٨ - وأخرج الإمام أحمد في مسنده عن سيرة بن أبي فاكه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إن الشيطان قعد لابن آدم بأطريقه ، فقعد له بطريق الإسلام فقال له: أتسلم فتدبر دينك ودين آبائك وأباء أبيك؟ قال: فعصاه فأسلم ثم قعد له بطريق الهجرة فقال: أتهاجر وتذر أرضك وسماءك؟ وإنما مثل المهاجر كمثل الفرس في الطول ، قال: فعصاه فهاجر.

قال: ثم قعد له بطريق الجهاد فقال: هو جهد النفس والمال فتقاتل فقتل فتنكح المرأة ويقسم المال ، قال: فعصاه فجاهد ، فقال رسول الله ﷺ : فمن فعل ذلك منهم فمات كان حقاً على الله أن يدخله الجنة أو قتل كان حقاً على الله أن يدخله الجنة ، وإن غرق كان حقاً على الله أن يدخله الجنة ، أو وقصته دابتة كان حقاً على الله أن يدخله الجنة».

(مسند أحمد / ح ١٥٩٥٨).

قال العلامة أرناؤوط: إسناده قوي (مسند أحمد ٣١٦ / ٢٥) والحديث أخرجه ابن حبان (ح ٤٥٩٣) والطبراني في الكبير (ح ٦٥٥٨).

شرح غريب الحديث:

(مثل المهاجر كمثل الفرس في الطول) أي أن الشيطان يريد أن يصور للإنسان الذي يريد الهجرة بيده أن المهاجر يصير كالرجل المقيد خارج بلاده ، كالفرس في الطول يدور ويرعى بقدر ذلك المكان والمهاجر يصير كذلك مقيداً لا يختلط به الناس لأنه غريب عنهم ومن غير بلادهم.

(والأطرق): جمع طريق . (جهد المال والنفوس): كنایة عن إضاعة المال وجلب المشقة على النفس والله أعلم.

٩ - قال الله سبحانه في سورة الأعراف :

﴿يَأَيُّهَا أَيُّهَا الَّذِينَ لَا يَقْنَعُونَهُمُ الْشَّيْطَانُ كَمَا أَخْرَجَ أَبْوَكُمْ مِّنَ الْجَنَّةِ يَرْبِعُ عَنْهُمَا لِيُرِيهِمَا سَوْءَةً تَهْمَمُ إِلَهَهُمْ يَرَنُّكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُمْ مِّنْ حَيْثُ لَا نُرَوُهُمْ إِنَّا جَعَلْنَا الشَّيْطَانَ أُولَيَّةً لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [الأعراف: ٢١].

وستأتي على تفسير هذه الآية فيما يأتي من قصة آدم إن شاء الله تعالى :

وقال سبحانه وتعالى :

حدثني يعقوب بن إبراهيم ، قال: حدثنا ابن عُلَيَّة عن عَوْف - وحدثنا محمد بن بَشَّار وعمر بن شَبَّة ، قالا: حدثنا يحيى بن سعيد ، قال: حدثنا عوف . وحدثنا ابن بَشَّار ، قال: حدثنا ابن أبي عديٍّ ومحمد بن جعفر وعبد الوهاب الثقفيّ ، قالوا: حدثنا عوف . وحدثني محمد بن عُمارَة الأَسْدِيّ ، قال: حدثنا إسماعيل بن أبَان ، قال: حدثنا عَنْبَسَة عن عوف الأعرابيّ عن قَسَامَةَ بْنَ رُهَيْر ، عن أبي موسى الأشعريّ ، قال: قال رسول الله ﷺ : «إِنَّ اللَّهَ خَلَقَ آدَمَ مِنْ قَبْضَةِ قَبْضَهَا مِنْ جَمِيعِ الْأَرْضِ ، فَجَاءَ بْنُو آدَمَ عَلَى قَدْرِ الْأَرْضِ؟ جَاءَ مِنْهُمُ الْأَحْمَرُ ، وَالْأَسْوَدُ ، وَالْأَبْيَضُ ، وَبَيْنَ ذَلِكَ ، وَالسَّهْلُ ، وَالْحَرْزُ ، وَالْخَيْثُ ، وَالْطَّيْبُ ، ثُمَّ بُلْتَ طِينَتِه حَتَّى صَارَتْ طِينًا لَازِبًا ، ثُمَّ تُرِكَتْ حَتَّى صَارَتْ حَمًى مَسْنُونًا ، ثُمَّ تُرِكَتْ حَتَّى صَارَتْ صَلْصَالًا كَمَا قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَنَ مِنْ صَلْصَلٍ مِنْ حَمَّا مَسْنُونٍ﴾»^(١) . (٩١: ١).

﴿فَالَّرِبِّ إِمَّا أَغْوَيَنِي لَأَزْرَيْنَ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَلَا عُوِّذُنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ [١] **إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصُونَ ﴾٢﴾** قَالَ هَذَا صِرَاطٌ عَلَىٰ مُسْتَقِرٍّ **﴿إِنَّ عِبَادَكَ لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَنٌ إِلَّا مَنْ أَتَعَكَّبَ مِنَ الْمُغَاوِنِ ﴾٣﴾** وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمَوْعِدُهُمْ أَمْعَنِينَ **﴾﴾** [الحجر: ٣٩ - ٤٣].

١٠ - وطبيعة الشيطان العدائية لبني آدم معروفة لمن قرأ كتاب الله كما قال الله تعالى : **﴿إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُوْنُ عَدُوٌ فَلَا تَمْحُدُوهُ عَدُوًا﴾** وهو بطبيعته العدوانية هذه يحاول التدخل في كل صغيرة وكبيرة من شؤون الحياة اليومية عسى أن يجبر الإنسان إلى باب من أبواب المعصية كما في صحيح البخاري «إن الشيطان يجري من ابن آدم مجرى الدم». وحتى في أخص الخصوصيات ولذلك أمرنا الإسلام أن تكون حذرین في كل صغيرة وكبيرة كي لا نقع في معصية أو تلبيس إبليس .

وقد ورد في صحيح البخاري من حديث ابن عباس رضي الله عنهما: (لو أن أحدكم إذا أراد أن يأتي أهله قال: اللهم جنبنا الشيطان وجنب الشيطان ما رزقتنا فإن كان بينهما ولد لم يضره الشيطان ولم يسلط عليه). (صحيح البخاري: كتاب بدء الخلق ح / ٣٢٨٣). وفي القرآن الكريم آيات قرآنية كثيرة تتحدث عن طبيعة إبليس اللعين ودوره في إفساد المجتمعات . ولنا في الأحاديث الصحيحة والآيات القرآنية كفاية والله الحمد وله المنة والفضل . وقد جمع الحافظ ابن كثير أحاديث كثيرة عند حديثه عن إبليس في بداية كتابه القيم البداية والنهاية فليراجع .

هذا إسناد مركب صحيح مداره على عوف الأعرابي وهو ثقة . والشطر الأول من الحديث أخرجه الترمذى (ح ٢٩٥٥) وقال: حسن صحيح . وأخرج أحمد شتره الأول كذلك .

وحدثنا ابن بشار ، قال: حدثنا يحيى بن سعيد وعبد الرحمن بن مهدي ، قالا: حدثنا سفيان عن الأعمش ، عن مسلم البطين ، عن سعيد بن جبير ، عن ابن عباس ، قال: خلق آدم من ثلاثة: من صلصال ، ومن حماً ، ومن طين لازب . فأما اللازب فالجيد ، وأما الحما فالحمئة ، وأما الصلصال فالتراب المدقق ، ويعني تعالى ذكره بقوله: «**مِنْ صَلْصَلٍ**»؛ من طين يابس له صلصلة ، والصلصلة: الصوت^(١). (١: ٩١).

حدثني محمد بن خلف ، قال: حدثنا آدم بن أبي إياس ، قال: حدثنا أبو خالد سليمان بن حيّان ، قال: حدثني محمد بن عمرو عن أبي سلمة ، عن أبي هريرة ، عن النبي عليه الصلاة والسلام . قال أبو خالد: [وحدثني الأعمش عن أبي صالح ، عن أبي هريرة ، عن النبي ﷺ]. قال أبو خالد: وحدثني داود بن أبي هند عن الشعبي عن أبي هريرة عن النبي ﷺ . قال أبو خالد: وحدثني ابن أبي ذباب الدؤسي ، قال: حدثني سعيد المقبري ، ويزيد بن هرمز عن أبي هريرة ، عن النبي ﷺ أنه قال: «خلق الله عز وجل آدم بيده ، ونفع فيه من روحه ، وأمر الملائكة فسجدوا له ، فجلس فعطس فقال: الحمد لله ، فقال له ربّه: يرحمك ربّك ، إيت أولئك الملائكة فقل لهم: السلام عليكم . فأتاهم فقال: السلام عليكم ، فقالوا له: وعليك السلام ورحمة الله ، ثم رجع إلى ربه عز وجل فقال له: هذه تحية ذريتك بينهم^(٢) . (١: ٩٦).

- = وقال العلامة أرناؤوط: إسناده صحيح ، رجاله رجال الشيختين غير قسامة فقد روى له أصحاب السنن سوى ابن ماجه وهو ثقة . (المستند/ ح ١١٥٨٢).
- ولفظه (إن الله خلق آدم من قبضة قبضها من جميع الأرض فجاء بنو آدم على قدر الأرض فجاء منهم الأبيض والأحمر والأسود وبين ذلك).
- من حديث أبي موسى مرفوعاً (المستند/ ح ١٩٥٨٢) وأخرجه أبو داود (٤٦٩٣/ ٤) وأخرجه البيهقي في السنن (٣/ ٩). والله أعلم . (٢٦٢/ ٢) وقال صحيح الإسناد وأقره الذهبي ، وأخرجه ابن حبان (بدء الخلق/ ح ١١٦٠) والله أعلم .
- (١) هذا إسناد موقوف صحيح إلى ابن عباس والثلاثة التي ذكرها مذكورة في القرآن وهذا الأثر تفسير لغوي لهذه الألفاظ والله أعلم .
- (٢) مدار هذه الرواية على سليمان بن حيان صدوق ، والحديث أخرجه ابن حبان من طريق آخر عن سعيد المقبري عن أبي هريرة مرفوعاً وقال أرناؤوط: إسناده قوي (الموارد ح ٢٠٨٢).

فلما أظهر إبليس من نفسه ما كان له مخفياً فيها من الكبر والمعصية لربه ، وكانت الملائكة قد قالت لربها عز وجل حين قال لهم : إني جاعل في الأرض خليفة : أتعجل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك . فقال لهم ربهم : إني أعلم ما لا تعلمون ، تبين لهم ما كان عنهم مسترًا ، وعلموا أن فيهم مَنْ منه المعصية لله عز وجل والخلاف لأمره^(١) . (١: ٩٦) .

ثم عَلِمَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا . وَخَتَّلَ السَّلْفُ مِنْ أَهْلِ الْعِلْمِ قَبْلَنَا فِي الْأَسْمَاءِ الَّتِي عَلِمَهَا آدَمُ : أَخَاصَّاً مِنَ الْأَسْمَاءِ عُلِمَ ، أَمْ عَامَّاً؟ فَقَالَ بَعْضُهُمْ : عُلِمَ اسْمُ كُلِّ شَيْءٍ^(٢) . (١: ٩٦) .

* ذكر من قال ذلك :

حدثنا أبو كريب ، قال : حدثنا عثمان بن سعيد ، قال : حدثنا بشير بن عمارة عن أبي رُوق ، عن الضحاك ، عن ابن عباس ، قال : علم الله تعالى آدم الأسماء كلها ، وهي هذه الأسماء التي يتعارف بها الناس : إنسان ، ودبابة ، وأرض ، وسهل ، وبحر ، وجبل ، وحمار؛ وأشباه ذلك من الأمم وغيرها^(٣) . (١: ٩٧) .

حدثني أحمد بن إسحاق الأهوازي ، قال : حدثنا أبو أحمد ، حدثنا شريك عن عاصم بن كلبي ، عن الحسن بن سعد ، عن ابن عباس في قوله : ﴿وَعَلَمَ

=
وأنخرجه البيهقي (١٠/ ح ٢٠٥٢٠) من طريق المقبرى عن أبي هريرة . وأخرج البخارى في صحيحه (كتاب أحاديث الأنبياء / ح ٣٣٢٦) عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال : (خلق الله آدم وطوله ستون ذراعاً ثم قال اذهب فسلم على أولئك النفر من الملائكة واستمع ما يجيئونك فإنها تحينك وتحية ذريتك .

فقال السلام عليكم فقالوا : وعليك السلام ورحمة الله ، فزادوه ورحمة الله . فكل من يدخل الجنة على صورة آدم فلم يزل الخلق ينقص حتى الآن .
(١) قول الطبرى هنا في آخر المقطع (وعلموا أن فيهم من منه المعصية لله عز وجل والخلاف لأمره) فيه نظر .

فإن كان يعني به إبليس كان من الملائكة فلا إلآ إذا كان يعني أن إبليس وهو جنى كان حاضراً مع ذلك الجمع من الملائكة ولكنه كان يخفي في نفسه الكبر والمعصية والله أعلم .

(٢) صحيح .

(٣) صحيح .

ءَادَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا»، قال: علمه اسم كل شيء ، حتى الفسورة والفسيّة^(١). (١) . (٩٧)

حدثني علي بن الحسن ، حدثنا مسلم الجرمي ، قال: حدثنا محمد بن مصعب عن قيس بن الربيع ، عن عاصم بن كليب ، عن سعيد بن عبد ، عن ابن عباس في قول الله عز وجل: «وَعَلِمَ إَدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا» قال: علمه اسم كل شيء حتى الهلة والهنية ، والفسورة والضرطة^(٢). (١) . (٩٧)

حدثنا محمد بن عمرو ، قال: حدثنا أبو عاصم ، قال: حدثنا عيسى بن ميمون ، عن ابن أبي نجيح ، عن مجاهد؛ في قول الله عز وجل: «وَعَلِمَ إَدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا» قال: ما خلق الله تعالى كله^(٣). (١) . (٩٧)

حدثنا ابن وكيع ، قال: حدثنا أبي عن سفيان ، عن خصيف ، عن مجاهد: «وَعَلِمَ إَدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا» قال: علمه اسم كل شيء^(٤). (١) . (٩٧)

حدثنا سفيان ، قال: حدثنا أبي عن شريك ، عن سالم الأفطس ، عن سعيد بن جبير ، قال: علمه اسم كل شيء؛ حتى البعير ، والبقرة ، والشاة^(٥). (١) . (٩٨)

حدثنا الحسن بن يحيى ، قال: أخبرنا عبد الرزاق ، قال: أخبرنا معمراً ، عن قتادة في قوله عز وجل: «وَعَلِمَ إَدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا» ، قال: علمه اسم كل شيء: هذا جبل ، وهذا بحر ، وهذا كذا ، وهذا كذا ، لكل شيء ، ثم عرضهم على الملائكة ، فقال: «أَنِّي تُوَفِّي بِأَسْمَاءٍ هَذِلَّاءٍ إِنْ كُنْتُمْ صَدِيقِنَّ»^(٦). (١) . (٩٨)

حدثنا بشر بن معاذ ، حدثنا يزيد بن زريع عن سعيد ، عن قتادة ، قوله عز وجل: «وَعَلِمَ إَدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا» حتى بلغ «إِنَّكَ أَنْتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ» ، قال:

(١) صحيح.

(٢) صحيح.

(٣) صحيح.

(٤) صحيح.

(٥) صحيح.

(٦) صحيح.

يا آدم أنتهم بأسمائهم ، فأنباً كلَّ صِنْفٍ من الخلق باسمه ، وألْجَاهُ إلى جنسه^(١) . (٩٨ : ١)

حدثنا القاسم بن الحسن ، قال: حدثنا الحسين بن داود؛ قال: حدثنا حجاج عن جرير بن حازم ومبارك ، عن الحسن وأبي بكر ، عن الحسن وقناة ، قال: علَّمه اسم كل شيء؛ هذا الخيل ، وهذه البغال ، والإبل ، والجن ، والوحش ، وجعل يسمّي كل شيء برسمه^(٢) . (٩٨ : ١)

* ذكر من قال ذلك:

حدثنا بشر بن معاذ ، قال: حدثنا يزيد بن زريع ، قال: حدثنا سعيد عن قنادة: قوله: ﴿وَإِذَا قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ ، فاستشار الملائكة في خلق آدم عليه السلام فقالوا: ﴿أَبَجَعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الْأَمَاءَ﴾ ، وقد علمت الملائكة من عِلم الله أنه لا شيء أكره إلى الله عز وجل من سفك الدماء والفساد في الأرض ، ﴿وَنَحْنُ شَيْخُ مُحَمَّدِكَ وَنَقِيلُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ ، فكان في علم الله عز وجل أنه سيكون من تلك الخلقة أنبياء ورسل وقوم صالحون وساكنو الجنة.

قال: وذكر لنا أن ابن عباس كان يقول: إن الله تعالى لما أخذ في خلق آدم قالت الملائكة: ما الله تعالى بخالق خلقاً أكرم عليه منا ، ولا أعلم منا ، فابتلوا بخلق آدم عليه السلام - وكل خلق مبتلى ، كما ابتليت السموات والأرض بالطاعة - فقال الله تعالى: ﴿أَتَيْتَ أَطْوَعًا أَوْ كَرْهًا فَالَّتَّا أَتَيْنَا طَأْبَيْنَ﴾^(٣) . (١٠١ / ١٠٠).

حدثنا بشر بن معاذ ، قال: حدثنا يزيد بن زريع ، قال: حدثنا سعيد عن

(١) صحيح.

(٢) صحيح.

قلنا: هذه آثار عن الصحابة والتابعين تؤكد على أنه سبحانه وتعالى علم آدم اسم كل شيء ورؤيد ذلك ما أخرجه البخاري في صحيحه مرفوعاً (فيأتون آدم فيقولون أنت أبو الناس خلقك الله بيده وأسجد لك ملائكته وعلمت أسماء كل شيء... الحديث) ضمن حديث طويل.

(٣) إسناد مرسلاً صحيح.

فتادة: ﴿وَخَلَقَ مِنْهَا رُوْجَهَا﴾ ، يعني: حواء ، خلقت من آدم من ضلع من أصلاعه^(١). (١٠٥ : ١).

القول في قدر مكث آدم في الجنة وقت خلق الله عزوجل إياه وقت إهاباته إياه من السماء إلى الأرض

* ذكر الأخبار عن رسول الله ﷺ بذلك:

حدثني عبد الرحمن بن عبد الله بن عبد الحكم ، قال: حدثنا عليّ بن مَعْبُد ، قال: حدثنا عبيد الله بن عمرو عن عبد الله بن محمد بن عَقِيل ، عن عمرو بن شرحبيل عن سعيد بن سعد بن عبادة ، عن سعد بن عبادة ، عن رسول الله ﷺ ، قال: «إن في الجمعة خمس خلال: فيه خلق آدم ، وفيه أهبط إلى الأرض ، وفيه توفي الله آدم ، وفيه ساعة لا يسأل العبد فيها ربّه شيئاً إلا أعطاه الله إياه؛ ما لم يسأل إثماً أو قطيعة ، وفيه: تقوم الساعة ، وما من ملك مقرب . ولا سماء ولا جبل ولا أرض ولا ريح؛ إلا مشفق من يوم الجمعة»^(٢). (١١٣ : ١).

حدثني محمد بن بشار ومحمد بن معمر ، قالا: حدثنا أبو عامر ، حدثنا زهير بن محمد عن عبد الله بن محمد بن عَقِيل ، عن عبد الرحمن بن يزيد الأنصاري؛ عن أبي لبابة بن عبد المنذر ، أن النبي ﷺ قال: «سيد الأيام يوم الجمعة وأعظمها ، وأعظم عند الله من يوم الفطر ويوم النحر؛ وفيه خمس خلال: خلق الله تعالى فيه آدم ، وأهبطه فيه إلى الأرض ، وفيه توفي الله تعالى آدم ، وفيه ساعة لا يسأل الله العبد شيئاً إلا أعطاه إياه ما لم يكن حراماً . وفيه تقوم الساعة؛ ما من ملك مقرب ولا سماء ولا أرض ولا جبال ولا رياح ولا بحر إلا وهو مشفق من يوم الجمعة أن تقوم فيه الساعة». واللفظ لحديث ابن بشار^(٣). (١١٣ : ١).

(١) صحيح.

(٢) إسناده ضعيف وأخرجه الشافعي من طريق عبد الله بن محمد هذا (المستند ٣٧٦ / ١) وشطر من متنه صحيح كما سيأتي.

(٣) في إسناده زهير بن محمد ضعفه غير واحد وقال أبو حاتم محله الصدق وفي حفظه سوء ، وكان حديثه بالشام أنكر من حديثه بالعراق لسوء حفظه مما حدث من حفظه فيه أغاليط وما حدث من كتبه فهو صالح (تهذيب الكمال / ٢٠٠٢).

حدثنا محمد بن معمر ، قال: حدثنا أبو عامر ، قال: حدثنا زُهير بن محمد عن عبد الله بن محمد بن عقيل ، عن عمرو بن شرحبيل بن سعيد بن سعد بن عبادة عن أبيه ، عن جده ، عن سعد بن عبادة ، أن رجلاً أتى النبي ﷺ ، فقال: يا رسول الله ، أخبرنا عن يوم الجمعة ، ماذا فيه من الخير؟ فقال: «فيه خلق آدم ، وفيه أهبط آدم ، وفيه تُوفي آدم ، وفيه ساعة لا يسأل العبد فيها شيئاً إلا أعطاه الله إياه؛ مال م يسأل مائماً أو قطعية ، وفيه تقوم الساعة؛ ما من ملك مقرب ولا سماء ولا أرض ولا جبال ولا ريح إلا هنَّ يُشْفِقُونَ من يوم الجمعة»^(١) .

• (١١٤ : ١)

حدثني عبد الرحمن بن عبد الله بن عبد الحكم ، قال: حدثنا أبو زرعة ، قال: أخبرني يونس ، عن ابن شهاب ، عن عبد الرحمن الأعرج ، أنه سمع أبا هريرة يقول: قال رسول الله ﷺ : «خير يوم طلعت الشمس عليه يوم الجمعة؛ فيه خلق آدم ، وفيه أدخل الجنة وأخرج منها»^(٢) . (١١٤ : ١) .

حدثني بحر بن نصر ، قال: أخبرنا ابن وهب ، قال: أخبرني ابن أبي الزنان عن أبيه ، عن موسى بن أبي عثمان ، عن أبي هريرة ، قال: قال رسول الله ﷺ : «سيد الأيام يوم الجمعة ، فيه خلق آدم ، وفيه أدخل الجنة ، وفيه أخرج منها ، ولا تقوم الساعة إلا يوم الجمعة»^(٣) . (١١٤ : ١) .

حدثنا الريبع بن سليمان ، قال: حدثنا شعيب بن الليث ، قال: حدثنا الليث بن سعد عن جعفر بن ربيعة ، عن عبد الرحمن بن هرمز ، أنه قال: سمعت

(١) إسناده ضعيف والحديث يؤيده ما بعده من حديث أبي هريرة كما سنذكر.

(٢) في إسناده أبو زرعة (وذهب الله بن راشد) ذكره ابن حبان في الثقات وقال يخطيء . وقال أبو حاتم محله الصدق (لسان الميزان ترجمة ٩١٤١ / ٩٤٣٧).

وال الحديث صحيح أخرجه أبو داود من حديث أبي هريرة (١/ ح ١٠٤٦) والحاكم في المستدرك (١/ ٢٧٧) والترمذى في سننه (٤٩٧/ ١) وشطر منه عند مسلم (١/ ٨٥٤).

(٣) لفظة (سيد الأيام) وردت في رواية الطبرى هذه وأخرجه الحاكم في المستدرك (٢٧٧/ ١) وقال: هذا حديث صحيح على شرط مسلم فقد استشهد بعد الرحمن بن أبي الزنان ولم يخرجا (سيد الأيام). ا.هـ.

قلنا: وعبد الرحمن هذا ضعفه عدد غير قليل من الأئمة وروى له مسلم في مقدمة صحيحه وقال الحافظ: صدوق تغير حفظه لما قدم بغداد.

أبا هريرة يقول : قال رسول الله ﷺ : «لم تطلع الشمس على يوم مثل يوم الجمعة؛ فيه خلق آدم ، وفيه أخرج من الجنة ، وفيه أعيد فيها»^(١) . (١١٤ : ١١) .

حدثنا أبو كُرَيْب ، قال: حدثنا إسحاق بن منصور عن أبي كُدَيْنَة ، عن مغيرة ، عن زياد ، عن إبراهيم ، عن علقة ، عن القرئع ، عن سلمان ، قال: قال رسول الله ﷺ : «أتدرى ما يوم الجمعة؟ هو يوم جَمَعَ فيه أبوك» ، أو «أبوكم آدم» عليه السلام^(٢) . (١١٥ : ١١) .

حدثنا أبو كُرَيْب ، قال: حدثنا حسن بن عطية ، قال: حدثنا قيس عن الأعمش ، عن إبراهيم. عن القرئع ، عن سلمان ، قال: قال رسول الله ﷺ : «أتدرى ما الجمعة؟» أو قال: كذا ، «فيها جَمَعَ أبوكم آدم»^(٣) . (١١٦ / ١١٥) .

حدثنا محمد بن علي بن الحسن بن شقيق ، قال: سمعت أبي يقول: أخبرنا أبو حمزة عن منصور ، عن إبراهيم ، عن القرئع ، عن سلمان ، قال: قال لي رسول الله ﷺ : «أتدرى ما يوم الجمعة؟» قلت: لا ، قال: «فيه جمع أبوك»^(٤) . (١١٦ : ١١) .

ذكر الوقت الذي فيه خلق آدم عليه السلام من يوم الجمعة والوقت الذي أهبط إلى الأرض

اختلف في ذلك ، فروي عن عبد الله بن سلام وغيره في ذلك ما حدثنا أبو كریب ، قال: حدثنا ابن إدريس ، قال: أخبرنا محمد بن عمرو عن أبي سلمة ، عن أبي هريرة ، قال: قال رسول الله ﷺ : «خير يوم طلعت فيه الشمس يوم الجمعة ، فيه خلق آدم ، وفيه أسكن الجنة ، وفيه أهبط ، وفيه تقوم الساعة ، وفيه ساعة - [يقللها] - لا يوافقها عبد مسلم يسأل الله تعالى فيها خيراً إلّا

(١) إسناده صحيح والحديث صحيح كما سبق.

(٢) حديث صحيح أخرجه الحاكم كما ذكرنا وابن خزيمة (ح / ١٧٣٢) بأطول من هذا وصحح الدكتور الأعظمي إسناده وقال أخرجه الطبراني وأحمد. ا.هـ.

(٣) صحيح.

(٤) صحيح.

ـ آتاه الله إِيَّاهـ» ، فقال عبد الله بن سلام : قد علمت أيّ ساعة هي ، هي آخر ساعات النهار من يوم الجمعة ، قال الله عزّ وجلّ : «**خُلِقَ الْإِنْسَنُ مِنْ عَجَلٍ سَأُوْبِرِكُمْ إِيَّاتِي فَلَا تَسْتَعِدُونَ**»^(١). (١١٧: ١).

ـ حدثنا أبو كريب ، قال : حدثنا المحاربيّ وعبدة بن سليمان وأسد بن عمرو ؛ عن محمد بن عمرو ، قال : حدثنا أبو سلمة عن أبي هريرة ، عن النبي ﷺ نحوه ، وذكر فيه كلام عبد الله بن سلام بنحوه^(٢). (١١٧: ١).

القول في الموضع الذي أهبط آدم وحواء إليه من الأرض حين أهبطا إليها

ـ فهذا الذي قاله هؤلاء هو أولى بالصواب ، وأأشبه بما دلّ عليه كتاب ربنا عزّ وجلّ ، وذلك أن الله عزّ ذكره لما تقدم إلى آدم وزوجته حواء بالنبي عن طاعة عدوّهما ، قال لآدم : «**يَنَادِمُ إِنَّ هَذَا عَدُوُّكَ وَلِزَوْجِكَ فَلَا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ الْجَنَّةِ فَتَسْتَقِئُنَّ إِنَّ لَكُمَا أَلَا بَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَى**»^(٣) وَأَنَّكَ لَا تَظْمَئِنُ فِيهَا وَلَا تَضْحَى» ، فكان معلوماً أن الشقاء الذي أعلمه أنه يكون إن أطاع عدوه إبليس ، هو مشقة الوصول إلى ما يُرِيَلُ الجوع والعُزَى عنه ؛ وتلك هي الأسباب التي بها يصل أولاده إلى الغذاء ، من حراثة وبذر وعلاج وسقي ، وغير ذلك من الأسباب الشاقة المؤلمة . ولو كان جبريل أنّه بالغذاء الذي يصل إليه يُنذرُه دون سائر المؤمن غيره ، لم يكن هناك من الشقاء الذي توعد به ربه على طاعة الشيطان ومعصية الرحمن كبير خطب ، ولكن الأمر كان - والله أعلم - على ما رويانا عن ابن عباس وغيره^(٤) . (١: ١٣٠).

ـ وقد حديثي أحمد بن محمد الطوسيّ ، قال : حدثنا الحسين بن محمد ، قال : حدثنا جرير بن حازم عن كُلثوم بن جبر ، عن سعيد بن جُبَير ، عن ابن عباس ، عن النبي ﷺ ، قال : أخذ الله الميثاق من ظهر آدم بتعمان - يعني عرفة - فأخرج

(١) وكذلك أخرجه ابن أبي حاتم من طريق يزيد بن هارون عن محمد بن عمرو وإسناده حسن صحيح والله أعلم.

(٢) صحيح.

(٣) صحيح.

من صلبه كُلَّ ذرية ذرأهَا ، فتشرهم بين يديه كالذرّ ، ثم كلّهم قُبْلاً ، وقال: ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى شَهَدْنَا أَنْ تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَمَةِ . . .﴾ إلى قوله: ﴿إِمَّا فَعَلَ أَمْبَطِلُونَ﴾^(١) . (١: ١٣٤).

حدثني عمران بن موسى الفراز ، حدثنا عبد الوارث بن سعيد ، قال: حدثنا كلثوم بن جبر عن سعيد بن جبير ، عن ابن عباس في قوله: ﴿وَإِذَا خَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتُهُمْ وَأَشَهَدُهُمْ عَلَى أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى﴾ ، قال: مسح ربنا ظهر آدم ، فخرجت كل نسمة هو خالقها إلى يوم القيمة بنعمان هذه - وأشار بيده - فأخذ مواثيقهم ، وأشهدهم على أنفسهم: ألسنت بربكم؟ قالوا: بلى^(٢) . (١: ١٣٤).

حدثنا ابن وكيع ، قال: حدثنا عمران بن عبيّنة عن عطاء ، عن سعيد بن جبير ، عن ابن عباس ، قال: أهبط آدم حين أهبط فمسح الله ظهره ، فأخرج منه كل نسمة هو خالقها إلى يوم القيمة ، ثم قال: ألسنت بربكم؟ قالوا: بلى ، ثم تلى: ﴿وَإِذَا خَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتُهُمْ﴾؛ فجفت القلم من يومئذ بما هو

(١) إن كان شيخ الطبرى هنا أحمد بن محمد بن نيزك الطوسي فإسناده حسن صحيح ، وعلى أية حال فإن حديث ابن عباس هنا أخرجه الحاكم في المستدرك من طريق الحسن بن محمد المردو迪 ثنا جرير بن حازم عن كلثوم بن جبر عن سعيد بن جبير عن ابن عباس رضي الله عنهما عن النبي ﷺ قال: «أخذ الله الميثاق من ظهر آدم عليه السلام . . . إلخ الحديث» كما عند الطبرى وقال الحاكم: هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه (المستدرك ٥٤٣/٢) وأخرجه قبل ذلك في (٢٧/١) من طريق وهب بن جرير بن حازم - ثنا أبي عن كلثوم بن جرير . عن سعيد بن جبير عن ابن عباس عن النبي ﷺ . . . الحديث . وقال الحاكم: هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه وقد احتاج مسلم بكلثوم بن جبر ووافقه الذهبي (المستدرك مع التلخيص ٢٧/١) قلنا: والحديث أخرجه النسائي في الكبرى (١١١٩١) وقال: كلثوم هذا ليس بالمحفوظ . ١-هـ.

قلنا: والحديث أخرجه أحمد في مسنده (٢٤٥٥) عن ابن عباس مرفوعاً وذكره الحافظ ابن كثير بسنده عند أحمد ثم قال: فهو إسناد جيد قوي على شرط مسلم (البداية والنهاية ١٤٤/٦ ط. الفكر).

وستأتي على كلام العلماء في ترجيح وقفه أو رفعه بعد ذكر الروايات الموقوفة الآتية عند الطبرى .

(٢) هذا الخبر أخرجه الطبرى هنا مرفوعاً وانظر ما بعده .

كائن إلى يوم القيمة^(١). (١ : ١٣٤ / ١٣٥).

(١) هكذا رواه الطبرى موقوفاً وقد رواه قبل مرفوعاً. وقال الحافظ ابن كثير رحمه الله تعالى بعد إيراده للرواية المرفوعة عند أحمد:

وقال الحاكم: صحيح الإسناد ولم يخرجاه إلا أنه اختلف فيه على كلثوم بن جبر. فروى عنه مرفوعاً موقوفاً وكذا روى عن سعيد بن جبير عن ابن عباس موقوفاً. وهكذا رواه العوفي والوالبي والضحاك وأبو جمرة عن ابن عباس قوله: وهذا أكثر وأثبت والله أعلم.

وهكذا روى عن عبد الله بن عمر موقوفاً ومرفوعاً والموقف أصح (البداية والنهاية ١٤٤ / ١).

وقال الشوكانى في تفسيره لهذه الآية من سورة الأعراف (١٧٢) وأخرج أحمد والنسائى وابن جرير والحاكم وصححه ، وابن مردوه والبيهقى في الأسماء والصفات عن ابن عباس عن النبي ﷺ قال: إن الله أخذ الميثاق من ظهر آدم بنيعات يوم عِرْفَة فأخرج من صلبه كل ذرية ذراها فشرها بين يديه ثم كلامهم فقال: «أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَاتِلُ أَبْنَيْ شَهِدْنَا» إلى قوله: «الْمُبْطَلُونَ» ثم قال الشوكانى رحمه الله وإسناده لا مطعن فيه ، وقد أخرجه ابن أبي حاتم موقوفاً على ابن عباس (فتح القدير/ تفسير سورة الأعراف/ آية ١٧٢). قلنا: وأما من المعاصرين فإن الشيخ عبد الرزاق المهدى رجح وقفه وقال: (وهو أصح من المرفوع) وإن لم ينف الشيخ عبد الرزاق وجود الشواهد الكثيرة وبالفاظ متقاربة.

وأما المحدث الألبانى فقد صاحب رفعه (انظر السلسلة الصحيحة/ ح ١٦٢٣) قلنا: الحديث صحت روایته موقوفاً وكذلك مرفوعاً ويفيد المروي ما يلى :

١ - الآية نفسها تشهد للحديث المروي وإن كان الحافظ ابن كثير من رجح الوقف .

٢ - وأخرجه الطبرى في تفسيره من طريق أحمد بن أبي طيبة عن سفيان بن سعيد عن الأجلح عن الضحاك عن منصور عن مجاهد عن عبد الله بن عمرو قال: قال رسول الله ﷺ : «وَإِذَا أَخْذَ رَبُّكَ مِنْ بَيْنِ أَدَمَ مِنْ ظَهُورِهِ ذَرَّتِهِ» قال: أخذ من ظهورهم كما يؤخذ بالمشط من الرأس . فقال لهم: «أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَاتِلُ أَبْنَيْ شَهِدْنَا أَتَ تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَمَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَنِيَّلِينَ» .

وقد أخرج الحافظ ابن كثير هذا الحديث ثم عقب قائلاً: أحمد بن أبي طيبة هذا أبو محمد الجرجانى قاضي قوقس ، كان أحد الزهاد ، أخرج له النسائى في سنته وقال أبو حاتم الرازى يكتب حدبه وقال: ابن عدي حدث بأحاديث كثيرة أكثرها غريب ، وقد روى هذا الحديث عبد الرحمن بن مهدي عن سفيان الثورى عن مجاهد عن عبد الله بن عمرو قوله (أى موقوفاً) وكذا رواه جرير عن منصور به ، وهذا أصح والله أعلم (تفسير القرآن العظيم / ١٥٠٧).

قلنا: وهذا يعني أن الحافظ ابن كثير يرجح وقف هذه الرواية كذلك ، أما الموقف هنا فضعيف والله أعلم .

٣ - الشاهد الثالث: أخرج البخارى في صحيحه (كتاب أحاديث الأنبياء/ ح ٣٣٤) عن أنس =

حدثنا إبراهيم بن سعيد الجوهرى ، قال: حدثنا روح بن عبادة وسعد بن عبد الحميد بن جعفر ، عن مالك بن أنس ، عن زيد بن أبي أئية ، عن عبد الحميد بن عبد الرحمن بن زيد بن الخطاب ، عن مسلم بن يسار الجهنمى ؛ أن عمر بن الخطاب ، رضي الله عنه سئل عن هذه الآية: ﴿وَإِذَا خَذَرَ بِكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِ ذُرِّيَّتُهُمْ﴾ ، فقال عمر: سمعت رسول الله ﷺ قال: «إن الله خلق آدم ثم مسح على ظهره بيمنيه واستخرج منه ذرية ، فقال: خلقت هؤلاء للجنة وبعمل أهل الجنة يعملون ، ثم مسح على ظهره فاستخرج منه ذرية فقال: خلقت هؤلاء للنار وبعمل أهل النار يعملون» ، فقال رجل: يا رسول الله ، ففيما العمل؟ قال: «إن الله تبارك وتعالى إذا خلق العبد للجنة استعمله بعمل أهل الجنة ، [حتى يموت على عملٍ من عمل أهل الجنة] فيدخله الجنة ، وإذا خلق العبد للنار استعمله بعملٍ أهل النار حتى يموت على عملٍ من عمل أهل النار فيدخله النار»^(١). (١٣٥ : ١).

رضي الله عنه يرفعه: «إن الله يقول لأهون أهل النار عذاباً: لو أن لك ما في الأرض من شيء كنت تقتندي به؟ قال: نعم. قال: فقد سألك ما هو أهون من هذا وأنت في صلب آدم: أن لا تشرك بي فأبىت إلا الشرك». =
قلنا: والحديث أخرجه مسلم من حديث أنس مرفوعاً (صحيح مسلم/ كتاب صفات المنافقين/ ح ٢٨٠٥).

٤_ الشاهد الرابع: حديث عمر بن الخطاب الآتي عند الطبرى وغيره.

(١) هذا إسناد ضعيف وال الحديث أخرجه الترمذى في سنته (كتاب تفسير القرآن/ ح ٣٧٥) وأحمد في مسنده (ح ٣١١) وأبو داود (ح ٤٧٠٣) والإمام مالك في الموطأ (ح ١٦٦١) من طريق زيد بن أئية عن عبد الحميد بن عبد الرحمن بن زيد بن الخطاب عن مسلم بن يسار الجهنمى عن عمر بن الخطاب مرفوعاً وصححه ابن حبان (ح ٦١٦).

وقال الترمذى: هذا حديث حسن. ومسلم بن يسار لم يسمع من عمر. وقال الحاكم هذا حديث صحيح على شرط الشيختين ولم يخرجاه.

وقال الحافظ ابن كثير: وقد رواه أبو داود عن محمد بن مصفي عن بقية عن عمر بن جعثم عن زيد بن أبي أئية عن عبد الحميد بن عبد الرحمن بن زيد بن الخطاب عن مسلم بن يسار عن نعيم بن ربيعة قال: كنت عند عمر بن الخطاب وقد سئل عن هذه الآية فذكر الحديث.

قلنا: وقد أخرجه أبو داود (٤٧٠٤) وحديث مالك أتم.

وقال الدارقطنى: وقد تابع عمر بن جعثم أبو فروة بن يزيد بن سنان الراهاوى عن زيد بن أبي أئية قال: وقولهما أولى بالصواب من قول مالك رحمه الله (وهذه الأحاديث كلها دالة =

ذكر الأحداث التي كانت في عهد آدم عليه السلام

بعد أن أهبط إلى الأرض

والصحيح من القول عندنا أنَّ الذي ذكر اللهُ في كتابه أنه قتل أخاه من ابني آدم هو ابن آدم لصلبه ، لِتُقْلَى الحجَّةُ أَنَّ ذَلِكَ كَذَلِكَ ، وَأَنَّ هَنَّادَ بْنَ السَّرِّيَّ حَدَّثَنَا ، قال : حَدَّثَنَا أَبُو معاوِيَةَ وَوَكِيعُ جَمِيعاً عَنِ الْأَعْمَشِ . - وَحَدَّثَنَا أَبْنُ حَمِيدٍ ، قَالَ : حَدَّثَنَا جَرِيرٌ ، وَحَدَّثَنَا أَبْنُ وَكِيعٍ ، قَالَ : حَدَّثَنَا جَرِيرٌ وَأَبُو معاوِيَةَ عَنِ الْأَعْمَشِ - عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَرْيَمٍ ، عَنْ مَسْرُوقٍ ، عَنْ عَبْدِ اللَّهِ ، قَالَ : قَالَ النَّبِيُّ ﷺ : «مَا مَنَّ نَفْسٌ تُقْتَلُ ظُلْمًا إِلَّا كَانَ عَلَى أَبْنِ آدَمَ الْأَوَّلِ كِفْلٌ مِّنْهَا» ، وَذَلِكَ لِأَنَّهُ أَوَّلُ مَنْ سُنَّ الْقَتْلُ»^(١). (١٤٤ : ١).

على استخراجه تعالى ذرية آدم من ظهره كالذر وقسمهم قسمين أهل اليمين وأهل الشمال
(البداية والنهاية / ١٤٤).

قلنا : والحديث (حديث عمر) ذكره الألباني في الضعيفة (٣٠٧٠) وصححه لغيره في تخريج شرح الطحاوية . انظر المشكاة (٩٦) وانظر السلسلة الضعيفة (٣٠٧١) .

وكذلك أرناؤوط : إذ قال صحيح لغيره (وانظر المسند ٤٠٠ / ١) وقال أيضاً : قلنا وفي الباب عن عمران بن حصين وعلي وجابر عبد الرحمن بن قتادة السلمي وهي مخرجة في (الصحيح ابن حبان ٣٣٣ - ٣٣٨) . ومن حديث عمر نفسه عند الأجري في الشريعة (١٧١ - ١٧٠) وانظر التمهيد (١٢٠٦ / ٦) . كلام أرناؤوط (المسند ٤٠٠ / ١) .

قلنا : ونرى هنا جديراً أن نذكر كلام الإمام الحافظ ابن عبد البر في حكمه على الحديث : يقول ابن عبد البر : هذا الحديث منقطع بهذا الإسناد لأن مسلم بن يسار هذا لم يلقَ عمر بن الخطاب .. ثم قال : وزيادة من زاد فيه نعيم بن ربيعة ليست حجَّةً . لأنَّ الذي لم يذكره أحْفَظَ ، وإنما تقبل الزيادة من الحافظ المتقن ، وجملة القول في الحديث أنه حديث ليس بإسناده لأنَّ مسلم بن يسار ونعيم بن ربيعة جميعاً غير معروفين بحمل العلم ، ولكن وخبر هذا الحديث قد صحَّ عن النبي ﷺ من وجوه كثيرة ثابتة يطول ذكرها (التمهيد ٦ / ٣) والله أعلم .

قلنا : وأخرج ابن أبي عاصم في السنة نحوه من حديث أبي هريرة . وصححه الألباني (٢٠٤ ، ٢٠٥) / ص ٢٧٦ والله أعلم .

(١) حديث ابن مسعود هذا حديث صحيح أخرجه البخاري ولفظه (لا تُقتل نفس ظلماً إلَّا كان على ابن آدم الأول كفل من دمها لأنَّه أول من سن القتل) صحيح البخاري / كتاب حديث الأنبياء / ح ٣٣٥) وقال الحافظ ابن حجر : وأورده (أبي البخاري) هنا ليلمح بقصة ابني آدم

ذكر الأحداث التي كانت في عهد آدم

حدثنا ابن بشار ، قال : حدثنا عبد الرحمن بن مهدي - وحدثنا ابن وكيع قال : حدثنا أبي - جمِيعاً عن سفيان ، عن الأعمش ، عن عبد الله بن مرة ، عن مسروق ، عن عبد الله ، عن النبي ﷺ نحوه^(١) . (١٤٤ : ١١) .

فقد بينَ هذا الخبر عن رسول الله ﷺ صحة قول من قال : إن اللذين قصَّ الله في كتابه قصتهما من أبني آدم كانوا أبنيه لصلبه ؛ لأنَّه لا شكَّ أنَّهما لو كانا من بني إسرائيل - كما رُويَ عن الحسن - لم يكن الذي وُصفَ منهما بأنه قتل أخيه أوَّل من سُنَّ القتل ، إذ كان القتل في بني آدم قد كان قبل إسرائيل وولده^(٢) . (١٤٤ : ١١) . فإن قال قائل : فما برهانك على أنهما ولدا آدم لصلبه ، وأنَّ لم يكونا من بني إسرائيل^(٣) ؟ (١٤٤ : ١) .

قيل : لا خلافَ بينَ سلف علماء أمتنا في ذلك ، إذا فسدَ قولُ من قال : كانوا من بني إسرائيل^(٤) . (١٤٥ : ١) .

ونرجع الآن إلى الزيادة في الإبانة عن خطأ قول من قال : إنَّ أول ميت كان في أول الأرض آدم ، وإنكاره الذين قصَّ الله نبأهما في قوله : ﴿وَأَتْلُ عَلَيْهِمْ تَبَآءَتِيَّةَ آدَمَ بِالْحَقِيقَةِ قَرْبًا قُرْبًا﴾ ، أنَّ يكُونَا من صُلْب آدم من أجل ذلك^(٥) . (١٤٨ : ١) .

حدثنا ابن حميد ، قال : حدثنا سلمة ، قال : حدثني محمد بن إسحاق عن جعفر بن الزبير ، عن القاسم بن عبد الرحمن ، عن أبي أمامة ، عن أبي ذر قال : قلت ، يا نبي الله ، أَنْبِيَا كَانَ آدَمْ؟ قال : «نعم ، كَانَ نَبِيًّا ، كَلَمْهُ اللَّهُ قُبْلًا»^(٦) . (١٥١ : ١) .

=

حيث قُتل أحدهما الآخر ولم يُصحَّ على شرطه شيءٌ من قصتهما وفيما قصه الله علينا في القرآن من ذلك كفایة عن غيره (فتح الباري ٧/١٣).

(١) صحيح.

(٢) صحيح.

(٣) صحيح.

(٤) صحيح.

(٥) صحيح.

(٦) شيخ الطبرى ضعيف إلا أنَّ الحديث صحيح فقد أخرج ابن حبان في صحيحه (٦١٩٠/ح) عن أبي أمامة أنَّ رجلاً قال يا رسول الله أَنْبِيَا كَانَ آدَمْ؟ قال : نعم ، قال : فكم كَانَ بَيْنَهُ وَبَيْنَ نَوحَ؟ قال : عَشْرَةَ قَرْوَنَ) وَصَحَّحَهُ العَلَامَةُ أَرْنَاؤُوطُ (الموارد / ح ٢٠٨٥).

ذكر وفاة آدم عليه السلام

اختُلِفَ في مدة عمره ، وابن كُمْ كان يوم قبضه الله عز وجل إليه.

فأما الأخبار عن رسول الله ﷺ فإنها واردة بما حدثني محمد بن خلف العسقلاني ، قال: حدثنا آدم بن أبي إيواس ، قال: حدثنا أبو خالد سليمان بن حيان ، قال: حدثني محمد بن عمرو عن أبي سلمة ، عن أبي هريرة عن النبي ﷺ . - قال أبو خالد: وحدثني الأعمش عن أبي صالح عن أبي هريرة عن النبي ﷺ . قال أبو خالد: وحدثني داود بن أبي هند عن الشعبي ، عن أبي هريرة عن النبي ﷺ . قال أبو خالد: وحدثني ابن أبي ذباب الدؤسي ، قال: حدثنا سعيد المقبرى ويزيد بن هرمز عن أبي هريرة ، عن النبي ﷺ - أنه قال: «خلق الله آدم بيده ونفح فيه من روحه ، وأمر الملائكة فسجدوا له ، فجلس فعطس فقال: الحمد لله ، فقال له رباه: يرحمك ربك ، إيت أولئك الملائكة فقل لهم: السلام عليكم ، فأتاهم فقال لهم: السلام عليكم . قالوا له: وعليك السلام ورحمة الله ، ثم رجع إلى ربه فقال له: هذه تحية ذريتك وتحية ذريتك بينهم ، ثم قبض له يديه ، فقال له: خذ واختر ، قال: اخترت يمين ربي وكلتا يديه يمين ، ففتحها له ، فإذا فيها صورة آدم وذريته كلّهم ، فإذا كلّ رجل مكتوب عنده أجله ، وإذا آدم قد كتب له عمر ألف سنة ، وإذا قوم عليهم النور ، فقال: يا رب ، من هؤلاء الذين عليهم النور ، فقال: هؤلاء الأنبياء والرسل الذين أرسِل إلى عبادي ، وإذا فيهم رجل هو أضوئهم نوراً ، ولم يكتب له من العمر إلاأربعون سنة ، فقال: يا رب ، ما بال هذا ، من أضوئهم نوراً ولم يكتب له من العمر إلاأربعون سنة؟ فقال: ذاك ما كتب له ، فقال: يارب ، انقص له من عمري ستين سنة». فقال رسول الله ﷺ : «فلما أسكنه الله الجنة ثم أهبط إلى الأرض كان يعُد أيامه ، فلما أتاه ملك الموت ليقيِّنه قال له آدم: عجلت علي يا ملك الموت ! فقال: ما فعلت ، فقال: قد بقي من عمري ستون سنة ، فقال له ملك الموت : ما بقي من عمرك شيء ، قد سألت ربك أن يكتبه لابنك داود ، فقال: ما فعلت ». فقال رسول الله ﷺ : «فنسى آدم ، فنسى ذريته ، وجحد آدم فجحدت ذريته ، فيومئذ

وَضَعَ اللَّهُ الْكِتَابُ ، وَأَمْرٌ بِالشَّهُودِ»^(١). (١ : ١٥٥).

(١) في إسناده سليمان بن حيان قال ابن عدي : له أحاديث صالحة وإنماأتي من سوء حفظه فيغلط ويختلط ولكن يؤيده ما أخرجه ابن حبان في صحيحه (ح ٦٦٧) دون ذكر سجود الملائكة لأدم من طريق محمد بن إسحاق بن خزيمة حدثنا محمد بن بشار حدثنا صفوان بن عيسى حدثنا الحارث بن عبد الرحمن بن أبي ذباب ، عن سعيد المقبري عن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : «لما خلق الله آدم ونفع فيه الروح ، عطس فقال الحمد لله ، فحمد الله بإذن الله ، فقال له ربه يرحمك ربك يا آدم ، اذهب إلى أولئك الملائكة - إلى ملا جلوس - فسلم عليهم ، فقال السلام عليكم فقالوا : عليك السلام ورحمة الله ثم رجع إلى ربه فقال : هذه تحينك وتحية بنيك بينهم . وقال الله جل وعلا ويداه مقوضتان : اختر أيهما شئت ، فقال : اخترت يمين ربي وكلتا يدي ربي يمين مباركة ، ثم بسطها ، فإذا فيها آدم وذرته ، فقال : أي رب ما هؤلاء؟ فقال : هؤلاء ذريتك ، فإذا كل إنسان مكتوب عمره بين عينيه فإذا فيهم رجل أضوئهم أو من أضوئهم لم يكتب له إلا أربعين سنة قال : يا رب ، ما هذا؟ قال : هذا ابنك وقد كتبت له عمره أربعين سنة ، قال أي رب زده في عمره ، قال ذاك الذي كتبت له . قال : فإني جعلت له من عمري ستين سنة ، قال : أنت وذاك اسكن الجنة .

فسكن الجنة ما شاء الله ثم أهبط منها وكان آدم يعد لنفسه فأتأهله ملك الموت فقال له آدم : عجلت ، قد كتبت لي ألف سنة ، قال : بل ولذنك قد جعلت لابنك داود منها ستين سنة فجحد ، فجحدت ذريته ونسى فسيست ذريته ، فمن يومئذ أمر بالكتاب والشهود .

قلنا : وإسناد الحديث هذا من الثقة والصدق .

وقال العلامة أرناؤوط : إسناده قوي (الموارد ٢٨٠٢ / ١) والحديث أخرجه الترمذى (ح ٣٣٦٨).

وقال الترمذى : هذا حديث حسن غريب وقد روی من غير وجه عن أبي هريرة عن النبي ﷺ عن أبي صالح عن النبي ﷺ ، والحديث أخرجه الترمذى (سنن الترمذى / كتاب تفسير القرآن / ح ٣٣٦٨) وقال : حسن صحيح .

وقال الحاكم : هذا حديث صحيح على شرط الشیخین ولم يخرجاه (المستدرک ٢ / ٣٢٤). قلنا : ورواية الترمذى والحاكم من طريق أبي صالح عن أبي هريرة وفيهما أن عمره كان ستين سنة ثم زيد عليه أربعين سنة من عمر آدم وقد ذكر القاري أوجه الجمع بين الروايتين (المرقاة ١ / ٣٢٤) وتحفة الأحوذى ورجم الرواية (٣٠٧٦) على (٣٣٦٨) (ح ٤٤٧) إلا أن العلامة المباركفوري لم يقنع بتلك الاحتمالات وقال : كل ما ذكره القاري من وجوه الجمع مخدوش إلا الوجه الأخير وهو أن الحديث الذي في تفسير القراءة الأعراف (ح ٣٠٧٦) أرجح من الحديث الآتي في آخر كتاب التفسير فهو المعتمد . ووجه كون الأول أرجح من الثاني ظاهر من كلام الترمذى فإنه قال بعد رواية الأول : هذا حديث حسن صحيح (ح ٣٠٧٦) وقال بعد رواية الثاني (٣٣٦٨) هذا حديث حسن غريب وأيضاً في سند الثاني سعيد بن أبي سعيد =

حدثني ابن سنان ، قال: حدثنا موسى بن إسماعيل ، قال: حدثنا حماد بن سلمة عن عليّ بن زيد ، عن يوسف بن مهران ، عن ابن عباس ، قال: لما نزلت آية الدّيْن قال رسول الله ﷺ : «إِنَّ أُولَئِنَّ جَحْدَ آدَمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ ثَلَاثَ مَرَاتٍ ، وَإِنَّ اللَّهَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى لَمَا خَلَقَهُ مَسْحَ ظَهَرَهُ فَأَخْرَجَ مِنْهُ مَا هُوَ ذَارٌ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ ، فَجَعَلَ يَعْرَضُهُمْ عَلَى آدَمَ ، فَرَأَى فِيهِمْ رِجَالًا يَزْهَرُ ، فَقَالَ: أَيُّ رَبٌّ ، أَيُّ نَبِيٌّ هَذَا؟» قال: هذا ابنك داود ، قال: أَيُّ رَبٌّ ، كَمْ عُمْرَهُ؟ قال: سِتُونَ سَنَةً ، قال: أَيُّ رَبٌّ ، زَدَهُ فِي عُمْرِهِ ، قال: لَا ، إِلَّا أَنْ تَرِيَدَهُ أَنْتَ مِنْ عُمْرِكَ ، وَكَانَ عُمْرُ آدَمَ أَلْفَ سَنَةً ، فَوَهَبَ لَهُ مِنْ عُمْرِهِ أَرْبَعِينَ عَامًا ، فَكَتَبَ اللَّهُ عَلَيْهِ بِذَلِكَ كِتَابًا وَأَشَهَدَ عَلَيْهِ الْمَلَائِكَةُ ، فَلَمَّا احْتُضِرَ آدَمُ أَنْتَهِ الْمَلَائِكَةُ لِتَقْبِضَ رُوحَهُ ، قَالَ: إِنَّهُ قَدْ بَقَيَ مِنْ عُمْرِي أَرْبَعُونَ سَنَةً ، قَالُوا: إِنَّكَ قَدْ وَهَبْتَهَا لَابنِكَ داود ، قَالَ: مَا فَعَلْتُ وَلَا وَهَبْتُ لَهُ شَيْئًا ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْكِتَابَ ، وَأَقَامَ عَلَيْهِ الْمَلَائِكَةُ شَهُودًا ، فَأَكَمَ لَآدَمَ أَلْفَ سَنَةً ، وَأَكَمَ لِداودَ مِئَةَ سَنَةٍ»^(١) . (١٥٦: ١).

المقبرى وكان قد تغير قبل موته بأربع سنتين - هذا ما عندي والله أعلم. ١-هـ. (٤٤٧/٨).
 قلنا: وفي رواية للإمام أحمد من حديث ابن عباس مرفوعاً أنه قال: لما نزلت آية الدّيْن قال رسول الله ﷺ : إنَّ أُولَئِنَّ جَحْدَ آدَمَ ، إِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ لَمَا خَلَقَ آدَمَ مَسْحَ ظَهَرَهُ فَأَخْرَجَ مِنْهُ مَا هُوَ ذَارٌ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ فَجَعَلَ يَعْرَضُهُمْ عَلَى آدَمَ ، فَرَأَى فِيهِمْ رِجَالًا يَزْهَرُ ، فَقَالَ: أَيُّ رَبٌّ مِنْهُمْ هَذَا؟ قال: هذا ابنك داود ، قال: أَيُّ رَبٌّ ، كَمْ عُمْرَهُ؟ قال: سِتُونَ عَامًا ، قال: رب زد في عمره قال: لا إِلَّا أَنْ أَزِيدَهُ مِنْ عُمْرِكَ وَكَانَ عُمْرُ آدَمَ أَلْفَ عَامٍ .
 فزاده أربعين عاماً ، فكتب الله عز وجل عليه بذلك كتاباً ، وأشهد عليه الملائكة فلما احتضر آدَمُ ، وَأَنْتَهِ الْمَلَائِكَةُ لِتَقْبِضَهُ قَالَ: إِنَّهُ قَدْ بَقَى مِنْ عُمْرِي أَرْبَعِينَ عَامًا فَقَيلَ: إِنَّكَ وَهَبْتَهَا لَابنِكَ داود . قَالَ: مَا فَعَلْتُ وَأَبْرَزَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْكِتَابَ وَشَهَدَتْ عَلَيْهِ الْمَلَائِكَةُ .
 قلنا: وفي إسناده ضعيفان يوسف بن مهران وعليّ بن زيد بن جدعان؛ لذلك قال العلامة أرناؤوط: حسن لغيرة وهذا إسناد ضعيف ، عليّ بن زيد وهو ابن جدعان ضعيف وكذا يوسف بن مهران وقال أرناؤوط بعد عزوته إلى المصادر قوله شاهد بإسناد قوي من حديث أبي هريرة صصحه ابن حبان (٦٦٦) والله أعلم .
 وانظر مستند أحمد (٢٢٧٠ ، ٢٧١٣ ، ٣٥١٩).

(١) هذا إسناد ضعيف وكذلك أخرجه أحمد بهذا الإسناد الضعيف (الضعف على بن زيد بن جدعان ويوفى بن مهران) (مستند أحمد ح ٢٢٧). ويشهد له ما ذكرنا في الحديث السابق والله تعالى أعلم .

حدثنا علي بن حرب ، قال: حدثنا روح بن أسلم ، قال: حدثنا حماد بن سلمة عن ثابت البناني ، عن الحسن ، عن النبي ﷺ قال: «لما توفي آدم غسلته الملائكة بالماء وترأ ، وألحدوا له ، وقالت: هذه ستة آدم في ولده»^(١) . (١٦٠) .

(١) هذا إسناد ضعيف والحديث حسن بمجموع طرقه ، وأخرج أحمد عن عتي بن ضمرة قال: رأيت شيخاً بالمدينة يتكلم فسألت عنه فقالوا: هذا أبي بن كعب فقال: إن آدم عليه السلام لما حضره الموت قال لبنيه . . . الحديث.

وفي آخره: فقبضوه وغسلوه وكفنه وحنطوه وحفروا له وألحدوا له وصلوا عليه ثم دخلوا قبره فوضعوه في قبره ووضعوا عليه اللبن ثم خرجن من القبر ثم حثوا عليه بالتراب ثم قالوا: يا بني آدم هذه ستكم.

قلنا: هذا إسناد موقوف وفيه ضعف ، وأخرجه غير واحد موقوفاً ومرفوعاً فقد أخرج البهقي في السنن الكبرى (٤٠٤/٣) وابن أبي شيبة (٢٤٣/٣) وعبد الرزاق (٦٠٨٦) مرفوعاً. والدارقطني (٧١/٢) عن أنس موقوفاً . وأخرجه الحاكم في المستدرك مرفوعاً وقال: هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه وهو من النوع الذي لا يوجد للتابع إلا الرواية الواحد فإن عتي بن ضمرة السعدي ليس له راوٍ غير الحسن ، وعندى أن الشيختين علاه بعلة أخرى وهو أنه روى عن الحسن عن أبي دون ذكر عتي (المستدرك ١/٣٤٤) .

وقال العلامة أرناؤوط: ومدار هذا الحديث عليه (أي عتي بن ضمرة) وقد تفرد به ومثله يضعف فيما انفرد به والحديث هنا موقوف (أي في مستند أحمد) (٢١٢٤٠) .

وقد اختلف في رفعه ووقفه كما سنبئه . اـ هـ .

قلنا: وأخرج الطبراني في الأوسط عن أبي بن كعب مرفوعاً (إن آدم غسلته الملائكة بماء وسدر وكفنه وألحدوا له ودفنوه وقالوا: هذه ستكم يا بني آدم في موتاكم) .

وفي رواية (لما توفي آدم غسلته الملائكة بالماء وترأ ولحدت له وقالت: هذه ستة آدم وولده).

وقال الهيثمي: رواه كل الطبراني في الأوسط بإسنادين في أحدهما الحسين بن أبي السري وثقة ابن حبان وضعفه الجمهور وكذلك روح بن أسلم في السند الآخر: وثقة ابن حبان وضعفه الجمهور (مجمع الزوائد/ ح ١٣٧٥٤ / وح ١٣٧٥٥) .

وأخرج الحاكم من طريق مبارك بن فضالة في المستدرك عن أنس قال: (كبرت الملائكة على آدم أربعاء وكبر أبو بكر على النبي ﷺ أربعاء . . . الحديث).

وقال: هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه ، والمبارك بن فضالة من أهل الزلهد والعلم ، بحيث لا يخرج مثله إلا أن الشيختين لم يخرجوا له لسوء حفظه (المستدرك ١/٣٨٥) .

والحديث أخرجه الدارقطني (٧١/٢) وضعف إسناده ، وقال الحاكم: وللهذا الحديث شاهد =

حدثني أحمد بن المقدام ، قال : حدثنا المعتمر بن سليمان ، قال : قال أبي : وزعم قتادة عن صاحب له حدث عن أبي بن كعب قال : قال رسول الله ﷺ : «كان آدم رجلاً طوالاً كأنه نخلة سحوق»^(١) . (١٦٠) .

ثم أخرج حديثاً عن ابن عباس رضي الله عنه قال : آخر ما كتب رسول الله ﷺ على الجنائز أربعاء... الحديث . وفي آخره : وكتب الملائكة على آدم أربعاء) .

ثم قال الحكم : لست من يخفى عليه أن الفرات بن السائب ليس من شرط هذا الكتاب وإنما أخرجه شاهدأ (المستدرك ٣٨٥ / ١) .

قلنا : وهذه طرق تتعارض بعضها ، ولقد صلح المحدث الألباني الحديث في صحيح الجامع الصغير (لما توفي آدم غسلته الملائكة بالماء وتراً وألحدوا له وقالوا : هذه سنة آدم في ولده) (صحيح الجامع الصغير وزيادته ٥٢٠٧ - ١٦٨٠) .

(١) لقد ذكرنا الرواية (١٦٠ / ٢٢٢) في قسم الضعيف وهي من طريق ابن حميد الرازي (متهم بالكذب) وقلما وجدنا له حدثاً في تاريخ الطبرى لم يزد عليه ما لم يروه الثقات ولو بلفظة منكرة واحدة ، وكذلك نجد روايته (١٦٠ / ٢٢٢) في متنه ما هو صحيح وما هو منكر فكيف يقول آدم عليه السلام عند موته لزوجته حواء (إفاني ما لقيت ما لقيت إلا منك ولا أصابني ما أصابني إلا منك) .

وحيث مجاجحة آدم لموسى معروض في الصحاح ولفظه عند البخاري في كتاب التفسير باب «فَلَا يُخْرِجُنَّكُمْ مِنَ الْجَنَّةِ فَشَقَّى» / ح ٤٨٣٨ / عن أبي هريرة مرفوعاً: حاج موسى آدم عليهمما السلام فقال له: أنت الذي أخرجت الناس بذنبك من الجنة وأشقيتهم قال آدم: يا موسى أنت الذي اصطفاك الله برسالاته وبكلامه أتلومني على أمر قد كتبه الله علي قبل أن يخلقني أو قدره علي قبل أن يخلقني ، قال رسول الله ﷺ : فحج آدم موسى». وأما بقية المتن فلها ما يشهد لها:

فقد أورد الحافظ ابن كثير رواية ابن أبي حاتم : حدثنا علي بن الحسن بن إسحاق حدثنا علي بن عاصم عن سعيد بن أبي عروبة عن قتادة عن الحسن عن أبي بن كعب قال : قال رسول الله ﷺ : «إن الله خلق آدم طوالاً كثير شعر الرأس كأنه نخلة سحوق فلما ذاق الشجرة سقط عنه لباسه فأول ما بدا منه عورته فلما نظر إلى عورته جعل يشتت في الجنة فأخذت شعره شجرة فنازعها فناداه الرحمن عز وجل : يا آدم مني نفر . فلما سمع كلام الرحمن قال : يا رب : لا ولكن استحياء». (البداية والنهاية ١٢٧ / ١) . وحسن ابن حجر إسناد ابن أبي حاتم هذا (الفتح ٧ / ١٠) .

ثم ذكر الحافظ ابن كثير رواية ابن عساكر وهي مختصرة بعض الشيء عن رواية ابن أبي حاتم (وانظر مختصر تاريخ دمشق ٤ / ٢٢٢) وهي من طريق محمد بن إسحاق عن الحسن بن ذكوان عن الحسن البصري عن أبي بن كعب مرفوعاً ثم قال ابن كثير :

وكانت وفاته يوم الجمعة ، وقد مضى ذكرنا الرواية بذلك ، ففكر هنا إعادة^(١) . (١٦١) .

ونرجع الآن إلى قصة قايل وخبره وأخبار ولده وأخبار شيث وخبر ولده إذ كنا قد أتينا من ذكر آدم وعدوه إبليس وذكر أخبارهما ، وما صنع الله بإبليس إذ تجبر وتعظم وطغى على ربه عزّ وجلّ فأشر وبطر نعمته التي أنعمها الله عليه ، وتمادى في جهله وغيه ، وسأل ربه النظرة ، فأنظره إلى يوم الوقت المعلوم ، وما صنع الله بآدم صلوات الله عليه إذ خطئ ونسى عهد الله من تعجيل عقوبته له على خططيته ، ثم تغمده إياه بفضله ورحمته ، إذ تاب إليه من زلة فتاب عليه وهداه ، وأنقذه من الضلاله والردى حتى نأيَ على ذكر مَن سلك سبيلاً كلَ واحداً منهمما؛ من تبع آدم عليه السلام على منهاجه وشيعة إبليس والمقتدين به في ضلاله ، إن شاء الله ، وما كان من صنع الله تبارك وتعالى بكل فريق منهم^(٢) . (١٦٢) .

* * *

ثم رواه من طريق سعيد بن أبي عروبة عن قتادة عن الحسن عن يحيى بن ضمرة عن أبي بن كعب عن النبي ﷺ بنحوه وهذا أصح فإن الحسن لم يدرك أبياً . (البداية والنهاية / ١٢٧) .
قلنا: ولكن محمد بن إسحاق مدلّس وقد عنعن هنا ولم يصرح بالتحديث والله أعلم.

ثم قال ابن كثير :
ثم أورده أيضاً من طريق خيثمة بن سليمان الأطربابلي عن محمد بن عبد الوهاب أبي قرصافة العسقلاني عن آدم بن أبي إياس عن شيبان عن قتادة عن أنس مرفوعاً نحوه (البداية والنهاية / ١٢٧) .

قلنا: فهذه روايات ثلاث تشهد لبعضها والله أعلم . ويشهد لبعض المتن ما أخرجه البخاري في صحيحه (كتاب حديث الأنبياء / ح ٣٣٢٦) عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «خلق الله آدم وطوله ستون ذراعاً ثم قال اذهب فسلم على أولئك الملائكة... الحديث» .

(١) صحيح .

(٢) صحيح .

(١٦٤) : قلنا: لقد ذكر الطبرى رحمه الله فى قصص الأنبياء آيات وسوراً فى أخبارهم إلا أنه رحمه الله خلط التفسير بعشرات الأقوال المستقاة من الإسرائيلىيات .

إلا أن ابن كثير فسر تلك الآيات وقلل من استشهاده بتلك الإسرائيليات ولكنه مع ذلك لم يسلم منها.

ونحن هنا نذكر جانباً من تلك الآيات والسور وكما فسرها ابن كثير بعد حذف ما في التفسير من الإسرائيليات وبعد اختصار وتعليق أحياناً قليلة مع تخریج الآثار.

نبیُّ اللہِ آدَمْ
عَلَيْهِ السَّلَامُ

[خلق آدم عليه السلام]:

قال الله تعالى: ﴿ وَإِذَا قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَخَنْجُونَ سَبِيلَكَ وَنَقْدِسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا نَعْلَمُونَ ﴾ وَعَلَمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلُّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلَائِكَةَ فَقَالَ أَلَيْسُ فِي أَسْمَاءٍ هُوَلَاءِ إِنْ كُنْتُمْ صَدِيقِنَ ﴾ فَالْوَاسِعُونَ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلِمْنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَلِيمُ الْمُرْكِبُ ﴾ قَالَ يَكْتَمِدُ أَنْتَ هُنْمَنْ بِاسْمِهِمْ فَلَمَّا أَبْنَاهُمْ يَأْتِيَهُمْ قَالَ آدَمُ أَقْلِلْ لَكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ عَيْبَ السَّوْرَتِ وَالْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تَبَدَّلُونَ وَمَا كُنْتُ تَكْنُونُ ﴾ وَإِذْ قَنَّا لِلْمَلَائِكَةَ أَسْجَدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِنَّلِيسَ أَبِي وَأَسْتَكَرَ وَكَانَ مِنَ الْكُفَّارِ ﴾ وَلَمَّا يَكْتَمِدُ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ وَكُلُّا مِنْهَا رَعْدًا إِيَّشَ شَتَّنَا وَلَا نَقْرِيَاهُ هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَكَوَنُوا مِنَ الظَّالِمِينَ ﴾ فَأَزَّهُمُ الْشَّيْطَانُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مَمَّا كَانَا فِيهِ وَلَمَّا آهَمْطُوا بِصُكُرٍ لِعَصِّ عَدُوٌّ وَلَكُرْ في الْأَرْضِ مُسْفَرٌ وَمَعْنَى إِلَيْهِنِ ﴾ فَلَقَقَ آدَمُ مِنْ زَيْدِهِ كَلِكَتْ قَنَابَ عَيْبَهُ إِنَّهُ هُوَ الْوَلَّابُ الْأَرْجِيمُ ﴾ فَلَمَّا آهَمْطُوا مِنْهَا جَيْعَانًا يَأْتِيَهُمْ تَمَّيْ هُدَى فَمَنْ تَعَمَّلْ هُدَى إِلَّا حَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْرُنُونَ ﴾ وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِعِيَّاتِنَا أُفْتَكَ أَعْصَبُ النَّارِ هُنْ فِيهَا حَلَّدُونَ ﴾ [البقرة: ٣٩ - ٤٠].

وقال تعالى: ﴿ إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ حَلَقَهُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُمْ كُنْ فَيَكُونُ ﴾ [آل عمران: ٥٩] ، وقال تعالى: ﴿ يَكَبِّرُ إِنَّا أَنَّا شَاءَ لَوْنَ بِهِ وَالْأَرْجَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا ﴾ [النساء: ١]

وقال تعالى: ﴿ يَكَبِّرُ إِنَّا أَنَّا شَاءَ إِنَّا حَلَقْنَاهُمْ مِنْ ذَكْرِ وَأَنْشَى وَجَعَلْنَاهُمْ شَعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارِفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَنْتُمْ كُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَيْرٌ ﴾ [الحجرات: ١٣] . وقال تعالى: ﴿ هُوَ الَّذِي حَلَقَهُمْ مِنْ نَفْسٍ وَجَدَهُ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيُسْكِنُ إِلَيْهَا... ﴾ [الأعراف: ١٨٩].

وقال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَاهُمْ مِنْ صُورَتِكُمْ فَلِلْمَلَائِكَةَ أَسْجَدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِنَّلِيسَ لَمْ يَكُنْ مِنَ السَّاجِدِينَ ﴾ قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلَا تَسْجُدُ إِذْ أَرْتُكَ قَالَ إِنَّا حِيدَرٌ مِنْهُ خَلَقْنِي مِنْ طِينٍ ﴾ قَالَ أَفَهِطَ مِنْهَا نَعْمًا يَكُونُ لَكَ أَنْ تَكَبَّرَ فِيهَا فَأَخْرَجَ إِنَّكَ مِنَ الْمُنْذَنِينَ ﴾ قَالَ أَنْظَرْنِي إِلَى يَوْمِ يَعْثُونَ ﴾ قَالَ إِنَّكَ مِنَ الْمُظْرِينَ ﴾ قَالَ فِيمَا أَغْوَيْتَنِي لِأَقْعُدَنِ لَهُمْ صَرْطَكَ الْمُسْتَقِيمَ ﴾ ثُمَّ لَمَّا تَبَعَهُمْ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْنَهُمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَنْ شَمَائِلِهِمْ وَلَا يَجِدُ أَكْرَهُمْ شَكِيرَنَ ﴾ قَالَ أَخْرُجْ مِنْهَا مَذْهُورًا لَمَنْ يَعْكِ مِنْهُمْ لَأَمَلَانَ جَهَنَّمَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ وَيَكْتَمِدُ آدَمُ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ فَكَلَّا مِنْ حِيثُ شَتَّنَا وَلَا نَقْرِيَاهُ هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَكَوَنُوا مِنَ الظَّالِمِينَ ﴾

فَوَسُوسَ لَهُمَا الشَّيْطَنُ لِيُبَدِّي لَهُمَا مَا وُرِيَ عَنْهُمَا مِنْ سَوْءَاتِهِمَا وَقَالَ مَا هَذَا كَارِثَةً كَعَنْ هَذِهِ الشَّجَرَةِ إِلَّا أَنْ تَكُونَا مَلَكِيْنَ أَوْ تَكُونَا مِنَ الْخَلِيلِينَ [٤٦] وَقَاسَمُهُمَا إِنِّي لِكُمَا لَيْنَ الْتَّصْبِيحَتِ [٤٧] فَدَلَّهُمَا بِغُرُورٍ فَلَمَّا دَافَقَ الشَّجَرَةَ بَدَّتْ لَهُمَا سَوْءَاتِهِمَا وَطَفِقَا يَحْصِفَانَ عَلَيْهِمَا مِنْ وَرَقِ الْجَنَّةِ وَنَادَاهُمَا رَبُّهُمَا أَنْ أَنْهِكُمَا عَنْ تِلْكُمَا الشَّجَرَةِ وَأَقْلِ لَكُمَا إِنَّ الْشَّيْطَنَ لِكُمَا عَدُوٌّ مُّنِيبٌ [٤٨] فَالْأَرِيَادُ طَلَمْتُمَا أَفْسَنَا وَإِنَّمَا تَقْفِرُكُمْ وَرَحِمْتُمَا تَكُونُ مِنَ الْخَسِيرِينَ [٤٩] قَالَ أَهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقْرٌ وَمَنْعَ إِلَى حِينِ [٥٠] قَالَ فِيهَا تَحْيَوْنَ وَفِيهَا تَمُوْنُ وَمِنْهَا تَخْرُجُونَ [٥١] (الأعراف : ١١ - ٢٥).

كما قال في الآية الأخرى : « مِنْهَا حَلَقْتُمُ وَفِيهَا تَعِدُّكُمْ وَمِنْهَا تُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَى » [طه : ٥٥] وقال تعالى : « وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَنَ مِنْ صَلْصَلٍ مِنْ حَلَّ مَسْنُونٍ [٥٢] وَلِبَانٍ خَلَقْتُهُ مِنْ قَبْلِ مِنْ نَارٍ الْسَّمُوْرٍ [٥٣] وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي خَلَقْتُ شَكْرًا مِنْ صَلْصَلٍ مِنْ حَلَّ مَسْنُونٍ [٥٤] فَإِذَا سَوَّتْهُ وَفَصَحَّ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَعَمَّوْا لَمَسْجِدَيْنِ [٥٥] فَسَجَدَ الْمَلَائِكَةُ كَعُمُّهُمْ أَجَعُونَ [٥٦] إِلَّا إِلَيْسَ أَنْ يَكُونُ مَعَ السَّاجِدِينَ [٥٧] قَالَ يَتَبَلِّسُ مَا لَكَ أَلَا تَكُونُ مَعَ السَّاجِدِينَ [٥٨] قَالَ لَمْ أَكُنْ لِأَسْجُدُ لِشَرِّ خَلْقَتُهُ مِنْ صَلْصَلٍ مِنْ حَلَّ مَسْنُونٍ [٥٩] قَالَ فَأَخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ [٦٠] وَإِنَّ عَيْنَكَ الْأَعْنَاءَ إِلَى يَوْمِ الْحِسْنَى [٦١] قَالَ رَبِّيْ فَإِنَّمَا تَنْظَرِنِي إِلَى يَوْمِ يَعْشُونَ [٦٢] قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ النَّاظِرِينَ [٦٣] إِلَى يَوْمِ الْوَقْتِ الْعَلُومِ [٦٤] قَالَ رَبِّيْ مَا أَغْرِيَنِي لِأَرْتِنَ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَلَا غُرَبَّهُمْ أَجْمَعِينَ [٦٥] إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُحَاصِّنِ [٦٦] قَالَ هَذَا صَرْطٌ عَلَى مُسْتَقِيمٍ [٦٧] إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَنٌ إِلَّا يَعْبُدُهُمْ أَجْمَعِينَ [٦٨] وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمَوْعِدُهُمْ أَجْمَعِينَ [٦٩] لَهَا سَبْعَةُ أَبْوَابٍ لِكُلِّ بَابٍ مِنْهُمْ جُرَءٌ مَّقْسُومٌ » [الحجر : ٤٤ - ٤٦].

وقال تعالى : « وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةَ أَسْجُدُوا لِأَدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِلَيْسَ قَالَ أَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِبِّسًا [٦١] قَالَ أَرَأَيْكَ هَذَا الَّذِي كَرَمْتَ عَلَيْهِ لِيْنَ أَخْرَيْنَ إِنِّي يَوْمَ الْقِيَمَةِ لَأَحْتِكَ ذُرِيَّتَهُ إِلَّا قَلِيلًا [٦٢] قَالَ أَذْهَبْ فَمَنْ يَعْكِ مِنْهُمْ فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَرَاؤُكُمْ جَرَاءَ مَوْفُورٍ [٦٣] وَاسْتَفِرْ مِنْ أَسْتَطَعْ مِنْهُمْ بِصُوتِكَ وَأَجِلْ عَلَيْهِمْ بِخَلِيكَ وَرَجِلِكَ وَشَارِكُمْ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأُولَادِ وَعَدُهُمْ وَمَا يَعْدُهُمُ الْشَّيْطَنُ إِلَّا عُرُورًا [٦٤] إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَنٌ وَكَفَنَ بِرَبِّكَ وَكَيْلًا » [الإسراء : ٦٥ - ٦٦] ، وقال تعالى : « وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةَ أَسْجُدُوا لِأَدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِلَيْسَ كَانَ مِنَ الْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ أَفْسَخَذُونَهُ وَدَرِيَّهُ أَوْلِيَّآءِ مِنْ دُونِهِمْ لَكُمْ عَدُوٌّ إِلَّا يَسُ لِلظَّالِمِينَ بَدَلًا » [الكهف : ٥٠] ، وقال تعالى : « وَلَقَدْ عَهَدْنَا إِلَى مَادَمَ مِنْ قَبْلِ فَنَسِيَ وَلَمْ يَنْدِلْ لَهُ عَزْمًا [٦٧] وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةَ أَسْجُدُوا لِأَدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِلَيْسَ أَبِي [٦٨] قَفْنَا يَقَادُمَ إِنَّ هَذَا عَدُوٌّ لَكَ وَلِرَجِلِكَ فَلَا يُخْرِجُنَّكُمْ مِنَ الْجَنَّةِ فَنَشَقَنَ [٦٩] إِنَّ لَكَ الْأَمْوَالَ وَلَا تَعْرِي [٧٠] وَأَنَّكَ لَا تَنْظُمُ فِيهَا وَلَا تَصْحِنَ [٧١] فَوَسُوسَ إِلَيْهِ الْشَّيْطَنُ قَالَ يَنْكَدُهُمْ أَدْلُكَ عَلَى شَجَرَةِ الْمَذَلَّ وَمُلْكُ لَا يَبْلِي [٧٢] فَأَكَلَا مِنْهَا فَبَدَّتْ لَهُمَا سَوْءَاتِهِمَا وَطَفِقَا يَحْصِفَانَ عَلَيْهِمَا وَرَقِ الْجَنَّةِ وَعَصَيَّ أَدَمَ رَبِّهِ فَزَوَّدَهُمْ أَجْبَهَهُ رَبِّهِ فَنَابَ عَلَيْهِ وَهَدَى [٧٣] قَالَ أَهْبِطَا مِنْهَا جَيْعاً بَعْضَكُمْ لِيَعْصِي عَدُوٌّ فَإِنَّمَا يَأْتِيَنَّكُمْ مَمِّي هُدَى فَمَنْ أَتَيْ هَذَا دَائِي فَلَا يَضْلُلُ وَلَا يَشْقَى [٧٤] وَمَنْ أَغْرَى عَنْ ذُكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً صَنَّاكَ وَخَشَرَهُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ أَعْمَى [٧٥] قَالَ رَبِّيْ لِمَ حَشَرْتَيْ أَعْمَى وَقَدْ كُنْتُ بَصِيرًا [٧٦] قَالَ كَذَلِكَ أَنْتَكَ أَيْتُنَا فَسِينَاهَا وَكَذَلِكَ أَلْيَوْمَ نَسِيَ [٧٧] (طه : ١١٥ - ١٢٦).

وقال تعالى : ﴿ قُلْ هُنَّا بُشَّرٌ عَظِيمٌ ﴾ ١٧٤ أَتَمُّ عَنْهُ مُعْرِضُونَ ١٧٥ مَا كَانَ لِي مِنْ عَلِيهِ يَالْمَلِإِ الْأَكْلَ إِذَا يَخْصِمُونَ ١٧٦ إِنْ يُوحَى إِلَيَّ إِلَّا أَنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُّبِينٌ ١٧٧ إِذَا قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي خَلَقْتِ بَشَرًا مِنْ طِينٍ ١٧٨ فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَفَتَحْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُ سَجِدِينَ ١٧٩ فَسَجَدَ الْمَلَائِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ ١٨٠ إِلَّا إِنِّي لَسْ أَسْتَكِنُ وَكَانَ مِنَ الْكُفَّارِ ١٨١ قَالَ يَكْتُلِيلِي شَمْسٌ مَا مَنَعَكَ أَنْ تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتَ يَكْرَبَتْ أَمْ كُنْتَ مِنَ الظَّالِمِينَ ١٨٢ قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ حَلَقْتِي مِنْ أَلَّا وَحَلَقْتُمْ مِنْ طِينٍ ١٨٣ قَالَ فَأَخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَبِّمْ ١٨٤ وَإِنَّ عَلَيْكَ لَعْنَتِي إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ ١٨٥ قَالَ رَبِّي فَأَنْظَرْنِي إِلَى يَوْمِ يُبَعَّثُونَ ١٨٦ قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنْظَرِينَ ١٨٧ إِلَى يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُورِ ١٨٨ قَالَ فَعَزِيزِكَ لَأَعْنِيْنَهُمْ أَجْمَعِينَ ١٨٩ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخَاصِبِ ١٩٠ قَالَ فَأَلْحَقْ وَالْلَّقِ أَوْلَى ١٩١ لِأَنَّمَانَ جَهَنَّمَ مِنَكَ وَمَنْ تَعَكَّمْ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ ١٩٢ قَلَّ مَا أَسْفَلْكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَنْجَرٍ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُكَفِّفِينَ ١٩٣ إِنْ هُوَ إِلَّا ذَكْرٌ لِلْعَالَمِينَ ١٩٤ وَلَنَعْلَمَ نَبَأً بَعْدَ حِينٍ ١٩٥ [ص : ٦٧ - ٨٨]

فهذا ذكر هذه القصة من مواضع متفرقة من القرآن ، وقد تكلمنا على ذلك كله في التفسير ، ولنذكر هنا مضمون ما دلت عليه هذه الآيات الكريمة ، وما يتعلق بها من الأحاديث الواردة في ذلك عن رسول الله ﷺ ، والله المستعان . فأخبر تعالى أنه خاطب الملائكة قائلاً لهم : ﴿ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيقَةً ﴾ أعلم بما يريد أن يخلق من آدم وذرته الذين يخلف بعضهم بعضاً كما قال : ﴿ وَهُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلِقَتِ الْأَرْضَ ﴾ ، وقال تعالى : ﴿ وَيَعْلَمُكُمْ حُلْكَاتَ الْأَرْضِ ﴾ ، فأخبرهم بذلك على سبيل التنويه بخلق آدم وذرته ، كما يخبر بالأمر العظيم قبل كونه ، فقالت الملائكة سائلين على وجه الاستكشاف والاستعلام عن وجه الحكمة ، لا على وجه الاعتراض والتنتقيص لبني آدم والحسد لهم ، كما قد يتوهمه بعض جهله المفسرين ، قالوا : ﴿ أَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيُنَتَّفِكُ أَلْيَامَهُ وَنَحْنُ نَسِيْحُ مُحَمَّدِكَ وَنَفِيدُكَ لَكَ ﴾ أي : نعبدك دائماً لا يعصيك منا أحد ، فإن كان المراد بخلق هؤلاء أن يبدوك ، فها نحن أولاء لا نفتر ليلاً ولا نهاراً . ﴿ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ أي أعلم من المصلحه الراجحة في خلق هؤلاء ما لا تعلمون ، أي سيوجد منهم الأنبياء والمرسلون والصديقون والشهداء والصالحون .

ثم بين لهم شرف آدم عليهم في العلم ، فقال : ﴿ وَعَلَمَ إِدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا ﴾ . قال ابن عباس : هي هذه الأسماء التي يتعارف بها الناس : إنسان ، ودابة ، وأرض ، وسهل ، وبحر ، وجبل ، وجمل ، وحمار ... وأشباه ذلك من الأمم وغيرها .

وقال مجاهد : علّمه اسم الصحفة ، والقدر ، حتى الفسفة والفسية . وقال مجاهد : علّمه اسم كل دابة ، وكل طير وكل شيء . وكذا قال سعيد بن جبير وقتادة وغير واحد . وقال الريبع : علّمه أسماء الملائكة . وقال عبد الرحمن بن زيد : علّمه أسماء ذريته . وال الصحيح : أنه علّمه أسماء الذوات وأفعالها مكبرها ومصغرها ، كما أشار إليه ابن عباس رضي الله عنهما .

وذكر البخاري هنا ما رواه هو وسلم من طريق سعيد وهشام ، عن قتادة ، عن أنس بن =

مالك ، عن رسول الله ﷺ قال: «يُجمع المؤمنون يوم القيمة فيقولون: لو استشفعنا إلى ربنا ، فيأتون أدم فيقولون: أنت أبو البشر ، خلقك الله بيده ، وأسجد لك ملائكته ، وعلّمك أسماء كل شيء». . وذكر تمام الحديث (صحيح البخاري / ح ٧٤١٠) ومسلم (٣٢٢ / ٨٤). (١/١).

﴿إِنَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلَائِكَةِ فَقَالُوا إِنَّهُمْ يُغَوِّي بِأَسْمَاءَ هَؤُلَاءِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ .
﴿فَأَلَوْلَا سَبَحْتُكَ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ﴾ أي سبحانه أن يحيط أحد بشيء من علمك من غير تعليمك ، كما قال **﴿وَلَا يُجِيبُونَ بِئْنَ وَمَنْ عَلِمَهُ إِلَّا بِمَا شَاءَ﴾** **﴿فَالَّذِي يَكَادُمُ أَنْتَهُمْ بِأَسْمَاءِهِمْ فَلَمَّا آتَيْتَهُمْ بِأَسْمَاءِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَفْلَكُمْ إِنِّي أَغْلَمُ عَيْبَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تَبْدُونَ وَمَا كُنْتُمْ تَكْنُونُ﴾** أي أعلم السر كما أعلم العلانية.

وقيل: إن المراد بقوله: **«وَأَعْلَمُ مَا تَبْدُونَ»** ما قالوا: **«أَبْجَعُ فِيهَا مَنْ يُقْسِدُ فِيهَا»** وبقوله: **«وَمَا كُنْتُمْ تَكْنُونُ»** المراد بهذا الكلام إبليس حين أسرَ الكير والنفاسة على أدم عليه السلام ، قاله سعيد بن جبير ومجاحد والسدي والضحاك والثوري واختاره ابن جرير .
وقوله: **«وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةَ أَسْجُدُوا لِإِدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِلَيْسَ أَنَّ وَاسْتَكْبَرَ﴾** هذا إكرام عظيم من الله تعالى لأدم حين خلقه بيده ، ونفح فيه من روحه ، كما قال: **«فَإِذَا سَوَّيْتَهُ وَنَفَخْتَ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ﴾** فهذه أربع تشريفات ، خلقه بيده الكريمة ، ونفح فيه من روحه ، وأمر الملائكة بالسجود له ، وتعليمهم أسماء الأشياء .

ولهذا قال له موسى الكليم حين اجتمع هو وإياه في الملا الأعلى وتناظرا كما سيأتي: «أنت أدم أبو البشر الذي خلقك الله بيده ، ونفح فيك من روحه ، وأسجد لك ملائكته ، وعلّمك أسماء كل شيء».

وقال في الآية الأخرى: **«وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ مِّمَّ صَوَرْنَاكُمْ مِّمَّ كُنَّا لِلْمَلَائِكَةَ أَسْجُدُوا لِإِدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِلَيْسَ لَمْ يَكُنْ مِّنَ السَّاجِدِينَ** ﴿٦﴾ **قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلَا تَسْجُدُ إِذْ أَرْتُكَ قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ**﴾ .

ومعنى هذا أنه نظر نفسه بطريق المقايسة بينه وبين آدم ، فرأى نفسه أشرف من آدم فامتنع من السجود له ، مع وجود الأمر له ولسائر الملائكة بالسجود . والقياس إذا كان مقابلاً بالنص كان فاسد الاعتبار ، ثم هو فاسد في نفسه ، فإن الطين أفعى وخير من النار ، لأن الطين فيه الرزانة والحلل والأناة والنحو ، والنار فيها الطيش والخفة والسرعة والإحراق .

ثم إن آدم شرفه الله بخلقه له بيده ونفحه فيه من روحه ، ولهذا أمر الملائكة بالسجود له ، كما قال: **«وَلَذِّ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي خَلَقْتُ بَشَرًا مِّنْ صَلْصَلٍ مِّنْ حَمَّا مَسْتَوْنَ** ﴿٦﴾ **فَإِذَا سَوَّيْتَهُ وَنَفَخْتَ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ** ﴿٧﴾ **فَسَجَدَتِ الْمَلَائِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ** ﴿٨﴾ **إِلَّا إِلَيْسَ أَنَّهُ أَنْ يَكُونُ مَعَ السَّاجِدِينَ** ﴿٩﴾ **قَالَ يَكُلُّ إِلِيَّسُ مَا لَكَ أَلَا تَكُونُ مَعَ السَّاجِدِينَ** ﴿١٠﴾ **قَالَ لَمْ أَكُنْ لَّا سَجَدْ لِي شَرِّ خَلْقِهِ مِنْ صَلْصَلٍ مِّنْ حَمَّا مَسْتَوْنَ** ﴿١١﴾ **قَالَ فَأَنْجِحْ مِنْهَا فَلَمَّا رَجَعَ** ﴿١٢﴾ **وَإِنَّ عَيْنَكَ اللَّعْنَةُ إِنِّي بِوَرِّ الَّذِينَ** استحق هذا من الله =

تعالى لأنه استلزم تنصبه لآدم وازدراءه به ، وترفعه عليه ، مخالفة الأمر الإلهي ، ومعاندة الحق في النص على آدم على التعين .

وشعر في الاعتذار بما لا يجدي عنه شيئاً ، وكان اعتذاره أشد من ذنبه ، كما قال تعالى في سورة سبأ : « وَإِذْ قُلْنَا لِلملائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِلِيَّسَ قَالَ إِنَّمَّا سَجَدَ لِمَنْ خَلَقَ طِينًا » [١] قَالَ أَرْءَيْتَكَ هَذَا الَّذِي كَرَّمْتَ عَلَيْهِ أَخْرَيْنَ إِلَيْهِ أَتَقِيمَةً لِأَحْتِنَكَ ذُرْيَتَهُ إِلَّا قَلِيلًا » [٢] قَالَ أَذَهَبْتَ فَمَنْ يَعْكَ مِنْهُمْ فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَرَاؤُكَ جَرَاءً مَوْفُورًا » [٣] وَاسْتَفَرْزَ مِنْ أَسْطَعَتَهُمْ بِصَوْتِكَ وَأَجْلَبْتَ عَلَيْهِمْ بِخَلِيكَ وَرَحِيلِكَ وَشَارِكَهُمْ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ وَعَدْهُمْ وَمَا يَعْدُهُمُ الشَّيْطَنُ إِلَّا عَرُودًا » [٤] إِنَّ عِبَادِي لِيَسْ لِكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ وَكَفَ بِرِبِّكَ وَسَكِيلًا » [٥] .

وقال في سورة الكهف : « وَإِذْ قُلْنَا لِلملائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِلِيَّسَ كَانَ مِنَ الْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ أَفَتَسْجُدُونَهُ وَذُرْيَتَهُ أَوْلِيَّكُمْ مِنْ دُوْيِيَّ » أي خرج عن طاعة الله عمداً وعناداً واستكباراً عن انتثال أمره ، وما ذاك إلا لأنه خان طبعه ، ومادته الخبيثة أخرج ما كان إليه ، فإنه مخلوق من نار كما قال ، وكما جاء في صحيح مسلم عن عائشة عن رسول الله ﷺ قال : « خلقت الملائكة من نور ، وخلقت الجنان من مارج من نار ، وخلق آدم مما وصف لكم » .

قال الحسن البصري : لم يكن إيليس من الملائكة طرفة عين قط .

وقال في سورة ص : « إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلملائِكَةِ إِنِّي خَلَقْتُ بَشَرًا مِنْ طِينٍ » [٦] فَإِذَا سَوَيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُ سَجَدِينَ » [٧] فَسَجَدَ الْمَلَائِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ » [٨] إِلَّا إِلِيَّسَ أَسْتَكَرَ وَكَانَ مِنَ الْكُفَّارِينَ » [٩] قَالَ يَتَأْنِيْسَ مَا مَنَعَكَ أَنْ تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتَ يَدِيًّا أَسْتَكَرْتَ أَمْ كُنْتَ مِنَ الْعَالَمِينَ » [١٠] قَالَ أَنَا أَخْبَرُ مِنْهُ خَلْقَتِي مِنْ تَأْرِيْخَهُمْ مِنْ طِينٍ » [١١] قَالَ فَأَخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ لَعْنِي إِنِّي بَوْرَ الْأَلَيْنِ » [١٢] قَالَ رَبِّي فَأَنْظِرْنِي إِلَيْكَ سَوْيَتِهِمْ وَنَفَخْتُ فِيهِمْ رُوحَهِمْ يُبَعْثُرُونَ » [١٣] قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنْظَرِينَ » [١٤] إِنَّمَا يَوْمُ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ » [١٥] قَالَ فَعِزِيزِكَ لَأَغْرِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ » [١٦] إِلَّا عِبَادُكَ مِنْهُمُ الْمُحَلَّصِينَ » [١٧] قَالَ فَأَلْقِنْ وَالْحَقَّ أَقْوَلَ » [١٨] لِأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنْكَ وَمَنْ يَعْكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ » [١٩] [ص : ٧١ - ٨٥] .

وقال في سورة الأعراف : « قَالَ فِيمَا أَغْوَيْتَنِي لَأَعْدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ » [٢٠] ثُمَّ لَأَتِنَّهُمْ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ حَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَنْ شَمَائِلِهِمْ وَلَا يَجِدُ أَثْرَكُهُمْ شُكْرِكَ » أي بسبب إغرائك كل جهه منهم ، فالسعيد من حالقه والشقي من اتبعه . وقال الإمام أحمد : حدثنا هاشم بن القاسم ، حدثنا أبو عقيل - هو عبد الله بن عقيل الثقفي - حدثنا موسى بن المسيب ، وعن سالم بن أبي الجعد ، عن سبرة بن أبي الفاكه ، قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « إن الشيطان قعد لابن آدم بأطريقه » وذكر الحديث المعتبر .

وقد اختلف المفسرون في الملائكة المأمورين بالسجود لآدم : أهم جميع الملائكة كما دل عليه عموم الآيات؟ وهو قول الجمهور . أو أن المراد بهم ملائكة الأرض ، كما رواه ابن جرير من طريق الصحاح عن ابن عباس؟ وفيه انقطاع ، وفي السياق نكارة ، وإن كان بعض المتأخرین قد رجحه . ولكن الأظهر من السياقات الأولى ، ويدل عليه الحديث : « وأسجد له =

ملائكته» وهذا عموم أيضاً... والله أعلم. قوله تعالى لإبليس: «فَأَخْرِجْ مِنْهَا» دليل على أنه كان في السماء فأمر بالهبوط منها ، والخروج من المنزلة والمكانة التي كان قد نالها بعبادته ، وتشبهه بالملائكة في الطاعة والعبادة ، ثم سلب ذلك بكراه وحسده ومخالفته لربه ، فأهبط إلى الأرض مذموماً مدحوراً.

وأمر الله آدم عليه السلام أن يسكن هو وزوجته الجنة فقال: «وَقُلْنَا يَتَعَادُمُ أَسْكُنْ أَنَّ رَوْجُوكَ الْجَنَّةَ وَكُلَّا مِنْهَا عَدَّاحِيْتُ شَتَّنَا وَلَا نَفَرَاهُ شَجَرَةَ فَنَكُونَاهُ مِنَ الظَّالِمِينَ». وقال في الأعراف: «فَالآنْجَى مِنْهَا مَدْمَدَهُ وَمَادَمَحُورًا لَّئِنْ يَعْكِ مِنْهُمْ لَآمَلَانَ جَهَنَّمَ مِنْكُمْ جَمِيعَيْنَ» . وَيَتَعَادُمُ أَسْكُنْ أَنَّ رَوْجُوكَ الْجَنَّةَ فَكُلَّا مِنْ حَيْثُ شَتَّنَا وَلَا نَفَرَاهُ شَجَرَةَ فَنَكُونَاهُ مِنَ الظَّالِمِينَ». وقال تعالى: «وَلَذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةَ أَسْجُدُوا لِأَدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِلَيْسَ أَبَنَ [١] قُلْنَا يَتَعَادُمُ إِنَّ هَذَا عَدُوُّكَ وَلِرَوْجُوكَ فَلَا يَخْرُجُوكَ مِنَ الْجَنَّةَ فَسَقَى [٢] إِنَّ لَكَ الْأَجْيَوْعَ فِيهَا وَلَا تَنْزَرِي [٣] وَإِنَّكَ لَا تَنْظَمُوا فِيهَا وَلَا تَنْصُحُونَ» [طه: ١١٦ - ١١٩].

وسياق هذه الآيات يقتضي: أن خلق حواء كان قبل دخول آدم إلى الجنة لقوله: «يَتَعَادُمُ أَسْكُنْ أَنَّ رَوْجُوكَ الْجَنَّةَ» وهذا قد صرخ به إسحاق بن يسار ، وهو ظاهر هذه الآيات.

وقد اختلف المفسرون في قوله تعالى «وَلَا نَفَرَاهُ شَجَرَةَ» وقد أبهم الله ذكرها وتعيينها ولو كان في ذكرها مصلحة تعود إلينا كما في غيرها من المحال التي تبهم في القرآن (رحم الله ابن كثير فكم من الدرر في تفسيره).

والجمهور على أنها هي التي في السماء وهي جنة المأوى ، لظاهر الآيات والأحاديث كقوله تعالى: «وَقُلْنَا يَتَعَادُمُ أَسْكُنْ أَنَّ رَوْجُوكَ الْجَنَّةَ» والألف واللام ليست للعموم ولا لمعهود لفظي ، وإنما تعود على معهود ذهني ، وهو المستقر شرعاً من جنة المأوى. وكقول موسى عليه السلام لأدم عليه السلام: «علام أخرجتنا ونفسك من الجنة...؟» الحديث كما سيأتي الكلام عليه.

وروى مسلم في صحيحه من حديث أبي مالك الأشجعي - اسمه سعد بن طارق - عن أبي حازم سلمة بن دينار ، عن أبي هريرة ، وأبي مالك عن ربعي ، عن حذيفة قالا: قال رسول الله ﷺ: «يَجْمِعُ اللَّهُ النَّاسَ فِي قَوْمٍ الْمُؤْمِنُونَ حِينَ تَرْلُفُ لَهُمُ الْجَنَّةَ . فَيَأْتُونَ آدَمَ فَيَقُولُونَ: يَا أَبَانَا . اسْفَنْحُ لَنَا الْجَنَّةَ ، فَيَقُولُ: وَهُلْ أَخْرَجْكُمْ مِنَ الْجَنَّةَ إِلَّا خَطِيْبَةَ أَبِيكُمْ». فلما كان منه ما كان من أكله من الشجرة التي نهى عنها ، أهبط إلى أرض الشقاء والتعب ، والنصب والكدر ، والسعى والنكد ، والابتلاء والاختبار والامتحان ، واختلاف السكان ديناً وأخلاقاً وأعمالاً ، وقصوداً وإرادات ، وأقوالاً وأفعالاً ، كما قال تعالى: «وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْفِرٌ وَمَنْعِتُ».

وقوله تعالى: «فَأَرَأَيْهُمَا الشَّيْطَانُ عَنْهَا» أي عن الجنة «فَأَنْجَرَهُمَا مَمَّا كَانَا فِيهِ» أي من النعيم والنصرة والسرور ، إلى دار التعب والكدر والنكد ، وذلك بما وسوس لهما وزينه في صدورهما ، كما قال تعالى: «فَوَسَسَ لَهُمَا الشَّيْطَانُ لِيُبَدِّيَ لَهُمَا مَا وُرِيَ عَنْهُمَا مِنْ سَوْءَاتِهِمَا وَقَالَ مَا

ذكر الأحداث التي كانت في أيام بني آدم

من لدن ملك شيث بن آدم إلى أيام يرد

قال أبو جعفر : وهذا القول غير بعيد من الحق ; وذلك أنه قول قد رُوي عن

هَنْكَا رَبِّكَا عَنْ هَذِهِ الشَّجَرَةِ إِلَّا أَنْ تَكُونَا مَلَكِيْنَ أَوْ تَكُونَا مِنَ الْخَلِيلِيْنَ يقول : ما نهاكم عن أكل هذه الشجرة إلا أن تكونا ملكين أو تكونا من الخالدين ، أي لو أكلتما منها لصرتما كذلك . **وَقَاسِمَهُمَا** أي حلف لهما على ذلك **(إِنِّي لِكُلِّ أَيْمَانِ النَّصِيْحَيْنِ)** كما قال في الآية الأخرى : **فَوَسَوَسَ إِلَيْهِ الشَّيْطَنُ قَالَ يَتَأَدَّمُ هَلْ أَدْلُكَ عَلَى شَجَرَةِ الْخَلْدِ وَمَلِكٍ لَا يَبْتَلِي** أي هل أدلوك على الشجرة التي إذا أكلت منها حصل لك الخلد فيما أنت فيه من النعيم ، واستمررت في ملك لا يبيد ولا ينقضي ؟ وهذا من التغريب والتزوير والإخبار بخلاف الواقع .

والمحضود أن قوله : شجرة الخلد التي إذا أكلت منها خلدت ، وقد تكون هي الشجرة التي قال الإمام أحمد : حدثنا عبد الرحمن بن مهدي ، حدثنا شعبة ، عن أبي الصحاكي ، سمعت أبا هريرة يقول : قال رسول الله ﷺ : « إن في الجنة شجرة يسير الراكب في ظلها مئة عام لا يقطعها : شجرة الخلد » ورواه أيضاً عن غندر وحجاج ، عن شعبة ورواه أبو داود والطیالسي في مسنده عن شعبة أيضاً به . قال غندر : قلت لشعبة : هي شجرة الخلد؟ قال : ليس فيها هي . تفرد به أحمد . وقوله : **(فَلَلَّهُمَّا يُفْرُرُ فَلَمَّا ذَاقَ الشَّجَرَةَ بَدَّتْ لَهُ سَوْءَ ثَهْمًا وَطَفِقَ يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِنْ وَرَقِ الْجَنَّةِ)** ، كما قال في طه : **(فَأَكَلَ مِنْهَا فَنَدَّتْ لَهُمَا سَوْءَ ثَهْمًا وَطَفِقَ يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِنْ وَرَقِ الْجَنَّةِ)** .

(وَنَادَاهُمَا رَبُّهُمَا أَلَّا أَنْهِ كُمَا عَنْ تِلْكُمَا الشَّجَرَةِ وَأَقْلَ لَكُمَا إِنَّ الشَّيْطَنَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُئِنِّ ﴿١﴾ **فَالآرَبَنَا طَامِنَا أَنْفَسَنَا وَإِنَّ لَهُ تَغْيِيرَ لَنَا وَتَرْحِمَنَا لَكَوْنَنَ مِنَ الْخَسِيرِيْنَ** » .

وهذا اعتراف ورجوع إلى الإنابة ، وتذلل وخضوع واستكانة ، وافتقار إليه تعالى في الساعة الراهنة ، وهذا السر ما سرى في أحد من ذريته إلا كانت عاقبته إلى خير في دنياه وأخراه **« قَالَ أَهِيْطُوا بِعَضْكُمْ لِيَعْصِيْ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقْرٌ وَمَنْعٌ إِلَى جِنِّ** » وهذا خطاب لأدم وحواء وإبليس .

وقوله : **(فَلَلَّهُقَّ إَادُمْ مِنْ زَرِيْهِ كَلِمَتِ فَنَابَ عَلَيْهِ إِنَّهُ هُوَ الْنَّوَابُ الْأَرْجُمُ)** قيل هي قوله : **(رَبَّنَا طَامِنَا أَنْفَسَنَا وَإِنَّ لَهُ تَغْيِيرَ لَنَا وَتَرْحِمَنَا لَكَوْنَنَ مِنَ الْخَسِيرِيْنَ** » روى هذا عن مجاهد ، وسعيد بن جبير ، وأبي العالية ، والرابع بن أنس ، والحسن ، وقتادة ، ومحمد بن كعب ، وخالد بن معدان ، وعطاء الخراساني ، وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم .
وأ والله تعالى أعلم . اهـ . انتهاء كلام الحافظ ابن كثير رحمة الله .

جماعة من سلف علماء أمة نبينا ﷺ نحو منه ، وإن لم يكونوا بينا زمانَ مَنْ حَدَثَ ذلك في ملكه ، سوى ذكرهم أن ذلك كان فيما بين آدم ونوح صلى الله عليهما وسلم^(١) . (١٦٦: ١١) .

* ذكر من رُوي ذلك عنه :

نبي الله إدريس عليه السلام

لقد ذكر الطبرى رحمة الله روایات عده في خبر إدريس عليه السلام وهي مستقاة من الروایات الإسرائيلية وذكرناها جميعاً في قسم الضعيف . قال الله تعالى في سورة مریم :

﴿وَأَذَرَ فِي الْكِتَابِ إِدْرِيسَ إِنَّهُ كَانَ صَدِيقًا لِّنَّيَا ﴾ [٦] وَرَفَعْتَهُ مَكَانًا عَلَيْهِ﴾ .

والمراد بالمكان العليّ هنا والله أعلم ما أعطيه من شرف النبوة ، وقيل إنه رفع إلى الجنة (الشوکاني) وفي الحديث المتفق عليه أن رسول الله ﷺ مز بإدريس وهو في السماء الرابعة (صحيح البخاري / كتاب الأنبياء / ح ٣٣٤٢) من حديث أنس مرفوعاً في حادثة الإسراء / وفيه : فلما مز جبريل بإدريس قال : «مرحباً بالنبي الصالح والأخ الصالح فقلت : من هذا؟ قال : هذا إدريس» .

وأخرج أحمد من حديث معاوية بن الحكم السلمي أن رسول الله ﷺ سُئل عن الخط بالرمل فقال : «إنه كان نبي يخط به فمن وافق خطه فذاك» [مسند أحمد / ح ٢٣٨٢٣] .

حدثنا محمد بن بشار ، قال : حدثنا أبو داود ، قال : حدثنا همام ، عن قتادة ، عن عكرمة ، عن ابن عباس ، قال : كان بين نوح وأدم عليهما السلام عشرة قرون ، كلّهم على شريعة من الحق ؛ فاختلقو ، فبعث الله النبيين مبشرين ومنذرين ، قال : وكذلك هي في قراءة عبد الله : (كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَجَدَةً فَاخْتَلَفُوا) ^(٢) . (١٧٨: ١)

(١) صحيح .

(٢) إسناده صحيح إلى ابن عباس رضي الله عنهما وأخرجه الحاكم من طريق شيخ الطبرى هنا (محمد بن بشار) ثنا أبو داود ثنا همام عن قتادة عن عكرمة عن ابن عباس رضي الله عنهما =

حدثنا الحسن بن يحيى ، قال: أخبرنا عبد الرزاق ، قال: أخبرنا مَعْمَر ، عن قتادة: قوله عَزَّ وَجَلَّ: «كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً» ، قال: كانوا على الْهُدَى جمِيعاً فاختلقوها «فَبَعَثَ اللَّهُ الْنَّبِيَّنَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ» ، فكان أول نبيٍّ بعث نوح عليه السلام^(١). (١٧٨). (١).

ذكر الأحداث التي كانت في عهد نوح عليه السلام

فأما كتاب الله فإنه ينبيء عنهم أنهم كانوا أهلَّ أوثان ، وذلك أن الله عَزَّ وَجَلَّ يقول مخبراً عن نوح: «قَالَ نُوحٌ رَبِّ إِنَّهُمْ عَصَوْنِي وَاتَّبَعُوا مِنْ لَفْرِيَدَهُ مَا لَهُ وَلَدَهُ إِلَّا حَسَارًا» (٢)

قال: كان بين نوح وآدم عشرة قرون كلهم على شريعة الحق فاختلقوها ببعث الله النبئين مبشرين ومنذرين .

قال: وكذلك في قراءة عبد الله (كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَاخْتَلَفُوا).

وقال الحاكم: هذا حديث صحيح على شرط البخاري ولم يخرجه (المستدرك مع التلخيص/٥٤٦/٢).

وأخرج الحاكم أيضاً من طريق عبد الصمد بن عبد الوارث ثنا همام عن قتادة ثنا عكرمة عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: كان بين آدم ونوح عشرة قرون كلهم على شريعة من الحق فلما اختلقوها ببعث الله النبئين والمرسلين وأنزل كتابه فكانوا أمة واحدة .

وقال الحاكم: هذا حديث صحيح على شرط البخاري ولم يخرجه (المستدرك/٤٤١/٢).

قلنا: وأخرج البزار (ح ٢١٩٠) عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: «كَانَ بَيْنَ آدَمَ وَبَيْنَ نُوحاً عَشْرَةَ قَرْنَاهُ كُلُّهُمْ عَلَى شَرِيعَةٍ مِنَ الْحَقِّ قَالَ: فَلَمَّا بَعَثَ اللَّهُ النَّبِيَّنَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ أَنْزَلَ كُتَابَهُ فَكَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً».

وقال الهيثمي: رواه البزار وفيه عبد الصمد بن النعمان وثقة ابن معين وقال غيره: ليس بالقوى (مجمع الزوائد/ ح ١٠٨٥٨).

وأخرج أبو يعلى (ح ١١٨٣٠) عن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله تعالى: «كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً» قال: على الإسلام كلهم . وقال الهيثمي: ورجال أبي يعلى رجال الصحيح (مجمع الزوائد/ ح ١٠٨٥٧).

قلنا: وأما المرفوع فقد أخرج ابن حبان في صحيحه (ح ٦١٩٠) عن أبي أمامة رضي الله عنه أن رجلاً قال: يا رسول الله ، أنبيَّيْ كان آدم؟ قال: نعم ، قال: فكم بينه وبين نوح؟ قال: عشرة قرون . وقال الحافظ ابن كثير: وهذا على شرط مسلم ولم يخرجه (البداية والنهاية ١٦٠/١) والله تعالى أعلم .

(١) هذا إسناد مرسل صحيح ومعناه صحيح (انظر ما قبله).

وَمَكْرُوا مَكْرًا كُبَارًا ﴿١١﴾ وَقَالُوا لَا تَذَرْنَا إِلَهَتْكُمْ وَلَا تَذَرْنَا وَدًا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَسَرًا ﴿١٢﴾ وَقَدْ أَضْلَلُوا كَثِيرًا ﴿١٣﴾ . فبعث الله إليهم نوحًا مخوفهم بأسه ، ومحذرهم سطوهه ، وداعياً لهم إلى التوبة والمراجعة إلى الحق^(١). (١٧٩ : ١) .

قال ابن إسحاق: حتى إذا تمادوا في المعصية ، وعظمت في الأرض منهم الخطيئة ، وتطاول عليه وعليهم الشأن ، واشتدا عليه منهم البلاء ، وانتظر النجل بعد النجل ، فلا يأتي قرن إلا كان أخبث من الذي قبله؛ حتى إن كان الآخر منهم ليقول: قد كان هذا مع أبائنا ومع أجدادنا؛ هكذا مجئونا! لا يقبلون منه شيئاً ، حتى شكا ذلك من أمرهم نوح إلى الله عز وجل ، فقال كما قص الله عز وجل علينا في كتابه: ﴿رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيَلَّا وَنَهَارًا ﴿٦﴾ فَلَمْ يَرِدْهُمْ دُعَاءِي إِلَّا فَرَارًا﴾ إلى آخر القصة ، حتى قال: ﴿رَبِّ لَا تَذَرْنَا عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكُفَّارِنَ دَيَارًا ﴿٧﴾ إِنَّكَ إِنْ تَذَرْهُمْ يُضْلُلُوا عَبَادَكَ وَلَا يَلِدُوْا إِلَّا فَاجِرًا كَفَارًا﴾ إلى آخر القصة. فلما شكا ذلك منهم نوح إلى الله عز وجل واستنصره عليهم أوحى الله إليه أن ﴿وَأَاصْنَعْ الْفَلَكَ بِأَعْيُّنَاهُ وَجِهَاتِنَا وَلَا تُخْطِبَنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِلَيْهِمْ مُغْرِّرُونَ﴾ . فأقبل نوح على عمل الفلك ، ولها عن قومه ، وجعل يقطع الخشب ويضرب الحديد ، وبهيء عدة الفلك من القار وغيره مما لا يصلحه إلا هو ، وجعل قومه يمرؤون به ، وهو في ذلك من عمله ، فيسخرون منه ، ويستهزئون به فيقول: ﴿إِن تَسْخِرُوا مِنَّا فَإِنَّا سَخَّرْنَا مِنْكُمْ كَمَا سَخَّرْنَا فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَنْ يَأْلِمُهُ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَمَنْ يَمْلِئُ عَلَيْهِ عَذَابًا مُّقِيمًا﴾^(٢) . (١٨٢ : ١) . (١٨٣ / ١٨٢) .

قال أبو جعفر: وقد أخبر الله تعالى ذكره من الخبر عن الطوفان بخلاف ما قالوا ، فقال قوله الحق: ﴿وَلَقَدْ نَادَنَا نُوحٌ فَلِنِعْمَ الْمُجِيْبُونَ ﴿٨﴾ وَجَيَّنَهُ وَأَهْلَهُ مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ ﴿٩﴾ وَجَعَلَنَا ذُرِّيَّتَهُ هُمُ الْبَاقِيَنَ﴾ ؛ فأخبر عز ذكره أن ذريته نوح هم الباقيون دون غيرهم^(٣) . (١٩٢ : ١) .

حدثنا بشر ، قال: حدثنا يزيد ، قال: حدثنا سعيد ، عن قتادة ، في قوله:

(١) صحيح.

(٢) ذكر ابن إسحاق كلامه هذا بلا إسناد إلا أن معناه صحيح مأخوذ من تفسير الآيات وكما فسرها ابن إسحاق وعنه الطبرى والله أعلم.

(٣) صحيح.

﴿وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ الْبَاقِينَ﴾ ، قال: فالناس كُلُّهم من ذرية نوح^(١) . (١٩٢ : ١) .

حدثني علي بن داود ، قال: حدثنا أبو صالح ، قال: حدثني معاوية ، عن علي ، عن ابن عباس في قوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ الْبَاقِينَ﴾ يقول: لم يبق إلا ذرية نوح^(٢) . (١٩٢ : ١) .

وهذا الذي ذكر عن الشعبي من التاريخ ينبغي أن يكون على تاريخ اليهود ، فاما أهل الإسلام فإنهم لم يؤرخوا إلا من الهجرة ، ولم يكونوا يؤرخون بشيء من قبل ذلك ، غير أن قريشاً كانوا - فيما ذكر - يؤرخون قبل الإسلام بعام الفيل ، وكان سائرُ العرب يؤرخون بأيامهم المذكورة ، كتاريخهم بيوم جَبَّةَ ، وبالكلاب الأول ، والكلاب الثاني.

وكانت النصارى تؤرخ بعهد الإسكندر ذي القرنين؛ وأحسبهم على ذلك من التاريخ إلى اليوم.

وأما الفرس فإنهم كانوا يؤرخون بملوكيهم ، هم اليوم فيما أعلم يؤرخون بعهد يزدجرد بن شاهريار ، لأنه كان آخر منْ كان من ملوكهم له ملك بابل والمشرق^(٣) . (١٩٣ : ١) .

(١) صحيح مرسلاً.

(٢) هذا إسناد موقوف والمعنى صحيح وهو تفسير لآية الكريمة من حبر الأمة ابن عباس رضي الله عنهما.

(٣) صحيح.

الآيات الواردة في قصة نوح عليه السلام مع تفسيرها اعتماداً على ابن كثير بعد حذف الإسرايليات:

نوح في القرآن:

وقد ذكر الله قصته وما كان من قومه ، وما أنزل به من العذاب بالطوفان ، وكيف أتجاه وأصحاب السفينة ، في غير ما موضع من كتابه العزيز ، ففي الأعراف ويومن ويهود والأنبياء والمؤمنون والشعراء والعنكبوت والصافات ؛ وأنزل في سورة كاملة.

فقال في سورة الأعراف: ﴿لَقَدْ أَرَسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ فَقَالَ يَقُولُ أَعْبُدُ وَأَنْتَ مَالِكُّمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ إِنَّمَا أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴾ ﴿قَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِهِ إِنَّا نَنْهَاكُمْ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴾ ﴿قَالَ يَقُولُ لَيْسَ بِي ضَلَالٌ لَّهُ وَلَكُنِّي رَسُولٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ ﴿أَبِيَّلَكُمْ رِسَالَتِ رَبِّي وَأَنْصِمْ لَكُمْ وَأَعْلَمُ مِنْ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ ﴿أَوْ عَيْمَتُمْ أَنْ جَاءَكُمْ ذَكْرٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَلَى رَبِّكُمْ مُنْكَرٌ كُمْ وَلَنْ يَعْمَلُوكُمْ لَكُمْ تَرْحُمُونَ ﴾ ﴿فَكَذَّبُوهُ

فَأَنْجَيْتَهُ وَالَّذِينَ مَعَهُ فِي الْفُلُكَ وَأَغْرَقْتَ الَّذِينَ كَذَبُوا يَا يَسِّنَ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا عَظِيمَةً ۝

وقال تعالى في سورة يونس : ۝ وَأَنْلَى عَلَيْهِمْ نَبَأً نُوحٌ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ يَقُولُونَ إِنْ كَانَ كُبُرُ عَلَيْكُمْ مَقَابِي وَتَذَكِّرِي بِيَادِنَ اللَّهَ فَقَالَ اللَّهُ تَوَكَّلْتُ فَأَجْمَعُوا أَنَّكُمْ وَشَرِكَاتُكُمْ ثُمَّ لَا يَبْكُنَ أَنَّكُمْ عَلَيْكُمْ غَمَّةٌ ثُمَّ أَقْصَوْا إِلَيْهِنَّ لَا تُنْظَرُونَ ۝ فَإِنْ تَوَلَّتُمْ فَمَا سَأَلْتُكُمْ مِنْ أَجْرٍ إِلَّا عَلَى اللَّهِ وَأَمْرَتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ ۝ فَكَذَبُوهُ فَنَجَيْتَهُ وَمَنْ مَعَهُ فِي الْفُلُكَ وَجَعَلْتَهُمْ خَلَقِي وَأَغْرَقْتَ الَّذِينَ كَذَبُوا يَا يَسِّنَ فَأَنْظَرْتَ كِفْ كَانَ عَيْقَةً الْمُذَرِّيْنَ ۝

وقال تعالى في سورة هود : ۝ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا وَحْشًا إِلَى قَوْمِهِ إِنَّكُمْ تَنْدِيرُ مُؤْمِنَيْنَ ۝ أَنْ لَا تَنْبُدُوا إِلَى اللَّهِ إِنْ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمِ الْيَمِنِ ۝ فَقَالَ الْمَلَائِكَةُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ مَا نَرَنَاكَ إِلَّا بَشَرًا مِنْنَا وَمَا زَرَنَاكَ إِلَّا أَلَّا يَرِيْدَكَ هُمْ أَرَادُنَا بَادِيَ الْأَرَأَيِّ وَمَا نَرَى لَكُمْ عَيْنَانِا مِنْ فَضْلٍ بَلْ نَظَرَكُمْ كَذَبِيْنَ ۝ قَالَ يَقُولُونَ أَرَدْيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلَىٰ بِيَنْتَرُ مِنْ رَبِّيْ وَإِلَيْنِي رَحْمَةٌ مِنْ عِنْدِهِ فَعَيْتُ عَلَيْكُمْ أَنْلَزْنَكُمُوهَا وَأَنْتُ لَهَا كَرْهُونَ ۝ وَتَنَعَّمُونَ لَا أَشْتَكُمْ عَلَيْهِ مَالًا إِلَّا أَخْرَىٰ إِلَّا عَلَى اللَّهِ وَمَا أَنْتُ أَطْهَرُ الْدِينَ مَا سَمِعْتُ إِنَّهُمْ مُلْكُوْنَا رَبِّهِمْ وَلَكِفَتْ أَرْكَوْنَ قَوْمًا جَهَلُوْنَ ۝ وَتَنَعَّمُونَ مَنْ يَنْصُرُ فِيْنِيْنِ إِنَّ طَرْفَهُمْ أَهْلَانَدَكَرُونَ ۝ وَلَا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَرَابِنَ اللَّهُ وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَلَا أَقُولُ إِنِّي مَلَكٌ وَلَا أَقُولُ لِلَّاهِ دِينِيْنَ أَعْيُنْكُمْ لَنْ يُؤْتِهِمُ اللَّهُ خِيرًا أَلَّا أَعْلَمُ بِمَا فِيْنِيْنِ إِنِّي إِذَا لَمْ يَأْتِنِ الظَّلَمِيْنَ ۝ فَالْوَالِيَنْ شُفْعَ قَدْ جَدَلْنَا فَأَكَنْتَ حِدَانًا فَأَنْتَنَا يَمَا يَعْدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّدِيقِيْنَ ۝ قَالَ إِنَّمَا يَأْسِكُمْ بِهِ اللَّهُ إِنْ شَاءَ وَمَا أَنْشَدَ يَعْجِزِيْنَ ۝ وَلَا يَنْعَكِرُ تَصْحِيْحِيْنَ إِنْ أَرْدَتَ أَنْ أَنْصَحَ لَكُمْ إِنْ كَانَ اللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يُعَوِّكُمْ مُهُورَكُمْ وَاللَّهُ تَرْجُعُوْنَ ۝ أَمْ يَقُولُونَ كَأَفْرَنَهُ قَلْ إِنْ أَفْرَنَتُهُ فَعَلَى إِعْرَاضِي وَأَنَا بَرِيْيٌ مِمَّا تَجْرِيْمُونَ ۝ وَأَرْجُوكَ إِنْ تُوْجَعَ أَنَّهُ لَنْ يُؤْمِنَ مِنْ قَوْمِكَ إِلَّا مِنْ قَدْمَهُ مَانَ فَلَا يَنْتَسِيْسَ بِمَا كَانُوا يَقْعِدُوْنَ ۝ وَأَصْنَعَ الْفُلُكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيَنَا وَلَا مُخْطَبِيْنَ فِي الْأَلْيَنَ ظَلَمَوْا إِنَّهُمْ مُغْرَقُوْنَ ۝ وَيَصْنَعُ الْفُلُكَ وَكُلَّمَا مَرَ عَلَيْهِ مَالًا مِنْ قَوْمِهِ سَخْرُوا مِنْهُ فَقَالَ إِنْ تَسْخَرُوْنَ مِنَ فَيَأْنَا سَخْرَرُونَ ۝ فَسَوْفَ تَعْلَمُوْنَ مَنْ يَأْبِي عَذَابَ يَمْرُغِي وَيَحْلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُقْبِيْسَ ۝ حَتَّى إِذَا جَاءَهُمْ كَمَا تَسْخَرُوْنَ ۝ فَسَوْفَ تَعْلَمُوْنَ مَنْ يَأْبِي عَذَابَ يَمْرُغِي وَيَحْلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُقْبِيْسَ ۝ حَتَّى إِذَا جَاءَهُمْ أَشْرَنَا وَفَارَ التَّنَوُّرَ فَلَنَا أَجْعَلَ فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجِنَ آشِنَ وَأَهْلَكَ إِلَّا مِنْ سَبَقَ عَلَيْهِ الْقُولَ وَمَنْ ءَامِنَ وَمَا ءَامَنَ مَعْهُ إِلَّا قَلِيلٌ ۝ وَقَالَ أَكْبَوْا فِيهَا يَسِّرَ اللَّهَ مَجْرِيْهَا وَمَرْسَهَا إِنْ رَبِّيْ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ۝ وَهِيَ مُبَرِّي بِهِمْ فِي مَوْجِ كَالْجَيْكَالِ وَنَادَى تُوْجَ أَبَنَهُ وَكَانَ فِي مَعْزِلٍ يَسِّيْنَ أَرْكَبَ مَعَنَا وَلَا تَكُنْ مَعَ الْكُفَّارِيْنَ ۝ قَالَ سَيَاْيَتِ إِلَى جَبَلِ يَعْصِيْيِ مِنَ الْمَاءِ فَأَلَّا عَاصِمَ الْيَوْمِ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِلَّا مِنْ رَحْمَمْ وَحَالَ بَيْنَهَا الْمَوْجُ فَكَانَ مِنَ الْمُغَرِّقِيْنَ ۝ وَقَبِيلَ يَتَأْرِضُ الْبَلْعَيْ مَاءَكَ وَيَسْكَنَمَاءَكَ وَغَيْصَنَ الْمَاءَ وَفَعَنَ الْأَمْرِ وَأَسْتَوْتَ عَلَى الْمَعْوُرِي وَقِيلَ بَعْدًا لِلْقَوْمِ الظَّلَمِيْنَ ۝ وَنَادَى تُوْجَ رَبِّيْهُ فَقَالَ رَبِّيْ إِنْ أَنْتِي مِنْ أَهْلِي وَإِنَّ وَعْدَكَ الْحَقُّ وَأَنَتَ أَنْتُكَ الْحَرَكِيْنَ ۝ قَالَ يَسِّيْوُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلَ عَمَلَ عَمَرَ صَلَحَ فَلَا شَتَّلَنِ ما لَيْسَ لَكَ بِهِ عَلَمَ إِنِّي أَعْطَكَ أَنَ تَكُونَ مِنَ الْجَهَلِيْنَ ۝ قَالَ رَبِّيْ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَشْتَكَكَ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عَلَمَ وَلَا تَعْفِرَ لِي وَتَرْحَبِي أَكُنْ مِنَ الْخَسِيرِيْنَ ۝ قِيلَ يَسِّيْنَ أَهْمِطَ سَلَمِيْرَ مِنَا وَبَرَكَتِ عَلَيْكَ وَعَلَى أَمْرِ مَمَنْ مَعَكَ وَأَمْمَ سَمِعَهُمْ يَسِّهُمْ مَنَاعَدَابَ الْيَمِمَ ۝ تَلَكَ مِنَ أَبَاءَ الْغَيْبِ تُوْجِيْهَا إِلَيْكَ مَا كَنْتَ تَعْلَمْهَا أَنَتَ وَلَا قَوْمُكَ مِنْ قَبِيلَ هَذَا فَأَصِيرُ إِنَّ الْعَيْقَةَ لِلْمُنْقَيْنَ ۝ وَقَالَ تَعَالَى فِي سُورَةِ الْأَنْبِيَاءِ : ۝ وَتَوْجَ إِذْ نَادَى مِنْ

فَكُلُّ فَأَسْتَجَبْنَا لَهُ فَنَجَّيْنَاهُ وَاهْلَهُ مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ ٦٧ وَنَصَرْنَاهُ مِنَ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَبُوا
يَأْتِيَنَّا إِلَيْهِمْ كَانُوا تَوْمَ سَوْءَ فَأَغْرَقْنَاهُمْ أَجْمَعِينَ ٦٨ [الأنبياء : ٧٦ - ٧٧].

وقال تعالى في سورة المؤمنون : « وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحاً إِلَى قَوْمِهِ فَقَالَ يَقُولُونَ أَعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنَ اللَّهِ عِنْهُ إِلَّا لَنَّفْعُونَ ٦٩ قَالَ الْمُلْكُوْلُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ مَا هَذَا إِلَّا بَيْرُ بَرِيدُ أَنْ يُنْفَضِّلَ عَلَيْكُمْ وَلَوْكَاهُ اللَّهُ لَا تَرَكَ مَلَكَةً كَمَا مَاسَمْنَا بَهْنَدَا فِي بَابَيْنَا الْأَوَّلِينَ ٧٠ إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌ يَدْعُ بِحَجَّةٍ فَتَرَصُّوْهُ حَتَّى جَنِينَ ٧١ قَالَ رَبِّنَ أَنْصُوفِ بِمَا كَذَبُونَ ٧٢ فَأَوْجَيْنَاهُ إِلَيْهِ أَنْ أَصْبَعَ الْفَلَكَ يَأْعِيْنَا وَوَجَحْنَا فَإِذَا حَسَّهَا وَفَكَارَ الْمُشْرُكُوْلُ فَأَسْلَافُ فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجِنَ اُنْثَيْنَ وَأَهْلَكَ إِلَّا مِنْ سَبَقَ عَلَيْهِ الْقُولُ مِنْهُمْ وَلَا تَخْطَلْبِي فِي الَّذِينَ طَلَمُوا إِنْهُمْ مُغْرِبُونَ ٧٣ فَإِذَا أَسْتَوْتَ أَنْتَ وَمَنْ مَعَكَ عَلَى الْفَلَكِ فَقُلْ لِلْعَذَّلِ لِلَّهِ الَّذِي جَنَّنَ مِنَ الْقَوْمِ الْأَطْلَيْنَ ٧٤ وَقُلْ رَبِّ أَرْلِي مُزَلَّا مَبَاكَ وَأَنْتَ حَمِيرُ الْمُدَلِّيْنَ ٧٥ » [المؤمنون : ٢٣ - ٣٠].

وقال تعالى في سورة الشعراء : « كَذَبَ قَوْمُ نُوْحَ الْمُرْسَلِيْنَ ٧٦ إِذَا قَالَ لَهُمْ أَحُوهُرُ نُوْحُ الْأَنْفَقُونَ ٧٧ إِلَيْكُمْ رَسُولُ أَمِينَ ٧٨ فَأَنْفَقُوا اللَّهَ وَأَطْبَعُونَ ٧٩ وَمَا أَشْكَلْنَاهُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَبْرَى إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِيْنَ ٨٠ فَأَنْفَقُوا اللَّهَ وَأَطْبَعُونَ ٨١ قَالُوا أَنْوَمْنَ لَكَ وَأَتَبْعَكَ الْأَرْذَلُونَ ٨٢ قَالَ وَمَا عَلَيَّ بِمَا كَانُوا يَسْلُوْنَ ٨٣ إِنْ حَسَّاهُمْ إِلَّا عَلَى رَبِّنَ لَوْ تَنْعَرُونَ ٨٤ وَمَا أَنَا بِطَارِدِ الْمُؤْمِنِيْنَ ٨٥ إِنْ أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ ٨٦ قَالَوْلَيْنَ لَمْ لَنْتَهَ يَسْلُوْحُ لِتَكُونَنَ مِنَ الْمَرْجُومِيْنَ ٨٧ قَالَ رَبِّ إِنْ فَوْيَ كَذَبُونَ ٨٨ فَأَفْنَيْتَنِي وَبَنِهِمْ فَتَحَّا وَجَحِيَ وَمَنْ مَعَنِي مِنَ الْمُؤْمِنِيْنَ ٨٩ فَأَجْبَيْتَهُ وَمَنْ مَعَهُ فِي الْفَلَكِ الْمُشْحُونِ ٩٠ ثُمَّ أَغْرَقْنَا بَعْدَ الْبَاقِيْنَ ٩١ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةٌ وَمَا كَانَ أَكْرَمُهُمْ مُؤْمِنِيْنَ ٩٢ وَلَنَ رَيْكَ لَهُوَ الْعَرِيزُ الرَّسِيدُ ٩٣ » [الشعراء : ١٠٥ - ١٢٢].

وقال تعالى في سورة العنكبوت : « وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوْحًا إِلَى قَوْمِهِ فَلَيَّثُ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا حَمْسِيْنَ عَامًا فَأَخَذَهُمُ الْطَوْفَانُ وَهُمْ ظَالِمُوْنَ ٩٤ فَأَجْبَيْنَاهُ وَأَصْحَبَ الْسَفِيْكَةَ وَجَعَلْنَاهَا إِيْكَةً لِلْمُنَاهِيْتَ ». وقال تعالى في سورة الصافات : « وَلَقَدْ نَادَنَا نُوْحٌ فَلَيَّعَمُ الْمُجِيْبُونَ ٩٥ وَنَجَيْتَهُ وَاهْلَهُ مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ ٩٦ وَجَعَلْنَا دُرِيْسَهُ هُرُبَ الْبَاقِيْنَ ٩٧ وَرَكَنَاهُ عَلَيْهِ فِي الْأَخْرِيْنَ ٩٨ سَلَّمَ عَلَى نُوْحٍ فِي الْعَالَمِيْنَ ٩٩ إِنَّا كَذَلِكَ بَخِيْرُ الْمُحْسِنِيْنَ ١٠٠ إِنَّهُمْ مِنْ عَبَادَنَا الْمُؤْمِنِيْنَ ١٠١ ثُمَّ أَغْرَقْنَا إِنَّا أَغْرَقْنَا الْأَخْرِيْنَ ١٠٢ ».

وقال تعالى في سورة القمر : « كَذَبَ قَلْهُمْ قَوْمُ نُوْحٍ فَكَبُرُوا عَبْدَنَا وَقَالُوا بَجُونُونَ وَأَرْدَجَرَ ١٠٣ فَدَعَارِيَهُ أَنَّى مَعْلُوْبٌ فَأَنْتَصَرَ ١٠٤ فَنَدَحْنَاهَا أَنْوَبَ السَّمَاءَ يَمَاءَ مُهْمِرَ ١٠٥ وَفَخَرَنَا الْأَرْضَ عَيْنَاهَا فَالْنَقَى الْمَاءَ عَلَى أَمْرٍ قَدْ فَدِرَ ١٠٦ وَحَمَلْنَاهُ عَلَى ذَاتِ الْوَرَجَ وَدُسِرَ ١٠٧ تَجَيَّرَ يَأْعِيْنَا حَرَاءَ لَمَنْ كَانَ لَهُرَ ١٠٨ وَلَقَدْ تَرَكَهَا إِيْلَهَ فَهَلَ مِنْ مُذَكِّرٍ ١٠٩ فَكَيْفَ كَانَ عَدَلَيْ وَنَدِرَ ١١٠ وَلَقَدْ يَسَرَنَا الْقُرْآنَ لِلَّذِكْرِ فَهَلَ مِنْ مُذَكِّرٍ ١١١ ».

وقال تعالى بسم الله الرحمن الرحيم : « إِنَّا أَرْسَلْنَا نُوْحًا إِلَى قَوْمِهِ أَنَّ أَنْذِرْ قَوْمَكَ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَهُمْ عَذَابُ الْأَيْمَمِ ١١٢ قَالَ يَقُولُونَ إِنِّي لَكَنْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ١١٣ أَنْ أَعْبُدُوا اللَّهَ وَأَتَقُوْهُ وَأَطْبَعُونَ ١١٤ بَغْرَ لَكُمْ مِنْ دُنُوْيُكُمْ وَيُؤَخْرِكُمْ إِلَى أَحْلِ مَسْمَىٰ إِنَّ أَجْلَ اللَّهِ إِذَا جَاءَ لَا يُؤْخِرُكُمْ كُنْتُمْ تَعْلَمُوْنَ ١١٥ قَالَ رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُنِي لِيَلَا وَهَرَكَ ١١٦ فَلَمْ يَرْدَهُرْ دُعَاءِي إِلَى قِرَارِ ١١٧ وَلَيْلِي كَلْمَادَعَوْهُمْ لِتَغْرِيْلَهُمْ جَعْلَوْهُمْ أَصْبِعُهُمْ فِي مَا دَأَبُهُمْ وَأَسْتَعْنُوْهُمْ بِهِمْ وَأَصْرَوْهُمْ وَأَسْتَكْبَرُوْهُمْ أَسْتَكْبَارًا ١١٨ شَمَ إِنِّي دَعَوْتُهُمْ جَهَارًا ١١٩ شَمَ إِنِّي أَعْلَمْتُهُمْ وَأَسْرَرْتُهُمْ إِسْرَارًا ١٢٠ فَقَلْتُ أَسْتَغْفِرُوا رَبِّكُمْ إِنَّهُ كَانَ عَفَارًا ١٢١ يُرْسِلُ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِنْ دَرَازًا ١٢٢ وَيَمْدُدُكُمْ بِأَنْوَلِ وَبَنِ وَيَجْعَلُ لَكُمْ جَنَّتِ وَيَجْعَلُ لَكُمْ كُدْرَ ».

أَتَهُرَ [١] مَا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ اللَّهَ وَقَارًا [٢] وَقَدْ خَلَقْنَا أَطْوَارًا [٣] الَّذِي تَرَوْا كَيْفَ حَلَّ اللَّهُ سَبَعَ سَمَوَاتٍ طَبَاقًا [٤] وَجَعَلَ الْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ الشَّمْسَ يَرْجًا [٥] وَاللَّهُ أَبْتَكُ مِنَ الْأَرْضِ نِيَاتًا [٦] ثُمَّ يُعِيدُهُ فِيهَا وَخُرُوجُكُمْ إِخْرَاجًا [٧] وَاللَّهُ جَعَلَ لِكُمُ الْأَرْضَ يَسَاطِعًا [٨] لِتَسْلُكُوهُ مِنْهَا مِسْلَامًا فَجَاهًا [٩] قَالَ نُوحُ رَبِّ إِنَّمَا عَصَوْنَاهُ وَاتَّبَعُوا مِنْ لَرْبِزَةِ مَالِهِ وَلَدَهُ إِلَّا خَسَارًا [١٠] وَمَكَرُوا كُكْرًا كَبَارًا [١١] وَقَالُوا لِلَّذِينَ أَهْتَكُمْ لَا نَدْرُونَ دَادًا لَا سُوَادًا لَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَسَرَا [١٢] وَقَدْ أَصْلَوْا كَثِيرًا لَا نَزِدَ الظَّالِمِينَ إِلَّا ضَلَالًا [١٣] مَمَّا حَطَّيْتُهُمْ أَعْغَوْا فَادْخُلُوكُمْ نَارًا فَلَمْ يَجِدُوا لَهُمْ بَيْنَ دُونِ اللَّهِ أَنْصَارًا [١٤] وَقَالَ نُوحُ رَبِّ لَا نَدْرُ علىَ الْأَرْضِ مِنَ الْكُفَّارِ دَيَارًا [١٥] إِنَّكَ إِنْ تَنْهَرْهُمْ يُصْلُوْهُ عَسَادَكَ وَلَا يُلْدُوْهُ إِلَّا فَاجِرًا كَفَارًا [١٦] رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِمَ دَخَلَ بَيْتَ مُؤْمِنًا وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَلَا نَرِدَ الظَّالِمِينَ إِلَّا نَبَارًا [١٧] .

وقد تكلمنا على كل موضع من هذه في التفسير . وسنذكر مضمون القصة مجملًا من هذه الأماكن المختلفة ، ومما دلت عليه الأحاديث والآثار . وقد جرى ذكره أيضًا في مواضع متفرقة من القرآن فيها مدحه وذم من خالفه ، فقال تعالى في سورة النساء : ﴿ إِنَّا أَوْجَنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْجَيْنَا إِلَى نُوحٍ وَالنَّبِيِّنَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَوْجَيْنَا إِلَيْهِ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطَ وَعِيسَى وَأَيُوبَ وَيُوسُفَ وَهَدْرُونَ وَسُلَيْمَنَ وَإِتَّيَادَ وَرَبُورًا [١٨] وَرُسُلًا قَدْ فَصَّلَتْهُمْ عَيْنَكَ مِنْ قَبْلٍ وَرُسُلًا لَمْ نَفْصُلْهُمْ عَيْنَكَ وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَى تَكَلِّمِي [١٩] رُسُلًا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونُ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ أَرْسَلْنَا وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا [٢٠]﴾ [النساء : ١٦٣ - ١٦٥] .

وقال في سورة الأنعام : ﴿ وَتَأْلِكُ حَجَّتْنَا إِتَّيَادَنَا إِبْرَاهِيمَ عَلَى قَوْمِهِ نَرَفَعْ دَرَجَتَهُ مَنْ نَشَاءَ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ [٢١] وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ كُلَّا هَدَيْنَا وَنُوحاً هَدَيْنَا مِنْ قَبْلٍ وَمِنْ دُرْيَيْنَهُ دَأْدَهُ وَسُلَيْمَنَ وَأَيُوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَى وَهَدْرُونَ وَكَذَلِكَ بَخْرَى الْمُحْسِنِينَ [٢٢] وَرَكَرَبَا وَيَعْمَنَ وَعِيسَى وَإِلَيَّاسَ كُلُّ مِنَ الْأَصْدِلِحِينَ [٢٣] وَإِسْمَاعِيلَ وَالْأَسْعَى وَيُوسُفَ وَلُوطًا وَكُلَّا فَصَّلَنَا عَلَى الْعَلَمِينَ [٢٤] وَمِنْ إِتَّيَادَهُمْ وَدُرْيَيْهُمْ وَإِحْوَاهُمْ وَاجْبَيْهُمْ وَهَدَيْتَهُمْ إِلَى صَرْطَ مُسْتَقِيمٍ [٢٥]﴾ الآيات . وتقدمت قصته في الأعراف .

وقال في سورة براءة : ﴿ أَلَّا يَأْتِيْمُنَا إِنَّ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ قَوْرُونَ نُوحٌ وَعَادٌ وَثَمُودٌ وَقَوْرُونَ إِبْرَاهِيمَ وَأَصْحَابِ مَدِينَ وَالْمُؤْفَقِيْكَتِ إِنَّهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيْنَتِ فَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَطْلِمُهُمْ وَلَذِكْنَ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ [٢٦] . وتقدمت قصته في يونس وهود .

وقال في سورة إبراهيم : ﴿ أَلَّا يَأْتِيْمُ بَنُو الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ قَوْرُونَ نُوحٌ وَعَادٌ وَثَمُودٌ وَالَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ لَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا اللَّهُ جَاءَهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيْنَتِ فَرَدُوا أَيْدِيهِمْ فِي أَفْوَاهِهِمْ وَقَالُوا إِنَّا كَفَرْنَا بِمَا أَنْرَسْلَمْ يَهُ وَإِنَّا إِنَّا شَيْكَ مَقَاتِلَهُنَا إِيَّاهُ مُرِبِّي [٢٧] .

وقال في سورة الإسراء : ﴿ ذُرِّيَّةَ مَنْ حَكَلَنَا مَعَ نُوحٍ إِنَّهُ كَانَ عَبْدًا سَكُورًا [٢٨] ، وقال فيها أيضًا : « وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنَ الْقَرْوَنِ مِنْ بَعْدِ نُوحٍ وَلَكَنْ بِرَبِّكَ يُدْنُوبِ عَبَاؤهُ حَيْرًا بَهِيرًا [٢٩] ». وتقدمت قصته في الأنبياء والمؤمنون والشعراء والعنكيبوت .

وقال في سورة الأحزاب : ﴿ وَإِذَا أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّنَ مِثْقَلَهُمْ وَمِنْكَ وَمِنْ نُوحٍ وَإِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَبْنَ مَرْيَمَ وَأَخَذْنَا مِنْهُمْ مِثْقَلًا غَلِظًا [٣٠] ، وقال في سورة ص : ﴿ كَذَبَ قَبْلَهُمْ قَوْمٌ نُوحٌ وَعَادٌ وَفَرْعَوْنُ دُوَّ

الأوئل ^{١١} وَثَمُودٌ وَقَوْمٌ لُوطٌ وَاصْحَابُ لَتِيْكَةَ أُولَئِكَ الْأَحْرَابُ ^{١٢} إِن كُلُّ إِلَّا كَذَبَ الرُّسُلُ فَهَقَّ =
عِقَابٌ ^{١٣}.

وقال في سورة غافر: ﴿ كَذَبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمٌ نُوحٌ وَالْأَحْرَابُ مِنْ بَعْدِهِمْ وَهَمَّتْ كُلُّ أُمَّةٍ بِرَسُولِهِمْ لِيَأْخُذُوهُ وَجَنَدُوا بِالْبَطْلِ لِيُدْحِصُوهُ إِلَيْهِ الْمُقْرَبُ فَأَخْذَهُمْ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابٌ ^{١٤} وَكَذَلِكَ حَقَّتْ كُلُّ مُتَّرَكَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ أَصْحَابُ النَّارِ﴾.

وقال في سورة الشورى: ﴿ شَرَعْ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّيْ بِهِ، نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَتَّقِنُ الَّذِينَ لَا يَنْفَرُونَ فِيهِ كَبُرُ عَلَى الْمُسْرِكِينَ مَا نَذَّرُهُمْ إِلَيْهِ اللَّهُ يَعْلَمُ بِمَا يَبْغِي إِلَيْهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ يُنِيبُ ^{١٥}﴾.

وقال تعالى في سورة ق: ﴿ كَذَبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمٌ نُوحٌ وَاصْحَابُ الرَّسُلِ وَثَمُودٌ ^{١٦} وَعَادٌ وَفَرْعَوْنُ وَلِتَخْرُونَ لُوطٌ وَاصْحَابُ الْأَيْكَةَ وَقَوْمٌ يُبَيِّعُ كُلَّ كَذَبَ الرَّسُلِ هُنَّ وَعِيدٌ ^{١٧}﴾. وقال في سورة الذاريات: ﴿ وَقَوْمٌ نُوحٌ مِنْ قَبْلِ إِلَيْهِمْ كَانُوا هُمْ أَظْلَمُ وَأَطْغَى ^{١٨}﴾.

وتقدمت قصته في سورة اقتربت الساعة. وقال تعالى في سورة الحديد: ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا وَإِبْرَاهِيمَ وَحَعَلَنَا فِي دِرِّيْتَهُمَا الْمُبْرَأَةَ وَالْكَتَبَ فِيهِمْ مُهَتَّدٌ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَنَسِيُّونَ ^{١٩}﴾. وقال تعالى في سورة التحرير: ﴿ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِلنَّاسِ كَفَرُوا مِنْ أَنْزَلَنَا نُوحًا وَأَنْزَلَتْ لُوطًا كَانَا تَحْتَ عَدَيْنَ مِنْ عِبَادَنَا صَلَّيْحَيْنِ فَحَاتَاهُمَا فَلَمْ يُعْيَا عَنْهُمَا مِنْ اللَّهِ شَيْئًا وَقَيْلَ أَدْحَلَ الْأَثَارَ مَعَ الْمَذَلِّيْنَ ^{٢٠}﴾.

وأما مضمون ما جرى له مع قومه مأخوذاً من الكتاب والسنّة والآثار ، فقد قدمنا عن ابن عباس : أنه كان بين آدم ونوح عشرة قرون كلهم على الإسلام .

[عبادة الأصنام]

ثم بعد تلك القرون الصالحة حدثت أمور ، اقتضت أن آل الحال بأهل ذلك الزمان إلى عبادة الأصنام . وكان سبب ذلك ما رواه البخاري من حديث ابن جريج عن عطاء ، عن ابن عباس عند تفسير قوله تعالى : ﴿ وَقَالُوا لَا نَذِرُنَا إِلَهَكُمْ وَلَا نَذِرُنَا دُواً وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَسَرَا ^{٢١}﴾ قال : هذه أسماء رجال صالحين من قوم نوح ، فلما هلكوا أوحى الشيطان إلى قومهم أن انصبوا إلى مجالسهم التي كانوا يجلسون فيها أنصاباً وسموها بأسمائهم ، ففعلوا فلم تعبد ، حتى إذا هلك أولئك وانتسخ العلم عبدت .

قال ابن عباس : وصارت هذه الأوئل التي كانت في قوم نوح في العرب بعد . وهكذا قال عكرمة والضحاك وقادة ومحمد بن إسحاق . قال ابن جريج في تفسيره : حدثنا ابن حميد ، حدثنا مهران ، عن سفيان ، عن موسى ، عن محمد بن قيس قال : كانوا قوماً صالحين بين آدم ونوح ، وكان لهم أتباع يقتدون بهم ، فلما ماتوا قال أصحابهم الذين كانوا يقتدون بهم : لو صورناهم كان أشوق لنا إلى العبادة إذا ذكرناهم ، فصوروهم فلما ماتوا وجاء آخرهم دب إليهم إبليس فقال : إنما كانوا يعبدونهم وبهم يسوقون المطر ، فعبدوهم .

وقد ذكر أنه لما تطاولت العهود والأزمان ، جعلوا تلك الصور تماثيل مجسدة ليكون أثبات =

لها ، ثم عبدت بعد ذلك من دون الله عز وجل . ولهم في عبادتها مسالك كثيرة جداً قد ذكرناها في مواضعها من كتابنا التفسير . . والله الحمد والمنة .

وقد ثبت في الصحيحين عن رسول الله ﷺ أنه لما ذكرت عنده أم سلمة وأم حبيبة تلك الكنيسة التي رأيناها بأرض الجبعة ، ويقال لها «مارية» وذكرتا من حسنها وتصاوير فيها قال : «أولئك إذا مات منهم الرجل الصالح بنوا على قبره مسجداً ، ثم صوروا فيه تلك الصورة ، أولئك شرار الخلق عند الله عز وجل (صحيح البخاري / كتاب الصلاة / ح ٤٢٧) ومسلم (٥٢٨ / ١٦) .

[نوح يدعو لعبادة الله] :

والمتقصد أن النساد لما انتشر في الأرض وعم البلاء بعبادة الأصنام فيها ، بعث الله عبده ورسوله نوحاً عليه السلام ، يدعو إلى عبادة الله وحده لا شريك له ، وينهى عن عبادة ما سواه .

فكان أول رسول بعثه الله إلى أهل الأرض ، كما ثبت في الصحيحين من حديث أبي حيان ، عن أبي زرعة بن عمرو بن جرير ، عن أبي هريرة ، عن النبي ﷺ في حديث الشفاعة ، قال : «فيأتون آدم فيقولون : يا آدم .. أنت أبو البشر ، خلقك الله بيده ، ونفعك فيك من روحه ، وأمر الملائكة فسجدوا لك وأسكنك الجنة ، ألا تشفع لنا إلى ربك؟ ألا ترى ما نحن فيه وما بلغنا؟» ف يقول : ربى قد غضب غضباً شديداً لم يغضب قبله مثله ، ولا يُغضب بعده مثله ، ونهاني عن شجرة فعصيت ، نفسي نفسي ، اذهبا إلى غيري . اذهبا إلى نوح . فيأتون نوحاً فيقولون : يا نوح .. أنت أول الرسل إلى أهل الأرض ، وسماك الله عبداً شكوراً ، ألا ترى إلى ما نحن فيه ألا ترى إلى ما بلغنا؟ ألا تشفع لنا إلى ربك عز وجل؟» ف يقول : ربى قد غضب اليوم غضباً لم يغضب قبله مثله ولا يغضب بعده مثله ، نفسي نفسي » وذكر تمام الحديث كما أورده البخاري في قصة نوح . (صحيح البخاري / كتاب الأنبياء / ح ٣٣٤٠) ومسلم (١٩٤ / ٣٢٧) .

فلما بعث الله نوحاً عليه السلام ، دعاهم إلى إفراد عبادة الله وحده لا شريك له ، وألا يعبدوا معه صنماً ولا تمثلاً ولا طاغوتاً وأن يعترفوا بوحدانيته ، وأنه لا إله غيره ولا رب سواه ، كما أمر الله تعالى من بعده من الرسل الذي هم كلهم من ذريته ، كما قال تعالى : ﴿وَجَعَلْنَا ذِرِّيَّتَهُ هُنَّ الْأَقْرَبُونَ﴾ ، وقال فيه وفي إبراهيم : ﴿وَجَعَلْنَا فِي ذِرِّيَّتِهِمَا النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ﴾ ، أي كلنبي من بعد نوح من ذريته ، وكذلك إبراهيم .

قال الله تعالى : ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولاً أَنَّ أَعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنَبُوا الظَّاغُوتَ﴾ و قال تعالى : ﴿وَسَلَّمَ مَنْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رُسُلِنَا أَجْعَلْنَا مِنْ دُونِ الرَّحْمَنِ إِلَهَهُ يُعْبُدُونَ﴾ ، وقال تعالى : ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِّدَ إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونَ﴾ . ولهذا قال نوح لقومه : ﴿أَعْبُدُ وَاللَّهُ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرِهِ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ ، وقال : ﴿أَنَّ لَا تَعْبُدُونِ إِلَّا

الله إِنَّ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمِ الْيَسْرِ » ، وقال: « يَنْقُومُ أَعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ أَفَلَا يَشْرَكُونَ » ، وقال: « يَنْقُومُ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٦﴾ إِنَّ أَعْبُدُوا اللَّهَ وَأَنَّقُوهُ وَأَطْبِعُونَ » ، « وَقَدْ خَلَقْتُ أَطْوَارًا » .. الآيات الكريمة.

فذكر أنه دعاهم إلى الله بأنواع الدعوة في الليل والنهار ، والسر والإجهار ، بالترغيب تارة والترهيب أخرى ، وكل هذا لم ينجح فيهم ، بل استمر أكثرهم على الضلاله والطغيان ، وعبادة الأصنام والأوثان ، ونصبوا له العداوة في كل وقت وأوان ، وتنقصوه ، وتنتقصوا من آمن به ، وتوعدوهم بالرجم والإخراج ، ونالوا منهم وبالغوا في أمرهم . « قَالَ اللَّهُمَّ مِنْ قَوْمِهِ » أي: السادة الكبراء منهم: « إِنَّا لَنَرَيْكَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ » ، « قَالَ يَنْقُومُ لَيْسَ بِضَلَالَةٍ وَلَكِنِّي رَسُولٌ مِّنْ رَبِّ الْجَنَّاتِ » أي: لست كما تزعمون أني ضال ، بل على الهدى المستقيم ، رسول من رب العالمين ، أي: الذي يقول للشيء كن فيكون: « أَتَيْلُكُمْ رِسَالَتِ رَبِّي وَأَنْصُحُ لَكُمْ وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا يَعْلَمُونَ » وهذا شأن الرسول أن يكون بلغا ، أي فصيحاً ناصحاً ، أعلم الناس بالله عز وجل .

وقالوا له فيما قالوا: « مَا زَرَنَاكَ إِلَّا بَشَرًا مِثْلَنَا وَمَا زَرَنَاكَ أَتَبَعْكَ إِلَّا أَلْذِينَ هُمْ أَرَادُوكَ بِإِدَى الرَّأْيِ وَمَا زَرَنَى لَكُمْ عَلَيْنَا مِنْ فَضْلٍ إِلَّا نَظَرْتُكُمْ كَذِيرِتَنَّ » تعجبوا أن يكون بشر رسولاً . وتنقصوا من اتبعه ورأوه أراذلهم ، وقد قيل: إنهم كانوا من أفناد الناس وهم ضعفاءهم ، كما قال هرقل: « وهم أتباع الرسل » ، وما ذاك إلا لأنه لا مانع لهم من اتباع الحق .

وقولهم: « بِإِدَى الرَّأْيِ » أي بمجرد ما دعواهم استجابوا لك من غير نظر ولا رؤية . وهذا الذي رموهم به هو عين ما يمدحون بسببه رضي الله عنهم ، فإن الحق الظاهر لا يحتاج إلى رؤية ولا فكر ولا نظر ، بل يجب اتباعه والانقياد له متى ظهر . ولهذا قال رسول الله ﷺ مادحا الصديق: « ما دعوت أحدا إلى الإسلام إلا كانت له كبوة غير أبي بكر ، فإنه لم يتلعلثم » ، ولهذا كانت بيته يوم السقيفة أيضاً سريعة من غير نظر ولا رؤية ، لأن أفضليته على من عداه ظاهرة جلية عند الصحابة رضي الله عنهم . ولهذا قال رسول الله ﷺ لما أراد أن يكتب الكتاب الذي أراد أن ينص فيه على خلافته فتركه ، قال: « يأبى الله والمؤمنون إلا أبا بكر » رضي الله عنه (صحيحة مسلم / ٤٤ / ١١) .

وقول كفرة قوم نوح له ولمن أمن به: « فَتَمَا كَانَ لَكُمْ عَلَيْنَا مِنْ فَضْلٍ » أي لم يظهر لكم أمر بعد اتصفكم بالإيمان ولا مزية علينا « إِلَّا نَظَرْتُكُمْ كَذِيرِتَنَّ ﴿٧﴾ قَالَ يَنْقُومُ أَرَدَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلَىٰ يَنْتَهَىٰ مِنْ رَبِّي وَإِنَّنِي رَحْمَةٌ مِّنْ عِنْدِهِ فَعُيَيْتُ عَلَيْكُمْ أَنْذِرْتُكُمُوهَا وَأَنْذَلْتُهَا كَرْهُونَ ». وهذا تلطف في الخطاب معهم: وترفق بهم في الدعوة إلى الحق ، كما قال تعالى: « فَقُولَا لَهُو قُولَا لَنَا عَلَمٌ يَنْذَكُرُ أَوْ يَخْتَنِي » ، وقال تعالى: « أَدْعُ إِلَىٰ سَيِّلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ أَعْسَنَهُ وَجَهَدِهِمْ بِالْتَّيْهِ هُنَّ أَحَسَنُ » وهذا منه .

يقول لهم: « أَرَدَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلَىٰ يَنْتَهَىٰ مِنْ رَبِّي وَإِنَّنِي رَحْمَةٌ مِّنْ عِنْدِهِ » أي النبوة والرسالة « فَعُيَيْتَ

عَلَيْكُمْ أي فلم تفهموها ، ولم تهتدوا إليها ، **أَنْتُمْ مُكْوَهَا** أي أنقضبكم بها ، ونجبركم عليها؟ **وَأَنْتُمْ لَهَا كَرِهُونَ** أي ليس لي فيكم حيلة والحالة هذه . **وَيَنْقُولُ لَا أَشْلُكُمْ عَلَيْهِ** مالاً إِنْ أَجْرَى إِلَّا عَلَى اللَّهِ**أَيْ لَسْتُ أَرِيدُ مِنْكُمْ أَجْرَةً عَلَى إِبْلَاغِي إِبَاكُمْ مَا يَنْعَكِمْ فِي دِنِّكُمْ** وأخراكم إن أطلب ذلك إلا من الله الذي ثوابه خير لي وأبقى مما تطروني أنتم .

وقوله : **وَمَا أَنَا بِطَارِدِ الظَّنِّ إِنَّمَا إِنْتُمْ مُلْقَوْرَبِهِمْ وَلَكُمْ** **أَرْكَزُ قَوْمًا بَجْهَلُونَ** كأنهم طلبو منه أن يبعد هؤلاء عنه ، ووعدوه أن يجتمعوا به إذا هو فعل ذلك ، فأبى عليهم ذلك وقال : **إِنَّهُمْ مُلْقَوْرَبِهِمْ** أي فأحاف إن طردتهم أفل تذكرون . ولهذا لما سأله كفار قريش رسول الله ﷺ أن يطرد عنه ضعفاء المؤمنين ، كumar وصهيب وبلال وخباب وأشباههم ،

نهاه الله عن ذلك ، كما بيته في سوري الأنعم والكافه .

وَلَا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَرَائِنَ اللَّهِ وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَلَا أَقُولُ إِنِّي مَلِكٌ أي بل أنا عبد ورسول ، لا أعلم من علم الله إلا ما أعلمني به ولا أقدر إلا على ما أقدرني عليه ، ولا أملك لنفسي نفعاً ولا ضرراً إلا ما شاء الله : **وَلَا أَقُولُ لِلَّذِينَ تَرَدَّى أَعْسِنُكُمْ** يعني من أتباعه **لَنْ يُؤْتِهِمُ اللَّهُ خَيْرًا أَلَّا أَعْلَمُ بِمَا فِي أَنْفُسِهِمْ إِنِّي إِذَا لَمْ يَأْتِ الظَّالِمِينَ** أي لا أشهد عليهم بأنهم لا خير لهم عند الله يوم القيمة ، الله أعلم بهم وسيجازيهم على ما في نفوسهم إن خيرا فخير وإن شرا فشر ، كما قالوا في المواضع الأخرى : **أَنْتُمْ لَكَ وَأَتَبَعَكَ الْأَرْذُلُونَ** قال وما علىي بما كانوا يعملون **إِنْ جَسَّاْهُمْ إِلَّا عَلَى رَبِّهِ لَوْ تَشَعُرُونَ** **وَمَا أَنَا بِطَارِدِ الْمُؤْمِنِينَ** **إِنْ أَنَا إِلَّا أَنْذِرُ مُنْذِرِينَ** .

وقد تطاول الزمان والمجادلة بينه وبينهم ، كما قال تعالى : **فَلَيَثْ فِيهِمْ أَلْفَ سَكَةٍ إِلَّا حَسِينَ** عاماً **فَأَخْذَهُمُ الْطُّوفَافُ وَهُمْ ظَلِيلُونَ** أي ومع هذه المدة الطويلة ، ما امن به إلا القليل منهم . وكان كلما انقرض جيل وصوا من بعدهم بعدم الإيمان به ومحاربته ومخالفته . وكان الوالد إذا بلغ ولده وعقل عنه كلامه ، وصاه فيما بينه وبينه ، لا يؤمن بناوح أبداً ما عاش ، ودائماً ما بقي . وكانت سجاياهم تأبى الإيمان واتبع الحق ، ولهذا قال : **وَلَا يَلْدُوْا إِلَّا فَاجِرا** **كَفَارًا** [نوح : ٢٧] .

ولهذا : **فَالْوَالِدُونُ قَدْ جَدَلُتُنَا فَأَكَثَرَتْ جِدَالَنَا فَإِنَّا إِمَّا تَعْدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّدِيقِينَ** قال إنما يألكم به الله إن شاء وَمَا أَنْشَدْ يَعْجِرِينَ أي إنما يقدر على ذلك الله عز وجل ، فإنه الذي لا يعجزه شيء ولا يكتره أمر ، بل هو الذي يقول للشيء كن فيكون .

وَلَا يَنْعَكُمْ نَصْحِي إِنْ أَرَدْتُ أَنْ أَنْصَحَ لَكُمْ إِنْ كَانَ اللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يُغَوِّتُكُمْ هُوَ رَبُّكُمْ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ أي من يرد الله فتنته فلن يملك أحد هدايته ، هو الذي يهدي من يشاء ويضل من يشاء ، وهو الفعال لما يزيد ، وهو العزيز الحكيم ، العليم بمن يستحق الهدایة ، ومن يستحق الغواية ، وله الحکمة البالغة والحجۃ الدامغة .

وَأُوحِيَ إِلَى نُوحَ أَنَّمَا لَنْ يُؤْمِنَ مِنْ قَوْمِكَ إِلَّا مَنْ قَدَّمَ أَمْنَ تسلية له عما كان منهم إليه **فَلَا يَنْتَهِي** بما كانوا يفعلون **وَهَذِهِ تَعْزِيَةٌ لَنُوحٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ** في قومه أنه لن يؤمن منهم إلا من قد أمن =

أي لا يسوعنك ما جرى ، فإن النصر قريب ، والنبا عجب عجيب . « وَاصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَجِّهْنَا وَلَا تُخْطِبْنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُمْ مُغْرَقُونَ » .

وذلك أن نوحًا عليه السلام لما يشـ من صلاهم وفلاحـ ، ورأـ أنه لا خـ فيـهم وتوصـوا إلى أـذـهـ ومخـافـتهـ وتكـذـيهـ بـكـلـ طـرـيقـ ، من فـعالـ وـمـقـالـ ، دـعاـ عـلـيـهـمـ دـعـوـةـ غـضـبـ اللهـ عـلـيـهـمـ فـلـبـيـ اللهـ دـعـوـتـهـ وـأـجـابـ طـلـبـتـهـ ، قـالـ اللهـ تـعـالـىـ : « وَلَقَدْ نَادَنَا نُوحٌ فَلَمَّا نَعْلَمُ الْمُجْرِمُونَ وَجَبَّنَاهُ وَأَهْلَهُ مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ » ، وـقـالـ تـعـالـىـ : « وَتُؤْمِنَ إِذَا سَادَى مِنْ كُثْرَتِنَا لَمْ فَنَجِّنَاهُ وَأَهْلَهُ مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ » ، وـقـالـ تـعـالـىـ : « قَالَ رَبِّيْ إِنَّ قَوْنِي كَذَّابُونَ فَأَفْتَنَنَّهُ وَجَبَّنَهُ وَمَنْ مَعِيْ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ » ، وـقـالـ تـعـالـىـ : « فَدَعَارَبَهُ أَمِّي مَعْلُوبَ فَانْتَصَرَ » وـقـالـ تـعـالـىـ : « قَالَ رَبِّيْ أَنْصَرْنِي بِمَا كَذَّابُونَ » ، وـقـالـ تـعـالـىـ : « مَمَّا كَحَلَّتْنِهِمْ أَغْرَوْنَا فَادْخُلُوا نَارًا فَلَمْ يَجِدُوا لَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَنْصَارًا وَقَالَ نُوحٌ رَبِّي لَا تَذَرْ عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكُفَّارِ إِنَّكَ إِنْ تَذَرْهُمْ يُضْلُلُوا عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوا إِلَّا فَاجْرَأْكَفَارًا » [نوح: ٢٧ - ٢٥] .

[صنع السفينة]:

فاجتمع عليهم خطاياـمـ من كـفرـهـ وـفـجـورـهـ وـدـعـوـةـ نـيـبـهـمـ عـلـيـهـمـ . فـعـنـ ذـكـرـ أـمـرـهـ اللهـ تـعـالـىـ أـنـ يـصـنـعـ الفـلـكـ ، وـهـيـ السـفـيـنةـ العـظـيمـةـ .

وـقـدـ اللهـ تـعـالـىـ إـلـيـهـ أـنـ إـذـ جـاءـ أـمـرـهـ ، وـحـلـ بـهـ بـأـسـهـ الـذـيـ لـاـ يـرـدـ عـنـ القـوـمـ الـمـجـرـمـينـ ، أـنـهـ لـاـ يـعـاـدـهـ فـيـهـ وـلـاـ يـرـاجـعـهـ ، فـإـلـهـ لـعـلـهـ قـدـ يـدـرـكـهـ رـقـةـ عـلـىـ قـوـمـهـ عـنـدـ مـعـاـيـنـةـ الـعـذـابـ النـازـلـ بـهـمـ ، فـاـنـهـ لـيـسـ الـخـبـيرـ كـالـمـعـاـيـنـةـ ؛ وـلـهـاـ قـالـ : « وَلَا تُخْطِبْنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُمْ مُغْرَقُونَ » . « وَاصْنَعِ الْفُلْكَ وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلَأٌ مِنْ قَوْمِهِ سَخِرُوا مِنْهُ » أي : يستهزـونـ مـنـهـ إـسـتـبعـادـاـ لـوقـوعـ ماـ توـعـدـهـ بـهـ « قـالـ إـنـ سـخـرـوـنـاـ فـإـنـ سـخـرـوـنـاـ مـنـكـمـ كـمـاـ سـخـرـوـنـاـ » أي : نـحـنـ الـذـينـ نـسـخـ مـنـكـمـ وـنـتـعـجـبـ مـنـكـمـ فـيـ اـسـتـمـارـكـ عـلـىـ كـفـرـكـ وـعـنـادـكـ الـذـيـ يـقـضـيـ وـقـوـعـ الـعـذـابـ بـكـمـ وـحلـوـهـ عـلـيـكـمـ . « فَسَوْقَ تَعْلَمُونَ مَنْ يَأْتِيـهـ عـذـابـ يـغـرـبـهـ وـيـحـلـ عـلـيـهـ عـذـابـ مـقـيـسـهـ » .

وـقـدـ كـانـ سـجـايـاـهـمـ الـكـفـرـ الغـلـيـظـ وـالـعـنـادـ الـبـالـغـ فـيـ الدـنـيـاـ ، وـهـكـذاـ فـيـ الـآخـرـةـ فـإـنـهـمـ يـجـحدـونـ أـيـضاـ أـنـ يـكـونـ قـدـ جـاءـهـ رـسـولـ ، كـماـ قـالـ الـبـخـارـيـ : (حدـثـنـا مـوـسـىـ بـنـ إـسـمـاعـيلـ ، حدـثـنـا عـبـدـ الـواـحـدـ بـنـ زـيـادـ ، حدـثـنـا الـأـعـمـشـ ، عـنـ أـبـيـ صـالـحـ ، عـنـ أـبـيـ سـعـيدـ قـالـ : قـالـ رـسـولـ اللهـ : « يـحـيـيـ نـوـحـ عـلـيـهـ السـلـامـ وـأـمـتـهـ ، فـيـقـولـ اللهـ عـزـ وـجـلـ : هـلـ بـلـغـتـ؟ فـيـقـولـ : أـيـ ربـ ، فـيـقـولـ لـأـمـتـهـ : هـلـ بـلـغـكـ؟ فـيـقـولـونـ : لـاـ ، مـاـ جـاءـنـاـ مـنـ نـبـيـ ، فـيـقـولـ نـوـحـ : مـنـ يـشـهـدـ لـكـ؟ فـيـقـولـ : مـحـمـدـ وـأـمـتـهـ ، فـشـهـدـ أـنـهـ قـدـ بـلـغـ» ، وـهـوـ قـوـلـهـ تـعـالـىـ : « وَرَكـذـلـكـ جـعـلـتـكـمـ أـشـدـ وـسـطاـ لـتـكـوـنـوـ شـهـدـاءـ عـلـىـ الـأـنـبـيـاءـ وـيـكـوـنـوـ الرـسـوـلـ عـلـيـكـمـ شـهـيدـاـ » (وانـظـرـ صـحـيـحـ الـبـخـارـيـ كـتـابـ الـأـنـبـيـاءـ / حـ ٣٣٣٩) .

والـوـسـطـ : الـعـدـلـ . فـهـذـهـ الـأـمـةـ تـشـهـدـ عـلـىـ شـهـادـةـ نـبـيـهـاـ الصـادـقـ وـالـمـصـدـوقـ ، بـأـنـ اللهـ قـدـ بـعـثـ نـوـحـاـ بـالـحـقـ ، وـأـنـزـلـ عـلـيـهـ الـحـقـ ، وـأـمـرـهـ بـهـ ، وـأـنـهـ بـلـغـهـ إـلـىـ أـمـتـهـ عـلـىـ أـكـملـ الـوـجـوهـ وـأـنـمـهاـ ،

ولم يدع شيئاً مما ينفعهم في دينهم إلا وقد أمرهم به ، ولا شيئاً مما قد يضرهم إلا وقد نهاهم عنه وحدرهم منه .

وهكذا شأن جميع الرسل ، حتى إنه حذر قومه من المسيح الدجال ، وإن كان لا يتوقع خروجه في زمانهم ، حذرا عليهم وشفقة ورحمة بهم .

كما قال البخاري : حدثنا عبدان ، حدثنا عبد الله ، عن يونس ، عن الزهرى ، قال سالم : قال ابن عمر : قام رسول الله ﷺ في الناس فأثنى على الله بما هو أهله ، ثم ذكر الدجال فقال : «إني لأنذركموه ، وما من نبي إلا وقد أنذر قومه . لقد أنذر نوح قومه ، ولكنني أقول لكم فيه قولًا لم يقله نبي لقومه : تعلمون أنه أعور ، وأن الله ليس بأعور» صحيح البخاري (ح ٣٣٣٧) .

وهذا الحديث في الصحيحين أيضاً من حديث شيبان بن عبد الرحمن ، عن يحيى بن أبي كثير ، عن أبي سلمة بن عبد الرحمن ، عن أبي هريرة ، عن النبي ﷺ قال : «ألا أحدثكم عن الدجال حدثنا ما حدث به النبي؟ إنه أعور وإنه يجيء معه بمثال الجنة والنار والتي يقول عليها الجنة هي النار ، وإني أنذركم كما أنذر به نوح قومه . لفظ البخاري (ح ٣٣٣٨) . قال الله تعالى : «فَالَّرَبُّ أَنْصَرَنِي بِمَا كَلَّتِ الْأَيَّلُونَ فَأَوْجَبْنَا إِلَيْهِ أَنْ أَصْبَعَ الْفُلُكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيَنَا» أي بأمرنا لك ، بمرأى منا لصنعتك لها ، ومشاهدتنا بذلك ، لنرشدك إلى الصواب في صيتها . «فَإِذَا جَاءَهُ أَمْرُنَا وَفَارَ النَّئُورُ قَاتَلَ فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ وَاهْلَكَ إِلَّا مَنْ سَبَقَ عَلَيْهِ الْقُولُ مِنْهُمْ وَلَا تُخْطِبُنِي فِي الَّذِينَ طَلَمْوَ إِلَيْهِمْ مُغْرِفُونَ» المؤمنون : ٢٦ - ٢٧ .

فتقدم إليه بأمره العظيم العالي أنه إذا جاء أمره وحل بأسه ، أن يحمل في هذه السفينة من كل زوجين اثنين من الحيوانات ، وسائر ما فيه روح من المأكولات وغيرها لبقاء نسلها ، وأن يحمل معه أهله ، أي أهل بيته ، إلا من سبق عليه القول منهم ، أي إلا من كان كافراً فإنه قد نفذت فيه الدعوة التي لا ترد ، ووجب عليه حلول البأس الذي لا يرد ، وأمر أنه لا يراجعه فيهم إذا حل بهم ما يعاينه من العذاب العظيم ، الذي قد حتمه عليهم الفعال لما يريده . كما قدمنا بيانه قبل .

والمراد بالنور عند الجمهور وجه الأرض ، أي نبع الأرض من سائر أرجائها حتى نبع التانير التي هي محال النار .

[محفوبيات السفينة] :

قوله تعالى : «حَقَّ إِذَا جَاءَهُ أَمْرُنَا وَفَارَ النَّئُورُ قُلْتَ أَخْبُلَ فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ وَاهْلَكَ إِلَّا مَنْ سَبَقَ عَلَيْهِ الْقُولُ وَمَنْ مَآمِنَ وَمَا مَآمِنَ مَعَهُ إِلَّا قَلِيلٌ» هذا أمر بأنه عند حلول النومة بهم أن يحمل فيها من كل زوجين اثنين .

وقوله : «وَاهْلَكَ إِلَّا مَنْ سَبَقَ عَلَيْهِ الْقُولُ» أي من استجيبت فيهم الدعوة النافذة من كفر ، فكان منهم ابنه «يام» الذي غرق كما سيأتي بيانه «وَمَنْ مَآمِنَ» أي واحمل فيها من آمن بك من =

أمتك . قال الله تعالى : ﴿ وَمَا أَمَّنَ مَعْهُ إِلَّا قَلِيلٌ ﴾ هذا مع طول المدة والمقام بين ظهرهم ، ودعوتهم الأكيدة ليلةً ونهاراً بضروب المقال وفنون المتكلفات والتهديد والوعيد تارة والترغيب والوعد أخرى .

قال الله تعالى : ﴿ فَإِذَا أَسْتَوَيْتَ أَنْتَ وَمَنْ مَعَكَ عَلَى الْفَلَكِ فَقُلْ لِمَنْدُّهِ اللَّهُ الَّذِي بَعَثَنَا مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴾ ﴿ وَقُلْ رَبِّنَا أَنْرِلَنِي مُنْزَلًا مُبَارَكًا وَأَنْتَ خَيْرُ الْمُنْزَلِينَ ﴾ .

أمره أن يحمد رباه على ما سخر له من هذه السفينة ، فتجاه بها وفتح بينه وبين قومه ، وأقر عينه من خالقه وكذبه ، كما قال تعالى : ﴿ وَالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ لَكُمْ مِنَ الْفَلَكِ وَالْأَنْعَمِ مَا تَرَكُبُونَ ﴾ ﴿ لَسْتُمْ أَعْلَمُ بِطُهُورِهِ ثُمَّ تَذَرُّوا بِعَهْمَةِ رَبِّكُمْ إِذَا أَسْوَيْتُمْ عَيْنَهُ وَقَوْلُكُمْ سُبْحَنَ الَّذِي سَخَّرَ لَنَا هَذَا وَمَا كَسَّنَا لِمُغْرِبِينَ ﴾ ﴿ وَإِنَّا إِلَيْهِ مُمْلَكُ الْمُقْلَمِينَ ﴾ .

وهكذا يؤمر بالدعاء في ابتداء الأمر : أن يكون على الخير والبركة ، وأن تكون عاقبته محمودة ، كما قال تعالى لرسوله ﷺ حين هاجر : ﴿ وَقُلْ رَبِّي أَدْخِلْنِي مُذْخَلَ صَدِيقٍ وَأَخْرِجْنِي مُخْرَجَ صَدِيقٍ وَاجْعَلْ لِي مِنْ لَدُنْكَ سُلْطَانًا تَصِيرًا ﴾ .

وقد امتنل نوح عليه السلام هذه الوصية وقال : ﴿ أَرْكَبُوْ فِيهَا سِرْرَ اللَّهِ بِحِرْبِهَا وَمُرْسَهَا إِنَّ رَبِّ الْمُفْعُورِ رَحِيمٌ ﴾ أي : على اسم الله ابتداء سيرها وانتهاه ﴿ إِنَّ رَبِّ الْمُفْعُورِ رَحِيمٌ ﴾ ذو عقاب أليم ، مع كونه غفوراً رحيمًا ، لا يرد بأسه عن القوم المجرمين ، كما أحل بأهل الأرض الذين كفروا به وعبدوا غيره .

قال الله تعالى : ﴿ وَهِيَ تَجْرِي بِهِمْ فِي مَوْجٍ كَالْجِبَالِ ﴾ وذلك أن الله تعالى أرسل من السماء مطرًا لم تعهد الأرض قبله ولا تطره بعده ، كان كأفواه القراب ، وأمر الأرض فنبعت من جميع فجاجها وسائر أرجائها كما قال تعالى : ﴿ فَدَعَاهُمْ أَنَّى مَعْلُوبٍ فَأَنْتَصَرَ ﴾ ﴿ فَفَتَحْنَا أَبْوَابَ السَّمَاءِ إِنَّا مُهْبِرٌ ﴾ ﴿ وَفَجَرْنَا الْأَرْضَ عُيُونًا فَالْفَنَقَ الْمَاءَ عَلَى أَمْرٍ قَدْ فَرِّزَ ﴾ ﴿ وَحَمَلْنَاهُ عَلَى ذَاتِ الْوَرْجَ وَدُسْرٍ ﴾ والدرس : المساليم ﴿ تَجْرِي بِأَعْيُنِنَا ﴾ أي : بحفظنا وكلاهنا وحراستنا ومشاهدتنا لها ﴿ جَرَاءَ لَئِنْ كَانَ كُفُرَهُ ﴾ .

[نهاية الطوفان] :

﴿ وَقَبِيلٌ يَتَأَرْضُ أَبَلَعَى مَاءَكُوكَ وَتَسْمَأَهُ أَقْلَعَى وَغَيْصَ أَلَمَاءَ وَقُضَى أَلَمَرُ وَأَسْتَوَتْ عَلَى الْمُجُودِي وَقَبِيلٌ مَعْدًا لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴾ .

أي : لما فرغ من أهل الأرض ، ولم يبق بها أحد من عبد غير الله عز وجل ، أمر الله الأرض أن تتبع ماءها ، وأمر السماء أن تقلع أي تمسك عن المطر ﴿ وَغَيْصَ أَلَمَاءَ ﴾ أي نفس عما كان ﴿ وَقُضَى أَلَمَرُ ﴾ أي وقع بهم الذي كان قد سبق في علمه وقدره ، من إحلاله بهم ما حل بهم ، ﴿ وَقَبِيلٌ مَعْدًا لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴾ أي نودي عليهم بلسان القدرة : بعداً لهم من الرحمة والمغفرة .

كما قال تعالى : ﴿ فَكَذَبُوهُ فَأَنْجَيْنَاهُ وَالَّذِينَ مَعْمَلُهُ فِي الْفَلَكِ وَأَغْرَقْنَا الَّذِينَ كَذَبُوا بِإِيمَانِهِنَّا إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا عَيْنِيْنَ ﴾ . وقال تعالى : ﴿ فَكَذَبُوهُ فَأَنْجَيْنَاهُ وَمَنْ مَعْهُ فِي الْفَلَكِ وَجَعَلْنَاهُمْ حَلَّيْفٍ وَأَغْرَقْنَا الَّذِينَ كَذَبُوا بِإِيمَانِهِنَّا فَانْظَرْ كَيْفَ كَانَ عَيْنَهُ الْمُنْذَرِينَ ﴾ . وقال تعالى : ﴿ وَنَصَرْتُهُمْ مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ كَذَبُوا بِإِيمَانِهِنَّا

ذكر الأحداث التي كانت بين نوح وإبراهيم

خليل الرحمن عليهم السلام

فكان من قصتهم ما حدثنا أبو كريب ، قال: حدثنا أبو بكر بن عياش ، قال: حدثنا عاصم ، عن أبي وائل ، عن الحارث بن حسان البكري ، قال: قدمت على رسول الله ﷺ : فمررت بامرأة بالرَّبْذة ، فقالت: هل أنت حاملي إلى رسول الله ﷺ ؟ قلت: نعم ، فحملتها حتى قدمت المدينة ، فدخلت المسجد ، فإذا رسول الله ﷺ على المنبر ، وإذا بلالٌ متقدّل السيف ، وإذا رايات سود ، قال: قلت: ما هذا؟ قالوا: عمرو بن العاص قدم من عزّوته ، فلما نزل رسول الله ﷺ عن منبره أتيته فاستأذنته ، فأذن له ، فقلت: يا رسول الله ، إن بالباب امرأة من بني تميم ، قد سألتني أن أحملها إليك ، قال: يا بلال ، ائذن لها ، قال: فدخلت ، فلما جلست قال لي رسول الله ﷺ : هل كان بينكم وبين تميم شيء؟ قلت: نعم ، وكانت الدبرة عليهم ، فإن رأيت أن تجعل الدهماء بيننا وبينهم فعلت ، قال: تقول المرأة فأين تضطر مضرك يا رسول الله؟ قال: قلت: مثلّي مثل معزى حملت حتفاً ، قال: قلت: أو حملت تكونين على خصماً! أعود بالله أن أكون كوفد عاد. قال رسول الله ﷺ : وما وفد عاد؟ قال: قلت: على الخبر سقطت؛ إن عاداً قحطت ، فبعثت من يستسقى لها ، فمروا على بكر بن معاوية بمكة يسقيهم الخمر ، وتغشّهم الجرادتان شهراً ، ثم بعثوا رجلاً من عنده ، حتى أتى جبال مهرة ، فدعى ، ف جاءت سحابات ، قال: وكلما جاءت قال: اذهب إلى

=

إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا أَغْرَقْنَاهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿١﴾ . وقال تعالى: «فَأَنْجَيْنَاهُ وَمَنْ مَعَهُ فِي الْقَلْبِ الْمَشْحُونِ

إِنَّهُمْ كَانُوا بَعْدَ آلَّا فَقِنَ

أَغْرَقْنَا بَعْدَ آلَّا فَقِنَ ﴿٢﴾ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذَّةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿٣﴾ وَلَئِنْ رَأَيْكَ أَهُمْ أَعْزَيزُ الْأَرْجَمِ

وقال تعالى: «فَأَنْجَيْنَاهُ وَأَصْحَبَ السَّفِينَكَ وَجَعَلْنَاهَا مَاءِيَةً لِلْعَلَمِينَ

أَلْآخَرِينَ» ، وقال: «وَلَقَدْ زَرَكْنَاهَا مَاءِيَةً فَهَلْ مِنْ مُذَكَّرٍ

لِلَّذِكْرِ فَهَلْ مِنْ مُذَكَّرٍ» ، وقال تعالى: «مَمَّا حَطَّيْنَاهُمْ أَغْرِقْنَا فَأَذْخَلْنَا نَارًا فَمَنْ يَحْمُدُهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَنْصَارًا

وَقَالَ نُوحٌ رَبِّي لَأَنْذَرَ عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكُفَّارِ دَيَارًا ﴿٦﴾ إِنَّكَ إِنْ تَنْذِرُهُمْ يُضْلُلُوا عَبَادَكَ وَلَا يَلْكُلُوا إِلَّا

فَأَحِرَّا كَفَارًا﴾ [سورة نوح].

كذا ، حتى جاءت سحابة ، فنُودي منها: خُذها رماداً رمداً ، لا تدع من عاد أحداً. قال: فسمعه وكتّمهم حتى جاءهم العذاب^(١). (١: ٢١٧ / ٢١٨).

قال أبو كريب: قال أبو بكر بعد ذاك في حديث عاد ، قال: فأقبل الذي أتاهم ، فأتى جبال مَهْرَة فصعد فقال: اللهم إني لم أجئك لأسير فأفاديه ، ولا لمريض أشفيه ، فاسق عاداً ما كنت مُسْقِيَه! قال: فرفعت له سحابات . قال: فنُودي منها: اختر ، فجعل يقول: اذهب إلىبني فلان اذهب إلىبني فلان . قال: فمررت آخرها سحابة سوداء؛ فقال: اذهب إلى عاد. قال: فنُودي منها: خُذها رماداً رمداً ، لا تدع من عاد أحداً. قال: وكتّمهم والقوم عند بكر بن معاوية يشربون . قال: وكره بكر بن معاوية أن يقول لهم من أجل أنهم عنده ، وأنهم في طعامه . قال: فأخذ في الغناء وذَكَرَه^(٢). (١: ٢١٨).

حدثنا أبو كريب ، قال: حدثنا زيد بن حُبَاب ، قال: حدثنا سَلَامُ أبو المتندر النَّحْوِي ، قال: حدثنا عاصم ، عن أبي وائل ، عن العارث بن يزيد البكري ، قال: خرجت لأشكوا العلاء بن الحضرمي إلى رسول الله ﷺ ، فمررت بالرَّبَذَة ، فإذا عجوز منقطع بها منبني تميم ، فقالت: يا عبد الله ، إن لي إلى رسول الله حاجة ، فهل أنت مُبلغٍ إليه؟ قال: فحملتها ، فقدمت المدينة - قال أبو جعفر: أظنه قال: «إِذَا رَأَيْتُ سُودًا» - قال: قلت: ما شأن الناس؟ قالوا: يريد أن يبعث بعمرو بن العاص وجهاً. قال: فجلست حتى فرغ ، قال: فدخل منزله - أو قال رَحْلَه - فاستأذنتُ عليه ، فأذن لي. قال: فدخلت فقعدت ، فقال لي رسول الله ﷺ : هل كان بينكم وبين تميم شيء؟ قال: قلت: نعم ، وكانت الدَّبَّرة عليهم ، وقد مررت بالرَّبَذَة ، فإذا عجوز منهم منقطع بها ، فسألتني أن أحملها إليك ، وهما هي بالباب ، فأذن لها رسول الله ﷺ فدخلت ، فقلت: يا رسول الله ، اجعل بيننا وبين تميم الدَّهَنَاء حاجزاً ، فحِمِيت العجوز واستوفرت ، وقالت: فأين تضطر

(١) هذا إسناد حسن صحيح والحديث أخرجه أَحْمَد (ح ١٥٩٥٣) من طريق سلام أبي المتندر عن عاصم بن بهدلة عن أبي وائل عن العارث بن حسَّان قال: مررت بعجز بالربذة منقطع بها منبني تميم... الحديث مع اختلاف في الألفاظ ، والحديث أخرجه غير واحد كما سنبين بعد الرواية الآتية.

(٢) صحيح.

مضرك يا رسول الله؟ قال: قلت: أنا كما قالوا: «معزى حملت حتفاً»، حملت هذه ولا أشعر أنها كائنة لي خصماً، أعود بالله ورسوله أن أكون كواحد عاد! قال: وما واحد عاد؟ قلت: على العجب سقطت، قال: وهو يستطيعني الحديث قلت: إن عاداً قحطوا فبعثوا «قينلاً» واحداً، فنزل على بكر، فسقاهم الخمر شهراً، وتغنى جاريتان يقال لهما الجرادتان، فخرج إلى جبال مهرة، فنادى: إني لم أجيء لمريض فأداويه، ولا لأسير فأفاديه، اللهم اسوق عاداً ما كنت تُسوقه! فمررت به سحابات سود، فنودي منها: خذها رماداً رمداً، لا تبقي من عاد أحداً. قال: فكانت المرأة تقول: لا تكن كواحد عاد، فما بلغني أنه أرسل عليهم من الريح يا رسول الله إلا قدّر ما يجري في خاتمي. قال أبو وائل: وكذلك بلغني^(١). (٢١٨ : ٢١٩).

حدثنا القاسم ، قال: حدثنا الحسين ، قال: حدثنا حجاج ، عن ابن جرير ، قال: حدثت أنه لما أخذتهم الصيحة أهلك الله من بين المشارق والمغارب منهم ، إلا رجلاً واحداً كان في حرام الله ، منعه حرم الله من عذاب الله قيل: ومن هو يا رسول الله؟ قال: أبو رغال ، وقال رسول الله ﷺ حين أتى على قرية ثمود لأصحابه: «لا يدخلن أحدكم القرية ، ولا تشربوا من مائهم» ، وأراهم مرتفقى الفضيل ، حين ارتقى في القارة.

قال ابن جرير: وأخبرني موسى بن عقبة ، عن عبد الله بن دينار ، عن ابن عمران ، أن النبي ﷺ حين أتى على قرية ثمود قال: «لا تدخلن على هؤلاء

(١) هذا إسناد حسن صحيح والحديث أخرجه أحمدرد (ح ١٥٩٥٤) من طريق زيد بن حبان (كما عند الطبرى) وإسناده حسن ، وحديث الحارث هذا أخرجه الترمذى مختصراً كما عند أحمدرد والطبرى وقال: روى غير واحد هذا الحديث عن سلام أبي المنذر عن عاصم بن أبي النجود عن أبي وائل عن الحارث بن حسان ويقال الحارث بن يزيد. اهـ. (سنن الترمذى/ ح ٣٢٧٣).

والحديث أخرجه النسائي في السنن الكبرى (ح ٨٦٠٧).

ولقد حسن الحافظ ابن حجر إسناده من روایة أحمدرد وقال: والظاهر أنه في قصة عاد الأخيرة لذكر مكة فيه وإنما بنيت بعد إبراهيم حين أسكن هاجر وإسماعيل بواد غير ذي زرع ، فالذين ذكروا في سورة الأحقاف هم عاد الأخيرة (فتح الباري ٩ / ٥٥١).

المعدبين إلا أن تكونوا باكين ، فإن لم تكونوا باكين فلا تدخلوا عليهم؛ أن يصيّبكم ما أصابهم».

قال ابن جريج : قال جابر بن عبد الله : إن النبي ﷺ لما أتى على الحجر ، حمد الله وأثنى عليه ثم قال : «أما بعد ، فلا تسألو رسلكم الآيات ، هؤلاء قوم صالح سألا رسولهم الآية ، فبعث الله لهم الناقة ، فكانت تردد من هذا الفج وتصدر من هذا الفج ، فتشرب ماءهم يوم وردها»^(١) . (١ : ٢٣١) .

(١) لقد ذكر الطبرى هنا حديثاً في قصة واحدة ولكن فرقه على ثلاثة أسانيد ، الأول من طريق ابن جريج قال : حدثت ، والثانى من طريق ابن جريج عن موسى بن عقبة عن عبد الله بن دينار عن ابن عمران مرفوعاً.

والثالث من طريق ابن جريج عن جابر مرفوعاً ، والحديث رواه غير واحد من الأئمة مختصراً ومطولاً وفي أسانيد أكثرها ضعيف سوى طريق سنذكرها .
أخرج أحمد في مسنده من طريق عبد الله بن عثمان بن خثيم عن أبي الزبير عن جابر قال : لما مر النبي ﷺ بالحجر قال لا تسألو الآيات وقد سألها قوم صالح فكانت ترد من هذا الفج وتصدر من هذا الفج فعصوا عن أمر ربهم فعقروها وكانت تشرب ماءهم يوماً ويشربون لبناها يوماً ، فعقروها فأخذتهم صيحة أهمل الله من تحت أديم السماء منهم ، إلا رجلاً واحداً كان في حرم الله ، قيل : من هو يا رسول الله؟ قال : أبو رغال ، فلما خرج من الحرم أصابه ما أصاب قومه).

(مسند أحمد / ح ١٤١٦٠).

وقال الهيثمي : رواه الطبراني في الأوسط والبزار وأحمد بن حنوه ورجال أحمد رجال الصحيح وقد تقدمت لهذا الحديث طرق مختصرة في غزوة تبوك (مجمع الزوائد ومنبع الفوائد / ح ١٠٧٨).

قلنا : وحديث جابر (عند أحمد) أورده الحافظ ابن كثير وقال : وهذا الحديث على شرط مسلم وليس هو في شيء من الكتب الستة (قصص الأنبياء / ١١٢).

قلنا : وحديث جابر هذا أخرجه الحكم (٣٤١/٢) وصححه ووافقه الذهبي وأخرجه الطحاوي في شرح المشكك (ح ٣٧٥٧) وقال العلامة أرناؤوط : وسنته قوي (انظر مسند أحمد / ح ١٤١٦٠).

قلنا : والحديث أخرجه الطبراني (ح ١٢٩٣١) وأورده الحافظ البوصيري من طريق محمد بن يحيى بن أبي عمر ثنا يحيى بن سليم عن ابن خثيم عن أبي الزبير ثنا جابر أن رسول الله ﷺ لما نزل الحجر في غزوة تبوك ... الحديث) ولم يسم الرجل ، وقال البوصيري : هذا إسناد صحيح (إتحاف الخيرة المهرة / ٨ / ح ٧٧١٣).

وأخرج البخاري في صحيحه (كتاب المغازي / ح ٤٤٢٠) عن ابن عمر رضي الله عنهما قال :

حدثني إسماعيل بن الم توكل الأشعري ، قال: حدثنا محمد بن كثير ، قال: حدثنا عبد الله بن واقد ، عن عبد الله بن عثمان بن خثيم ، قال: حدثنا أبو الطفيلي قال: لما غزا رسول الله ﷺ غزوة تبوك ، نزل الحجر فقال: «أيها الناس لا تسألوا نبيكم الآيات ، هؤلاء قوم صالح سألوا نبئهم أن يبعث لهم آية ، فبعث الله تعالى ذكره لهم الناقة آية ، فكانت تلجم عليهم يوم وردها من هذا الفج فتشرب ماءهم ، ويوم وردهم كانوا يتزودون منه ، ثم يحلبونها مثل ما كانوا يتزودون من مائهم قبل ذلك لينا ، ثم تخرج من ذلك الفج . فعتوا عن أمر ربهم وعقروها ، فوعدهم الله العذاب بعد ثلاثة أيام ، وكان وعداً من الله غير مكذوب ، فأهلك الله منْ كان منهم في مشارق الأرض وغاربها إلّا رجلاً واحداً كان في حرم الله ، فمنعه حرم الله من عذاب الله ، قالوا: ومن ذلك الرجل يا رسول الله؟ قال: أبو رغال^(١) .

(١) ٢٣٢ / ٢٣٢ .

ذكر إبراهيم خليل الرحمن عليه السلام وذكر من كان في عصره من ملوك العجم

قال أبو جعفر: رجع الحديث إلى حديث ابن إسحاق.

ثم أقبل عليهم كما قال الله عزّ وجلّ: «صَرِيَّا إِلَيْمَين» . ثم جعل يكسرهنّ بفأس

قال رسول الله ﷺ لأصحاب الحجر: «لا تدخلوا على هؤلاء المعدبين إلّا أن تكونوا باكين أن يصيّبكم مثل ما أصابهم» .

وأخرجه أحمد في مسنده عن عبد الله بن عمر كما في (٥٩٨٤) عن ابن عمر قال: (لما نزل رسول الله ﷺ بالناس عام تبوك نزل بهم الحجر عند بيوت ثمود... الحديث وفي آخره (ونهاهم أن يدخلوا على القوم الذين عذبوا ، قال: إني أخشى أن يصيّبكم مثل ما أصابهم فلا تدخلوا عليه» .

قلنا: وإسناده صحيح والحديث أخرجه مسلم (ح ٢٩٨١) وابن حبان (ح ٥٩٩١) من مسنّد عبد الله بن عمر رضي الله عنهما.

(١) إسناده ضعيف ولكن المتن صحيح (مختصر عن الذي قبله) فالحديث هنا صحيح لغيره والله أعلم.

وسبق أن ذكرنا رواية الإمام أحمد في مسنده (ح ١٤٦٠) عن جابر رضي الله عنه قال: لما مرَّ رسول الله ﷺ بالحجر قال: «لا تسألوا الآيات فقد سألها قوم صالح... . . . الحديث». وانظر الرواية السابقة فقد ذكرنا الحديث بتمامه.

في يده ، حتى إذا بقيَ أعظمُ صنم منها ربط الفأس بيده ، ثم تركهنَ ، فلما رجع قومه رأوا ما صنع بأصنامهم ، فراغمهم ذلك ، فأعظموه و﴿قَالُوا مَنْ فَعَلَ هَذَا بِإِلَهِنَا إِنَّمَا لِئَنَ الظَّالِمِينَ﴾ . ثم ذكروا فـ﴿قَالُوا سَمِعْنَا فَتَيَّذَ كُرُومُهُمْ يُقَالُ لَهُ إِبْرَاهِيمُ﴾ - يعنيون فتىً يسبها ويعيبها ويستهزء بها ، لم نسمع أحداً يقول ذلك غيره ، وهو الذي نظن صنع هذا بها . وبلغ ذلك نمرود وأشراف قومه ، فقالوا: ﴿فَاتَّوْبُهُ عَلَىٰ أَعْيُنِ النَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَشَهُدُونَ﴾ أي: ما يصنع به^(١) . (١: ٢٣٨ / ٢٣٩).

رجوع الحديث إلى حديث ابن إسحاق :

قال : فلما أتَى به فاجتمع له قومه عند ملكهم نمرود ، قالوا: ﴿أَئْنَتَ فَعَلْتَ هَذَا بِإِلَهِنَا يَتَابِ إِبْرَاهِيمَ﴾ قالَ بَلْ فَعَلَهُمْ كَيْرُومُهُمْ هَذَا فَسَلَوْهُمْ إِنْ كَانُوا يَنْطَقُونَ﴾ ، غضب من أن يعبدوا معه هذه الصغار وهو أكبر منها ، فكسرهن ، فارعوا ورجعوا عنه فيما ادعوا عليه من كسرهن إلى أنفسهم فيما بينهم ، فقالوا: لقد ظلمناه وما نراه إلا كما قال . ثم قالوا وعرفوا أنها لا تضر ولا تنفع ولا تبطش: ﴿لَقَدْ عَلِمْتَ مَا هَتُّلَاءِ يَنْطَقُونَ﴾ ، أي لا يتكلمون فيخبرونا: مَنْ صنع هذا بها ، وما تبطش بالأيدي فصدقك ، يقول الله عز وجل: ﴿ثُمَّ ثَكْسُوا عَلَىٰ رُؤُوسِهِمْ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا هَتُّلَاءِ يَنْطَقُونَ﴾ ، أي نكسوا على رؤوسهم في الحجة عليهم لإبراهيم حين جادلهم ، فقال عند ذلك إبراهيم حين ظهرت الحجة عليهم بقولهم: ﴿لَقَدْ عَلِمْتَ مَا هَتُّلَاءِ يَنْطَقُونَ﴾ قالَ أَفَتَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُكُمْ شَيْئاً وَلَا يَضُرُّكُمْ﴾ أَفَ لَكُمْ وَلَمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ .

قال : وحاجَهُ قومه عند ذلك في الله جل ثناوه يستوصفونه إياه ويخبرونه أنَّ أهله خير مما يعبد ، فقال: ﴿أَنْتُ بَحْرُنِي فِي اللَّهِ وَقَدْ هَدَنِي﴾ ، إلى قوله: ﴿فَأَئُ الْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِالآمِنِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ ، يضرب لهم الأمثال ، ويصرّف لهم العبر ، ليعلموا أنَّ الله هو أحقٌ أن يُخاف ويعبد مما يعبدون من دونه^(٢) . (١: ٢٣٩ / ٢٤٠).

(١) صحيح.

(٢) صحيح.

(٣) مadam الحديث عن تحرير إبراهيم عليه السلام فلا بأس أن نذكر هنا حدثاً لم يخرجه الطبرى في تاريخه فقد أخرج البخارى في صحيحه عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال:

قال أبو جعفر : ثم إن نمرود - فيما يذكرون - قال لإبراهيم : أرأيت إلهك هذا الذي تعبد وتدعوه إلى عبادته ، وتدكره من قدرته التي تعظمه بها على غيره ما هو ؟ ﴿قَالَ إِنْزَهُمْ رَبِّ الَّذِي يُتَّسِّعُ وَأَمْيَتُ﴾ ، فقال نمرود : فأنا ﴿أَحَيٌّ وَأَمْيَتُ﴾ ، فقال له إبراهيم : كيف تحسي وتميت ؟ قال : آخذ الرجلين قد استوجبا القتل في حكمي ، فأقتل أحدهما فأكون قد أمهته ، وأغفو عن الآخر فأتركه فأكون قد أحسيته ، فقال له إبراهيم عند ذلك : ﴿فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالشَّمِسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأَتَيْتُ بِهَا مِنَ الْعَغْرِبِ﴾ ، فعرف أنه كما يقول ، فبئثت عند ذلك نمرود ولم يرجع إليه شيئاً ، وعرف أنه لا يطيق ذلك . يقول الله عز وجل : ﴿فَبَهُتَ الَّذِي كَفَرَ﴾ ، يعني وقعت عليه الحجفة .

قال : ثم إن نمرود وقومه أجمعوا في إبراهيم فقالوا : ﴿حَرَقُوهُ وَأَنْصِرُوهُ إِلَيْهِمْ كُنُّمْ فَعَلَيْكَ﴾^(١) . (١: ٢٤٠) .

حدثنا أبو كريب ، قال : حدثنا أبوأسامة ، قال : حدثني هشام ، عن محمد ، عن أبي هريرة ، أن رسول الله ﷺ : قال : «لم يكذب إبراهيم عليه السلام غير ثلات : ثنتين في ذات الله ، قوله ﴿إِنِّي سَقِيمٌ﴾ ، وقوله : ﴿بَلْ فَعَلَهُ كَيْرُهُمْ هَذَا﴾ . وبينما هو يسير في أرض جبار من الجبارية ، إذ نزل منزلة ، فأتى الجبار رجل فقال : إن في أرضك - أو قال : ها هنا - رجلاً معه امرأة من أحسن الناس ، فأرسل إليه ، فجاء فقال : ما هذه المرأة منك ؟ قال : هي أختي ، قال : اذهب فأرسل بها إلي ، فانطلق إلى سارة ، فقال : إن هذا الجبار قد سألني عنك فأخبرته أنك أختي فلا تكذبني عنده ، فإنك أختي في كتاب الله ، فإنه ليس في الأرض مسلم غيري وغيرك ، قال : فانطلق بها وقام إبراهيم عليه السلام يصلي قال : فلما دخلت عليه فرآها أهوى إليها وذهب يتناولها ، فأخذ أخذًا شديداً ، فقال : ادعني

= (يلقى إبراهيم أباه آزر يوم القيمة وعلى وجه آزر قترة وغبرة فيقول له إبراهيم ألم أقل لك لا تعصيني فيقول له أبوه : فالليوم لا أعصيك فيقول إبراهيم يا رب إنك وعدتني أن لا تخربني يوم يبعثون ، وأي خزي أخزى من أبي الأبعد !).

فيقول الله : إني حرمت الجنة على الكافرين . ثم يقال : يا إبراهيم ما تحت رجليك ؟ فينظر فإذا هو بذبح متلطف فيؤخذ بقوائمه فيلقى في النار).

(١) ذكره الطبرى بلا إسناد وهو تفسير للأيات القرآنية والمعنى صحيح .

الله ولا أضررك ، فدعت له فأرسل فأهوى إليها فذهب يتناولها ، فأخذأخذاً شديداً ، فقال: ادعى الله ولا أضررك ، فدعت له فأرسل ، ثم فعل ذلك الثالثة ، فأخذ ، فذكر مثل المرتين فأرسل . قال: فدعا أدنى حُجَّابه فقال: إنك لم تأتني بإنسان ، ولكنك أتيتني بشيطان ، أخرجها وأعطيها هاجر ، فأخرجت وأعطيت هاجر ، فأقبلت بها ، فلما أحسن إبراهيم بمجيئها انقتل من صلاته ، فقال: مهمم ! فقالت: كفى الله كيد الفاجر الكافر ! وأخدم هاجر».

قال محمد بن سيرين: فكان أبو هريرة إذا حدث هذا الحديث يقول: فتلك أمكم يابني ماء السماء^(١). (١: ٢٤٥ / ٢٤٦).

حدثنا ابن حميد ، قال: حدثنا سلمة ، قال: حدثنا محمد بن إسحاق ، عن عبد الرحمن بن أبي الزناد ، عن أبيه ، عن عبد الرحمن الأعرج ، عن أبي هريرة ، قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «لم يقل إبراهيم شيئاً قطّ «لم يكن» إلا ثلاثة: قوله: «إِنِّي سَقِيمٌ» لم يكن به سقم ، قوله: «بَلْ فَعَلَمْ كَبِيرُهُمْ هَذَا فَسَأَلُوهُمْ إِنْ كَانُوا يَنْطَفِقُونَ» ، قوله لفرعون حين سأله عن سارة فقال: مَنْ هذه المرأة معك؟ قال: أختي ، قال: فما قال إبراهيم عليه السلام شيئاً قطّ «لم يكن» إلا ذلك»^(٢). (١: ٢٤٦).

حدثني سعيد بن يحيى الأموي ، قال: حدثني أبي ، قال: حدثنا محمد بن إسحاق ، قال: حدثنا أبو الزناد ، عن عبد الرحمن الأعرج ، عن أبي هريرة ، قال: قال رسول الله ﷺ: «لم يكذب إبراهيم في شيء قطّ إلا في ثلاثة...». ثم ذكر نحوه^(٣). (١: ٢٤٦).

(١) هذا إسناد صحيح والحديث أخرجه البخاري من طريق الأعرج عن أبي هريرة مرفوعاً دون قوله (لم يكذب إبراهيم عليه السلام غير ثلاثة ثنتين في ذات الله قوله إني سقيم) وقوله (بل فعله كبيرهم هذا) (صحيح البخاري / كتاب البيوع / ح ٢٢١٧).

وأخرجه البخاري من طريق محمد بن سيرين عن أبي هريرة مرفوعاً (لم يكذب إبراهيم إلا ثلاثة كذبات) صحيح البخاري / كتاب أحاديث الأنبياء / ح ٣٣٥٧.

(٢) شيخ الطبرى في هذا الإسناد ضعيف وفيه محمد بن إسحاق مدلساً وقد عنون ولم يصرح بالتحديث إلا أن الحديث صحيح كما سبق ولم نجد فيما بين أيدينا من الروايات لفظة (فرعون) بدلاً من لفظة (جبار) والله أعلم.

(٣) صحيح.

حدثنا أبو كريب ، قال: حدثنا أبوأسامة ، قال: حدثني هشام ، عن محمد ، عن أبي هريرة ، أن رسول الله ﷺ قال: «لم يكذب إبراهيم غير ثلاث: ثنتين في ذات الله ، قوله: ﴿إِنِّي سَقِيمٌ﴾ ، قوله: ﴿بَلْ فَعَلَهُ كَيْرُهُمْ هَذَا﴾ ، قوله في سارة: هي أختي»^(١). (١: ٢٤٦).

حدثني ابن حميد ، قال: حدثنا جرير ، عن مغيرة ، عن المسيب بن رافع ، عن أبي هريرة قال: ما كذب إبراهيم عليه السلام غير ثلاث كذبات: قوله: ﴿إِنِّي سَقِيمٌ﴾ ، قوله: ﴿بَلْ فَعَلَهُ كَيْرُهُمْ هَذَا﴾ ، وإنما قاله موعدة وقوله حين سأله الملك فقال: أختي - لسارة - وكانت امرأته^(٢). (١: ٢٤٧).

حدثني يعقوب ، قال: حدثني ابن علية ، عن أيوب ، عن محمد ، قال: إن إبراهيم لم يكذب إلا ثلاث كذبات: ثنتان في الله ، وواحدة في ذات نفسه ، وأما الشتان فقوله: ﴿إِنِّي سَقِيمٌ﴾ ، قوله: ﴿بَلْ فَعَلَهُ كَيْرُهُمْ هَذَا﴾ وقصته في سارة. وذكر قصتها وقصة الملك^(٣). (١: ٢٤٧).

حدثنا ابن حميد ، قال: حدثنا سلمة ، قال: حدثني ابن إسحاق ، عن الزهري ، عن عبد الرحمن بن عباد الله بن كعب بن مالك الأنباري ، قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا فتحتم مصر فاستوصوا بأهلها خيراً ، فإن لهم ذمة ورحاماً»^(٤). (١: ٢٤٧).

(١) صحيح.

(٢) شيخ الطبرى هنا ضعيف وهو موقف ولكن منه صحيح وكذلك أخرجه البخارى.

(٣) هذا إسناد مرسل صحيح.

(٤) هذا إسناد مرسل ولقد روى الطبراني في المعجم الكبير (١٩/٦١) عن كعب بن مالك قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: إذا فتحت مصر فاستوصوا بالقطب خيراً فإن لهم دماً ورحاماً. وأخرج أبو يعلى (١٤٧٣/٣) قال رسول الله ﷺ: «إنكم ستقدمون على قوم جعد رؤوسهم فاستوصوا بهم خيراً فإنهم قوة لكم وإبلاغ إلى عدوكم يا ذن الله تعالى» يعني قبط مصر. وأخرج مسلم عن أبي ذر رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إنكم ستقدمون أرضاً يذكر فيها القراءات فاستوصوا بأهلها خيراً ، فإن لهم ذمة ورحاماً فإذا رأيتم رجلين يقتتلان في موضع لبنيه فاخرج منها» (صحيح مسلم / كتاب فضائل الصحابة/ ٢٦٦ / ح ٢٥٤٣).

وأخرج مسلم عن أبي ذر مرفوعاً: (إنكم ستفتحون مصرًا وهي أرض يسمى فيها القراءات فإذا افتتحتموها فأحسنوا إلى أهلها فإن لهم ذمة ورحاماً... الحديث. (صحيح مسلم / ٢٢٦ =

ذكر أمر بناء البيت

حدثني يعقوب بن إبراهيم والحسن بن محمد ، قالا: حدثنا إسماعيل بن إبراهيم ، عن أيوب ، قال: ثُبَّتْ عن سعيد بن جبير أنه حدث عن ابن عباس أن أَوَّلَ مِنْ سَعِيٍّ بَيْنَ الصَّفَا وَالْمَرْوَةِ لِأَمِّ إِسْمَاعِيلَ ، وَأَنَّ أَوَّلَ مَنْ أَحْدَثَ مِنْ نِسَاءِ الْعَرَبِ جَرَّ الذِّيولَ لِأَمِّ إِسْمَاعِيلَ . قال: لما فرَّتْ مِنْ سَارَةَ أَرْخَتْ ذِيلَهَا لِتَعْفِي أَثْرَهَا ، فجاءَ بَهَا إِبْرَاهِيمُ وَمَعَهَا إِسْمَاعِيلَ حَتَّى انتَهَى بِهِمَا إِلَى مَوْضِعِ الْبَيْتِ ، فَوَضَعُوهُمَا ثُمَّ رَجَعَ ، فَاتَّبَعَهُ فَقَالَتْ: إِلَى أَيِّ شَيْءٍ تَكْلَنَا؟ إِلَى طَعَامٍ تَكْلَنَا؟ إِلَى شَرَابٍ تَكْلَنَا؟ لَا يَرِدُ عَلَيْهَا شَيْءٌ ، فَقَالَتْ: اللَّهُ أَمْرَكَ بِهَذَا؟ قَالَ: نَعَمْ ، قَالَتْ: إِذَا لَا يَضِيقُونَا ، قَالَ: فَرَجَعَتْ وَمَضَى حَتَّى إِذَا اسْتَوَى عَلَى ثَيَّةَ كَدَاءَ ، أَقْبَلَ عَلَى الْوَادِي فَقَالَ: ﴿رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنْتُ مِنْ ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِنْدَ بَيْنِكَ الْمَحْرَمٌ . . .﴾ الآية . قال: وَمَعَ الْإِنْسَانَةِ شَتَّى فِيهَا مَاءً ، فَنَفَذَ الْمَاءُ ، فَعَطَشَتْ فَانْقَطَعَ لِبُنْهَا ، فَعَطَشَ الصَّبِيُّ فَنَظَرَتْ: أَيَّ الْجَبَالَ أَدْنَى إِلَى الْأَرْضِ ، فَصَعَدَتِ الصَّفَا فَتَسْمَعَتْ: هَلْ تَسْمَعُ صَوْتًا ، أَوْ تَرَى أَنْيَسًا؟ فَلَمْ تَسْمَعْ شَيْئًا فَانْحَدَرَتْ ، فَلَمَّا أَتَتْ عَلَى الْوَادِي سَعَتْ - وَمَا تَرِيدُ السَّعْيَ - كَالْإِنْسَانِ المَجْهُودِ الَّذِي يَسْعِي وَمَا يَرِيدُ السَّعْيَ ، فَنَظَرَتْ أَيَّ الْجَبَالَ أَدْنَى إِلَى الْأَرْضِ ، فَصَعَدَتِ الْمَرْوَةُ ، فَتَسْمَعَتْ: هَلْ تَسْمَعُ صَوْتًا أَوْ تَرَى أَنْيَسًا؟ فَسَمِعَتْ صَوْتًا ، فَقَالَتْ كَالْإِنْسَانِ الَّذِي يَكْذِبُ سَمْعَهُ: صَه! حَتَّى اسْتِيقَنْتُ ، فَقَالَتْ: قَدْ أَسْمَعْتَنِي صَوْتَكَ فَأَغْنَيْتَنِي ، فَقَدْ هَلَكَتْ وَهَلَكَ مَنْ مَعِي ، فَجَاءَ الْمَلَكُ بَهَا حَتَّى انتَهَى بَهَا إِلَى مَوْضِعِ زَمْزَمَ ، فَضَرَبَ بِقَدْمِهِ فَفَارَتْ عَيْنًا ، فَعَجَلَتِ الْإِنْسَانَةُ تُفْرَغُ فِي شَتَّهَا ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «رَحْمَ اللَّهِ أَمِّ إِسْمَاعِيلَ ، لَوْلَا أَنَّهَا عَجَلَتِ لَكَانَتْ زَمْزَمَ عَيْنًا مَعِينًا».

وقال لها الملك: لا تخافي الظماً على أهل هذا البلد؛ فإنها عين يشرب ضيفان الله منها ، وقال: إن أبا هذا الغلام سيجيء فيبينان الله بيتهً هذا موضعه . قال: ومررت رفقة من جرهم تريد الشأم ، فرأوا الطير على الجبل ، فقالوا: إن هذا الطير لعائق على ماء ، فهل علمتم بهذا الوادي من ماء؟ فقالوا: لا ،

٢٥٤٣) وأخرجه الحاكم (٥٥٣/٢) من طريق الزهرى عن ابن كعب بن مالك عن أبيه كعب بن مالك مرفوعاً وصححه الحاكم على شرط الشيخين ووافقه الذهبي .

فأشروا فإذا هم بالإنسانة ، فأتواها فطلبوا إليها أن ينزلوا معها ، فأذنت لهم ، قال : وأتى عليها ما يأتي على هؤلاء الناس من الموت ، فماتت وتزوج إسماعيل امرأة منهم ، فجاء إبراهيم فسأل عن منزل إسماعيل حتى دلّ عليه فلم يجده ، ووجد امرأة له فَظَّة غليظة ، فقال لها : إذا جاء زوجك فقولي له : جاءها هنا شيخ من صفتة كذا وكذا ، وأنه يقول لك : إنني لا أرضي لك عتبة بابك فحوّلها ، وانطلق . فلما جاء إسماعيل أخبرته فقال : ذلك أبي ، وأنت عتبة بابي . فطلقتها ، وتزوج امرأة أخرى منهم ، وجاء إبراهيم حتى انتهى إلى منزل إسماعيل فلم يجده ووجد امرأة له سهلة طلقة فقال لها : أين انطلق زوجك ؟ فقالت : انطلق إلى الصيد ، قال : فما طعامكم ؟ قالت : اللحم والماء ، قال : اللهم بارك لهم في لحمهم ومائهم ، ثالثاً . وقال لها : إذا جاء زوجك فأخبريه ؛ قولي له جاءها هنا شيخ من صفتة كذا وكذا ، وإنه يقول لك : قد رضيتك لك عتبة بابك ، فأثبتها ، فلما جاء إسماعيل أخبرته ، قال : ثم جاء الثالثة ، فرفعا القواعد من البيت^(١) .

(١) ٢٥٦ / ٢٥٧ .

حدثنا الحسن بن محمد ، قال : حدثنا يحيى بن عباد ، قال : حدثنا حماد بن سلمة ، عن عطاء بن السائب ، عن سعيد بن جُبير ، عن ابن عباس قال : جاء إبراهيم نبي الله بإسماعيل وهاجر فوضعهما بمكة في موضع زمزم ، فلما مضى نادته هاجر : يا إبراهيم ، إنما أسألك ثلاث مرات : مَنْ أَمْرَكَ أَنْ تضعني بأرض

(١) الحديث أخرجه البخاري (ح ٣٣٦٤) و (٣٣٦٥) عن ابن عباس ، وقال ابن حجر : وأما ابن عباس فإن كان لم يسمعه من النبي ﷺ فهو من مرسل الصحابة .

وأما ابن كثير فقال : وهذا الحديث من كلام ابن عباس وموشح برفع بعضه وفي بعضه غرابة وكأنه مما تلقاه ابن عباس من الإسرائيлик (قصص الأنبياء / ١٣٧) .

وقال العلامة أحمد شاكر رحمه الله : وهذا عجب منه (أي من ابن كثير) فما كان ابن عباس من يتلقى الإسرائيлик . ثم إن سياق الحديث يفهم منه ضمناً أنه مرفوع كله ثم لو سلمنا أن أكثره موقوفاً فما هناك دليل أو شبه دليل على أنه من الإسرائيлик بل يكون الأقرب مما عرفته قريش وتدوالته على مر السنين من حديث جديهم إبراهيم وإسماعيل فقد يكون بعضه صحيحاً وبعضه خطأ .

ولكن الظاهر عندي أنه مرفوع كله في المعنى (وانظر البداية والنهاية ١٤٧ / ١) ومسند أحمد (ح ٣٢٥٠) بتحقيق الشيخ أرناؤوط .

ليس فيها زرع ولا ضرع ولا أنيس ولا ماء ولا زاد؟ قال: ربى أمري ، قالت: فإنه لن يضيعنا ، قال: فلما قفا إبراهيم قال: ﴿رَبَّنَا إِنَّكَ تَعْلَمُ مَا يَخْفِي وَمَا نَعْلَمُ﴾ يعني من الحزن ﴿وَمَا يَخْفِي عَلَى اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ﴾ . فلما ظمئ إسماعيل جعل يدحص الأرض بعقبه فذهب هاجر حتى علت الصفا ، والوادي يومئذ لآخر - يعني عميق - فصعدت الصفا ، فأشرفت لتنظر: هل ترى شيئاً؟ فلم تر شيئاً ، فانحدرت فبلغت الوادي ، فسمعت فيه حتى خرجت منه ، فأنت المروءة فصعدت فاستشرفت: هل ترى شيئاً؟ فلم تر شيئاً ، ففعلت ذلك سبع مرات ، ثم جاءت من المروءة إلى إسماعيل ، وهو يدحص الأرض بعقبه ، وقد نبعت العين وهي زمز ، فجعلت تفحص الأرض بيدها عن الماء ، وكلما اجتمع ماء أخذته بقدحها ، فأفرغته في سقائهما ، قال: فقال النبي ﷺ: «يرحمها الله! لو تركتها لكانت عيناً سائحة تجري إلى يوم القيمة».

قال: وكانت جُرْهم يومئذ بواط قريب من مكة ، قال: ولزمت الطير الوادي حين رأت الماء ، فلما رأت جُرْهم الطير لزمت الوادي ، قالوا: ما لزمته إلا وفيه ماء ، فجاؤوا إلى هاجر ، فقالوا: لو شئت كنا معك وآنسناك والماء ماؤك ، قالت: نعم! فكانوا معها حتى شب إسماعيل ومات هاجر ، فتزوج إسماعيل امرأة من جُرْهم ، قال: فاستأذن إبراهيم سارة أن يأتي هاجر ، فأذنت له ، وشرطت عليه ألا ينزل ، وقدم إبراهيم - وقد ماتت هاجر - إلى بيت إسماعيل ، فقال لأمراته: أين صاحبك؟ قالت: ليس هنا ، ذهب يتصدق ، وكان إسماعيل يخرج من الحرم فتصدق ثم يرجع ، فقال إبراهيم: هل عندك ضيافة؟ هل عندك طعام أو شراب؟ قالت: ليس عندي وما عندي أحد ، قال إبراهيم: إذا جاء زوجك فأقرئيه السلام ، وقولي له: فليغير عتبة بابه ، وذهب إبراهيم وجاء إسماعيل ، فوجد ريح أبيه فقال لأمراته: هل جاءتك أحد؟ قالت: جاءني شيخ صفتة كذا - وكذا كالمستخففة بشأنه - قال: فما قال لك؟ قالت: قال لي: أقرئي زوجك السلام ، وقولي له: فليغير عتبة بابه ، فطلّقها وتزوج أخرى ، فلبت إبراهيم ما شاء الله أن يلبيث ، ثم استأذن سارة أن يزور إسماعيل ، فأذنت له واشترطت عليه ألا ينزل ، فجاء إبراهيم حتى انتهى إلى باب إسماعيل ، فقال لأمراته: أين صاحبك؟ قالت: ذهب يتصدق وهو يجيء الآن إن شاء الله ، فانزل

ير حمك الله! قال لها: هل عندك ضيافة؟ قالت: نعم ، قال هل عندك خبز أو بُرّ أو شعير أو تمر؟ قال: فجاءت باللبن واللحم ، فدعا لهما بالبركة ، فلو جاءت يومئذ بخبز أو بُرّ أو شعير أو تمر وكانت أكثر أرض الله برًّا وشعيراً وتمراً ، فقالت: انزل حتى أغسل رأسك ، فلم ينزل ، فجاءته بالمقام فوضعته عند شقه الأيمن ، فوضع قدمه عليه فبقي أثر قدمه عليه ، فغسلت شِقَّ رأسه الأيمن ، ثم حولت المقام إلى شقه الأيسر ، فغسلت شقه الأيسر ، فقال لها: إذا جاء زوجك فأقرئيه السلام ، وقولي له: قد استقامت عتبة بابك . فلما جاء إسماعيل وجد ريح أبيه ، فقال لأمرأته: هل جاءك أحد؟ قالت: نعم ، شيخ أحسن الناس وجهاً وأطيبهم ريحًا ، فقال لي: كذا وكذا ، وقلت له: كذا وكذا ، وغسلت رأسه وهذا موضع قدميه على المقام ، قال: وما قال لك؟ قالت: قال لي: إذا جاء زوجك فأقرئيه السلام ، وقولي له: قد استقامت عتبة بابك ، قال ذلك إبراهيم ، فلبث ما شاء الله أن يلبث وأمره الله عز وجل ببناء البيت ، فبنياه هو وإسماعيل ، فلما بنياه قيل: ﴿وَادْنَ فِي النَّاسِ بِالْحَجَّ﴾ ، فجعل لا يمُرُّ بقوم إلا قال: يا أيها الناس ، إنه قد بُني لكم بيت فحجوه ، فجعل لا يسمعه أحد؛ لا صخرة ولا شجرة ولا شيء إلا قال: لبيك اللهم لبيك . قال: وكان بين قوله: ﴿رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنْتُ مِنْ ذُرْيَتِي بِوَادٍ عَيْرِ ذِي رَزْعٍ عِنْدَ بَيْنِكَ الْمُحْرَمَ﴾ ، وبين قوله: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي وَهَبَ لِي عَلَى الْكِبْرِ إِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ﴾ كذا وكذا عاماً؛ لم يحفظ عطاء^(١) (٢٥٧/٢٥٨-٢٥٩).

حدثني محمد بن سنان ، قال: حدثنا عبيد الله بن عبد المجيد أبو علي الحنفي ، قال: أخبرنا إبراهيم بن نافع ، قال: سمعت كثير بن كثير يحدّث عن سعيد بن جبير عن ابن عباس قال: جاء - يعني إبراهيم - فوجد إسماعيل يُصلح نَبَلاً له من وراء زمم ، فقال إبراهيم: يا إسماعيل ، إن ربك قد أمرني أن أبني له بيتاً ، فقال له إسماعيل: فأطع ربك فيما أمرك ، فقال إبراهيم: قد أمرك أن تُعيّنني عليه قال: إذاً أفعل ، قال: فقام معه ، فجعل إبراهيم يبنيه وإسماعيل يتناوله الحجارة ويقولان: ﴿رَبَّنَا قَبَلَ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ ، فلما ارتفع البناء

(١) في إسناده عطاء اخْتَلَطَ بأمره إلا أن رواية حماد عنه (ها هنا) قبل الاختلاط عند الجمهور والخبر عند البخاري كما سبق أن ذكرنا عند الرواية السابقة إلا أن هذه الرواية متضمنة بعض غرابة والخبر رواه البخاري كما سبق (٣٣٦٥) وأحمد (٣٢٥٠).

وضعُفَ الشِّيخُ عَنْ رُفْعِ الْحِجَارَةِ قَامَ عَلَى حِجْرٍ ، وَهُوَ مَقَامُ إِبْرَاهِيمَ ، فَجَعَلَ يَنَاوِلُهُ وَيَقُولُانِ : ﴿تَقَبَّلَ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ أَسْمَىٰ الْعَالَمِينَ﴾^(١) . (١ : ٢٥٩ / ٢٦٠) .

فَلَمَّا فَرَغَ إِبْرَاهِيمَ مِنْ بَنَاءِ الْبَيْتِ الَّذِي أَمْرَهُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ بِنَائِهِ ، أَمْرَهُ اللَّهُ أَنْ يَؤْذِنَ فِي النَّاسِ بِالْحِجَّةِ ، فَقَالَ لَهُ : ﴿وَأَدِنْ فِي النَّاسِ بِالْحِجَّةِ يَأْتُوكَ بِجَاهًا وَعَلَى كُلِّ ضَامِيرٍ يَأْتِيكَ مِنْ كُلِّ فَجَّ عَمِيقٍ﴾^(٢) . (١ : ٢٦٠) .

(١) في إسناده محمد بن سنان ضعيف إلا أن المتن جزء من حديث طويل أشرنا إليه سابقاً (ح ٣٣٦٥) وفي آخره : (فجاء فوافق إسماعيل من وراء زمز يصلاح نبلا له فقال : يا إسماعيل إن ربك أمرني أن أبني بيتك... الحديث) من طريق إبراهيم بن نافع عن كثير بن كثير عن سعيد بن جبير عن ابن عباس) وليس في رواية البخاري فلما ارتفع البيان وضعف الشيخ... إلخ).

(٢) صحيح.

لقد ذكر الإمام الطبرى روایات عدّة [ذكرناها في قسم الضعيف] منها ما هي مرفوعة أو موقوفة تؤكد أن الذبيح إسحاق ، وأخرى تؤكد أن الذبيح إسماعيل وقال الطبرى في نهاية المطاف إلى كون الذبيح إسحاق ، وإن كان أثناء مناقشته للأدلة غير مقتضى بصحة أسانيد الأحاديث المرفوعة في هذه المسألة إذ يقول (١ / ٢٦٣) وقد روى عن رسول الله ﷺ كلام القولين : لو كان فيهما صحيح لم نعد إلى غيره ، غير أن الدليل من القرآن على صحة الرواية التي رويت عنه ﷺ أنه قال : (هو إسحاق) أوضح وأبين منه على صحة الأخرى وهذا يعني أن ضعف تلك الروایات المرفوعة واضح عند الطبرى إلا أنه يرجع بعضها على بعض بما يستتبعه من فهم الآيات القرآنية كقرائن ودلائل .

وأما الحافظ ابن كثير فهو يقول بالرأي الآخر ويرى أن ما ذهب إليه ابن جرير بعيد جداً وأن ما استدل به محمد بن كعب على أنه إسماعيل أثبت وأصح وأقوى (تفسير القرآن العظيم / سورة الصافات / ٢٩٨٩) .

وأما الإمام الشوكاني فقد ساق مختلف الأدلة ثم قال : وبما سقناه من الاختلاف في الذبيح هل هو إسحاق أو إسماعيل وما استدل به المختلفون في ذلك تعلم أنه لم يكن في المقام ما يوجب القطع أو يتquin رجحانه تعيناً ظاهراً ، وقد رجح كل قول طائفة من المحققين المنصفين كابن جرير فإنه رجح أنه إسحاق ، ولكنه لم يستدل على ذلك إلا ببعض ما سقناه هنا وكابن كثیر فإنه رجح أنه إسماعيل وجعل الأدلة على ذلك أقوى وأصح ، وليس الأمر كما ذكره فإنها إن لم تكن دون أدلة القائلين بأن الذبيح إسحاق لم تكن فوقها ولا أرجح منها ولم يصح عن رسول الله ﷺ في ذلك شيء ، وما روي عنه فهو إما موضوع أو ضعيف جداً ، ولم يبق إلا مجرد استنباطات من القرآن كما أشرنا إلى ذلك فيما سبق وهي محتملة ولا تقوم الحجة بمحتمل فالوقف هو الذي لا ينبغي مجاوزته وفيه السلامه من الترجيح بلا مرجع ومن =

ذكر ابتلاء الله إبراهيم بكلمات

فلما عرف الله تعالى من إبراهيم الصبر على كلّ ما ابتلاه به ، والقيام بكلّ ما ألم به من فرائصه ، وإيثاره طاعته على كلّ شيء سواها ، اتخذه خليلاً ، وجعله لمن بعده من خلقه إماماً ، واصطفاه إلى خلقه رسولاً ، وجعل في ذريته النبوة والكتاب والرسالة ، وخصّهم بالكتب المنزلة ، والحكم البالغة ، وجعل منهم الأعلام والقادة والرؤساء والساسة ، كلّما مضى منهم نجيب خلفه سيد رفيع ، وأبقى لهم ذكراً في الآخرين ، فالأمم كلها تتولاه وتُشَيَّ عليه ، وتقول بفضله إكراماً من الله له بذلك في الدنيا ، وما آدَّرَ له في الآخرة من الكرامة أجيلاً وأعظم من أن يحيط به وصف واصف^(١). (١: ٢٨٦).

الاستدلال بما هو محتمل (فتح القدير ٤٩٣/٣).

قلنا: ومن الذين نقشوا هذه المسألة كذلك بالتفصيل الإمام ابن قيم الجوزية في كتابه القيم زاد المعاد ورجح كون الذبح إسماعيل (زاد المعاد ١/٧١) والله تعالى أعلم.

لقد روى الطبرى رحمة الله روايات عدّة في وصف (الذبح العظيم) الذي كان فداءً لولد إبراهيم عليهم السلام وقد ذكرناها في قسم الضعف وهي مستوحاة من الإسرائييليات إلا أن الذي ثبت أنه كان كبيشاً وكفى ، وكما قال الحافظ ابن كثير رحمة الله تعالى فأما ما روى عن ابن عباس أنه كان علاً وعن حسن أنه كان تيساً من الأروى واسمه جرير فلا يكاد يصح عنهما ثم غالب ما ها هنا من الآثار مأخوذه من الإسرائييليات وفي القرآن كفاية كما جرى من الأمر العظيم والاختبار الباهر وأنه فدي بذبح عظيم.

قلنا: والخبر أخرجه أبُو داود في مسنده (١٦٦٣/٧) من طريق صفية بنت شيبة أم منصور قالت: (أخبرتني امرأة من بنى سليم ولدت عامة أهل دارنا: أرسل رسول الله ﷺ إلى عثمان بن طلحة وقالت مرة: إنها سألت عثمان بن طلحة لم دعاك النبي ﷺ؟ قال: إني كنت رأيت قرني الكبش حين دخلت البيت فنسقطت أن آمرك أن تخمرهما ، فخمرهما فإنه لا ينبغي أن يكون في البيت شيء يشغل المصلى ، قال سفيان: لم تزل قرنا الكبش في البيت حتى احترق البيت فاحترقا).

قلنا: وإنستاده صحيح والحديث أخرجه أبو داود وفيه (الإسلامية) بدلاً من قوله (امرأة من بنى سليم) وصححه من المعاصرين كلّ من المحدث الألباني والعلامة أرناؤوط والحديث أخرجه البهقي (٦١٥/٢ ح ٤٢٩٧) والله أعلم.

لقد ذكر الإمام الطبرى رحمة الله روايات كثيرة استغرقت الصفحات (٢٩٧ - ٢٨٦) وهي

ذكر لوط بن هاران وقومه

وكان قطعهم السبيل - فيما ذكر - إتائهم الفاحشة إلى مَنْ ورد بلدتهم .

روايات موقوفة أو من أقوال التابعين سوى حديثين مرفوعين ولكن ضعيفين ولقد ذكرناها جميعاً في قسم الضعيف .

والطبرى رحمه الله ذكر هذه الروايات في تفسيره للقرآن الكريم ثم قال : والصواب من القول في ذلك عندنا أن يقال : إن الله عز وجل أخبر إبراهيم خليله بكلمات أحواهن إليه وأمره أن يعمل بهن وأنهن كما أخبر الله جل شأنه عنه أنه فعل وجائز أن تكون تلك الكلمات جميع ما ذكره من ذكرنا قوله في تأويل الكلمات ، وجائز أن تكون بعضه ، ثم قال : وإذا كان ذلك كذلك فغير جائز لأحد أن يقول : عنى الله بالكلمات التي ابتنى بهن إبراهيم شيئاً من ذلك بعينه دون شيء ولا عنى به كل ذلك إلا بحججة يجب التسليم لها من خبر عن الرسول ﷺ أو إجماع من الحجة ، ولم يصح منه شيء من ذلك خبر عن الرسول بنقل الواحد ولا بنقل الجماعة ؛ التي يجب التسليم لما نقلته (تفسير سورة البقرة / الآية ١٢٤ / ح ١٥٩٥) .

وذكر الحافظ ابن كثير تضييف الطبرى لهاتين الروايتين المرفوعتين ثم قال : وهو كما قال (أى الطبرى) فإنه لا تجوز روايتهما إلا ببيان ضعفهما ، وضعفهما من وجوده عدة فإن كلاً من السندين مشتمل على غير واحد من الضعفاء مع ما في متن الحديث مما يدل على ضعفه (تفسير القرآن العظيم / ١ / ٣٨٦) .

وأخيراً فإن الحافظ ابن كثير رحمه الله يقول :

والذى قاله أولاً (أى الطبرى) من أن الكلمات تشمل جميع ما ذكر أقوى من هذا الذي جوَّزه من قول مجاهد ومن قال مثله لأن السياق يعطي غير ما قالوه والله أعلم (٧ / ٣٨٦ / المصدر السابق) .

وقال الإمام الشوكاني رحمه الله بعد سرده لهذه الروايات : وإذا لم يصح شيء عن رسول الله ﷺ ولا جاءنا من طريق تقوم بها الحجة تعين تلك الكلمات ، لم يبق لنا إلا أن نقول : إنها ما ذكره الله سبحانه بقوله ﴿قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ﴾ إلى آخر الآيات ويكون ذلك بياناً للكلامات والسكوت وإحالة العلم في ذلك على الله سبحانه ، وأما ما روي عن ابن عباس ونحوه من الصحابة ومن بعدهم في تعينها فهو أولاً أقوال الصحابة لا تقوم بها حجة فضلاً عن أقوال من بعدهم وعلى تقرير أنه لا مجال للاجتهاد في ذلك وأنه له حكم الرفع فقد اختلفوا في التعين اختلافاً يمنع معه العمل ببعض ما روي عنها دون البعض الآخر بل اختلفت الروايات عن الواحد منهم كما قدمنا عن ابن عباس فكيف يجوز العمل بذلك وبهذا تعرف ضعف قول من قال : إنه يصار إلى العموم ويقال تلك الكلمات هي جميع ما ذكرنا هنا فإن هذا يستلزم تفسير كلام الله بالضعف والمتناقض وما لا تقوم به الحجة . ١-هـ . (فتح القدير / ١٨٩) .

* ذكر من قال ذلك :

حدثني يونس بن عبد الأعلى ، قال: أخبرنا ابن وهب ، قال: قال ابن زيد في قوله تعالى: ﴿وَنَقْطَعُونَ التَّكِيلَ﴾ ، قال: السبيل طريق المسافر إذا مرت بهم ، وهو ابن السبيل قطعوا به وعملوا به ذلك العمل الخبيث^(١). (١: ٢٩٣).

حدثنا موسى بن هارون ، قال: حدثنا عمرو بن حماد ، قال: حدثنا أسباط ، عن السُّدِي في خبر ذكره ، عن أبي مالك وعن أبي صالح ، عن ابن عباس - وعن مرة الهمданى عن ابن مسعود - وعن ناس من أصحاب النبي ﷺ: بعث الله الملائكة لتُهلك قوماً لوط ، فأقبلت تمشي في صورة رجال شباب؛ حتى نزلوا على إبراهيم فتضيقوا به ، فكان من أمرهم وأمر إبراهيم ما قد مضى ذكرنا إياه في خبر إبراهيم وسارة . فلما ذهب عن إبراهيم الروع جاءه البشرى ، وأطلعته الرسل على ما جاؤوا له ، وأن الله أرسلهم لهلاك قوم لوط ناظرهم إبراهيم وحاجهم في ذلك كما أخبر الله عنه ، فقال: ﴿فَلَمَّا ذَهَبَ عَنْ إِبْرَاهِيمَ الرَّوْعُ وَجَاءَهُ الْبَشَرَى يُعْذِلُنَا فِي قَوْمٍ لُوطٍ﴾^(٢). (١: ٢٩٧).

حدثني المثنى ، قال: حدثنا إسحاق بن الحجاج ، قال: حدثنا إسماعيل بن عبد الكريم ، قال: حدثني عبد الصمد بن معقل ، أنه سمع وهبًا يقول: قال لوط لهم: ﴿لَوْأَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةً أَوْ ءَاوِي إِلَى رُكْنٍ شَدِيدٍ﴾ ، فوجد عليه الرسل وقالوا: إن ركنك لشديد . فلما يئس لوط من إنجابهم إيه إلى شيء مما دعاهم إليه وضاق بهم ذرعاً ، قالت الرسل له حينئذ: ﴿يَلُوْطُ إِنَّا رَسُلُ رَبِّكَ لَنْ يَصِلُوا إِلَيْكَ فَاسْرِي بِأَهْلَكَ يَقْطِعْ مِنَ الْيَلَّ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنْكُمْ أَحَدٌ إِلَّا أَتَرَ أَنَّكَ إِنَّهُ مُصِيبُهَا مَا أَصَابُهُمْ﴾^(٣). (١: ٢٠٠).

(١) قال الشوكاني: والظاهر أنهم كانوا يفعلون ما يكون سبباً لقطع الطريق من غير تقيد بسبب خاص.

(٢) هذا إسناد ضعيف إلا أن تفسيره للآيات صحيح.

(٣) صحيح.

(٤/٣٠٧): بعد أن ميزنا الصحيح من الضعيف من الآثار الواردة في قصة لوط عليه السلام نذكر هنا تفسير ابن كثير للآيات (بعد اختصار وحذف الإسرايليات).

نَبِيُّ اللَّهِ لُوط
عَلَيْهِ السَّلَام

قال الحافظ ابن كثير:

ومما وقع في حياة إبراهيم الخليل من الأمور العظيمة: قصة قوم لوط عليه السلام ، وما حل بهم من النكمة العميقة . ولوط ابن أخي إبراهيم الخليل .

وكان لوط قد نزح عن محله عمه الخليل عليهما السلام بأمره له وإذنه ، فنزل بمدينته ، ولها أهل من أفسر الناس وأكفرهم وأسوئهم طوية ، وأردتهم سيرة وسيرة ، يقطعون السبيل ويأتون في ناديهن المنكر ، ولا يتناهون عن منكر فعلوه لبئس ما كانوا يفعلون . ابتدعوا فاحشة لم يسبقهم إليها أحد من بني آدم ، وهي إثبات الذكران من العالمين ، وترك ما خلق الله من النساء لعباده الصالحين .

فدعاهم لوط إلى عبادة الله تعالى وحده لا شريك له ، ونهاهم عن تعاطي هذه المحرمات والفواحش والمنكرات ، والأفاسيل المستقبحات ، فتمادوا على ضلالهم وطغيائهم ، واستمروا على فجورهم وكفرانهم ، فأحل الله بهم من البأس الذي لا يرد ما لم يكن في خلدهم وحسابهم جعلهم مُثلة في العالمين ، وعبرة يتعظ بها الآباء من العالمين .

[القرآن وشذوذ قومه]

ولهذا ذكر الله تعالى قصتهم في غير ما موضع في كتابه المبين . فقال تعالى في سورة الأعراف : ﴿ وَلُوطًا إِذَا قَالَ لِرَوْمَهُ أَتَأْتُونَ الْفَخْسَهَ مَا سَبَقُكُمْ بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ الْعَالَمِينَ ۝ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ شَهَوَةً مِّنْ دُورِ الْأَسْكَاءِ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُوْكَ ۝ وَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنَّ قَالُوا أَخْرِجُوهُمْ مِّنْ قَرِيبِكُمْ إِنَّهُمْ أَنْاسٌ يَنْظَهُرُونَ ۝ فَأَبْيَتْهُمْ وَلَمْلَمْهُمْ إِلَّا أَنَّهُمْ أَنْتُمْ كُنْتُمْ مِّنَ النَّذِيرِ ۝ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ مَطْرًا فَانْظَرْ كَيْفَ كَانَ عَذَابُ الْمُجْرِمِينَ ۝ 』 [الأعراف: ۸۴ - ۸۰].

وقال تعالى في سورة هود : ﴿ وَلَقَدْ جَاءَتْ رُسُلُنَا إِبْرَاهِيمَ بِالْبَشْرَىٰ فَلَوْ أَسْلَمُمَا فَلَ سَلَمٌ فَمَا لَيْثَ أَنْ جَاءَ بِعِجْلٍ حَنِيدٍ ۝ فَلَمَّا رَأَهُمْ لَا تَصِلُّ إِلَيْهِمْ نَكَرُهُمْ وَأَوْجَسُ مِنْهُمْ خِفَةً قَالُوا إِنَّا نَحْنُ فِي قَوْمٍ لُوطٍ ۝ وَأَنَّهُمْ قَائِمُهُ فَصَحِّكُتْ فَبَشَّرْتَهَا بِإِسْحَاقَ وَمِنْ وَلَاءِ إِسْحَاقَ يَعْقُوبَ ۝ قَالَتْ يَوْمَئِنَّ اللَّهُ وَإِنَّا عَجُوزٌ وَهَذَا بَعْلِي شَيْخًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عَجِيبٌ ۝ قَالُوا أَنْتُمْ جِنِينٌ مِّنْ أَمْرِ اللَّهِ وَرَحْمَتِهِ ۝ عَيْتُكُمْ أَهْلَ الْبَيْتِ إِنَّهُ حَمِيدٌ مَجِيدٌ ۝ فَلَمَّا ذَهَبَ عَنْ إِبْرَاهِيمَ الرَّزْعُ وَجَاءَهُنَّ الْبَشَرَىٰ يُجَدِّلُنَّا فِي قَوْمٍ لُوطٍ ۝ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوْهُ مُنْبِتٌ ۝ يَأْتِي إِبْرَاهِيمَ أَغْرِضٌ عَنْ هَذَا إِنَّهُ دَجَاهَهُ أَمْرُ رَبِّكَ وَإِنَّهُمْ مَا تَهْمِمُ عَدَادُهُمْ عَيْنُهُمْ دُورٌ ۝ وَلَمَّا جَاءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سَيِّءَ بِهِمْ وَصَاقَهُمْ ذَرْعًا وَقَالَ هَذَا يَوْمٌ عَصِيبٌ ۝ وَجَاءَهُمْ قَوْمٌ يَهْرُونَ إِلَيْهِ وَمِنْهُمْ كَاثُرًا يَعْمَلُونَ الْسَّيِّئَاتِ قَالَ يَقُولُونَ هَؤُلَاءِ بَنَاتِكَ هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ نَأْهَوْهُ اللَّهُ وَلَا تَخْرُونَ فِي صَيْفَيِّ الْأَسْسَ مَنْكُمْ رَجُلٌ رَّشِيدٌ ۝ قَالُوا لَقَدْ عَلِمْتَ مَا لَنَا فِي بَنَاتِكَ مِنْ حَقِّ وَإِنَّكَ لَغَلَّ مَارُبِيدٌ ۝ قَالَ لَمَّا أَنَّ لِي يُكُمْ قَوْمٌ أَوْ إِلَى رَجُلٍ شَدِيدٍ ۝ قَالُوا يَنْلُوطُ إِنَّا رَمْلٌ تَيْكَ لَنْ يَصْلُو إِلَيْكَ فَأَسْرِي بِأَهْلِكَ بِقِطْعَ مِنْ أَيْلَلَ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنْكُمْ أَحَدٌ إِلَّا أَنْزَلَنَّكَ إِنَّهُ مُصِيبَهَا مَا أَصَابَهُمْ إِنَّ مَوْعِدَهُمُ الْصَّيْحَهُ الَّيْسَ أَصْبَحَ يَقْرِبُ ۝ فَلَمَّا جَاءَ

أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَلَيْهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِنْ سِجِيلٍ مَنْضُودٍ ﴿١﴾ مُسَوَّمَةً عَنْ دَرَبِكَ وَمَا هِيَ مِنَ الظَّالِمِينَ بِيَعْدِهِ﴾ [هود: ٦٩ - ٨٣].

وقال تعالى في سورة الحجر: «وَنَذَرْتُهُمْ عَنْ ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ ﴿٢﴾ إِذَا دَخَلُوا عَلَيْهِ فَقَالُوا سَلَامًا فَلَمْ يَأْتُوا مِنْكُمْ وَجِلْوَنَ ﴿٣﴾ قَالُوا لَا تَوْجَلْ إِنَّا بِسُرْكَ يَعْلَمُ عَلَيْهِ ﴿٤﴾ قَالَ أَبْشِرْتُهُمْ عَلَى أَنَّ مَسْيَنَ الْكَبَرَ فِيمَ يَبْشِرُونَ ﴿٥﴾ قَالَ أَبْشِرْتُهُمْ بِالْحَقِيقَ فَلَا تَكُنْ مِنَ الظَّالِمِينَ ﴿٦﴾ قَالَ وَمَنْ يَقْنَطُ مِنْ رَحْمَةِ رَبِّهِ إِلَّا الظَّالِمُونَ ﴿٧﴾ قَالَ فَمَا حَطَبْكُمْ إِنَّمَا الْمُرْسَلُونَ ﴿٨﴾ قَالُوا إِنَّا أَرْسَلْنَا إِلَى قَوْمٍ مُجْرِمِينَ ﴿٩﴾ إِلَّا إِلَّا إِلَّا لُوتُ إِلَى الْمُجْرِمِينَ ﴿١٠﴾ إِلَّا إِلَّا لُوتُ إِلَى الْمُرْسَلُونَ ﴿١١﴾ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ مُنْكَرُونَ ﴿١٢﴾ إِلَّا أَمْرَأَنَّهُ قَدْرَنَا إِنَّهَا لَمَنِ الْغَدَرِينَ ﴿١٣﴾ فَلَمَّا جَاءَهُمْ إِلَى الْمُرْسَلِينَ ﴿١٤﴾ قَالُوا إِنَّا لَمَنِ الْغَدَرِينَ ﴿١٥﴾ فَأَسْرِيْا أَهْلَكَ بِقِطْعَةٍ مِنَ الْأَيْلَلِ قَالُوا إِلَى جِنْتَكَ بِمَا كَوَافِرْتُهُ يَمْدُرُونَ ﴿١٦﴾ وَأَيْتَنَاكَ بِالْحَقِيقَ وَإِنَّا لَصَدِقُورُونَ ﴿١٧﴾ فَأَسْرِيْا أَهْلَكَ بِقِطْعَةٍ مِنَ الْأَيْلَلِ وَأَتَيْتُهُمْ أَدْسِرُهُمْ وَلَا يَلْتَفِتُ مِنْكُمْ أَهْدَى وَأَمْضَيْهَا حِبْثُ تُؤْمِنُونَ ﴿١٨﴾ وَفَضَيْنَاهَا إِلَيْهِ ذَلِكَ الْأَمْرُ أَنْ دَابَرَ هَنْوَلَةَ مَقْطُوعَ مُصْبِحِينَ ﴿١٩﴾ وَجَاءَهُ أَهْلُ الْمَدِينَةَ يَسْتَبِّهُونَ ﴿٢٠﴾ قَالَ إِنَّ هَنْوَلَةَ صَبِيٌّ فَلَا تَنْصَبُوهُنَّ ﴿٢١﴾ وَلَقَوْا اللَّهَ وَلَا يَخْرُوْنَ ﴿٢٢﴾ قَالُوا أَوْلَئِمْ شَهَادَكَ عَنِ الْعَالَمِينَ ﴿٢٣﴾ قَالَ هَنْوَلَةَ يَأْتِيَ إِنْ كُنْتَ فَعَلَيْنَ ﴿٢٤﴾ لِعَنْكَ إِنْهُمْ لَفِي سَكِينَ يَعْمَهُونَ ﴿٢٥﴾ فَأَخَذَهُمُ الصَّيْحَةُ مُشْرِقِينَ ﴿٢٦﴾ فَجَعَلْنَا عَلَيْهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِنْ سِجِيلٍ ﴿٢٧﴾ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢٨﴾ وَإِنَّهَا إِلَيْسَيْلَ مُقْبِرٍ ﴿٢٩﴾ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿٣٠﴾ [الحجر: ٥١ - ٧٧].

وقال تعالى في سورة الشعراء: «كَذَّبَتْ قَوْمٌ لُوتُ الْمُرْسَلِينَ ﴿١﴾ إِذَا قَالَ لَهُمْ أَخْرُوهُمْ لُوتُ الْأَنْتَقُونَ ﴿٢﴾ إِنِّي لَكُمْ رَسُولُ أَيْمَنٍ ﴿٣﴾ فَلَقَوْا اللَّهَ وَاطَّبِعُونَ ﴿٤﴾ وَمَا أَسْتَأْلُمُ عَلَيْهِ مِنْ أَعْزَى إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٥﴾ إِنَّا نَأْتُنَّ أَذْكَرَنَّ مِنَ الْعَالَمِينَ ﴿٦﴾ وَنَذَرُونَ مَا حَلَّ لَكُمْ رَبُّكُمْ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ لَمْ أَنْمِ فَعَادُوكُمْ ﴿٧﴾ قَالُوا إِنَّ لَنَّنَا فِي ذَلِكَ لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمُخْرِجِينَ ﴿٨﴾ قَالَ إِنِّي لَعِمَلُكُمْ مِنَ الْقَاتِلِينَ ﴿٩﴾ رَبُّكُمْ يَحْكُمُ وَأَهْلُكُمْ مَا يَعْمَلُونَ ﴿١٠﴾ فَنَجَّيْتَهُ وَأَهْلَهُمْ أَجْعَيْنَ ﴿١١﴾ إِلَّا عَجَوْرَا فِي الْغَيْرِينَ ﴿١٢﴾ ثُمَّ دَمَرْنَا الْأَخْرَينَ ﴿١٣﴾ وَأَقْطَلْنَا عَلَيْهِمْ مَطْرَأً فَسَاءَ مَطْرَأُ الْمُنْذَرِينَ ﴿١٤﴾ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿١٥﴾ وَلَدَ رَبِّكُمْ لُوتُ الْأَرْجِيمَ ﴿١٦﴾ [الشعراء: ١٦٠ - ١٧٥].

وقال تعالى في سورة النمل: «وَلُوتُهَا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَسْأَلُوكُنَّ الْفَدْحَشَةَ وَأَنْتَهُ مُبْصِرُوكَ ﴿١﴾ أَيْسَكُمْ لَتَأْتُنَّ أَرْجَالَ شَهَرَةً مِنْ دُونِ النَّسَاءِ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ بَمْهُولُونَ ﴿٢﴾ فَنَّا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا أَخْرُجُوا إِلَّا لُوتُ مِنْ قَرِبَتِكُمْ إِنَّهُمْ أَنْاسٌ يَنْتَهُرُونَ ﴿٣﴾ فَأَجْبَيْنَاهُ وَأَهْلَهُ إِلَّا أَمْرَأَتُهُ قَدْرَنَاهَا مِنَ الْعَدَدِينَ ﴿٤﴾ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ مَطْرَأً فَسَاءَ مَطْرَأُ الْمُنْذَرِينَ ﴿٥﴾ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً [النمل: ٥٤ - ٥٨].

وقال تعالى في سورة العنكبوت: «وَلُوتُهَا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ إِنَّكُمْ لَتَأْتُنَّ الْفَدْحَشَةَ كَا سَبَقَكُمْ بِهَا مِنْ أَحَدِ مِنَ الْعَالَمِينَ ﴿١﴾ أَيْسَكُمْ لَتَأْتُوكُنَّ أَرْجَالَ وَنَقْطَعُونَ السَّيْلَ وَتَأْتُوكُنَّ فِي نَكَادِكُمُ الْمُنْكَرِ فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا أَنْتُنَا إِنْ شَاءَ اللَّهُ إِنْ كُنْتَ مِنَ الْعَصَدِقِينَ ﴿٢﴾ قَالَ رَبِّيْتُ أَنْصُرِيْ فِي الْقَوْمِ الْمُفْسِدِينَ ﴿٣﴾ وَلَمَّا جَاءَتْ رُسْلُنَا إِبْرَاهِيمَ بِالْبُشَرِيَ قَالُوا إِنَّا مُهِلُّكُوْا أَهْلَهُنَّ هَذِهِ الْقَرِيبَةِ إِنَّ أَهْلَهُنَّ كَانُوا ظَالِمِينَ ﴿٤﴾ قَالَ إِنِّي فِيهِمَا لُوتًا قَالُوا لَوْلَا أَعْلَمَ بِمِنْ فِيهَا لَتَنْجِيْهُ وَأَهْلَهُ إِلَّا أَمْرَأَتُهُ كَانَتْ مِنَ الْغَدَرِينَ ﴿٥﴾ وَلَمَّا أَنْجَاهُتْ رُسْلَنَا لُوتًا سُوتَ بِهِمْ وَضَافَ بِهِمْ ذَرْعًا وَقَالُوا لَا تَخْفَ وَلَا تَحْرُنْ إِنَّا مُسْجُوكُ وَأَهْلُكُ إِلَّا أَمْرَأَتُكَ كَانَتْ مِنَ الْغَدَرِينَ ﴿٦﴾ إِنَّا مُزَرُّلُوكَ عَلَى أَهْلِهِنَّ هَذِهِ الْقَرِيبَةِ رِجَارًا مِنَ السَّمَاءِ يَمَا كَانُوا يَفْسُوْرُونَ ﴿٧﴾ وَلَقَدْ

رَكِنْتَنَا مِنْهَا إِلَيْهِ بِتَكَهْ لِقَوْمٍ يَعْقُلُونَ ﴿٢٨﴾ [العنكبوت: ٣٥ - ٢٨]

وقال تعالى في سورة الصافات: «**وَإِنْ لَوْطًا لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ إِذْ جَنَّهُهُ أَهْلُهُ، أَجْعَيْتَ إِلَيْهِمْ إِلَّا عَجَزُوا فِي الْعَذَابِنَ ثُمَّ دَمَرْنَا الْأَخْرَىنَ وَإِنَّهُ لِمَرْءَوْنَ عَلَيْهِمْ مُصَبِّحِينَ وَبِالْأَيْلَهْ أَفَلَا يَعْقُلُونَ ﴿٣٦﴾** [الصافات: ١٣٨ - ١٣٨].

وقال تعالى في سورة الذاريات بعد قصة ضيف إبراهيم وبشارتهم إياه بغلام عليم: «**فَالَّهُمَّ كَمْ حَطَبْنَا لَهُمْ أَيْمَانُهُمْ فَأَلْوَانُهُمْ أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمْ قَوْمٌ مُجْرِمِينَ لِتُرْسِلَ عَلَيْهِمْ حِجَاجَةً مِنْ طِينٍ مُسَوَّمَةً عَنْ رَيْكَ الْمَسْرِفِينَ فَأَخْرَجْنَا مِنْ كَانَ فِيهَا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ فَأَوْجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتِ مِنَ الْمُسْلِمِينَ وَرَرْكَاهُمْ فِي هَذِهِ الْلَّهِيَّنِ يَخَافُونَ الْعَذَابَ الْأَلِيمَ ﴿٣٧﴾** [الذاريات: ٣١ - ٣٧].

وقال في سورة القمر: «**كَذَبَ قَوْمٌ لَوْطٌ بِالنَّدْرِ إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ حَاصِبًا إِلَّا إِلَّا لَوْطٌ يَجِدُهُمْ يَسْعَرُ يَقْعَمَةً مِنْ عَنْدِنَا كَذَلِكَ يَجِدُهُمْ مِنْ شَكَرَ وَلَقَدْ أَنْذَرْهُمْ بَطْشَنَا فَسَارَوْا بِالنَّدْرِ وَلَقَدْ رَوَدُوهُ عَنْ ضَيْفِهِ، فَطَمَسَنَا أَعْيُهُمْ فَذَرْوْا عَذَابِي وَنَدْرِ وَلَقَدْ صَبَحُهُمْ بِكَرَهِ عَذَابٌ مُسْتَقِرٌ فَذَرْوْا عَذَابِي وَنَدْرِ وَلَقَدْ يَسَرَّنَا الْقُرْمَانَ لِلَّهِيَّرِ فَهَلْ مِنْ مُذَكَّرِ ﴿٣٩﴾** وقد تكلمنا على هذه القصص في أماكنها من هذه السور في التفسير . وقد ذكر الله لوطاً وقومه في مواضع أخرى من القرآن ، تقدم ذكرها مع نوح وعاد وثモود .

والمحضود الآن إيراد ما كان من أمرهم ، وما أحل الله لهم مجموعاً من الآيات والآثار .. وبالله المستعان .

[لوط والشواذ:]

وذلك أن لوطاً عليه السلام لما دعاهم إلى عبادة الله وحده لا شريك له ، ونهاهم عن تعاطي ما ذكر الله عنهم من الفواحش ، لم يستجيبوا له ولم يؤمّنوا به حتى ولا رجل واحد منهم ، ولم يتركوا ما عنه نهوا . بل استمرا على حالهم ، ولم يرعنوا عن غيهم وضلالهم ، وهموا بإخراج رسولهم بين ظهرانيهم . وما كان حاصل جوابهم عن خطابهم إذ كانوا لا يعقلون إلا أن قالوا: «**أَخْرِجُوْهُمْ إِلَّا لَوْطٍ مِنْ قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أَنْاسٌ يَتَهَرَّبُونَ ﴿٤٠﴾**» فجعلوا غاية المدح ذمّاً يقتضي الإخراج ، وما حملهم على مقاومتهم هذه إلا العناد واللجاج . فظهوره الله وأهله إلا أمر أنه ، وأخرجهم منها أحسن إخراج .

وما كان هذا جوابهم إلا لمانهفهم عن ارتكاب الطامة العظمى ، والفاحشة الكبرى ، التي لم يسبقهم إليها أحد من العالمين أهل الدنيا . ولهذا صاروا مثلاً فيها وعبرة لمن عليها . وكانوا مع ذلك يقطعون الطريق ، ويختونون الرفيق ، ويأتون في ناديهم - وهو مجتمعهم ومحل حديثهم وسمّرهم - المنكر من الأقوال والأفعال على اختلاف أصنافه .

وربما وقع منهم الفعلة العظيمة في المحايل ولا يستنكفون ، ولا يرعنون لوعظ واعظ ولا نصيحة من عاقل . وكانوا في ذلك وغيره كالأنعام بل أضل سبيلاً ، ولم يقلعوا عمما كانوا =

عليه في الحاضر ، ولا ندموا على ما سلف من الماضي ، ولا راموا في المستقبل تحويلاً ،
فأخذهم الله أخذنا وبيلاً .

وقالوا له فيما قالوا : « أَتَيْتَنَا بِعَذَابِ اللَّهِ إِنْ كَثُنَتْ مِنَ الْأَصْدِيقِينَ » فطلبوها منه وقوع ما حذرهم
منه من العذاب الأليم ، وحلول البأس العظيم . فعند ذلك دعا عليهم نبیهم الکريم ، فسأل
من رب العالمين وإله المرسلين أن ينصره على القوم المفسدين .

فغار الله لغیرته ، وغضب لغضبه ، واستجاب لدعوه ، وأجاہه إلى طلبه ويعث رسنه
الکرام ، وملائكته العظام ، فمروا على الخليل إبراهیم وبشروه بال glam العلیم ، وأخبروه بما
جاوزوا له من الأمر الجسيم والخطب العمیم : « قَالَ فَأَخْطَبْكُمْ أَنَّهَا الرُّسُلُونَ قَالُوا إِنَّا أَرْسَلْنَا
إِلَيْكُمْ قُرْآنًا لِتُرْسِلَ عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِنْ طِينٍ مُسُومَةً عَنْ دِيْرِكُمْ لِلْمُسَرِّفِينَ » ، وقال : « وَلَمَّا جَاءَتْ
رُسُلُنَا إِبْرَاهِيمَ بِالْبُشْرَى قَالُوا إِنَّا مُهْلِكُو أَهْلَ هَذِهِ الْقَرْبَى إِنَّ أَهْلَهَا كَانُوا أُظْلَمُ مِنَ
فِيهَا كُلُّ أُولَئِكُنْ أَعْلَمُ بِنَفْسِهِنَّ وَأَهْلَهُنَّ إِلَّا أَمْرَأَتُهُ كَانَتْ مِنَ الْغَيْرِينَ » ، وقال الله
تعالى : « فَلَمَّا ذَهَبَ عَنْ إِبْرَاهِيمَ الْرَّوْعُ وَجَاءَهُ الْبُشْرَى يُحِدِّنُلَّا فِي قَوْمٍ لُوطٍ ». وذلك أنه كان يرجو أن
يجيئوا أو ينبيوا ويسلموا ويقلعوا ويرجعوا ، ولهذا قال تعالى : « إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَعَمِيمٌ أَوْهُ مُنِيبٌ
يَكْبِرُهُمْ أَغْرِضُ عَنْ هَذَا إِنَّهُ قَدْ جَاءَ أَمْرَ رَبِّكَ وَإِنَّهُمْ عَاتِهِمْ عَذَابٌ غَيْرَ مُدُورٍ » أي : أعرض عن هذا وتكلم
غيره ، فإنه قد حتم أمرهم ، ووجب عذابهم وتدميرهم وهلاكهم ، « إِنَّهُ قَدْ جَاءَ أَمْرَ رَبِّكَ
أَيْ : قد أمر به من لا يرد أمره ، ولا يرد بأسه ، ولا معقب لحكمه ، « وَإِنَّهُمْ عَاتِهِمْ عَذَابٌ غَيْرٌ
مُدُورٌ ».)

قال الله تعالى : « وَلَمَّا جَاءَتْ رُسُلُنَا أُولَئِكُنَّا بِيَهُمْ وَضَافَّ بِهِمْ ذَرْعًا وَقَالَ هَذَا يَوْمٌ عَصِيبٌ ». قال
المفسرون : لما فصلت الملائكة من عند إبراهیم أقبلوا في صور شبان حسان ، اختباراً من الله
تعالى لقوم لوط وإقامة للحجۃ عليهم . فاستضافوا لوطا عليه السلام وذلك عند غروب
الشمس ، فخشى إن لم يضيفهم أن يضيفهم غيره ، وحسبهم بشراً من الناس ، و « بِيَهُمْ وَضَافَّ
بِهِمْ ذَرْعًا وَقَالَ هَذَا يَوْمٌ عَصِيبٌ » قال ابن عباس ومجاہد وقناة ومحمد بن إسحاق :
شديد بلاه . وذلك لما علم من مدافعته الليلة عنهم ، كما كان يصنع بهم في غيرهم ،
وكانوا قد اشتربوا عليه أن لا يضييف أحداً ، ولكن رأى من لا يمكن المحيد عنه .

وقوله : « وَمَنْ قَتَلَ كَافُورًا يَعْمَلُونَ السَّيْئَاتِ » أي هذا مع ما سلف لهم من الذنوب العظيمة الكبيرة
الكثيرة ، « قَالَ يَقُولُمْ هَتَلَوَةَ بَنَاتِي هُنَّ أَلْهَرُ لَكُمْ » يرشدهم إلى غشيان نسائهم وهن بناته
شرعاً ، لأن النبي للأمة بمنزلة الوالد ، كما ورد في الحديث ، وكما قال تعالى : « أَلَّتِي أُولَئِكَ
بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ أَمْهَمُهُمْ » وفي قول بعض الصحابة والسلف : وهو أب لهم .
وهذا كقوله : « أَتَأْتُونَ الْذِكْرَانَ مِنَ الْمُنَاهِمِينَ وَنَذَرُونَ مَا خَلَقَ لَكُمْ رَبُّكُمْ مِنْ أَرْوَاحِكُمْ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ
عَادُونَ ».)

وهذا هو الذي نص عليه مجاهد وسعيد بن جبير والربيع بن أنس وقناة والسدی ومحمد بن =

إسحاق ، وهو الصواب . والقول الآخر خطأ مأخوذ من أهل الكتاب .

وقوله : « فَأَنْقُوا اللَّهَ وَلَا تُخْرُونَ فِي ضَيْفِي أَيْتَسْ مِنْكُمْ رَجُلٌ رَشِيدٌ » نهي لهم عن تعاطي ما لا يليق من الفاحشة ، وشهادة عليهم بأنه ليس فيهم رجل له مسكة ولا فيه خير ، بل الجميع سفهاء ، فجراة أقوباء ، كفرة أغبياء . وكان هذا من جملة ما أراد الملائكة أن يسمعوه منه من قبل أن يسألوه عنه . فقال قومه - عليهم لعنة الله الحميد المجيد ، مجيئين لنبيهم فيما أمرهم به من الأمر السديد - : « لَقَدْ عِمِّتْ مَا لَنَا فِي بَيْتَكَ مِنْ حَقٍّ وَإِنَّكَ لَعَمِّتْ مَا تُرِيدُ » يقولون - عليهم لعائن الله - : لقد علمت يا لوط لنا في نسائنا ، وإنك لتعلم مرادنا وغرضنا .

وأجهوا بهذا الكلام القبيح رسولهم الكرييم ، ولم يخافوا سطوة العظيم ، ذي العذاب الأليم . وللهذا قال عليه السلام : « لَوْاَنَّ لِي يَكُنْ قُوَّةً أَوْ أَوْيَ إِنْ رَكِنْ شَدِيدٌ » ودأن لو كان له بهم قوة ، أو له منعة وعشيرة ينصرونه عليهم ، ليحل بهم ما يستحقونه من العذاب على هذا الخطاب . وقد قال الزهري عن سعيد بن المسيب وأبي سلمة عن أبي هريرة مرفوعا : « نحن أحق بالشك من إبراهيم ، ويرحم الله لوطا ، لقد كان يأوي إلى ركن شديد ، ولو لبست في السجن ما لبث يوسف لأجبت الداعي ». ورواه أبو الزناد عن الأعرج عن أبي هريرة [البخاري / ح ٣٨٦]. وقال محمد بن عمرو بن علقمة ، عن أبي سلمة ، عن أبي هريرة : أن رسول الله ﷺ قال : « رحمة الله على لوط ، إنه كان يأوي إلى ركن شديد - يعني الله عز وجل - فما بعث الله بعده مننبي إلا في ثروة من قومه ». الترمذى / كتاب تفسير القرآن / ح ٣١٢٧ .

وقال تعالى : « وَجَاءَ أَهْلُ الْمَدِينَةَ يَسْتَبِّئُونَ ﴿١﴾ قَالَ إِنَّ هَؤُلَاءِ ضَيْفِي فَلَا تَضْطَحُونَ ﴿٢﴾ وَلَقَنْقُوا اللَّهَ وَلَا تُخْرُونَ ﴿٣﴾ فَأَلَوْا أَوْلَمَ تَهَكَّ عَنِ الْعَنَائِمِ ﴿٤﴾ قَالَ هَؤُلَاءِ بَنَاتِ إِنْ كُنْتُ فَتَعْلَمَنَ ﴿٥﴾ فَأَمَرْهُمْ بِقَرْبَانَ نِسَاهُمْ ، وَحَذَرُهُمُ الْاسْتِمْرَارُ عَلَى طَرِيقِهِمْ وَسَيَّاهُمْ . وهذا وهم في ذلك لا يتبعون ولا يرجعون ، بل كلما نهادهم يبالغون في تحصيل هؤلاء الضيفان ويحرصون ، ولم يعلموا ما حرم به صارو ، وصبيحة ليتهم إليه منقلبون . وللهذا قال تعالى مقسما بحياة نبيه محمد صلوات الله وسلامه عليه : « لَعَمِّرْكَ إِنْتَمْ لَنِي سَكِّنْهُمْ بِعَمَّهُونَ » ، وقال تعالى : « لَقَدْ أَنْدَرْهُمْ بَطْسَنَا فَسَارَوْا بِالنَّدْرِ ﴿٦﴾ لَقَدْ رَوَدُوهُ عَنْ ضَيْفِهِ فَطَمَسَنَا أَعْيُنَهُمْ فَدُوْقَوْا عَذَابِي وَنَدْرِ ﴿٧﴾ وَلَقَدْ صَبَّحُهُمْ بَكْرَةً عَذَابَ مُسْتَقَرِّ » .

ذكر المفسرون وغيرهم : أن النبي الله لوطا عليه السلام جعل يمانع قومه الدخول ويدافعهم والباب مغلق ، وهم يرمواون فتحه ولووجه ، وهو يعظهم وبنهادهم من وراء الباب ، وكل ما لهم في إلحاد وإنحاح ، فلما ضاق الأمر وعسر الحال قال ما قال : « لَوْاَنَّ لِي يَكُنْ قُوَّةً أَوْ أَوْيَ إِنْ رَكِنْ شَدِيدٌ » لأحللت بكم النكال .

قالت الملائكة : « يَنْلُوطُ إِنَّا رَسِّلْنَاهُ لَنْ يَصْلُوْنَ إِلَيْكَ » .

قال الله تعالى : « لَقَدْ رَوَدُوهُ عَنْ ضَيْفِهِ فَطَمَسَنَا أَعْيُنَهُمْ فَدُوْقَوْا عَذَابِي وَنَدْرِ ﴿٨﴾ وَلَقَدْ صَبَّحُهُمْ بَكْرَةً عَذَابَ مُسْتَقَرِّ » . فذلك أن الملائكة تقدمت إلى لوط عليه السلام أمرتين له بأن يسري هو وأهله من =

آخر الليل ﴿وَلَا يَلْتَفِتُ مِنْكُمْ أَحَدٌ﴾ يعني عند سماع صوت العذاب إذا حل بقومه ، وأمروه أن يكون سيره في آخرهم كالسافة لهم.

وقوله : ﴿إِلَّا أَمْرَأَنِكَ﴾ على قراءة النصب : يتحمل أن يكون مستثنى من قوله : ﴿فَأَتَرْبِي
بِأَهْلِكَ﴾ كأنه يقول إلا أمرأتك فلا تسر بها ، ويتحمل أن يكون في قوله : ﴿وَلَا يَلْتَفِتُ
مِنْكُمْ أَحَدٌ إِلَّا أَمْرَأَنِكَ﴾ أي فإنها ستلتفت فيصيبيها ما أصابهم ، ويقوي هذا الاحتمال قراءة
الرفع ، ولكن الأول أظهر في المعنى .. والله أعلم.

[عقابهم] :

وقالوا له مبشرين بهلاك هؤلاء البغاء العتاة ، الملعونين النظرة والأشباء الذين جعلهم الله سلفاً لكل خائن مريب : ﴿إِنَّ مَوْعِدَهُمُ الْصَّيْحَةُ أَئِسَ الْأُصْبَحُ يَقِيرُ﴾ . فلما خرج لوط عليه السلام بأهله ، وخلصوا من بلادهم وطلعت الشمس فكانت عند شروقها ، جاءهم من أمر الله ما لا يرد ، ومن البأس الشديد.

قال الله تعالى : ﴿فَلَمَّا جَاءَهُمْ نَجَّلُنَا عَلَيْهَا سَافَّاهَا وَأَنْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِنْ سِجِيلٍ مَنْضُورٍ﴾ [٨٧]
﴿مُسَوَّمَةً عَنْ دَرَبِكَ وَمَا هِيَ مِنَ الظَّالِمِينَ يَعِيدُ﴾ [هود: ٨٢ - ٨٣].

﴿وَأَنْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِنْ سِجِيلٍ﴾ والسجل فارسي معرب : وهو الشديد الصلب القوي ،
﴿مَنْضُورٍ﴾ أي يتبع بعضها بعضاً في نزولها عليهم من السماء ﴿مُسَوَّمَةً﴾ أي معلمة مكتوب على كل حجر اسم صاحبه الذي يهبط عليه فيه فديمه ، كما قال : ﴿مُسَوَّمَةً عَنْ دَرَبِ الْمُسْرِفِينَ﴾ ،
وكما قال تعالى : ﴿وَأَنْطَرْنَا عَلَيْهِمْ مَطَرًا فَسَاءَ مَطَرُ الْمُنْذَرِينَ﴾ ، قال تعالى : ﴿وَالْمُنْفَكِهُ أَهْوَى
فَفَشَّلَهَا مَا غَشَّى﴾ [٩١] **يَا أَيُّ مَالَ رَبِّكَ نَعَمَّا!** يعني قلبها فأهوى بها منكسة عالية سافلها ، وغشاها بمطر من حجارة من سجيل : متتابعة ، مسومة ، مرقومة ، على كل حجر اسم صاحبه الذي سقط عليه.

قال تعالى : ﴿صَرَكَ اللَّهُ مَثَلًا لِلَّذِينَ كَفَرُوا أَمْرَاتٌ نُوحٌ وَأَمْرَاتٌ لُوطٌ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ
عِبَادِنَا صَلِيْحَيْنِ فَخَاتَاهُمَا فَلَرَنْ يُغَيِّبَا عَنْهُمَا مِنْ اللَّهِ شَيْئًا وَقَبِيلَ أَدْخُلَ الْأَنَارَ مَعَ الْمَازِخِينَ﴾ أي
خانتاهما في الدين فلم يتبعاهما فيه ، وليس المراد أنهما كانتا على فاحشة - حاشا وكلـا - فإن
الله لا يقتدر على نبي قط أن تبغي امرأته ، كما قال ابن عباس وغيره من أئمة السلف
والخلف : ما بعثت امرأة نبي قط ، ومن قال خلاف هذا فقد أخطأ خطأً كبيراً.

قال الله تعالى في قصة الإفك ، لما أنزل براءة أم المؤمنين عائشة بنت الصديق ، زوج
رسول الله ﷺ ، حين قال لها أهل الإفك ما قالوا ، فعاتب الله المؤمنين وأئب ورجز ، ووعظ
وحرّر ، قال فيما قال : ﴿إِذْ تَلَقَّوْنَهُ بِالسِّتَّةِ وَتَقُولُونَ إِنَّفَاهُكُمْ مَا تَيْسَرَ لَكُمْ بِهِ عَلَمٌ وَتَعْسُبُونَهُ هُنَّا وَهُوَ
عِنْدَ اللَّهِ عَظِيمٌ﴾ [١٥] **وَلَوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ قَلْمَرَ مَا يَكُونُ لَنَا أَنْ تَكَلَّمَ إِلَهًا سُبْحَنَكَ هَذَا بَهْتَنُ عَظِيمٌ** أي
سبحانك أن تكون زوجة نبيك بهذه المثابة .

وقوله هنا : ﴿وَمَا هِيَ مِنَ الظَّالِمِينَ يَعِيدُ﴾ أي وما هذه العقوبة بعيدة ممن أشبههم في =

فعلهم . ولهذا ذهب من ذهب من العلماء إلى أن اللائط يرجم ، سواء أكان محسناً أو لا .
ونص عليه الشافعي وأحمد بن حنبل وطاقة كثيرة من الأئمة . واحتجوا أيضاً بما رواه الإمام
أحمد وأهل السنن من حديث عمرو بن أبي عمرو ، عن عكرمة ، عن ابن عباس ، أن
رسول الله ﷺ قال : «من وجدتموه يعمل عمل قوم لوط فاقتلوه الفاعل والمفعول به» . وذهب
أبو حنيفة إلى أن اللائط يلقى من شاهق جبل ويتبع بالحجارة كما فعل بقوم لوط ، لقوله
تعالى : ﴿وَمَا هِيَ مِنَ الظَّالِمِينَ بَعِيدٌ﴾ (وانظر سنن أبي داود / كتاب الحدود / ح ٤٤٦٢) .

وجعل الله مكان تلك البلاد بحيرة متنية لا يتضيق بعاتها ، ولا بما حولها من الأرض المتناحمة
لفنائها ، لردايتها ودناءتها ، فصارت عبرة ومثله وعظة وآية على قدرة الله تعالى وعظمته ،
وعزته في انتقامه من خالف أمره ، وكتب رسله ، واتبع هواه وعصى مولاه ، ودليلًا على
رحمته بعباده المؤمنين في إنجائه إياهم من المهملات ، وإخراجه إياهم من الظلمات إلى
النور ، كما قال تعالى : ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِيْهَ وَمَا كَانَ أَكْرَهُهُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿٦﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُ الرَّزِّيزُ الرَّحِيمُ﴾ .

وقال الله تعالى : ﴿فَأَخَذْنَاهُمُ الصَّيْحَةَ مُشْرِقَيْنَ ﴿٧﴾ فَجَعَلْنَا عَلَيْهَا سَافِلَهَا وَأَنْطَرْنَا عَلَيْهِمْ حَجَارَةً مِنْ سِجِيلٍ ﴿٨﴾
إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِيْنَ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿٩﴾ وَإِنَّهَا لِسَبِيلِ مُقْبِرٍ ﴿١٠﴾ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِيْهَ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿١١﴾ أي من نظر بعين
الفراسة والتوصيم فيهم ، كيف غير الله تلك البلاد وأهلها؟ وكيف جعلها بعدما كانت أهلة
عامة هالكة غامرة؟

كما روى الترمذى وغيره مرفوعاً : «اتقوا فراسة المؤمن فإنه ينظر بنور الله» ثم قرأ : ﴿إِنَّ فِي
ذَلِكَ لَذِيْنَ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ . قوله : ﴿وَإِنَّهَا لِسَبِيلِ مُقْبِرٍ﴾ أي لبطريق مهيع مسلوك إلى الآخر . كما
قال : ﴿وَلَنَكُمْ لَكُمْ رُؤُونَ عَلَيْهِمْ مُصَبِّرَيْنَ ﴿١٢﴾ وَإِنَّهَا أَفَلَاقَ تَقْلُوْنَ﴾ ، وقال تعالى : ﴿وَلَقَدْ تَرَكَنَا مِنْهَا
ءَاكِيَةً بِيَتْهَ لِقُومٍ يَعْقُلُوْنَ﴾ ، وقال تعالى : ﴿فَأَخْرِجْنَا مَنْ كَانَ فِيهَا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٣﴾ فَلَا وَجَدْنَا فِيهَا عِبَرَ
بَيْتَ مِنَ الْمُسْلِمِيْنَ ﴿١٤﴾ وَتَرَكَ فِيهَا ءَاكِيَةً لِلَّذِينَ يَخَافُوْنَ عَذَابَ الْأَلِيمَ﴾ .

أي : تركناها عبرة وعظة لمن خاف عذاب الآخرة ، وخشي الرحمن بالغيب ، وخاف مقام
ربه ونهى النفس عن الهوى ، فانزجر من محارم الله وترك معا�يه ، وخاف أن يشابه قوم
لوط . ومن تشبه بقوم فهو منهم ، وإن لم يكن من كل وجه ، فمن بعض الوجوه ، كما قال
بعضهم :

فإن لم تكونوا قوم لوط بعينهم فما قوم لوط منكم ببعيد

نَبِيُّ اللهِ إِبْرَاهِيمَ الْحَلِيلَ
عَلَيْهِ السَّلَامُ

[دعوه لأبيه] :

قال الحافظ ابن كثير رحمة الله :

وكان أول دعوته لأبيه ، وكان أبوه من يعبد الأصنام ، لأنه أحق الناس بخلالص النصيحة له =

كما قال تعالى: ﴿وَذَكْرُ فِي الْكِتَابِ إِبْرَاهِيمَ إِنَّهُ كَانَ صَدِيقًا نَّبِيًّا ۝ إِذَا قَالَ لِأَيْمَهُ تَائِبٌ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يَغْنِي عَنْكَ شَيْئًا ۝ يَتَأَبَّتْ إِنِّي فَقَدْ جَاءَنِي مِنْ الْعَلِيِّ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَاتَّغْنِي أَهْدِكَ صِرَاطَ سَوْيَا ۝ يَتَأَبَّتْ لَا تَعْبُدُ الشَّيْطَانَ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِرَحْمَنِ عَصِيًّا ۝ يَتَأَبَّتْ إِنِّي أَحَافُ أَنْ يَمْسَكَ عَدَابًا مِنَ الرَّحْمَنِ فَتَكُونُ لِلشَّيْطَانِ وَلِيًّا ۝ قَالَ أَرَاغُبُ أَنْتَ عَنِ الْهَمَىٰ يَتَأَبَّهُ إِبْرَاهِيمَ لَئِنْ لَّمْ تَتَّهِ لَأَرْجُمَنِكَ وَأَهْجُرْنِي مَلِيًّا ۝ قَالَ سَلَامٌ عَلَيْكَ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّي إِنَّهُ كَانَ بِحَفِيَّةٍ ۝ وَأَعْتَرُ لَكُمْ وَمَا نَدَعُونَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَأَدْعُوا رَبِّي عَسَىٰ أَلَا أَكُونَ يَدْعُ عَلَيْكَ شَقِيقًا﴾ [مريم : ٤١ - ٤٨].

فذكر تعالى ما كان بينه وبين أبيه من المحاجرة والمجادلة ، وكيف دعا أبوه إلى الحق بالطف عبارة وأحسن إشارة ، بين له بطلان ما هو عليه من عبادة الأواثان التي لا تسمع دعاء عابدها ، ولا تبصر مكانه ، فكيف تغنى عنه شيئاً أو تقنع به خيراً من رزق أو نصر؟ ثم قال له منها على ما أعطاه الله من الهدى والعلم النافع ، وإن كان أصغر سنًا من أبيه : ﴿يَتَأَبَّتْ إِنِّي فَقَدْ جَاءَنِي مِنْ الْعَلِيِّ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَاتَّغْنِي أَهْدِكَ صِرَاطَ سَوْيَا﴾ أي: مستقيماً واضحاً سهلاً حنيفاً يفضي بك إلى الخير في دنياك وأخرالك.

فلما عرض هذا الرشد عليه ، وأهدى هذه النصيحة إليه لم يقبلها منه ولا أخذها عنه ، بل تهده وتوعده قال: ﴿أَرَاغُبُ أَنْتَ عَنِ الْهَمَىٰ يَتَأَبَّهُ إِبْرَاهِيمَ لَئِنْ لَّمْ تَتَّهِ لَأَرْجُمَنِكَ﴾ قيل: بل أنت سالم من ناحيتي ، وزاده خيراً فقال: ﴿سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّي إِنَّهُ كَانَ بِحَفِيَّةٍ ۝﴾.

قال ابن عباس وغيره: أي لطيفاً ، يعني في أن هداني لعبادته والإخلاص له . ولهذا قال: ﴿وَأَعْتَرُ لَكُمْ وَمَا نَدَعُونَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَأَدْعُوا رَبِّي عَسَىٰ أَلَا أَكُونَ يَدْعُ عَلَيْكَ شَقِيقًا﴾.

وقد استغفر له إبراهيم عليه السلام كما وعده في أدعيته ، فلما تبين له أنه عدو الله تبرأ منه كما قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ أَسْتَغْفِرًا إِبْرَاهِيمَ لِأَيْهِ إِلَّا عَنْ مَوْعِدَةٍ وَعَدَهَا إِيَّاهُ فَلَمَّا نَبَّأَنِي لَهُ أَنَّهُ عَذُورٌ لِلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَأَوَّلُهُ حَلِيمٌ﴾.

وقال البخاري: حدثنا إسماعيل بن عبد الله: حدثني أخي عبد الحميد ، عن ابن أبي ذئب ، عن سعيد المقبري ، عن أبي هريرة ، عن النبي ﷺ قال: «يلقى إبراهيم أباه ازر يوم القيمة وعلى وجه أزر قترة وغبرة ، فيقول له إبراهيم: ألم أقل لك لا تعصيني؟ فيقول له أبوه: فالليوم لا أعصيك. فيقول إبراهيم: يا رب.. إنك وعدتني لا تخزيني يوم يبعثون ، فائي خزي أحرى من أبي الأبعد؟ فيقول الله: إني حرمت الجنة على الكافرين. ثم يقال: يا إبراهيم... ما تحت رجليك؟ فينظر فإذا هو بذبح متلطخ. فيؤخذ بقواته فيلقى في النار». هكذا رواه في قصة إبراهيم منفرداً . وقال في التفسير: وقال إبراهيم بن طهمان ، عن ابن أبي ذئب ، عن سعيد المقبري ، عن أبيه ، عن أبي هريرة [البخاري/ كتاب الأنبياء/ ح ٣٣٥٠ / والتفسير/ ح ٧٦٨].

وهكذا رواه النسائي عن أحمد بن حفص بن سلمة ، عن أبيه ، عن إبراهيم بن طهمان به . وقد رواه البزار عن حديث حماد بن سلمة ، عن أبيه ، عن محمد بن سيرين ، عن =

أبي هريرة ، عن النبي ﷺ بنحوه ، وفي سياقه غرابة ، ورواه أيضاً من حديث قتادة عن عقبة بن عبد الغافر ، عن أبي سعيد ، عن النبي ﷺ بنحوه .
وقال تعالى : ﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَيْمَهُ أَزْرَ أَتَتَّخُذُ أَصْنَامًا مِّنْهُ إِنْ أَرَيْكَ وَقَوْمَكَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴾
هذا يدل على أن اسم أبي إبراهيم ازر .

[عبادة الكواكب] :

ثم قال تعالى : ﴿ وَكَذَّلَكَ رُزْيَ إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَيَكُونَ مِنَ الْمُوْقِنِينَ ﴾ فَلَمَّا حَنَّ عَيْنَيْهِ الْأَيَّلُ رَءَأَ كَوْكِبًا قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفْلَ قَالَ لَا أُحِبُّ الْأَفْلَيْنَ ﴿ فَلَمَّا رَأَهُ الْقَمَرَ بِأَغْنَى قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفْلَ قَالَ لَئِنْ لَمْ يَهْدِنِي رَبِّي لَأَكُونَ مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴾ فَلَمَّا رَأَهُ الْشَّمْسَ بِأَزْغَةَ فَقَالَ هَذَا رَبِّي هَذَا أَكْبَرُ فَلَمَّا أَفْلَتْ قَالَ يَقُولُ إِنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشَرِّكُونَ ﴿ إِنِّي وَجَهْتُ وَجْهِي لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ حَنِيفًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشَرِّكِينَ ﴾ وَحَاجَهُ فَوْمَهُ قَالَ أَمْحَاجُونِي فِي اللَّهِ وَقَدْ هَدَنِي وَلَا أَخَافُ مَا تُشَرِّكُونَ بِهِ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ رَبِّي شَيْئًا وَسِعَ رَبِّي كُلَّ شَيْءٍ عَلَمًا إِفْلًا تَنَاهَى كَوْكِبُونَ ﴿ وَكَيْفَ أَخَافُ مَا أَشَرَّكُونَ وَلَا تَخَافُوكُنَّ أَنَّكُمْ أَشَرَّكُتُمْ بِاللَّهِ مَا لَمْ يُرَدِّلْ بِهِ عَلَيْكُمْ كُلُّ سُلْطَانًا فَإِنَّ الْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِالْأَمْنِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ أَلَّا يَعْلَمُوا وَلَمْ يَلْبِسُو إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولَئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُمْ مُهْتَدُونَ ﴿ وَتَنَاهَ حُجَّتَنَا إِتَّيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَى قَوْمِهِ نَرَفَعُ دَرَجَتَنَا مِنْ نَسَاءَ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلَيْهِمْ ﴾ .

وهذا المقام مقام مناظرة لقومه ، وبيان لهم أن هذه الأجرام المشاهدة من الكواكب النيرة ، لا تصلح للألوهية ، ولا أن تعبد مع الله عز وجل ، لأنها مخلوقة مربوبة مصنوعة مدبرة مسخرة ، تطلع تارة وتتألف أخرى ، فتغييب عن هذا العالم ، والرب تعالى لا يغيب عنه شيء ولا تخفي عليه خافية ، بل هو الدائم الباقى بلا زوال ، لا إله إلا هو ولا رب سواه .

فيَّنَ لَهُمْ أَوْلًا عَدَمِ صِلَاحِيَّةِ الْكَوْكَبِ لِذَلِكَ ، ثُمَّ تَرَقَّى مِنْهَا إِلَى الْقَمَرِ الَّذِي هُوَ أَضْوَأُ مِنْهَا وَأَبْهَى مِنْ حَسْنَهَا ، ثُمَّ تَرَقَّى إِلَى الشَّمْسِ الَّتِي هِي أَشَدُ الْأَجْرَامِ الْمُشَاهَدَةِ ضَيَاءً وَسَنَاءً وَبَهَاءً ، فَيَّنَ أَنَّهَا مُسْخَرَةٌ مُسَيَّرَةٌ مُقْدَرَةٌ مُرْبَوَّبةٌ ، كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَمِنْ أَبْيَاتِهِ أَيَّلُ وَالنَّهَارُ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ لَا نَسْجُدُوا لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَأَسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَهُنَّ إِنْ كُنْتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴾ .

ولهذا قال : ﴿ فَلَمَّا رَأَهُ الْشَّمْسَ بِأَزْغَةَ ﴾ أي طالعة ﴿ قَالَ هَذَا أَكْبَرُ فَلَمَّا أَفْلَتْ قَالَ يَقُولُ إِنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشَرِّكُونَ ﴿ إِنِّي وَجَهْتُ وَجْهِي لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ حَنِيفًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشَرِّكِينَ ﴾ وَحَاجَهُ فَوْمَهُ قَالَ أَمْحَاجُونِي فِي اللَّهِ وَقَدْ هَدَنِي وَلَا أَخَافُ مَا تُشَرِّكُونَ بِهِ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ رَبِّي شَيْئًا ﴾ أي لست أبالي بهذه الآلة التي تعبدونها من دون الله ، فإنها لا تنفع شيئاً ، ولا تسمع ولا تعقل ، بل هي مربوبة مسخرة كالكواكب ونحوها ، أو مصنوعة منحوته منجورة .

[البابليون وعبادة الأصنام] :

= وأما أهل بابل فكانوا يعبدون الأصنام ، وهم الذين ناظرهم في عبادتهم وكسرها عليهم

وأهانها وبين بطلانها ، كما قال تعالى : « وَقَالَ إِنَّا أَخْذَنَا مِنْ دُونِ اللَّهِ أُولَئِكَ مَوَدَةً بَيْنَكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُمْ بِعَصْبَتِكُمْ وَيَأْتُ بَعْضُكُمْ بَعْضًا وَمَا وَنِسْكُمُ الْأَنَارُ وَمَا لَكُمْ مِنْ نَصِيرٍ ». »

وقال في سورة الأنبياء : « وَلَقَدْ أَتَيْنَا إِبْرَاهِيمَ رُشْدًا مِنْ قَبْلَ وَكَانَ بِهِ عَلِيهِنَّ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا هَذِهِ الْشَّائِلَاتِ الَّتِي أَتَنَا لَهَا عَيْنَكُوْنَ قَالُوا وَجَدْنَا إِبَّانًا لَهَا عَيْدِيْرِنَ قَالَ لَقَدْ كُنْتُ أَنْتُ وَإِبَّاً وَكُمْ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ قَالُوا إِحْتَنَاهَا بِالْحُقْقِ أَرَأَنَّا مِنَ الْمُلْعَنِينَ قَالَ بَلْ رَبُّنَا رَبُّ الْمُسْتَوْنَ وَالْأَرْضِ الَّتِي فَطَرَهُنَّ وَإِنَّا عَلَى ذَلِكُمْ بِنَ الشَّهِيدِيْنَ وَنَالَهُ لَأَكْبِدَنَ أَصْنَكُمْ بَعْدَ أَنْ تُولُوا مُدْبِرِيْنَ فَجَعَلَهُمْ جُذَادًا إِلَّا كَيْدَرَا لَهُمْ لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ قَالُوا مَنْ فَعَلَ هَذَا إِنَّا هُنَّ إِلَيْهِ لَمَنْ افْطَلِيْمِيْنَ قَالُوا سَمِعْنَا فَتِيْ يَدْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُ إِبْرَاهِيمَ قَالُوا فَأَتُوا بِهِ عَلَى أَعْيُنِ النَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَشْهَدُوْنَ قَالُوا إِنَّا فَعَلْتُ هَذَا إِنَّا هَلْمِتَنَا إِبْرَاهِيمَ قَالَ بَلْ فَعَلْكُمْ كَيْرُهُمْ هَذَا فَسَلَوْهُمْ إِنْ كَانُوا يَنْطَقُوْنَ فَرَجَعُوْنَ إِلَيْنَ أَنْفُسِهِمْ فَقَالُوا إِنَّكُمْ أَشَمُ الظَّالِمِيْمِ شَمَّ كِسْوَاعَلَيْهِمْ وَرُوسِهِمْ لَقَدْ عَلِمْتُ مَا هَذُولَاءِ يَنْطَقُوْنَ قَالَ أَفَتَعْبُدُوْكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْعَكِسُ كُمْ شَيْئًا وَلَا يَضْرُبُمْ أَفِ لَكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُوْنَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَفَلَا تَعْقُلُوْنَ قَالُوا حَرْفُوهُ وَانْصُرُوْا إِلَيْهِتُمْ إِنْ كُنْتُمْ فَنَذِلِيْنَ قَلْنَا يَنْذَارُ كُونِيْ بِرَدًا وَسَلَّمَ عَلَى إِبْرَاهِيمَ وَأَرَادُوْبِهِ كَيْدَا فَجَعَلْنَاهُمْ الْأَخْسَرِيْنَ ». » [الأنبياء : ٥١ - ٧٠].

وقال في سورة الشعراء : « وَأَتَلَ عَلَيْهِمْ بَأْ إِبْرَاهِيمَ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا تَعْبُدُوْنَ قَالُوا نَعْبُدُ أَصْنَامًا مَفَنْظَلُ لَهَا عَيْدِيْنَ قَالَ هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ إِذْ نَدْعُوْنَ أَوْ يَنْفَعُونَكُمْ أَوْ يَضْرُبُونَ قَالُوا بَلْ وَجَدْنَا إِبَّانًا كَذِيلَكِ يَفْعَلُوْنَ قَالَ أَفَرِيْشَرْ مَا كُنْتُ تَعْبُدُوْنَ أَشَمُ وَإِبَّا وَكُمْ أَلْقَافُونَ فَإِنَّهُمْ عَدُوِّيَ إِلَيْهِ الْأَرَبَ الْعَلَمِيْنَ الَّذِي حَلَقَنِيْ فَهُوَ يَهِيْدِيْنَ وَالَّذِي هُوَ يَطْعِمُنِيْ وَيَسْقِيْنِيْنَ وَلَا دَرَأَ مِضْتَ فَهُوَ يَشْفِيْنِيْنَ وَالَّذِي يُمْسِيْنِيْ نَمَّ يَحْسِيْنِيْنَ فَأَقْبِلُوا إِلَيْهِ يَرْفُونَ قَالَ أَتَعْبُدُوْنَ مَا تَحْسُنُوْنَ وَاللَّهُ حَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُوْنَ قَالُوا أَبْنُو الْمُبْدِيْنَ فَأَلْقَوْهُ فِي الْجَحَّيْمِ قَارَادُوْبِهِ كَيْدَا فَعَلَتْهُمْ الْأَسْعَلِيْنَ ». » [الشعراء : ٦٩ - ٨٣].

وقال في سورة الصافات : « وَإِنَّا مِنْ شَيْئِنِيْنِ لِإِبْرَاهِيمَ إِذْ جَاءَ رَبِّهِ يَقْلِبُ سَلَيْمِ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَاذَا تَعْبُدُوْنَ أَيْقِنَكَاهُ اللَّهُ دُونَ اللَّهِ تَرْبُودِيْنَ فَمَا طَنَكُمْ بِرَبِّ الْعَالَمِيْنَ نَظَرَ نَظَرَةً فِي الْجُحُورِ قَالَ إِيْ سَقِيْمِ فَنَزَلُوا عَنْهُ مُدْبِرِيْنَ فَرَاغَ إِلَيْهِمْ فَقَالَ أَلَا تَأْكُونُ مَا كُلُّهُ لَا يَنْطَقُونَ فِي عَلَيْهِمْ صَرَبَا إِلَيْيِنَ فَأَقْبِلُوا إِلَيْهِ يَرْفُونَ قَالَ أَتَعْبُدُوْنَ مَا تَحْسُنُوْنَ وَاللَّهُ حَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُوْنَ قَالُوا أَبْنُو الْمُبْدِيْنَ فَأَلْقَوْهُ فِي الْجَحَّيْمِ قَارَادُوْبِهِ كَيْدَا فَعَلَتْهُمْ الْأَسْعَلِيْنَ ». »

يخبر الله تعالى عن إبراهيم خليله عليه السلام ، أنه أنكر على قومه عبادة الأوثان ، وحرقها عندهم وصغرها وتنقصها ، فقال : « مَا هَذِهِ الْشَّائِلَاتِ الَّتِي أَتَنَا لَهَا عَيْنَكُوْنَ ؟ أَيْ معتكفوْنُ عندها وخاضعون لها ، قالوا : « وَجَدْنَا إِبَّانًا لَهَا عَيْدِيْرِنَ ». » أي ما كانت حجتهم إلا صنع الآباء والأجداد ، وما كانوا عليه من عبادة الأنداد .

« قَالَ لَقَدْ كُنْتُمْ أَنْتُمْ وَإِبَّا وَكُمْ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ». » كما قال تعالى : « إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَاذَا =

تَعْبُدُونَ ﴿٨﴾ أَيْنَ كَا إِلَهَةٌ دُونَ اللَّهِ تُرْبِدُونَ ﴿٩﴾ فَمَا طَلَّكُمْ بِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٠﴾ . قال قتادة: فما ظنك به أنه فاعل
بكم إذا لقيتموه وقد عبّدتكم غيره؟

وقال لهم: «هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ إِذْ تَدْعُونَ ﴿١١﴾ أَوْ يَنْفَعُونَكُمْ أَوْ يَضُرُّونَ ﴿١٢﴾ فَالْأُولُوا لِلْبَلْغَةِ أَمْلَأُوكُمْ كَذَلِكَ يَعْقُلُونَ ﴿١٣﴾» سلموا الله أنها لا تسمع داعيَا ولا تنفع ولا تضر شيئاً، وإنما الحامل لهم على عبادتها الأقداء بأسلامهم ومن هو مثلهم في الضلال من الآباء الجهال؛ ولهذا قال لهم: «أَفَرَءَيْشُ مَا كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ ﴿١٤﴾ أَنْتُرُ وَإِبَّا وَكُمْ أَلْفَلَمُونَ ﴿١٥﴾ فِيمَهُمْ عَدُوٰتٍ لِلْأَرَبِ الْعَالَمِينَ ﴿١٦﴾» [الشعراء: ٧٥ - ٧٧].

وهذا برهان قاطع على بطلان إلهية ما ادعوه من الأصنام ، لأنه تبرأ منها وتتنقص بها ، فلو كانت تضر لضرته ، أو تؤثر لأثرت فيه . «فَالْأُولُوا لِحِسْنَاتِهِنَّ أَمْلَأُوكُمْ مِنَ الْلَّعْنَيْنَ ﴿١٧﴾»؟ ويقولون: هذا الكلام الذي تقوله لنا وتتنقص به آهتنا ، وتطعن بسببه في آياتنا ، أتفعله محقاً جاداً فيه أم لا؟

«فَالَّذِي يَرْكُمُ رَبُّ الْسَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ الَّذِي فَطَرَهُنْ ﴿١٨﴾ وَإِنَّا عَلَى ذَلِكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ ﴿١٩﴾» يعني بل أقول لكم ذلك جاداً محقاً ، إنما إلهكم الله الذي لا إله إلا هو ، ربكم ورب كل شيء ، فاطر السموات والأرض ، الخالق لهما على غير مثال سبق ، فهو المستحق للعبادة وحده لا شريك له ، وأنا على ذلكم من الشاهدين.

[موقفه من الأصنام]:

وقوله: «وَتَالَّهِ لَأَكْيَدَنَ أَصْنَمُكُمْ بَعْدَ أَنْ تُولُوا مُدْبِرِينَ ﴿٢٠﴾» أقسم ليكيدن هذه الأصنام التي يعبدونها بعد أن تولوا مدبرين إلى عيدهم. قيل: إنه قال: هذا خفية في نفسه. وقال ابن مسعود: سمعه بعضهم.

قال تعالى: «فَنَظَرَ نَظَرَةً فِي الْجُوُمِ ﴿٢١﴾ فَقَالَ إِنِّي سَقِيمٌ ﴿٢٢﴾» عرض لهم في الكلام حتى توصل إلى مقصوده من إهانة أصنامهم ونصرة دين الله الحق ، وبطلان ما هم عليه من عبادة الأصنام التي تستحق أن تكسر وأن تهان غاية الإهانة.

«فَرَأَى إِلَلَاهَهِنَّمَ ﴿٢٣﴾» أي ذهب إليها مسرعاً مستخفياً ، فوجدها في بهو عظيم ، وقد وضعوا بين أيديها أنواعاً من الأطعمة قرباناً إليها فقال لها على سبيل التهكم والازدراء: «أَلَا تَأْكُلُونَ ﴿٢٤﴾ مَا لَكُمْ لَا تَنْطَلِقُونَ ﴿٢٥﴾ فَرَأَى عَلَيْهِمْ حَرَبًا يَأْتِيهِنَّ ﴿٢٦﴾ لأنها أقوى وأبشع وأقهر ، فكسرها بقدوم في يده كما قال تعالى: «فَجَعَلَهُمْ جُذَادًا ﴿٢٧﴾» أي حطاماً ، كسرها كلها «إِلَّا كَيْرًا لَهُمْ لَعْنَهُمُ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ ﴿٢٨﴾» قيل: إنه وضع القدوم في يد الكبير ، فلما وجدوا ما حل بمعبدتهم: «فَالْأُولُوا مِنْ فَعَلَ هَذَا بِالْهَتَنَا إِنَّهُ لِمَنَ الظَّلَمِيْنَ ﴿٢٩﴾» وهذا فيه دليل ظاهر لهم لو كانوا يعقلون ، وهو ما حل بالهتهم التي كانوا يعبدونها ، فلو كانت آلة لدفعت عن أنفسها من أرادها بسوء لكتهم قالوا من جهلهم وقلة عقلهم وكثرة ضلالهم وخبالهم: «مَنْ فَعَلَ هَذَا بِالْهَتَنَا إِنَّهُ لِمَنَ الظَّلَمِيْنَ ﴿٣٠﴾» ، «فَالْأُولُوا سَمِعُنَا فَيَذَكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُمْ إِنْتَهُمْ ﴿٣١﴾» أي يذكرها بالغيبة والتتنقص لها والازدراء بها ، فهو المقيم عليها والكسر لها وعلى قول ابن مسعود ، أي يذكرها بقوله: «وَتَالَّهِ لَأَكْيَدَنَ =

أَصْنَمُوكُمْ بَعْدَ أَن تُولُوا مُدِيرِينَ ﴿٤﴾ قَالُوا فَاتَّوْبِيهِ عَلَىٰ أَعْيُنِ النَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَشَهُدُونَ ﴾ أي في الملا الأكبر على رؤوس الأشهاد ، لعلهم يشهدون مقالته ويسمعون كلامه ، ويعاينون ما يحل به من الاقتصاص منه . وكان هذا أكبر مقاصد الخليل عليه السلام أن يجتمع الناس كلهم ، فيقيم على جميع عباد الأصنام الحجة على بطلان ما هم عليه ، كما قال موسى عليه السلام لفرعون : « مَوْعِدُكُمْ يَوْمَ الْرِّيْسَةِ وَأَن يُحْشَرَ النَّاسُ صُنْحًا » .

فلما اجتمعوا وجاؤوا به كما ذكروا : « قَالُوا إِنَّا فَلَتَ هَذَا إِنَّا لَمْتَنَا بِإِنْزَاهِهِمْ ﴿٥﴾ قَالَ بَلْ فَعَلَّمَكُمْ هُنَّا هَذَا قيل معناه : هو الحامل لي على تكسيرهم ، وإنما عرض لهم في القول « فَتَلَوُهُمْ إِنْ كَانُوا يَطْقُونَ ﴾ . وإنما أراد بقوله هذا أن يبادروا إلى القول بأن هذه لا تنطق ، فيعرفوا بأنها جمام كسائر الجمامات .

« فَرَجَحُوا إِلَىٰ أَنفُسِهِمْ فَقَالُوا إِنَّكُمْ أَنْتُمُ الظَّالِمُونَ ﴾ أي فعادوا على أنفسهم بالملامة ، فقالوا : إنكم أنتم الظالمون . أي في تركها لا حافظ لها ولا حارس عندها . « ثُمَّ تُكْسُوْا عَلَىٰ رُؤْسِهِمْ ﴾ قال السدي : أي ثم رجعوا إلى الفتنة ، فعلى هذا يكون قوله : « إِنَّكُمْ أَنْتُمُ الظَّالِمُونَ ﴾ أي في عبادتها .

وقال قنادة : أدركت القوم حيرة سوء ، أي فأطروقا ثم قالوا : « لَقَدْ عَلِمْتَ مَا هَنُولَاءِ يَنْتَطِقُونَ ﴾ أي لقد علمت يا إبراهيم أن هذه لا تنطق ، فكيف تأمرنا بسؤوها ! فعند ذلك قال لهم الخليل عليه السلام : « أَفَتَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْقُعُ كُمْ شَيْئًا وَلَا يَضُرُّكُمْ ﴿٦﴾ أَفَ لَكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَفْلَأُ تَعْقِلُونَ ﴾ . كما قال : « فَأَقْبَلُوا إِلَيْهِ يَرْفَوْنَ ﴾ قال مجاهد : يسرعون . قال : « أَنْتَبُدُونَ مَا تَنْجِحُونَ ﴾ أي : كيف تبدون أصناماً أنتم تحتونها من الخشب والحجارة ، وتصورونها وتشكلونها كما تريدون « وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ » .

وسواء أكانت : « ما » مصدرية أو بمعنى « الذي » فمقتضى الكلام أنكم مخلوقون ، وهذه الأصنام مخلوقة ، فكيف يتبع مخلوق لمخلوق مثله ؟ فإنه ليس عبادتكم لها بأولى من عبادتها لكم ، وهذا باطل ، فالآخر باطل للتحكيم ، إذ ليست العبادة تصلح ولا تجب إلا للخالق وحده لا شريك له .

[حرق إبراهيم] :

« قَالُوا أَبُوا لَهُ بَيْتِنَا فَأَلْقُوهُ فِي الْجَحِيجِ ﴿٧﴾ فَأَرْدَأُوهُ، كَيْدًا فَعَلَّنَهُمُ الْأَسْفَلَيْنَ ». عدلوا عن الجدال والمناظرة لما انقطعوا وغلووا ، ولم تبق لهم حجة ولا شبهة إلا استعمال قوتهم وسلطانهم ، لينصروا ما هم عليه من سفههم وطغيانهم ، فقادهم الرب جل جلاله ، وأعلى كلمنته ودينه ويرهانه كما قال تعالى : « قَالُوا حَرَقُوهُ وَأَنْصِرُوا إِلَيْهِنَّكُمْ إِنْ كُنْتُمْ فَتَلَيْتِ ﴿٨﴾ قُلْنَا يَنْتَرُ كُوْنِي بِرَدَا وَسَلَمًا عَلَىٰ إِنْزَاهِهِ ﴿٩﴾ وَأَرَادُوهُ، كَيْدًا فَعَلَّنَهُمُ الْأَخْسَرِيْكَ ». وذلك أنهم شرعوا بجمعون حطبًا من جميع ما يمكنهم من الأماكن ، وأطلقوها فيها النار فاضطرمت وتراجعت والتهبت وعلا لها شرر ثم ألقوه من البناء الذي بنوه له إلى النار قال :

=

حسبنا الله ونعم الوكيل ، كما روى البخاري عن ابن عباس أنه قال : حسبنا الله ونعم الوكيل ،
قالها إبراهيم حين ألقى في النار ، وقالها محمد حين قيل له : ﴿إِنَّ الْمَنَاسَ قَدْ جَعَلُوا لَكُمْ فَأَخْشُوهُمْ فَرَادَهُمْ إِيمَنًا وَقَالُوا حَسِبْنَا اللَّهَ وَنَعَمْ الْوَكِيلُ ﴾ ﴿فَأَنْقَلَبُوا يَنْعَمَةً مِنَ اللَّهِ وَفَضَلْلَ لَمْ يَمْسِسْهُمْ سُوءٌ﴾
الآلية .

وقال أبو يعلى : حدثنا أبو هشام الرفاعي ، حدثنا إسحاق بن سلمان ، عن أبي جعفر
الرازي ، عن عاصم بن أبي النجود ، عن أبي صالح ، عن أبي هيريرة قال : قال ﴿الما
أَلَقَى إِبْرَاهِيمَ فِي النَّارِ، قَالَ: لِلَّهِ إِنِّي فِي السَّمَاءِ وَاحِدٌ، وَأَنَا فِي الْأَرْضِ وَاحِدٌ أَعْبُدُكَ!﴾!
﴿قُلْنَا يَنْتَرُ كُوفَّ بَرَّا وَسَلَّمَ عَلَى إِبْرَاهِيمَ﴾ قال علي بن أبي طالب : أي لا تضرُّ به .

وقال ابن عباس وأبو العالية : لو لا أن الله قال : ﴿وَسَلَّمَ عَلَى إِبْرَاهِيمَ﴾ لآذى إبراهيم ببردها .
فأرادوا أن يتصرّوا فخذلوا ، وأرادوا أن يرتفعوا فاتضعوا ، وأرادوا أن يغلبوا فغلبوا . قال الله
تعالى : ﴿وَأَرَادُوا إِلَيْهِ كُيدًا فَجَعَلَنَاهُمُ الْأَخْسَرِينَ﴾ ، وفي آية أخرى : ﴿الْأَسْقَفِينَ﴾ ففازوا
بالخسارة والسؤال هذا في الدنيا ، وأما في الآخرة فإن نارهم لا تكون عليهم بردا ولا سلاماً ،
ولا يلقون فيها تحية ولا سلاماً ، بل هي كما قال تعالى : ﴿إِنَّهَا سَاءَتْ مُسْتَقْرَرًا وَمَقَاماً﴾ .

قال البخاري : حدثنا عبيد الله بن موسى ، أو ابن سلام عنه ، أئبنا ابن جريج ، عن
عبد الحميد بن جبير ، عن سعيد بن المسيب ، عن أم شريك ، أن رسول الله ﷺ أمر بقتل
الوزغ ، وقال : «كان ينفع على إبراهيم». [صحيحة البخاري / كتاب الأنبياء / ح ٣٣٥٩].
ورواه مسلم من حديث ابن جريج ، وأخرجه النسائي وابن ماجه من حديث سفيان بن عيينة ،
كلاهما عن عبد الحميد بن جبير بن شيبة عنه [مسلم / ١٤٣ / ٢٢٣٧].

وقال أحمد : حدثنا محمد بن بكر ، حدثنا ابن جريج ، أخبرني عبد الله بن عبد الرحمن بن
أبي أمية ، أن نافعاً مولى ابن عمر أخبره أن عائشة أخبرته أن رسول الله ﷺ قال : «اقتلو
الوزغ فإنه كان ينفع النار على إبراهيم» ، قال : فكانت عائشة تقتلهن [مسند أحمد /
ح ٢٥٧٠١].

وقال أحمد : حدثنا إسماعيل : حدثنا أيبوب عن نافع ، أن امرأة دخلت على عائشة فإذا رمح
منصوب فقالت : ما هذا الرمح؟ فقالت : نقتل به الأوزاغ؛ ثم حدثت عن رسول الله ﷺ : «أن
إبراهيم لما ألقى في النار جعلت الدواب كلها تطفئ عنه إلا الوزغ ، فإنه جعل ينفخها
عليه». تفرد به أحمد من هذين الوجهين [أحمد / ح ٢٥٨٨٥].

وقال أحمد : حدثنا عفان ، حدثنا جرير ، حدثنا نافع ، حدثتني سمامة مولاً الفاكه بن
المغيرة ، قالت : دخلت على عائشة فرأيت في بيتها رمحًا موضوعاً ، فقلت : يا أم
المؤمنين .. ما تصنعين بهذا الرمح؟ قالت : هذا لهذه الأوزاغ نقتلهن به ، فإن رسول الله ﷺ
حدثنا : «أن إبراهيم حين ألقى في النار لم يكن في الأرض دابة إلا تطفئ عنه النار ، غير
الوزغ كان ينفع عليه ، فأمرنا رسول الله ﷺ بقتله». رواه ابن ماجه عن أبي بكر بن

أبي شيبة ، عن يونس بن محمد ، عن جرير بن حازم به . [أحمد/ ٢٤٨٣٤] وابن ماجه [ح ٣٢٣١].

[مناظرة إبراهيم مع خصمه]:

قال الله تعالى : ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَاجَ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِيعِهِ أَنَّهُ أَنَّهُ اللَّهُ الْمَلَكُ إِذَا قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ الْوَى يُعِيْ، وَيُمِيَّتُ قَالَ أَنَا أُخِي، وَأَمِيَّتُ قَالَ إِبْرَاهِيمُ فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأَتَ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ فَبَهِتَ الَّذِي كَفَرَ وَاللَّهُ لَا يَهِيدُ الْقَوْمَ أَطَّلَدِيْنِ ﴾ .

ذكر تعالى مناظرة خليله مع هذا الملك الجبار المتمرد الذي ادعى لنفسه الربوبية ، فأبطل الخليل عليه دليله ، وبين كثرة جهله وقلة عقله ، وألجمه الحجة ، وأوضح له طريق المحجة .

قال المفسرون وغيرهم من علماء النسب والأخبار : وهذا الملك هو ملك بابل ، واسمه التمرود . ملك الدنيا فيما ذكروا أربعة : مؤمنان وكافران ، فالمؤمنان : ذو القرنين ، وسليمان . والكافران : التمرود ، وبختنصر .

ولما دعا إبراهيم الخليل إلى عبادة الله وحده لا شريك له ، حمله الجهل والضلال وطول الآمال على إنكار الصانع ، فجاج إبراهيم الخليل في ذلك ، وادعى لنفسه الربوبية ، فلما قال الخليل : ﴿ رَبِّ الَّذِي يُعِيْ، وَيُمِيَّتُ قَالَ أَنَا أُخِي، وَأَمِيَّتُ ﴾ . قال قنادة والسدي ومحمد بن إسحاق : يعني أنه إذا أُتي بالргجين قد تحدث قتلهم ، فإذا أمر بقتل أحدهما وعفا عن الآخر فكأنه قد أحياناً هذا وأحياناً الآخر .

وهذا ليس بمعارضة للخليل ، بل هو كلام خارج عن مقام المناظرة ، ليس بمنع ولا بمعارضة ، بل هو تشغيب محضر ، وهو انقطاع في الحقيقة ، فإن الخليل استدل على وجود الصانع بحدوث هذه المشاهدات من إحياء الحيوانات وموتها ، على وجود فاعل ذلك الذي لا بد من استنادها إلى وجوده : ضرورة عدم قيامها بنفسها ، ولا بد من فاعل لهذه الحوادث المشاهدة ، من خلقها وتسييرها ، وتسيير هذه الكواكب والرياح والسحب والمطر ، وخلق هذه الحيوانات التي توجد مشاهدة ، ثم إماتتها . ولهذا قال إبراهيم : ﴿ رَبِّ الَّذِي يُعِيْ، وَيُمِيَّتُ ﴾ فقول هذا الملك الجاهل : ﴿ أَنَا أُخِي، وَأَمِيَّتُ ﴾ إن عنى أنه الفاعل لهذه المشاهدات فقد كابر وعاند ، وإن عنى ما ذكره قنادة والسدي ومحمد بن إسحاق ، فلم يقل شيئاً يتعلق بكلام الخليل ، إذ لم يمنع مقدمة ، ولا عارض الدليل .

لما كان انقطاع مناظرة هذا الملك قد تخفي على كثير من الناس من حضره وغيرهم ، ذكر دليلاً آخر بين وجود الصانع ، وبطيلان ما ادعاه التمرود وانقطاعه جهراً : ﴿ قَالَ إِبْرَاهِيمُ فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأَتَ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ ﴾ أي هذه الشمس مسخرة كل يوم ، تطلع من المشرق كما سخرها خالقها ومسيرها وقاهرها ، وهو الذي لا إله إلا هو خالق كل شيء ، فإن كنت كما زعمت من أنك الذي تحبب وتميت فائت بهذه الشمس من المغرب ، فإن الذي

يحيى ويميت والذي يفعل ما يشاء ولا يمانع ولا يغالب ، بل قد قهر كل شيء ودان له كل شيء ، فإن كنت كما تزعم فافعل هذا ، فإن لم تفعله فلست كما زعمت ، وأنت تعلم وكل أحد يعلم أنك لا تقدر على شيء من هذا ، بل أنت أعجز وأقل من أن تخلق بعوضة أو تتصرف منها .

فيَّن ضلاله وجهله وكذبه فيما ادعاه ، وبطidan ما سلكه وتبجح به عند جهلة قومه ، ولم يبن له كلام يجيب الخليل به ، بل انقطع وسكت ولهذا قال : ﴿فَهُمْ الَّذِي كَفَرُوا لَهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ .

[هجرة الخليل عليه السلام] :

قال الله : ﴿فَامْلأْ لَهُ لَوْطًا وَقَالَ إِنِّي مُهَاجِرٌ إِلَى رَبِّيِّي إِنَّهُ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ وَوَهَبَنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَجَعَلْنَا فِي دُرْرِيهِ الشُّوَّهَةَ وَالْكَنْتَ وَإِلَيْنَاهُ أَحْرَمَ فِي الدُّنْيَا وَإِلَيْهِ فِي الْآخِرَةِ لَيْنَ الصَّابِرِينَ﴾ ، وقال تعالى : ﴿وَخَيْرِنَاهُ وَلَوْطًا إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي بَرَّكَنَا فِيهَا لِلْعَالَمِينَ وَوَهَبَنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ نَافِلَةً وَكَلَّا جَعَلْنَا صَابِرِينَ وَجَعَلْنَاهُمْ أَيْمَنَةً يَهَدُونَ يَأْمُنُوا وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِمْ فَعَلَ الْحَمَدَاتِ وَلِقَاءَ الْحَسْلَوَةِ وَإِيَّاهَا الرَّكَوَةُ وَكَانُوا لَنَا عَنِيدِينَ﴾ [الأنياء : ٧١ - ٧٣] .

لما هجر قومه في الله ، وهاجر من بين أظهرهم ، وكانت أمرأته عاقراً لا يولد لها ، ولم يكن له من الولد أحد ، وله الله تعالى بعد ذلك الأولاد الصالحين ، وجعل في ذريته النبوة والكتاب ، فكلنبي بعث بعده فهو من ذريته ، وكل كتاب نزل من السماء علىنبي من الأنبياء من بعده ، فعلى أحد نسله وعقبه ، خلعة من الله وكرامة له ، حيث ترك بلاده وأهله وأقربائه ، وهاجر إلى بلد يتمكن فيها من عبادة ربه عز وجل ودعوة الخلائق إليه .

الأرض التي قصدها بالهجرة أرض الشام ، وهي التي قال الله عز وجل : ﴿إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي بَرَّكَنَا فِيهَا لِلْعَالَمِينَ﴾ . قاله أبي بن كعب وأبو العالية وفتادة وغيرهم . وروى العوفي عن ابن عباس قوله : ﴿إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي بَرَّكَنَا فِيهَا لِلْعَالَمِينَ﴾ مكة ، ألم تسمع إلى قوله : ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ فُضِّلَ لِلَّئَسِ لِلَّهِ يُبَارِكُهُ وَهُدَى لِلْعَالَمِينَ﴾ .

ثم المشهور أن إبراهيم عليه السلام لما هاجر من بابل خرج بسارة مهاجراً من بلاده كما تقدم والله أعلم .

وقال البخاري (ح ٣١٥٨) حدثنا محمد بن محبوب ، حدثنا حماد بن زيد ، عن أيوب ، عن محمد ، عن أبي هريرة قال : (لم يكذب إبراهيم إلا ثلاثة كذبات : انتقام منهم في ذات الله ، قوله : ﴿إِنِّي سَقِيمٌ﴾ ، وقوله : ﴿بَلْ فَعَلَمَ كَيْرُهُمْ هَذَا﴾) وقال : بينما هو ذات يوم وسارة ، إذ أتى على جبار من الجبارية ، فقيل له : إن هاهنا رجلاً معه امرأة من أحسن الناس ، فأرسل إليه وسألها عنها ، فقال : من هذه؟ قال : اختي ، فأتى سارة فقال : يا سارة .. ليس على وجه الأرض مؤمن غيري وغيرك ، وإن هذا سألني فأخبرته أنك اختي فلا تكذبني . فأرسل إليها ، فلما دخلت عليه ذهب يتناولها بيده فأخذ ، فقال : ادعني الله لي ولا أضرك ،

فدعـت الله فأطلـق ، ثم تـناولـها الثـانية فـأخذـ مـثلـها أو أـشدـ ، فـقالـ: اـدعـي اللهـ ليـ ولاـ أـضـركـ ، فـدـعـتـ فأـطلـقـ . فـدـعاـ بـعـضـ حـجـبـتـهـ فـقـالـ: إـنـكـ لـمـ تـأـتـونـيـ بـإـنـسـانـ وـإـنـماـ أـتـيـتـمـونـيـ بـشـيـطـانـ فـأـخـدـمـهـاـ هـاجـرـ . فـأـتـهـ وـهـوـ قـائـمـ يـصـلـيـ فـأـوـمـاـ بـيـدـهـ مـهـيمـ ، فـقـالـتـ: رـدـ اللهـ كـيدـ الـكـافـرـ - أوـ الـفـاجـرـ - فـيـ نـحـرـهـ ، وـأـخـدـمـ هـاجـرـ . قـالـ أـبـوـ هـرـيـرـةـ: فـنـكـ أـمـكـمـ يـاـ بـنـيـ مـاءـ السـمـاءـ» . تـفـرـدـ بـهـ مـنـ هـذـاـ الـوـجـهـ مـوـقـوفـاـ . وـقـدـ روـاهـ الـحـافـظـ أـبـوـ بـكـرـ الـبـزـارـ ، عنـ عـمـرـوـ بـنـ عـلـيـ الـفـلاـسـ ، عنـ عـبـدـ الـوـهـابـ التـقـيـ ، عنـ هـشـامـ بـنـ حـسـانـ ، عنـ مـحـمـدـ بـنـ سـيـرـينـ ، عنـ أـبـيـ هـرـيـرـةـ ، عنـ النـبـيـ ﷺـ قـالـ: إـنـ إـبـرـاهـيمـ لـمـ يـكـذـبـ قـطـ إـلـاـ ثـلـاثـ كـذـبـاتـ ، كـلـ ذـلـكـ فـيـ ذـاتـ اللهـ ، قـولـهـ: «إـنـيـ سـقـيمـ» ، وـقـولـهـ: «بـلـ فـعـلـهـ كـيـرـهـمـ هـذـاـ» وـبـيـنـمـاـ هوـ يـسـيرـ فـيـ أـرـضـ جـبارـ مـنـ الـجـابـرـةـ إـذـ نـزـلـ مـنـزـلـاـ ، فـأـتـيـ جـبـارـ فـقـيلـ لـهـ: إـنـهـ قـدـ نـزـلـ هـاـنـاـ رـجـلـ مـعـهـ اـمـرـأـ مـنـ أـحـسـنـ النـاسـ ، فـأـرـسـلـ إـلـيـهـ فـسـأـلـهـ عـنـهـ فـقـالـ: إـنـاـ أـخـتـيـ ، فـلـمـ رـجـعـ إـلـيـهـ قـالـ: إـنـ هـذـاـ سـأـلـنـيـ عـنـكـ فـقـلـتـ: إـنـكـ أـخـتـيـ . وـإـنـهـ لـيـسـ الـيـوـمـ سـلـمـ غـيـرـيـ وـغـيـرـكـ ، وـإـنـكـ أـخـتـيـ ، فـلـاـ تـكـذـبـنـيـ عـنـهـ . فـانـطـلـقـ بـهـ ، فـلـمـ ذـهـبـ يـتـناـولـهـاـ أـخـذـ ، فـقـالـ: اـدعـيـ اللهـ لـيـ وـلـاـ أـضـركـ ، فـدـعـتـ لـهـ فـأـرـسـلـ ، فـذـهـبـ يـتـناـولـهـاـ فـأـخـذـ مـثـلـهاـ أوـ أـشـدـ مـنـهـ ، فـقـالـ: اـدعـيـ اللهـ لـيـ وـلـاـ أـضـركـ ، فـدـعـتـ فـأـرـسـلـ ، ثـلـاثـ مـرـاتـ ، فـدـعـاـ أـدـنـىـ حـشـمـهـ ، فـقـالـ: إـنـكـ لـمـ تـأـتـنـيـ بـإـنـسـانـ ، وـلـكـنـ أـتـيـتـنـيـ بـشـيـطـانـ ، أـخـرـجـهـاـ وـأـعـطـهـاـ هـاجـرـ . فـجـاءـتـ إـبـرـاهـيمـ قـائـمـ يـصـلـيـ . فـلـمـ أـحـسـ بـهـ اـنـصـرـ ، فـقـالـ: مـهـيمـ؟ فـقـالـتـ: كـفـىـ اللهـ كـيدـ الـظـالـمـ وـأـخـدـمـنـيـ هـاجـرـ» . وـأـخـرـجـاهـ مـنـ حـدـيـثـ هـشـامـ . ثـمـ قـالـ الـبـزـارـ: لـاـ يـعـلـمـ إـسـنـادـهـ عـنـ أـبـيـ هـرـيـرـةـ إـلـاـ هـشـامـ ، وـرـوـاهـ غـيـرـهـ مـوـقـوفـاـ . وـقـالـ الـإـمـامـ أـحـمـدـ: حـدـثـنـاـ عـلـيـ بـنـ حـفـصـ ، عـنـ وـرـقـاءـ - وـهـوـ أـبـوـ عـمـرـ الـيـشـكـرـيـ - عـنـ أـبـيـ الزـنـادـ ، عـنـ الـأـعـرجـ ، عـنـ أـبـيـ هـرـيـرـةـ قـالـ: قـالـ رـسـوـلـ اللهـ ﷺـ: لـمـ يـكـذـبـ إـبـرـاهـيمـ إـلـاـ ثـلـاثـ كـذـبـاتـ؛ قـولـهـ حـيـنـ دـعـيـ إـلـىـ الـهـتـمـ فـقـالـ: «إـنـيـ سـقـيمـ» ، وـقـولـهـ: «بـلـ فـعـلـهـ كـيـرـهـمـ هـذـاـ» ، وـقـولـهـ لـسـارـةـ: إـنـاـ أـخـتـيـ» .

قـالـ: وـدـخـلـ إـبـرـاهـيمـ قـرـيـةـ فـيـهـ مـلـكـ مـنـ الـمـلـوـكـ أوـ جـبـارـ مـنـ الـجـابـرـةـ . فـقـيلـ: دـخـلـ إـبـرـاهـيمـ الـلـيـلـةـ بـأـمـرـةـ مـنـ أـحـسـنـ النـاسـ ، قـالـ: فـأـرـسـلـ إـلـيـهـ الـمـلـكـ أوـ الـجـبـارـ: مـنـ هـذـهـ مـعـكـ؟ قـالـ: أـخـتـيـ ، قـالـ: فـأـرـسـلـ بـهـ إـلـيـهـ ، وـقـالـ: لـاـ تـكـذـبـ قـولـيـ ، فـإـنـيـ قـدـ أـخـبـرـتـ إـنـكـ أـخـتـيـ إـنـهـ مـاـ عـلـىـ الـأـرـضـ مـؤـمـنـ غـيـرـيـ وـغـيـرـكـ .

فـلـمـ دـخـلـتـ عـلـيـهـ قـامـ إـلـيـهاـ ، فـأـقـبـلـتـ تـنـوـضاـ وـتـصـلـيـ وـتـقـولـ: اللـهـمـ إـنـ كـنـتـ تـعـلـمـ أـنـيـ آمـنـتـ بـكـ وـبـرـسـوـلـكـ وـأـحـصـنـتـ فـرـجـيـ إـلـاـ عـلـىـ زـوـجـيـ ، فـلـاـ تـسـلـطـ عـلـىـ الـكـافـرـ . قـالـ: فـغـطـ حـتـىـ رـكـضـ بـرـجـلـهـ . قـالـ أـبـوـ الزـنـادـ: قـالـ أـبـوـ سـلـمـةـ بـنـ عـبـدـ الرـحـمـنـ ، عـنـ أـبـيـ هـرـيـرـةـ أـنـهـ قـالـتـ: اللـهـمـ إـنـ يـمـتـ يـقـالـ هـيـ قـتـلـتـهـ ، قـالـ: فـأـرـسـلـ .

قـالـ: ثـمـ قـامـ إـلـيـهاـ ، قـالـ: فـقـامـتـ تـنـوـضاـ وـتـصـلـيـ ، وـتـقـولـ: اللـهـمـ إـنـ كـنـتـ تـعـلـمـ أـنـيـ آمـنـتـ بـكـ وـبـرـسـوـلـكـ وـأـحـصـنـتـ فـرـجـيـ إـلـاـ عـلـىـ زـوـجـيـ . فـلـاـ تـسـلـطـ عـلـىـ الـكـافـرـ . قـالـ: فـغـطـ حـتـىـ رـكـضـ =

برجله . قال أبو الزناد : وقال أبو سلمة ، عن أبي هريرة أنها قالت : اللهم إن يمت يقل هي قتلته ، قال : فأرسل . قال : فقال في الثالثة أو الرابعة : ما أرسلتكم إلي إلا شيطاناً ، أرجعواها إلى إبراهيم وأعطوها هاجر . قال : فرجعت ، فقالت لإبراهيم : أشعرت أن الله رد كيد الكافرين وأخدم وليدة؟ تفرد به أحمد من هذا الوجه ، وهو على شرط الصحيح [مسند أحمد] ح ٩٢٥٢ .

وقد رواه البخاري عن أبي اليمان ، عن شعيب بن أبي حمزة ، عن أبي الزناد ، عن أبي هريرة ، عن النبي ﷺ به مختصراً .

وقال ابن أبي حاتم : حدثنا أبي ، حدثنا سفيان ، عن علي بن زيد بن جدعان ، عن أبي نصرة ، عن أبي سعيد قال : قال رسول الله ﷺ في كلمات إبراهيم الثالث التي قالها : «ما منها كلمة إلا مأحل بها عن دين الله ، فقال : ﴿إِنَّ سَقِيمَ﴾ ، وقال : ﴿بَلْ فَعَلْكُمْ كَيْرُومْ هَذَا﴾ ، وقال للملك حين أراد امرأته : هي اختي» .

فقوله في الحديث : هي اختي أي في دين الله ، قوله لها : إنه ليس على وجه الأرض مؤمن غيري وغيرك » ، يعني زوجين مؤمنين غيري وغيرك ، ويعني حمله على هذا لأن لوطاً كان معهم وهونبي عليه السلام . قوله لها لما رجعت إليه : مهيم؟ معناه ما الخبر؟ فقالت : إن الله رد كيد الكافرين ، وفي رواية : الفاجر وهو الملك ، وأخدم جارية .

وكان إبراهيم عليه السلام من وقت ذهب بها إلى الملك ، قام يصلي الله عز وجل ، ويسأله أن يدفع عن أهله ، وأن يرد بأس هذا الذي أراد أهله بسوء . وهكذا فعلت هي أيضاً . فلما أراد العدو أن ينال منها أمراً قامت إلى وضوئها وصلاتها ، ودعت الله عز وجل بما تقدم من الدعاء العظيم . ولهذا قال تعالى : ﴿وَأَسْعَيْنَا بِالصَّبَرِ وَالصَّلَاةِ﴾ فعصمتها الله وصانها لعصمة عبده ورسوله وحبيبه وخليله إبراهيم عليه السلام .

وقد ذهب بعض العلماء إلى نبوة ثلاثة نسوة : سارة ، وأم موسى ، ومريم عليهن السلام . والذي عليه الجمهور أنهن صديقات رضي الله عنهن وأرضاهن .

ثم إن الخليل عليه السلام رجع من بلاد مصر إلى أرض التيم وهي الأرض المقدسة التي كان فيها . وصحبتهما هاجر القبطية المصرية .

[هجرة إبراهيم بابه إسماعيل وأمه] :

قال البخاري : قال عبد الله بن محمد - هو أبو بكر بن أبي شيبة - حدثنا عبد الرزاق ، حدثنا معاذ ، عن أيوب السختياني وكثير بن كثير بن المطلب بن أبي وداعة ، يزيد أحدهما على الآخر ، عن سعيد بن جبير ، عن ابن عباس قال : أول ما اتخذ النساء المنطق من قبل أم إسماعيل ، اتخذت منطقةً لتعفي أثرها على سارة ، ثم جاء بها إبراهيم وبابتها إسماعيل وهي ترضعه ، حتى وضعهما عند البيت عند دوحة فوق زمزم في أعلى المسجد ، وليس بمسكة يومئذ أحد وليس بها ماء . فوضعهما هنالك ووضع عندهما جراباً فيه تمر ، وسقاء فيه ماء .

ثم قفى إبراهيم منطلقاً فتبعته أم إسماعيل ، فقالت: يا إبراهيم .. أين تذهب وتركتنا بهذا الوادي الذي ليس به أنيس ولا شيء؟ فقالت له ذلك مراراً وجعل لا يلتفت إليها ، فقالت له: الله أمرك بهذا؟ قال: نعم ، قالت: إذاً لا يضيعنا . ثم رجعت . فانطلق إبراهيم حتى إذا كان عند ثنية حيث لا يرونوه استقبل بوجهه البيت ، ثم دعا بهؤلاء الدعوات ورفع يديه فقال: ﴿رَبَّنَا إِنَّمَا أَسْكَنَنَا مِنْ ذُرَيْقَةِ بَوَادٍ عَيْرَ دِرْ رَبِيعَ عِنْدَ بَيْنِكَ الْمُحَرَّمَ رَبِّنَا لِتُقْبِلُوا أَصْلَوَةً فَاجْعَلْ أَفْدَةً مِنَ النَّاسِ تَهُوَى إِلَيْهِمْ وَأَرْزُقْهُمْ مِنَ الشَّمَرَتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ﴾ .

وجعلت أم إسماعيل ترضع إسماعيل وتشرب من ذلك الماء ، حتى إذا نفذ ما في السقاء عطشت وعطش ابنها ، وجعلت تنظر إليه يتلوى - أو قال يتطلب - فانطلقت كراهية أن تنظر إليه ، فوجدت الصفا أقرب جبل في الأرض يليها ، فقمت عليه ثم استقبلت الوادي تنظر هل ترى أحداً ، فلم تر أحداً . فهبطت من الصفا حتى إذا بلغت بطن الوادي رفعت طرف درعها ، ثم سمعت سعي الإنسان المجهود ، حتى جاوزت الوادي ثم أتت المروءة فقامت عليها ، ونظرت هل ترى أحداً ، فلم تر أحداً ، فعلت ذلك سبع مرات . قال ابن عباس: قال النبي ﷺ : «ذلك سعي الناس بينهما» .

فلما أشرفت على المروءة سمعت صوتاً فقالت: صه ، تريد نفسها . ثم تسمعت فسمعت أيضاً ، فقالت: قد أسمعت إن كان عندك غواث ، فإذا هي بالملك عند موضع زمز ، فبحث بعقبه - أو قال بجناحه - حتى ظهر الماء ، فجعلت تحوضه وتقول يدها هكذا . وجعلت تعرف من الماء في سقائها وهو يفور بعدما تغرف . قال ابن عباس: قال النبي ﷺ : «يرحم الله أم إسماعيل ! لو تركت زمز - أو قال: لو لم تعرف من الماء - لكان زمز علينا معيناً» ، قال: فشربت وأرضعت ولدتها ، فقال لها الملك: لا تخافي الضيعة فإن هاتنا يبي الله يبنيه هذا الغلام وأبوبه ، وإن الله لا يضيع أهله .

وكان البيت مرتقاً من الأرض كالرابة ، تأتيه السيل فتأخذ عن يمينه وعن شماله ، فكانت كذلك حتى مرت بهم رفقة من جرهم ، أو أهل بيته من جرهم ، مقبلين من طريق كداء ، فنزلوا في أسفل مكة فرأوا طائراً عائفاً ، فقالوا: إن هذا الطائر ليدور على ماء ، لعهدنا بهذا الوادي وما فيه ماء . فأرسلوا جرياً أو جريين فإذا هم بالماء ، فرجعوا فأخبرهم بالماء فأقبلوا .

قال: وأم إسماعيل عند الماء ، فقالوا: أتأذنين لنا أن ننزل عندك؟ قالت: نعم ، ولكن لا حق لكم في الماء عندنا . قالوا: نعم . قال عبد الله بن عباس: قال النبي ﷺ : «فالنبي ذلك أم إسماعيل وهي تحب الأنس» ، فنزلوا وأرسلوا إلى أهلهم فنزلوا معهم حتى إذا كان بها أهل أبيات منهم . وشب الغلام وتعلم العربية منهم ، وأنفسهم وأعجبهم حين شب . فلما أدرك زوجوه امرأة منهم .

= وماتت أم إسماعيل ، فجاء إبراهيم بعدما تزوج إسماعيل يطالع تركته فلم يجد إسماعيل ،

فَسَأَلَ امْرَأَهُ عَنْهُ فَقَالَتْ : خَرَجَ يَبْتَغِي لَنَا ، ثُمَّ سَأَلَهَا عَنْ عِيشَهُمْ وَهِيَتَهُمْ ، فَقَالَتْ : نَحْنُ بِشَرٍّ ، نَحْنُ فِي ضَيْقٍ وَشَدَّةٍ ، وَشَكَّتْ إِلَيْهِ ، قَالَ : إِذَا جَاءَ زَوْجَكَ فَاقْرَئِي عَلَيْهِ السَّلَامَ وَقُولِي لَهُ : يَغِيَّرُ عَتْبَةَ بَابِهِ .

فَلَمَّا جَاءَ إِسْمَاعِيلَ كَأْنَهُ آنَسٌ شَيْءًا ، قَالَ : هَلْ جَاءَكُمْ مِنْ أَحَدٍ؟ فَقَالَتْ : نَعَمْ جَاءَنَا شِيخٌ كَذَا وَكَذَا فَسَأَلَنَا عَنْكَ فَأَخْبَرْتَهُ ، وَسَأَلَنِي كَيْفَ عِيشَنَا؟ فَأَخْبَرْتَهُ أَنَا فِي جَهَدٍ وَشَدَّةٍ ، قَالَ : هَلْ أَوْصَاكَ بِشَيْءٍ؟ قَالَتْ : نَعَمْ ، أَمْرَنِي أَنْ أَقْرَأَ عَلَيْكَ السَّلَامَ ، وَيَقُولُ لَكَ غَيْرُ عَتْبَةَ بَابِكَ . قَالَ : ذَاكَ أَبِي ، وَقَدْ أَمْرَنِي أَنْ أَفَارِقَكَ فَالْحَقِيقِي بِأَهْلِكَ ، وَطَلَقَهَا وَتَرَوَّجَ مِنْهُمْ أُخْرَى ، وَلَبِثَ عَنْهُمْ إِبْرَاهِيمَ مَا شَاءَ اللَّهُ ، ثُمَّ أَتَاهُمْ بَعْدَ فَلَمْ يَجِدْهُ فَدَخَلَ عَلَى امْرَأَهُ فَسَأَلَهَا عَنْهُ ، فَقَالَتْ : خَرَجَ يَبْتَغِي لَنَا ، قَالَ : كَيْفَ أَنْتُمْ؟ وَسَأَلَهَا عَنْ عِيشَهُمْ وَهِيَتَهُمْ ، فَقَالَتْ : نَحْنُ بَخِيرٌ وَسَعْةٌ ، وَأَنْتُ عَلَى اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ ، فَقَالَ : وَمَا طَعَامَكُمْ؟ قَالَتْ : اللَّحمُ ، قَالَ : فَمَا شَرَابَكُمْ؟ قَالَتْ : الْمَاءَ . قَالَ : «اللَّهُمَّ باركْ لَهُمْ فِي الْلَّحمِ وَالْمَاءِ» .

قَالَ النَّبِيُّ ﷺ : «وَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ يَوْمَذْ حَبٌّ ، وَلَوْ كَانَ لَهُمْ حَبٌ لَدُعَا لَهُمْ فِيهِ» ، قَالَ : فَهُمَا لَا يَخْلُو عَلَيْهِمَا أَحَدٌ بِغَيْرِ مَكَّةِ إِلَّا لَمْ يَوْفَقَاهُ . قَالَ : إِذَا جَاءَ زَوْجَكَ فَاقْرَئِي عَلَيْهِ السَّلَامَ ، وَمَرِيهِ يَثْبِتْ عَتْبَةَ بَابِهِ ، فَلَمَّا جَاءَ إِسْمَاعِيلَ قَالَ : هَلْ أَتَاكُمْ مِنْ أَحَدٍ؟ قَالَتْ : نَعَمْ ، أَتَانَا شِيخٌ حَسَنُ الْهَيَّةَ ، وَأَنْتَ عَلَيْهِ ، فَسَأَلَنِي عَنْكَ فَأَخْبَرْتَهُ ، وَسَأَلَنِي كَيْفَ عِيشَنَا؟ فَأَخْبَرْتَهُ أَنَا بَخِيرٌ ، قَالَ : أَفَأَوْصَاكَ بِشَيْءٍ؟ قَالَتْ : نَعَمْ هُوَ يَقْرَأُ عَلَيْكَ السَّلَامَ وَيَأْمُرُكَ أَنْ تَثْبِتْ عَتْبَةَ بَابِكَ ، قَالَ : ذَاكَ أَبِي وَأَنْتَ الْعَتْبَةَ ، أَمْرَنِي أَنْ أَمْسِكَكَ .

ثُمَّ لَبِثَ عَنْهُمْ مَا شَاءَ اللَّهُ ، ثُمَّ جَاءَ بَعْدَ ذَلِكَ إِسْمَاعِيلُ يَبْرِي نَبْلًا لَهُ تَحْتَ دُوْحَةً قَرِيبًا مِنْ زَمْزَمْ ، فَلَمَّا رَأَهُ قَامَ إِلَيْهِ فَصَنَعَ كَمَا يَصْنَعُ الْوَالَدُ بِالْوَالَدِ وَالْوَالَدُ بِالْوَالَدِ ثُمَّ قَالَ : يَا إِسْمَاعِيلُ . إِنَّ اللَّهَ أَمْرَنِي بِأَمْرٍ ، قَالَ : فَاصْنِعْ مَا أَمْرَكَ بِهِ رَبِّكَ ، قَالَ : وَتَعْيَنِتِي؟ قَالَ : وَأَعْيَنْتِكَ . قَالَ فَإِنَّ اللَّهَ أَمْرَنِي أَنْ أَبْنِي هَاهُنَا بَيْتًا ، وَأَشَارَ إِلَى أَكْمَةٍ مَرْتَفَعَةٍ عَلَى مَا حَوْلَهَا . قَالَ : فَعِنْدَ ذَلِكَ رَفَعَ الْقَوْاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ ، وَجَعَلَ إِسْمَاعِيلَ يَأْتِي بِالْحَجَرَةِ وَإِبْرَاهِيمَ يَبْنِي ، حَتَّى إِذَا ارْتَفَعَ الْبَنَاءُ جَاءَ بِهَا الْحَجَرُ وَوَضَعَهُ لَهُ ، فَقَامَ عَلَيْهِ وَهُوَ يَبْنِي إِسْمَاعِيلُ يَنَاوِلُهُ الْحَجَرَةَ وَهُمَا يَقُولُانِ : «رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ أَكْمَةُ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ» [البقرة: ١٢٧].

قَالَ : فَجَعَلَا بَيْنِيَانَ حَتَّى يَدُورَا حَوْلَ الْبَيْتِ وَهُمَا يَقُولُانِ : «رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ أَكْمَةُ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ» . ثُمَّ قَالَ : حَدَثَنَا عَبْدُ اللَّهِ بْنُ مُحَمَّدٍ ، حَدَثَنَا أَبُو عَامِرٍ عَبْدُ الْمُلْكِ بْنُ عُمَرٍ ، حَدَثَنَا إِبْرَاهِيمَ بْنَ نَافِعٍ ، عَنْ كَثِيرٍ بْنِ كَثِيرٍ ، عَنْ سَعِيدٍ بْنِ جَبَيرٍ ، عَنْ أَبْنِ عَبَّاسٍ قَالَ : لَمَّا كَانَ بَيْنَ إِبْرَاهِيمَ وَبَيْنَ أَهْلِهِ مَا كَانَ ، خَرَجَ يَأْسِمَاعِيلُ وَأَمْ إِسْمَاعِيلَ ، وَمَعَهُمْ شَتَّةٌ فِيهَا مَاءٌ ، وَذَكَرَ تَمَامَهُ بِنَحْوِ مَا تَقْدِمُ .

وَهَذَا الْحَدِيثُ مِنْ كَلَامِ أَبْنِ عَبَّاسٍ وَمُوضِحٌ بِرْفَعٍ بَعْضِهِ . وَفِي بَعْضِهِ غَرَابَةٌ . وَكَأْنَهُ مَا نَفَاهُ أَبْنِ عَبَّاسٍ عَنِ الإِسْرَائِيلِيَّاتِ ، وَفِيهِ أَنْ إِسْمَاعِيلَ كَانَ رَضِيَعًا إِذْ ذَاكَ * .

* قلنا: الحديث أخرجه البخاري (ح ٣٣٦٤) و(ح ٣٣٦٥) عن ابن عباس رضي الله عنهمما وقال الحافظ في الفتح (٧/٥٠) وأما ابن عباس فإن كان لم يسمعه من النبي فهو من مرسل الصحابة ولم يعتمد البخاري على هذا الإسناد الخالص كما ترى.

وقال في موضع آخر: وهذا القدر صرخ ابن عباس برفقه عن النبي ﷺ وفيه إشعار بأن جميع الحديث مرفوع (فتح الباري ٧/٥٤).

و عند أهل التوراة أن الله أمر إبراهيم بأن يختن ولده إسماعيل وكل من عنده من العبيد وغيرهم فختنهم ، وذلك بعد مضي تسع وتسعين سنة من عمره ، فيكون عمر إسماعيل يومئذ ثلاثة عشرة سنة ، وهذا امتناع لأمر الله عز وجل في أهله ، فيدل على أنه فعله على وجه الوجوب . ولهذا كان الصحيح من أقوال العلماء أنه واجب على الرجال ، كما هو مقرر في موضعه .

وقد ثبت في الحديث الذي رواه البخاري: حدثنا قتيبة بن سعيد ، حدثنا مغيرة بن عبد الرحمن القرشي ، عن أبي الزناد ، عن الأعرج ، عن أبي هريرة قال: قال النبي ﷺ: «اختن إبراهيم النبي عليه السلام وهو ابن ثمانين سنة بالقدوم». تابعه عبد الرحمن بن إسحاق عن أبي الزناد ، وتابعه عجلان ، عن أبي هريرة ، ورواه محمد بن عمرو ، عن أبي سلمة ، عن أبي هريرة وهكذا رواه مسلم عن قتيبة . وفي بعض الألفاظ: «اختن إبراهيم بعدما أتت عليه ثمانون سنة واختن بالقدوم» ، والقدوم هو الآلة ، وقيل: موضع .

وهذا اللفظ لا ينافي الزيادة على الثمانين .. والله أعلم ، لما سألي من الحديث عند ذكر وفاته ، عن أبي هريرة عن رسول الله ﷺ أنه قال: «اختن إبراهيم وهو ابن مئة وعشرين سنة ، وعاش بعد ذلك ثمانين سنة». رواه ابن حبان في صحيحه .

وليس في هذا السياق ذكر قصة الذبيح وأنه إسماعيل ، ولم يذكر في قدمات إبراهيم عليه السلام إلا ثلاث مرات: أولاًهن بعد أن تزوج إسماعيل بعد موت هاجر ، وكيف تركهم من حين صغر الولد - على ما ذكر - إلى حين تزويجه لا ينظر في حالهم ، وقد ذكر أن الأرض كانت تطوى لهم ، وقيل: إنه كان يركب البراق إذا سار إليهم ، فكيف يختلف عن مطالعة حالهم وهو في غاية الضرورة الشديدة وال الحاجة الأكيدة؟! وكان بعض هذا السياق متلقى من الإسرائييليات ومطرز بشيء من المرفوعات ، ولم يذكر فيه قصة الذبيح ، وقد دللتا على أن الذبيح هو إسماعيل على الصحيح في سورة الصافات .

[قصة الذبيح]:

قال الله تعالى : ﴿ وَقَالَ إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَى رَبِّي سَيِّدِنِي ﴾ ﴿ رَبِّ هَبْ لِي مِنَ الصَّالِحِينَ ﴾ ﴿ فَبَشَّرَنَاهُ بِعُلُمٍ حَلِيمٍ ﴾ فَمَا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيَ قَالَ يَبْتَئِلَنِي إِنِّي أَرَى فِي الْمَنَارِ أَنِّي أَذْحَكُ فَانظُرْ مَاذَا تَرَوْنَ ﴾ قَالَ يَتَأْبَتْ أَفْعَلُ مَا تُؤْمِنُ بِهِ ﴾ سَيَحْدِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ مِنَ الظَّمِيرِينَ ﴾ فَلَمَّا أَسْلَمَ وَلَمَّا لَّمَجَنِ ﴾ وَدَدَنِتْهُ أَنْ يَتَأْبِي هِيمَهُ ﴾ قَدْ صَدَقَ الرُّؤْيَا إِنَّا كَذَلِكَ بَجْرِي الْمُحْسِنِينَ ﴾ إِنَّ هَذَا الْمَوْلَى الْبَلَّوَ الْمَمِنَ ﴾ وَدَدَنِتْهُ يَدْبِعَ عَظِيمٍ ﴾ وَرَنَّكَ عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ ﴾ سَلَّمَ عَلَى إِبْرَاهِيمَ ﴾ كَذَلِكَ بَجْرِي الْمُحْسِنِينَ ﴾ إِنَّهُ مِنْ عَكَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ ﴾ وَبَيَّنَهُ يَاسْحَقُ بْنَيَّنَا مِنْ

أَصْنَلِحِينَ ﴿١﴾ وَبَرَّكَ عَلَيْهِ وَعَلَىٰ إِنْسَاحِقَ وَمِنْ دُرْبِتِهِمَا تَحْسِنُ وَطَالِمٌ لِفَسِيهِ مِيرٌ﴾ [الصفات: ٩٩ - ١١٣]

يدرك تعالى عن خليله إبراهيم أنه لما هاجر من بلاد قومه ، سأله ربه أن يهب له ولداً صالحًا ، فبشره الله بغلام حليم ، وهو إسماعيل عليه السلام ، وهذا ما لا خلاف فيه بين أهل الملل ، لأنَّه أول ولده وبكره.

وقوله: «**فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيَ**» أي شب وصار يسعى في مصالحه كأبيه . قال مجاهد: «**فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيَ**» أي شب وارتحل وأطاق ما يفعله أبوه من السعي والعمل . فلما كان هذا ،رأى إبراهيم عليه السلام في المنام أنه يؤمر بذبح ولده هذا ، وفي الحديث عن ابن عباس مرفوعاً: «رؤيا الأنبياء وحي» .

وهذا اختيار من الله عز وجل لخليله في أن يذبح هذا الولد العزيز الذي جاءه على كبر ، وقد طعن في السن ، بعدها أمر بأن يسكنه هو وأمه في بلاد قفر ، وواد ليس به حسيس ولا أنيس ، ولا زرع ولا ضرع . فامتثل أمر الله في ذلك ، وتركهما هناك ثقة بالله وتوكلًا عليه ، فجعل الله لهما فرجاً ومخرجاً ، ورزقهما من حيث لا يحتسبان .

ثم لما أمر بعد هذا كله بذبح ولده هذا الذي قد أفرده عن أمر ربه ، وهو بكره ووحيده الذي ليس له غيره ، أجاب ربه وامتثل أمره ، وسارع إلى طاعته . ثم عرض ذلك على ولده ليكون أطيب لقلبه وأهون عليه من أن يأخذه قسراً وينبذحه قهراً: «**فَكَالَّبِنُّيَّ إِنِّي أَرَىٰ فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فَأَنَظُرْ مَاذَا تَرَىٰ**» . فبادر الغلام الحليم ، سر والده الخليل إبراهيم ، فقال: «**إِنَّكَ أَعْفَلَ مَا تُؤْمِنُ سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ**» وهذا الجواب في غاية السداد والطاعة للوالد ولرب العباد .

قال الله تعالى: «**فَلَمَّا آتَنَا وَنَّلَمَ لِلْجِنِّينَ**» قبل: «أسلموا» أي استسلماً لأمر الله وعزموا على ذلك .

وقيل: وهذا من المقدم والمؤخر ، والمعنى: «**تَلَهُ لِلْجِنِّينَ**» أي ألقاه على وجهه .

فعند ذلك نودي من الله عز وجل: «**أَنْ يَتَابِرِهِمُ ﴿٢﴾ قَدْ صَدَقَتِ الرُّؤْيَا**» أي قد حصل المقصود من اختبارك وطاعتكم ، ومبادرتك إلى أمر ربكم ، وبذلت ولدك للقربان ، كما سمحت بيديك للنيران ، وكما مالك مبدول للضيقات ! ولهذا قال تعالى: «**إِنَّكَ هَذَا لَمَّا أَبْتَلَنَّ الظَّاهِرَ الْبَيِّنَ**» أي الاختبار الظاهر البين .

وقوله: «**وَقَدَّيْتَهُ بِذِبْحِ عَظِيمٍ**» أي جعلناه فداء ذبح ولده ما يسره الله تعالى له من العوض عنه .

والمشهور عن الجمهور أنه كبس ثم ذكر ابن كثير بعض الروايات في وصف الكبش .

ثم قال: ثم غالب ما هاهنا من الآثار مأخوذ من الإسرائيليات . وفي القرآن كفاية عما جرى من الأمر العظيم ، والاختبار الباهر ، وأنه فدي بذبح عظيم ، وقد ورد في الحديث أنه كان كبشاً .

قال الإمام أحمد: حدثنا سفيان ، حدثنا منصور ، عن خاله نافع ، عن صفية بنت شيبة =

قالت: أخبرتني امرأة من بنى سليم ، ولدت عامة أهل دارنا قالت: أرسل رسول الله ﷺ إلى عثمان بن طلحة ، وقالت مرة: إنها سألت عثمان: لم دعاك رسول الله ﷺ ؟ قال: قال لي رسول الله: «إني كنت رأيت فرنى الكبش حين دخلت البيت ، فنسخت أن أمرك أن تخمرهما فخمرهما فإنه لا ينبغي أن يكون في البيت شيء يشغل المصلي». [مسند أحمد/ ح ١٦٦٣٧].

قال سفيان: لم يزل قرنا الكبش معلقين في البيت حتى احترق البيت فاحتراقاً . وكذا روي عن ابن عباس أن رأس الكبش لم يزل معلقاً عند ميزاب الكعبة حتى يبس . وهذا وحده دليل على أن الذبيح إسماعيل ، لأنه كان هو المقيم بمكة ، وإسحاق لا نعلم أنه قدمها في حال صغره .. والله أعلم . وهذا هو الظاهر من القرآن ، بل كأنه نص على أن الذبيح هو إسماعيل ، لأنه ذكر قصة الذبيح ثم قال بعده: ﴿وَبَشَّرَنَاهَا بِإِسْحَاقَ يُنَبَّئُنَا مِنَ الْمُصْلَحَاتِ﴾ ومن جعله حالاً فقد تكلف ، ومستنه أنه إسحاق إنما هو إسرائييليات ، وكتابهم فيه تحريف ، ولا سيما هاهنا قطعاً لا محيط عنه ، فإن عندهم أن الله أمر إبراهيم أن يذبح ابنه ووحيده ، وفي نسخة من المعرفة: بكراه إسحاق ، بلفظة إسحاق هاهنا مقحمة مكذوبة مفتراة ، لأنه ليس هو الوحيد ولا البكر إنما ذاك إسماعيل .

وإنما حملهم على هذا حسد العرب ، فإن إسماعيل أبو العرب الذين يسكنون الحجاز الذين منهم رسول الله ﷺ ، وإسحاق والد يعقوب - وهو إسرائيل - الذي يتسبون إليه ، فأرادوا أن يحرروا هذا الشرف إليهم ، فحرفوا كلام الله وزادوا فيه وهم قوم بهت ولم يقروا بأن الفضل بيد الله يؤتى به من يشاء .

وقد قال بأنه إسحاق طائفة كثيرة من السلف وغيرهم ، وإنما أخذوه - والله أعلم - من كعب الأحبار ، أو من صحف أهل الكتاب . وليس في ذلك حديث صحيح عن المعصوم حتى ترك لأجله ظاهر الكتاب العزيز ، ولا يفهم هذا من القرآن ، بل المفهوم بل المتنطق بل النص عند التأمل على أنه إسماعيل [لقد فصلنا القول في هذا البحث في مكان آخر فلا نعلم هنا على ترجيح ابن كثير].

وما أحسن ما استدل به ابن كعب القرظي على أنه إسماعيل وليس بإسحاق من قوله: ﴿فَبَشَّرَنَاهَا بِإِسْحَاقَ وَمَنْ وَرَاءَ إِسْحَاقَ يَعْقُوبَ﴾ ، قال: فكيف تقع البشارة بإسحاق وأنه سيولد له يعقوب ، ثم يؤمر بذبح إسحاق وهو صغير قبل أن يولد له ؟ هذا لا يكون ، لأنه ينافق البشارة المتقدمة ... والله أعلم .

وقد اعترض السهيلي على هذا الاستدلال بما حاصله أن قوله: ﴿فَبَشَّرَنَاهَا بِإِسْحَاقَ﴾ جملة تامة ، وقوله: ﴿وَمَنْ وَرَاءَ إِسْحَاقَ يَعْقُوبَ﴾ جملة أخرى ليست في حيز البشارة . قال: لأنه لا يجوز من حيث العربية أن يكون مخوضاً إلى أن يعاد معه حرف الجر ، فلا يجوز أن يقال مررت بزيد ومن بعده عمرو ، حتى يقال ومن بعده عمرو . وقال: فقوله: ﴿وَمَنْ وَرَاءَ إِسْحَاقَ﴾

يَعْقُوبَ》 منصوب بفعل مضمر تقديره: ووهبنا لإسحاق يعقوب ، وفي هذا الذي قاله نظر .
ورجح أنه إسحاق ، واحتج بقوله: ﴿فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيَ﴾ قال: وإسماعيل لم يكن عنده إنما
كان في حال صغره هو وأمه بجبار مكة فكيف يبلغ معه السعي؟ وهذا أيضاً فيه نظر ، لأن قد
روي أن الخليل كان يذهب في كثير من الأوقات راكباً البراق إلى مكة ، يطلع على ولده وابنه
ويرجع .. والله تعالى أعلم.

فمن حكى القول عنه بأنه إسحاق: كعب الأحجار ، وروي عن عمر والعباس وعلي وابن
مسعود ، ومسعود وعكرمة وسعيد بن جبير ومجاهد وعطاء والشعبي ومقاتل وعبيد بن
عمير ، وأبي ميسرة وزيد بن أسلم وعبد الله بن شقيق ، والزهرى والقاسم وابن أبي برد
ومكحول ، وعثمان بن حاضر والسدي والحسن وقتادة ، وأبي الهذيل وابن سابط ، وهو
اختيار ابن جرير ، وهذا عجب وهو أحد الروايتين عن ابن عباس .

ولكن الصحيح عنه - وعن أكثر هؤلاء - أنه إسماعيل عليه السلام ، قال مجاهد وسعيد
والشعبي ويوسف بن مهران وعطاء وغير واحد عن ابن عباس: هو إسماعيل عليه السلام .
وقال ابن جرير:

حدثني يونس ، أبنانا ابن وهب ، أخبرني عمرو بن قيس ، عن عطاء بن أبي رباح ، عن
ابن عباس أنه قال: المفدى إسماعيل وزعمت اليهود أنه إسحاق وكذبت اليهود .
قال عبد الله بن الإمام أحمد سأله أبي عن الذبيح: من هو؟ إسماعيل أو إسحاق ، فقال:
إسماعيل . وقال ابن أبي حاتم: وسمعت أبي يقول: الصحيح أن الذبيح إسماعيل . وروي
عن علي وابن عمر وأبي هريرة ، وأبي الطفلي ، وسعيد بن المسيب ، وسعيد بن جبير ،
والحسن ومجاهد ، والشعبي ، ومحمد بن كعب ، وأبي جعفر محمد بن علي ،
وأبي صالح أنهم قالوا: الذبيح هو إسماعيل عليه السلام . وحكاه البغوي أيضاً عن الربيع عن
أنس والكلبي وأبي عمرو بن العلاء .

بَيْبَانُ اللَّهِ إِسْحَاقَ عَلَيْهِ السَّلَامُ

[مولده]:

قال الله تعالى: ﴿وَيَشَرَّنَهُ يَاسْحَقَ يَبْنَى مِنَ الصَّلَاحِينَ ۖ وَتَرَكَنَا عَلَيْهِ وَعَلَى إِسْحَاقَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِهِمَا مُحْسِنٌ
وَظَالَّمٌ لِفَسْلِهِ، مُبْتَدِئٌ﴾ . وقد كانت البشرة به من الملائكة لإبراهيم وساره .

قال الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ جَاءَتْ رُسُلًا إِبْرَاهِيمَ بِالشَّرِيفِ قَالُوا سَلَّمَ فَمَا لَيْتَ أَنْ جَاءَ بِعِجْلٍ
حَزِينِي ۚ فَلَمَّا رَأَاهُمْ لَا تَصِلُّ إِلَيْهِمْ نَحْكَرَهُمْ وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِفَةً قَالُوا لَا تَخَفْ إِنَّا أَرْسَلْنَا إِلَيْكُمْ
لُوطٌ ۖ وَأَمْرَأَتُهُ قَائِمَةً فَضَرَحَكُتْ فِي سَرْرَتِهَا يَاسْحَقَ زَمِنَ وَرَأَهُ إِسْحَاقَ يَعْقُوبَ ۚ قَالَتْ يَتَوَلَّنَّهُ اللَّهُ وَأَنَا عَجَزٌ ۗ﴾

وَهَذَا عَلَى شَيْخًا إِنَّ هَذَا لَشَفَعًا عَجِيبٌ ﴿٦﴾ قَالُوا أَتَنْجِينَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ رَحْمَتُ اللَّهِ وَرَكْنُهُ عَيْتُكُو أَهْلَ الْبَيْتِ إِنَّهُ حَمِيدٌ مَحِيدٌ» [هود: ٦٩ - ٧٣].

قال تعالى: «وَنَنْتَهُمْ عَنْ ضَيْفٍ إِنْزَهُمْ ﴿٦﴾ إِذَا دَخَلُوا عَلَيْهِ فَقَاتُوا سَلَمًا قَالَ إِنَّا مِنْكُمْ وَجِلُونَ ﴿٧﴾ قَالُوا لَا تَوْجِلْ إِنَّا بَشَرُوكَ يَعْلَمُ عَلَيْهِ ﴿٨﴾ قَالَ أَبْشِرْتُمُونِي عَلَى أَنَّ مَسَيْنَ الْكَبِيرَ فَمَمْ بَيْشُرُونَ ﴿٩﴾ قَالُوا بَشَرْتُكَ بِالْحَقِّ فَلَا تَكُنْ مِنَ الْقَنْطَاطِينَ ﴿١٠﴾ قَالَ وَمَنْ يَقْنَطُ مِنْ رَحْمَةِ رَبِّهِ إِلَّا الصَّالُوْكَ» [الحجر: ٥١ - ٥٦].

وقال تعالى: «هُلْ أَنْتَ كَعَدِيْثٍ ضَيْفٍ إِبْرَاهِيمَ الْكَرِيمَ ﴿١١﴾ إِذَا دَخَلُوا عَلَيْهِ فَقَاتُوا سَلَمًا قَالَ سَلَمٌ فَوْمٌ مُمْكِنُونَ ﴿١٢﴾ فَرَأَيْتَ أَهْلَهُمْ فَجَاءَ بِعِصْلٍ سَمِينَ ﴿١٣﴾ فَقَرِبَهُمْ قَالَ لَا تَأْكُونُونَ ﴿١٤﴾ فَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِفَّةً فَلَا لَا خَفَّ وَبَشَرُوهُ بِعِلْمٍ عَلَيْهِ ﴿١٥﴾ فَأَبْكَتْ أُمَّرَأَتُهُ فِي صَرْقَ فَصَكَّتْ وَجْهَهَا وَقَالَتْ عَجُورُ عَقِيمٌ ﴿١٦﴾ قَاتُوا كَذَلِكَ قَالَ رَبِّكَ إِنَّهُ هُوَ السَّكِينُ الْعَلِيُّ» [الذاريات: ٢٤ - ٣٠].

يذكر تعالى: أن الملائكة لما وردوا على الخليل حسبهم أولاً أضيافاً ، فعاملتهم معاملة الضيوف ، وشوى لهم عجلأ سميها من خيار بقره ، فلما قربه إليهم وعرض عليهم ، لم ير لهم همة إلى الأكل بالكلية ، وذلك لأن الملائكة ليس فيهم قوة الحاجة إلى الطعام ف«نَكَرُهُمْ» إبراهيم: «وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِفَّةً قَاتُوا لَا تَخَفَّ إِنَّا أَرْسَلْنَا إِلَيْكُمْ قَوْمٌ لَوْطٌ» أي لندرم عليهم . فاستبشرت عند ذلك سارة غضباً لله عليهم ، وكانت قائمة على رؤوس الأضيفات كما جرت به عادة الناس من العرب وغيرهم ، فلما ضحكت استبشرأ بذلك ، قال الله تعالى:

«فَبَشَرَتْهَا بِإِسْحَاقَ وَمَنْ وَلَوْكَ إِسْحَاقَ يَعْقُوبَ» أي بشرتها الملائكة بذلك: «فَأَبْكَتْ أُمَّرَأَتُهُ فِي صَرْقَ» أي في صرخة: «فَصَكَّتْ وَجْهَهَا» أي كما تفعل النساء عند التعجب وقالت: «يَوْمَنِيَّةَ الْدُّلُوْدُلَةَ وَإِنَّا عَجُورٌ وَهَذَا عَلَى شَيْخًا» أي كيف يلد مثلي وأنا كبيرة وعقيم أيضاً ، وهذا يعني ، أي زوجي ، شيخاً؟ تعجبت من وجود ولد والحالة هذه. ولهذا قالت: «إِنَّ هَذَا لَشَفَعًا عَجِيبٌ ﴿٦﴾ قَالُوا أَتَنْجِينَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ رَحْمَتُ اللَّهِ وَرَكْنُهُ عَيْتُكُو أَهْلَ الْبَيْتِ إِنَّهُ حَمِيدٌ مَحِيدٌ».

وكذلك تعجب إبراهيم عليه السلام استبشرأ بهذه البشرة وتشيتا لها وفرحاً بها: «قَالَ أَبْشِرْتُمُونِي عَلَى أَنَّ مَسَيْنَ الْكَبِيرَ فَمَمْ بَيْشُرُونَ ﴿١١﴾ قَالُوا بَشَرْتُكَ بِالْحَقِّ فَلَا تَكُنْ مِنَ الْقَنْطَاطِينَ» أكدوا الخبر بهذه البشرة وقرروه معه ، فبشروهما «يَعْلَمُ عَلَيْهِ» وهو إسحاق أخو إسماعيل ، غلام عليم مناسب لمقامه وصبره ، وهكذا وصفه ربه بصدق الوعد والصبر. وقال في الآية الأخرى: «فَبَشَرَتْهَا بِإِسْحَاقَ وَمَنْ وَلَوْكَ إِسْحَاقَ يَعْقُوبَ».

وهذا مما استدل به محمد بن كعب القرظي وغيره على أن الذبيح هو إسماعيل ، وإن إسحاق لا يجوز أن يؤمر بذبحه بعد أن وقعت البشرة بوجوده وجود ولده يعقوب المشتق من العقب من بعده .

قوله تعالى: «فَبَشَرَتْهَا بِإِسْحَاقَ وَمَنْ وَلَوْكَ إِسْحَاقَ يَعْقُوبَ» دليل على أنها تستمتع بوجود ولدتها إسحاق ، ثم من بعده يولد ولده يعقوب . أي يولد في حياتهما لغير أعينهما به كما قررت بولده ، ولو لم يرد هذا لم يكن لذكر يعقوب وتخصيص التنصيص عليه من دون سائر نسل =

إسحاق فائدة ، ولما عين بالذكر دل على أنها ميتمتعان به ويسران بولده ، كما سرا بمولد أبيه من قبله ، وقال تعالى : « وَوَهْبَنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ كُلَّا هَدِيَّا » ، وقال تعالى : « فَلَمَّا أَعْزَزْتُمْ وَمَا يَعْدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ ». .

وهذا إن شاء الله ظاهر قوي ، ويؤيد ما ثبت في الصحيحين من حديث سليمان بن مهران الأعمش ، عن إبراهيم بن يزيد التيمي ، عن أبيه ، عن أبي ذر ، قال : قلت : يا رسول الله . . . أي مسجد وضع أول؟ قال : « المسجد الحرام » ، قلت : ثم أي؟ قال : « المسجد الأقصى » ، قلت : كم بينهما؟ قال : « أربعون سنة » ، قلت : ثم أي؟ قال : « ثم حيث أدركت الصلاة فصل فكلها مسجد ». وعند أهل الكتاب ، أن يعقوب عليه السلام هو الذي أسس المسجد الأقصى ، وهو مسجد إيليا بيت المقدس شرف الله .

وهذا متوجه ويشهد له ما ذكرناه من الحديث ، فعلى هذا يكون بناء يعقوب عليه السلام وهو - إسرائيل - بعد بناء الخليل وابنه إسماعيل المسجد الحرام بأربعين سنة سواء . وقد قال بناؤهما ذلك بعد وجود إسحاق ، لأن إبراهيم عليه السلام لما دعا ، قال في دعائه كما قال تعالى : « وَإِذَا قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّي أَجْعَلْ هَذَا الْبَلَادَ أَمْنًا وَاجْتَبَنِي وَيَقِنَ أَنْ تَعْبُدَ الْأَصْنَامَ رَبِّ إِيمَانَ أَضْلَلَنَ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ فَنَّ تَعْبُعِي فَإِلَهُ مِنِي وَمَنْ عَاصَنِي فَإِلَكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ رَّبِّنَا إِنِّي أَسْكَنْتُ مِنْ ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِنْدَ بَيْكِ الْمُحْرَمِ رَبِّنَا لِيُقْبِلُوا الصَّلَاةَ فَاجْعَلْ أَفْيَدَةَ بَنِ النَّاسِ تَهُوَى إِلَيْهِمْ وَأَرْقَهُمْ مِنَ الشَّمْرَتِ لَعَلَهُمْ يَشْكُرُونَ رَبِّنَا إِنَّكَ تَعْلَمُ مَا تَعْنِي وَمَا تَعْلِمُنَّ وَمَا يَخْفَى عَلَى اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي وَهَبَ لِي عَلَى الْكِبْرِ إِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِنَّ رَبِّي لَسَيِّمُ الدُّعَاءِ رَبِّي أَجْعَلَنِي مُقِيمَ الصَّلَاةَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي رَبِّنَا وَتَبَّقَلَ دُعَائِهِ رَبِّنَا أَغْفَرَ لِي وَلَوْلَدَيَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ الْحَسَابُ » [إبراهيم : ٤١ - ٣٥] .

وما جاء في الحديث من أن سليمان بن داود عليهما السلام ، لما بني بيت المقدس سأله خالاً ثلاثة ، كما ذكرناه عند قوله : « رَبِّي أَغْفِرْ لِي وَهَبْ لِي مُلْكًا لَا يَبْيَغِي لِأَحَدٍ مِنْ بَعْدِي » ، - وكما سئلته في قصته - فالمراد من ذلك والله أعلم ، أنه جدد بناءه كما تقدم من أن بينهما أربعين سنة ، ولم يقل أحد إن بين سليمان وإبراهيم أربعين سنة سوى ابن حبان في تقسيمه وأنواعه . وهذا القول لم يوافق عليه ولا سبق إليه .

[بناء البيت العتيق] :

قال الله تعالى : « وَإِذَا وَأَتَا لِإِنْزَهِيمَ مَكَانَ الْبَيْتِ أَنْ لَا تُشْرِكَ فِي شَيْءًا وَطَهَرْ يَتَقَبَّلُ لِلَّطَّافَيْتَ وَالْقَالِيمِينَ وَالرُّكْعَيْ السُّجُودَ وَأَدَنَ فِي النَّاسِي بِالْحِجَّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَى كُلِّ ضَارِبِيَّاتِيَّنَ منْ كُلِّ فَجَّ عَمِيقِي » [الحج : ٢٦ - ٢٧] ، وقال تعالى : « إِنَّ أَوَّلَ بَيْتَ وَضْعَ لِلنَّاسِ لِلَّهِ يُبَكِّهُ مُبَارِكًا وَهُدُى لِلْعَلَمِينَ » فيه مَا يَكْتُبُ بَيْتَ مَقْامَ إِبْرَاهِيمَ وَمَنْ دَخَلَهُ كَانَ أَمِنًا وَلَوْلَهُ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنْ أَسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ الْمُلْمَنِينَ » [آل عمران : ٩٦ - ٩٧] .

قال تعالى : « وَإِذَا اتَّكَلَ إِبْرَاهِيمَ رَبِّي يُكَلِّتُ فَأَتَهُمْ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا قَالَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي قَالَ لَا -

يَنَالْ عَهْدِ الظَّالِمِينَ ﴿١﴾ وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثَابَةً لِلنَّاسِ وَأَمَّا وَآتَيْنَا مِنْ مَقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصْلِّي وَعَهْدَنَا إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ أَنْ طَهَرَا بَيْتَ الْمَطَافِينَ وَالْكَوْفَينَ وَالرُّكْعَيْنَ وَالرُّكْعَيْنَ وَالسُّجُودِ ﴿٢﴾ وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمَ رَبِّي أَجْعَلْ هَذَا بَلَدًا إِمَانًا وَأَرْزُقْ أَهْلَمَ مِنَ الشَّرَبَاتِ مِنْ عَامَنَ مِنْهُمْ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْأَخْرَ قَالَ وَمَنْ كَفَرْ فَأُمْتَمِعْ يَلِيلًا ثُمَّ أَضْطَرْهُ إِلَى عَذَابِ النَّارِ وَيَقْسِ الْعَصِيدِ ﴿٣﴾ وَإِذْ يَرْقُعْ إِبْرَاهِيمَ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلَ رَبَّنَا تَقْبَلْ مِنَا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْلَّيْلُ ﴿٤﴾ رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمِينَ لَكَ وَمَنْ دُرِّيَّنَا أُمَّةً مُسْلِمَةً لَكَ وَأَرَيْنَا مَنَاسِكَنَا وَتَبَّ عَيْنَنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْوَابِ الْرَّجِيمُ ﴿٥﴾ رَبَّنَا وَأَبَعْثَتْ فِيهِمْ رَسُولًا يَنْهَا عَلَيْهِمْ إِيَّاكَ وَيَمْلَأُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَةَ وَرَئِسْكِهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ» [البقرة: ١٢٩ - ١٢٤].

يدرك تعالى عن عبده ورسوله وصفيه وخليله ، إمام الحنفاء والوالد الأنبياء إبراهيم عليه السلام أنه بني البيت العتيق الذي هو أول مسجد وضع لعموم الناس ، يعبدون الله فيه ، وبواه الله مكانه ، أي أرشده إليه ودلله عليه.

فأمر الله تعالى إبراهيم عليه السلام أن يبني له بيتاً يكون لأهل الأرض كتلك المعابد لملائكة السموات ، وأرشده الله إلى مكان البيت المهيأ له ، المعين لذلك منذ خلق السموات والأرض ، كما ثبت في الصحيحين: «إن هذا البلد حرمه الله يوم خلق الله السموات والأرض ، فهو حرام بحرمة الله إلى يوم القيمة».

ولم يجيء في خبر صحيح عن المعصوم أن البيت كان مبنياً قبل الخليل عليه السلام ، ومن تمسك في هذا بقوله: «مَكَانُ الْبَيْتِ» فليس بناهض ولا ظاهر ، لأن المراد مكانه المقدر في علم الله ، المقرر في قدره ، المعظم عند الأنبياء موضعه ، من لدن آدم إلى زمان إبراهيم.

وقد قال الله: «إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي يَسْكُنُهُ مَبَارِكًا وَهُدًى لِلْعَالَمِينَ» أي أن أول بيت وضع لعموم الناس للبركة والهدى. البيت الذي يسكنه . وقيل: محل الكعبة: «فِيهِ إِيَّاكَ بَيْتُنَا» أي على أنه بناء الخليل ، والوالد الأنبياء من بعده وإمام الحنفاء من ولده ، الذين يقتدون به ويتمسكون بستنه ، ولهذا قال: «مَقَامُ إِبْرَاهِيمَ» أي الحجر الذي كان يقف عليه قائماً لما ارتفع البناء عن قامته ، فوضع له ولده هذا الحجر المشهور ، ليترفع عليه لما تعالى البناء وعظم الفناء. كما ذكر في حديث ابن عباس الطويل .

وقد كان هذا الحجر ملتصقاً بحائط الكعبة على ما كان عليه من قديم الزمان إلى أيام عمر بن الخطاب رضي الله عنه ، فأخرجه عن البيت قليلاً ، لثلا يشغل المصلين عنده الطائفين بالبيت ، واتبع عمر بن الخطاب رضي الله عنه في هذا ، فإنه قد وافقه ربه في أشياء ، منها قوله لرسوله ﷺ: لو اتخذنا من مقام إبراهيم مصلى ، فأنزل الله: «وَآتَيْنَا مِنْ مَقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصْلِّي». وقد كانت أثار قدسي الخليل باقية في الصخرة إلى أول الإسلام . وقد قال أبو طالب في قصيده اللامية المشهورة:

وَثُورٌ وَمَنْ أَرْسَى ثِيرَاً مَكَانَهُ وَرَاقٌ لِيرْقَى فِي حِرَاءِ وَنَازَلٍ

وبالبيت حق البيت من بطن مكة وبالحجر المسود إذ يمسحونه إذا اكتفوا بالضحى والأصائل وموطئ إبراهيم في الصخر رطبة على قدميه حافياً غير ناعل يعني أن رجله الكريمة غاصت في الصخرة فصارت على قدر قدمه حافية لا متعلقة . ولهذا قال تعالى : ﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْكَنِيْلُ﴾ أي في حال قولهما : ﴿رَبَّنَا نَقْبَلُ مِنْ إِنَّكَ أَنْتَ أَسْبَعُ الْعَلِيِّمُ﴾ فهما في غاية الإخلاص والطاعة لله عز وجل ، وهو ما يسألان من الله عز وجل السميع العليم أن يتقبل منهما ما هما فيه من الطاعة العظيمة والسعى المشكور : ﴿رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمِيْنَ لَكَ وَمَنْ دُرِّيَّنَا أَنَّهُ مُسْلِمَةَ لَكَ وَأَرَنَا مَنَاسِكَنَا وَبَثَّ عَلَيْنَا إِنَّكَ أَنْتَ أَتَوَّبُ الرَّجِيمُ﴾ [البقرة : ١٢٨] .

والمحصود أن الخليل بنى أشرف المساجد في أشرف البقاع ، في واد غير ذي زرع ، ودعا لأهلها بالبركة ، وأن يرزقوا من الثمرات ، مع قلة المياه وعدم الأشجار والزروع والثمار ، وأن يجعله حرماً محرماً واماً مُحتمماً .

فاستجاب الله - له الحمد - له مسألته ، ولبي دعوته ، وأتاه طلبه ، فقال تعالى : ﴿أَوْلَمْ يَرَأَ أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمَاءَ إِيمَانًا وَيَنْخَطُفُ النَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ﴾ ، وقال تعالى : ﴿أَوْلَمْ نُسَكِّنْ لَهُمْ حَرَمَاءَ إِيمَانًا يُجْعَلُ إِلَيْهِ ثَمَرَتُ كُلِّ شَجَرٍ وَرِزْقًا مِنْ لَذَّنَا﴾ . وسأل الله أن يبعث فيهم رسولًا منهم ، أي من جنسهم ، وعلى لغتهم الفصيحة البليغة النصيحة ، لتعم عليهم النعمتان : الدينية والدينية ، سعادة الأولى والآخرة .

وقد استجاب الله له فبعث فيهم رسولًا وأي رسول ! ختم به أنبياءه ورسله ، وأكمل له من الدين ما لم يؤت أحد قبله ، وعم بدعونه أهل الأرض على اختلاف أجنسهم ولغاتهم وصفاتهم ، فيسائر الأقطار والأماكن والأعصار إلى يوم القيمة ، وكان هذا من خصائصه من بين سائر الأنبياء ، لشرفه في نفسه وكمال شفنته على أمته ، ولطفه ورحمته ، وكرمه محنته وعظيم مولده ، وطيب مصدره ومورده .

ولهذا استحق إبراهيم الخليل عليه السلام إذ كان باني الكعبة لأهل الأرض ، أن يكون منصبه ومحله وموضعه في منازل السموات ورفع الدرجات عند البيت المعمور ، الذي هو كعبة أهل السماء السابعة ، المبارك المبرور ، الذي يدخله كل يوم سبعون ألفاً من الملائكة يتبعدون فيه ، ثم لا يعودون إلى يومبعث والنشور .

وقد ذكرنا في التفسير من سورة البقرة صفة بنائه للبيت ، وما ورد في ذلك من الأخبار والآثار بما فيه كفاية ، فمن أراد فليراجعه ثم ... والله الحمد .

وفي الصحيحين من حديث مالك ، عن ابن شهاب ، عن سالم : أن عبد الله بن محمد بن أبي بكر أخبر ، عن ابن عمر ، عن عائشة : أن رسول الله ﷺ قال : «ألم تر أن قومك حين بنوا الكعبة اقصروا عن قواعد إبراهيم؟ فقلت : يا رسول الله .. لا تردها على قواعد إبراهيم؟

قال: «لولا حدثان قومك بالكفر لفعلت». وفي رواية: «لولا أن قومك حديث عهد بجاهلية - أو قال بـكفر - لأنفقت كنز الكعبة في سبيل الله ، ولجعلت بابها بالأرض ، ولأدخلت فيها الحجر». صحيح البخاري / ح (٤٤٨٤) وح (١٥٨٦).

وقد بناما ابن الزبير رحمه الله في أيامه على ما أشار إليه رسول الله ﷺ حسبما أخبرته به خالته عائشة ، أم المؤمنين عنه ، فلما قتله الحجاج في سنة ثلاثة وسبعين كتب إلى عبد الملك بن مروان الخليفة إذ ذاك ، فاعتقدوا أن ابن الزبير إنما صنع ذلك من تلقاء نفسه . فأمر بردها إلى ما كانت عليه ، فقضوا الحائط الشامي وأخرجوا منها الحجر ، ثم سدوا الحائط وردموا الأحجار في جوف الكعبة ، فارتفع بابها الشرقي ، وسدوا الغربي بالكلية ، كما هو مشاهد إلى اليوم . ثم لما بلغهم أن ابن الزبير إنما فعل هذا لما أخبرته عائشة أم المؤمنين ندموا على ما فعلوا ، وتأسفوا أن لو كانوا تركوه وما تولى من ذلك . ثم لما كان في زمن المهدي بن المنصور استشار الإمام مالك بن أنس في ردها على الصفة التي بناها ابن الزبير فقال له: إبني أخشى أن يتخذها الملوك لعبه . يعني كلما جاء ملك بـنـاـها على الصفة التي يريد . فاستقر الأمر على ما هي عليه اليوم .

[ثناء الله على خليله إبراهيم]:

قال الله تعالى : ﴿ وَلَذِكْرَنَا إِنَّ رَبَّنَا بِكَلِمَتِنَّا هُنَّا قَالَ إِنِّي جَاعَلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا قَالَ وَمَنْ دُرِيَّتِي قَالَ لَا يَنْتَلِعُ عَهْدِي أَظَلَالِمِينَ ﴾ لما وفى ما أمره به ربـهـ من التـكـالـيفـ العـظـيمـةـ ، جعلـهـ لـلنـاسـ إـمامـاـ يقتدونـ بهـ ويـأـتـمـونـ بـهـدـيـهـ . وـسـأـلـ اللهـ أـنـ تكونـ هـذـهـ الإـمـامـةـ مـتـصـلـةـ بـسـبـبـهـ ، وـبـاقـيـةـ فـيـ نـسـبـهـ ، وـخـالـدـةـ فـيـ عـقـبـهـ فـأـجـبـ إـلـىـ مـاـ سـأـلـ وـرـامـ وـسـلـمـتـ إـلـيـهـ الإـمـامـةـ بـزـمـامـ ، وـاسـتـشـنـىـ مـنـ نـيلـهـ الـظـالـمـونـ . وـاخـصـ بـهـاـ مـنـ ذـرـيـتـهـ الـعـلـمـاءـ الـعـاـمـلـوـنـ ، كـمـاـ قـالـ تـعـالـىـ : ﴿ وَوَهَبَنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَجَعَلَنَا فِي ذَرِيَّتِهِ الْثُبُوتَ وَالْكِتَابَ وَأَيَّتَنَّهُ أَجْرَهُ فِي الدُّنْيَا وَلِهُ فِي الْآخِرَةِ لِمَنْ أَصْلَلَهُنَّ ﴾ ، وـقـالـ تـعـالـىـ : ﴿ وَوَهَبَنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ كُلَّا لَهَدِيَنَا وَنُؤْحَادِيَنَا مِنْ قَبْلٍ وَمَنْ دُرِيَّتِي دَأْدَدَ وَشَلَيمَنَ وَأَيُوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَى وَهَرُونَ وَكَذَلِكَ بَعْزِيَ الْمُحْسِنِينَ ﴿ ٦١ ﴾ وَرَكِيَّا وَيَحْيَى وَعِيسَى وَإِلَيَّا سَلَيْمَنَ وَأَصْلَلَهُنَّ ﴿ ٦٢ ﴾ وَإِسْمَاعِيلَ وَالْيَسَعَ وَيُوسُفَ وَلُوطًا وَكُلَّا فَضَلَّنَا عَلَى الْمُنَلَّيِّنِ ﴿ ٦٣ ﴾ وَمَنْ ءَايَاهُمْ وَدُرِيَّتِهِمْ وَإِخْرَاهُمْ وَاجْبَرَاهُمْ وَهَدَيْتَهُمْ إِلَى صِرَاطِ مُسْتَقِيمٍ ﴾ .

فالضمير في قوله: ﴿ وَمَنْ دُرِيَّتِي ﴾ عائد على إبراهيم على المشهور ، ولوط وإن كان ابن أخيه إلا أنه دخل في الذرية تغليباً ، وهذا هو الحال للسائل الآخر أن الضمير على نوح كما قدمـناـ فـيـ قـصـتـهـ .. وـالـلهـ أـعـلـمـ .

وقال تعالى : ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا تُوحًا وَإِبْرَاهِيمَ وَجَعَلْنَا فِي ذَرِيَّتِهِمَا الْثُبُوتَ وَالْكِتَابَ ﴾ الآية . فـكـلـ كتابـ أـنـزلـ مـنـ السـمـاءـ عـلـىـ نـبـيـ مـنـ الـأـنـبـيـاءـ بـعـدـ إـبـرـاهـيمـ الـخـلـيلـ ، فـمـنـ ذـرـيـتـهـ وـشـيـعـتـهـ ، وـهـذـهـ خـلـعـةـ سـنـيـةـ لـاـ تـضـاهـيـ ، وـمـرـتـبةـ عـلـيـةـ لـاـ تـبـاهـيـ . وـذـكـرـ أـنـهـ وـلـدـ لـهـ لـصـلـبـهـ وـلـدـانـ ذـكـرـانـ عـظـيمـانـ : إـسـمـاعـيلـ مـنـ هـاجـرـ ، ثـمـ إـسـحـاقـ مـنـ سـارـةـ ، وـوـلـدـ لـهـ يـعقوـبـ - وـهـوـ إـسـرـائـيلـ - الـذـيـ يـنـتـسـبـ =

إلى سائر أسباطهم ، فكانت فيهم النبوة ، وكثروا جداً بحيث لا يعلم عددهم إلا الذي بعثهم وأختصهم بالرسالة والنبوة ، وحتى ختموا بيعيسى ابن مريم من بنى إسرائيل . وإنما إسماعيل عليه السلام ، فكانت منه العرب على اختلاف قبائلها ، كما سنينه فيما بعد إن شاء الله تعالى ، ولم يوجد من سلالته من الأنبياء سوى خاتمهم على الإطلاق وسيدهم ، وفخر بنى آدم في الدنيا والآخرة : محمد بن عبد الله بن عبد المطلب بن هاشم القرشي ، المكي ثم المدني صلوات الله وسلامه عليه .

فلم يوجد من هذا الفرع الشريف والغصن المنيف سوى هذه الجوهرة الباهرة ، والدرة الظاهرة ، وواسطة العقد الفاخرة ، وهو السيد الذي يفتخر به أهل الجمع ، ويعنجه الأولون والآخرون يوم القيمة . وقد ثبت عنه في صحيح مسلم أنه قال : «سأقوم مقاماً يرحب إلى الخلق كلهم حتى إبراهيم» . فمدح إبراهيم أباه مدحه عظيمة في هذا السياق ، ودل كلامه على أنه أفضل الخلاق بعده عند الخلاق ، في هذه الحياة الدنيا ويوم يكشف عن ساق .

وقال البخاري : حدثنا عثمان بن أبي شيبة ، حدثنا جرير ، عن منصور ، عن المنهال ، عن سعيد بن جبير ، عن ابن عباس قال : كان رسول الله ﷺ يعود الحسن والحسين ويقول : «إن أباكم كأن يعود بها إسماعيل وإسحاق : أعود بكلمات الله التامة ، من كل شيطان وهامة ، ومن كل عين لامة» . ورواه أهل السنن من حديث منصور به . [البخاري / ح ٣٣٧١] .

وقال تعالى : «وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ أَرْبَى كَيْفَ تُحِيِّ الْمَوْتَىٰ قَالَ أَوْلَئِمْ تُؤْمِنُ بِنَّ وَلَكِنَ لَّيَطْمَئِنُّ قَلْبِيٌّ قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةَ مِنَ الظَّيْرِ فَصَرِّهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ أَجْعَلْ عَلَىٰ كُلِّ جَبَلٍ مِّنْهُنَّ جُزَءًا ثُمَّ أَدْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعِيًّا وَأَعْلَمُ أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ» وذكر المفسرون لهذا السؤال أسباباً بسطاناها في التفسير وقرنها بأتم تقرير .

والحاصل : أن الله عز وجل أجابه إلى ما سأله ، فأمره أن يعمد إلى أربعة من الطيور ، اختلقو في تعينها على أقوال ، والمقصود حاصل على كل تقدير ، فأمره أن يمزق لحومهن وريشهن ، ويخلط ذلك بعضه في بعض ، ثم يقسمه قسماً ويجعل على كل جبل منها جزءاً ففعل ما أمر به ، ثم أمر أن يدعوهن بإذن ربهن ، فلما دعاهن جعل كل عضو يطير إلى صاحبه ، وكل ريشة تأتي إلى أختها ، حتى اجتمع بدن كل طائر على ما كان عليه ، وهو ينظر إلى قدرة الذي يقول للشيء : كن فيكون ، فأتين إليه سعيًا ، ليكون أبين له وأوضح لمشاهدته من أن يأتيك طيرانا .

وقد كان إبراهيم عليه السلام يعلم قدرة الله تعالى على إحياء الموتى علمًا يقيناً لا يحتمل التقيض ، ولكن أحب أن يشاهد ذلك عياناً ، ويترقى من علم اليقين إلى عين اليقين ! فأجابه الله إلى سؤاله وأعطاه غاية مأمولة .

وقال تعالى : «يَتَأْهَلُ الْحَكَمَ لِمَ تُحَاجَجُوكَ فِي إِبْرَاهِيمَ وَمَا أَنْزَلَتِ الْوَرَثَةَ وَالْإِنْجِيلُ إِلَّا مِنْ بَعْدَوْهُ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ۝ هَذَا نَمْ هَذُولَةٌ حَجَجْتُمْ فِيمَا لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ فَلَمْ تُحَاجَجُونَ فِيمَا لَيْسَ لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ وَاللَّهُ يَعْلَمُ

وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿١١﴾ مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَكِنْ كَانَ حَسِيقًا مُسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿١٢﴾ إِنَّ
أُولَى النَّاسِ بِإِيمَانِهِ لِلَّذِينَ أَنْبَعُوهُ وَهَذَا الَّتِي وَالَّذِي أَمْنَوْا اللَّهَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٣﴾ [آل عمران: ٦٥ - ٦٨].
ينكر تعالى على أهل الكتاب من اليهود والنصارى في دعوى كل من الفريقين ، كون الخليل
على ملة ملته وطريقتهم ، فبرأ الله منهم ، وبين كثرة جهلهم وقلة عقلهم في قوله : « وَمَا أَرْتَ
الْوَرَى وَالْأَنْجِيلَ إِلَّا مِنْ بَدْوٍ » أي فكيف يكون على دينكم وأنت إنما شرع لكم ما شرع بعده
بمدد متطاولة ؟ ولهذا قال : « أَفَلَا تَقْلُوْنَ » ، إلى أن قال : « مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَكِنْ
كَانَ حَسِيقًا مُسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿١٤﴾ [آل عمران: ٦٧].

فيبين أنه كان على دين الله الحنيف ، وهو القصد إلى الإخلاص ، والانحراف عمداً عن
الباطل إلى الحق الذي هو مخالف لليهودية والنصرانية والشرك .

كما قال تعالى : « وَمَنْ يَرْغَبُ عَنْ مِلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلَّا مَنْ سَفَهَهُ وَلَقَدْ أَضْطَفَنَاهُ فِي الدُّنْيَا وَإِنَّهُ فِي
الْآخِرَةِ لَكُمُ الْأَصْنَافُ إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ : أَسْلَمْتُ قَالَ أَسْلَمْتَ رَبُّ الْمَلَائِكَةِ وَوَصَّى بِهَا إِبْرَاهِيمَ تَبَّاهَ
وَيَعْقُوبُ يَبْتَهِي إِنَّ اللَّهَ أَضْطَفَنَ لَكُمُ الَّذِينَ فَلَا تَمُونُنَ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ ﴿١٥﴾ أَمْ كُنْتُمْ شَهَادَاءِ إِذْ حَضَرَ
يَعْقُوبَ الْمَوْتَ إِذْ قَالَ لِزَيْنِيَّهُ مَا تَعْبُدُونَ مِنْ بَعْدِي قَالُوا نَعْبُدُ إِلَهَكَ وَإِلَهَ أَبَابِلِكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ
وَإِسْحَاقَ إِلَهَهَا وَجَدَّا وَخَنْ لَهُ مُسْلِمُونَ ﴿١٦﴾ تَلَكَ أُمَّةٌ فَدَخَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُمْ مَا كَسَبْتُمْ وَلَا شَتَّلُونَ عَمَّا
كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٧﴾ وَقَالُوا كُوْثَرًا هُوَدَا وَأَصْكَرَى هَنْدَدَا قُلْ بِلَ مِلَّةِ إِبْرَاهِيمَ حَسِيقًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿١٨﴾
فَوْلُوا أَمَّا كَانَ بِاللَّهِ وَمَا أَرْلَى إِلَيْنَا وَمَا أَرْلَى إِلَيْهِمْ وَلَا سَتِيلَ وَلَا سَحْقَ وَلَا يَعْقُوبَ وَلَا أَسْبَاطَ وَمَا أُولَئِيْ
وَعِيشَيْ وَمَا أُولَئِيْ أَنَّتُهُوْنَ مِنْ رَبِّهِمْ لَا تَفْرُقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ وَخَنْ لَهُ مُسْلِمُونَ ﴿١٩﴾ فَإِنَّ عَامُوْا يَمْثُلُ مَا
أَمْنَتُمْ بِهِ فَقَدْ أَهْتَدَوْا وَإِنْ تَوْلُوا فَإِنَّهُمْ فِي شَقَاقٍ فَسِيْكَفِكُهُمُ اللَّهُ وَهُوَ السَّمِيعُ الْكَلِيمُ ﴿٢٠﴾ صِنْبَعَةُ اللَّهِ
وَمَنْ أَحَسَنَ مِنَ اللَّهِ صِنْبَعَةً وَخَنْ لَهُ عَيْدُونَ ﴿٢١﴾ قُلْ أَنْجَاحُونَا فِي اللَّهِ وَهُوَ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ وَلَنَا أَنْجَانَا
وَلَكُمْ أَعْمَلُكُمْ وَخَنْ لَهُ مُخْلِصُونَ ﴿٢٢﴾ أَمْ نَقُولُنَّ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَلَا سَحْقَ وَلَا يَعْقُوبَ وَلَا أَسْبَاطَ
كَانُوا هُوَدَا وَأَصْكَرَى قُلْ مَا أَنْتُمْ أَغْلَمُ أَمِ اللَّهِ وَمَنْ أَظْلَمُ مِنْ كُنْ شَهَادَةً عِنْدُمْ مِنْ كَانَ اللَّهُ وَمَا كَانَ اللَّهُ يَعْلَمُ
عَنَّا تَعْمَلُونَ ﴿٢٣﴾ تَلَكَ أُمَّةٌ فَدَخَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُمْ مَا كَسَبْتُمْ وَلَا شَتَّلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٢٤﴾

[القرة: ١٣٠ - ١٤١].

فتره الله عز وجل خليله عليه السلام عن أن يكون يهودياً أو نصراينياً ، وبين أنه إنما كان حنيفاً
مسلمًا ولم يكن من المشركين ، ولهذا قال تعالى : « إِنَّ أُولَى النَّاسِ بِإِيمَانِهِ لِلَّذِينَ أَنْبَعُوهُ » يعني
الذين كانوا على ملة من أتباعه في زمانه ، ومن تمسك بدینه من بعدهم : « وَهَذَا الَّتِي » يعني
محمدًا ﷺ ، فإن الله شرع له الدين الحنيف الذي شرع للخليل ، وكمله الله تعالى له ،
وأعطاه ما لم يُعطِ نبياً ولا رسولًا من قبله ، كما قال تعالى : « قُلْ إِنَّمَا هَذَا نِعْيَ وَرَقَ إِلَى صَرْطَ
مُسْتَقْبِرِيْ دِيَنَا قِيمَةُ مِلَّةِ إِبْرَاهِيمَ حَسِيقًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿٢٥﴾ قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتَقَ اللَّهِ رَبِّي
الْعَالَمِينَ ﴿٢٦﴾ لَا شَرِيكَ لَهُ وَيَدِلَكَ أَمْرُتُ وَأَنَا أَوْلَى الْمُشْلِسِينَ ﴿٢٧﴾ [الأعراف: ١٦١ - ١٦٣]. وقال تعالى : « إِنَّ
إِبْرَاهِيمَ كَانَ أَمَّةً فَانْتَ لَهُ حَسِيقًا وَلَمْ يَكُنْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿٢٨﴾ شَاكِرًا لِأَنْفُمِهِ أَجْتَبَنَهُ وَهَدَنَهُ إِلَى صَرْطَ

مُسْتَقِيمٌ ﴿١٦﴾ وَإِنَّهُمْ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةٌ وَإِنَّهُمْ فِي الْآخِرَةِ لِمَنِ الظَّلِيلُ حِينَ ثُمَّ أَوْجَحَنَا إِلَيْكُمْ أَنِ اتَّبِعُ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴿١٧﴾ [النحل : ١٢٠ - ١٢٣].

وقال البخاري : حدثنا إبراهيم بن موسى ، حدثنا هشام ، عن معمر ، عن أيوب ، عن عكرمة ، عن ابن عباس أن النبي ﷺ لما رأى الصور في البيت لم يدخل حتى أمر بها فمحيت ، ورأى إبراهيم وإسماعيل بأيديهما الأزلام فقال : «قاتلهم الله .. والله ما استقسما بالأزلام قط». لم يخرجه مسلم . وفي بعض ألفاظ البخاري : «قاتلهم الله ... لقد علموا أن شيخنا لم يستقسم بها قط» . [البخاري / كتاب الأنبياء / ح ٣٣٥٢] و[الحج / ١٦٠١].

وقوله : «أَمَّةٌ» أي قدوة إماماً مهتمياً داعياً إلى الخير ، يقتدى به فيه ﴿فَإِنَّا لِلَّهِ﴾ أي خاشعاً له في جميع حالاته وحركاته وسكناته ﴿حَنِيفًا﴾ أي مخلصاً على بصيرة ﴿وَلَئِنْ يَكُنْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ ﴿شَاكِرًا لِأَنْعَمِهِ﴾ أي قائماً بشكر ربه بجميع جوارحه من قلبه ولسانه وأعماله ﴿أَحَبَّهُ﴾ أي اختياره الله لنفسه واصطفاه لرسالته ، واتخذه خليلاً ، وجمع له بين خيري الدنيا والآخرة .

وقال تعالى : «وَمَنْ أَحَسَنَ دِينًا مَمَنْ آسَلَّمَ وَجَهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ وَاتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَأَنَّهُمْ أَلْذَى وَرْقَةً» ولها اتخاذه الله خليلاً ، والخلة هي غاية المحبة كما قال بعضهم :

قد تخللت مسلك الروح مني **وَيَا سُمَّيَ** الخليل خليلاً
وهكذا نال هذه المرتبة خاتم الأنبياء وسيد المرسلين محمد صلوات الله وسلامه عليه ، كما ثبت في الصحيحين وغيرهم من حديث جندب الجلبي وعبد الله بن عمرو وابن مسعود عن رسول الله ﷺ أنه قال : «أيها الناس .. إن الله اتخذني خليلاً». وقال أيضاً في آخر خطبة خطبها : «أيها الناس .. لو كنت متخدناً من أهل الأرض خليلاً لاتخذت أباً بكر خليلاً ، ولكن صاحبكم خليل الله». أخرجاه من حديث أبي سعيد . [البخاري / ح ٣٩٠٤] ومسلم [٢٣٨٢ / ٢].

وثبت أيضاً من حديث عبد الله بن الزبير وابن عباس وابن مسعود . وروى البخاري في صحيحه : حدثنا سليمان بن حرب ، حدثنا شعبة ، عن حبيب بن أبي ثابت ، عن سعيد بن جبير ، عن عمرو بن ميمون ، قال : إن معاذًا لما قدم اليمن صلى بهم الصبح فقرأ : «وَاتَّخَذَ اللَّهَ إِبْرَاهِيمَ حَلِيلًا» فقال رجل من القوم : لقد قرأت عين أم إبراهيم ! .

وقال ابن أبي حاتم : حدثنا أبي ، حدثنا محمود بن خالد السلمي ، حدثنا الوليد ، عن إسحاق بن يسار قال : لما اتخاذ الله إبراهيم خليلاً ألقى في قلبه الوجل ، حتى إن كان خففان قلبه ليسمع من بعد كما يسمع خففان الطير في الهواء .

وقد ذكره الله تعالى في القرآن كثيراً في غير ما موضع بالثناء عليه والمدح له ، فقيل : إنه =

مذكور في خمسة وثلاثين موضعًا ، منها خمسة عشر (موضعاً) في البقرة وحدها .

وهو أحد أولي العزم الخمسة المنصوص على أسمائهم تخصيصاً من بين سائر الأنبياء في آياتي الأحزاب والشورى ، وهم قوله تعالى : « وَلَذِكْرَنَا مِنَ النَّبِيِّنَ مِنْتَقَهُمْ وَمِنْكَ وَمِنْ نُوحَ وَإِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَئِنْ مَرِيمَ وَأَخْذَنَا مِنْهُمْ مِنْتَقَهُمْ ۝ شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الْأَيْمَنِ مَا وَصَّيَ بِهِ ۝ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنَّ أَئِمَّةَ الْدِينِ لَا تَنْفَرُوا فِيهِ ۝ الآية . ثم هو أشرف أولي العزم بعد محمد ﷺ .

وهو الذي وجده عليه السلام في السماء السابعة مستنداً ظهره بالبيت المعمور الذي يدخله كل يوم سبعون ألفاً من الملائكة ثم لا يعودون إليه آخر ما عليهم ، وما وقع في حديث شريك بن أبي نمير عن أنس في حديث الإسراء ، من أن إبراهيم في السادسة ، وموسى في السابعة ، فمما انتقد على شريك في هذا الحديث . وال الصحيح الأول .

وقال أحمد: حدثنا محمد بن بشير: حدثنا محمد بن عمرو ، حدثنا أبو سلمة ، عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: « إن الكريمة ابن الكريمة ابن الكريم ، يوسف بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم خليل الرحمن ». تفرد به أحمد [مستند أحمد] . [٨٣٩٩]

ثم مما يدل على أن إبراهيم أفضل من موسى الحديث الذي قال فيه: « وأخرت الثالثة ليوم يرحب إلى الخلق كلهم حتى إبراهيم ». رواه مسلم من حديث أبي بن كعب رضي الله عنه . وهذا هو المقام المحمود الذي أخبر عنه صلوات الله وسلامه عليه بقوله: « أنا سيد ولد آدم يوم القيمة ولا فخر » ، ثم ذكر استشفاع الناس بأدم ، ثم بنوح ، ثم إبراهيم ، ثم موسى ، ثم عيسى ، فكلهم يحيد عنها حتى يأتوا محمداً ﷺ فيقول: « أنا لها ، أنا لها » الحديث بتمامه .

وقال البخاري: حدثنا علي بن عبد الله ، حدثنا يحيى بن سعيد ، حدثنا عبد الله ، حدثني سعيد ، عن أبي هريرة قال: قيل: يا رسول الله ، من أكرم الناس؟ قال: « أكرمهم أتقاهم » ، فقالوا: ليس عن هذا نسألك ، قال: « فأكرم الناس يوسف نبي الله ، ابن نبي الله ابن نبي الله ابن خليل الله » ، قالوا: ليس عن هذا نسألك ، قال: « فمن معادن العرب تسألوني؟ » ، قالوا: نعم ، قال: « فخيارهم في الجاهلية خيارهم في الإسلام إذا فقهوا » [صحيح البخاري / ح ٣٣٨٣] .

وهكذا رواه البخاري في مواضع أخرى ومسلم والنسياني من طرق ، عن يحيى بن سعيد القطان ، عن عبد الله - وهو ابن عمر - العمري به .

ثم قال البخاري: قال أبوأسامة ومعتمر عن عبد الله ، عن سعيد ، عن أبي هريرة ، عن النبي ﷺ: قلت: وقد أستنده في موضع آخر من حدثهما ، وحديث عبيدة بن سليمان ، والنسياني من حديث محمد بن بشر ، أربعتهم عن عبد الله بن عمر ، عن سعيد ، عن أبي هريرة ، عن النبي ﷺ ولم يذكروا أباه .

وقال أحمد: حدثنا محمد بن بشر ، حدثنا محمد بن عمر ، حدثنا أبو سلمة ، عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الكريم ابن الكريم ابن الكريم يوسف بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم خليل الله». تفرد به أحمد [مستند أحمد/ ح ٨٣٩٩].

وقال البخاري: إسحاق بن منصور ، أخبرنا عبد الصمد ، حدثنا عبد الرحمن بن عبد الله ، عن أبيه ، عن ابن عمر ، عن النبي ﷺ قال: «الكريم ابن الكريم ابن الكريم ابن الكريم يوسف بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم». تفرد به من طريق عبد الرحمن بن عبد الله بن دينار ، عن أبيه ، عن ابن عمر به.

فأما الحديث الذي رواه الإمام أحمد: حدثنا يحيى ، عن سفيان ، حدثني مغيرة بن النعمان ، عن سعيد بن جبير ، عن ابن عباس ، عن النبي ﷺ: «يحسن الناس عراة غرلاً ، فأول من يكتسي إبراهيم عليه السلام» ، ثم قرأ: «كَمَا بَدَأْنَا أُولَئِكَ تَعْيَّدُونَ» فآخر جاه في الصحيحين من حديث سفيان الثوري وشعبة بن الحجاج ، وكلاهما عن مغيرة بن النعمان النخعي الكوفي ، عن سعيد بن جبير ، عن ابن عباس به (أحمد/ ح ١٩٥٠) والبخاري (ح ٣٣٤٩).

وهذه الفضيلة المعينة لا تقتضي الأفضلية بالنسبة إلى ما قبلها مما ثبت لصاحب المقام المحمود ، الذي يغبطه بالأولون والآخرون.

وأما الحديث الآخر الذي قاله الإمام أحمد: حدثنا وكيع وأبو نعيم ، حدثنا سفيان - هو الثوري - عن مختار بن فلفل ، عن أنس بن مالك ، قال رجل للنبي ﷺ: يا خير البرية ، فقال: «ذاك إبراهيم» فقد رواه مسلم من حديث الثوري وعبد الله بن إدريس ، وعلى بن مشهر ومحمد بن فضيل ، أربعتهم عن المختار بن فلفل [وانظر مستند أحمد/ ح ١٢٨٢٦].

وهذا من باب الهضم والتوضيح مع والده الخليل عليه السلام كما قال: «لا تفضلوني على الأنبياء» ، وقال: «لا تفضلوني على موسى ، فإن الناس يصعقون يوم القيمة ، فأكون أول من يفيق ، فأجد موسى باطشاً بقائمة العرش ، فلا أدرى أفاق قبلي أم جوزي بصعقة الطور؟».

وهذا كله لا ينافي ما ثبت بالتواتر عنه صلوات الله وسلامه عليه من أنه سيد ولد آدم يوم القيمة. وكذلك حديث أبي بن كعب في صحيح مسلم: «وأخرت الثالثة ليوم يرغب إلى الخلق كلهم حتى إبراهيم».

ولما كان إبراهيم عليه السلام أفضل الرسل وأولي العزم بعد محمد صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين ، أمر المصلي أن يقول في تشهده ، ما ثبت في الصحيحين من حديث كعب بن عجرة وغيره ، قال: قلنا: يا رسول الله.. هذا السلام عليك قد عرفناه ، فكيف الصلاة عليك؟ قال: «قولوا اللهم صل على محمد وعلى آل محمد كما صليت على إبراهيم

حدثني الحارث ، قال : حدثنا ابن سعد ، قال : أخبرنا هشام ، عن أبيه قال : فهاجر إبراهيم من بابل إلى الشأم فجاءته سارة ، فوهبت له نفسها فتزوجها ، وخرجت معه وهو يومند ابن سبع وثلاثين سنة ، فأتى حَرَانَ ، فأقام بها زماناً ، ثم أتى الأردن فأقام بها زماناً ، ثم خرج إلى مصر فأقام بها زماناً ، ثم رجع إلى الشأم فنزل السبع (أرض بين إيليا وفلسطين) واحتفر بئراً ، وبين مسجداً . ثم إن بعض أهل البلد آذاه فتحوّل من عندهم ، فنزل متزلاً بين الرملة وإيليا ، فاحتفر به بئراً أقام به ، وكان قد وُسّع عليه في المال والخدم ، وهو أول من أضاف الضيف ، وأول من ثرّد الشريد ، وأول من رأى الشيب .

قال : ولد لإبراهيم عليه السلام إسماعيل وهو أكبر ولده - وأمه هاجر وهي قبطية ، وإسحاق ، وكان ضرير البصر ، وأمه سارة ابنة بتويل بن ناخور بن ساروع بن أرغوا بن فالغ بن عابر بن شالخ بن أرفخشيد بن سام بن نوح - ومدن ، ومدين ، ويقسان ، وزمران ، وأسبق ، وسوح؛ وأمهن قنطورا بنت مقطور من العرب العاربة .

فأما يقسان فلحق بنوه بمكة ، وأقام مدن ومدين بأرض مدين ، فسميت به ، ومضى سائرهم في البلاد وقالوا لإبراهيم : يا أباانا أنزلت إسماعيل وإسحاق معك ، وأمرتنا أن ننزل أرض الغربية والوحشة ! فقال : بذلك أمرت ، قال : فعلّهم اسماءً من أسماء الله تبارك وتعالى ، فكانوا يستسقون به ويستنصرون ، فمنهم من نزل خراسان ، فجاءتهم الخزر فقالوا : ينبغي للذي علمكم هذا أن يكون خير أهل الأرض ، أو ملك الأرض ، قال : فسموا ملوكهم خاقان .

قال أبو جعفر : ويقال في يسبق : يسباق ، وفي سوح : ساح^(١) .

(٣١٠ / ٣١١)

وقال بعضهم : تزوج إبراهيم بعد سارة امرأتين من العرب ، إحداهما قنطورا بنت يقطان ، فولدت له ستة بنين ، وهم الذين ذكرنا ، والأخرى منها

= وعلى آل إبراهيم ، وبارك على محمد وعلى آل محمد كما باركت على إبراهيم وعلى آل إبراهيم ، إنك حميد مجيد» (البخاري ح ٤٧٩٧).

(١) ضعيف .

حجور بنت أرهير ، فولدت له خمسة بنين: كيسان ، وشورخ ، وأميم ، ولوطان ، ونافس^(١) . (٣١١ : ١) .

(١) ضعيف.

لقد ذكرنا الروايات في قصة أبوب في قسم الضعيف فليس فيها ما صح سنده وسنذكر هنا ما صح من أحاديث مرفوعة في قصة أبوب عليه السلام ولم يذكرها الطبرى في تاريخه: فقد أخرج البخارى في صحيحه/ كتاب الأنبياء/ باب قوله تعالى: «**وَأَبُوبَكَ إِذْ نَادَى رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِي الْضُّرُّ وَأَنَّتِ أَرْجُمُ الرَّجُمِ**» ح/٣٩١ وأحمد (ح ٨٦٥) عن أبي هريرة مرفوعاً (بينما أبوب يغسل عرياناً خر عليه جراد من ذهب فجعل يحيى في ثوبه فناداه ربه عز وجل: يا أبوب ، ألم أكن أغطيتك عمّا ترى؟ قال: بل يا رب ولكن لا غنى لي عن بركتك).

وفي رواية أخرى لأحمد من حديث أبي هريرة مرفوعاً: (لما عافى الله أبوب عليه السلام أمره عليه جرadaً من ذهب فجعل يأخذ بيده ويجعل في ثوبه قال: فقيل له يا أبوب أما تشبع؟! قال: يا رب ومن يشبع من رحمتك).

وقال ابن كثير: رواه ابن حبان في صحيحه عن عبد الله بن محمد الأزدي عن إسحاق بن راهويه عن عبد الصمد به ، ولم يخرجه أحد من أصحاب الكتب الستة وهو على شرط الصحيح والله أعلم. (البداية والنهاية ١/٣١١).

نَبِيُّ اللَّهِ أَبُوبَ عَلَيْهِ السَّلَامُ

وهو من الأنبياء المنصوص على الإيحاء إليهم في سورة النساء في قوله تعالى: «**إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَى نُوحٍ وَآلَّىٰئِنَّ مِنْ بَعْدِهِ وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطَ وَعِيسَىٰ وَأَبُوبَ**» الآية [٣١١].

قال الله تعالى: «**وَأَبُوبَكَ إِذْ نَادَى رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِي الْضُّرُّ وَأَنَّتِ أَرْجُمُ الرَّجُمِ**» فاستجأنا له فكثشفنا ما به، من ضُرٍّ وَآتَيْنَاهُ أَهْلَهُ وَمِنْهُمْ مَعَهُمْ رَحْمَةٌ مِّنْ عِنْدِنَا وَذَكَرَنَا لِلنَّبِيِّ [١٦٣].

وقال تعالى في سورة ص: «**وَإِذْ كُرْزَ عَدَنَّا أَبُوبَ إِذْ نَادَى رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِي الشَّيْطَانُ يُنْصِبُ عَدَائِبَ**» [٨٤].

وقال تعالى في سورة العنكبوت: «**وَهُبَّتْ لَهُ أَهْلَهُ وَمِنْهُمْ مَعَهُمْ رَحْمَةٌ مِّنَ وَذَكَرَ لِأَذْلَىٰ أَلَّا يَنْهَا وَحْدَهُ بِدِيكَ ضِعْنَاتٍ فَاصْبِرْ بِهِ، وَلَا لَحَّنْتَ إِنَّا وَجَدْنَاهُ صَابِرًا عَمَّا يَأْتِيهِ أَوْابَ**» [ص: ٤١ - ٤٤].

[ابن لؤلؤ بالمرض]:

وابتلبي في جسده بأنواع من البلاء ، وهو في ذلك كله صابر محتسب ، ذاكر الله عز وجل في ليله ونهاره وصباحه ومسائه.

وطال مرضه حتى عافه الجليس ، وأوحش منه الأنبياء ، وانقطع عنه الناس ، ولم يبق أحد يحنو عليه سوى زوجته ، كانت ترعى له حقه ، وتعرف قدیم إحسانه إليها وشفقته عليها. فكانت تتردد إليه فتصلح من شأنه ، وتعينه على قضاء حاجته ، وتقوم بمصلحته ، رضي الله =

عنها وأرضاها ، وهي صابرة معه على ما حل بهما من فراق المال والولد ، وما يختص بها من المصيبة بالزوج ، وضيق ذات اليد ، بعد السعادة والنعمة والخدمة والحرمة . فإنما الله وإنما إليه راجعون .

وقد ثبت في الصحيح أن رسول الله ﷺ قال : «أشد الناس بلاء الأنبياء ، ثم الصالحون ، ثم الأمثل فالأمثل» ، وقال : «يتلى الرجل على حسب دينه ، فإن كان في دينه صلابة زيد في بلائه». [أحمد/ ١٦٠٧] والترمذى (٢٣٩٨) وقال حسن صحيح .
ولم يزد هذا كله أىوب عليه السلام إلا صبراً واحتساباً وحمدًا وشكراً حتى إن المثل ليُضرب بصره عليه السلام ، ويُضرب المثل أيضاً بما حصل له من أنواع البلاء .

[شَفَاؤه]:

وقال ابن أبي حاتم : حدثنا أبو زرعة ، حدثنا عمرو بن مرزوق ، حدثنا همام ، عن قتادة ، عن النضر بن أنس ، عن بشير بن نهيك ، عن أبي هريرة ، عن النبي ﷺ قال : «لما عافى الله أىوب عليه السلام أمطر عليه جرadaً من ذهب ، فجعل يأخذ منه بيده و يجعل في ثوبه . قال : فقيل له : يا أىوب ، أما تشبع؟ قال : يا رب . ومن يشع من رحمتك؟». [أحمد/ ح ٧٣١٢].
وهكذا رواه الإمام أحمد عن أبي داود الطيالسي ، وعبد الصمد ، عن همام ، عن قتادة به .
ورواه ابن حبان في صحيحه ، عن عبد الله بن محمد الأزدي ، عن إسحاق بن راهويه ، عن عبد الصمد به ، ولم يخرجه أحد من أصحاب الكتب ، وهو على شرط الصحيح ، والله أعلم .

وقال الإمام أحمد : حدثنا سفيان ، عن أبي الزناد ، عن الأعرج ، عن أبي هريرة : أرسل الله على أىوب رجلاً من جراد من ذهب ، فجعل يقبحها في ثوبه ، فقيل : يا أىوب ، ألم يكفك ما أعطيناك؟ قال : أي رب ، من يستغني عن ذلك! هذا موقف ، وقد روى عن أبي هريرة من وجه مرفوعاً .

وقال الإمام أحمد : حدثنا عبد الرزاق : حدثنا معمراً ، عن همام بن منبه قال : هذا ما حدثنا أبو هريرة ، قال رسول الله ﷺ : «ينما أىوب يغتسل عرياناً خر عليه رجل جراد من ذهب ، فجعل أىوب يحيث في ثوبه ، فناداه ربه عز وجل : يا أىوب .. ألم أكن أغنتك عما ترى؟ قال : بلى يا رب ، ولكن لا غنى لي عن بركتك». [رواية البخاري من حديث عبد الرزاق به/ ح ٢٧٦].

وقوله : ﴿أَرْكَضْ بِرْجَلِك﴾ أي : اضرب الأرض برجلك ، فامثل ما أمر به ، فأنبئ الله عيناً باردة الماء ، وأمر أن يغتسل فيها ويشرب منها ، فأدبه الله عنه ما كان يجده من الألم والأذى ، والسعق والمرض ، الذي كان في جسده ظاهراً وباطناً ، وأبدله الله بعد ذلك كله صحة ظاهرة وباطنة ، وجمالاً تاماً ومالاً كثيراً ، حتى صب له من المال صباً ، وأخلف الله له أهله ، كما قال تعالى : ﴿وَإِنَّنَّهُ أَهْلَمْ وَمِنْهُمْ مَعَهُمْ﴾ ، وقوله : ﴿رَحْمَةً مِّنْ عِنْدِنَا﴾ أي رفعنا عنه =

شده ، وكشفنا ما به من ضر ، رحمة به ورأفة وإحساناً ، ﴿وَذِكْرَى لِلْعَنَيْدِينَ﴾ أي: تذكرة لمن ابتلي في جسده أو ماله أو ولده ، فله أسوة ببني الله أبوب ، حيث ابتلاه الله بما هو أعظم من ذلك فصبر واحتسب حتى فرج الله به . ١. هـ كلام الحافظ (بعد حذف للإسرائييليات واختصار).

نبیُّ اللہُ شعیب علیْہِ السَّلَامُ

[قصة مدين في القرآن]:

قال الحافظ ابن كثير رحمة الله :

قال الله تعالى في سورة الأعراف بعد قصة قوم لوط : ﴿وَإِنْ مَدِينَ أَخَاهُمْ شَعِيبًا قَالَ يَنْقُولُونَ أَعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٌ غَيْرُهُ فَذَجَأْتُمْ بِكُنْتَهُ مِنْ رَبِّكُمْ فَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْياءَهُمْ وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُّؤْمِنِينَ﴾ وَلَا تَقْعُدُوا بِكُلِّ صِرَاطٍ ثُوَّدُونَ وَتَصْدُونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ مَنْ أَمْرَنَتْ بِهِ وَتَنْهَيُونَهَا عَوْجًا وَذَكَرُوا إِذْ كُنْتُمْ قَبْلًا فَكَرَّكُمْ وَأَنْظَرُوا كَيْفَ كَانَ عَنْقِيَّةُ الْمُفْسِدِينَ﴾ وَإِنْ كَانَ طَائِفَةً مِنْ كُمْ أَمْتَأْنَا بِالْيَوْمِ أَرْسَلْتُ بِهِ وَطَائِفَةً لَمْ يَرْمُمُوا فَاصْرِفُوا حَنَّ يَغْكُمُ اللَّهُ يَبْنَنَا وَهُوَ خَيْرُ الْخَاتِمِينَ﴾ ﴿فَالْمَلَأُ الَّذِينَ أَسْتَكَرُوا مِنْ قَوْمِهِ لَهُرْجَمَكَ يَسْعِيُهُ وَالَّذِينَ أَمْتَأْنَا مَعَكَ مِنْ قَرِيبِنَا أَوْ لَمْ يَعُودُنَّ فِي مَدِينَ قَالَ أَلَوْ كُنَّا كَرْهِينَ﴾ قَدْ أَفْرَيْنَا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا إِنْ عَدَنَا فِي مِلْكُكُمْ بَعْدَ إِذْ جَنَّتْنَا اللَّهَ مِنْهَا وَمَا يَكُونُ لَنَا أَنْ نَعُودُ فِيهَا إِلَّا أَنْ يَسْأَهَ اللَّهُ رِبِّنَا وَسَعَ رِبِّنَا كُلَّ شَيْءٍ عَلَيْهَا إِنَّ اللَّهَ عَلَى الْأَنْعَمِ تَوْكِلَنَا رِبِّنَا أَفْسَحَ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِالْحَقِّ وَأَنَّتْ خَيْرُ الْقَنِيْمِينَ﴾ وَقَالَ اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ لَئِنْ آتَيْنَاهُمْ شَعِيبًا إِنَّكُمْ إِذَا الْخَيْرُونَ﴾ فَأَخَذَنَهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَثِيْمِينَ﴾ الَّذِينَ كَذَبُوا شَعِيبًا كَانُوا لَمْ يَفْتَنُوهُمْ فَيَأْتُوكُمْ رِسَالَتِ رَبِّنَ وَنَصَّحْتُ لَكُمْ فَكَيْفَ إِأَسَى عَلَى قَوْمِكَفِيرِنَ﴾ [الأعراف: ٨٥ - ٩٣].

وقال في سورة هود بعد قصة قوم لوط أيضاً : ﴿وَإِنْ مَدِينَ أَخَاهُمْ شَعِيبًا قَالَ يَنْقُولُونَ أَعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٌ غَيْرُهُ وَلَا تَنْقُصُوا الْمِكَالَ وَالْمِيزَانَ إِنِّي أَرْكُمْ بِخَيْرٍ وَإِنِّي أَنَّفَعُكُمْ عَدَابَ يَوْمٍ مُّحِيطٍ﴾ وَيَنْقُولُونَ أَوْفُوا الْمِكَالَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْياءَهُمْ وَلَا تَعْوِزُوا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾ يَقِيْتُ اللَّهُ خَيْرًا لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُّؤْمِنِينَ وَمَا أَنَا عَيْنَكُمْ بِحَفِيْظٍ﴾ قَالَوْا يَسْعِيْبُ أَصْلَوْنَكَ تَأْمُرُكَ أَنْ تَنْزِلَكَ مَا يَعْلَمُ إِنَّا أَنَّا وَأَنَّنَّا فَعَلَ فِي أَمْوَالِنَا مَا شَتَّنَا إِنَّكَ لَأَنَّ الْحَلِيمُ الرَّشِيدُ﴾ قَالَ يَنْقُولُونَ أَرْبَعَةَ شَيْءَهُ إِنْ كُنْتَ عَلَى بَيْنَهُ مِنْ رَبِّنَ وَرَدَقَنِي مِنْهُ رِزْقًا حَسَنًا وَمَا أَرِيدُ أَنْ أَخَالَنَكُمْ إِلَى مَا آتَنَهُنَّكُمْ عَتَّهُ إِنْ أَرِيدُ إِلَّا إِنْصَافَ مَا أَسْتَطَعْتُ وَمَا تَوْفِيقَ إِلَّا بِاللَّهِ عَلَيْهِ تَوْكِلَتْ وَإِلَيْهِ أُبَشِّرُ﴾ وَيَنْقُولُ لَا يَجْرِي مَنْكُمْ شَفَاقَ إِنْ يُصْبِيَكُمْ مِثْلَ مَا أَصَابَ قَوْمَ نُوحَ أَوْ قَوْمَ هُوَدَ أَوْ قَوْمَ صَلِيْحَ وَمَا قَوْمُ لُوطَ مَنْكُمْ يَسْعِيْدَ وَيَنْقُولُ وَرَبِّكُمْ شَمْ نُوبِرَا إِلَيْهِ إِنْ رَفِيْقَ رَجِيمَ وَدَمْدُودَ﴾ قَالُوا يَنْسَعِيْبُ مَا نَفَقَهُ

كثيراً مَا نَقُولُ وَإِنَّا لِرَبِّنَا صَوِيفاً وَلَوْلَا رَهْطُكَ لَرَجَنَتْكَ وَمَا أَنْتَ عَيْشَنَا بَعْزِيزِ [١١] قَالَ يَنْقُومُ أَرْهَطِي
أَعْزُّ عَلَيْكُمْ مِنْ أَنْ أَلْوَأَ وَأَخْذُ شَوْهَةَ وَرَاءَ كُمْ ظَهَرِي إِنَّ رَبِّي بِمَا تَعْمَلُونَ مُحْسِنٌ [١٢] وَيَنْقُومُ أَغْمَلُوا عَلَى
مَكَانَتِكُمْ إِنِّي عَيْلُ سُوقٍ تَعْلَمُونَ مَنْ يَأْتِيهِ عَذَابٌ بِخُزْيِهِ وَمَنْ هُوَ كَذِبٌ وَأَرْتَبِيوا إِنِّي
مَعَكُمْ رَقِيبٌ [١٣] وَلَمَّا جَاءَهُ أَمْرُنَا بِعِيشَنَا شَعِيفَا وَالَّذِينَ أَمْنَوْا مَعْلُوماً بِرَحْمَةِ مَنَا وَأَخْدَتَ الَّذِينَ طَلَمُوا الصَّيْحَةَ
فَأَصْبَحُوا فِي دِيْرِهِمْ جَنِشِينَ [١٤] كَانَ لَرِيَّنَا فِي هَا أَلْبَعَدَ لِمَدِينَ كَمَا بَعَدَتْ تَمُودُهُ [هود: ٨٤ - ٩٥].
وقال في الحجر بعد قصة قوم لوط أيضاً: «وَإِنْ كَانَ أَخْبَثُ الْأَيْكَةَ لَظَلَمِيْنَ [١٥] فَانْقَمَنَا مِنْهُمْ وَلَاهُمَا
لِيَأْمَمِيْنَ [١٦]». وقال تعالى في الشعراء بعد قصتهم: «كَذَبَ أَخْبَثَ لَتِيْكَوَ الْمَرْسَلِيْنَ [١٧] إِذْ قَالَ
هُنْ شَعِيفُ الْأَنْتَقُونَ [١٨] إِلَيْكُمْ رَسُولُ أَمِينٍ [١٩] فَانْقَوْا اللَّهُ وَأَطْبِعُونَ [٢٠] وَمَا أَسْنَاكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَحْرَى إِلَّا
عَلَى رَبِّ الْعَالَمِيْنَ [٢١] أَوْفُوا الْكِيلَ وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُحْسِرِيْنَ [٢٢] وَرِبُّوْيَا لِلْفَسْطَاطِ الْمُسْتَقِيمِ [٢٣] وَلَا تَبْحَسُوا
أَنَّاسٌ أَشْيَاهُهُرُ وَلَا تَنْتَزُوْ فِي الْأَرْضِ مُفْسِيْنَ [٢٤] وَانْقَوْا لَهُرِيَّ خَلْقَكُمْ وَالْجِلَّةَ الْأَوَّلِيْنَ [٢٥] فَالْأَوْلَى إِنَّمَا أَنَّ مِنَ
الْمُسْخَرِيْنَ [٢٦] وَمَا أَنَّ إِلَّا شَرُّ مِنْلَأَ وَإِنْ أَطْنَكَ لِمَنِ الْكَذِبِيْنَ [٢٧] فَأَسْقَطَ عَلَيْنَا كَسْفَأَمِنَ السَّاءِ إِنْ كُنَّكَ
مِنَ الْأَصْنَدِقِيْنَ [٢٨] قَالَ رَبِّيْ أَغْمَنِيْمَا تَعْمَلُونَ [٢٩] كَذِبُوكَ فَأَخْذَهُمْ عَذَابٌ يَوْمَ الظُّلَّةِ إِنَّهُ كَانَ عَذَابَ يَوْمِ
عَظِيمٍ [٣٠] إِنَّ فِي ذَلِكَ لَكَيْهِ وَمَا كَانَ أَكْرَهُمُ مُؤْمِنِيْنَ [٣١] وَإِنَّ رَبِّكَ هُوَ الْعَرِيزُ الرَّحِيمُ [الشعراء:
١٧٦ - ١٩١].

[مدین وشعیب]:

كان أهل مدین قوماً عرباً يسكنون مدینتهم «مدین» التي هي قرية من أرض معان من أطراف الشام ، مما يلي ناحية الحجاز قريباً من بحيرة قوم لوط ، وكانوا بعدهم بمدة قرية ، ومدین قبيلة عُرفت بهم ، وهم منبني مدین بن إبراهيم الخليل . وشعیب نبیهم هو ابن میکیل بن یشجن . وذکرہ ابن إسحاق .

قال : ويقال له بالسريانية «یترون» وفي هذا نظر . ويقال : شعیب بن یشخر بن لاوی بن یعقوب ، ويقال : شعیب بن نوبن عیفا بن مدین بن ابراهیم ، ويقال : شعیب بن صیفر بن عیفا بن ثابت بن مدین بن ابراهیم ، وقيل غير ذلك في نسبة . قال ابن عساکر : ويقال جدته ، ويقال : أمه ، بنت لوط . وكان من آمن بابراهیم وهاجر معه ودخل معه دمشق .

وعن وهب بن منبه أنه قال : شعیب وملغم من آمن بابراهیم يوم أحرق بالنار ، وهاجر معه إلى الشام ، فزوجهما بنتي لوط عليه السلام . ذکرہ ابن قتيبة . وفي هذا كله نظر ، والله تعالى أعلم .

وذكر أبو عمر بن عبد البر في الاستیعاب في ترجمة سلمة بن سعد العتزي : أنه قدم على رسول الله ﷺ فأسلم وانتسب إلى عنزة ، فقال : «نعم الحي عنزة ، مبغى عليهم منصورون رهط شعیب وأختان موسی». =

فلو صح هذا الدل على أن شعیباً صهر موسی وأنه من قبيلة من العرب العاربة يقال لهم عنزة ،

لَا أَنْهُمْ مِنْ عَزَّةٍ بْنَ أَسْدٍ بْنَ رِبِيعَةَ بْنَ نَزَارٍ بْنَ مَعْدٍ بْنَ عَدْنَانٍ ، فَإِنْ هُؤُلَاءِ بَعْدَهُ بَدْهُ طَوِيلٌ ،
وَاللَّهُ أَعْلَمُ .

وَفِي حَدِيثِ أَبِي ذِرٍ الَّذِي فِي صَحِيفَةِ ابْنِ حَبَّانَ فِي ذِكْرِ الْأَنْبِيَاءِ وَالرَّسُولِ قَالَ : « أَرْبَعَةُ مِنْ
الْعَرْبِ : هُودٌ وَصَالِحٌ وَشَعِيبٌ وَنَبِيُّكُمْ يَا أَبَا ذِرٍ ». وَكَانَ بَعْضُ السَّلْفِ يُسَمِّي شَعِيبًا « خَطِيبَ
الْأَنْبِيَاءِ » وَيُعْنِي لِفَصَاحَتِهِ وَعَلُوِّ عَبَارَتِهِ وَبِلَاغَتِهِ فِي دُعَائِيَّةِ قَوْمِهِ إِلَى الإِيمَانِ بِرِسَالَتِهِ .

وَقَدْ رُوِيَ أَبْنُ إِسْحَاقَ بْنَ بَشَرٍ عَنْ جَوَيْبِرِ وَمُقَاتِلٍ ، عَنِ الْفَضَّحَاكِ ، عَنْ أَبْنِ عَبَاسٍ قَالَ : كَانَ
رَسُولُ اللَّهِ ﷺ إِذَا ذَكَرَ شَعِيبًا قَالَ : « ذَاكُمْ خَطِيبُ الْأَنْبِيَاءِ ». وَكَانَ أَهْلُ مَدِينَ كَفَارًا يَقْطَعُونَ
السَّبِيلَ وَيَخْفِفُونَ الْمَارَةَ ، وَيَعْبُدُونَ الْأَيْكَةَ ، وَهِيَ شَجَرَةٌ مِنَ الْأَيْكَةِ حَوْلَهَا غَيْضَةٌ مُلْتَفِتَةٌ
بَهَا . وَكَانُوا مِنْ أَسْوَأِ النَّاسِ مُعَامَلَةً ، يَبْخَسُونَ الْمَكَيَّالَ وَالْمِيزَانَ ، وَيَطْفَفُونَ فِيهَا ، وَيَأْخُذُونَ
بِالْزَّائِدِ وَيَدْفَعُونَ بِالنَّاقْصِ . فَبَعَثَ اللَّهُ فِيهِمْ رَجُلًا مِنْهُمْ وَهُوَ رَسُولُ اللَّهِ شَعِيبٌ عَلَيْهِ السَّلَامُ
فَدَعَاهُمْ إِلَى عِبَادَةِ اللَّهِ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ ، وَنَهَاهُمْ عَنِ تَعَاطِيِّ هَذِهِ الْأَفْاعِيلِ الْقَبِيْحَةِ مِنْ بَخْسِ
النَّاسِ أَشْيَاءِهِمْ ، وَإِخْافَتِهِمْ لَهُمْ فِي سُبْلِهِمْ وَطَرَقَاتِهِمْ ، فَامْنَأْنَ بِعَصْبِهِمْ وَكَفَرُ أَكْثَرَهُمْ ، حَتَّى
أَحْلَلُ اللَّهُ بِهِمُ الْبَأْسَ الشَّدِيدَ ، وَهُوَ الْوَلِيُّ الْحَمِيدُ .

كَمَا قَالَ تَعَالَى : « وَإِلَئِي مَدِينَتِ أَنَّهُمْ شَعِيبَةٌ قَالَ يَقُولُمْ أَعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مَنْ إِلَيْهِ غَيْرُهُ قَدْ
جَاءَتُكُمْ بِكِتَنَةٍ مِنْ رَيْكُمْ » أي دلالة وحججة واضحة ، وبرهان قاطع على صدق
ما جئتكم به وأنه أرسلني ، وهو ما أجري الله على يديه من المعجزات التي لم ينقل إليها
تفصيلها ، وإن كان هذا اللفظ قد دخل عليها إجمالاً .

« فَأَوْفُوا الْمَكَيَّلَ وَالْمِيزَانَ وَلَا تَبْخَسُوا الْكَاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ
إِصْلَاحِهَا ». أَمْرُهُمْ بِالْعَدْلِ وَنَهَاهُمْ عَنِ الظُّلْمِ ، وَتَوْعِدُهُمْ عَلَى خَلَافَ ذَلِكَ قَالَ :
« ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ » ﴿٦﴾ وَلَا تَقْعُدُوا بِكُلِّ صَرَاطٍ » أي : طريق ،
« ثُوعَكُدُورُوكَ » أي : تَوْعِدُونَ النَّاسَ بِأَخْذِ أُمُوْلِهِمْ مِنْ مَكْوُسٍ وَغَيْرِ ذَلِكَ وَتَخْفِفُونَ السُّبْلِ .
قَالَ السَّدِيْدُ فِي تَفْسِيرِهِ عَنِ الصَّحَابَةِ : « وَلَا تَقْعُدُوا بِكُلِّ صَرَاطٍ ثُوعَكُدُورُوكَ » أي أَنَّهُمْ كَانُوا
يَأْخُذُونَ الْعُشُورَ مِنْ أَمْوَالِ الْمَارَةِ . وَقَالَ إِسْحَاقُ بْنُ بَشَرٍ عَنْ جَوَيْبِرِ ، عَنِ الْفَضَّحَاكِ ، عَنْ أَبْنِ
عَبَاسٍ قَالَ : كَانُوا قَوْمًا طَعَاءً يَجْلِسُونَ عَلَى الطَّرِيقِ ، يَبْخَسُونَ النَّاسَ ، يَعْنِي يَعْشُرُونَهُمْ ،
وَكَانُوا أُولَئِكَ مِنْ سِنِّ ذَلِكَ .

« وَنَصَدُورُوكَ عَنْ سِكِيلِ اللَّهِ مَنْ ءَامَنَ بِهِ ، وَتَبْغُونَهُ كَا عَوْجَأَ » نَهَاهُمْ عَنْ قَطْعِ الطَّرِيقِ الْحُسْنِيةِ
الْدِنْيُوِيَّةِ ، وَالْمَعْنَوِيَّةِ الدِّينِيَّةِ .

« وَأَذْكُرُوكَ إِذْ كُنْتُمْ قَلِيلًا فَكَثُرُوكَ وَأَنْظُرُوكَ كَيْفَ كَانَ عَيْقَبَةُ الْمُقْسِدِينَ » ذَكْرُهُمْ
بِنَعْمَةِ اللَّهِ تَعَالَى عَلَيْهِمْ فِي تَكْثِيرِهِمْ بَعْدَ الْقَلْتَةِ ، وَحَذَرُهُمْ نَعْمَةُ اللَّهِ بِهِمْ إِنْ خَالَفُوا مَا أَرْشَدَهُمْ
إِلَيْهِ وَدَلَّهُمْ عَلَيْهِ . كَمَا قَالَ لَهُمْ فِي الْقَصَّةِ الْأُخْرَى : « وَلَا تَنْقُصُوا الْمَكَيَّالَ وَالْمِيزَانَ إِنِّي
أَرِنُكُمْ خَيْرًا وَإِنِّي أَخَافُ عَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ مُحِيطٍ » أي : لَا تَرْكُبُوا مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ وَتَسْتَمِرُوا =

فيه فيمحق الله بركة ما في أيديكم ، ويفقركم ويذهب ما به يغنيكم . وهذا مضاد إلى عذاب الآخرة ، ومن جمع له هذا وهذا ، فقد باء بالصفرقة الخاسرة !

فنهام أولًا عن تعاطي ما لا يليق من التطفيف وحدرهم سلب نعمة الله عليهم في دنياهم ، وعدايه الأليم في آخرهم ، وعنهما أشد تعنيف . ثم قال لهم أمراً بعدما كان عن صده زاجراً : ﴿ وَيَقُولُونَ أَوْفُوا الْمِكَالَ وَالْمِيزَانَ إِلَيْهِ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاهُهُمْ وَلَا تَعْنَزُونَ أَرْضَ مُسْدِينَ ﴾ بِقَيْتَ اللَّهُ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ وَمَا أَنَا عَنِّيْكُمْ بِحَفِيْظٍ ۝ .

قال ابن عباس والحسن البصري : ﴿ بِقَيْتَ اللَّهُ خَيْرٌ لَكُمْ ۝﴾ أي : رزق الله خير لكم من أخذ أموال الناس . وقال ابن حجر : ما يفضل لكم من الربح بعد وفاء الكيل والميزان : خير لكم من أخذ أموال الناس بالتطفيف . قال : وقد روى هذا عن ابن عباس .

وهذا الذي قاله وحكاه حسن ، وهو شبيه بقوله تعالى : ﴿ قُلْ لَا يَسْتَوِي الْخَيْثُ وَالظَّيْبُ وَلَا أَغْجَبُكَ كُثْرَةُ الْخَيْثُ ۝﴾ يعني أن القليل من الحلال خير لكم من الكثير من الحرام ، فإن الحلال مبارك وإن قل ، والحرام ممحوق وإن كثر ، كما قال تعالى : ﴿ يَمْحَقُ اللَّهُ أَرْبَوَا وَيُرِيْ ۝ أَصَدَقَتْ ۝﴾ .

وقال رسول الله ﷺ : «إن الربا وإن كثر فain مصيره إلى قل» رواه أحمد . أي إلى قلة . وقال رسول الله ﷺ : «البيعان بالخيار ما لم يتفرق فain صدقها وبينا بورك لهما في بيعهما ، وإن كتما وكذبا محققت بركة بيعهما». [مسند أحمد ٣٧٥٤ و٥٣١٤] و[البخاري ٣٤/١٩-٤٢].

والمقصود أن الربح الحلال مبارك فيه وإن قل ، والحرام لا يجدي وإن كثر . ولهذا قال النبي الله شعيب : ﴿ بِقَيْتَ اللَّهُ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ۝﴾ . و قوله : ﴿ وَمَا أَنَا عَنِّيْكُمْ بِحَفِيْظٍ ۝﴾ أي افعلاوا ما أمركم به ابغاء وجه الله ورجاء ثوابه ، لا لأراكم أنا وغيري .
 ﴿ قَاتُلُوا إِشْعَاعِبَ أَصْلَوْنُكَ تَأْمُرُكَ أَنْ تَنْتَرِكَ مَا يَعْبُدُ أَبَاؤُنَا أَنْ تَقْعُلَ فِي أَمْوَالِنَا مَا نَشَتَّأْنُ إِنَّكَ لَأَنَّ الْحَلِيمُ الْرَّشِيدُ ۝﴾ يقولون هذا على سبيل الاستهزاء والتقصص والتهكم : أصلاتك هذه التي تصليها ، هي الامر لك بأن تحجر علينا فلا نعبد إلا إلهك ؟ وترك ما يعبد أبواؤنا الأقدمون وأسلافنا الأولون ؟ أو لا نتعامل إلا على الوجه الذي ترضيه أنت ، وترك المعاملات التي تاباها ، وإن كنا نحن نرضها ؟ .

﴿ إِنَّكَ لَأَنَّ الْحَلِيمُ الْرَّشِيدُ ۝﴾ قال ابن عباس وميمون بن مهران وابن جرير وزيد بن أسلم وابن حجر : يقول ذلك أعداء الله على سبيل الاستهزاء .

﴿ قَالَ يَقُولُ أَرْبَيْشَرَ إِنْ كُنْتُ عَلَىٰ بَيْتَنِي مِنْ رَّقِ وَرَزْقِنِي مِنْ رِزْقًا حَسَنًا وَمَا أُرِيدُ أَنْ أَحَالَنَّكُمْ إِلَىٰ مَا أَنْهَنَّكُمْ عَنْهُ إِنْ أُرِيدُ إِلَّا إِلَيْهِ مَا أَسْطَعْتُ وَمَا تَوَفَّقُ إِلَّا يَأْتِيَهُ تَوْكِيدٌ وَإِنَّهُ أَبِيْشَرٌ ۝﴾ . هذا تلطف معهم في العبارة ، ودعوة لهم إلى الحق بأبين إشارة . يقول لهم : أرأيتم أيها المكذبون ﴿ إِنْ كُنْتُ عَلَىٰ بَيْتَنِي مِنْ رَّقِ ۝﴾ أي على أمر بين من الله تعالى أنه أرسلني إليكم ، ﴿ وَرَزْقَنِي مِنْ رِزْقًا حَسَنًا ۝﴾ يعني النبوة والرسالة ، يعني وعمي عليكم معرفتها ، فـأـيـ حـيـلةـ لي =

فيكم؟ وهذا كما تقدم عن نوح عليه السلام أنه قال لقومه سواء.

وقوله: «وَمَا أَرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَى مَا أَنْهَاكُمْ عَنْهُ» أي لست أمركم بالأمر إلا وأنا أول فاعل له ، وإذا نهيتكم عن الشيء فأنا أول من يتركه .

وهذه هي الصفة المحمودة العظيمة ، وضدتها هي المردودة الذميمة ، كما تلبس بها علماء بني إسرائيل في آخر زمانهم ، وخطباؤهم الجاهلون ، قال تعالى: «أَنَّا مُرْسَلُونَ أَنَّا نَسَّاسٌ يَأْتِيُّنَا وَنَسَّوْنَا أَنْفُسَكُمْ وَأَنْتُمْ تَنْتَلُونَ الْكِتَابَ أَفَلَا تَعْقُلُونَ» وذكرنا عندها في الصحيح عن رسول الله ﷺ أنه قال: «يُؤْتَى بالرجل فيلقى في النار فتندلق أقتاب بطنه - أي تخرج أمعاؤه من بطنه - فيدور بها كما يدور الحمار برحاه ، فيجمع أهل النار فيقولون: يا فلان ، مالك؟ ألم تكن تأمر بالمعروف وتحرم المنكر؟ فيقول: بلى ، كنت أمر بالمعروف ولا آتى به ، وأنهى عن المنكر وآتى». [صحيح البخاري / ح ٣٢٦٧ و [مسلم ٥٨/٢٩٨٩].

وهذه صفة مخالفي الأنبياء من الفجار والأشقياء ، فأما السادة من النجباء ، والأباء من العلماء ، الذين يخشون ربهم بالغيب ، فحالهم كما قال النبي الله شعيب: «وَمَا أَرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَى مَا أَنْهَاكُمْ عَنْهُ إِنْ أَرِيدُ إِلَّا إِلَيْهِ الْإِصْلَاحُ مَا أَسْتَطَعْتُ» أي: ما أريد في جميع أمري إلا الإصلاح في الفعال والمقال بجهدي وطاقتى . «وَمَا تَرَقِيقِي» أي في جميع الأحوال «إِلَيْهِ اللَّهُ عَلَيْهِ تَوْكِيدُ وَإِلَيْهِ أُنْتَهُ» أي عليه أتوكل في سائر الأمور ، وإليه مرجعى ومصيرى في كل أمري . وهذا مقام ترغيب .

ثم انتقل إلى نوع من الترهيب فقال: «وَيَقُولُ لَا يَجِدُ مَنَّكُمْ شَفَاقًا أَنْ يُصِيبَكُمْ بِمِثْلِ مَا أَصَابَ قَوْمًا نُوحًا قَوْمًا هُودًا قَوْمًا صَلِحًا وَمَا قَوْمُ لُوطٍ مِنْكُمْ بِيَعْيِدُ» .

أي لا يحملنكم مخالفتي وبغضكم ما جنتم به على الاستمرار على ضلالكم وجهلكم ومخالفتكم ، فيحل الله بكم من العذاب والنkal ، نظير ما أحله بمنظرائكم وأشباهكم ، من قوم نوح وقوم هود وقوم صالح من المكذبين المخالفين .

وقوله: «وَمَا قَوْمُ لُوطٍ مِنْكُمْ بِيَعْيِدُ» قيل معناه: في الزمان ، أي ما بالعهد من قدم ، مما قد بلغتكم ما أحل بهم على كفرهم وعتهم . وقيل معناه: وما هم منكم ببعيد في المحلة والمكان . وقيل: في الصفات والأفعال المستقبحات ، من قطع الطريق ، وأخذ أموال الناس جهراً وخفيه بأنواع الحيل والشبهات .

والجمع بين هذه الأقوال ممكن ، فإنهم لم يكونوا بعيدين منهم لا زماناً ولا مكاناً ولا صفات .

ثم مزج الترهيب بالترغيب فقال: «وَأَسْتَغْفِرُ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيَّ إِنَّ رَبَّكَ رَحِيمٌ وَدُودٌ» أي: أفلعوا عما أنتم فيه ، وتوبوا إلى ربكم الرحيم الوود ، فإنه من تاب إليه تاب عليه ، فإنه رحيم بعباده ، أرحم بهم من والده بولدها: «وَدُودٌ» وهو الحبيب ، ولو بعد التوبة على =

عبدة ، ولو من الموبقات العظام . ﴿ قَالُوا يَسْعِيْتُ مَا نَفَقَةً كَثِيرًا مِّمَّا نَقُولُ وَإِنَّا لَنَرِيكَ فِينَا ضَعِيفًا ۚ ﴾

روي عن ابن عباس وسعيد بن جبیر والثوري أنهم قالوا : كان ضریر البصر . وقد رُوی في حديث مرفوع : أنه بكى من حب الله حتى عمي ، فرد الله عليه بصره ، وقال : « يا شعيب .. أتبكي خوفا من النار ؟ أو من شوقك إلى الجنة ؟ فقال : بل من محبتك ، فإذا نظرت إليك فلا أبالني ماذا يصنع بي ، فأوحى الله إليه : هيئنا لك يا شعيب لقائي ، فلذلك أخذمتك موسى بن عمران كليمي » .

رواه الواحدی عن أبي الفتح محمد بن علي الكوفي ، عن علي بن الحسن بن بندار ، عن عبد الله محمد بن إسحاق الرملي ، عن هشام بن عمار ، عن إسماعيل بن عباس ، عن يحيى بن سعيد ، عن شداد بن أوس ، عن النبي ﷺ بنحوه . وهو غريب جدا ، وقد ضعفه الخطيب البغدادي .

وقولهم : ﴿ وَلَوْلَا رَهْطُكَ لَرَجَنَتَكَ وَمَا أَنْتَ عَيَّنَنَا بِعَزِيزٍ ﴾ هذا من كفرهم البليغ ، وعナدهم الشنبع ، حيث قالوا : ﴿ مَا نَفَقَةً كَثِيرًا مِّمَّا نَقُولُ ﴾ أي : ما نفهمه ولا نعقله ، لأننا لا نحبه ولا نريده ، وليس لنا همة إليه ، ولا إقبال عليه . وهو كما قال كفار قريش لرسول الله ﷺ : ﴿ وَقَاتُلُونَا فِي أَكْيَنَةٍ مَمَّا نَدَعُونَا إِلَيْهِ وَفِي مَا ذَاتَنَا وَفِرْ وَمِنْ بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ حِجَابٌ فَأَعْمَلُ إِنَّا عَمِلُونَ ﴾ .

وقولهم : ﴿ وَإِنَّا لَنَرِيكَ فِينَا ضَعِيفًا ﴾ أي : مضطهدًا مهجورا ، ﴿ وَلَوْلَا رَهْطُكَ ﴾ أي : قبيلتك وعشيرتك فينا ﴿ لَرَجَنَتَكَ وَمَا أَنْتَ عَيَّنَنَا بِعَزِيزٍ ﴾ .

﴿ قَالَ يَنْقُومُ أَرْهَطِي أَعْزُ عَيَّنَكُمْ مِّنْ أَنَّ اللَّهَ ﴾ أي : تخافون قبيلتي وعشيرتي وترعونني بسبهم ، ولا تخافون عذاب الله ؟ ولا ترعنوني لأنني رسول الله ؟ فصار رهطي أعز عليكم من الله : ﴿ وَأَنْخَذْتُمُوهُ وَرَأَءُكُمْ ظَهَرِيًّا ﴾ أي : جانب الله وراء ظهوركم ﴿ إِنَّ رَقِّي بِمَا عَمَلْنَاهُ مُحِيطٌ ﴾ أي : هو عليكم بما تعملونه وما تصنونه ، محيط بذلك كله ، وسيجزيكم عليه يوم ترجمون إلى الله .

﴿ وَيَنْقُومُ أَعْمَلُوا عَلَى مَكَانَتِكُمْ إِنَّ عَنِيلًا سَوْفَ تَعْلَمُونَ مَنْ يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَمَنْ هُوَ كَذِيبٌ وَأَرْتَقِبُو إِنَّ مَعَكُمْ رَقِيبٌ ﴾ . هذا أمر تهديد شديد ووعيد أكيد ، بأن يستمروا على طريقتهم ومنهجهم وشاكلتهم ، فسوف تعلمون من تكون له عاقبة الدار ومن يحل عليه الهلاك والبارود : ﴿ مَنْ يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ ﴾ أي في هذه الحياة الدنيا ﴿ وَيَجْلِي عَلَيْهِ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ﴾ أي في الآخرة ﴿ وَمَنْ هُوَ كَذِيبٌ ﴾ أي مني ومنكم فيما أخير وبشر وحدر . ﴿ وَأَرْتَقِبُو إِنَّ مَعَكُمْ رَقِيبٌ ﴾ هذا كقوله : ﴿ وَإِنْ كَانَ كَانَ طَالِفَكَهُ مِنْكُمْ مَاءْمُوا يَالَّذِي أَرْسَلْتُ يَهُ وَطَالِفَهُ لَمْ يَرْقِمُوا فَاصْبِرُوا وَحَتَّى يَحْكُمَ اللَّهُ بَيْنَنَا وَهُوَ خَيْرُ الْحَكَمِينَ ﴾ .

﴿ قَالَ الْمَلَائِكَةُ أَسْتَكِبُرُوا مِنْ قَوْمِهِ لَنُرْجِعَنَّكَ يَسْعِيْتُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَكَ مِنْ قَرِيبَنَا أَوْ تَأْتُعُودُنَّ فِي مَيْتَنَا قَالَ أَوْلَوْ كُمَا كَرِهِنَ ﴿ قَدْ أَفْرَيْنَا عَلَى اللَّهِ كَذِيبًا إِنْ عَذَنَا فِي مَلَيْكُمْ بَعْدَ إِذْ بَعَنَّا اللَّهَ مِنْهَا وَمَا يَكُونُ لَنَا أَنْ نَعُودَ ﴾

فِيهَا إِلَّا أَن يَشَاءُ اللَّهُ رَبُّنَا وَسَعَ رَبِّنَا كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا رَبِّنَا أَفْسَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِالْحَقِّ وَأَنَّ حَسْدَ الْفَتَنِينَ .

طلبو بزعمهم أن يردوا من آمن منهم إلى ملتهم ، فانتصب شعيب للمحاجة عن قومه فقال : **«أَوْلَوْ كُلَا كَرِهِينَ» أي هؤلاء لا يعودون إليكم اختياراً ، وإنما يعودون إليكم إن عادوا ، اضطراراً مكرهين ، وذلك لأن الإيمان إذا خالطت بشاشته القلوب لا يسخطه أحد ، ولا يرتد أحد عنه ، ولا محيد لأحد منه.**

ولهذا قال : **«فَإِنْتَنَا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا إِنْ عَذَّنَا فِي مَلْكِكُمْ بَعْدَ إِذْ جَنَّتَنَا اللَّهُ مِنْهَا وَمَا يَكُونُ لَنَا أَنْ نَعُودُ فِيهَا إِلَّا أَنْ يَشَاءُ اللَّهُ رَبُّنَا وَسَعَ رَبِّنَا كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا» أي فهو كافينا ، وهو العاصم لنا وإليه ملحوظنا في جميع أمورنا .**

ثم استفتح على قومه ، واستنصر ربه عليهم في تعجيز ما يستحقونه إليهم فقال : **«رَبِّنَا أَفْتَنَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِالْحَقِّ وَأَنَّ حَسْدَ الْفَتَنِينَ» أي الحاكمين . فدعوا عليهم ، والله لا يرد دعاء رسوله إذا استنصروه على الذين جحدوا وكفروه وخالفوه . ومع هذا صمموا على ما هم عليه مشتملون ، وبه متلبسون : **«وَقَالَ الْلَّهُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِنَا لِئِنْ أَتَعْمَلُ شَعِيبًا إِنَّكُمْ إِذَا الْخَيْرُونَ» .****

[عقاب الله]

قال الله تعالى : **«فَأَخَذَنَاهُمُ الرَّجْفَةَ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَحِشِينَ» ذكر في سورة الأعراف أنهم أخذتهم رجفة ، أي رجفت بهم أرضهم ، وزلزلت زلزالاً شديداً ، أزهقت أرواحهم من أجسادهم ، وصيّرت حيوان أرضهم كجمادها ، وأصبحت جثثهم جاثية ، لا أرواح فيها ولا حرّكات بها ، ولا حواس لها .**

وقد جمع الله عليهم أنواعاً من العقوبات ، وصنوفاً من المثلات ، وأشكالاً من البليات وذلك لما اتصفوا به من قبيح الصفات ، سلط الله عليهم رجفة شديدة أسلكت الحركات وصيحة عظيمة أحمدت الأصوات وطلة أرسل عليهم منها شر النار من سائر أرجائهم والجهات . ولتكنه تعالى أخبر عنهم في كل سورة بما يناسب سياقها ويواافق طباقها ، في سياق قصة الأعراف أرجفوا نبي الله وأصحابه ، وتوعدوهم بالإخراج من قريتهم ، أو ليعودون في ملتهم راجعين . فقال تعالى : **«فَأَخَذَنَاهُمُ الرَّجْفَةَ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَحِشِينَ»** فقابل الإرجاف بالرجفة ، والإخافة بالخيفة ، وهذا مناسب لهذا السياق ومتعلق بما تقدمه من السياق .

وأما في سورة هود : فذكر أنهم أخذتهم الصيحة ، فأصبحوا في ديارهم جاثيين ، وذلك لأنهم قالوا لنبي الله على سبيل التهكم والاستهزاء والتنتقد : **«أَصَلَّوْتُكَ تَأْمُرُكَ أَنْ تَنْزِكَ مَا يَعْبُدُ مَابَأْزَفْنَا أَوْ أَنْ تَفْعَلَ فِي أَمْوَالنَا مَا لَشَّفْتُ أَنْتَ الْحَلِيمُ الرَّشِيدُ»** فناسب أن يذكر الصيحة التي هي كالرجز عن تعاطي هذا الكلام القبيح ، الذي واجهوا به هذا الرسول الكريم الأمين الفصيح ، فجاءتهم صيحة أسلكتهم مع رجفة أسلكتهم .

وأما في سورة الشعراء : فذكر أنه أخذهم عذاب يوم الظلة ، وكان ذلك إجابة لما طلبو ، =

وتقريراً إلى ما إليه رغبوا ، فإنهم قالوا: ﴿إِنَّمَا أَنْتَ مِنَ الْمُسَحَّرِينَ ﴾١٤٦﴿ وَمَا أَنْتَ إِلَّا شَرٌّ مُنْلِتاً وَإِنْ تُظْلِكَ لَيْنَ الْكَذَّابِينَ ﴾١٤٧﴿ فَأَسْقَطْتُ عَلَيْنَا كَسْفًا مِنَ السَّمَاءِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الْأَصْدِيقِينَ ﴾١٤٨﴿ قَالَ رَبِّيَ أَعْلَمُ بِمَا نَعْمَلُونَ﴾ . قال الله تعالى وهو السميع العليم: ﴿فَذَكِّرْهُو فَأَخَذَهُمْ عَذَابٌ يَوْمَ الظَّلَّةِ إِنَّهُ كَانَ عَذَابَ يَوْمِ عَظَمَّهُ﴾ .

ومن زعم من المفسرين كفتادة وغيره: أن أصحاب الأيكة أمة أخرى غير أهل مدین ، فقوله ضعيف . وإنما عمدتهم شيئاً: أحدهما: أنه قال: ﴿كَذَّبَ أَحَصَّنُتْ لَيْكَهُ الْمُرْسَلِينَ ﴾١٤٩﴿ إِذْ قَالَ لَهُمْ شَعِيبٌ﴾ ولم يقل أخوه كما قال: ﴿وَإِنْ مَنِيتَ أَخَاهُمْ شَعِيبًا﴾ . والثاني: أنه ذكر عذابهم بيوم الظللة، وذكر في أولئك الرجفة أو الصيحة.

والجواب عن الأول: أنه لم يذكر الأخوة بعد قوله: ﴿كَذَّبَ أَحَصَّنُتْ لَيْكَهُ الْمُرْسَلِينَ﴾ لأنه وصفهم بعبادة الأيكة ، فلا يناسب ذكر الأخوة هاهنا ، ولما نسبهم إلى القبيلة ساغ ذكر شعيب بأنه أخوه ، وهذا الفرق من الفائس اللطيفة العزيزة الشريفة .

وأما احتجاجهم بيوم الظللة ، فإن كان دليلاً بمجرده على أن هؤلاء أمة أخرى ، فليكن تعداد الانتقام بالرجفة والصيحة دليلاً على أنهم أمتان أخريان ، وهذا لا يقوله أحد يفهم شيئاً من هذا الشأن . فأما الحديث الذي أورده الحافظ ابن عساكر في ترجمة النبي شعيب عليه السلام ، من طريق محمد بن عثمان بن أبي شيبة ، عن أبيه ، عن معاوية بن هشام ، عن هشام بن سعد ، عن شقيق بن أبي هلال ، عن ربيعة بن سيف ، عن عبد الله بن عمرو مرفوعاً: «إن قوم مدین وأصحاب الأيكة أمتان بعث الله إليهم شعيباً النبي عليه السلام». فإنه حديث غريب . وفي رجاله من تكلم فيه . والأشبه أنه من كلام عبد الله بن عمرو . مما أصابه يوم اليرموك من تلك الزاملتين من أخباربني إسرائيل .. والله أعلم .

ثم قد ذكر الله عن أهل الأيكة من المذمة ما ذكره عن أهل مدین من التطفيف في المكيال والميزان ، فدل على أنهم أمة واحدة ، أهلوكوا بأنواع من العذاب . وذكر في كل موضع ما يناسبه من الخطاب .

وقوله: ﴿فَأَخَذَهُمْ عَذَابٌ يَوْمَ الظَّلَّةِ إِنَّهُ كَانَ عَذَابَ يَوْمِ عَظَمَّهُ﴾ ذكروا أنه أصحابهم حر شديد ، وأسكن الله هبوب الهواء عنهم سبعة أيام ، فكان لا ينفعهم مع ذلك ماء ولا ظل ، ولا دخولهم في الأسراي ، فهربوا من محلتهم إلى البرية ، فأطلق لهم سحابة ، فاجتمعوا تحتها ليستظلوا بظلها ، فلما تكاملوا فيها أرسلها الله ترميمهم بشرر وشهب ، ورجفت بهم الأرض ، وجاءتهم صيحة من السماء ، فازهرت الأرواح ، وأخرجت الأشباح .

﴿فَأَضَبَّحُوا فِي دِيْرِهِمْ جَيْشَيْنَ ﴾١٥٠﴿ الَّذِينَ كَذَّبُوا شَعِيبًا كَانَ لَهُمْ يَقْنَوْا فِيهَا الَّذِينَ كَذَّبُوا شَعِيبًا كَانُوا هُمُ الْحَسِيرَاتِ﴾ ، ونجى الله شعيباً ومن معه من المؤمنين ، كما قال تعالى وهو أصدق القائلين: ﴿وَلَمَّا جَاءَهُمْ أَمْرَنَا بِعَيْنَنَا شَعِيبًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعْنَمُ بِرْحَمَةِ مَنَا وَأَخْذَنَا الَّذِينَ طَلَّمُوا الْصَّيْحَةَ﴾ .

وقال تعالى : « وَقَالَ اللَّهُ أَلَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ لَيْنَ أَتَبْعَثُمْ شَعِيبًا إِنَّكُمْ إِذَا لَخَسِرُونَ ⑥ فَأَخْذُهُمُ الرَّجْهَةَ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَحِشِينَ ⑦ الَّذِينَ كَذَبُوا شَعِيبًا كَانُوا لَمْ يَغْنِوْ فِيهَا الَّذِينَ كَذَبُوا شَعِيبًا كَانُوا هُمُ الْخَسِيرُونَ » ، وهذا في مقابلة قولهم : « لَيْنَ أَتَبْعَثُمْ شَعِيبًا إِنَّكُمْ إِذَا لَخَسِرُونَ ». =

ثم ذكر تعالى عن نبيهم : أنه نعاهم إلى أنفسهم موبحاً ومؤنباً ومقرعاً ، فقال تعالى : « فَنَوَّنَ عَنْهُمْ وَقَالَ يَقُولُ لَقَدْ أَبْلَغْنَاكُمْ رِسْلَتِي رَبِّي وَنَصَّحْتُ لَكُمْ فَكَيْفَ مَاسَى عَلَى قَوْمٍ كُفَّارِينَ » أي أعرض عنهم مولياً عن محلكتهم قائلاً : « أَبْلَغْنَاكُمْ رِسْلَتِي رَبِّي وَنَصَّحْتُ لَكُمْ » أي قد أديت ما كان واجباً عليَّ من البلاغ التام والنصح الكامل ، وحرست على هدايتك بكل ما أقدر عليه وأتوصل إليه ، فلم ينفعكم ذلك ، لأن الله لا يهدى من ضلٍّ ولا لهم من ناصرين ، فلست أتأسف بعد هذا عليكم ، لأنكم لم تكونوا تقبلون النصيحة ، ولا تخافون يوم الفضيحة .

ولهذا قال : « فَكَيْفَ مَاسَى ⑧ ⑨ أَيْ أَحْزَنَ ⑩ عَلَى قَوْمٍ كُفَّارِينَ » أي لا يقبلون الحق ولا يرجعون إليه ولا يلتفتون إليه فحلَّ بهم من بأس الله الذي لا يرد ما لا يدفع ولا يمانع ، ولا مجيد لأحد أريد به عنه ، ولا مناص عنه . وقد ذكر الحافظ ابن عساكر في تاريخه عن ابن عباس : أن شعيباً عليه السلام كان بعد يوسف عليه السلام .

نبِيُّ اللَّهِ يُوسُفُ
عَلَيْهِ السَّلَامُ

قال الحافظ ابن كثير رحمه الله :
[من الأمور العجيبة في حياة إسرائيل] :

وقد أنزل الله عز وجل في شأنه وما كان من أمره سورة من القرآن العظيم ، ليتذرر ما فيها من الحكم والمواعظ والآداب والأمر الحكيم . أعود بالله من الشيطان الرجيم : يُسَمِّ اللَّهُ الرَّغْزُ الرَّجَزُ ⑪ إِنَّ رَبَّكَ يَأْتِيُ الْكَنْتَبِ الْمَبْرِينَ ⑫ إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَقْرَئُونَ ⑬ نَحْنُ نَقْصُ عَلَيْكَ أَخْسَنَ الْقَصْصِ بِمَا أَوْجَحْنَا إِلَيْكَ هَذَا الْقُرْآنَ وَإِنْ كُنْتَ مِنْ قَاتِلِهِ لَيْنَ الْعَفَلِيُّونَ ⑭ [يوسف : ١ - ٣].

وجملة القول في هذا المقام : أنه تعالى يمدح كتابه العظيم الذي أنزله على عبده ورسوله الكريم ، بلسان عربي فصيح ، بين واضح جلي ، يفهمه كل عاقل ذكي ، فهو أشرف كتاب نزل من السماء ، أنزله أشرف الملائكة على أشرف الخلق في أشرف زمان ومكان ، بأوضح لغة وأظهر بيان .

فإن كان السياق في الأخبار الماضية أو الآتية أحسنها وأبينها وأظهر الحق مما اختلف الناس فيه ، ودمغ الباطل وزيفه ورده . وإن كان في الأوامر والتواهي فأعدل الشرائع وأوضحت المنهاج ، وأبين حكماً وأعدل حكماً ، فهو كما قال تعالى : « وَتَمَّتْ كَيْمَتْ رَبِّكَ صِدْقًا »

وَعَدْلًا)، يعني صدقًا في الأخبار ، وعدلاً في الأوامر والنواهي . ولهذا قال تعالى : « تَحْنُّ نَفْسُكَ أَحْسَنَ الْفَصَصِ بِمَا أُوحِيَنَا إِلَيْكَ هَذَا الْقُرْءَانَ وَإِنْ كُنْتَ مِنْ قَبْلِهِ لَمَنِ الْفَلَّاحِ » أي بالنسبة إلى ما أوحى إليك فيه .

كما قال تعالى : « وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِنْ أَنْفُسِنَا مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا إِلَيْنَا وَلَكِنْ جَعَلْنَا نُورًا تَهْدِي بِهِ مِنْ شَاءَ مِنْ عِبَادِنَا وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صَرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ [٦١] صَرَاطُ اللَّهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ أَلَّا إِلَى اللَّهِ يُصِيرُ الْأُمُورُ » [الشورى : ٥٢ - ٥٣] .

وقال تعالى : « كَذَلِكَ تَفْصِيلُكَ مِنْ أَنْبَاءِ مَا قَدْ سَبَقَ وَقَدْ أَيَّنتَكَ مِنْ لَدُنْ دُكَّارًا [١١] مَنْ أَعْرَضَ عَنْهُ فَإِنَّهُ يَحْمِلُ يَوْمَ الْقِيَمةِ وَرِزْقًا [١٢] خَلِدِينَ فِيهِ وَسَاهَهُمْ يَوْمَ الْقِيَمةِ حَمَلًا » [طه : ٩٩ - ١٠١] .

يعني من أعرض عن هذا القرآن واتبع غيره من الكتب فإنه يناله هذا الوعيد . كما قال في الحديث المروي في المسند والترمذى عن أمير المؤمنين علي ، مرفوعاً وموقفاً : « من اتبغى الهدى في غيره أضله الله ». .

وقال الإمام أحمد : حدثنا سريج بن النعمان ، حدثنا هشام ، أئبنا خالد عن الشعبي ، عن جابر : أن عمر بن الخطاب أتى النبي ﷺ بكتاب أصابه من بعض أهل الكتاب ، فقرأه على النبي ﷺ قال : فغضب وقال : « أتتهوكون فيها يا بن الخطاب؟ والذي نفسي بيده لقد جئتكم بها بيساء نقية . لا تسألوهم عن شيء فيخبروكم بحق فتكذبونه أو بباطل فتصدقونه ، والذي نفسي بيده لو أن موسى كان حياً ما وسعه إلا أن يتبعني ». إسناد صحيح [مسند أحمد ح ١٥١٥٨] .

ورواه أحمد من وجه آخر عن عمرو وفيه : فقال رسول الله ﷺ : « (والذي نفسي بيده لو أصبح فيكم موسى ثم اتبعتموه وتركتموني لضلالكم ، أنتم حظي من الأمم وأنا حظكم من النبيين) ». وقد أوردت طرق هذا الحديث وألفاظه في أول سورة يوسف . وفي بعضها : أن رسول الله ﷺ خطب الناس فقال في خطبته : « أيها الناس .. إنني قد أوتتكم جوامع الكلم وخواتيمه ، واختصر لي اختصاراً ، وقد أتيتكم بها بيساء نقية فلا تهواهوا ، ولا يغرنكم المتهوكون » ، ثم أمر بتلك الصحيفة فمحيت حرفاً حرفاً . [مسند أحمد / ح ١٨٣٦٣] .

[حمل يوسف عليه السلام] :

« إِذْ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ يَتَابَتْ إِلَيْ رَأْيَتْ أَحَدَ عَتَّرَ كُوكَباً وَالنَّعْسَ وَالقَرَرَاتِنْهُمْ لِي سَجَدَتْكَ [١] قَالَ يَثْبَتَ لَا تَنْفَصِنْ رُءَةِ يَاكَ عَلَى إِخْرَوْتَكَ فَيَكِيدُو لَكَ كِيدَانَا إِنَّ الشَّيْطَانَ لِلإِنْسَنَ عَدُوٌّ مُبِيتٌ [٢] وَكَذَلِكَ يَمْنَيْكَ رَبُّكَ وَيَعْلَمُكَ مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ وَيَتَذَمَّنْ قَمَمَهُ عَلَيْكَ وَعَلَى إِلَّا يَعْقُوبَ كَمَا أَنْتَهَا عَلَى أَبَوِيكَ مِنْ قَلْبِ إِبْرَاهِيمَ وَيَتَعَقَّ إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ » [يوسف : ٤ - ٦] .

قد قدمنا أن يعقوب كان له من البنين اثنا عشر ولداً ذكرأ وسميناهم وإليهم تنسب أسباطبني إسرائيل كلهم ، وكان أشرفهم وأجلهم يوسف عليه السلام . وقد ذهب طائفة من العلماء إلى =

أنه لم يكن فيهمنبي غيره ، وبافي إخوته لم يوح إليهم . وظاهر ما ذكر من فعالهم ومقالهم في هذه القصة يدل على هذا القول .

ومن استدل على نبوتهم بقوله : « قُلْ إِنَّمَا يَأْتِيَ اللَّهُ وَمَا أَنْزَلَ عَلَيْنَا وَمَا أَنْزَلَ عَلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطَ » وزعم أن هؤلاء هم الأسباط فليس استدلاله بقوى ، لأن المراد بالأسباط شعوببني إسرائيل وما كان يجب فيهم من الأنبياء الذين يتزل عليهم الوحي من السماء .. والله أعلم .

ومما يؤيد أن يوسف عليه السلام هو المختص من بين إخوته بالرسالة والتبعة أنه ما نص على واحد من إخوته سواه ، فدل على ما ذكرناه . ويستأنس لهذا بما قال الإمام أحمد : حدثنا عبد الصمد ، حدثنا عبد الرحمن ، عن عبد الله بن دينار ، عن أبيه ، عن ابن عمر ، أن رسول الله ﷺ قال : « الكريمة ابن الكريمه ابن الكريمه يوسف بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم ». انفرد به البخاري ، فرواه عن عبد الله بن محمد وعبدة ، عن عبد الصمد بن عبد الوارث به . وقد ذكرنا طرقه في قصة إبراهيم بما أغني عن إعادته هنا .. والله الحمد والمنة . [انظر صحيح البخاري / كتاب الأنبياء / ح ٣٣٩٠] ومسند أحمد [ح ٧١٦].

قال المفسرون وغيرهم : رأى يوسف عليه السلام وهو صغير قبل أن يحتلم ، كأن أحد عشر كوكباً ، وهم إشارة إلى بقية إخوته ، والشمس والقمر وهما عبارة عن أبويه ، قد سجدوا له ، فهاله ذلك .

فلما استيقظ قصها على أبيه ، عرف أبوه أنه سينال منزلة عالية ورفعه عظيمة في الدنيا والأخرة ، بحيث يخضع له أبوه وإخوته فيها ، فأمره بكتمانها وألا يقصها على إخوته ، كيلا يحسدوه ويبغوا له الغواص ، ويكيدوه بأنواع الحيل والمكر ، وهذا يدل على ما ذكرناه .

ولهذا جاء في بعض الآثار : « استعينوا على قضاء حوائجكم بكتمانها ، فإن كل ذي نعمة محسود ». وعند أهل الكتاب أنه قصها على أبيه وإخوته معاً ، وهو غلط منهم .

﴿ وَكَذَلِكَ يَعْنِيُكَ رَبُّكَ ﴾ أي وكما أراك هذه الرؤيا العظيمة ، فإذا كتمتها ﴿ يَعْنِيُكَ رَبُّكَ ﴾ أي يخصك بأنواع اللطف والرحمة ﴿ وَيَعْلَمُكَ مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ ﴾ أي يفهمك من معاني الكلام وتعبير المنام ما لا يفهمه غيرك .

﴿ وَتَيْمَدُ نَعْمَتَهُ عَلَيْكَ ﴾ أي بالوحي إليك ﴿ وَكَلَّمَ إِلَيْكَ يَعْقُوبَ ﴾ أي بسببك ، ويحصل لهم بك خير الدنيا والآخرة . ﴿ كَمَا أَنَّهَا عَلَى أَبْوَيْكَ مِنْ قَبْلِ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ ﴾ أي ينعم عليك ويعسن إليك بالنبوة ، كما أعطاها أباك يعقوب ، وجده إسحاق ، ووالد جده إبراهيم الخليل ، ﴿ إِنَّ رَبَّكَ عَلَيْهِ حَكِيرٌ ﴾ كما قال تعالى : ﴿ اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَعْمَلُ رَسُولُهُ ﴾ . لهذا قال رسول الله ﷺ لما سئل : أي الناس أكرم ؟ قال : « يوسف بن النبي الله ابن النبي الله ابن النبي الله ابن خليل الله ». ﴿ لَقَدْ كَانَ فِي يُوسُفَ وَإِخْرَيْهِ إِنَّمَا يَأْتِيُ لِلْسَّائِلِينَ إِذَا قَالُوا لِيُوسُفَ وَآخْرُوهُ أَحَبُّ إِلَيْهِ أَبِيَّنَا وَأَخْنَنُ =

عَصْبَةٌ إِنَّ أَبَانَا لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿٨﴾ أَقْتَلُوا يُوسُفَ أَوْ أَطْرَحُوهُ أَرْضًا يَخْتَلُ لَكُمْ وَجْهُ أَيْكُمْ وَتَكُونُوا مِنْ بَعْدِهِ قَوْمًا صَنَاعِينَ ﴿٩﴾ قَالَ قَابِيلٌ مِّنْهُمْ لَا نَقْتُلُوا يُوسُفَ وَاللَّوْهُ فِي غَيْبَتِ الْجُنُبِ يَلْقَطُهُ بَعْضُ السَّيَّارَةِ إِنْ كُثُرْ فَتَعْلَيْنَ ﴿١٠﴾ [يوسف: ٧ - ١٠]

التخلص من يوسف عليه السلام :

ينبه تعالى على ما في هذه القصة من الآيات والحكم ، والدلالات والمواعظ والبيانات . ثم ذكر حسد إخوة يوسف له على محبة أبيه له ولأخيه - يعنون شقيقه لأمه بنiamin - أكثر منهم ، وهم عصبة أي جماعة يقولون : فكنا نحن أحق بالمحبة من هذين « إِنَّ أَبَانَا لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ » أي بتقديمه جبها علينا .

ثم اشتوروا فيما بينهم في قتل يوسف ، أو بإعاده إلى أرض لا يرجع منها ، ليخلو لهم وجه أبيهم : أي لتمضض محبته لهم وتتوفر عليهم ، وأضمرروا التوبة بعد ذلك .

فلما تمالوا على ذلك وتوافقوا عليه : « قَالَ قَابِيلٌ مِّنْهُمْ لَا نَقْتُلُوا يُوسُفَ وَاللَّوْهُ فِي غَيْبَتِ الْجُنُبِ يَلْقَطُهُ بَعْضُ السَّيَّارَةِ » أي المارة من المسافرين « إِنْ كُثُرْ فَتَعْلَيْنَ » ما تقولون لا محالة ، فليكن هذا الذي أقول لكم ، فهو أقرب حالاً من قتله أو نفيه وتغريبيه .

فأجمعوا رأيهم على هذا ، فعند ذلك « قَالُوا يَأَبَانَا مَا لَكَ لَا تَأْمَنَّ عَلَى يُوسُفَ وَإِنَّا لَمْ نَتَصْحُرُنَّ ﴿١١﴾ أَرْسَلَهُ مَعَنَا غَدَارِيَّتَهُ وَيَأْعَثُ وَإِنَّا لَمْ لَحِظْنَاهُنَّ ﴿١٢﴾ قَالَ إِنِّي لَيَحْزُنُنِي أَنْ تَذَهَّبُوا يَدَهُ وَأَخَافُ أَنْ يَأْكُلَهُ الْذَّئْبُ وَأَتَشُّعُ عَنْهُ عَذْفُلُونَ ﴿١٣﴾ قَالُوا لَيْنَ أَكَلَهُ الْذَّئْبُ وَنَحْنُ عَصْبَةٌ إِنَّا إِذَا خَسِرُونَ ﴿١٤﴾ طلبوا من أبيهم أن يرسل معهم أخاهم يوسف ، وأظهروا له أنهم يريدون أن يرعى معهم ، وأن يلعب وينبسط وقد أضمروا له ما الله به عليم .

فأجابهم الشيخ ، عليه من الله أفضل الصلاة والتسليم : يا بني .. يشق عليَّ أن أفارقك ساعة من النهار ، ومع هذا أخشى أن تشغلوا في لعبكم وما أنتم فيه ، ف يأتي الذئب فأأكله ، ولا يقدر على دفعه عنه لصفره وغفلتكم عنه .

« قَالُوا لَيْنَ أَكَلَهُ الْذَّئْبُ وَنَحْنُ عَصْبَةٌ إِنَّا إِذَا خَسِرُونَ » أي لئن عدا عليه الذئب فأكله من بيننا ، أو اشتغلنا عنه حتى وقع هذا ونحن جماعة ، إننا إذَا لخاسرون ، أي عاجزون هالكون .

« فَلَمَّا دَهَوْبِيَهُ وَأَجْمَعُوا أَنْ يَجْعَلُوهُ فِي غَيْبَتِ الْجُنُبِ وَأَوْجَبَنَا إِلَيْهِ لَتَنْتَهِمْ يَأْتِرُهُمْ هَذَا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١٥﴾ وَجَاءَهُ أَبَاهُمْ عَشَاءَ يَبْكُرُ ﴿١٦﴾ قَالُوا يَأَبَانَا إِنَّا ذَهَبْنَا سَاسِيَّتَهُ وَرَكَشْنَا يُوسُفَ عِنْدَ مَتَنِّنَا فَأَكَلَهُ الْذَّئْبُ وَمَا أَنَّتَ بِمُؤْمِنٍ لَنَا وَلَوْ كُثُنَا سَدِيقُنَّ ﴿١٧﴾ وَجَاءَهُ وَعَلَى قَيْصِمِهِ بِدَمِ كَذِبٍ قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبَرْ جَيْلٌ وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَى مَا تَعْصِمُونَ » [يوسف: ١٥ - ١٨]

لم يزالوا بأبيهم حتى بعثه معهم ، وأجمعوا على إلقائه في غيابة الجب ، أي في قعره على راعنته ، وهي الصخرة التي تكون في وسطه يقف عليها «الماتح» وهو الذي ينزل ليملأ الدلاء إذا قل الماء ، والذي يرفعها بالحبل يسمى «الماتح» .

فلما ألقوه فيه ، أوحى الله إليه : أنه لا بد لك من فرج ومخروج من هذه الشدة التي أنت فيها ، ولتخبرن إخوتك بصنعيهم هذا في حال أنت فيهم عزيز ، وهم محتاجون إليك خائفون منك ، **(وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ)** قال مجاهد وقتادة : وهم لا يشعرون بإيحاء الله إليه ذلك . وعن ابن عباس : **(وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ)** أي لتخبرنهم بأمرهم هذا في حال لا يعرفونك فيها ، رواه ابن جرير عنه .

فلما وضعوه فيه ورجعوا عنه ، أخذنا قميصه فلطخوه بشيء من دم ، ورجعوا إلى أبيهم عشاءً وهم ي يكون ، أي على أخيهم . ولهذا قال بعض السلف : لا يغرنك بكاء المتظلم فرب ظالم وهو باك . وذكر بكاء إخوة يوسف وقد جاؤوا أباهم عشاءً ي يكون ، أي في ظلمة الليل ، ليكون أشني لغدرهم لا لعدرهم .

﴿ قَالُوا يَأَبَانَا إِنَّا ذَهَبْنَا أَسْتَيْقُ وَرَكَنْنَا يُوسَفَ عِنْدَ مَتَّعْنَا ﴾ أي ثابنا **(فَأَكَلَهُ الْذَّئْبُ)** أي في غيتنا عنه في استياقنا . قوله : **﴿ وَمَا أَنَّا يُؤْمِنُونَ لَنَا وَلَوْ كُنَّا صَادِقِنَ ﴾** أي ما أنت بمصدق لنا في الذي أخبرناك من أكل الذئب له ، ولو كنا غير متهمين عندك . فكيف وأنت تتهمنا في هذا ؟ فإنك خشيت أن يأكله الذئب ، وضمنا لك لا يأكله لكثرتنا حوله ، فصرنا غير مصدقين عندك ، فمعدور أنت في عدم تصديقك لنا والحالة هذه .

﴿ وَجَاءُو عَلَى قَيْصِيهِ يَدْمِرُ كَذِيبَ أي مكذوب مفتعل ، فوضعوه على قميصه ، ليوهمه أنه أكله الذئب . قالوا : ونسوا أن يخرقوه ، وafe الكذب النسيان ! ولما ظهرت عليهم علام الريبة لم يرج صنعيهم على أبيهم ، فإنه كان يفهم عداوتهم له ، وحسدهم إيهاه على محنته له من بينهم أكثر منهم ، لما كان يتوضأ فيه من الجلاله والمهابة التي كانت عليه في صغره لما يريد الله أن يخصه به من نبوته . ولما راودوه عن أخذه فبمجرد ما أخذوه أعدمه ، وغيبه عن عينيه ، وجاؤوا لهم يتابون ، وعلى ما تمالؤوا يتواطؤون ؛ ولهذا : **﴿ قَالَ بَلْ سَوْلَتْ لَكُمْ أَنْفَسْكُمْ أَمْرًا فَصَرَبْ حَيْلَ وَاللَّهُ أَمْسَعَ عَلَى مَا تَصْفُونَ ﴾**.

[انتقاله من الجب إلى بيت عزيز مصر] :

﴿ وَجَاءَتْ سِيَارَةً فَأَرْسَلُوا وَارِدَهُمْ فَأَذَلَّ دَلَوْ فَأَلَّ يَبْشَرَى هَذَا غُلَمُ وَأَسْرُوهُ بِضَعَةً وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِمَا يَعْمَلُونَ **﴿ وَشَرَفَهُ شَمَنْ بَخِسْ دَرَهُمْ مَعْدُودَهُ وَكَانُوا فِيهِ مِنَ الْزَّهَدِينَ** **﴿ وَقَالَ الْلَّهُ أَشْرَكْنِهِ مِنْ يَمْسِرْ لِأَمْرَأِهِ أَكْتَرِي مَوْنَهُ عَسَنْ أَنْ يَقْعَنَا أَوْ نَتَخَذُهُ وَلَدًا وَكَذَلِكَ مَكَانْ لَيُوسَفَ فِي الْأَرْضِ وَلِتَعْلِمَهُ مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ وَاللَّهُ عَالِيٌّ عَلَى أَنْتُهُ وَلَنَكَ أَكْثَرُ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ** **﴿ رَلَمَا بَلَعَ أَشْدَهُ وَأَبَنَهُ حَكَمَا وَعَلَمَا وَكَذَلِكَ بَخِنَ الْمُحْسِنِينَ ﴾**.

يخبر الله تعالى عن قصة يوسف حين وضع في الجب : أنه جلس ينتظر فرج الله ولطفه به ، ف جاءت سيارة ، أي مسافرون ، فأرسلوا بعضهم ليستقوا من ذلك البئر ، فلما أدى أحدهم دلوه تعلق فيه يوسف .

فلما رأه ذلك الرجل **﴿ قَالَ يَبْشَرَى** أي يا بشارتي **﴿ هَذَا غُلَمٌ وَأَسْرُوهُ بِضَعَةً** أي أوهموا أنه =

معهم غلام من جملة متجرهم ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِمَا يَعْمَلُونَ﴾ أي هو عالم بما تمالأ عليه إخوته ، وبما أسره واجدوه من أنه بضاعة لهم ، ومع هذا لا يغيره تعالى ، لما له في ذلك من الحكمة العظيمة والقدر السابق والرحمة بأهل مصر ، بما يجري الله على يدي هذا الغلام الذي يدخلها في صورة أسير رقيق ، ثم بعد هذا يملكه أزمة الأمور وينفعهم الله به في دنياهم وأخراهم ، بما لا يحد ولا يوصف.

ولما استشعر إخوة يوسف بأخذ السيارة له لحقوهم ، وقالوا هذا غلامنا أبقي منا ، فاشتروه منهم بثمن بخس ، أي قليل نزر ، وقيل : هو الزيف ، ﴿دَرَاهِمَ مَعْدُودَةٍ وَكَانُوا فِيهِ مِنَ الْرَّاهِيدَتِ﴾ وَقَالَ الَّذِي أَشَرَّتْهُ مِنْ مَصْرَ لِأَمْرَأَتِهِ أَكْسَرَ مِنْ مَوْنَهُ﴾ أي أحستني إليه ﴿عَسَّوْتَ أَنْ يَفْعَلَ أَوْ نَتَحْدُدُ وَلَدَّا﴾ وهذا من لطف الله به ورحمته وإحسانه إليه ، بما يريد أن يؤهله له ويعطيه من خيري الدنيا والآخرة.

وقال ابن إسحاق عن أبي عبيدة ، عن ابن مسعود قال : أفس الناس ثلاثة : عزيز مصر حيث قال لأمراته : ﴿أَكْسَرَ مِنْ مَوْنَهُ﴾ والمرأة التي قالت لأبيها عن موسى : ﴿يَاتَّكَ أَسْتَجِرْهُ إِنَّكَ حَيْرَ مِنْ أَسْتَجَرْتَ الْقَرِئِيَّ الْأَمِينُ﴾ وأبو بكر الصديق حين استخلف عمر بن الخطاب رضي الله عنهما .

وقوله : ﴿وَكَذَلِكَ مَكَنًا لِيُوْسُفَ فِي الْأَرْضِ﴾ أي وكما قيضنا هذا العزيز وأمراته يحسنان إليه ، ويعتنيان به ، مكنا له في أرض مصر ﴿وَلِعَلَّمَهُ مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ﴾ أي فهمها ، وتعبير الرؤيا من ذلك ﴿وَاللَّهُ عَلَيْكُ عَلَىٰ أَنْتَرِهِ﴾ أي إذا أراد شيئاً فإنه يقيض له أسباباً وأموراً لا يهتدى إليها العباد . ولهذا قال تعالى : ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ .

﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشَدَّهُ، أَتَيْتَهُ حُكْمًا وَعَلَمًا وَكَذَلِكَ بَعْزِيَ الْمُحْسِنِينَ﴾ فدل على أن هذا كله كان وهو قبل بلوغ الأشد وهو حد الأربعين الذي يوحى الله فيه إلى عباده النبيين عليهم الصلاة والسلام من رب العالمين .

وقد اختلفوا في مدة العمر الذي هو بلوغ الأشد : فقال مالك وربيعة وزيد بن أسلم والشعبي : هو الحلم . وقال سعيد بن جبير : ثمانى عشرة سنة . وقال الضحاك : عشرون سنة ، وقال عكرمة : خمس وعشرون سنة . وقال السدي : ثلاثون سنة وقال ابن عباس ومجاهد وفتادة : ثلاث وثلاثون سنة وقال الحسن : أربعون سنة ، ويشهد له قوله تعالى : ﴿حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ أَشَدَّهُ وَلَمَّا
أَرْبَعَنَ سَنَةً﴾ [الأحقاف : ١٥].

محاولة امرأة العزيز الإغرائية :

﴿وَرَوَدَتْهُ أَلَيْ هُوَرْ بَيْتَهَا عَنْ نَفْسِهِ، وَغَلَقَتْ الْأَبْوَابَ وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ فَالْمَعَاذُ اللَّهُ إِنَّهُ رَبِّ الْأَحْسَنِ
مَشَوَّأِ إِنَّهُ لَا يَقْبِلُخُ الظَّالِمُونَ﴾ وَقَدْ هَمَتْ بِهِ وَهُمْ بِهَا لَوْلَا أَنْ رَعَاهُنَّ رَبِّهِ، كَذَلِكَ لِصَرِيفَ
عَنْهُ السُّوءَ وَالنَّحْشَاءَ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُحْلَصِينَ﴾ وَأَسْتَبَقَ الْأَبْابَ وَقَدَّتْ قِيمَتُهُ مِنْ ذُرُّ وَالْفَيَا
سَيِّدَهَا لَدَّا الْبَابِ قَالَتْ مَا جَزَاءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوءًا إِلَّا أَنْ يُسْجَنَ أَوْ عَذَابُ أَلِيمٌ﴾ قَالَ هِيَ رَوَدَتْنِي عَنْ =

لَهُسِئِي وَشَهَدَ شَاهِدٌ مِنْ أَهْلِهَا إِنْ كَانَ قَوِيْصِهُ قُدْمَ مِنْ قُبْلِ فَصَدَقَتْ وَهُوَ مِنَ الْكَذَّابِينَ ﴿١﴾ وَإِنْ كَانَ قَوِيْصِهُ قُدْمَ مِنْ دُبْرٍ فَكَذَّبَتْ وَهُوَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿٢﴾ فَلَمَّا رَأَهَا قَوِيْصِهُ قُدْمَ مِنْ دُبْرٍ قَالَ إِنَّهُ مِنْ كَيْدِكُنَّ كَيْدِكُنَّ إِنَّ كَيْدِكُنَّ عَظِيمٌ ﴿٣﴾ يُوسُفُ أَعْرَضَ عَنْ هَذَا وَاسْتَغْفَرَ لِذَنِيْكَ إِنَّكَ كَثُنَّ مِنَ الْخَاطِئِينَ » [يوسف: ٢٣ - ٢٩].

يدرك تعالى ما كان من مراودة امرأة العزيز يوسف عليه السلام عن نفسه وطلبه منه ما لا يليق بحاله ومقامه وهي في غاية الجمال والمال ، والمنصب والشباب وكيف غلقت الأبواب عليها وعليه ، وتهيأت له وتصنعت ولبست أحسن ثيابها وأفخر لباسها وهي مع هذا كله امرأة الوزير .

وهذا كله من أن يوسف عليه السلام شاب بديع الجمال والبهاء ، إلا أنه نبي من سلاة الأنبياء ، فعصمه ربها عن الفحشاء ، وحماه عن مكر النساء ، فهو سيد السادة النجباء ، السبع الأتقياء ، المذكورين في الصحيحين عن خاتم الأنبياء ، في قوله عليه الصلاة والسلام من رب الأرض والسماء : «سبعة يظلمهم الله في ظله يوم لا ظل إلا ظله : إمام عادل ، ورجل ذكر الله خالياً ففاضت عيناه ، ورجل معلق قلبه بالمسجد إذا خرج منه حتى يعود إليه ، ورجلان تحابا في الله اجتمعا عليه وتفرقوا عليه ، ورجل تصدق بصدقه فأخفاها حتى لا تعلم شمله ما تفقىء يمينه ، وشاب نشأ في عبادة الله ، ورجل دعوه امرأة ذات منصب وجمال فتى إني أخاف الله » [صحيح البخاري/٦٦٠ / كتاب الأذان].

والمتقصد أنها دعوه إليها وحرست على ذلك أشد الحرص ، فقال : « مَعَادَ اللَّهُ إِنَّهُ رَبِّي » يعني زوجها صاحب المنزل ، سيدى « أَحَسَنَ مَوَائِي » أي أحسن إلى وأكرم مقامي عنده « إِنَّهُ لَا يَقْلِبُ الظَّالِمُونَ » وقد تكلمنا على قوله تعالى : « وَلَقَدْ هَمَتْ بِهِ وَهُمْ بِهَا لَوْلَا أَنْ رَبَّهُنَّ رَبِّي » بما فيه كفاية ومقنع في التفسير .

وأكثر أقوال المفسرين هنا متلقى من كتب أهل الكتاب ، فالإعراض عنه أولى بنا . والذي يجب أن يعتقد : أن الله تعالى عصمه وبرأه ، ونزهه عن الفاحشة وحماه عنها وصانه منها ، ولهذا قال تعالى : « كَذَّلَكَ لِتَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ إِنَّهُ مِنْ عَبْدَنَا الْمُمْلَصِبِينَ ». « وَأَسْبَقَنَا الْبَابَ » أي هرب منها طالباً الباب ليخرج منه فراراً منها ، فاتبعته في أثره « وَالْقِيَامَ » أي و جداً « سَيِّدَهَا » أي زوجها « لَدَ الْبَابِ » فبدرت به بالكلام وحرضته عليه « قَالَتْ مَا جَزَاءُهُمْ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوءًا إِلَّا أَنْ يُسْجَنَ أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ » اتهمته وهي المتهمة ، وبرأت عرضها ، ونزهت ساحتها ، فلهذا قال يوسف عليه السلام : « هَيْ رَوَدَنِي عَنْ نَفْسِي » احتاج إلى أن يقول الحق عند الحاجة .

[وشهد شاهد من أهلها] :

قال : « إِنْ كَانَ قَوِيْصِهُ قُدْمَ مِنْ قُبْلِ فَصَدَقَتْ وَهُوَ مِنَ الْكَذَّابِينَ » أي لأنه يكون قد راودها فدافعته حتى قَدَّت مقدم قميصه ، « وَإِنْ كَانَ قَوِيْصِهُ قُدْمَ مِنْ دُبْرٍ فَكَذَّبَتْ وَهُوَ مِنَ الصَّادِقِينَ » أي

لأنه يكون قد هرب منها فاتبعته وتعلقت فيه فانشق قميصه لذلك ، وكذلك كان ، ولهذا قال تعالى : ﴿فَلَمَّا رَأَهَا أَقْبَصَهُ قُدَّمَ مِنْ دُبْرِ قَالَ إِنَّهُ مِنْ كَيْدِكُنَّ إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ﴾ أي هذا الذي جرى من مكركן ، أنت راودتيه عن نفسه ، ثم اتهمته بالباطل .

ثم أضرب بعلها عن هذا صفحًا فقال : ﴿يُوْسُفُ أَعْرِضْ عَنْ هَذَا﴾ أي لا تذكره لأحد ، لأن كتمان مثل هذه الأمور هو الأlic و الأحسن ، وأمرها بالاستغفار لذنبها الذي صدر منها والتوبة إلى ربها ، فإن العبد إذا تاب إلى الله تاب الله عليه .

﴿وَقَالَ يَسُوْفُ فِي الْمَدِيْنَةِ أَمْرَأَتُ الْعَزِيزِ تَرْوِيْدَ فَنَّهَا عَنْ نَفْسِهِ قَدْ شَغَفَهَا حَبًّا إِنَّا لَرَنَّهَا فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴾ فَلَمَّا سَمِعَتْ بِسَكِيرِهِنَّ أَرْسَلَتْ إِلَيْهِنَّ وَاعْتَدَتْ لَهُنَّ مُشَكِّكًا وَأَتَتْ كُلَّ وَيْجَدَةٍ مِنْهُنَّ سِكِيرَةً وَقَالَتْ أُخْرَى عَلَيْهِنَّ فَلَمَّا رَأَيْتَهُ أَكْبَرَهُ وَقَطَعْنَ أَيْدِيهِنَّ وَقَالَ حَشْ لِلَّهِ مَا هَذَا بَشَرًا إِنَّهُ إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ ﴾ قَالَتْ فَذَلِكُنَّ الَّذِي لَمْ تُشْنِعْنِي فِيهِ وَلَقَدْ رَوَدْتُهُ عَنْ نَفْسِهِ فَأَسْتَعْصِمُ بِلِمَنْ يَفْعَلُ مَا أَمْرَوْهُ لِي سِجَنَ وَلَكُونَنَا مِنَ الصَّدَفَرِينَ ﴾ قَالَ رَبُّ السِّجْنِ أَحَبُّ إِلَيَّ مَا يَدْعُونِي إِلَيْهِ وَإِلَّا تَصْرِفَ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبَحَ إِلَيْهِنَّ وَلَكُنْ مِنَ الْمُجْتَهِلِينَ ﴾ فَأَسْتَجَابَ لَهُ رَبُّهُمْ فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّ إِنَّهُ هُوَ السَّيِّئُ الْعَلِيُّمُ﴾ [يوسف : ٣٠ - ٣٤].

يدرك تعالى ما كان من قبل نساء المدينة ، من نساء الأمراء وبنات الكبار في الطعن على امرأة العزيز وعيها ، والتشنيع عليها في مراودتها فاتها ، وحبها الشديد له ، وهو لا يساوي هذا ، لأنه مولى من الموالى وليس مثله أهلاً لهذا . ولهذا قلن : «إِنَّا لَرَنَّهَا فِي ضَلَالٍ شِينِينَ» أي في وضعها الشيء في غير محله .

﴿فَلَمَّا سَمِعَتْ بِسَكِيرِهِنَّ﴾ أي بتشنيعهن عليها والتنقص لها ، والإشارة إليها بالعيب والمذمة بحب مولاها وعشق فاتها ، فأظهرهن ذمًا وهي معدورة في نفس الأمر ، فلهذا أحبت أن تبسط عذرها عندهن ، وتبين أن هذا الفتى ليس كما حسبن ، ولا من قبيل ما لديهن . فارسلت إليهن فجمعتهن في منزلها ، وأعانت لهن ضيافة مثлен ، وأحضرت من جملة ذلك شيئاً مما يقطع بالسكاكين ، كالأترج ونحوه ، وات كل واحدة منهن سكينا ، وكانت قد هيأت يوسف عليه السلام ، وألبسته أحسن الثياب ، وهو في غاية طراوة الشباب ، وأمرته بالخروج عليهم بهذه الحالة ، فخرج وهو أحسن من البدر لا محالة .

﴿فَلَمَّا رَأَيْتَهُ أَكْبَرَهُ﴾ أي أعظمته وأجلنته وهبته ، وما ظن أن يكون مثل هذا في بني آدم ، وبههن حسنة حتى استغلن عن أنفسهن ، وجعلن يحززن في أيديهن بتلك السكاكين ولا يشعرن بالجرح ﴿وَقَنَ حَشْ لِلَّهِ مَا هَذَا بَشَرًا إِنَّهُ إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ﴾ .

وقد جاء في حديث الإسراء : «فمررت بيوسف وإذا هو قد أعطي شطر الحسن». قال السمهيلي وغيره من الأئمة : معناه أنه كان على النصف من حسن آدم عليه السلام ، لأن الله تعالى خلق آدم بيده ، ونفع فيه من روحه . فكان في غاية نهايات الحسن البشري . ولهذا يدخل أهل الجنة الجنة على طول آدم وحسنه ، ويوسف كان على النصف من حسن آدم .

﴿قَالَتْ فَذَلِكُنَّ الَّذِي لَمْ تُشْنِعْنِي فِيهِ﴾ ثم مدحته بالغة التامة فقالت : ﴿وَلَقَدْ رَوَدْتُهُ عَنْ نَفْسِهِ﴾ =

فَاسْتَعْصَمُ أي امتنع **﴿وَلَئِنْ لَمْ يَفْعَلْ مَا أَمْرُهُ لَيُسْجَنَنَّ وَلَيَكُونُا مِنَ الظَّاغِنِينَ﴾**.

وكان بقية النساء حرضنه على السمع والطاعة لسيده ، فأبى أشد الإباء ، ونأى لأنه من سلالة الأنبياء ، ودعاه لرب العالمين : **﴿رَبَّ الْسَّجْنَ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونِي إِلَيْهِ وَإِلَّا تَصْرِفَ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُّ إِلَيْهِنَّ وَلَكُنْ مِنَ الْمُجْهِلِينَ﴾** يعني إن وكلتني إلى نفسي ، فليس لي من نفسي إلا العجز والضعف ، ولا أملك لنفسى نفعا ولا ضراً إلا ما شاء الله . فأنا ضعيف إلا ما قويتني وعصمتهني وحفظتني بحولك وقوتك .

ولهذا قال تعالى : **﴿فَاسْتَجَابَ لَهُ رَبُّهُ فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴾** ثمَّ بَدَأَهُمْ مِنْ بَعْدِ مَا رَأَوْا أَلَيْدَتْ لِيَسْجُنَنَّهُ حَتَّى جِئَنَ **﴿وَدَخَلَ مَعَهُ الْسَّجْنَ فَتَيَّانٌ قَالَ أَحَدُهُمَا إِنِّي أَرَى فِي أَنْفُسِي أَغْصَرَ حَمَراً وَقَالَ الْآخَرُ إِنِّي أَرَى فِي أَنْفُسِي أَحْجَلَ فُوقَ رَأْسِي خَبْرًا تَأْكُلُ الظَّيْرُ مِنْهُ يَقْتَنَا بِأَوْبِلِهِ إِنَّا نَرِنَكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ﴾** قال لا يَأْتِكُمْ كُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَاهُ إِلَّا بَنَائِكُمَا بِأَوْبِلِهِ قَبْلَ أَنْ يَأْتِيَكُمْ كَذِيلَكُمَا عَلَمْنِي رَبِّي إِنِّي تَرَكْتُ مِلَةَ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ كَفَرُونَ﴾ وَاتَّبَعَتْ مَلَةً مَا بَاءَتِي إِنْزِهِمَةً وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ مَا كَانَ لَهُ أَنْ نُشْرِكَ بِاللَّهِ مِنْ شَيْءٍ وَذَلِكَ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ عَلَيْنَا وَعَلَى النَّاسِ وَلَكُنَّ أَكْثَرُ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ﴾ يَدَصِحُّ حِيَ الْسَّجْنَ إِذْ أَرِيَابْ مُفَرِّقُوتْ خَرِيرَ أَمِّ اللَّهِ الْوَاحِدِ الْفَهَارِ **﴿مَا سَعَدُونَ مِنْ دُونِهِ إِلَّا أَسْمَاءَ سَمَيَّتُهُمْ أَسْمَهُ وَإِبَاؤُكُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَنٍ إِنِّي الْحَكَمُ إِلَيَّهُ أَمْرَ الْأَنْتَبِدُوا إِلَّا إِيَاهُ ذَلِكَ الَّذِينَ قَتَلُوكُمْ وَلَكُنَّ أَكْثَرُ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾** يَصْبِحُجِي الْسَّجْنَ أَمَّا أَحْدُكُمَا فَيَسْقِي رَبِّهِ حَمَراً وَأَمَّا الْأَخْرُ فَيُضْلَبْ فَتَأْكُلُ الظَّيْرُ مِنْ رَأْسِهِ قُضِيَ الْأَمْرُ لِلَّهِ فِي هَسْنَتِيَّانِ﴾ [يوسف : ٤١ - ٣٤] .

[سجين يوسف عليه السلام] :

يدرك تعالى عن العزيز وامرأته أنه بدا لهم ، أي ظهر لهم من الرأي بعدما علموا براءة يوسف أن يسجنه إلى وقت ، ليكون ذلك أفل الكلام الناس في تلك القضية ، وأحمد لأمرها ، ولاظهروا أنه راودها عن نفسها فسجين بسبتها ، فسجنه ظلماً وعدواناً . وكان هذا مما قدر الله له ، ومن جملة ما عصمه به ، فإنه أبعد له عن معاشرتهم ومخالطتهم .

قال الله : **﴿وَدَخَلَ مَعَهُ الْسَّجْنَ فَتَيَّانٌ﴾** قيل : كان أحدهما ساقى الملك . فلما رأيا يوسف في السجن أعجبهما سنته وهديه ، ودله وطريقته ، وقوله و فعله ، وكثرة عبادته ربه ، وإحسانه إلى حلقه ، فرأى كل واحد منهمما رؤيا تناصبه .

قصاصها عليه وطلبا منه أن يعبرها لهما وقالا : **﴿إِنَّا نَرِنَكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ﴾** فأخبرهما أنه عليم بتعيرها ، خبير بأمرها **﴿فَأَلَّا يَأْتِيَكُمْ كُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَاهُ إِلَّا بَنَائِكُمَا بِأَوْبِلِهِ قَبْلَ أَنْ يَأْتِيَكُمْ﴾** قيل معناه مهما رأيتكم من حلم فإني أعتبر لكم قبل وقوعه فيكون كما أقول . وقيل معناه : أني أخبركم بما يأتكم من الطعام قبل مجئيه حلواً وحامضاً ، كما قال عيسى : **﴿وَأَنِتُكُمْ بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدَخِّرُونَ فِي يَوْمِكُمْ﴾** [آل عمران : ٤٩] .

وقال لهم : إن هذا من تعليم الله إباهي ، لأنني مؤمن به موحد له متبوع ملة آبائي الكرام : إبراهيم الخليل ، وإسحاق ويعقوب . **﴿مَا كَانَ لَنَا أَنْ نُشْرِكَ بِاللَّهِ مِنْ شَيْءٍ وَذَلِكَ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ**

عَيْنَا﴾ أي أن هدانا لهذا ، ﴿وَعَلَى النَّاسِ﴾ أي بأن أمرنا أن ندعوهم إليه ونرشدهم ونذلهم عليه وهو في فطحهم مركوز ، وفي جبلتهم مغروز ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ﴾ . ثم دعاهم إلى التوحيد وذم عبادة ما سوى الله عز وجل ، وصغر أمر الأولاث وحرقها ، وضعف أمرها فقال : ﴿يَصَحِّي الْسَّاجِنَاءِ بَابَ شَفَقَتْ حَتَّىْ أَمَرَ اللَّهُ الْوَجْدَ الْقَهَّارَ مَا عَبَدُوكُمْ مِنْ دُولَةٍ إِلَّا أَسْمَاءَ سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَإِبْرَؤُكُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَنٍ إِنَّ الْمُكْرَمَ إِلَّا لِلَّهِ﴾ أي المتصرف في خلقه الفعال لما يريد ، الذي يهدى من يشاء ويضل من يشاء ﴿أَمَّرَ الْأَنْعَمِدُوا إِلَيْأَنَّهُ أَنَّهُ أَنَّهُ أَنَّهُ أَنَّهُ أَنَّهُ أَنَّهُ﴾ أي وحده لا شريك له و﴿ذَلِكَ الَّذِينَ الْقَتَمُ﴾ أي المستقيم والصراط القويم ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ أي فهم لا يهتدون إليه معوضه وظهوره .

وكانت دعوته لهم في هذه الحال في غاية الكمال ، لأن نقوسهما معظمة له ، مبنعة على تلقي ما يقول بالقبول ، فناسب أن يدعوهما إلى ما هو الأنفع لهما مما سألا عنه وطلبا منه . ثم لما قام بما وجب عليه وأرشد إلى ما أرشد إليه قال : ﴿يَصَحِّي الْتَّاجِنَ أَمَّا أَحَدُكُمَا فَيَسْقِي رَبَّهُ خَمْرًا وَأَمَّا الْأَخْرَ فَيَصْلِبُ فَتَأْكُلُ الْطَّيْرُ مِنْ رَأْسِهِ فَقُنْيَ الْأَمْرُ الَّذِي فِيهِ تَسْقِيَاتِكَانَ﴾ أي وقع هذا لا محالة ، ووجب كونه على كل حالة .

وقد روي عن ابن مسعود ومجاهد وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم أنهما قالا : لم نر شيئاً ، فقال لهم : ﴿فُنْيَ الْأَمْرُ الَّذِي فِيهِ تَسْقِيَاتِكَانَ﴾ . ﴿وَقَالَ لِلَّذِي ظَنَّ أَنَّهُ نَاجٌ مِنْهُمَا أَذْكُرُنِي عِنْدَ رَبِّكَ فَأَنْسَنَهُ الشَّيْطَانُ ذَكْرَ رَبِّهِ، فَلَيَثَ فِي الْسَّاجِنِ بِضَعَ سِنِينَ﴾ . يخبر تعالى أن يوسف قال للذى ظنه ناجياً منهما وهو السافى : ﴿أَذْكُرُنِي عِنْدَ رَبِّكَ﴾ يعني اذكر أمري وما أنا فيه من السجن بغير جرم عند الملك . وفي هذا دليل على جواز السعي في الأسباب ، ولا ينافي ذلك التوكل على رب الأرباب .

﴿فَأَنْسَنَهُ الشَّيْطَانُ ذَكْرَ رَبِّهِ﴾ أي فأنسى الناجي منهما الشيطان أن يذكر ما وصاه به يوسف عليه السلام . قال مجاهد ومحمد بن إسحاق وغير واحد : وهو الصواب ، وهو منصوص أهل الكتاب .

﴿فَلَيَثَ﴾ يوسف ﴿فِي الْسَّاجِنِ بِضَعَ سِنِينَ﴾ والبعض : ما بين الثلاث إلى التسع ، ومن قال إن الضمير في قوله : ﴿فَأَنْسَنَهُ الشَّيْطَانُ ذَكْرَ رَبِّهِ﴾ عائد على يوسف فقد ضعف ما قاله ، وإن كان قد روى عن ابن عباس وعكرمة . والحديث الذي رواه ابن جرير في هذا الموضع ضعيف من كل وجه ، تفرد بإسناده إبراهيم بن بزيد الخوزي المكي وهو متrox . ومرسل الحسن وقتادة لا يقبل ، ولا ها هنا بطريق الأولى والأخرى . . والله أعلم .

[خروج يوسف من السجن] :

﴿وَقَالَ الْمَلِكُ إِنِّي سَيَّعَ بَقَرَتْ سِمَانَ يَأْكُلُهُنَّ سَيَّعَ عَجَافَ وَسَيَّعَ سُبْلَكَتْ حُصْرَ وَأَخْرَ يَأْسَتَتْ يَكَائِنَهَا الْمَلَأَ أَفَتُوْنَ فِي رُبَيْتَ إِنْ كَنْتَ لِلرَّءَةِ يَا تَعَدُّوْتَ ﴿١﴾ قَالُوا أَضَعْنَتْ أَخْلَمَ وَمَا نَخْنَ يَتَأْوِلُ الْأَخْلَمَ يَعْلَمِينَ ﴿٢﴾ وَقَالَ الَّذِي نَحْنَا مِنْهُمَا وَأَدَكَرَ بَعْدَ أَمْتَهَا أَنْيَنْكُمْ يَتَأْوِلُهُ، فَأَرْسَلُوْنَ ﴿٣﴾ يُوسُفُ أَيْهَا الْمُصَدِّقُ أَفَتَنَـ

فَسَيْعَ بَقَرَتِ سَمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَيْعَ عَجَافٌ وَسَيْعَ شُبَلَتِ حُضْرٍ وَأَخْرَ يَأْسَتِ لَعْلَى أَرْجِعٍ إِلَى النَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿١﴾ قَالَ زَرْعُونَ سَيْعَ سِينَ دَابِّاً فَمَا حَصَدْتُمْ فَدَرْوَهُ فِي سُبَلِهِ إِلَّا فَيْلَا مِمَّا نَأْكُلُونَ ﴿٢﴾ ثُمَّ يَأْتِي مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ سَيْعٌ شَدَادٌ يَأْكُلُ مَا قَدَّمْتُمْ هُنَّ إِلَّا فَيْلَا مِمَّا تُحْسِنُونَ ﴿٣﴾ ثُمَّ يَأْتِي مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ عَامٌ فِيهِ يَغْاثُ النَّاسُ وَفِيهِ يَعْصِرُونَ ﴿٤﴾ [يوسف: ٤٣ - ٤٩].

هذا كان من جملة أسباب خروج يوسف عليه السلام من السجن على وجه الاحترام والإكرام ، وذلك أن ملك مصر لما قصها على منه وقومه لم يكن فيهم من يحسن تعبيتها ، بل «**قَالُوا أَضْنَثْ أَخْلَمْ**» أي أخلاط أحلام من الليل ، لعله لا تعbir لها ، ومع هذا فلا خبرة لنا بذلك . ولهذا قالوا : «**وَمَا نَحْنُ يَتَأْوِلُ الْأَخْلَمَ يَعْلَمِينَ**» فعند ذلك تذكر الناجي منها ، الذي وصاه يوسف بأن يذكره عند ربه فسيه إلى حينه هذا ، وذلك عن تقدير الله عز وجل وله الحكمة في ذلك . فلما سمع رؤيا الملك ، ورأى عجز الناس عن تعبيتها ، تذكر أمر يوسف ، وما كان أوصاه به من التذكرة .

ولهذا قال تعالى : «**وَقَالَ الَّذِي نَجَّا مِنْهَا وَأَذْكَرَ**» أي تذكر «**بَعْدَ أُمَّةٍ**» أي بعد مدة من الزمن فقال لقومه وللملك : «**أَنَا أَنْتَكُمْ يَتَأْوِلُهُ فَأَرْسَلُونَ**» أي فأرسلون إلى يوسف فجاءه فقال : «**يُوسُفُ أَيُّهَا الصَّدِيقُ أَقْتَنَا فِي سَيْعَ بَقَرَتِ سَمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَيْعَ عَجَافٌ وَسَيْعَ شُبَلَتِ حُضْرٍ وَأَخْرَ يَأْسَتِ لَعْلَى أَرْجِعٍ إِلَى النَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَعْلَمُونَ**» .

فيذل يوسف عليه السلام ما عنده من العلم بلا تأخير ولا شرط ، ولا طلب الخروج سريعاً ، بل أجابهم إلى ما سألوه ، وعبر لهم ما كان من منام الملك ، الدال على وقوع سبع سنين من الخصب ويعقبها سبع جدب «**ثُمَّ يَأْتِي مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ عَامٌ فِيهِ يَغْاثُ النَّاسُ**» يعني يأتيهم الغيث والخصب والرفاهية «**وَفِيهِ يَعْصِرُونَ**» يعني ما كانوا يعصرونه من الأقصاب والأعتاب والزيتون والسمسم وغيرها .

فعبر لهم ، وعلى الخير دلهم ، وأرشدهم إلى ما يعتمدونه في حالتي خصبهم وجدبهم ، وما يفعلونه من ادخار حبوب سني الخصب في السبع الأولى في سنه ، إلا ما يرصد بسبب الأكل ، ومن تقليل البذر في سني الجدب في السبع الثانية ، إذ الغالب على العطن أنه لا يرد البذر من الحقل ، وهذا يدل على كمال العلم وكمال الرأي والفهم .

«**وَقَالَ الْمَلِكُ أَتُؤْنِي بِهِ فَلَمَّا جَاءَهُ الرَّسُولُ قَالَ أَرْجِعْ إِلَى رَبِّكَ فَسَأَلَهُ مَا بَالِ النِّسْوَةِ الَّتِي قَطَعْنَ أَيْدِيهِنَّ إِنَّ رَبِّي يُكَيِّدُهُنَّ عَلِيمٌ** ﴿٥﴾ قَالَ مَا خَطَبُكَ إِذْ رَوَدْتُنَّ يُوسُفَ عَنْ نَفْسِي قُلْنَ حَشَّ اللَّهُ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِنْ سُوءٍ قَالَتْ أَمْرَاتُ الْعَرَبِ إِنَّنَ حَصَصَ الْعُوْنَ أَنَّ رَوَدْتُنَّ عَنْ نَفْسِي وَإِنَّهُ لِيَنَ الصَّدِيقِ ﴿٦﴾ ذَلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخْنَهُ بِالْنَّيْبِ وَلَنَ اللَّهُ لَا يَهْدِي كَيْدَ الْمُلَائِكَنَ ﴿٧﴾ وَمَا أَبْرِقُ نَفْسِي إِنَّ النَّفْسَ لَا مَارَأَهُ بِالسُّوءِ إِلَّا مَارَجَمَ رَبِّي إِنَّ رَبِّي عَفُورٌ رَّحِيمٌ [يوسف: ٥٠ - ٥٣] .

لما أحاط الملك علماً بكمال علم يوسف عليه الصلاة والسلام ، وتمام عقله ، ورأيه السديد وفهمه ، أمر بإحضاره إلى حضرته ، ليكون من جملة خاصة . فلما جاءه الرسول بذلك ،

أحب إلا يخرج حتى يتبيّن لكل أحد أنه جنس ظلماً وعدواناً ، وأنه بريء الساحة مما نسبوه إليه بعثاناً . ﴿ قَالَ أَتَرْجِعُ إِلَيْ رِيلَكَ ﴾ يعني الملك ﴿ فَسَأَلَهُ مَا بَالُ الْيَسْوَةِ الَّتِي قَطَّعَنِي إِنَّ رَبِّي يُكَيِّهُنَّ عَلَيْمٌ ﴾ قيل معناه: إن سيد العزيز يعلم براءتي مما نسب إلىَّ ، أي فمر الملك فليسألهم: كيف كان امتناعي الشديد عند مراودتهن إباهي؟ وحثهن لي على الأمر الذي ليس برشيد ولا سديد؟ .

فلما سئلن عن ذلك اعترف بما وقع من الأمر ، وما كان منه من الأمر الحميد ﴿ قَلَّتْ حَشَّ لِلَّهِ مَا عِلِّمْنَا عَلَيْهِ مِنْ سُوءٍ ﴾ . فعند ذلك ﴿ قَالَتْ أَنْرَاتُ الْعَزِيزِ ﴾ وهي زليخا ﴿ أَقْنَ حَمَّصَ حَمَّصَ الْحَقَّ ﴾ أي: ظهر وتبين واضح ، والحق أحق أن يتبع ﴿ أَنَا رَوَدْتُهُ عَنْ تَقْسِيمٍ، وَإِنَّمَا لِيَنَ الصَّدِيقَيْنَ ﴾ أي فيما يقوله ، ومن أنه بريء ، وأنه لم يراودني ، وأنه جنس ظلماً وعدواناً ، وزوراً وبعثاناً . قوله: ﴿ ذَلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخْنَهُ بِالْغَيْبِ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي كَيْدَ الْخَائِنِينَ ﴾ قيل: إنه من كلام يوسف ، أي إنما طلبت تحقيق هذا لِيعلم العزيز أني لم أخنه بظاهر الغيب . وقيل: إنه من تمام كلام زليخا ، أي: إنما اعترفت بهذا لِيعلم زوجي أني لم أخنه في نفس الأمر ، وإنما كان مراودة لم يقع معها فعل فاحشة .

وهذا القول هو الذي نصره طائفة من أئمة المتأخرین وغیرهم . ولم يبحک ابن جریر وابن أبي حاتم سوى الأول . ﴿ وَمَا أَبْرَىئُ فَقِيسَ إِنَّ النَّفْسَ لِأَمَارَةٍ إِلَّا مَارَجَمَ رَبِّي إِنَّ رَبِّي عَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ قيل: إنه من كلام يوسف . وقيل: من كلام زليخا وهو مفرع على القولين الأولين وكونه من تمام كلام زليخا أظهر وأنسب وأقوى ، والله أعلم .

[تولی يوسف وزارة المالية]:
 ﴿ وَقَالَ الْمَلِكُ أَتُؤْفِي بِهِ أَسْتَخْضُفُ لِنَفْسِي فَلَمَّا كَلَمَهُ قَالَ إِنَّكَ الْيَوْمَ لَدَنَا مَكِينٌ أَمِينٌ ﴾ [٢١] ﴿ قَالَ أَجْعَلْنَى عَلَى خَزَائِينَ الْأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلَيْمٌ ﴾ [٢٢] وَذَلِكَ مَكَانًا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ سَبَوْا مِنْهَا حَيْثُ يَشَاءُ ثُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَشَاءً وَلَا نُصِيبُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ [٢٣] وَلَأَجْرُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ لِلَّذِينَ إِيمَانُهُ وَكَانُوا يَكْفُونَ ﴾ [يوسف: ٥٤ - ٥٧].

لما ظهر للملك براءة عرضه ، ونزاهة ساحته بما كانوا أظهروا عنه مما نسبوه إليه ﴿ وَقَالَ الْمَلِكُ أَتُؤْفِي بِهِ أَسْتَخْضُفُ لِنَفْسِي ﴾ أي أجعله من خاصتي ، ومن أكابر دولتي ، ومن أعيان حاشيتها ، فلما كلمه وسمع مقاله وتبيّن حاله ﴿ قَالَ إِنَّكَ الْيَوْمَ لَدَنَا مَكِينٌ أَمِينٌ ﴾ أي ذو مكانة وأمانة .

﴿ قَالَ أَجْعَلْنَى عَلَى خَزَائِينَ الْأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلَيْمٌ ﴾ طلب أن يوليه النظر فيما يتعلق بالأهرام لما يتوقع من حصول الخلل فيما بعد مضي سبع سنين الخصب ، لينظر فيها بما يرضي الله في خلقه ، من الاحتياط لهم والرفق بهم ، وأخبر الملك أنه حفيظ ، أي قوي على حفظ ما لديه أمين عليه ، عليم بضبط الأشياء ومصالح الأهرام . وفي هذا دليل على جواز طلب الولاية لمن علم من نفسه الأمانة والكفاءة .

قال الله تعالى : « وَكَذَلِكَ مَكَنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ يَتَبَوَّأُ مِنْهَا حَيْثُ شَاءَ » أي بعد السجن والضيق والحصار ، صار مطلق الركاب بديار مصر ، « يَتَبَوَّأُ مِنْهَا حَيْثُ شَاءَ » أي أين شاء حل منها مكرماً محسوداً معظماً .

« تُصْبِيْ بِرَحْمَتِنَا مَنْ شَاءَ وَلَا تُنْصِبِيْ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ » أي هذا كله من جزاء الله وثوابه للمؤمن من مع ما يدخر له في آخرته من الخير الجزيل والثواب الجميل . ولهذا قال : « وَلَأَجْرُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ لِلَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَنْقُضُونَ » .

[التقاء يوسف بإخوه] :

« وَجَاءَ إِخْوَةُ يُوسُفَ فَدَخَلُوا عَلَيْهِ فَعَرَفُوهُمْ وَهُمْ لَهُ مُنْكِرُونَ ⑤٦ وَلَمَّا جَهَّزَهُمْ بِمَا هَازُوهُمْ قَالَ أَتُنُوْفِي يَأْنَى لَكُمْ مِنْ أَيْكُمْ أَلَا تَرَوْنَ أَيْنَ أُوفِيَ الْكِيلَ وَأَيْنَ خَيْرُ الْمُتَزَلِّينَ ⑤٧ فَإِنَّ لَهُ تَأْنُوفٍ يِدَهُ فَلَا كَيْنَ لَكُمْ عِنْدِي وَلَا نَقْرَبُونَ ⑤٨ قَالُوا سَرِّبُونَ عَنْهُ أَبَاهُ وَإِنَّا لَفَنْطُولُونَ ⑤٩ وَقَالَ لِيَنِيْسِيهُ أَجْعَلُوكُمْ يَضْعُنُوكُمْ فِي رِعَالِهِمْ لِعَاهُمْ يَعْرُفُونَهَا إِذَا انْقَلَبُوكُمْ إِلَى أَهْلِهِمْ لِعَاهُمْ يَرْجِعُونَ ⑥٠ » [يوسف : ٥٨ - ٦٢] .

يخبر تعالى عن قدوم إخوة يوسف عليه السلام إلى الديار المصرية يمتازون طعاماً ، وذلك بعد إتيان سني الجدب وعمومها علىسائر العباد والبلاد . وكان يوسف عليه السلام إذ ذاك الحاكم في أمور الديار المصرية ديناً ودنياً . فلما دخلوا عليه عرفهم ولم يعرفوه ، لأنه لم يخطر ببالهم ما صار إليه يوسف عليه السلام من المكانة والعظمة ، فلهموا عرفهم وهم له منكرون .

قال تعالى : « وَلَمَّا جَهَّزَهُمْ بِمَا هَازُوهُمْ » أي أعطاهم من الميرة ما جرت به عادته ، من إعطاء كل إنسان حمل بغير لا يزيد عليه « قَالَ أَتُنُوْفِي يَأْنَى لَكُمْ مِنْ أَيْكُمْ » وكان قد سألهم عن حالهم ، وكم هم؟ فقالوا : كنا اثنى عشر رجلاً ، فذهب من واحد وبقي شقيقه عند أبينا . فقال : إذا قدمتم من العام المقبل فاتتوني به معكم .

« أَلَا تَرَوْنَ أَيْنَ أُوفِيَ الْكِيلَ وَأَيْنَ خَيْرُ الْمُتَزَلِّينَ ⑥١ » أي قد أحسنتم نزلكم وقرائكم ، فرغبهم ليأتوه به ثم رهبةهم إن لم يأتوه به فقال : « فَإِنَّ لَهُ تَأْنُوفٍ يِدَهُ فَلَا كَيْنَ لَكُمْ عِنْدِي وَلَا نَقْرَبُونَ ⑥٢ » أي فلست أعطيكم ميرة ، ولا أقربكم بالكلية ، عكس ما أسدى إليهم أولاً . فاجتهد في إحضاره معهم لليل شوقه منه بالترغيب والترهيب .

« قَالُوا سَرِّبُونَ عَنْهُ أَبَاهُ ⑥٣ » أي سنجتهد في مجبيه معنا وإتيانه إليك بكل ممكن ، « وَإِنَّا لَفَنْطُولُونَ ⑥٤ » أي وإننا لقادرون على تحصيله . ثم أمر فتianه أن يضعوا بضاعتهم وهي ما جاؤوا به يتعرضون به عن الميرة في أمتعتهم من حيث لا يشعرون بها « لِعَاهُمْ يَعْرُفُونَهَا إِذَا انْقَلَبُوكُمْ إِلَى أَهْلِهِمْ لِعَاهُمْ يَرْجِعُونَ ⑥٥ » .

« فَلَمَّا جَعَوْا إِلَيْهِمْ قَالُوا يَا أَبَانَا مُنْعَيْ مِنَ الْكِيلِ فَأَرْسَلَ مَعَنَا أَخَانَا نَكْتَلَ وَإِنَّا لَهُ لَحَفِظُونَ ⑥٦ » قال هل مامنكتم عليه إلا كمأمنتم على أخيه من قبل فالله خير حفظاً وهو أرحم الرحيمين ⑥٧ ولما فتحوا ممتلكتهم وجدوا بضاعتهم ردت إليهم قائلوا يَا أَبَانَا مَا بَقَى هَذِهِ بِضَعَنَا رَدَتْ إِلَيْنَا وَتَبَرَّ ⑥٨ =

أهْلَنَا وَخَفَّظَ أَخَانَا وَزَدَادَ كَيْلَ بَعِيرٍ ذَلِكَ كَيْلَ سَيْرٌ ﴿١﴾ قَالَ لَنْ أَرْسِلَهُ مَعَكُمْ حَتَّى تُؤْتُونَ مَوْتَانِي
اللَّهُ لَنْ أَنْتُنِي بِهِ إِلَّا أَنْ يَحْاطَ بِكُمْ فَلَمَّا آتَوْهُ مَوْفَقَهُمْ قَالَ اللَّهُ عَلَى مَا نَقُولُ وَكِيلٌ ﴿٢﴾ وَقَالَ يَسِيفٌ لَا تَدْخُلُوا مِنْ بَابٍ
وَجِدْرٍ وَادْخُلُوا مِنْ أَبْوَابِ مُتْفَرِّقةٍ وَمَا أَعْنِي عَنْكُمْ مِنْ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ إِنَّ الْحُكْمَ إِلَّا لِلَّهِ عَلَيْهِ تَوْكِيدٌ وَعَلَيْهِ
فِلَيْسَوْكِلَ الْمُتَوَكِّلُونَ ﴿٣﴾ وَلَمَّا دَخَلُوا مِنْ حَيْثُ أَمْرَهُمْ أَبْوَاهُمْ مَا كَانَ يُعْنِي عَنْهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا
حَاجَةً فِي نَفْسٍ يَعْقُوبَ فَضَّلَهَا وَإِنَّهُ لَذُو عِلْمٍ لِمَا عَلِمَنَهُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٤﴾ [يوسف: ٦٨ - ٦٣]

يذكر تعالى ما كان من أمرهم بعد رجوعهم إلى أبيهم وقولهم له: «مُنِعَ مِنَ الْكِيْلِ» أي بعد عامنا هذا إن لم ترسل علينا أخانا ، فإن أرسلته علينا لم يمنعنا . «وَلَمَّا فَتَحُوا مَتَّعَهُمْ وَجَدُوا
يُضْعِفُهُمْ رَدَّتِ إِلَيْهِمْ قَالُوا يَأْبَانَا مَا نَبَغِي» أي شيء نريد وقد ردت إلينا بضاعتنا؟ «وَنَمِيرٌ
أَهْلَنَا» أي نمتاز لهم ونأتيهم بما يصلحهم في سنتهم ومحلهم ، «وَخَفَّظَ أَخَانَا وَزَدَادَ» بسيبه
«كَيْلَ بَعِيرٍ» . قال الله تعالى: «ذَلِكَ كَيْلَ سَيْرٌ» أي في مقابلة ذهب ولده الآخر .
وكان يعقوب عليه السلام أحسن شيء بولده بنيamins ، لأنه كان يشم فيه رائحة أخيه ويتسلى به عنه ، ويعتوض بسيبه منه . فلهذا قال: «لَنْ أَرْسِلَهُ مَعَكُمْ حَتَّى تُؤْتُونَ مَوْتَانِي اللَّهُ لَنْ أَنْتُنِي بِهِ إِلَّا
أَنْ يَحْاطَ بِكُمْ» أي إلا أن تغلبوا كلكم عن الإتيان به . «فَلَمَّا آتَوْهُ مَوْفَقَهُمْ قَالَ اللَّهُ عَلَى مَا نَقُولُ
وَكِيلٌ» .

أكد المواثيق وقرر العهود ، واحتاط لنفسه في ولده ، ولن يعني حذر من قدر ا ولولا حاجة
وحاجة قومه إلى الميرة ، لما بعث الولد العزيز ، ولكن الأقدار لها أحكام ، والرب تعالى
يقدر ما يشاء ويختار ما يريد ، ويحكم ما يشاء وهو الحكيم العليم .

ثم أمرهم ألا يدخلوا المدينة من باب واحد ، ولكن ليدخلوا من أبواب متفرقة . وقيل: أراد
الآية يصيّبهم أحد بالعين ، وذلك لأنهم كانوا أشكالاً حسنة وصوراً بدعة . قاله ابن عباس
ومجاهد ومحمد بن كعب وقادة والسدلي والضحاك .

وقيل: أراد أن يتفرقوا لعلهم يجدون خبراً ليوسف أو يحدثون عنه بأثر . قاله إبراهيم
النخعي ، والأول أظهر . ولهذا قال: «وَمَا أَعْنِي عَنْكُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ» . وقال تعالى: «وَلَمَّا
دَخَلُوا مِنْ حَيْثُ أَمْرَهُمْ أَبْوَاهُمْ مَا كَانَ يُعْنِي عَنْهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا حَاجَةً فِي نَفْسٍ يَعْقُوبَ فَضَّلَهَا
وَإِنَّهُ لَذُو عِلْمٍ لِمَا عَلِمَنَهُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٤﴾ وَلَمَّا دَخَلُوا عَلَى يُوسُفَ مَا وَرَى إِلَيْهِ
أَخَاهُ قَالَ إِنِّي أَأْخُوكَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٥﴾ فَلَمَّا جَاءَهُمْ جَهَازِهِمْ جَعَلَ السَّقَابَةَ فِي
رَحْلِ أَخِيهِ ثُمَّ أَذَنَ مُؤْذِنَ أَيْتَهَا الْعِدَّ إِنَّكُمْ لَسَرَفُونَ ﴿٦﴾ قَالُوا وَأَقْبَلُوا عَلَيْهِمْ مَا دَأْنَاقْدُونَ ﴿٧﴾ قَالُوا فَنَقْدُ
صُوَاعَ الْمَلِكِ وَلَمَنْ جَاءَ بِهِ حَذَلْ بَعِيرٍ وَلَمَنْ بِهِ رَعِيمٌ ﴿٨﴾ قَالُوا تَالَّهِ لَقَدْ عَلِمْتُمْ مَا جَعَلْنَا لِنَفْسِيَدَ فِي
الْأَرْضِ وَمَا كَانُوا سَرِقِينَ ﴿٩﴾ قَالُوا فَمَا جَرَوْهُ إِنْ كُنْتُمْ كَذَّابِينَ ﴿١٠﴾ قَالُوا جَرَوْهُ مِنْ وَحْدَهُ فِي رَحْلِهِ فَهُوَ
جَرَوْهُ كَذَّالِكَ بَخِزِي الظَّالِمِينَ ﴿١١﴾ فَبَدَا يَأْرُعِيهِمْ قَبْلَ وَعَاءَ أَخِيهِ ثُمَّ أَسْتَخْرَجَهَا مِنْ وَعَاءَ أَخِيهِ
كَذَّالِكَ كَذَّالِكَ لَيُوْسِفَ مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِي دِينِ الْمَلِكِ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ نَرْفَعَ دَرْخَتِ مَنْ شَاءَ وَنَوْقَهُ

كُلَّ ذِي عِلْمٍ عَلَيْهِ ۝ قَالُوا إِن يَسِّرُ فَقَدْ سَرَقَ أَخَّهُ لَهُ مِنْ قَبْلٍ فَأَسْرَهَا يُوسُفُ فِي نَفْسِهِ، وَلَمْ يَتَدَهَّهْ فَوْلَى أَنْتَشَ شَرًّا مَكَانًا وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَصْنَعُونَ ۝ قَالُوا يَتَاهَا الْعَزِيزُ إِنَّ لَهُ أَبَا شَيْخًا كِبِيرًا فَخَذَ أَحَدَنَا مَكَانَهُ إِنَّا نَرَكَنُ مِنَ الْمُحْسِنِينَ ۝ قَالَ مَعَاذَ اللَّهُ أَن نَأْخُذَ إِلَّا مَنْ وَجَدْنَا مَتَعَنًا عَنْهُ إِنَّا إِذَا لَظَلَمْوْكَ ۝ [يوسف: ٦٨ - ٧٩].

يدرك تعالى ما كان من أمرهم حين دخلوا بأبيهم بنiamin على شقيقه يوسف ، وإيواهه إليه ، وإخباره له سراً عنهم بأنه أخوه ، وأمره بكتم ذلك عنهم ، وسلامه عما كان منهم من الإساءة إليه .

ثم احتال على أخيه منهم وتركه إياه عنده دونهم ، فأمر فتيانه بوضع سقايته ، وهي التي كان يشرب بها ويكتب بها للناس الطعام ، عن غرة في متاع بنiamin ، ثم أعلمهم بأنهم قد سرقوا صواع الملك ، ووعدهم جعالة على رده ، حمل بغير ، وضمنه المندادي لهم . فأقبلوا على من اتهمهم بذلك فأتبهوه وهجئوه فيما قاله لهم : **«قَالُوا أَنَّهُ لَقَدْ عَلِمْتُمْ مَا جَنَّتُمُ التَّقْسِيدَ فِي الْأَرْضِ وَمَا كَاسَرْقِنَ»** يقولون : أنت تعلمون مما خلاف ما رأيتمونا به من السرقة .

«قَالُوا فَمَا حَرَثْتُمْ إِنْ كُنْتُمْ كَذَّابِينَ ۝ قَالُوا حَرَثْنَا مَنْ وُجِدَ فِي رَحْلِهِ فَهُوَ حَرَثُهُ كَذَّالِكَ بَحْرِي الظَّالِمِينَ ۝ وهذه كانت شريعتهم : أن السارق يدفع إلى المسروق منه . ولهذا قالوا : **«كَذَّالِكَ بَحْرِي الظَّالِمِينَ ۝»**.

قال الله تعالى : **«فَبَدَا يَأْوِعَتِهِمْ قَبْلَ وِعَاءَ أَخِيهِمْ أَسْتَخْرَجَهَا مِنْ وَعَاءَ أَخِيهِمْ ۝** ليكون ذلك أبعد للتهمة وأبلغ في العibble ، ثم قال الله تعالى : **«كَذَّالِكَ كَذَّنَا لِيُوشَفَ مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِي دِينِ الْمَلِكِ ۝** أي لو لا اعترافهم بأن جراءه من وجد في رحله فهو جراوه ، لما كان يقدر يوسف على أخذه منهم في سياسة ملك مصر **«إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ تَرْفَعُ دَرَجَتِي مَنْ شَاءُ ۝** أي في العلم **«وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ ۝»**.

وذلك لأن يوسف كان أعلم منهم ، وأتم رأياً وأقوى عزماً وحرماً ، وإنما فعل ما فعل عن أمر الله له في ذلك ، لأنه يتربت على هذا الأمر مصلحة عظيمة بعد ذلك ، من قدوة أبيه وقومه عليه ووفدهم إليه .

فلما عاينوا استخراج الصواع من حمل بنiamin **«قَالُوا إِن يَسِّرُ فَقَدْ سَرَقَ أَخَّهُ لَهُ مِنْ قَبْلُ ۝** يعنيون يوسف .

«قَالُوا إِن يَسِّرُ فَقَدْ سَرَقَ أَخَّهُ لَهُ مِنْ قَبْلٍ فَأَسْرَهَا يُوسُفُ فِي نَفْسِهِ، ۝ وهي كلامه بعدها ، وقوله **«أَنْتُمْ شَرُّ مَكَانًا وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَصْنَعُونَ ۝** أجابهم سراً لا جهراً ، حلماً وكرماً وصفحاً وغفوا ، فدخلوا معه في الترفق والتعطف فقالوا : **«يَاتَاهَا الْعَزِيزُ إِنَّ لَهُ أَبَا شَيْخًا كِبِيرًا فَخَذَ أَحَدَنَا مَكَانَهُ إِنَّا نَرَكَنُ مِنَ الْمُحْسِنِينَ ۝ قَالَ مَعَاذَ اللَّهُ أَن نَأْخُذَ إِلَّا مَنْ وَجَدْنَا مَتَعَنًا عَنْهُ إِنَّا إِذَا لَظَلَمْوْكَ ۝** أي إن أطلقنا المتهم وأخذنا البريء ، وهذا ما لا نفعله ولا نسمح به ، وإنما نأخذ من وجدنا متابعاً عنه .

﴿فَلَمَّا أَسْتَيْسُوا مِنْهُ خَلَصُوا بَيْنًا قَالَ كَيْرَهُمْ أَلَمْ تَعْلَمُوا أَنَّ أَبَكُمْ قَدْ أَخْذَ عَلَيْكُمْ مَوْقِعًا مِنَ اللَّهِ وَمِنْ قَبْلُ مَا فَرَطْتُمْ فِي يُوسُفَ فَلَنْ أَبْرَحَ الْأَرْضَ حَتَّى يَأْذَنَ لِي أَنِي أَوْيَخُكُمْ اللَّهُ لِي وَهُوَ خَيْرُ الْحَكَمِينَ﴾ آرْجُوْمَا إِلَيْ أَيْسِكُمْ فَقُولُوا يَتَابَا إِنْكَ سَرَقَ وَمَا شَهَدْنَا إِلَّا بِمَا عَلِمْنَا وَمَا كُنَّا لِغَيْبِ حَفَظِينَ ﴿١١﴾ وَسَلَّلَ الْفَرِيرَةَ الَّتِي كُنَّا فِيهَا وَالْعِيرَ الَّتِي أَقْبَلْنَا فِيهَا وَإِنَّا الصَّدِيقُونَ ﴿١٢﴾ قَالَ بَلْ سَوْلَتْ لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ أَنْرَا فَصَبَرْ جَيْلَ عَمَّى اللَّهَ أَنْ يَأْتِيَنِي بِهِمْ جَيْعَمَا إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ وَتَوَلَّ عَنْهُمْ وَقَالَ يَتَأْسَفَ عَلَيْ بُوسْفَ وَيَبْيَضَتْ عَيْنَاهُ مِنَ الْحَرْزِ فَهُوَ كَطِيمٌ ﴿١٣﴾ قَالُوا نَّا اللَّهُ تَعَالَى تَقْتُلُنَا تَذَكَّرُ يُوسُفَ حَتَّى تَكُونَ حَرَضًا أَوْ تَكُونَ مِنَ الْهَلَكَيْنَ ﴿١٤﴾ قَالَ إِنَّمَا أَشْكُوْبَيْ وَحْزَنَ إِلَى اللَّهِ وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿١٥﴾ يَبْيَئِي أَذْهَبُوا فَتَحَسَّسُوا مِنْ يُوسُفَ رَاجِيْهِ وَلَا تَأْتِسُوا مِنْ رَجْعِ اللَّهِ إِنَّهُ لَا يَأْتِسُ مِنْ رَجْعِ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْكُفَّارُونَ﴾ [يوسف : ٨٧ - ٨٠]

يقول تعالى مخبراً عنهم لما استيأسوا من أخذه منه: خلصوا يتاجرون فيما بينهم ، قال كبيرهم: « أَلَمْ تَعْلَمُوا أَنَّ أَبَكُمْ قَدْ أَخْذَ عَلَيْكُمْ مَوْقِعًا مِنَ اللَّهِ » لتأنثني به إلا أن يحاط بكم؟ لقد أخلفتم عهده ، وفرطتم فيه كما فرطتم في أخيه يوسف من قبله ، فلم يبق لي وجه أقابله « فَلَنْ أَبْرَحَ الْأَرْضَ » أي لا أزال مقيناً هناها « حَتَّى يَأْذَنَ لِي أَنِي » في القدوم عليه ، « أَوْيَخُكُمْ اللَّهُ لِي » بأن يقدرنى على رد أخي إلى أبي « وَهُوَ خَيْرُ الْحَكَمِينَ » .

« آرْجُوْمَا إِلَيْ أَيْسِكُمْ فَقُولُوا يَتَابَا إِنْكَ سَرَقَ » أي أخبروه بما رأيتم من الأمر في ظاهر مشاهد « وَمَا شَهَدْنَا إِلَّا بِمَا عَلِمْنَا وَمَا كُنَّا لِغَيْبِ حَفَظِينَ ﴿١١﴾ وَسَلَّلَ الْفَرِيرَةَ الَّتِي كُنَّا فِيهَا وَالْعِيرَ الَّتِي أَقْبَلْنَا فِيهَا » أي فإن هذا الذي أخبرناك به - من أخذهم أخانا لأنه سرق - أمر اشتهر بمصر وعلمه من مع العبر التي كنا نحن وهم هناك « وَإِنَّا الصَّدِيقُونَ » .

« قَالَ بَلْ سَوْلَتْ لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ أَنْرَا فَصَبَرْ جَيْلَ » أي ليس الأمر كما ذكرتم، لم يسرق ، فإنه ليس سجية له ولا خلقة. وإنما « سَوْلَتْ لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ أَنْرَا فَصَبَرْ جَيْلَ » .

ثم قال: « عَمَّى اللَّهَ أَنْ يَأْتِيَنِي بِهِمْ جَيْعَمَا إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ » أي بحالى وما أنا فيه من فراق الأحبة « الْحَكِيمُ » فيما يقدرها ويفعله ، وله الحكمة البالغة والحججة القاطعة. « وَتَوَلَّ عَنْهُمْ » أي أعرض عن بنيه: « وَقَالَ يَتَأْسَفَ عَلَيْ بُوسْفَ » ذكره حزنه الجديد بالحزن القديم ، وحرك ما كان كامناً .

وقوله: « وَيَبْيَضَتْ عَيْنَاهُ مِنَ الْحَرْزِ » أي من كثرة البكاء ، « فَهُوَ كَطِيمٌ » أي مكظم من كثرة حزنه وأسفه وشوفه إلى يوسف. فلما رأى بنوه ما يقاريه من الوجد وألم الفراق « قَالُوا » له على وجه الرحمة والرأفة والحرص عليه: « نَّا اللَّهُ تَعَالَى تَقْتُلُنَا تَذَكَّرُ يُوسُفَ حَتَّى تَكُونَ حَرَضًا أَوْ تَكُونَ مِنَ الْهَلَكَيْنَ » . يقولون: لا تزال تذكرة حتى ينحل جسدك وتضعف قوتك ، فلو رفقت بنفسك كان أولى بك .

« قَالَ إِنَّمَا أَشْكُوْبَيْ وَحْزَنَ إِلَى اللَّهِ وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ » يقول لبنيه: لست أشكو إليكم ولا إلى أحد من الناس ما أنا فيه ، إنما أشكو إلى الله عز وجل ، وأعلم أن الله سيجعل

لي مما أنا فيه فرجاً ومخروجاً ، وأعلم أن رؤيا يوسف لا بد أن تقع ، ولا بد أن أسجد له أنا وأنت حسب ما أرى . ولهذا قال : ﴿وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ .

ثم قال لهم محرباً على تطلب يوسف وأخيه ، وأن يبحروا عن أمرهما : ﴿يَبْيَأَ أَذْهَبُوا فَتَحَسَّسُوا مِنْ يُوسُفَ وَأَخِيهِ وَلَا يَأْتُسُوا مِنْ رَجْعِ اللَّهِ إِنَّمَا لَا يَأْتُسُوا مِنْ رَجْعِ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ﴾ أي لا تأسوا من الفرج بعد الشدة ، فإنه لا يأس من روح الله وفرجه ، وما يقدره من المخرج في المضائق ، إلا القوم الكافرون .

﴿فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَيْهِ قَالُوا يَا بَنِيَّا الْعَزِيزُ مَسَّنَا وَاهْنَا الظُّرُورُ وَجَحَنَّمَ فَأَوْفِ لَنَا الْكِيلَ وَنَصَدِّقَ عَيْنَنَا إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ الْمُصَدِّقِينَ﴾ [١٩] ﴿قَالَ هُلْ عِلْمُنَا مَا فَعَلْنَا يُوسُفَ وَأَخِيهِ إِذَا أَنْتُمْ جَهَلُونَ﴾ [٢٠] ﴿قَالَ أَوْنَكَ لَأَنَّتِ يُوسُفَ قَالَ أَنَا يُوسُفُ وَهَذَا أَخِي قَدْ مَرَّ اللَّهُ عَيْنَنَا إِنَّمَا مَنْ يَتَّقِيَ وَيَصِيرُ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ﴾ [٢١] ﴿قَالَ أَوْنَالَى لَهُ لَقَدْ مَرَّ اللَّهُ عَيْنَنَا وَإِنْ كُنَّا لَحَاطِبِينَ﴾ [٢٢] ﴿قَالَ لَا تَنْتَرِبْ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ يَغْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾ [٢٣] ﴿أَذْهَبُوا يَقْبِيْمِيْ هَذَا فَالْقُوْهُ عَلَى وَجْهِ أَيِّ بَانِيَّ بَصِيرًا وَأَتُوْفِ بِأَهْلِكُمْ جَمِيعَيْنَ﴾ [٢٤] [يوسف : ٨٨ - ٩٣] .

يخبر تعالى عن رجوع إخوة يوسف إليه وقد وهم عليه ، ورغبتهم فيما لديه من الميرة ، والصدقة عليهم برد أخيهم بنيامين إليهم : ﴿فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَيْهِ قَالُوا يَا بَنِيَّا الْعَزِيزُ مَسَّنَا وَاهْنَا الظُّرُورُ﴾ أي من الجدب وضيق الحال وكثرة العيال ، ﴿وَجَحَنَّمَ فَأَضَعَعَهُ مُرْجَحَةً﴾ أي ضعيفة لا يقبل مثلها من إلا أن تتجاوز عنا ﴿فَأَوْفِ لَنَا الْكِيلَ وَنَصَدِّقَ عَيْنَنَا إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ الْمُصَدِّقِينَ﴾ .

فلما رأى ما هم فيه من الحال ، وما جاؤوا به مما لم يبق عندهم سواه من ضعيف المال ، تعرف إليهم وعطف عليهم ، قائلاً لهم عن أمر ربه وربهم ، وقد حسر عن جبينه الشريف ، وما يحويه من الحال الذي يعرفون فيه : ﴿هُلْ عِلْمُنَا مَا فَعَلْنَا يُوسُفَ وَأَخِيهِ إِذَا أَنْتُمْ جَهَلُونَ﴾ . ﴿قَالُوا﴾ وتعجبوا كل العجب ، وقد ترددوا إليه مراراً عديدة ، وهم لا يعرفون أنه هو ﴿أَوْنَكَ لَأَنَّتِ يُوسُفَ﴾ .

﴿قَالَ أَنَا يُوسُفُ وَهَذَا أَخِي﴾ يعني أنا يوسف الذي صنعتم معه ما صنعتم ، وسلف من أمركم فيه ما فرطتم . قوله : ﴿وَهَذَا أَخِي﴾ تأكيد لما قال ، وتنبيه على ما كانوا أصموا لهما من الحسد ، وعملوا في أمرهما من الاحتياط . ولهذا قال : ﴿قَدْ مَرَّ اللَّهُ عَيْنَنَا﴾ أي ياحسانه إلينا وصدقته علينا ، وإيوائه لنا وشده معاقده عزنا ، وذلك بما أسلفنا من طاعة ربنا ، وصبرنا على ما كان منكم ، وطاعتنا وبرنا لأبينا ، ومحبته الشديدة لنا ، وشفقته علينا ﴿إِنَّمَا مَنْ يَتَّقِيَ وَيَصِيرُ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ﴾ .

﴿قَالَ أَوْنَالَى لَهُ لَقَدْ مَرَّ اللَّهُ عَيْنَنَا﴾ أي فضلوك وأعطيتك ما لم يعطنا ﴿وَإِنْ كُنَّا لَحَاطِبِينَ﴾ أي فيما أسلينا إليك ، وهو نحن بين يديك . ﴿قَالَ لَا تَنْتَرِبْ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ﴾ أي لست أعتابكم على ما كان منكم بعد يومكم هذا . ثم زادهم على ذلك فقال : ﴿يَغْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾ ومن زعم أن الوقف على قوله ﴿لَا تَنْتَرِبْ عَلَيْكُمُ﴾ وابتداً بقوله :

﴿الْيَوْمَ يَغْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ﴾ قوله ضعيف وال الصحيح الأول.

ثم أمرهم بأن يذهبوا بقميصه ، وهو الذي يلي جسده ، فيضعلوه على عيني أبيه ، فإنه يرجع إليه بصره بعدما كان ذهب ، بإذن الله ، وهذا من خوارق العادات ودلائل النبوات وأكبر المعجزات . ثم أمرهم أن يتحملوا بأهلهم أجمعين إلى ديار مصر ، إلى الخير والدعة وجمع الشمل بعد الفرقة ، على أكمل الوجوه وأعلى الأمور .

﴿وَلَمَّا فَصَلَّتِ الْعِيرُ قَالَ أَبُوهُمَّ إِنِّي لَأَحِدُ رِيحَ يُوسُفَ لَوْلَا أَنْ تُفْدِيَنِ ﴿١١﴾ قَالُوا تَالَّهُ إِنَّكَ لَفِي صَلَّاكَ الْفَكِيدِ ﴿١٢﴾ فَلَمَّا أَنْ جَاءَ الْبَشِيرُ الْفَتَنَةُ عَلَى وَجْهِهِ، فَازْتَدَ بَصِيرًا قَالَ اللَّهُ أَقْلَكَ لَكُمْ إِنِّي أَغْنَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿١٣﴾ قَالُوا يَا بَنَانَا أَسْتَغْفِرُ لَنَا ذُوبَنَا إِنَّا كُنَّا خَطِئِينَ ﴿١٤﴾ قَالَ سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّكُمْ إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ [يوسف: ٩٤ - ٩٨].

قال عبد الرزاق : أنبأنا إسرائيل ، عن أبي سنان ، عن عبد الله بن أبي الهذيل ، سمعت ابن عباس يقول : ﴿وَلَمَّا فَصَلَّتِ الْعِيرُ﴾ قال : لما خرجت العبر حاجت ريح ، فجاءت بعقوب برياح قميص يوسف فقال : ﴿إِنِّي لَأَحِدُ رِيحَ يُوسُفَ لَوْلَا أَنْ تُفْدِيَنِ﴾ قال : فوجد ريحه من مسيرة ثلاثة أيام . وكذا رواه الثوري وشعبة وغيرهم عن أبي سنان به . وقال الحسن البصري وابن جرير المكي : كان بينهما مسيرة ثمانين فرسخا ، وكان له منذ فارقه ثمانون سنة . وقوله : ﴿لَوْلَا أَنْ تُفْدِيَنِ﴾ أي تقولون : إنما قلت هذا من الفند ، وهو الخرف وكبار السن .

قال ابن عباس وعطاء ومجاهد وسعيد بن جبير وقتادة ﴿تُفْدِيَنِ﴾ تسفهون . وقال الله تعالى : ﴿فَلَمَّا أَنْ جَاءَ الْبَشِيرُ الْفَتَنَةُ عَلَى وَجْهِهِ، فَازْتَدَ بَصِيرًا﴾ أي بمجرد ما جاء ألقى القميص على وجهه بعقوب فرجع من فوره بصيراً بعدما كان ضريراً . وقال لبنيه عند ذلك : ﴿أَلَمْ أَقْلَكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ أي أعلم أن الله سيجمع شملي بيوسف ، وسيقر عيني به ، وسيرني فيه ومنه ما يسرني .

فمنذ ذلك : ﴿قَالُوا يَا بَنَانَا أَسْتَغْفِرُ لَنَا ذُوبَنَا إِنَّا كُنَّا خَطِئِينَ﴾ طلبوا منه أن يستغفر لهم الله عز وجل عما كانوا فعلوا ونالوا منه ومن ابنته ، وما كانوا عزموا عليه ، ولما كان من نيتهم التوبة قبل الفعل وفهم الله للاستغفار عند وقوع ذلك منهم ، فأجابهم أبوهم إلى ما سألوا ، وما عليه عولوا فقال : ﴿سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّكُمْ إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ .

[يوسف وأبواه] :

﴿فَلَمَّا دَحَلُوا عَلَى يُوسُفَ مَا وَرَى إِلَيْهِ أَبُوهُمَّ وَقَالَ أَذْهَلُوا مِصْرَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ إِمَّا مِنْ ﴿١٥﴾ وَرَفَعَ أَبُوهُمَّ عَلَى الْعَرْشِ وَخَرَأُوا لَهُ سُجَّداً وَقَالَ يَتَبَّأْتَ هَذَا تَأْوِيلُ رَبِّيَّ مِنْ قِبْلَةٍ جَعَلَهَا رَبِّيَ حَقَّاً وَقَدْ أَحْسَنَ بِإِذْ أَخْرَجَنِي مِنَ السَّجْنِ وَجَاءَ بِكُمْ مِنَ الْبَدْوِ مِنْ بَعْدَ أَنْ نَزَّغَ الشَّيْطَانُ بَيْنِ رَبِّيَّ وَبَنِيِّ لِتُغْوِيَ إِنَّ رَبِّيَ لَطِيفٌ لِمَا يَشَاءُ إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيُّمُ الْحَكِيمُ ﴿١٦﴾ رَبِّ قَدْ أَتَيْتَنِي مِنَ الْمُلْكِ وَعَلَمْتَنِي مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ فَاطَّرَ الْسَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ أَنَّ وَلِيَ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ تَوْفِيَ مُسْلِمًا وَالْحَقِيقَى بِالصَّدِيقِينَ﴾ [يوسف: ٩٩ - ١٠١].

هذا إخبار عن حال اجتماع المتحابين بعد الفرقه الطويلة .

ذكر يعقوب وأولاده

ثم خبره تعالى عن إخوة يوسف ومجيئهم إلى أبيه عشاءً يبكون ، يذكرون له

وظاهر سياق القصة يرشد إلى تحديد المدة تقريرًا ، فان المرأة راودته وهو شاب فامتنع ، فكان في السجن بضع سنين ، ثم أخرج فكانت سنوات الخصب السبع ، ثم لما أمحل الناس في السبع الباقي ، جاء إخوته يمتارون في السنة الأولى وحدهم ، وفي الثانية ومعهم إخوه بنiamين ، وفي الثالثة تعرف إلىهم وأمرهم بإحضار أهليهم أجمعين ، فجاؤوا كلهم .

﴿فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَى يُوسُفَ أَوَّلَتْ إِلَيْهِ أَبُوَيْهِ﴾ واجتمع بهما خصوصاً وحدهما دون إخوته ، **﴿وَقَالَ أَدْخُلُوا وَصَرِّ إِنْ شَاءَ اللَّهُ مَا شِئْنَ﴾**.

قال الله تعالى : **﴿وَرَفَعَ أَبُوَيْهِ عَلَى الْعَرْشِ﴾**.

ورفعهما على العرش ، أي أجسلهما معه على سريره : **﴿وَخَرُولَهُ سُجَّدًا﴾** أي سجد له الآباء والإخوة الأحد عشر ، تعظيمًا وتكريماً وكان هذا مشروعًا لهم ، ولم يزل ذلك عمولاً به في سائر الشرائع حتى حرم في ملتنا.

﴿وَقَالَ يَأَبَتِ هَذَا تَأْوِيلُ رَبِّيَّ مِنْ قَبْلُ﴾ أي هذا تعبير ما كنت قصصته عليك : من روائي الأحد عشر كوكباً والشمس والقمر ، حين رأيتهم لي ساجدين ، وأمرتني بكتمانها ، ووعدتني ما وعدتني عند ذلك **﴿قَدْ جَعَلَهَا رَبِّيْ حَقًا وَقَدْ أَحَسَّنَ بِإِذْ أَخْرَجَنِي مِنَ الْتَّيْجَنِ﴾** أي بعد لهم والضيق ، جعلني حاكماً نافذاً الكلمة في الديار المصرية حيث شئت **﴿وَجَاهَ بِكُمْ مِنَ الْبَدْرِ﴾** أي البدية . وكانوا يسكنون أرض العربات من بلاد الخليل **﴿مِنْ بَعْدِ أَنْ تَزَغَّ أَشَّيْطَنُ بَيْنِ وَبَيْنِ إِخْوَتِكَ﴾** أي فيما كان منهم من الأمر الذي تقدم وسبق ذكره .

ثم قال : **﴿إِنَّ رَبِّيَ لَطِيفٌ لِمَا يَشَاءُ﴾** أي إذا أراد شيئاً هيئاً أسبابه ، ويسراها وسهلها من وجوه لا يهتدى إليها العباد ، بل يقدرها وييسرها بلطيف صنعه وعظيم قدرته . **﴿إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ﴾** بالأمور **﴿الْحَكِيمُ﴾** في خلقه وشرعه وقدره .

ثم لما رأى يوسف عليه السلام نعمته قد تمت ، وشمله قد اجتمع ، وعرف أن هذه الدار لا يقر بها قرار ، وأن كل شيء فيها ومن عليها فان ، وما بعد التمام إلا النقصان ، فعند ذلك أثني على ربه بما هو أهله ، واعترف له بعظيم إحسانه وفضله ، وسأل منه - وهو خير المسؤولين - أن يتوفاه ، أي حين يتوفاه على الإسلام ، وأن يلحقه بعباده الصالحين ، وهكذا كما يقال في الدعاء : «اللهم أحينا مسلمين وتوفنا مسلمين» أي حين توفانا . اـ كلام ابن كثير بتصرف .

أن يوسف أكله الذئب، وقول والدهم: «بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبَرُوا جَيِّلٌ»^(١). (١: ٣٣٣).

ثم خبره جل جلاله عن مجيء السيارة ، وإرسالهم واردهم ، وإخراج الوارد يوسف وإعلامه أصحابه به بقوله: «يَبْشِرَى هَذَا غَلَمٌ» يبشرهم^(٢). (١: ٣٣٣).

وتحدث النساء بأمر يوسف وأمر امرأة العزيز بمصر ومراؤتها إياه على نفسها فلم ينكتم ، وقلن: «أَمْرَاتُ الْعَزِيزِ تُرَوِّدُ فَنَّهَا عَنْ نَفْسِهِ، قَدْ شَغَّفَهَا حُبًّا» قد وصل حب يوسف إلى شغاف قلبها فدخل تحته حتى غلب على قلبها . وشغاف القلب: غلافه وحجابه^(٣). (١: ٣٤٠).

حدثني سليمان بن عبد الجبار ، قال: حدثنا محمد بن الصلت ، قال: حدثنا أبو كُديْنَة ، عن حُصَيْن ، عن مجاهد ، عن ابن عباس: «وَأَعْتَدْتَ لَهُنَّ مُتَكَبِّرَاتٍ كُلَّا وَنِجَادَةٌ مِنْهُنَّ سِكِينَةً» ، قال: أعطتهن أَتْرُجَّا ، وأعطيت كل واحدة منها سكيناً.

فلما فعلت امرأة العزيز ذلك بهنّ ، وقد أجلست يوسف في بيته ومجلس غير المجلس الذي هنّ فيه جلوس ، قالت ليوسف: «أَخْرُجْ عَلَيْهِنَّ» ، فخرج يوسف عليهنّ ، فلما رأينه أجلنته وأكبرنه وأعظمنه ، وقطععن أيديهين بالسلاكين التي في أيديهين ، وهن يحسبن أنهن يقطعن بها الأترج ، وقلن: معاذ الله ما هذا إنس ، «إِنْ هَذَا إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ» . فلما حلّ بهنّ ما حلّ من قطع أيديهين من أجل نظره نظرناها إلى يوسف وذهاب عقولهنّ ، وعرفتهن خطأ قيلهنهن: «أَمْرَاتُ الْعَزِيزِ تُرَوِّدُ فَنَّهَا عَنْ نَفْسِهِ» ، وإنكارهن ما أنكرن من أمرها أقرّت عند ذلك لهنّ بما كان من مراؤتها إياه على نفسها ، فقالت: «فَذَلِكُنَّ الَّذِي لَمْ تُنْتَنِ فِيهِ وَلَقَدْ رَوَدُوهُمْ عَنْ نَفْسِهِ فَأَسْتَعْصِمُ» بعد ما حل سراويله^(٤). (١: ٣٤١/٣٤٠).

حدثنا ابن وكيع ، قال: حدثنا عمرو بن محمد ، عن أسباط ، عن السديّ: «قَالَ رَبِّ الْسِّجْنِ أَحَبُّ إِلَيَّ مَا يَدْعُونِي إِلَيْهِ» من الزنى ، واستغاث بربه عز وجل

(١) صحيح.

(٢) صحيح.

(٣) صحيح.

(٤) صحيح.

قال : ﴿وَإِلَّا تَصْرِفُ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبِطُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُنْ مِنَ الْجَاهِلِينَ﴾ . فأخبر الله عز وجل أنه استجاب له دعاءه ، فصرف عنه كيدهن ونجاه من ر Cobb الفاحشة ، ثم بدا للعزيز من بعد ما رأى من الآيات ما رأى من قد القميص من الدبر ، وخمس في الوجه ، وقطع النسوة أيديهن وعلمه ببراءة يوسف مما قُرف به في ترك يوسف مطلقاً^(١) . (١ : ٣٤١)

فقيل : كان إحسانه ما حدثنا به إسحاق بن أبي إسرائيل ، قال : حدثنا خلف بن خليفة ، عن سلمة بن نبيط ، عن الضحاك قال : سأله رجل الضحاك عن قوله : ﴿إِنَّا نَرَيْكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ﴾ : ما كان إحسانه؟ قال : كان إذا مرض إنسان في السجن قام عليه ، وإذا احتاج جمع له ، وإذا ضاق عليه المكان وسع له ، فقال لهما يوسف : ﴿لَا يَأْتِي كُمَا طَعَامٍ تُرْزَقَانِيهِ﴾ في يومكما هذا ﴿إِلَّا بَأْتَكُمَا بِتَوْيِلِهِ﴾ في اليقظة . فكره صلى الله عليه أن يعبر لهما ما سأله عنه ، وأخذ في غير الذي سألا عنه لما في عبارة ما سألا عنه من المكره على أحدهما فقال : ﴿يَتَصَبِّجِي السِّجْنَ أَرْبَابٌ مُتَفَرِّغُونَ خَيْرٌ أَمْ اللَّهُ الْوَجْدُ الْقَهَّارُ﴾^(٢) . (١ : ٣٤٣)

حدثنا ابن وكيع ، قال : حدثنا ابن فضيل ، عن عمارة - يعني ابن القعاع - عن إبراهيم ، عن علقة ، عن عبد الله ، في الفتىين اللذين أتيا يوسف في الرؤيا إنما كانوا تحالما ليخبراه ، فلما أُول رؤياهما قالا : إنما كنا نلعب فقال : ﴿فُصِّنِيَ الْأَمْرُ الَّذِي فِيهِ تَسْفِيَاتٍ﴾ ثم قال لـ «نبو» - وهو الذي ظن يوسف أنه ناج منها : ﴿أَذْكُرْنِي عِنْدَ رَبِّكَ﴾ يعني عند الملك ، وأخبره أنني محبوس ظلماً ، ﴿فَأَسْأَلُهُ الْشَّيْطَانُ ذِكْرَ رَبِّهِ﴾ ، غفلة عرضت لي يوسف من قبل الشيطان^(٣) . (١ : ٣٤٤ / ٣٤٣)

فحدثنا بشر بن معاذ ، قال : حدثنا يزيد ، قال : حدثنا سعيد ، عن قتادة ، ﴿أَفَتَنَا فِي سَبْعَ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ﴾ فالسمان المخاصيب ، والبقرات العجاف هن السنون المحول الجدوب . قوله : ﴿وَسَبْعَ سُبْلَكٍ حُضْرٍ وَأَخْرَى يَأْسَتِ﴾ أما الخضر

(١) صحيح.

(٢) صحيح.

(٣) صحيح.

فهنَّ السنون المخاصيب ، وأما اليابسات فهنَّ الجدوب المحول^(١) . (١ : ٣٤٥) .

فلما أخبر يوسف نبو بتأويل ذلك ، أتى نبو الملك ، فأخبره بما قال له يوسف ، فعلم الملك أنَّ الذي قال يوسف من ذلك حقّ ، قال: ائتوني به .

فحديثنا ابن وكيع ، قال: حدثنا عمرو ، عن أسباط ، عن السديّ ، قال: لما أتى الملك رسوله فأخبره ، قال: ائتوني به ، فلما أتاه الرسول ودعاه إلى الملك أبي يوسف الخروج معه ، وقال: ﴿أَرْجِعْ إِلَيْ رَبِّكَ فَسَأَلَهُ مَا بِالنِّسْوَةِ الَّتِي قَطَعْتَ أَيْمَانَهُنَّ إِنَّ رَبِّي يَكْدِهِنَ عَيْم﴾^(٢) . (١ : ٣٤٦ / ٣٤٥) .

قال السديّ: قال ابن عباس: لو خرج يوسف يومئذ قبل أن يعلم الملك بشأنه ما زالت في نفس العزيز منه حاجة ، يقول: هذا الذي راود امرأتي . فلما رجع الرسول إلى الملك من عند يوسف جمع الملك أولئك النساء ، فقال لهنَّ: ما خطبكَنَ إذ راودتنَ يوسف عن نفسه! قلن - فيما حديثنا ابن وكيع ، قال: حدثنا عمرو ، عن أسباط ، عن السديّ قال: لما قال الملك لهنَّ: ﴿مَا خَطَبْكُنَّ إِذْ رَوَدْتُنَ يُوسُفَ عَنْ نَفْسِهِ، قُلْنَ حَشَّ لِلَّهِ مَا عِلْمَنَا عَلَيْهِ مِنْ سُوءٍ﴾؛ ولكن امرأة العزيز أخبرتنا أنها رواده عن نفسه ، ودخلت معها البيت ، فقالت امرأة العزيز حينئذ: ﴿أَلَمْ حَصَّصَ الْحُقُوقُ أَنَّ رَوَدْتُهُ عَنْ نَفْسِهِ، وَإِنَّمَا لِمَنِ الْصَّدِيقَيْنَ﴾. فقال يوسف: ذلك هذا الفعل الذي فعلت من ترددي رسول الملك بالرسالات التي أرسلت في شأن النساء ، ليعلم أطفير سيدي ﴿أَلَيْ لَمْ أَخْتَهُ بِالْغَيْبِ﴾ في زوجته راعيل ، ﴿وَأَنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي كَيْدَ الْمُغَيْبِينَ﴾^(٣) . (١ : ٣٤٦).

فلما تبين للملك عذرُ يوسف وأمانته قال: ﴿أَتَوْنِ يَهُهَ أَسْتَخْلِصُهُ لِنَفْسِي فَلَمَّا﴾ أتى به ﴿كَلَمْهُ قَالَ إِنَّكَ الْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ﴾. فقال يوسف للملك: ﴿أَجْعَلْنِي عَلَى خَرَائِينَ الْأَرْضِ﴾^(٤) . (١ : ٣٤٧).

فحديثني يونس ، قال: أخبرنا ابن وهب ، قال: قال ابن زيد في قوله:

(١) صحيح.

(٢) صحيح.

(٣) معنى هذا التفسير صحيح إلا أن الأسماء (أطفير ، وراعيل) لم ترد في خبر صحيح.

(٤) صحيح.

﴿أَجْعَلَنِي عَلَى حَزَارِينَ الْأَرْضِ﴾ قال: كان لفرعون خزائن كثيرة غير الطعام ، فسلم سلطانه كله إليه ، وجعل القضاء إليه أمره ، وقضاؤه نافذ^(١). (١: ٣٤٧).

حدثنا ابن وكيع ، قال: حدثنا عمرو ، عن أسباط ، عن السدي: ﴿وَكَذَلِكَ مَكَّنَا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ يَتَبَوَّأُ مِنْهَا حَيْثُ يَشَاءُ﴾ قال: استعمله الملك على مصر ، وكان صاحب أمرها ، وكان يلي البيع والتجارة وأمرها كله ، فذلك قوله: ﴿وَكَذَلِكَ مَكَّنَا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ يَتَبَوَّأُ مِنْهَا حَيْثُ يَشَاءُ﴾ . فلما ولد يوسف للملك خزائن أرضه واستقرَّ به القرار في عمله ، ومضت السنون السبع المخصبة التي كان يوسف أمر بترك ما في سبل ما حصدوا من الزرع فيها ، ودخلت السنون المجدبة وفَحَطَ الناس ، أجدبت بلاد فلسطين فيما أجدب من البلاد ، ولحق مكروه ذلك آل يعقوب في موضعهم الذي كانوا فيه ، فوجه يعقوب بنيه^(٢). (١: ٣٤٨ / ٣٤٧).

وحدثنا ابن حميد ، قال: حدثنا سلمة ، عن ابن إسحاق ، قال: كان يوسف حين رأى ما أصاب الناس من الجهد قد آسى بينهم ، فكان لا يحمل للرجل إلا بعيراً واحداً ، ولا يحمل الواحد بغيرين تقسيطاً بين الناس ، وتوسيعاً عليهم ، فقدم عليه إخوه فيمن قدم عليه من الناس يلتمسون الميرة من مصر ، فعرفهم وهم له منكرون لما أراد الله تعالى أن يبلغ بيوسف فيما أراد. ثم أمر يوسف بأن يوقر لكل رجل من إخوه بعيره ، فقال لهم: ائتوني بأخيكم من أبيكم ، لأحمل لكم بعيراً آخر ، فتردادوا به حمل بعير: ﴿أَلَا تَرَوْنَ أَنِّي أُوفِي الْكِيلَ﴾ فلا أبخسه أحداً ، ﴿وَأَنَا خَيْرُ الْمُتَزَلِّنَ﴾ . وأنا خير من أنزل ضيفاً على نفسه من الناس بهذه البلدة ، فأنا أضيفكم ﴿فَإِنْ لَمْ تَأْتُونِي﴾ بأخيكم من أبيكم فلا طعام لكم عندي أكيله ، ولا تقربوا بلادي. وقال لفتیانه الذين يكيلون الطعام لهم: ﴿أَجْعَلُو بِضَعَفِهِمْ﴾ وهي ثمن الطعام الذي اشتروه به ﴿فِي رِحَالِهِمْ﴾^(٣). (١: ٣٤٩).

حدثنا بشر ، قال: حدثنا يزيد بن زريع ، قال: حدثنا سعيد ، عن قتادة:

(١) صحيح.

(٢) صحيح.

(٣) إسناده ضعيف ومعناه صحيح في تفسيره للآيات.

﴿أَجْعَلُوا بَضَّعَفَتِهِمْ فِي رِحَالِهِمْ﴾ ، أي ورقتهم ، فجعلوا ذلك في رحالهم وهم لا يعلمون^(١) . (٣٤٩ : ١) .

قال يعقوب : ﴿لَنْ أُرِسِّلَكُمْ مَعَكُمْ حَتَّى تُؤْتُونَ مَوْقِتاً مِنْ أَنَّ اللَّهَ لَتَأْتِنَّ بِهِ إِلَّا أَنْ يُحَاطَ بِكُمْ﴾ يقول : إلا أن تهلكوا جميعاً ، فيكون حينئذ ذلك لكم عذرًا عندي ، فلما وثقوا له بالإيمان قال يعقوب : ﴿اللَّهُ عَلَى مَا نَقُولُ وَكِيلٌ﴾^(٢) . (٣٥١ : ١) .

ثم أوصاهم بعد ما أذن لأخيهم من أبيهم بالرحيل معهم ، ألا تدخلوا من باب واحد من أبواب المدينة خوفاً عليهم من العين ، وكانوا ذوي صورة حسنة ، وجمال وهيئة ، وأمرهم أن يدخلوا من أبواب متفرقة ، كما حدثنا محمد بن عبد الأعلى ، قال : حدثنا محمد بن ثور ، عن معمر ، عن قتادة : ﴿وَأَدْخُلُوا مِنْ أَبْوَابِ مُتَفَرِّقَةٍ﴾ ، قال : كانوا قد أوتوا صورة وجمالاً ، فخشى عليهم أنفس الناس ، فقال الله تبارك وتعالى : ﴿وَلَمَّا دَخَلُوا مِنْ حَيْثُ أَمْرَهُمْ أَبْوَاهُمْ مَا كَانَ يُغْنِي عَنْهُمْ مِنْ أَنَّ اللَّهَ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا حَاجَةً فِي نَفْسٍ يَعْقُوبَ قَضَنَهَا﴾ ، وكانت الحاجة التي في نفس يعقوب فقضتها ما تخوف على أولاده أعين الناس لهيئتهم وجمالهم^(٣) . (٣٥١ : ١) .

حدثنا الحسن بن محمد ، قال : حدثنا عفان ، قال : حدثنا عبد الواحد ، عن يونس ، عن الحسن أنه كان يقول : الصُّوَاعُ والسَّقَايَةُ سَوَاءُ ، هَمَا الْإِنَاءُ الَّذِي يُشَرِّبُ فِيهِ ، وَجَعْلُ ذَلِكَ فِي رَحْلِ أَخِيهِ ، وَالْأَخُ لَا يُشَعِّرُ فِيمَا ذَكَرَ^(٤) . (٣٥٢ : ١) .

حدثنا ابن وكيع ، قال : حدثنا عمرو ، عن أسباط ، عن السديّ : ﴿فَلَمَّا جَهَّزُوهُمْ بِمَا زَهَّمُوا جَعَلَ السَّقَايَةَ فِي رَحْلِ أَخِيهِ﴾ ، والأخ لا يشعر ، فلما ارتحلوا أذن مؤذن قبل أن ترحل العير : ﴿إِنَّكُمْ لَسَرِقُونَ﴾^(٥) . (٣٥٢ : ١) .

حدثنا ابن وكيع ، قال : حدثنا عمرو ، عن أسباط ، عن السديّ ، قال :

(١) صحيح.

(٢) صحيح.

(٣) صحيح.

(٤) صحيح.

(٥) صحيح.

﴿فَالْوَأْوَلُ فَعَمَا جَرَوْهُ إِن كُنْتُمْ كَذِينَ ﴾قَالُوا﴿ تَأْخِذُونَهُ؛ فَهُوَ لَكُمْ. فَبَدَا يُوسُفُ بِأَوْعِيَةِ الْقَوْمِ قَبْلَ وَعَاءِ أَخِيهِ بَنِيَامِينَ، فَفَتَّشَهَا ثُمَّ اسْتَخْرَجَهَا مِنْ وَعَاءِ أَخِيهِ لِأَنَّهُ أَخَّرَ تَفْتِيشَهُ﴾^(١). (١: ٣٥٣ - ٣٥٤).

حدثنا الحسن بن محمد ، قال: حدثنا شابة ، قال: حدثنا ورقاء ، عن ابن أبي نجيح ، عن مجاهد: قوله: ﴿مَا كَانَ لِي أَخْدَ أَخَاهُ فِي دِينِ الْمَلِكِ﴾ إلا بعلة كادها الله له ، فاعتلى بها يوسف ، فقال إخوة يوسف حينئذ: ﴿إِن يَسْرِقْ فَقَدْ سَرَقَ أَخْ لَهُمْ مِنْ قَبْلِ﴾ يعنيون بذلك يوسف^(٢). (١: ٣٥٤).

فلما رجعوا إلى أبيهم فأخبروه خبر بنiamين ، وتخلف روبيل قال لهم: بل سوَلتُ لكم أنفسكم أمراً أردتموه ، فصبر جميل لا جزع فيه على ما نالني من فقد ولدي ، عسى الله أن يأتيني بهم جميعاً يوسف وأخيه وروبيل.

ثم أعرض عنهم يعقوب وقال: ﴿يَكَاسِفَنَ عَلَى يُوسُفَ﴾ يقول الله عز وجل: ﴿وَأَيَّضَتْ عَيْنَاهَا مِنْ الْحُرْزِ فَهُوَ كَظِيمٌ﴾ ، مملوء من الحزن والغيظ . فقال له بنوه الذين انصرفوا إليه من مصر حين سمعوا قوله ذلك: تالله لا تزال تذكر يوسف فلا تفتر من حبه وذكره حتى تكون دتفَ الجسم ، مخبول العقل من حبه وذكره ، هرِماً باليأ أو تموت!

فأجابهم يعقوب فقال: إنما أشكو بشي وحزني إلى الله لا إليكم ، وأعلم من الله ما لا تعلمون من صدق رؤيا يوسف؛ لأن تأويلها كائن ، وأنني وأنتم سنسجد له^(٣). (١: ٣٥٧).

حدثنا ابن وكيع قال: حدثنا عمرو ، عن أسباط ، عن السدي ، قال: لما قال لهم يوسف: ﴿أَنَا يُوسُفُ وَهَذَا أَخِي﴾ اعتذروا وقالوا: ﴿تَاللهُ لَقَدْ أَثْرَكَ اللَّهُ عَلَيْكُمَا وَإِن كُنُّا لَخَاطِئِينَ﴾ . قال لهم يوسف: ﴿لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ يَعْفُرُ اللَّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾ . فلما عرَّفُهم يوسف نفسه سأله عن أخيه^(٤). (١: ٣٥٩).

(١) صحيح.

(٢) صحيح.

(٣) صحيح.

(٤) صحيح.

حدثنا ابن وكيع ، قال : حدثنا عمرو ، عن أسباط ، عن السديّ ، قال : قال يوسف : ما فعل أبي بعدي ؟ قالوا : لما فاته بنiamين عمّي من الحزن فقال : ﴿أَذْهَبُوا بِقَمِيصِي هَذَا فَالْقُوَّةُ عَلَى وَجْهِهِ أَنِّي يَأْتِي بَصِيرًا وَأَتُؤْفِي بِأَهْلِكُمْ أَجْمَعِينَ ﴾^(١) وَلَمَّا فَصَلَّتِ الْعِرْبُ ﴿عِرْبُ بْنِي يَعْقُوبَ﴾ ، قال يعقوب : ﴿إِنِّي لَأَحِدُ رِيحَتِ يُوسُفَ﴾^(٢) . (١ : ٣٥٩).

حدثنا محمد بن عبد الأعلى ، حدثنا محمد بن ثور ، عن معمر ، عن قتادة : ﴿وَخَرُّوا لِهِ سَجَدًا﴾ قال : كانت تحية الناس أن يسجد بعضهم لبعض ، وقال يوسف لأبيه : ﴿يَتَابَتْ هَذَا تَأْوِيلُ رُءْيَتِي مِنْ قَبْلِ قَدْ جَعَلَهَا رَأْيَ حَقًا﴾ ، يعني بذلك : هذا السجود منكم ، يدل على تأويل رؤياني التي رأيتها من قبل ، صنع إخوتي بي ما صنعوا ، وتلك الكواكب الأحد عشر والشمس والقمر ﴿قَدْ جَعَلَهَا رَأْيَ حَقًا﴾ . يقول : قد حق الرؤيا بمجيء تأويلها^(٢) . (١ : ٣٦٢)

* * *

قصة الخضر وخبره وخبر موسى وفتاه يوشع عليه السلام

والذى روى أبي بن كعب في ذلك عنه عليه السلام ما حدثنا أبو كريب ، قال : حدثنا يحيى بن آدم ، قال : حدثنا سفيان بن عيينة ، عن عمرو بن دينار ، عن سعيد ، قال : قلت لابن عباس : إن نوفاً يزعم أن الخضر ليس بصاحب موسى ، فقال : كذب عدو الله ، حدثنا أبي بن كعب عن رسول الله عليه السلام قال : إن موسى قام فيبني إسرائيل خطيباً فقيل : أي الناس أعلم ؟ فقال : أنا ، فعتب الله عليه حين لم يردد العلم إليه ، فقال : بل عبد لي عند مجمع البحرين ، فقال : يا رب ، كيف به قال : تأخذ حوتاً فتجعله في مكتل فحيث تفقدك فهو هناك . قال : فأخذ حوتاً فجعله في مكتل ، ثم قال لفتاه : إذا فقدت هذا الحوت فأخبرني . فانطلقا يمشيان على ساحل البحر حتى أتيا صخرة ، فرق موسى فاضطرب الحوت في المكتل ،

(١) صحيح.

(٢) صحيح.

فخرج فوق في البحر ، فأمسك الله عنه جزية الماء فصار مثل الطاق ، فصار للحوت سرباً ، وكان لهما عجباً. ثم انطلقا ، فلما كان حين الغداء قال موسى لفتاه: ﴿إِنَّا غَدَاءَنَا لَقَدْ لَقِينَا مِنْ سَفَرِنَا هَذَا نَصْبًا﴾ قال: ولم يجد موسى النصب حتى جاوز حيث أمره الله ، قال: فقال: ﴿أَرَيْتَ إِذَا وَيْنَاهُ إِلَى الصَّخْرَةِ فَإِنِّي نَسِيْتُ الْحَوْتَ وَمَا أَنْسَنِيَ إِلَّا الشَّيْطَانُ أَنْ ذَكَرْهُ وَأَنْهَذَ سَيْلَهُ فِي الْبَحْرِ عَجَابًا﴾ قال: فقال: ﴿ذَلِكَ مَا كَانَ تَبَعَّغَ فَارَتَنَا عَلَيْهِ أَثَارِهِمَا قَصَصًا﴾. قال: يقصدان آثارهما. قال: فأتي الصخرة ، فإذا رجل نائم مسجى بثوبه ، فسلم عليه موسى فقال: وأنت بأرضنا السلام! قال: أنا موسى ، قال: موسىبني إسرائيل؟ قال: نعم ، قال: يا موسى ، إني على علم من علم الله ، علمته الله لا تعلمه ، وأنت على علم من علم الله علّمك الله لا أعلمك ، قال: فإني أتبعك على أن تعلمني مما علمت رشداً. ﴿قَالَ إِنِّي أَتَبْعَثُنَّ فَلَا تَسْتَأْنِي عَنْ شَيْءٍ حَتَّى أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْرًا﴾. فانطلقا يمشيان على الساحل ، فإذا بملح في سفينه ، فعرف الخضر ، فحمله بغير نول ، فجاء عصفور فوقع على حرفها فنقر - أو فتقد - في الماء ، فقال الخضر لموسى: ما ينقص علمي وعلمك من علم الله إلا مقدار ما نقر - أو نقد - هذا العصفور من البحر.

قال أبو جعفر: أنا أشك ، وهو في كتابي هذا «نقر». قال: فبينما هم في السفينة لم يفجأ موسى إلا وهو يتذوق وتدأ أو يتزعج تحتنا منها ، فقال له موسى: حملنا بغير نول وتخربها لتعرق أهلها! ﴿لَقَدْ جِئْتَ شَيْنَا إِمْرَا﴾ ٦١ قالَ اللَّهُ أَفْلَى إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِعَ مَعِي صَبَرًا ٦٢ قالَ لَا تُؤَاخِذْنِي بِمَا نَسِيْتُ﴾ - قال فكانت الأولى من موسى نسياناً - قال: ثم خرجا فانطلقا يمشيان فأبصران غلاماً يلعب مع الغلمان ، فأخذ برأسه فقتله ، فقال له موسى: ﴿أَفْلَتَ نَفْسًا زَكِيَّةً بِغَيْرِ نَفْسٍ لَقَدْ جِئْتَ شَيْنَا ثُكْرًا ٦٣﴾ ٦٤ قالَ اللَّهُ أَفْلَى لَكَ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِعَ مَعِي صَبَرًا ٦٥ قالَ إِنْ سَأَلْتَنِي عَنْ شَيْءٍ بَعْدَهَا فَلَا تُصَنِّجْنِي قَدْ بَلَغْتَ مِنْ لَدْنِي عُذْرًا﴾.

فانطلقا حتى إذا أتيا أهل قرية استطعوا أهلها ، فلم يجدا أحداً يطعمهم ولا يسقيهم ، فوجدا فيها جداراً يريد أن ينقض فأقامه بيده - قال: مسحه بيده - فقال له موسى: لم يضيغونا ولم ينزلونا ، ﴿لَوْ شِئْتَ لَنَخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْرًا﴾. ﴿قَالَ هَذَا فِرَاقٌ بَيْنِي وَبَيْنَكَ﴾ قال: فقال رسول الله صلوات الله عليه وسلم: «لوددت أنه كان صبراً حتى يقصـ

علينا قصصهم^(١). (١ : ٣٦٧ / ٣٦٨).

حدثني العباس بن الوليد ، قال: أخبرني أبي قال: حدثنا الأوزاعي ، قال: حدثني الزهرى ، عن عبيد الله بن عبد الله بن عتبة بن مسعود ، عن ابن عباس: أنه تمارى هو والحر بن قيس بن حصن الفزارى في صاحب موسى ، فقال ابن عباس: هو الخضر ، فمر بهما أبي بن كعب ، فدعاه ابن عباس فقال: إني تماريت أنا وصاحبي هذا في صاحب موسى عليه السلام الذي سأله السبيل إلى لقائه ، فهل سمعت رسول الله يذكر شأنه؟ قال: نعم إني سمعت رسول الله يقول: «بینا موسی عليه السلام في ملأ من بني إسرائيل ، إذ جاءه رجل فقال: تعلم مكان أحد أعلم منك؟ قال موسى: لا ، فأوحى الله إلى موسى: بلى عبدنا الخضر ، فسأل موسى السبيل إلى لقائه ، فجعل الله الحوت آية ، وقال له: إذا افتقدت الحوت فارجع فإنك ستلقاه ، فكان موسى يتبع آثر الحوت في البحر ، فقال فتى موسى لموسى: «أَرَيْتَ إِذْ أَوْيَنَا إِلَى الصَّخْرَةِ فَإِنِّي شَيْطَانُ الْحُوتَ» ، قال موسى: «ذَلِكَ مَا كُنَّا نَبْغِي فَأَرَتَنَا عَلَى ءاثَارِهِمَا قَصْصًا» ، فوجدا الخضر ، فكان من شأنهما ما قصّ الله في كتابه^(٢). (١ : ٣٦٩ / ٣٦٨).

حدثني محمد بن مزوق قال: حدثنا حجاج بن المنهال ، قال: حدثنا عبد الله بن عمر النميري ، عن يونس بن يزيد ، قال: سمعت الزهرى يحدث قال: أخبرني عبيد الله بن عبد الله بن عتبة بن مسعود ، عن ابن عباس: أنه تمارى هو والحر بن قيس بن حصن الفزارى في صاحب موسى ، فذكر نحو حديث العباس عن أبيه^(٣). (١ : ٣٦٩).

ثم رجع الحديث إلى حديث السدى. قال: «وَلَمَّا وَرَدَ مَاءَ مَدِينَةَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً

(١) هذا إسناد صحيح والحديث صحيح ومن طريق سفيان هذا أخرجه البخاري مختصراً (ح ٤٧٢٥) ومطولاً (ح ٤٧٢٦) من طريق ابن جريج عن عمرو بن دينار به وسئلته على ذكر الحديث بعد قليل.

(٢) هذا إسناد صحيح وأخرجه البخاري من طريق الأوزاعي به كما عند الطبرى (صحيح البخاري / كتاب العلم / ح ٧٨) و(ح ٧٤٧٨).

(٣) صحيح ، وانظر ما قبله.

مِنَ النَّاسِ يَسْقُونَ يقول: كثرةً من الناس يسوقون^(١). (١: ٣٩٧).

حدثني أحمد بن محمد الطوسي ، قال: حدثنا الحميدى عبد الله بن الزبير ، قال: حدثنا سفيان ، قال: حدثني إبراهيم بن يحيى بن أبي يعقوب ، عن الحكم بن أبان ، عن عكرمة ، عن ابن عباس ، أن رسول الله ﷺ قال: «سألت جبرئيل: أي الأجلين قضى موسى؟ قال: أتمهما وأكملهما»^(٢). (١: ٣٩٩).

حدثنا ابن حميد ، قال: حدثنا سلمة ، قال: حدثني ابن إسحاق ، عن حكيم بن جابر ، عن سعيد بن جابر ، قال: قال لي يهودي بالكوفة - وأنا أتجهز للحج -: إنني أراك رجلاً يتبع العلم ، أخبرني أي الأجلين قضى موسى؟ قلت: لا أعلم وأنا الآن قادم على حَبْر العرب - يعني ابن عباس - فسألته عن ذلك ، فلما قدمت مكة سألت ابن عباس عن ذلك وأخبرته بقول اليهودي ، فقال ابن عباس: قضى أكثرهما وأطيهما؛ إن النبي إذا وَعَدَ لَمْ يُخْلِفْ . قال سعيد: فقدمت العراق فلقيت اليهودي فأخبرته ، فقال: صدق وما أنزل الله على موسى . هذا والله العالم^(٣). (١: ٣٩٩)

(١) صحيح.

(٢) في إسناده إبراهيم بن يحيى بن أبي يعقوب ، قال الحافظ في ترجمته عن الحكم بن أبان وعن سفيان بن عيينة بخبر منكر والرجل نكرة وحديثه عن الحميدى وهذا الرجل ذكره ابن حبان في الثقات (لسان الميزان/ ترجمة ٣٨١).

قلنا: ومن طريق إبراهيم هذا أخرجه الحاكم في المستدرك عن ابن عباس (أن النبي ﷺ سأله جبريل أي الأجلين قضى موسى قال: أتمهما) وقال الحاكم: هذا حديث صحيح ولم يخرجه المستدرك (٤٠٧/٢).

وآخرجه البزار من طريق أحمد بن أبان القرشي عن سفيان عن إبراهيم بن أعين عن الحكم بن أبان عن عكرمة عن ابن عباس مرفوعاً ، وقال البزار: لا نعرفه مرفوعاً عن ابن عباس إلا من هذا الوجه (كشف الأستار عن زوائد البزار ٦٣/٣).

وأخرج الخطيب عن أبي ذر مرفوعاً: (إذا سُئلت أي الأجلين قضى موسى؟ فقل: خيرهما وأبدهما... الحديث) (تأريخ بغداد ١٢٨) وفي إسناده عويد بن أبي عمران متروك.

وللحديث طرق أخرى مرسلة وموثقة تتعارض بها جمياً كما سنذكر بعد الروايتين التاليتين: (٣) هذا إسناد ضعيف إلا أن المتن صحيح موقفاً كما أخرج البخاري في طريقه من طريق سالم الأفطس عن سعيد بن جابر قال: سألهي يهودي من أهل العيرة أي الأجلين قضى موسى؟ قلت: لا أدرى حتى أقدم على حبر العرب فأسألته فقدمت ابن عباس فقال: قضى أكثرهما =

فندوي : «يَمُوسَى إِذْ أَنَّ اللَّهَ رَبُّ الْعَالَمِينَ». (١) وَمَا تَلَكَ يَمِينَكَ يَمُوسَى [١٧] قَالَ هِيَ عَصَائِي أَتَوْكَئُ عَلَيْهَا وَاهْشِ بِهَا عَلَى غَنَمِي» ، يقول : أضرب بها الورق ، فيقع للغنم من الشجر (ولَيْ فِيهَا مَارِبُ أُخْرَى) ، يقول : حوايج أخرى أحمل عليها المزود والسقاء ، فقال له : «أَلْقَهَا يَمُوسَى [١٩] فَأَلْقَنَهَا فَإِذَا هِيَ حَيَّةٌ تَسْعَ» ، (فَلَمَّا رَأَهَا نَهَرَ كَانَهَا جَانٌ وَلَيْ مُدْبِرًا وَلَقَ يُعْقِبَ) ، يقول : لم يتضرر . فندوي : «يَمُوسَى لَا تَخَفْ إِنِّي لَا يَخَافُ لَدَيَ الْمُرْسَلُونَ» ، (أَقِيلٌ وَلَا تَخَفْ إِنِّي مِنَ الْأَمِينِ) (٢) (وَأَضْمَمُ إِلَيْكَ جَنَاحَكَ مِنَ الرَّهْبِ فَذَرْنِكَ بِرَهْنَانَ مِنْ رَيْكَ) العصا واليد آيتان ، فذلك حين يدعو موسى ربه ، فقال : «رَبِّي إِنِّي فَلَتْ مِنْهُمْ نَفَسًا فَأَخَافُ أَنْ يَقْتُلُونِ [٢٣] وَأَخِي هَدْرُوبُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِي لِسَانًا فَأَرْسَلَهُ مَعِي رِدَاءً يُصْدِقُنِي» ، يقول : فيما يصدقني (إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُكَذِّبُونِ) قال : «وَلَهُمْ عَلَى ذَنْبٍ فَأَخَافُ أَنْ يَقْتُلُونِ» - يعني بالقتل - (قَالَ سَنَشِدُ عَصِيدَكَ يَأْخِيكَ وَتَجْعَلُ لَكُمَا سُلْطَنَانًا) - والسلطان الحجة - (فَلَا يَصِلُونَ إِلَيْكُمَا إِنَّا نَنْهَا أَنْتَمَا وَمِنْ أَتَبَعَكُمَا الْغَدَلُونَ) ، (فَأَتَيَا فِرْعَوْنَ فَقُولَا إِنَّا رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ) (١) . (١ : ٤٠١ / ٤٠١).

ولما جاوز بنبي إسرائيل البحر أتوا على قوم يعكفون على أصنام لهم ، (فَأَلَوْا

= وأطبيهما إن رسول الله إذا قال فعل (صحيح البخاري / ح ٢٦٨٤) .
 وإليك أقوال أئمة الحديث في هذه المسألة :

قال الحافظ ابن حجر بعد شرحه للحديث (٢٦٨٤) : وهو في حكم المرفوع لأن ابن عباس كان لا يعتمد على أهل الكتاب كما سيأتي بيانه في الباب الذي يليه (٥ / ٦٢٧) ط . دار الفكر .

وقال الحافظ ابن كثير : فهذه طرق متعاضدة (تفسير القرآن العظيم ٢٦٥٦ / ط . المنار) .
وقال الإمام الشوكاني : بعد سرده لبعض طرق الحديث : وأما روایات أنه قضى أتم الأجلين فلها طرق يقوى بعضها بعضاً (فتح القدير ٤ / ٢٠٦) .

أما من المعاصرین فقد رجح الشیخ عبد الرزاق المهدی وقفه (أحكام القرآن ١٧١٦) .
واما المحدث الألبانی فقد ذکر طرق الحديث وبين ضعف أسانیدها وذكر المرسل منها والموقوف والمرفوع ثم قال : فهذه طرق متعاضدة كما قال ابن كثير في تفسیره (٦ / ٣٣٥) فالحديث قوي . وقد رواه ابن جریر بسنده صحيح عن ابن عباس موقوفاً فهو من يقوى المرفوع لأنّه في حكمه والله أعلم (السلسلة الصحيحة ح ١٨٨٠) قلنا : والقول ما قاله الألبانی إلا أنه لم يذكر أن البخاري أخرجه كذلك موقوفاً عن ابن عباس (ح ٢٦٨٤) والله أعلم .

(١) صحيح .

يَمُوسَى أَجْعَلَ لَنَا إِلَّا هَمَّ إِلَهُهُ فَالْإِنْكُمْ قَوْمٌ بَجَهَلُونَ ﴿٢٧﴾ إِنَّ هَؤُلَاءِ مُتَّبِرُ مَا هُمْ فِيهِ وَنَطَّلُ
مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٢٨﴾ قَالَ أَغِيرُ اللَّهُ أَبْغِيْكُمْ إِلَهًا وَهُوَ فَصَلَّكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ ﴿٢٩﴾
وواعد الله موسى حين أهلك فرعون وقومه ونجاه وقومه ثلاثين ليلة^(١) .
(٤٢١ : ١) .

(١) صحيح.

لقد ذكرنا الرواية (٤٢٣ / ٦٧٧) في قسم الضعيف فإسناده لا يستقيم وفي متنه نكارة وهو خبر طويل يتضمن تفسير بعض الآيات في قصة موسى عليه السلام إلا أن جزءاً منه يسيراً (في بداية الخبر) من مكان الحسن - وقد أخرجه الطبرى موقوفاً على ابن عباس أنه قال: (تحلى منه مثل طرف الخنصر فجعل الجبل دكاً وخر موسى صعقاً).

فقد أخرج الترمذى من طريق عبد الله بن عبد الرحمن أخبرنا سليمان بن حرب حدثنا حماد بن سلمة عن ثابت عن أنس أن النبي ﷺ قرأ هذه الآية: «فَلَمَّا جَاءَنَّ رَبِيعَ الْجَمَادَ جَعَلَهُ دَكَّاً» .

قال حماد هكذا وأمسك سليمان بطرف إبهامه على أنملة إصبعه اليمنى ، قال: فساخ الجبل «وَخَرَّ مُؤْنَى صَوْقَأً» قال أبو عيسى هذا حديث حسن غريب صحيح لا نعرفه إلا من حديث حماد بن سلمة حدثنا عبد الوهاب الوراق البغدادى ، حدثنا معاذ عن حماد بن سلمة عن ثابت عن أنس عن النبي ﷺ نحوه ، هذا حديث حسن . اـهـ . (سنن الترمذى / كتاب تفسير القرآن / ح ٣٠٧٤) .

وآخرجه الحاكم من طريقين عن حماد بن سلمة عن ثابت عن أنس مرفوعاً وفيه قال حماد هكذا ووضع الإبهام على مفصل الخنصر الأيمن قال فقال حميد لثابت: تحدث بمثل هذا قال: فضرب ثابت صدر حميد ضربة بيده وقال رسول الله ﷺ يحدث به وأنما لا أحدث به.

وقال الحاكم: هذا حديث صحيح على شرط مسلم (المستدرك ٢ / ٣٢٠) والحديث أخرجه الطبرى في تفسيره (ح ١٥٠٧٨) و(ح ١٥٠٨٨) وأخرجه أحمد من طريق معاذ بن معاذ العنبرى قال: حدثنا حماد بن سلمة حدثنا ثابت عن أنس مرفوعاً (المستدرج ١٢٢٦) .

قلنا: وإسناده حسن صحيح . وقال العلامة أرناؤوط: إسناده صحيح على شرط مسلم ورجاله ثقات رجال الشيوخين غير حماد بن سلمة فمن رجال مسلم . اـهـ .

وال الحديث ذكره ابن الجوزى في الموضوعات (١ / ١٢٢) وأما ابن عدي (٤٣٠ / ٦١) فقد عده من غرائب حماد بن سلمة ، وأما من المعاصرین فقد صححه العلامة أرناؤوط كما ترى وكذلك صححه المحدث الألبانى (كما في صحيح سنن الترمذى) وأما الشيخ عبد الرزاق المهدى فضعفه وقال: ومع ذلك ذكره الألبانى في صحيح الترمذى جريباً منه على ظاهر الإسناد والذي أراه أنه معلوم لكن لا يتهيأ الحكم عليه بالوضع . وقد ورد من وجه آخر أخرجه الطبرى (١٥٠٩٦) . عن الأعمش عن رجل عن أنس وهذا إسناد ضعيف فيه راوٍ لم =

فلما كَلَمَ اللَّهُ مُوسَى طَمَعَ فِي رَؤْيَتِهِ ، فَسَأَلَ رَبَّهُ أَنْ يَنْظُرَ إِلَيْهِ ، فَقَالَ لَهُ : إِنَّكَ ﴿لَنْ تَرَنِي وَلَكِنْ أَنْظُرْ إِلَى الْجَبَلِ﴾ إِلَى قَوْلِهِ : ﴿وَأَنَا أَوَّلُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ .

ثُمَّ قَالَ اللَّهُ لِمُوسَى : ﴿إِنِّي أَصْطَفِيَتُكَ عَلَى النَّاسِ بِرِسَالَتِكِ وَبِكُلِّي فَخَذْذَمَاً إِاتَّيْتُكَ﴾ إِلَى قَوْلِهِ : ﴿سَأُفْرِيكُ دَارَ الْفَسِيقِينَ﴾ . وَقَالَ لَهُ : ﴿وَمَا أَعْجَلَكَ عَنْ قَوْمَكَ يَمْوَسَى﴾ إِلَى قَوْلِهِ : ﴿فَرَجَعَ مُوسَى إِلَى قَوْمِهِ عَصَبَنَ أَسْفَآ﴾ ، وَمَعَهُ عَهْدُ اللَّهِ فِي الْوَاحِدِ .

وَلَمَّا انتَهَى مُوسَى إِلَى قَوْمِهِ فَرَأَى مَا هُمْ فِيهِ مِنْ عِبَادَةِ الْعَجْلِ الْقَى الْأَلْوَاحِ مِنْ يَدِهِ ، وَكَانَتْ - فِيمَا يَذَكُرُونَ - مِنْ زِبْرِجَدِ أَخْضَرٍ ، ثُمَّ أَخْذَ بِرَأْسِ أَخِيهِ وَلَحِيَتِهِ وَيَقُولُ : ﴿مَا مَنَعَكَ إِذْ رَأَيْتُمُوهُ صَلُوا [١١] أَلَا تَنْبَغِي﴾ إِلَى قَوْلِهِ : ﴿وَلَمْ تَرْقِبْ قَوْلِ﴾ . فَقَالَ : ﴿أَبْنَ أَمَّ إِنَّ الْقَوْمَ أَسْتَضْعَفُونِي وَكَادُوا يَقْتُلُونِي فَلَا شَيْمَتُ فِي الْأَعْدَاءِ وَلَا جَعَلْتُنِي مَعَ الْقَوْمِ الظَّلَمِيْنَ﴾ ، فَارْعَوْيَ مُوسَى وَقَالَ : ﴿قَالَ رَبِّ أَغْفِرْ لِي وَلِأَخِي وَأَدْخِلْنَا فِي رَحْمَتِكَ وَأَنْتَ أَزْكِمُ الرَّاجِحِينَ﴾ .

وَأَقْبَلَ عَلَى قَوْمِهِ فَقَالَ : ﴿يَقُولُ اللَّمَّا يَعْدُكُمْ رَبِّكُمْ وَعَدَّا حَسَنًا﴾ إِلَى قَوْلِهِ ﴿عَجَلَ جَسَدًا لِلَّهِ خُوارِ﴾ . وَأَقْبَلَ عَلَى السَّامِرِيِّ فَقَالَ : ﴿فَمَا خَطَبُكَ يَسَمِّيَ [٣٣] قَالَ بَصَرْتُ بِمَا لَمْ يَبْصُرُوا بِهِ﴾ إِلَى قَوْلِهِ : ﴿وَسَعَ كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا﴾ . ثُمَّ أَخْذَ الْأَلْوَاحَ ، يَقُولُ اللَّهُ : ﴿أَخْذَ الْأَلْوَاحَ وَفِي شُسْخَتِهَا هُدَى وَرَحْمَةً لِلَّذِينَ هُمْ لِرَبِّهِمْ يَرْهَبُونَ﴾ (١) .

(٤٢٦ / ٤٢٧).

حَدَثَنَا أَبُو كَرِيبٍ ، قَالَ : حَدَثَنَا مَصْعُبُ بْنُ الْمَقْدَامَ ، عَنْ حَمَادَ بْنِ سَلَمَةَ ، عَنْ عَمَارَ بْنِ أَبِي عَمَارٍ ، مَوْلَى بْنِي هَاشِمٍ ، عَنْ أَبِي هَرِيرَةَ ، قَالَ : قَالَ :

= يُسَمَّ فالْحَدِيثُ غَيْرُ قَوِيٍّ وَمَعَ ذَلِكَ فَلِيحرِرُ (حاشية فتح القدير ٢٩٩ / ٢).

قَلَنَا : وَمَا ذَهَبَ إِلَيْهِ التَّرْمِذِيُّ وَالحاكِمُ وَغَيْرُهُمَا مِنَ الْمُتَقْدِمِينَ ثُمَّ الْأَلبَانِيُّ وَأَرْناؤُوطُ مِنَ الْمُعَاصرِينَ هُوَ الْأَرجُحُ . . . وَحَمَادَ لَمْ يَنْفَرِدْ بِهَذَا الْحَدِيثَ فَقَدْ أَخْرَجَ نَحْوَهُ أَبْنَيْ عَاصِمٍ (٤٨٢) مِنْ طَرِيقِ سَعِيدِ بْنِ أَبِي عَرْوَةَ عَنْ قَادِهِ عَنْ أَنْسٍ وَابْنِ مَنْدَهُ مِنْ طَرِيقِ أَحْمَدَ مُحَمَّدَ الصَّدِيدِ عَنْ سَعِيدِ بْنِ عَامِرٍ عَنْ ثَابِتٍ عَنْ أَنْسٍ وَقَالَ غَرِيبٌ مِنْ حَدِيثِ شَعْبَةَ (الرَّدُّ عَلَى الْجَهْمِيَّةِ / ٥٩).

قَلَنَا : وَفِي إِسْنَادِهِ أَحْمَدَ الصَّدِيدَ مَجْهُولَ الْحَالِ فَهَذَا طَرِيقُهُ يَضَافُ إِلَيْهِمَا طَرِيقُ الْأَعْمَشِ الْمُضَعِّفِ فَهِيَ طَرِيقٌ تَعْضَدُ جَمِيعًا لِيُرْتَفَعَ الْحَدِيثُ إِلَى الْحَسْنِ إِنْ شَاءَ اللَّهُ وَاللَّهُ تَعَالَى أَعْلَمُ .

(١) صَحِيفَ .

رسول الله ﷺ : «إِنَّ مَلَكَ الْمَوْتَ كَانَ يَأْتِي النَّاسَ عِيَانًا حَتَّى أَتَى مُوسَى فَلَطَمَهُ فَفَقَأَ عَيْنَهُ ، قَالَ : فَرَجَعَ فَقَالَ : يَا رَبَّ إِنَّ عَبْدَكَ مُوسَى فَقَأَ عَيْنِي ، وَلَوْلَا كِرَامَتَهُ عَلَيْكَ لَشَقَقْتَ عَلَيْهِ ، فَقَالَ : أَئْتَ عَبْدِي مُوسَى ، فَقَلَّ لَهُ : فَلِيُضْعَفْ كَفَهُ عَلَى مَتْنِ ثُورٍ ، فَلَهُ بِكُلِّ شَعْرَةٍ وَارَتْ يَدُهُ سَنَةٌ ؛ وَخَيْرُهُ بَيْنَ ذَلِكَ وَبَيْنَ أَنْ يَمُوتَ الْآنَ ، قَالَ : فَأَتَاهُ فَخَيْرُهُ ، فَقَالَ لَهُ مُوسَى : فَمَا بَعْدُ ذَلِكَ؟ قَالَ : الْمَوْتُ ، قَالَ : فَالآنِ إِذَاً ، قَالَ : فَشَمَّهُ شَمَّةٌ قَبْضَ رُوحِهِ . قَالَ : فَجَاءَ بَعْدَ ذَلِكَ إِلَى النَّاسِ خُفْيَةً»^(١) . (١ : ٤٣٤) .

(١) هذا إسناد حسن صحيح وحمد ثقة إلا أن له أوهاماً وهو أعلم الناس بحديث ثابت وحميد الطويل تجنبه البخاري وقال الحاكم: ما خرج مسلم لhammad بن سلمة في الأصول إلا من حديث عن ثابت وقد خرج له في الشواهد عن طائفة (وانظر ميزان الاعتدال ، ترجمة ٢٢٥١). قلنا: ولعل ما في الحديث من غرابة من أوهام حماد وعني بذلك عبارة (كان ملك الموت يأتي الناس عياناً) وإلا فبقية الحديث صحيح أخرجه البخاري عن أبي هريرة (ح ٣٤٠٧) ولفظه: (أرسل ملك الموت إلى موسى عليه السلام ، فلما جاءه صكه ، فرجع إلى ربه فقال: أرسلتني إلى عبد لا يرب الموت قال: ارجع إليه فقل له يضع يده على متن ثور فله بما غطى يده بكل شعرة سنة. قال أي رب ثم ماذا؟ قال: ثم الموت قال فالآن. قال فسأل الله أن يدينه من الأرض المقدسة.

قال أبو هريرة رضي الله عنه فقال رسول الله ﷺ : «لَوْ كُنْتَ ثُمَّ لَأَرِتُكُمْ قَبْرَهُ إِلَى جَانِبِ الطَّرِيقِ تَحْتَ الْكِتَابِ الْأَحْمَرِ» قال: وأخبرنا معمر عن همام حدثنا أبو هريرة عن النبي ﷺ نحوه. ا.هـ.

وقال الحافظ ابن حجر تعليقاً على هذه الرواية قوله (قال وأخبرنا معمر عن همام... إلخ) هو موصول بالإسناد المذكور ، ووهم من قال إنه معلم فقد أخرجه أحمد عن عبد الرزاق عن معمر ، ومسلم عن محمد بن رافع عن عبد الرزاق كذلك (فتح الباري ٧/١٠٤).

قلنا: وأما حديث أحمد فهو في مستند أبي هريرة (ح ١٠٩٠٤) وقال الشيخ أرناؤوط: رجاله رجال الصحيح وفي أوله نكارة وهي قوله (كان ملك الموت يأتي الناس عياناً) وهذه اللفظة تفرد بها عمار بن أبي عمارة وعنه حماد بن سلمة ولكل منها بعض المناكير. ا.هـ.

قلنا: وأما حديث عبد الرزاق مروعاً ، فهو كذلك من حديث أبي هريرة (ح ٢٠٥٣٠) وأما مسلم فقد رواه موقوفاً (١٥٧/ح ٢٣٧٢) مروعاً والحديث أخرجه الحاكم وصححه على شرط مسلم (المستدرك ٢/٥٧٨) وأخرجه أحمد (ح ٨١٧٢) من طريق همام عن أبي هريرة مروعاً وأورده الهيثمي في مجمع الزوائد مروعاً كما عند الطبراني (كان ملك الموت يأتي الناس عياناً... الحديث وفي آخره فكان يأتي الناس خفية).

وقال الهيثمي: في الصحيح طرف منه رواه أحمد والبزار ورجاله رجال الصحيح / مجمع الزوائد (٨/٢٠٤) ح (١٣٧٨٣).

نبي الله موسى
عليه السلام

لقد استشهد الطبرى رحمة الله بالآيات القرآنية وفسرها بياناً لقصة موسى عليه السلام ولكنه رحمة الله خلط التفسير بالإسرائيليات وأثروا هنا أن نذكر تفسير ابن كثير لهذه الآيات (كما في البداية والنهاية) بعد أن حذفنا الإسرائيليات واختصرنا والله الحمد.

قال الحافظ ابن كثير :

وهو موسى بن عمران ، قال تعالى : « وَذُكْرٌ فِي الْكِتَبِ مُؤْمِنٌ إِنَّمَا كَانَ مُخْلَصًا وَكَانَ رَسُولًا لِّبَنَىٰ وَنَذَرَتْهُ مِنْ جَانِبِ الظُّورِ الْأَيْمَنِ وَقَرَبَتْهُ بِهِنَّا وَوَهَبَنَا لِرَبِّنَا أَخَاهُ هُرُونَ بِهِنَّا » [مريم : ٥١ - ٥٣] . وقد ذكره الله تعالى في مواضع كثيرة متفرقة من القرآن . وذكر قصته في مواضع متعددة مبسوطة وغير مطولة . وقد تكلمنا على ذلك كله في مواضعه من التفسير . وسنورد سيرته هنا من ابتدائها إلى آخرها من الكتاب والسنة . وما ورد في الآثار المنقوله من الإسرائيليات التي ذكرها السلف وغيرهم إن شاء الله وبه الثقة وعليه التكلان . [قلنا هكذا قال ابن كثير ، ولكتنا حذفنا ما ذكره ابن كثير من الإسرائيليات أثناء تفسيره للآيات الواردة في قصة موسى عليه السلام وبني قومه .]

قال الله تعالى : بسم الله الرحمن الرحيم ﴿ طسَّمَ تَلَكَءَتِ الْكِتَبُ الْمُبَينُ ﴾ تَلَوْعَلَيْكَ مِنْ هَبَّا مُوسَى وَفَرَّعُونَ بِالْحَقِّ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿ إِنَّ فِرَعَوْنَ عَلَى الْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شَيْعَانَ سَتَضِعُفُ طَائِفَةً مِّنْهُمْ يُدَيْحُ أَبْنَاءَهُمْ وَيَسْتَخْنِي، نَسَاءَهُمْ إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ ﴾ وَرَبِّيْدَ أَنْ تَمَنَّ عَلَى الَّذِينَ أَسْتَضْعِفُوا فِي الْأَرْضِ وَجَعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَجَعَلَهُمُ الْوَرَثِيْتَ ﴿ وَتُمْكِنَ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَرَبِّيْ فِرَعَوْنَ وَهَمَنَّ وَجَنُودُهُمَا مِّنْهُمْ مَا كَانُوا يَحْذَرُونَ ﴾ [القصص : ١ - ٦] . يذكر تعالى ملخص القصة ثم يبيطها بعد هذا ، فذكر أنه يتلو على نبيه خبر موسى وفرعون بالحق ، أي بالصدق الذي كان سامعاً مشاهد للأمر معain له .

﴿ إِنَّ فِرَعَوْنَ عَلَى الْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شَيْعَانَ ﴾ أي تجبر وعتا وطغى وبغى ، وأثر الحياة الدنيا ، وأعرض عن طاعة رب الأعلى ، وجعل أهلها شيئاً ، أي قسم رعيته إلى أقسام ، وفرق وأنواع ، يستضعف طائفة منهم ، وهو شعببني إسرائيل الذين هم من سلالة النبي الله يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم خليل الله . وكانوا إذاك خيار أهل الأرض . وقد سلط عليهم هذا الملك الظالم الغاشم الكافر الفاجر ، يستعبدهم ويستخدمهم في أحسن الصنائع والحرف وأرداها وأدناها ومع هذا ﴿ يُدَيْحُ أَبْنَاءَهُمْ وَيَسْتَخْنِي، نَسَاءَهُمْ إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ ﴾ .

وكان الحامل له على هذا الصنيع القبيح أنبني إسرائيل كانوا يتدارسون فيما بينهم ما يأثرون عنه عن إبراهيم عليه السلام ، من أنه سيخرج من ذريته غلام يكون هلاك ملك مصر على يديه وذلك - والله أعلم - حين كان جرى على سارة امرأة الخليل من ملك مصر من إرادته إياها =

على السوء وعصمة الله لها . وكانت هذه البشارة مشهورة في بني إسرائيل ، فتحدث بها القبط فيما بينهم ، ووصلت إلى فرعون فذكرها له بعض أمرائه وأساعرته وهم يسمرون عنده ، فأمر عن ذلك بقتل أبناء بني إسرائيل ، حذراً من وجود هذا الغلام ، ولن يعني حذر من قدر ! .
ولهذا قال الله تعالى : « وَرَبِّيْدَأَنْ تَمَنَ عَلَى الَّذِيْنَ أَسْتَضْعِفُوْرِيْ فِي الْأَرْضِ » وهم بنو إسرائيل ، « وَنَعْمَلُهُمْ أَيْمَانَةً وَنَجْعَلُهُمْ الْوَرَثَةَ » أي الذين يؤول ملك مصر وبلادها إليهم : « وَتَعْكِنَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَرَبِّيْرِيْ فَرَعَوْنَ وَهَمَنَ وَجْهُوْدُهُمَا يَنْهَمُوا يَحْذَرُوْنَ » أي سنجعل الضعيف قوياً والمقهور قاهراً والدليل عزيزاً ، وقد جرى هذا كله لبني إسرائيل ، كما قال تعالى : « وَأَوْزَنَنَا الْقَوْمَ الَّذِيْنَ كَانُوا يُسْتَضْعِفُوْنَ مَشْرِقَ الْأَرْضِ وَمَغْرِبَهَا أَلَّى بَرَكَانَ فِيهَا وَتَمَتَ كَلْمَتُ رَبِّكَ الْحُسْنَى عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ بِمَا صَبَرُوْا » الآية ، وقال تعالى : « فَأَخْرَجْنَهُمْ مِنْ جَنَّتِ وَكُنُوبِ وَمَقَامِ كَرِيمِ كَذَلِكَ وَأَوْرَثْنَهَا بَنِي إِسْرَائِيلَ » وسيأتي تفصيل ذلك في موضعه إن شاء الله .

[قتل غلمان بني إسرائيل] :
والمقصود أن فرعون احتراز كل الاحتراز إلا يوجد موسى ، حتى جعل رجالاً وقوابيل يدورون على الجبالى ، ويعلمون ميقات وضعهن ، فلا تلد امرأة ذكرأ إلا ذبحه أولئك الذباхون من ساعته .

قال تعالى : « فَلَمَّا جَاءَهُمْ بِالْحَقِّ مِنْ عِنْدِنَا قَالُوا أَفْتَلُوْأَبْنَاءَ الَّذِيْنَ أَمْنَأْوَمَعَهُمْ وَأَسْتَحْيِوْنَسَاءَهُمْ »
ولهذا قالت بنو إسرائيل لموسى : « أَوْزَنَنَا مِنْ قَبْلِ أَنْ تَأْتِيَنَا وَمَنْ يَعْدُ مَا حِنْتَنَا » فال صحيح أن فرعون إنما أمر بقتل الغلمان أولاً ، حذراً من وجود موسى .

[طفولة موسى في بيت فرعون] :
قال الله تعالى : « وَأَوْجَيْنَا إِلَيْكَ أَمْرَ مُوسَى أَنْ أَنْضِعِيْهِ فَإِذَا حَفِتَ عَلَيْهِ فَكَأْلَيْهِ فِي الْيَمَّ وَلَا تَخَافِي وَلَا تَخْرُزِي إِنَّا رَادُوْءَ إِلَيْكَ وَجَاهَلُهُ مِنَ الْمُرْسَلِيْنَ » فَالنَّقْطَةُ هَذِهِ فِيْ قَوْمَ فَرَعَوْنَ لَهُمْ عَدُوْا وَحَرَثَنَا إِنَّ فَرَعَوْنَ وَهَمَنَ وَجْهُوْدُهُمَا كَانُوا خَدْطِيْعِيْنَ وَقَالَتْ أَمْرَأُ فَرَعَوْنَ قَرْتَ عَيْنَيْ لَيْ وَلَكَ لَا تَقْتُلُهُ عَسَى أَنْ يَنْقَعِنَا أَوْ نَتَخِذُهُ وَلَدًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُوْنَ [القصص : ٩ - ٧] .

هذا الوحي وحي إلهام وإرشاد كما قال تعالى : « وَأَوْجَيْرَبِّكَ إِلَيْكَ أَنْ أَنْجَيْنِي مِنْ لِجَالِ بُيُونَا وَمِنْ أَلْسَجَرِ وَمِنْ أَيْرَشُونَ » كُلِّ الشَّرِّ فَأَنْسُلُكِي شَبِيلِ رَبِّكَ ذَلِلًا يَخْرُجُ مِنْ بُطُونِهَا . . . الآية . وليس هو بوليبي نبوة كما زعمه ابن حزم وغير واحد من المتكلمين بل الصحيح الأول ، كما حكاه أبو الحسن الأشعري عن أهل السنة والجماعة .

والمقصود أنها أرشدت إلى هذا الذي ذكرناه ، وألقي في خلدها وروعها لا تخافي ولا تحزني ، فإنه إن ذهب فإن الله سيرده لك ، وإن الله سيجعله نبياً مرسلاً ، يعلي كلمته في الدنيا والآخرة ، فكانت تصنع ما أمرت به فذهب مع النيل فمر على دار فرعون فَالنَّقْطَةُ هَذِهِ أَلْفَرَعَوْنَ قال الله تعالى : « لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوْا وَحَرَثَنَا » قال بعضهم : هذه (لام) العاقبة ، وهو ظاهر إن كان متعلقاً بقوله : فَالنَّقْطَةُ هَذِهِ وأما إن جعل متعلقاً بمضمون الكلام ، وهو آل

فرعون قبضوا لالتقاطه ليكون لهم عدواً وحزناً ، وصارت اللام معللة كغيرها . . والله أعلم .
ويقوّي هذا التقدير الثاني قوله : ﴿إِنَّ فَرْعَوْنَ وَهَامَانَ﴾ وهو الوزير السوء ﴿وَجُحُودَهُمَا﴾
تابعين لهما ﴿كَانُوا حَدَّطِيْعِيْكَ﴾ أي كانوا على خلاف الصواب ، فاستحقوا هذه العقوبة
والحسنة .

فلما رأته وقع نظرها عليه أحبه جبادياً ، فلما جاء فرعون قال : ما هذا؟ وأمر بذبحه ،
فاستوحته منه ودفعت عنه وقالت : ﴿فَرَأَتِ عَيْنِيْلَ وَلَكَ﴾ .

وقولها : ﴿عَسَى أَنْ يَنْفَعَنَا﴾ قد أذن لها الله ما رجت من النفع ، أما في الدنيا فهداها الله به ، وأما
في الآخرة فأسكنها جنته بسببه : ﴿أَوْ نَتَخَذَهُ وَلَدًا﴾ وذلك أنهمما تبنياه ، لأنه لم يكن يولد لهم
ولد ، قال الله تعالى : ﴿وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ . أي لا يدرؤون ماذا يريد الله بهم ، أن فيهم
التقاطه ، من النعمة العظيمة بفرعون وجندوه؟

قال الله تعالى : ﴿وَأَصَبَّ فُؤَادَ أُمَّرْمَوْسَ فَرِغًا إِنْ كَادَتْ لَتَبْدِيْعِيْ بِهِ﴾ لَوْلَا أَنْ رَبِطَنَا عَلَى فَلَيْهَا
لِتَكُورُنَ مِنَ الْمُؤْمِنِيْنَ ﴿وَقَاتَ لِأَخْرِيْهِ﴾ فُصْبِيْهِ فَبَصَرَتِ بِهِ عَنْ جُنْبِ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿وَحَرَمَنَا عَلَيْهِ الْمَرَاضِعَ مِنْ قَبْلِ فَقَاتَ هَلْ أَدْلُكُمْ عَلَى أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُ لَكُمْ وَهُمْ لَهُمْ نَاصِحُونَ
فَرَدَدَتْهُ إِلَى أُمِّهِ، كَيْ نَفَرَ عَيْنَهَا وَلَا تَحْرَكَ وَلَتَعْلَمَ أَنْ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا
يَعْلَمُونَ﴾ [القصص : ١٠ - ١٣] .

قال ابن عباس ومجاحد وعكرمة وسعيد بن جبير وأبو عبيدة والحسن وفتادة والضحاك
وغيرهم : ﴿وَأَصَبَّ فُؤَادَ أُمَّرْمَوْسَ فَرِغًا﴾ أي من كل شيء من أمور الدنيا إلا من موسى ﴿إِنْ
كَادَتْ لَتَبْدِيْعِيْ بِهِ﴾ أي لظهور أمره وتسأل عنه جهرة ﴿لَوْلَا أَنْ رَبِطَنَا عَلَى فَلَيْهَا﴾ أي
صبرناها وثبتناها ﴿لِتَكُورُنَ مِنَ الْمُؤْمِنِيْنَ ﴿وَقَاتَ لِأَخْرِيْهِ﴾ وهي ابنتها الكبيرة : ﴿فُصْبِيْهِ﴾
أي اتباعي أثره واطلبي لي خبره ﴿فَبَصَرَتِ بِهِ عَنْ جُنْبِ﴾ قال مجاهد : عن بعد . وقال فتادة :
جعلت تنظر إليه وكأنها لا تريده . ولهذا قال : ﴿وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ وذلك لأن موسى عليه
السلام لما استقر بدار فرعون أرادوا أن يغدوه برضاعة فلم يقبل ثدياً ولا أخذ طعاماً ، فحارروا
في أمره ، واجتهدوا على تغذيته بكل ممكن فلم يفعل ، كما قال تعالى : ﴿وَحَرَمَنَا عَلَيْهِ
الْمَرَاضِعَ مِنْ قَبْلِ﴾ فأرسلوه مع القوابل والنساء إلى السوق ، لعلهم يجدون من يوافق رضاعته .
فيينما هم وقوف به والنساء عكوف عليه إذ بصرت به أخته ، فلم تظهر أنها تعرفه بل قالت :
﴿هَلْ أَدْلُكُمْ عَلَى أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُ لَكُمْ وَهُمْ لَهُمْ نَاصِحُونَ﴾ .

فأطلقوها وذهبوا معها إلى منزلهم ، فأخذته أمه ، فلما أرضعته التقم ثديها وأخذ يمتصه
ويرتضعه ، ففرحوا بذلك فرحًا شديدًا ، وذهب البشير إلى «آسية» يعلمها بذلك ، فاستدعتها
إلى منزلها وعرضت عليها أن تكون عندها ، وأن تحسن إليها .

فرجعت به تحوزه إلى رحلها ، وقد جمع الله شمله بشملها .

قال الله تعالى : ﴿فَرَدَدَتْهُ إِلَى أُمِّهِ، كَيْ نَفَرَ عَيْنَهَا وَلَا تَحْرَكَ وَلَتَعْلَمَ أَنْ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ﴾ أي كما =

وعدها بردہ رسالتہ ، فھذا ردہ ، وہ دلیل علی صدق البشارة برسالتہ ﴿ولَكُنَّ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ .

وقد امن علی موسی بهدا لیلة کلمہ ، فقال له فيما قال : ﴿وَلَقَدْ مَنَّا عَلَيْكَ مَرَّةً أُخْرَى إِذْ أَوْجَيْنَا إِلَيْكَ مَا يُوْحَنَ﴾ [١] أَنْ تَفْرِيْهَ فِي الْأَنَابِوتْ فَأَفْزِيْهُ أَلْمَ بِالسَّاحِلِ يَأْخُذُهُ عَدُوُّهُ لِي وَعَدُوُّهُ لِمَ وَالْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحْبَبَتِي﴾ وذلک أنه كان لا يراه أحد إلا أحبه ﴿وَلِتُصْنِعَ عَلَى عَيْنِي﴾ قال قاتدة وغير واحد من السلف : أي تطعم وترفة وتغذى بأطيب المأكل ، وتلبس أحسن الملابس بمرأى مني ، وذلك كله بحفظي وكلاعدي لك فيما صنعت بك ولك ، وقدره من الأمور التي لا يقدر عليها غيري . ﴿إِذْ تَشْقَى أَخْتَكَ فَقُولُ هَلْ أَدْلُكُمْ عَلَى مَنْ يَكْفُلُهُ فَرِجَعْتَكَ إِلَيْكَ مَكَنْ كَيْ نَقَرَ عَيْنَاهَا وَلَا حَرَنَ وَقَلَّتْ نَفْسًا فَنَبَغَيْتَكَ مِنَ الْفَمِ وَفَتَكَ فُنُونًا﴾ .

﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشْدُدَهُ وَاسْتَوَى إِلَيْتَهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَكَذَلِكَ بَحْرِي الْمُحْسِنِينَ﴾ [٢] وَدَخَلَ الْمَدِينَةَ عَلَى حِينِ غَفَلَةِ مِنْ أَهْلِهَا فَوَجَدَ فِيهَا رِجَلَيْنِ يَقْتَلَانِ هَذَيَا مِنْ شَيْعِيهِ، وَهَذَا مِنْ عَدُوِّهِ فَأَسْغَنَتْهُ اللَّهُ مِنْ شَيْعِيهِ، عَلَى الَّذِي مِنْ عَدُوِّهِ فَوَرَكَرَ مُوسَى فَضَى عَلَيْهِ قَالَ هَذَا مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ إِنَّمَا عَدُوُّ مُضْلِلٍ مُّبِينٍ﴾ [٣] قَالَ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَاغْفِرْ لِي فَغَفَرَ لَهُ إِنْ كُوْنُ هُوَ الْفَوْرُ الرَّبِيعِمَ﴾ [٤] قَالَ رَبِّ يَمَّا أَنْعَمْتَ عَلَى فَلَنْ أَكُونْ ظَهِيرًا لِلْمُتَحْرِمِينَ﴾ [٥] [القصص : ١٧].

لما ذکر تعالی أنه انعم على أمه بردہ لها واحسانه بذلك وامتنانه عليها ، شرع في ذکر أنه لما بلغ أشدہ واستوی ، وهو احتکام الخلق والخلق ، وهو سن الأربعين في قول الأکثرين ، آتاه الله حکما وعلما ، وهو النبوا والرسالة التي كان بشّر بها أمه حين قال : ﴿إِنَّا رَادُوهُ إِلَيْكَ وَجَاءُوكُمْ مِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾ .

[إقامة موسى في مدين]:

ثم شرع في ذکر سبب خروجه من بلاد مصر ، وذهابه إلى أرض مدين وإقامته هناك ، حتى کمل الأجل وانقضى الأمد ، وكان ما كان من کلام الله له ، وإكرامه بما أکرمہ به ، كما سیأتي . قال تعالی : ﴿وَدَخَلَ الْمَدِينَةَ عَلَى حِينِ غَفَلَةِ مِنْ أَهْلِهَا﴾ قال ابن عباس وسعيد بن جبير وعکرمة وقاتدة والسدی : وذلك نصف النهار ، وعن ابن عباس : بين العشاءين . ﴿فَوَجَدَ فِيهَا رِجَلَيْنِ يَقْتَلَانِ﴾ أي يتضاربان ويتهارشان ﴿هَذَيَا مِنْ شَيْعِيهِ﴾ أي إسرائیلی ﴿وَهَذَا مِنْ عَدُوِّهِ﴾ أي قبطی . قاله ابن عباس وقاتدة والسدی ومحمد بن إسحاق .

﴿فَأَسْغَنَتْهُ اللَّهُ مِنْ شَيْعِيهِ عَلَى الَّذِي مِنْ عَدُوِّهِ﴾ وذلک أن موسی عليه السلام ، كانت له بدیار مصر صولة ، بسبب نسبته إلى تبني فرعون له وتریته في بيته ، وكان بنو إسرائیل قد عزّروا وصارت لهم وجاهة ، وارتقت رؤوسهم بسبب أنهم أرضعوه ، وهم أحواله - أي من الرضاعة - فلما استغاث ذلك الإسرائیلی موسی عليه السلام على ذلك القبطی أقبل إليه موسی ﴿فَوَرَكَرَ﴾ قال مجاهد : أي طعنه بجمع کفه ، ﴿فَضَى عَلَيْهِ﴾ أي فمات منها .

وقد كان ذلك القبطی کافراً مشرکاً بالله العظیم ، ولم يرد موسی قتله بالکلیة ، وإنما أراد =

زجره وردعه ، ومع هذا ﴿قَالَ مُوسَىٰ هَذَا مِنْ عَلَى الشَّطَاطِينَ إِنَّهُ عَدُوٌّ مُّضِلٌّ مُّنْهَىٰ﴾ **قالَ رَبُّ إِنِّي**
ظَلَمْتُ نَفْسِي فَاغْفِرْ لِي فَغَفَرَ لَهُ إِنَّكُمْ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴿قَالَ رَبِّي مَا أَعْمَتَ عَلَيَّ﴾ أي من العز
 والجاه ﴿فَلَمَّا كُونَ ظَهِيرًا لِّلْمُجْرِمِينَ﴾.

﴿فَأَصْبَحَ فِي الْمَدِينَةِ خَائِفًا يَرْقُبُ فَإِذَا الَّذِي أَسْتَصْرَمُ بِالْأَمْسِ يَسْتَصْرِخُنِي قَالَ لَهُ مُوسَىٰ إِنَّكَ لَغَوِيٌّ مُّنْهَىٰ﴾ **فَلَمَّا**
 أَنْ أَرَادَ أَنْ يَبْطِشَ بِالَّذِي هُوَ عَدُوٌّ لَّهُمَا قَالَ يَكُوْنُتَنِي أَنْ تَقْتَلَنِي كَمَا قَاتَلْتَنِي نَفْسًا بِالْأَمْسِ إِنْ تُرِيدُ إِلَّا أَنْ تَكُونَ
 جَاهَارًا فِي الْأَرْضِ وَمَا تُرِيدُ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْمُصْلِحِينَ﴾ **وَجَاءَ رَجُلٌ مِّنْ أَفْصَا الْمَدِينَةِ** يَسْعَى قَالَ يَكُوْنُتَنِي لِكَ الْمَلَأُ
 يَأْتِمُرُونَ بِكَ لِيُقْتَلُوكَ فَأَخْرَجَ إِلَيَّ لَكَ مِنَ النَّصِيرَتِ ﴿فَرَجَ مِنْهَا خَائِفًا يَرْقُبُ قَالَ رَبِّي تَحْنَى مِنْ أَنْ أَقْوَمَ
 الْفَلَّاحِيْنَ﴾ [القصص : ١٨ - ٢١].

يخبر تعالى أنَّ موسى أصبح بمدينة مصر خائفاً - أي من فرعون وملته - أن يعلموا أن هذا القتيل الذي رفع إليه أمره ، إنما قتله موسى في نصرة رجل من بني إسرائيل ، فتفوى ظنونهم أن موسى منهم ، ويترب على ذلك أمر عظيم.

فصار يسير في المدينة في صبيحة ذلك اليوم ﴿خَائِفًا يَرْقُبُ﴾ أي يتلفت ، فيينما هو كذلك ، إذ ذلك الرجل الإسرائيلي الذي استنصره بالأمس يستصرخه ، أي يصرخ به ويستغيشه على آخر قد قتله ، فعنده موسى ولاه على كثرة شره ومخاصمه ، قال له : «إِنَّكَ لَغَوِيٌّ مُّنْهَىٰ» ثم أراد أن يبطش بذلك القبطي ، الذي هو عدو لموسى وللإسرائيلي ، فيردعه عنه وبخلصه منه ، فلما عزم على ذلك وأقبل على القبطي ﴿قَالَ يَكُوْنُتَنِي أَنْ تَقْتَلَنِي كَمَا قَاتَلْتَنِي نَفْسًا بِالْأَمْسِ إِنْ تُرِيدُ إِلَّا أَنْ تَكُونَ جَاهَارًا فِي الْأَرْضِ وَمَا تُرِيدُ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْمُصْلِحِينَ﴾.

قال بعضهم : إنما قال هذا الكلام الإسرائيلي الذي اطلع على ما صنع موسى بالأمس ، وكأنه لما رأى موسى مقبلاً إلى القبطي اعتقد أنه جاء إليه ، لما عنده قبل ذلك بقوله : «إِنَّكَ لَغَوِيٌّ مُّنْهَىٰ» فقال ما قال لموسى ، وأظهر الأمر الذي كان وقع بالأمس . فذهب القبطي فاستعدى فرعون على موسى . وهذا الذي لم يذكر كثير من الناس سواه . ويعتمد أن قائل هذا هو القبطي ، وأنه لما رأه مقبلاً إليه خافه ، ورأى من سجيته انتصاراً جديداً للإسرائيلي . فقال ما قال من باب الظن والفراسة : إن هذا لعله قاتل ذلك القتيل بالأمس ، أو لعله فهم من كلام الإسرائيلي حين استصرخه عليه ما دله على هذا ، والله أعلم .

والمقصود أن فرعون بلغه أن موسى هو قاتل ذلك المقتول بالأمس فأرسل في طلبه ، وبسبقهم رجل ناصح من طريق أقرب . **«وَجَاءَ رَجُلٌ مِّنْ أَفْصَا الْمَدِينَةِ»** ساعياً إليه مشفقاً عليه فقال : **«يَكُوْنُتَنِي إِنَّكَ الْمَلَأُ يَأْتِمُرُونَ بِكَ لِيُقْتَلُوكَ فَأَخْرَجَ** أي من هذه البلدة **«إِلَيَّ لَكَ مِنَ النَّصِيرَتِ»** أي فيما أقوله لك .

قال الله تعالى : **«فَرَجَ مِنْهَا خَائِفًا يَرْقُبُ** أي فخرج من مدينة مصر من فوره على وجهه لا يهتدى إلى طريق ولا يعرفه ، قائلاً : **«رَبِّي تَحْنَى مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِيْنَ** **وَلَمَّا تَوَجَّهَ يَلْقَاءَ مَدِينَتَكَ قَالَ عَسَى رَبِّي**
 أن يهديني سَوَاءَ السَّكِيلِ **وَلَمَّا وَرَدَ مَاءَ مَدِينَتَكَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةَ مِنَ الْكَاسِ يَسْقُونَ وَوَجَكَ مِنَ**

دُونَهُمْ أَمَرَاتِينَ تَذَوَّدَانِ قَالَ مَا حَطَبُكُمَا فَالَّتَّا لَا نَسْقِي حَتَّى يُصْدِرَ الرِّعَاءُ وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ فَسَقَى لَهُمَا شَرِيكَتِهِنَّ إِلَى الظَّلَلِ فَقَالَ رَبِّ إِنِّي لِمَا أَنْزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقَيْرٌ [القصص: ٢١ - ٢٤].

يخبر تعالى عن خروج عبده ورسوله وكلمه من مصر خائفاً يتربّص ، أي يتلفت ، وخشية أن يدركه أحد من قوم فرعون ، وهو لا يدري أين يتوجه ، ولا إلى أين يذهب ، وذلك لأنه لم يخرج من مصر قبلها . ﴿وَلَمَّا تَوَجَّهَ لِقَاءَ مَدْيَنَ﴾ أي اتجه له طريق يذهب فيه ، ﴿قَالَ عَنَّ رَبِّهِ أَنَّ يَهْدِيَنِي سَوَاءَ أَسْكِيلٌ﴾ أي عسى أن تكون هذه الطريق موصدة إلى المقصد ، وكذا وقع ، فقد أوصلته إلى مقصد وأي مقصد.

[اتصاله بالابتين وأبيهما الشیخ] :

﴿وَلَمَّا وَرَدَ مَاءَ مَدْيَنَ﴾ وكانت بئراً يسكنون منها ، ومدين هي المدينة التي أهلك الله فيها أصحاب الأیکة ، وهم قوم شعيب عليه السلام ، وقد كان هلاكهم قبل زمان موسى عليه السلام في أحد قوله للعلماء . ولما ورد الماء المذكور ﴿وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً يَتَكَبَّرُونَ وَوَجَدَهُمْ دُونَهُمْ أَمَرَاتِينَ تَذَوَّدَانِ﴾ أي تكشفان عنهمما أن تختلط بغم الناس .

﴿قَالَ مَا حَطَبُكُمَا فَالَّتَّا لَا نَسْقِي حَتَّى يُصْدِرَ الرِّعَاءُ وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ﴾ أي لا نقدر على ورود الماء إلا بعد صدور الرعاء ، لضعفنا ، وسبب مباشرتنا هذه الرعية ضعف أبينا وكبره . قال الله تعالى : ﴿فَسَقَى لَهُمَا﴾ .

قال المفسرون : وذلك أن الرعاء كانوا إذا فرغوا من وزدهم ، وضعوا على فم البتر صخرة عظيمة ، فتحييء هاتان المرأةتان فيشرعان غنمهما في فضل أغنان الناس ، فلما كان ذلك اليوم جاء موسى فرفع تلك الصخرة وحده ، ثم استنقى لهما وسقى غنمهما ، ثم رد الحجر كما كان قال أمير المؤمنين عمر : وكان لا يرفعه إلا عشرة ، وإنما استنقى ذنوبًا واحدًا فكتفاهما .

ثم تولى إلى الظل ، ﴿فَقَالَ رَبِّ إِنِّي لِمَا أَنْزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقَيْرٌ﴾ .

﴿جَاءَهُمْ إِحْدَاهُمَا تَشْرِي عَلَى أَسْتِحْيَاءٍ قَالَ إِنَّكَ إِنِّي يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا فَلَمَّا جَاءَهُمْ وَقَصَّ عَلَيْهِ الْقَصْصَ قَالَ لَا تَخْفَ مَحْوَتْ مِنِ الْقَوْمِ الظَّلَمِيْنَ [القصص: ٢٥] قَالَتْ إِحْدَاهُمَا يَتَأَبَّتْ أَسْتَجِرْهُ إِلَيْهِ خَرَّ مِنْ أَسْتَجِرَتْ الْقَوْيُ الْأَمِينُ [القصص: ٢٦] قَالَ إِنِّي أُرِيدُ أَنْ أَكْحَلَكَ إِلَى دَيْرِي هَذِئَنِ عَلَى أَنْ تَأْجُرِنِي ثَمَنَ حِجَّجَ فَإِنْ أَتَمْمَتْ عَشْرًا فَمِنْ عِنْدِكَ وَمَا أُرِيدُ أَنْ أَشْقَ عَلَيْكَ سَتَجِدُنِتْ إِنْ شَاءَ اللَّهُ مِنْ الْأَصْكَلِيْمِينَ [القصص: ٢٧] قَالَ ذَلِكَ بَيْنِ وَيْنِكَ أَيْمَانَ الْأَجْلَيْنِ قَضَيْتُ فَلَا عَدُونَكَ عَلَى وَاللَّهِ عَلَى مَا تَقُولُ وَكِيلٌ﴾ .

[القصص : ٢٨ - ٢٥].

لما جلس موسى عليه السلام في الظل وقال : ﴿رَبِّ إِنِّي لِمَا أَنْزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقَيْرٌ﴾ فذهبتا إلى أبيهما فأخبرتا بهما كان من أمر موسى عليه السلام . فأمر بإدحاما ، أن تذهب إليه فتدعوه : ﴿جَاءَهُمْ إِحْدَاهُمَا تَشْرِي عَلَى أَسْتِحْيَاءٍ﴾ أي مشي الحرائر ، ﴿قَالَتْ إِنَّكَ إِنِّي يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا﴾ صرحت بهذا لثلا يوهم كلامها ريبة ، وهذا من تمام حياتها وصيانتها : ﴿فَلَمَّا جَاءَهُمْ وَقَصَّ عَلَيْهِ الْقَصْصَ﴾ وأخبره خبره وما كان من أمره في خروجه من بلاد مصر فراراً من =

فرعونها : ﴿فَإِن﴾ له ذلك الشيخ : ﴿لَا تَخَفْ بَجُوتَ مِنَ الْقَوْىِ الظَّالِمِينَ﴾ أي خرجت من سلطانهم فلست في دولتهم .

وقد اختلفوا في هذا الشيخ من هو؟ فقيل: هو شعيب عليه السلام . وهذا هو المشهور عند كثرين ، ومن نص عليه الحسن البصري ومالك بن أنس ، وجاء مصراحاً به في حديث ، ولكن في إسناده نظر . وصرح طائفه بأن شعيباً عليه السلام عاش عمرًا طويلاً بعد هلاك قومه ، حتى أدركه موسى عليه السلام وتزوج بابنته .

روى ابن أبي حاتم وغيره عن الحسن البصري: أن صاحب موسى عليه السلام هذا ، اسمه شعيب ، وكان سيد الماء ، ولكن ليس بالنبي صاحب مدين .

والمقصود: أنه لما أضافه وأكرم مثواه ، وقضى عليه ما كان من أمره بشره بأنه قد نجا ، فعند ذلك قالت إحدى البتين لأبيها: ﴿يَأَبِتَ أَسْتَغْرِيَهُ﴾ أي لرعى غنمك ، ثم مدحته بأنه قوي أمين .

قال ابن مسعود: أفسس الناس ثلاثة: صاحب يوسف حين قال لامرأته: ﴿أَكْسِرِي مَتْوَهُ﴾ وصاحبة موسى حين قالت: ﴿يَأَبِتَ أَسْتَغْرِيَهُ إِنْ خَيْرٌ مَنْ أَسْتَغْرَى الْقَوْىُ الْأَمِينُ﴾ وأبو بكر حين استخلف عمر بن الخطاب .

﴿قَالَ إِنِّي أُرِيدُ أَنْ أُكِحَّلَ إِحْدَى أَبْنَائِي هَذَيْنِ عَلَى أَنْ تَأْجُرَنِي ثَمَنَ حَاجَةٍ فَإِنْ أَتَمَّتَ عَشْرَ فَمِنْ عِنْدِكَ وَمَا أُرِيدُ أَنْ أَشْقِ عَلَيْكَ سَكَّاجِدُفَتِ إِنْ شَاءَ اللَّهُ مِنَ الْأَصْلَاحِينَ﴾ .

استدل بهذه جماعة من أصحاب أبي حنيفة رحمة الله ، على صحة ما إذا باعه أحد هذين العبدان أو الشوبيان ونحو ذلك ، أن يصح ، لقوله: ﴿إِحْدَى أَبْنَائِي هَذَيْنِ﴾ . وفي هذا نظر ، لأن هذه مراوضة لا معاقدة .. والله أعلم .

ثم قال تعالى: ﴿ذَلِكَ بَيْنَ وَبَيْنَكَ أَيْمَانَ الْأَجْلَانِ قَضَيْتُ فَلَا عُدُونَ عَلَى اللَّهِ عَلَى مَا نَقُولُ وَكَيْلٌ﴾ يقول: إن موسى قال لصهره: الأمر على ما قلت ، فايدهما قضيت فلا عدوان على ، والله على مقالتنا سامع وشاهد ، ووكيل على وعليك ، ومع هذا فلم يقضي موسى إلا أكمل الأجلين وأتمهما وهو العشر سنين كواهل تامة .

قال البخاري: حدثنا محمد بن عبد الرحيم ، حدثنا سعيد بن سليمان ، حدثنا مروان بن شجاع ، عن سالم الأفطس ، عن سعيد بن جبير ، قال: سألني يهودي من أهل الحيرة: أي الأجلين قضى موسى؟ فقلت: لا أدرى حتى أقدم على حبر العرب فأسأله . فقدمت فسألت ابن عباس فقال: قضى أكثرهما وأطبيهما ، إن رسول الله إذا قال فعل . (ح ٢٦٨٤) .

تفرد به البخاري من هذا الوجه ، وقد رواه النسائي في حديث الفتون ، كما سيأتي من طريق القاسم بن أبي أيوب ، عن سعيد بن جبير به .

وقد رواه ابن جرير عن أحمد بن محمد الطوسي ، وابن أبي حاتم ، عن أبيه ، كلامهما عن الحميدي ، عن سفيان بن عيينة ، حدثني إبراهيم بن يحيى بن أبي يعقوب عن الحكم بن =

أبان ، عن عكرمة ، عن ابن عباس أن رسول الله ﷺ قال : «سألت جبريل أي الأجلين قضى موسى؟ قال : أتمهما وأكملاهما». (جامع البيان / ج ٦٨ / ٢).

وإبراهيم هذا غير معروف إلا بهذا الحديث . وقد رواه البزار عن أحمد بن أبان القرشي ، عن سفيان بن عيينة ، عن إبراهيم بن أعين ، عن الحكم بن أبان ، عن عكرمة ، عن ابن عباس . قال الله تعالى : ﴿فَلَمَّا قضَى مُوسَى الْأَجَلَ وَسَارَ بِأَهْلِهِ إِنَّكَ مِنْ جَانِبِ الظُّورِ نَارًا قَالَ لِأَهْلِهِ أَمْكَثُوا إِنِّي أَنْسَثُ نَارًا لَعْنِي مَا تَرَكْتُمْ مِنْهَا يَخْبِرُ أَوْ جَذْوَرَ مِنْكَ النَّارِ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ﴾ [١] فَلَمَّا آتَهَا نُورِي مِنْ شَطِئِ الْوَادِ الْأَيْمَنِ فِي الْبَقْعَةِ الْمُبَرَّكَةِ مِنَ الشَّجَرَةِ أَنْ يَمْوَسِي إِذْ أَنَّ اللَّهَ رَبُّ الْعَالَمِينَ وَأَنَّ الْقَوْمَ عَصَاكُ فَلَمَّا رَأَهَا هَنَّرَ كَانَتْ جَاءَهُ وَلَمْ يُدْبِرْ وَلَمْ يَعْقِبْ يَمْوَسِي أَقْبَلَ وَلَا تَخَفََ إِنَّكَ مِنَ الْأَمْيَنِ﴾ [٢] أَسْلَكَ يَدَكَ فِي جَيْكَ تَخْرُجْ يَصَانَةً مِنْ غَيْرِ شَوْءٍ وَأَضْصَمْ إِلَيْكَ حَاجَاتِكَ مِنَ الرَّهِبِ فَذَرِيكَ بُرْهَنَانَ مِنْ رَبِّكَ إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلِئِنَهُ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ﴾ [٣] [٤] [٥] [٦] [٧] [٨] [٩]

تقديم أن موسى أتمَ الأجلين وأكملاهما ، وقد يؤخذ هذا من قوله : ﴿فَلَمَّا قضَى مُوسَى الْأَجَلَ﴾ . وقوله : ﴿وَسَارَ بِأَهْلِهِ﴾ أي من عند صهره .

قالوا : واتفق ذلك في ليلة مظلمة باردة ، وтаهوا في طريقهم فلم يهتدوا إلى السلوك في الدرب المألهف ، واشتد الظلام والبرد .

فيينما هو كذلك إذ أبصر عن بعد ناراً تأجج في جانب الطور - وهو الجبل الغربي منه عن يمينه فـ ﴿قَالَ لِأَهْلِهِ أَمْكَثُوا إِنِّي أَنْسَثُ نَارًا﴾ وكأنه والله أعلم راحا دونهم : ﴿لَعْنِي مَا تَرَكْتُمْ مِنْهَا يَخْبِرِ﴾ أي لعلي أستعلم من عندها عن الطريق : ﴿أَوْ جَذْوَرَ مِنْكَ النَّارِ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ﴾ فدل على أنهم كانوا قد تاهوا عن الطريق في ليلة باردة مظلمة ، لقوله في الآية الأخرى : ﴿وَهُلْ أَنَّكَ حَدِيثُ مُوسَى إِذْ رَأَ نَارًا فَقَالَ لِأَهْلِهِ أَمْكَثُوا إِنِّي أَنْسَثُ نَارًا لَعْنِي مَا تَرَكْتُمْ مِنْهَا يَقْبَسَ أَوْ أَجِدُ عَلَى النَّارِ هُدًى﴾ فدل على وجود الظلام وكونهم تاهوا عن الطريق ، وجمع الكل في سورة التمل في قوله : ﴿إِذْ قَالَ مُوسَى لِأَهْلِهِ إِنِّي أَنْسَثُ نَارًا سَيِّئَكُمْ مِنْهَا يَخْبِرُ أَوْ مَا تَرَكْتُمْ قَبْسَ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ﴾ وقد أتاهم بخبر وأي خبر ، ووجد عندها هدى وأي هدى ، واقتبس منها نوراً وأي نور؟!

قال الله تعالى : ﴿فَلَمَّا آتَهَا نُورِي مِنْ شَطِئِ الْوَادِ الْأَيْمَنِ فِي الْبَقْعَةِ الْمُبَرَّكَةِ مِنَ الشَّجَرَةِ أَنْ يَمْوَسِي إِذْ أَنَّ اللَّهَ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ . وقال في النمل : ﴿فَلَمَّا جَاءَهَا نُورِي أَنْ بُوْرِكَ مِنْ فِي النَّارِ وَمَنْ حَوْلَهَا وَسَبَّحَ اللَّهَ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ أي سبحانه الله الذي يفعل ما يشاء ويحكم ما يريد ﴿يَمْوَسِي إِنَّهُ أَنَّ اللَّهَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [النمل : ٩]

وقال في سورة طه : ﴿فَلَمَّا آتَهَا نُورِي يَمْوَسِي﴾ [١] إِنَّهُ أَنَّ رَبِّكَ فَأَخْلَعَ نَعْيَكَ إِنَّكَ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُورِ﴾ [٢] وَأَنَا أَنْهَنَّكَ فَأَسْمِعْ لِمَا يُوحَى﴾ [٣] إِنَّهُ أَنَّ اللَّهَ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدْنِي وَأَقْمِ الْأَصْلَوَةَ لِذِكْرِي﴾ [٤] إِنَّ الْسَّاعَةَ عَلَيْهَا أَكَادُ أُخْفِيَهَا لِتُعْزِزَ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا تَسْعَى﴾ [٥] فَلَا يَصُدَّنَّكَ عَنْهَا مَنْ لَا يُؤْمِنُ بِهَا وَأَتَبَعَ هَوَيْهُ فَتَرَدَّى﴾ [٦]

قال تعالى : «وَمَا كُنْتَ بِحَاجَةٍ إِلَّا فَعَصَيْتَ إِلَيْنَا إِذْ مُوسَى الْأَمْرَ وَمَا كُنْتَ مِنَ الشَّاهِدِينَ» و كان موسى في واد اسمه «طوى» فكان موسى مستقبلاً القبلة ، وتلك الشجرة عن يمينه من ناحية الغرب ، فناداه ربه بالواد المقدس طوى ، فأمر أولًا بخلع نعليه تعظيمًا وتكريراً وتوقيراً لتلك البقعة المباركة ، ولا سيما في تلك الليلة المباركة .

ثم خاطبه تعالى كما يشاء قائلاً له : «إِنَّمَا أَنَا لَكَ رَبُّ الْعَالَمَيْنَ» «إِنَّمَا أَنَا لَكَ إِلَهٌ إِلَّا أَنَا فَاغْبَيْتُ وَأَقْرَبَ الصَّلَاةَ لِيَنْكُرَيْ» أي أنا رب العالمين الذي لا إله إلا هو ، الذي لا تصلح العبادة وإقامة الصلاة إلا له .

[عصا موسى] :

ثم أخبره أن هذه الدنيا ليست بدار قرار ، وإنما الدار الباقية يوم القيمة ، التي لا بد من كونها ووجودها : «لِتُجْزَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا سَعَى» أي من خير وشر ، وحظه وحثه على العمل لها ، ومجانبة من لا يؤمن بها من عصى مولاه واتبع هواه . ثم قال له مخاطباً ومؤانساً ومبيناً له أنه قادر على كل شيء ، والذي يقول للشيء كن فيكون : «وَمَا تَلِكَ بِمَيْمَنَكَ يَتَّمُوسَى» أي أما هذه عصاك التي تعرفها منذ صحيتها؟ «فَالَّتِي عَصَمَتْ أَنْوَكُوكُ عَنْهَا وَاهْشَهَا عَلَى عَنَمِي وَلَيْ فَيَهَا مَتَارِبُ أُخْرَى» أي بلى هذه عصاي التي أعرفها وأتحققها ، «فَالَّتِي هَا يَتَّمُوسَى» ^{١١} «فَالَّتِي هَا فَإِذَا هِيَ حَيَّةٌ سَعَى» وهذا خارق عظيم وبرهان قاطع على أن الذي يكلمه هو الذي يقول للشيء كن فيكون ، وأنه الفعال بالاختيار .

وقد قال الله تعالى في الآية الأخرى : «وَأَنَّ الَّتِي عَصَمَكَ فَلَمَّا رَأَهَا هَنَّرَ كَانَهَا جَانٌ وَلَيْ مُدَبِّرًا وَلَيْ يُعْقِبَ» أي قد صارت حية عظيمة لها ضخامة هائلة وأنياب تصك ، وهي مع ذلك في سرعة حركة الجان ، وهو ضرب من الحيات يقال له : الجان والجتان ، وهو لطيف ولكنه سريع الاضطراب والحركة جداً ، فهذه جمعت الضخامة والسرعة الشديدة ، فلما عاينها موسى عليه السلام : «وَلَيْ مُدَبِّرًا» أي هارباً منها ، لأن طبيعته البشرية تقتضي ذلك «وَلَيْ يُعْقِبَ» أي ولم يلتفت ، فناداه ربه قائلاً له : «يَتَّمُوسَى أَقْبَلَ وَلَا تَخْفَفْ إِنَّكَ مِنَ الْأَمْمَيْنَ» .

فلما رجع أمره الله تعالى أن يمسكها «فَالَّتِي حَذَّهَا وَلَا تَخْفَفْ سَتُّيُودُهَا سِرْتَهَا الْأُولَى» فيقال إنه هابها شديداً ، فلما استمكن منها إذا هي قد عادت كما كانت عصا فسبحان القدير العظيم ، رب المشرقين والمغاربين ! .

ثم أمره تعالى بإدخال يده في جيبيه ، ثم أمره بتنزعها فإذا هي تتلاًّ كالقرم بياضاً من غير سوء ، أي من غير برص ولا بحق ، ولهذا قال : «أَسْلُكْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجْ يَصَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ وَأَضْسِمْ إِنَّكَ جَنَاحَكَ مِنَ الْأَرْقَبِ» قيل معناه : إذا خفت فضع يدك على فؤادك يسكن جأشك .

وقال في سورة النمل : «وَأَدْخِلْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجْ يَصَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ فِي تَسْعَ مَائِيْتَ إِلَى فَرْعَوْنَ وَقَوْمَهُ إِلَيْهِمْ كَانُوا قَوْمًا فَنَرِقِينَ» أي هاتان الآيتان وهما : العصا واليد ، بما البرهان المشار إليهما في قوله =

﴿فَذَلِكَ بُهْتَنَانِ مِنْ رَبِّكَ إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلِئِينَ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَدَسْتِبَتْ﴾ وَمَعَ ذَلِكَ سَبْعَ آيَاتٍ أُخْرَى . فَذَلِكَ تَسْعَ آيَاتٍ بَيْنَاتٍ وَهِيَ الْمَذْكُورَةُ فِي أَخْرِ سُورَةِ الْإِسْرَاءِ ، حِيثُ قَالَ تَعَالَى : ﴿وَلَقَدْ أَلِيمَنَا مُوسَىٰ نَسْعَ آيَاتٍ يَتَنَبَّئُ فَسَلَّمَ يَقِنَّا بِإِنَّهُ يَقِنَّا بِإِذْ جَاءَهُمْ قَوْلَ لَهُ فِرْعَوْنُ إِنِّي لِأَطْنَكَ يَمْسُوْنِي مَسْحُورًا ﴾ فَالْلَّهُ عِلِّمَ مَا أَنْزَلَ هَذِهِ الْأَرْثُرَةَ الْمَسْمَوَتَ وَالْأَرْضَ بَصَارَ وَفِي لَأَطْنَكَ يَنْقِرُ عَوْنَشَ مَشْجُورًا .

وَهِيَ الْمُبَسَّطَةُ فِي سُورَةِ الْأَعْرَافِ فِي قَوْلِهِ : ﴿وَلَقَدْ أَخْذَنَا إِلَى فِرْعَوْنَ إِلَيْسِنِينَ وَنَفَقَ مِنَ الْأَثْمَرَتِ لِعَلَّهُمْ يَدْكُرُونَ ﴾ فَإِذَا جَاءَهُمُ الْحَسَنَةُ قَالُوا تَاهُنَّ وَإِنْ تُصِيبُهُمْ سَيِّئَةٌ يَظْهِرُوا مِمَّا يَمْسُوْنِي مَعَهُ ، أَلَا إِنَّمَا طَلَبُهُمْ عِنْدَ اللَّهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ وَقَالُوا مَهَا تَأْثِنَا يَهُ دِهِ مِنْ آيَةٍ تَسْهِنُنَا بِهَا تَعْنَنَ لَكَ مُؤْمِنِينَ ﴾ فَأَلَّا سَلَّمَنَا عَلَيْهِمُ الْأَطْفَوْنَ وَالْأَبْرَادَ وَالْقَلْعَ وَالْقَسْفَاعَ وَالْأَدَمَ إِنَّمَا مُفْسِدُتِ فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا فَوْمَاتِجَرِمِينَ﴾ كَمَا سَيَأْتِي الْكَلَامُ عَلَى ذَلِكَ فِي مَوْضِعِهِ .

وَهَذِهِ التَّسْعَ آيَاتُ غَيْرِ الْعَشْرِ الْكَلِمَاتِ . فَإِنَّ التَّسْعَ مِنْ كَلِمَاتِ اللَّهِ الْقَدِيرِيَّةِ ، وَالْعَشْرُ مِنْ كَلِمَاتِهِ الْشَّرْعِيَّةِ ، وَإِنَّمَا نَهْبَنَا عَلَى هَذَا لِأَنَّهُ قَدْ اشْتَهَى أَمْرُهَا عَلَى بَعْضِ الرِّوَايَةِ ، فَظَنَّ أَنَّ هَذِهِ

هِيَ هَذِهِ ، كَمَا قَرَرْنَا ذَلِكَ فِي تَفْسِيرِ أَخْرِ سُورَةِ بَنِي إِسْرَائِيلَ .

وَالْمَقْصُودُ أَنَّ اللَّهَ سَبَحَانَهُ لِمَا أَمْرَ مُوسَىٰ عَلَيْهِ السَّلَامُ بِالْذَّهَابِ إِلَى فِرْعَوْنَ : ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي قُتْلُتُ مِنْهُمْ نَفْسًا فَأَخَافُ أَنْ يَقْتُلُونِي ﴾ وَأَخَى هَذِهِ الْأَفْصَحُ مِنِّي لِسَانًا فَأَرْسَلَهُ مَعِي رِدَمًا مُصَدِّقَةً إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُكَذِّبُونِي ﴾ قَالَ سَنَسْدُ عَصْدَكَ يَا حَيْكَ وَيَجْعَلُ لَكُمَا سُلْطَنَانَا فَلَا يَصْلُوْنِ إِلَيْكُمَا إِنَّمَا تَأْتِنَا يَهُ دِهِ وَمَنِ اتَّبَعَكُمَا الْغَلَبِيُّونَ﴾ [الْقَصْصُ : ٢٣ - ٣٥] .

يَقُولُ تَعَالَى مُخْبِرًا عَنْ عَبْدِهِ وَرَسُولِهِ وَكَلِمِيهِ مُوسَىٰ عَلَيْهِ السَّلَامُ ، فِي جَوَابِهِ لِرَبِّهِ عَزَّ وَجَلَّ ، حِينَ أَمْرَهُ بِالْذَّهَابِ إِلَى عَدُوِّهِ الَّذِي خَرَجَ مِنْ دِيَارِ مَصْرُ فَرَارًا مِنْ سُطُونِهِ وَظُلْمِهِ ، حِينَ كَانَ مِنْ أَمْرِهِ مَا كَانَ فِي قَتْلِ ذَلِكَ الْقَبْطِيِّ وَلِهَذَا : ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي قُتْلُتُ مِنْهُمْ نَفْسًا فَأَخَافُ أَنْ يَقْتُلُونِي ﴾ وَأَخَى هَذِهِ الْأَفْصَحُ مِنِّي لِسَانًا فَأَرْسَلَهُ مَعِي رِدَمًا مُصَدِّقَةً إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُكَذِّبُونِي﴾ أَيْ اجْعَلْهُ مَعِينًا وَرَدَدًا وَوَزِيرًا يَسْاعِدُنِي ، وَيَعِينُنِي عَلَى أَدَاءِ رِسَالَتِكَ إِلَيْهِمْ فَإِنَّهُ أَفْصَحُ مِنِّي لِسَانًا وَأَبْلَغُ بِيَانًا .

قَالَ اللَّهُ تَعَالَى مُجَبِّاً لِهِ إِلَى سُؤْالِهِ : ﴿سَنَسْدُ عَصْدَكَ يَا حَيْكَ وَيَجْعَلُ لَكُمَا سُلْطَنَانَا﴾ أَيْ بِرَهَانًا ﴿فَلَا يَصْلُوْنِ إِلَيْكُمَا﴾ أَيْ فَلَا يَنْالُونَ مِنْكُمَا مَكْرُوهًا بِسَبِّ قِيَامِكُمَا بِآيَاتِنَا ، ﴿أَنْتُمْ وَمَنِ اتَّبَعَكُمَا الْغَلَبِيُّونَ﴾ .

وَقَالَ فِي سُورَةِ طَهِ : ﴿أَذَهَبْ إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى ﴾ قَالَ رَبِّ أَشْرَقَ لِصَدَرِي ﴿وَيَنْزِ لِأَمْرِي﴾ وَأَحْلَلَ عَقْدَةَ مِنْ لِسَانِي ﴿يَقْهُوْأَوْلِي﴾ قَيْلَ : إِنَّهُ أَصَابَهُ فِي لِسَانِهِ لِغَةً ، بِسَبِّ تَلْكَ الْجُمْرَةِ الَّتِي وَضَعَهَا عَلَى لِسَانِهِ ، وَالَّتِي كَانَ فِرْعَوْنُ أَرَادَ اخْتِبَارَ عَقْلِهِ ، حِينَ أَخْذَ بِلِحِيَتِهِ وَهُوَ صَغِيرٌ فَهُمْ بَقْتَلُهُ ، فَخَافَتْ عَلَيْهِ أَسْيَةُ وَقَالَتْ : إِنَّهُ طَفَلٌ ، فَاخْتَبَرَهُ بِوَضْعِ ثَمَرَةِ وَجْمَرَةِ بَيْنِ يَدِيهِ فَهُمْ بِأَخْذِ الْثَّمَرَةِ فَصَرَفَ الْمُلْكَ يَدَهُ إِلَى الْجُمْرَةِ ، فَأَخْذَهَا فَوَرَضَهَا عَلَى لِسَانِهِ فَأَصَابَتْهُ لِغَةٌ بِسَبِّهَا . فَسَأَلَ =

زوال بعضها بمقدار ما يفهمون قوله ، ولم يسأل زوالها بالكلية . قال الحسن البصري : والرجل إنما يسألون بحسب الحاجة ، ولهذا بقيت في لسانه بقية .

ولهذا قال فرعون - قبحه الله - فيما زعم أنه يعيّب به الكليم : «**وَلَا يَكُادُ يُؤْمِنُ**» أي يفصح عن مراده ، ويعبر عما في ضميره وفؤاده . ثم قال موسى عليه السلام : «**وَاجْعَلْ لِي وَيَرَا مِنْ أَهْلِ هَرُونَ أَخِي**» **أَنْشَدْ يَهُوازْرِي** **وَأَشِرِكَ فِي أَمْرِي** **كَيْسِنْكَ كَيْرِي** **وَنَذَرْكَ كَيْرِي** **إِنَّكَ كُنْتَ إِنَّكَ كُنْتَ بَصِيرًا** **فَالْقَدْ أُوتِيتَ شُوْلَكَ يَمُوسِي**». =

أي : قد أجبناك إلى جميع ما سألت ، وأعطيتك الذي طلبت . وهذا من وجاهته عند ربه عزوجل ، حين شفع أن يوحى الله إلى أخيه فأوحى إليه . وهذا جاه عظيم ، قال الله تعالى : «**وَكَانَ عِنْدَ اللَّهِ وَجْهًا**» ، وقال تعالى : «**وَوَهَبَنَا لَهُمْ مِنْ رَحْمَنَنَا أَخَاهُ هَرُونَ يَبِيَا**» .

وقد سمعت أم المؤمنين عائشة رجلاً يقول لأناساً وهم سائرون في طريق الحج : أي أخ آمن على أخيه ؟ فسكت القوم ، فقالت عائشة لمن حول هودجها : هو موسى بن عمران حين شفع في أخيه هارون فأوحى إليه . قال الله تعالى : «**وَوَهَبَنَا لَهُمْ مِنْ رَحْمَنَنَا أَخَاهُ هَرُونَ يَبِيَا**» .

وقال تعالى في سورة الشعراء : «**وَلَذِنَادِي رَيْكَ مُوْسَيَ أَنْ أَنْتَ الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ**» **قَوْمَ فِرْعَوْنَ الْآَيَنَقُونَ** **فَالَّرِبِّ إِنَّ أَخَافُ أَنْ يُكَذِّبُونَ** **وَضَبْطُقَ صَدَرِي وَلَا يَنْطَلِقُ لِسَافِ فَأَرْسَلَ إِنَّهَرُونَ** **وَلَهُمْ عَلَى ذَكِّي فَأَخَافُ أَنْ يَقْتُلُونَ** **فَالَّلَّهُ فَادْهَا يَابِيَايَنَتَا إِنَّا مَعْكُمْ مُشْتَغِلُونَ** **فَأَتَيْنَا فَرَعَوْنَ فَقَوْلَا إِنَّا رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ** **أَنَّ أَرْسَلَ مَعَنَا يَبِي إِسْرَئِيلَ** **فَالَّرِبِّ تُرِيكَ فِنَّتَا وَلِيدَا وَلَيَشَتَ فِنَّتَا مِنْ عُمَرِكَسِينَ** **وَفَعَلَتْ فَعَلَنَكَ أَلَّيَ فَعَلَتَ وَأَنَّتَ مِنَ الْكَفِيرِينَ**». **(الشعراء : ١٠ - ١٩)**

تقدير الكلام : فأتياه فقال له ذلك ، وبلغاه ما أرسله به من دعوه إلى عبادة الله تعالى وحده لا شريك له ، وأن يفك أسربني إسرائيل من قبضته وقهره وسطوته ، ويتركهم يعبدون ربهم حيث شاؤوا ويتفرغون لتوحيده ودعائه والتضرع لديه .

فتذكر فرعون في نفسه وعتا وطغى ، ونظر إلى موسى بعين الازدراء والتنتقد قائلًا له : «**أَلَّرِبِّ فِي سَاوِلِيدَا وَلَيَشَتَ فِنَّتَا مِنْ عُمَرِكَسِينَ**» أي أما أنت الذي ربينا في منزلنا ؟ وأحسنا إليه وأنعمنا عليه مدة من الدهر ؟ .

وهذا يدل على أن فرعون الذي بعث إليه هو الذي فر منه ، «**وَفَعَلَتْ فَعَلَنَكَ أَلَّيَ فَعَلَتَ وَأَنَّتَ مِنَ الْكَفِيرِينَ**» أي وقتلت الرجل القبطي ، وفررت منا وحدثت نعمتنا .

«**فَالَّرِبِّ فَعَلَنَهَا إِدَا وَأَنَّا مِنَ الْأَسَارَلِنَ**» أي قبل أن يوحى إليّ وينزل عليّ ، «**فَفَرَرْتُ مِنْكُمْ لَمَّا خَفَقْتُكُمْ فَوْهَبَ لِي رِبِّ حُكْمًا وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُرْسَلِينَ**». =

ثم قال مجيأً لفرعون عما امتن به من التربية والإحسان إليه : «**وَتِلَكَ نَعْمَةٌ نَعْمَهَا عَلَى أَنْ عَبَدَتَ بَيْهَ إِسْرَئِيلَ**» أي وهذه النعمة التي ذكرت ، من أنك أحسنت إلىّ وأنا رجل واحد من بنى إسرائيل تقابل ما استخدمت هذا الشعب العظيم بكماله ، واستعبدتهم في أعمالك وخدمتك وأشغالك .

﴿ قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴾ ﴿ قَالَ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا يَنْهَا مَا إِنْ كُنْتُ مُوقِنِي ﴾ ﴿ قَالَ لِئَنْ حَوْلَهُ أَلَا سَمَّيْتُونَ ﴾ ﴿ قَالَ رَبِّكُمْ وَرَبِّ إِبَائِكُمُ الْأَوَّلِينَ ﴾ ﴿ قَالَ إِنَّ رَسُولَكُمُ الدَّى أُنْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ ﴾ ﴿ قَالَ رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَمَا يَنْهَا إِنْ كُنْتُ تَقْلِيْنَ ﴾ .

يدرك تعالى ما كان بين فرعون وموسى من المقاولة والمحاجة والمناقشة ، وما أقامه الكليم على فرعون اللثيم ، من الحجة العقلية المعنية ثم الحسية . وذلك أن فرعون - قبحه الله - أظهر جحد الصانع تبارك وتعالى وزعم أنه الإله : ﴿ فَحَسِّرَ فَادِي ﴾ ﴿ فَقَالَ إِنَّا رَبُّكُمُ الْأَكْلَهُ ﴾ ، ﴿ وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَا تَاهِكَا أَمْلَأَ مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ عَيْدِي ﴾ .

وهو في هذه المقالة معاند ، يعلم أنه عبد مربوب ، وأن الله هو الخالق الباري المصور ، الإله الحق كما قال تعالى : ﴿ وَحَمَدُوا هَمَا وَأَسْيَقْتُهَا أَفَقُسْهُمْ طَلْمَأْ وَعَلْوَ فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَنْقَيْهُ الْمُفْسِدِينَ ﴾ . ولهذا قال لموسى عليه السلام على سبيل الإنكار لرسالته ، والإظهار أنه ما شر رب أرسله : ﴿ وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴾ لأنهما قالا له : ﴿ إِنَّا رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ فكانه يقول لهم : ومن رب العالمين؟ الذي تزعمن أن أنه أرسلكمما وابتعدكم؟

فأجابه موسى قائلاً : ﴿ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا يَنْهَا إِنْ كُنْتُ مُوقِنِي ﴾ يعني رب العالمين خالق هذه السموات والأرض المشاهدة ، وما ينهمما من المخلوقات المتعددة ، من السحاب والرياح والمطر والنبات والحيوانات التي يعلم كل موقن أنها لم تحدث بأنفسها ، ولا بد لها من موجد ومحدث وخالق . وهو الله الذي لا إله إلا هو رب العالمين .

﴿ قَالَ أَيِ فِرْعَوْنُ لِئَنْ حَوْلَهُ ﴾ من أمراته ومراتبه ووزرائه ، على سبيل التهكم والتتنصل لما قرره موسى عليه السلام : ﴿ أَلَا سَمَّيْتُونَ ﴾ يعني كلامه هذا . ﴿ قَالَ ﴾ موسى مخاطباً له ولهم : ﴿ رَبِّكُمْ وَرَبِّ إِبَائِكُمُ الْأَوَّلِينَ ﴾ أي هو الذي خلقكم والذين من قبلكم ، من الآباء والأجداد ، والقرون السالفة في الآباء ، فإن كل أحد يعلم أنه لم يخلق نفسه ، ولا أبوه ولا أمه ، ولا يحدث من غير محدث ، وإنما أوجده وخلقه رب العالمين ، وهذا المقامان مما المذكوران في قوله تعالى : ﴿ سُرِّيْهُمْ ءاِيَّتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّى يَبْيَنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ ﴾ .

ومع هذا كله لم يستفق فرعون من رقاده ، ولا نزع عن ضلالته بل استمر على طغيانه وعنده وكفره أنه : ﴿ قَالَ إِنَّ رَسُولَكُمُ الدَّى أُنْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ ﴾ ﴿ قَالَ رَبُّ الْمَسْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَمَا يَنْهَا إِنْ كُنْتُ تَقْلِيْنَ ﴾ أي هو المسخر لهذه الكواكب الزاهرة المسيرة للأفلاك الدائرة . خالق الظلام والضياء ، ورب الأرض والسماء ، رب الأولين والآخرين ، خالق الشمس والقمر ، والكواكب السائرة ، والثوابت الحائرة ، خالق الليل بظلماته ، والنهر بضيائه ، والكل تحت قهره وتسخيره وتيسيره سائرون ، وفي ذلك يسبحون ، يتعاقبون في سائر الأوقات ويدورون ، فهو تعالى الخالق المالك المتصرف في خلقه بما يشاء .

فلما قامت الحجج على فرعون وانقطعت شبهه ، ولم يبق له قول سوى العnad ، عدل إلى =

استعمال سلطانه وجاهه وسطوته ﴿ قَالَ لِئِنْ أَخْدَتَ إِلَيْهَا غَيْرِي لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ الْمُسْتُحْشِينَ ﴾ قَالَ أَوْلَوْ حِشْتُكَ يَسْتَعِي وَمُبِينٌ ﴿ قَالَ فَأَتَ يَهُ إِنْ كَثُنَّ مِنَ الْأَصَدِيقِينَ ﴾ فَالْقَى عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثَعَبَانٌ مُبِينٌ ﴿ وَزَعَ يَدُهُ فَإِذَا هِيَ يَضَاءٌ لِلنَّاطِرِينَ ﴾ [الشعراء : ٢٩ - ٣٣].

وهذا إنما أدخل موسى عليه السلام يده في جيبه واستخرجها ، أخرجها وهي كفلقة القمر الشكل ، بديع في الصخامة والهول ، والمنظر العظيم الفظيع الباهر .

وهكذا لما أدخل موسى عليه السلام يده في جيبه واستخرجها ، أخرجها وهي كفلقة القمر تتلاًّ نوراً يبهر الأ بصار ، فإذا أعادها إلى جيبه واستخرجها رجعت إلى صفتها الأولى .

ومع هذا كله لم يتفع فرعون - لعنه الله - بشيء من ذلك ، بل استمر على ما هو عليه ، وأظهر أن هذا كله سحر ، وأراد معارضته بالسحر ، فأرسل يجمعهم من سائر مملكته ومنهم في رعيته وتحت قهره دولته ، كما سيأتي بسطه وبيانه في موضعه ، من إظهار الله الحق المبين والحجة الباهرة القاطعة على فرعون ومملئه ، وأهل دولته وملته . . . والله الحمد والمنة .

* * *

وقال تعالى في سورة طه : « فَلِئْتَ سِينَنَ فِي أَهْلِ مَدِينَ شَمْ جِهَتَ عَلَىٰ قَدَرِ يَمُوسَى ﴾ وَاصْطَنَعْتَكَ لِنَفْسِي ﴿ أَذْهَبْ أَنَّتَ وَلَخُوكَ يَقِيَّتِي وَلَا تَنِيَّا فِي ذَكْرِي ﴾ أَذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَىٰ ﴿ فَقَوْلَا لَهُ قَوْلًا لِتَعْلَمَ ۝ يَنْذَكْرُ أَوْ يَخْشَىٰ ﴾ فَالْأَرِيَّا إِنَّا نَخَافُ أَنْ يَقْرُطَ عَيْنَاهَا أَوْ أَنْ يَطْعَنِي ﴿ قَالَ لَا تَخَافَا إِنَّنِي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَىٰ ﴾ [سورة طه : ٤٠ - ٤٦].

يقول تعالى مخاطباً موسى فيما كلامه به ليلة أوحى إليه ، وأنعم بالنبوة عليه ، وكلمه منه إليه : قد كنت مشاهداً لك وأنت في دار فرعون ، وأنت تحت كنفي وحفظي ولطفني ، ثم أخرحتك من أرض مصر إلى أرض مدين بمشيتي وقدرتني وتدبرري ، فلبثت فيها سينين « شَمْ جِهَتَ عَلَىٰ قَدَرِ ﴾ أي مني لذلك ، فوافق ذلك تقديري وتسيرري « وَاصْطَنَعْتَكَ لِنَفْسِي ﴾ أي اصطفيتك لنفسي برسالتي وبكلامي .

« أَذْهَبْ أَنَّتَ وَلَخُوكَ يَقِيَّتِي وَلَا تَنِيَّا فِي ذَكْرِي ﴾ يعني : ولا تفتر في ذكري إذا قدمتني عليه ووفدتني إليه ، فإنه ذلك عن لكما على مخاطبته ومجاوبته ، وأداء النصيحة إليه وإقامة الحجة عليه . ثم قال تعالى : « أَذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَىٰ ﴿ فَقَوْلَا لَهُ قَوْلًا لِتَعْلَمَ يَنْذَكْرُ أَوْ يَخْشَىٰ ﴾ وهذا من حلمه تعالى وكرمه ورأفته ورحمته بخلقه ، مع علمه بकفر فرعون وعنته وتجربه ، وهو إذ ذاك أردى خلقه ، وقد بعث إليه صفوته من خلقه في ذلك الزمان ، ومع هذا يقول لهم وأيامهم أن يدعوا إليه والتي هي أحسن برقق ولين ، ويعاملوه باللطف معاملة من يرجو أن يتذكر أو يخشى .

كما قال لرسوله : « أَدْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحَكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَنِيدَهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحَسَنُ ﴾ ،

وقال تعالى : ﴿ وَلَا يُجِدُ لَوْ أَهْلَ الْكِتَبِ إِلَّا بِأَنَّهِ هُوَ أَحَسَنُ إِلَّا الَّذِينَ طَلَمُوا مِنْهُمْ ﴾ ﴿ فَالَّرَبُّ إِنَّا نَخَافُ أَنْ يَفْرَطَ عَيْنَاهُنَّ أَوْ أَنْ يَطْغِي ﴾ وذلك أن فرعون كان جباراً عنيداً وشيطاناً مريداً ، له سلطان في بلاد مصر طويل عريض ، وجاه وجنود ، وعساكر وسطوة ، فهاباه من حيث البشرية ، وخافاً أن يسطو عليهم في بادئ الأمر ، فتبتهما تعالى وهو العلي الأعلى فقال : ﴿ لَا تَخَافَا إِنَّمَا مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَى ﴾ كما قال في الآية الأخرى ﴿ ... إِنَّا مَعَكُمْ مُسْتَعِنُونَ ﴾ .
 فَأَيُّهُمْ قَوْلًا إِنَّا رَسُولًا رَبِّكَ فَأَرْسَلْتَ مَعَنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ وَلَا تُعْذِّبْهُمْ قَدْ جَعَنَكَ إِثْيَاهُ مِنْ رَبِّكَ وَالسَّلَامُ عَلَى مَنْ أَتَيْتَ الْمُهْدَى ⑯ إِنَّا قَدْ أَوْحَيْنَا إِلَيْنَا أَنَّ الْعَذَابَ عَلَى مَنْ كَذَّبَ وَتَوَلَّ ⑯ يذكر تعالى أنه أمرهما أن يذهبا إلى فرعون فيدعوه إلى الله تعالى أن يعده وحده لا شريك له وأن يرسل معهما بنى إسرائيل ويطلقهم من أسره وقهره ولا يعذبهم . ﴿ قَدْ جَعَنَكَ إِثْيَاهُ مِنْ رَبِّكَ ﴾ وهو البرهان العظيم في العصا واليد ، ﴿ وَالسَّلَامُ عَلَى مَنْ أَتَيْتَ الْمُهْدَى ﴾ تقيد مفيده بلغ عظيم ، ثم تهددها وتوعدها على التكذيب فقالا : ﴿ إِنَّا قَدْ أَوْحَيْنَا إِلَيْنَا أَنَّ الْعَذَابَ عَلَى مَنْ كَذَّبَ وَتَوَلَّ ⑯ أي كذب بالحق بقلبه ، وتولى عن العمل بقايه .

* * *

[اتصال موسى بفرعون]

وقال الله مخبراً عن فرعون : ﴿ قَالَ فَمَنْ رَبِّكُمَا يَتَوَسَّى ⑯ قَالَ رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَنَا كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ مِنْ هَذَى ⑯ قَالَ فَمَا بَالُ الْقَرْوَنُ الْأُولَى ⑯ قَالَ عِلْمُهَا عِنْدَ رَبِّهِ فِي كِتَابٍ لَا يَصِلُّ رَبِّي وَلَا يَنْسَى ⑯ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ مَهَدًا وَسَلَكَ لَكُمْ فِيهَا سُلُّوا وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَنَا بِهِ أَرْوَاحَنَا مِنْ نَبَاتٍ شَتَّى ⑯ كُلُّوا وَارْعُوا أَنْتُمْ كُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَا يَنْتَهِ لِأَوْلِي النُّنُقُ ⑯ مِنْهَا حَلَقْتُمْ وَفِيهَا أَعْدَدْتُمْ وَمِنْهَا نَخْرَجْتُمْ تَارَةً أُخْرَى ⑯ [طه : ٤٩ - ٥٥].

يقول تعالى مخبراً عن فرعون : إنه أنكر إثبات الصانع تعالى قائلاً : ﴿ فَمَنْ رَبِّكُمَا يَتَوَسَّى ⑯ قَالَ رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَنَا كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ مِنْ هَذَى ⑯ أي هو الذي خلق الخلائق وقدر لهم أعمالاً وأرزاقاً وآجالاً ، وكتب ذلك عنده في كتابه اللوح المحفوظ ، ثم هدى كل مخلوق إلى ما قدره له ، فطابق عمله فيهم على الوجه الذي قدره وعلمه ، وقدرته وقدره لكمال علمه ، وهذه الآية كقوله تعالى : ﴿ سَيَّجَ أَسْمَرَ رَبِّكَ الْأَعْلَى ⑯ الَّذِي حَقَّ فَسَوَى ⑯ وَالَّذِي قَدَرَ فَهَدَى ⑯ أي قدر قدرأً وهدى الخلاقي إليه .

﴿ قَالَ فَمَا بَالُ الْقَرْوَنُ الْأُولَى ⑯ يقول فرعون لموسى : فإذا كان ربكم هو الخالق المقدر الهايدي الخلاقي لما قدره ، وهو بهذه المثابة من أنه لا يستحق العبادة سواه ، فلم عبد الأولون غيره؟ وأشار كروا به من الكواكب والأنداد ما قد علمت؟ فهلا اهتدى إلى ما ذكرته القرون الأولى؟ ﴿ قَالَ عِلْمُهَا عِنْدَ رَبِّهِ فِي كِتَابٍ لَا يَصِلُّ رَبِّي وَلَا يَنْسَى ⑯ أي هم وإن عبدوا غيره فليس ذلك بحججة لك ، ولا يدل على خلاف ما أقول لأنهم جهله مثلك ، وكل شيء فعلوه مُسْطَر عليهم في الزبر ، من صغير وكبير ، وسيجزيهم على ذلك ربي عز وجل ، ولا يظلم أحداً مثقال ذرة ، =

لأن جميع أفعال العباد مكتوبة عنده في كتاب لا يضل عنه شيء ولا ينسى ربي شيئاً.

ثم ذكر له عظمة الرب وقدرته على خلق الأشياء ، وجعله الأرض مهاداً والسماء سقفاً محفوظاً ، وتسخيره السحاب والأمطار لرزق العباد ودواهم وأنعامهم ، كما قال: ﴿كُلُّا وَرَعَوْا أَنْعَمْكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذَّاتٍ لَا تُؤْلِي إِلَيْنَا﴾ أي لذوي العقول الصحيحة المستقيمة ، والفطر القوية غير السقيمة ، فهو تعالى الحال الرزاق ، كما قال تعالى: ﴿يَأَيُّهَا النَّاسُ أَعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقْتُمْ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقَوْنَ﴾ ﴿الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ فَرِشَّاً وَالسَّمَاءَ إِنَّا وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءَ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الْأَرْضَ رِزْقًا لَكُمْ فَلَا يَجْعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَادًا وَأَنْتُمْ تَلْمِذُونَ﴾ [البقرة: ٢١ - ٢٢].

ولما ذكر إحياء الأرض ، واهتزازها بإخراج نباتها فيه به على المعاد فقال: ﴿مِنْهَا﴾ أي من الأرض ﴿خَلَقْتُكُمْ وَفِيهَا تُعِدُّكُمْ وَمِنْهَا تُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَى﴾ كما قال تعالى: ﴿كَمَا بَدَأْتُكُمْ تَوْدُونَ﴾ ، وقال تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي يَدْعُوا الْخَلَقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهُوَنُ عَلَيْهِ وَلَهُ الْأَمْلَأُ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [الروم: ٢٧].

ثم قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرَيْنَاكُمْ كُلَّهَا كَذَبٌ وَأَنَّ ﴿قَالَ أَجَنَّتَنَا لِتُخْرِجَنَا مِنْ أَرْضِنَا يُسْخِرُكَ يَسْمُوسَ﴾ فَلَمَّا أَتَيْنَاكُمْ بِسُخْرَتِنَا وَيَسِّرَتِنَا مَوْعِدَنَا لَا نُخْلِفُهُمْ تَحْنُنَ وَلَا أَنْتَ مَكَانًا سُوءِي﴾ ﴿قَالَ مَوْعِدُكُمْ يَوْمُ الْرِّيَّةَ وَإِنْ يُخْسِرَ النَّاسُ صُنْحَ﴾ . يخبر تعالى عن شقاء فرعون وكثرة جهله وقلة عقله ، في تكذيبه بآيات الله واستكباره عن اتباعها ، وقوله لموسى: إن هذا الذي جئت به سحر ، ونحن نعارضك بمثله ، ثم طلب من موسى أن يواعده إلى وقت معلوم ومكان معلوم.

وكان هذا من أكبر مقاصد موسى عليه السلام: أن يظهر آيات الله وحججه وبراهينه جهرة بحضورة الناس. ولهذا ﴿قَالَ مَوْعِدُكُمْ يَوْمُ الْرِّيَّةَ﴾ وكان يوم عيد من أعيادهم ومجتمع لهم ﴿وَإِنْ يُخْسِرَ النَّاسُ صُنْحَ﴾ أي من أول النهار في وقت اشتداد ضياء الشمس ، فيكون الحق أظهر وأجلى ، ولم يطلب أن يكون ذلك ليلاً في ظلام ، كما يروج عليهم محالاً وباطلاً ، بل طلب أن يكون نهاراً جهرة ، لأنه على بصيرة من ربه ، ويقين بأن الله سيظهر كل منه ودينه ، وإن رغمت أنوف القبط ! .

* * *

[موسى والسحرة]:

قال الله تعالى: ﴿فَتَوَلَّ فِرْعَوْنُ فَجَمَعَ كَيْدُهُ ثُمَّ أَقَى﴾ ﴿قَالَ لَهُمْ مُوسَى وَيَلَّكُمْ لَا تَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا فَسَحَّرْتُكُمْ بِعِذَابٍ وَقَدْ خَابَ مَنْ أَفْرَى﴾ ﴿فَنَذَرُوكُمْ أَمْرَهُمْ بَيْتَهُمْ وَأَسْرُوا الْنَّجْوَى﴾ ﴿قَالُوا إِنَّ هَذَا نَحْنُ سَاحِرُونَ بُرِيدَانَ أَنْ يُخْرِجَاكُمْ مِنْ أَرْضِكُمْ يُسْخِرُهُمَا وَيَدْهَا بِطَرِيقَتِكُمُ الْمُنْتَلِ﴾ ﴿فَاجْمَعُوا كَيْدُكُمْ ثُمَّ أَتَوْا صَفَّا وَقَدْ أَفْلَحَ الْيَوْمَ مِنْ أَسْتَقْلَلَ﴾ [سورة طه: ٦٤ - ٦٠].

يخبر تعالى عن فرعون أنه ذهب فجمع من كان بيلاده من السحرة ، وكانت بلاد مصر في ذلك

الزمان مملوءة سحرة فضلاء ، في فنهم غاية ، فجمعوا له من كل بلد ومن كل مكان ، فاجتمع منهم خلق كثير وجم غير ، وحضر فرعون وأمراؤه وأهل دولته وأهل بلده عن بكرة أبيهم . وذلك أن فرعون نادى فيهم أن يحضروا هذا الموقف العظيم ، فخرجوا وهم يقولون : ﴿لَعَلَّنَا نَتَّبِعُ السَّحْرَةَ إِنْ كَانُوا هُمُ الْغَنِيُّونَ﴾ .

وتقديم موسى عليه السلام إلى السحرة فوعظهم ، وزجرهم عن تعاطي السحر الباطل ، الذي فيه معارضة لآيات الله وحججه فقال : ﴿وَيَلِكُمْ لَا تَقْتُرُوا عَلَى اللَّهِ كَيْفَ يَسْتَحْتَكُمْ بِعَذَابٍ وَقَدْ خَابَ مَنْ أَفْتَرَى ﴿١١﴾ فَتَنَزَّلُوا أَمْرُهُمْ بِنَهَمَ﴾ .

قيل معناه : أنهم اختلفوا فيما بينهم ، فقاتل يقول : هذا كلام نبي وليس بساحر ، وقاتل منهم يقول : بل هو ساحر .. فالله أعلم . أسروا الناجي بهذا وغيره . ﴿قَالُوا إِنَّهُنَّ لَسَحَرَنَ يُرِيدُنَ أَنْ يُخْرِجَاكُمْ مِنْ أَرْضِكُمْ بِسُحْرِهِمَا﴾ يقولون : إن هذا وأخاه هارون ، ساحران عليمان مطbacan متقدنان لهذه الصناعة ، ومرادهما أن يجتمع الناس عليهم ويصولا على الملك وحاشيته ، ويستأصلاكم عن آخركم ويستأمرها عليكم بهذه الصناعة .

﴿فَاجْمُوْعُ كَيْدُكُمْ ثُمَّ ائْتُوْ صَفَّا وَقَدْ أَفْلَحَ الْيَوْمَ مِنْ أَسْتَعْلَى﴾ وإنما قالوا الكلام الأول ليتدبروا ويتواصوا ، ويأتوا ، بجميع ما عندهم من المكيدة والمكر والخديعة والبهتان .

وهيهات ! كذبت والله الظنون ، وأخطأت الآراء ، أتني يعارض البهتان ، والسحر والهدايان خوارق العادات التي أجرتها الديان على يدي عبده الكليم ، ورسوله الكريم المؤيد بالبرهان ، الذي يهير الأ بصار وتحار فيه العقول والأذهان .

وقولهم : ﴿فَاجْمُوْعُ كَيْدُكُمْ﴾ أي جميع ما عندكم ﴿ثُمَّ ائْتُوْ صَفَّا﴾ أي جملة واحدة ، ثم حضروا بعضهم على التقدم في هذا المقام ، لأن فرعون كان قد وعدهم ومناهم ، وما يعدهم الشيطان إلا غروراً .

﴿قَالُوا يَمْوِسَى إِنَّا نَنْقِي وَإِنَّا نَكُونُ أَوَّلَ مَنْ أَلْقَى ﴿١﴾ قَالَ بَلْ أَلْقَوْا إِلَيْهِمْ وَعَصَيْهِمْ بِخَلْلِ إِلَيْهِ مِنْ سُحْرِهِمْ أَهْنَأْتُنَّ ﴿١١﴾ فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِ حِيفَةً مُوسَى ﴿١٢﴾ فَلَمَّا نَخَفَ إِنَّكَ أَنْتَ الْأَعْلَى ﴿١٣﴾ وَالَّتِي مَا فِي يَمِينِكَ ثَلَقَ مَا صَنَعْوَا إِنَّمَا صَنَعُوا كَيْدُسَاحِرٍ وَلَا يُفْلِحُ السَّاحِرُ حِينَئِذٍ﴾ [سورة طه : ٦٥ - ٦٩] .

لما اصطف السحرة ووقف موسى وهارون عليهما السلام تجاههم قالوا له : إما أن تلقي قبلنا ، وإما أن نلقي قبلك ﴿قَالَ بَلْ أَلْقَوْا﴾ أنت ، وكانوا قد عدوا إلى حبال وعصي ، فأودعوها الزئبق وغيره ، من الآلات التي تضطرب بسببها تلك الحبال والعصي اضطراباً يخيل للرأي أنها تسعى باختيارها ، وإنما تتحرك بسبب ذلك ، فعند ذلك سحرها أعين الناس واسترهبوا بهم ، وألقوا حبالهم وعصيهم ، وهم يقولون : ﴿بِعَزَّةٍ فَرَعَوْنَ إِنَّا لَنَحْنُ الْغَنِيُّونَ﴾ .

قال الله تعالى : ﴿فَلَمَّا أَلْقَوْا سَاحِرُوْا أَعْيَتْ أَنَّاسٍ وَأَسْرَهُوْهُمْ وَجَاءَهُوْ سِحْرٌ عَظِيمٌ﴾ ، وقال تعالى : ﴿إِذَا جَاهَهُمْ وَعَصَيْهِمْ بِخَلْلِ إِلَيْهِ مِنْ سُحْرِهِمْ أَهْنَأْتُنَّ ﴿١١﴾ فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِ حِيفَةً مُوسَى﴾ أي خاف =

على الناس أن يفتنوا بسحرهم ومحالهم ، قبل أن يلقى ما في يده ، فإنه لا يصنع شيئاً قبل أن يؤمر ، فأوحى الله إليه في الساعة الراهنة : ﴿ لَا تَحْفَ إِنَّكَ أَنَّ الْأَعْنَى ﴾ وَأَلِيْ مَا فِي تَبَيْنَكَ تَلَقَّفَ مَا صَنَعْتَ إِنَّمَا صَنَعْتَ كِيدُ سَحْرٍ وَلَا يَلْقَي السَّاحِرُ حَيْثُ أُنِي ﴾ [١١] فعند ذلك ألقى موسى عصاه وقال : ﴿ مَا يَقْشُدُ بِهِ الْيَسْرٌ إِنَّ اللَّهَ سَيْبَطِلُهُ إِنَّ اللَّهَ لَا يُصْلِحُ عَمَلَ الْمُفْسِدِينَ ﴾ وَمَحْمُدُ اللَّهُ الْحَقُّ يَكْمِنُهُ وَلَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ ﴾ .

وقال تعالى : ﴿ وَأَوْجَسْتَ إِلَى مُوسَى أَنَّ الْقَعْدَكَ فَإِذَا هِيَ تَلَقَّفَ مَا يَأْفِكُونَ ﴾ فَوَقَعَ الْحُقُّ وَبَطَلَ مَا كَانُوا يَعْسَلُونَ ﴾ [١٢] فَعَلَبُوا هُنَالِكَ وَنَقْلَبُوا صَغِيرِينَ ﴾ وَأَلِيْ السَّاحِرَ سَجِدِينَ ﴾ [١٣] قَالُوا إِمَّا بَرِتُ الْمَنَامِينَ رَبِّ مُوسَى وَهَدُرُونَ ﴾ .

وذلك أن موسى عليه السلام لما ألقاها ، صارت حية عظيمة بحيث إن الناس انحازوا منها وهربو سراعاً وتآخروا عن مكانها وأقبلت هي على ما أقوى من العجب والعصبي ، فجعلت تلتفه واحداً واحداً في أسرع ما يكون من الحركة ، والناس ينظرون إليها ويتعجبون منها ، وأما السحرة فإنهم رأوا ما هالهم وحيرهم في أمرهم ، واطلعوا على أمر لم يكن في خلدهم ولا بهم ولا يدخل تحت صناعاتهم وأشغالهم ، فعند ذلك وهنالك تتحققوا بما عندهم من العلم أن هذا ليس بسحر ولا شعوذة ، ولا محال ولا خيال ، ولا زور ولا بهتان ولا ضلال ، بل حق لا يقدر عليه إلا الحق ، الذي بعث هذا المؤيد به بالحق ، وكشف الله عن قلوبهم غشاوة الغفلة ، وأنارها بما خلق فيها من الهدى وأزاح عنها القسوة ، وأنابوا إلى ربهم وخروا له ساجدين ، وقالوا جهراً للحاضرين ولم يخشوا عقوبة ولا بلوي ﴿ إِمَّا بَرِتُ هَرُونَ وَمُوسَى ﴾ كما قال تعالى : ﴿ فَأَلِيْ السَّاحِرَ سُجَدًا قَالُوا إِمَّا بَرِتُ هَرُونَ وَمُوسَى ﴾ [٧] قَالَ إِمَّا أَمَّتُ لَهُ قَبْلَكُمْ إِنَّمَا لَكُمُ الْسِّرُّ فَلَا قَطَعْنَعَ أَبِيِّكُمْ وَأَرْجُلِكُمْ مِنْ خَلْفِهِ وَلَا صَلَتُكُمْ فِي جَدْرِعِ التَّنْعِلِ وَلَلْعَلَمْ إِنَّمَا أَشَدَّ عَذَابَهُمَا وَلَقَنَ ﴾ [٨] قَالُوا أَنْ تُؤْثِرَكَ عَلَى مَا حَاءَتَنَا مِنَ الْبَيْتَنَ وَالَّذِي فَطَرَنَا فَأَقْضِ مَا أَنْتَ قَاضٌ إِنَّمَا نَقْعِدُ هَذِهِ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ﴾ [٩] إِنَّمَا أَمَّتُ لَهُ قَبْلَكُمْ إِنَّمَا أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ السَّحْرِ وَاللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَى ﴾ [١٠] إِنَّمَا مِنْ يَأْتُ رَبِّهِ بِحَرْمَهُ فَإِنَّهُ جَهَنَّمَ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَى ﴾ [١١] وَمَنْ يَأْتِهِ مُؤْمِنًا فَقَدْ عَيْلَ الصَّلَاحِتِ فَأَوْتَيْكَ لَهُمُ الْدَّرَحَتُ الْعَلَى ﴾ [١٢] جَنَّتُ عَدَنَ تَجْرِي مِنْ تَحْنَاهَا الْأَنْهَرُ خَلِدِينَ فِيهَا وَذَلِكَ جَرَاءُ مَنْ تَرَزَّى ﴾ [سورة طه : ٧٦ - ٧٠].

وذلك لأن فرعون لما رأى هؤلاء السحرة قد أسلموا وأشهروا ذكر موسى وهارون في الناس على هذه الصفة الجميلة ، أفرعه ذلك ورأى أمراً بهره ، وأعمى بصيرته وبصره ، وكان فيه كيد ومكر وخداع وصنعة بليغة في الصد عن سبيل الله ، فقال مخاطباً السحرة بحضورة الناس : ﴿ إِمَّا مَتَّ لَهُ قَبْلَ أَنْ ظَاهَنَ لَكُمْ ﴾ أي هل شاورتموني فيما صنعتم من الأمر الفظيع بحضورة رعيتي ! ثم تهدد وتوعد وأبرق وأرعد ، وكذب فأبعد قائلاً : ﴿ إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمُ الَّذِي عَلَّمْكُمُ الْسِّرُّ ﴾ ، وقال في الآية الأخرى : ﴿ إِنَّهُ لَتَكَرُّ مَكَرْتُمُوهُ فِي الْمَدِينَةِ لِتُخْرِجُوهُ مِنْهَا أَهْلَهَا فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴾ [سورة الأعراف : ١٢٣].

وهذا الذي قاله من البهتان الذي يعلم كل فرد عاقل ما فيه من الكفر والكذب والهذيان ، بل يروج مثله على الصبيان ، فإن الناس كلهم من أهل دولته وغيرهم يعلمون أن موسى لم يره هؤلاء يوماً من الدهر ، فكيف يكون كبيرهم الذي علمهم السحر؟ ثم هو لم يجمعهم ولا علم باجتماعهم ، حتى كان فرعون هو الذي استدعاهم ، واجتباهم من كل فج عميق ، وواد سحيق ، من حواضر بلاد مصر والأطراف ، ومن المدن والأرياف.

* * *

قال الله تعالى في سورة الأعراف : « قُلْ بَعْثَنَا مِنْ بَعْدِهِمْ مُوسَىٰ يَأْتِيَنَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَائِكَةٍ فَظَلَمُواْهُمْ فَأَنْظَرْنَا كِفَّ كَاتِ عَيْقَبَةَ الْمُفْسِدِينَ [١] وَقَالَ مُوسَىٰ يَأْتِيَنَا إِلَىٰ رَسُولٍ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ [٢] حَقِيقٌ عَلَىٰ أَنْ لَا تَأْتُواْ عَلَىٰ اللَّهِ إِلَّا أَحْقَقْتُكُمْ بَيْتَنَا مِنْ رَبِّكُمْ فَأَرْسَلْنَا مَنِيَّ بْنَ إِسْرَائِيلَ [٣] قَالَ إِنْ كُنْتَ جِئْتَنِيَ قَاتِّيَ فَأَتِّيَهَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّدِيقِينَ [٤] قَالَ الْقَوْنِيَ عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ تُعْبَانٌ مُبْيَنٌ [٥] وَزَرَعْ بَدْمُ فَإِذَا هِيَ يَبْصَاءَ لِلنَّاطِرِينَ [٦] قَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمٍ فِرْعَوْنَ إِنَّكَ هَذَا لَسْوَغٌ عَلِيمٌ [٧] يُرِيدُ أَنْ يُخْرِجَكَ مِنْ أَرْضِكُمْ فَإِذَا تَأْمُرُونَ [٨] قَالُواْ أَرْجِهُ وَآخِهُ وَأَرْسِلْ فِي الْمَدَائِنِ حَشِيرِينَ [٩] يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَحْرٍ عَلِيمٍ [١٠] وَجَاءَ السَّحَرُ فِرْعَوْنَ قَالُواْ إِنَّا لَأَجْرَأَنَا كَنْتَنَا حَنْ الْمَلَقِينَ [١١] قَالَ أَعْمَمْ وَإِلَكُمْ لَمِنَ الْمُغْرَبِينَ [١٢] قَالُواْ يَمْوَسَىٰ إِنَّا أَنْ تَلْقَىَ وَإِمَّا أَنْ تَكُونَ تَحْنَ الْمَلَقِينَ [١٣] قَالَ أَقْلُواْ سَهْرَوْ رَأْيِنَ عَيْنَ الْمَلَقِينَ [١٤] وَأَوْجِسْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ أَنْ أَلَىٰ عَصَاكَ فَإِذَا هِيَ تَلْقَفَ مَا يَأْفِكُونَ [١٥] فَوْقَ الْحَنْ وَسَجَّهُ وَسِحْرُ عَظِيمٍ [١٦] وَأَوْجِسْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ أَنْ أَلَىٰ عَصَاكَ فَإِذَا هِيَ تَلْقَفَ مَا يَأْفِكُونَ [١٧] قَالُواْ إِنَّا مَأْتَنَا بِرَبِّ الْعَالَمِينَ [١٨] فَعَلَلُواْ يَعْمَلُونَ [١٩] فَعَلَلُواْ هَنَالِكَ وَأَقْلَلُواْ سَعْيِنَ [٢٠] وَأَلْقَى السَّحَرُ سَعِيدِينَ [٢١] قَالُواْ إِنَّا مَأْتَنَا بِرَبِّ الْعَالَمِينَ [٢٢] رَبِّ مُوسَىٰ وَهَدْرُونَ [٢٣] قَالَ فِرْعَوْنَ مَا مَنَّتْ بِهِ قَبْلَ أَنْ لَكُنْ إِنَّ هَذَا سُكْرٌ مَكْرُشُوهُ فِي الْمَدِينَةِ لِتُخْرِجُوا مِنْهَا أَهْلَهَا فَسُوفَ تَعْلَمُونَ [٢٤] لَأَفْطَعْنَاهُ يَدِيكُمْ وَأَرْجُلِكُمْ مِنْ خَلْفِ ثُمَّ أَصْلَيْنَكُمْ أَجْمَعِينَ [٢٥] قَالُواْ إِنَّا إِلَىٰ رَبِّنَا مُنْتَهِيُونَ [٢٦] وَمَا نَقِمْ مِنَ إِلَّا أَنْتَ إِنَّمَّا يَأْتِيَنَا رَبِّنَا لَمَّا جَاءَنَا رَبِّنَا أَفْرَغَ عَلَيْنَا صَبْرًا وَنُوقْنَا مُسْلِمِينَ [٢٧] » [١٢٦ - ١٠٣].

وقال تعالى في سورة يونس : « قُلْ بَعْثَنَا مِنْ بَعْدِهِمْ مُوسَىٰ وَهُرُوتَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَائِكَهُ يَأْتِيَنَا فَأَسْكَنْهُوا وَكَانُوا قَوْمًا مُجْرِمِينَ [٢٨] فَلَمَّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِنَا قَالُواْ إِنَّهَا سِحْرٌ مُبْيَنٌ [٢٩] قَالَ مُوسَىٰ أَقْلُوْنَ لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُ كُمْ أَسْخَرُهُ هَذَا وَلَا يَقْلُلُ الْسَّهْرُونَ [٣٠] قَالَ أَجْهَنْتَنَا لِتَلْفِنَنَا عَمَّا وَجَدْنَا عَلَيْهِ مَا بَأْتَنَا وَرَكَنْتُنَّ لَكُمْ الْكَبِيرِيَّةَ فِي الْأَرْضِ وَمَا تَحْنَ لَكُمَا يَمُوْمِنِينَ [٣١] وَقَالَ فِرْعَوْنَ أَتُشْوِي بِكُلِّ سَحْرٍ عَلِيمٍ [٣٢] فَلَمَّا جَاءَهُ السَّحَرُ قَالَ لَهُمْ مُوسَىٰ أَتُوْمَا أَنْتُمْ مُلْقُوتَ [٣٣] فَلَمَّا أَقْلُوا سَهْرَوْ قَالَ مُوسَىٰ مَا جِئْتُمْ بِهِ السِّحْرُ إِنَّ اللَّهَ سَيْبِطُهُ إِنَّ اللَّهَ لَا يَصْلِحُ عَمَلَ الْمُفْسِدِينَ [٣٤] وَبَيْحُقُ اللَّهُ الْحَقُّ بِكَلْمَتِهِ وَلَرَ كَرَهُ الْمُجْرِمِونَ » [يونس : ٨٢ - ٧٥].

وقال تعالى في سورة الشعرا : « قَالَ لَئِنْ تَخْدَدْتَ إِلَهًا غَرِي لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ الْمَسْجُوبِينَ [٣٥] قَالَ أَلَوْ جِئْتَنِكَ بِشَفَعَةٍ مُبْيَنٍ [٣٦] قَالَ فَأَنْتَ بِهِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّدِيقِينَ [٣٧] قَالَ الْقَوْنِيَ عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ تُعْبَانٌ مُبْيَنٌ [٣٨] وَزَرَعْ بَدْمُ فَإِذَا هِيَ يَبْصَاءَ لِلنَّاطِرِينَ [٣٩] قَالَ لِلْمَلَأِ حَوْلَهُ إِنَّهَا لَسْوَغٌ عَلِيمٌ [٤٠] يُرِيدُ أَنْ يُخْرِجَكُمْ مِنْ أَرْضِكُمْ سِحْرُهِ فَمَا ذَا تَأْمُرُوكَ [٤١] قَالُواْ أَرْجِهُ وَآخِهُ وَبَيْتُ فِي الْمَدَائِنِ حَشِيرِينَ [٤٢] يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَحَارٍ عَلِيمٍ [٤٣] فَجَمِيعَ السَّحَرَةِ لِيُبَيَّنَ تَوْمِيَّتُ مَعْلُومٍ [٤٤] وَقِيلَ لِلنَّاسِ هَلْ أَنْتُمْ جُمِيْعَمُونَ [٤٥] لَعْلَنَا نَتْبِعُ السَّحَرَةَ إِنْ كَانُوا هُمُ الْغَلَبِينَ [٤٦] »

فَلَمَّا جَاءَ السَّحْرُهُ قَالُوا لِفَرْعَوْنَ أَيْنَ لَنَا لَأَجْرًا إِنْ كُنَّا نَعْنُ الْغَنَيْمَينَ ﴿١﴾ قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ إِذَا لَمْ يَعْنُ الْمُقْرَبَيْنَ ﴿٢﴾ قَالَ فَلَمْ
مُؤْسِي الْقُوَّا مَا أَنْتُ مُلْقُونَ ﴿٣﴾ فَأَقْرَأُوا جَاهَمَهُ وَعَصَبَهُمْ وَقَالُوا يَعْزَّزُهُ فَرْعَوْنَ إِنَّا لَنَعْنُ الْغَنَيْمَيْنَ ﴿٤﴾ فَأَقْرَأَ مُوسَى
عَصَابَهُ فَإِذَا هِيَ تَلَقَّفَ مَا يَأْفِكُونَ ﴿٥﴾ فَأَقْرَأَ السَّحْرُهُ سَجِيدَنَ ﴿٦﴾ قَالُوا مَا مَنَّا بِرَبِّ الْعَالَمَيْنَ ﴿٧﴾ رَبُّ مُوسَى
وَهَرُوْنَ ﴿٨﴾ قَالَ إِنَّمَا مَنَّتْ لَهُ قَاتَلَ أَنَّهُنَّ لَكِبِيرُكُمُ الَّذِي عَلِمْكُمُ السَّحْرُ فَسَوْفَ تَعْمَلُونَ لَا يُطْعَنُ إِلَيْكُمْ
وَأَرْجُلُكُمْ مِنْ خَلْفِهِنَّ وَلَا صِلَّتْكُمْ أَجْعَيْتُ ﴿٩﴾ قَالُوا لَا ضَيْرَ لِنَا إِنَّ رَبَّنَا مُنْقِلَيْنَ ﴿١٠﴾ إِنَّا نَطْعَمُ أَنْ يَعْفُرَ لَنَا رَبُّنَا
خَطِيْبَنَا أَنْ كُنَّا أُولَى الْمُؤْمِنَيْنَ ﴿١١﴾ [الشعراء : ٢٩ - ٥١].

والمحضود أن فرعون كذب وافترى وكفر غاية الكفر في قوله : «إِنَّهُ لَكِبِيرُكُمُ الَّذِي عَلِمْكُمُ
السَّحْرُ» وأتي بهتان يعلمه العالمون في قوله : «إِنَّهُ هَذَا الْمَكْرُ مَكْرُمُوهُ فِي الْمَدِينَةِ لِتُخْرُجُوا مِنْهَا أَهْلَهَا
فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ» ، قوله : «لَا يُطْعَنُ إِلَيْكُمْ وَلَا يُرْجُلُكُمْ مِنْ خَلْفِهِنَّ» يعني يقطع اليد اليمنى والرجل
اليسرى وعكسه ، «وَلَا صِلَّتْكُمْ أَجْعَيْتُ» أي ليجعلنهم مثلثة ونكلاً لثلا يقتدي بهم أحد من
رعايته وأهل ملته . ولهذا قال : «وَلَا صِلَّتْكُمْ فِي جُهُودِ التَّخْلِلِ» أي على جذوع النخل لأنها أعلى
وأشهر «وَلَنَقْلَمُنَّ أَيْنَا أَشَدُّ عَذَابًا وَأَبْقَى» يعني في الدنيا .

«قَالُوا لَنْ نُؤْرِكَ عَلَى مَا جَاءَنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ» أي لن نطييك ونترك ما وقع في قلوبنا من البيانات
والدلائل القاطعات «وَالَّذِي فَطَرَنَا» قيل : معطوف ، وقيل : قسم «فَاقْضِ مَا أَنَّ فَاضِ» أي
فافعل ما قدرت عليه «إِنَّمَا نَقْضِي هَذِهِ الْمُغْيَةَ الدُّنْيَا» أي إنما حكمك علينا في هذه الحياة
الدنيا ، فإذا انتقلنا منها إلى الدار الآخرة صرنا إلى حكم الذي أسلمنا له واتبعنا رسله : «إِنَّا
ءَامَنَّا بِرَبِّنَا لِيَعْفُرَ لَنَا خَطِيْبَنَا وَمَا أَكْرَهْنَا عَلَيْهِ مِنَ السَّحْرِ وَاللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَى» أي ثوابه خير مما وعدتنا به من
التقريب والترغيب «وَأَبْقَى» أي أدوم من هذه الدار الفانية . وفي الآية الأخرى : «قَالُوا لَا ضَيْرَ
لِنَا إِنَّ رَبَّنَا مُنْقِلَيْنَ ﴿١٠﴾ إِنَّا نَطْعَمُ أَنْ يَعْفُرَ لَنَا رَبُّنَا خَطِيْبَنَا» أي ما اجترمنا من المأثم والمحارم «أَنْ
كُنَّا أُولَى الْمُؤْمِنَيْنَ» أي من القبط ، بموسى وهارون عليهم السلام .

وقالوا له أيضاً : «وَمَا نَقْضَمُ مِنَّا إِلَّا أَنْ ءَامَنَّا بِإِيمَانِنَا بِإِيمَانِ رَبِّنَا لَمَّا جَاءَنَا تَنَاهَى
إِيمَانُنَا بِمَا جَاءَنَا بِهِ رَسُولُنَا ، وَاتَّبَاعُنَا آيَاتِ رَبِّنَا لِمَا جَاءَنَا تَنَاهَى
مَا ابْتَلَيْنَا بِهِ مِنْ عَقُوبَةِ هَذَا الْجَبَارِ الْعَنِيدِ ، وَالسَّلْطَانِ الشَّدِيدِ ، وَلَوْقَنَا
مُسْلِمِيْنَ» .

وقالوا أيضاً يعظونه ويخوفونه بأس ربه العظيم : «إِنَّمَا يَأْتُ رَبَّهُ مُجْرِمًا فَإِنَّ لَهُ جَهَنَّمَ لَا يَمُوتُ فِيهَا
وَلَا يَمْكُحُهُ» يقولون له : فإذاك أن تكون منهم ، فكان منهم «وَنَّ يَأْتِهِ مُؤْمِنًا قَدْ عَيْلَ الصَّلِيْحَاتِ
فَأُولَئِكَ لَهُمُ الْدَّرَجَاتُ الْعُلُوُّ» أي المنازل العالية ، «جَنَّتُ عَدَنَ تَجْرِي مِنْ تَحْمِنَهَا الْأَنْهَرُ خَلِيلِنَ فِيهَا وَذَلِكَ
جَرَاءَهُ مَنْ تَرَكَ» فاحرص أن تكون منهم ، فحالت بينه وبين ذلك الأقدار التي لا تغالب
ولا تمانع ، وحكم العلي العظيم بأن فرعون - لعنه الله - من أهل الجحيم ، لي Ashton العذاب
الأليم ، يصب من فوق رأسه الحميم . ويقال له على وجه التقرير والتوجيه ، وهو المقووح
المنبوح والذميم اللثيم : «دُقْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ» .

والظاهر من هذه السياقات أن فرعون - لعنه الله - صلبهم وعذبهم رضي الله عنهم ، قال عبد الله بن عباس وعبيد بن عمير : كانوا من أول النهار سحرة ، فصاروا من آخره شهداء بربة ! ويؤيد هذا قولهم : ﴿رَبَّنَا أَفْرَغَ عَلَيْنَا صَبَرًا وَتَوْفِيقًا مُسْلِمِينَ﴾ . [كبار قوم فرعون يحرضونه على إيناده موسى]

ولما وقع ما وقع من الأمر العظيم ، وهو الغلب الذي غلبه القبط في ذلك الموقف الهائل وأسلم السحرة الذين استنصروا بهم ، لم يزدهم ذلك إلا كفراً وعناداً وبعداً عن الحق . قال الله تعالى بعد أن قصّ ما تقدم في سورة الأعراف : ﴿وَقَالَ اللَّهُ أَنَّهُ مُوسَى وَقَوْمُهُ لِيُقْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَيَدْرِكُوهُمْ وَإِلَهَتُكُمْ قَالَ سَنُقْتِلُ أَنَّاءَهُمْ وَسَنَسْتَجِيِّنَ نِسَاءَهُمْ وَإِنَّا فَوْقُهُمْ قَهْرُونَ﴾ . قال موسى لقومه آسْتَعِيْنُوا بِاللَّهِ وَآصْبِرُوا إِنَّ الْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَالْمُنْتَهِيُّ لِلْمُتَقْبِلِينَ﴾ . قالوا أُوذِنَا مِنْ قَبْلِ أَنْ تَأْتِيَنَا وَمِنْ بَعْدِ مَا جَعَلْنَا قَالَ عَسَى رَبُّكُمْ أَنْ يَهْلِكَ عَدُوكُمْ وَسَسْخَلْنَكُمْ فِي الْأَرْضِ فَنَظَرُكُمْ كَيْفَ تَعْمَلُونَ﴾ [الأعراف: ١٢٧ - ١٢٩] .

يخبر تعالى عن الملا من قوم فرعون ، وهم الأمراء والكبار ، أنهم حضروا ملكهم فرعون على أذية نبي الله موسى عليه السلام ، ومقابلته بدل التصديق بما جاء به ، والكفر والرد والأذى .

قالوا : ﴿أَنَّدَرُ مُوسَى وَقَوْمُهُ لِيُقْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَيَدْرِكُوهُمْ وَإِلَهَتُكُمْ﴾ يعنيون - قبحه الله - أن دعوته إلى عبادة الله وحده لا شريك له ، والنهي عن عبادة ما سواه ، فساد بالنسبة إلى اعتقاد القبط ، لعنهم الله . وقرأ بعضهم : ﴿وَيَدْرِكُوهُمْ وَإِلَهَتُكُمْ﴾ أي وعادتك . ويتحمل شيئاً أحدهما : ويندر دينك ، وتقويه القراءة الأخرى . والثاني : ويندر أن يعبدك ، فإنه كان يزعم أنه إله ، لعنه الله . ﴿قَالَ سَنُقْتِلُ أَنَّاءَهُمْ وَسَنَسْتَجِيِّنَ نِسَاءَهُمْ﴾ أي لئلا يكثرون مقاتلتهم ﴿وَإِنَّا فَوْقُهُمْ قَاهْرُونَ﴾ أي غالبون . ﴿قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ آسْتَعِيْنُوا بِاللَّهِ وَآصْبِرُوا﴾ أي إذا هم باذنكم والفتكم بكم فاستعينوا أنتم بربكم واصبروا على بلتكم ﴿إِنَّ الْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَالْمُنْتَهِيُّ لِلْمُتَقْبِلِينَ﴾ أي فكونوا أنتم المتقين تكون لكم العاقبة ، كما قال في الآية الأخرى : ﴿وَقَالَ مُوسَى يَنْقُومُ إِنْ كُنْتُ مَأْمَنْتُ بِاللَّهِ فَعَيْتُهُ تَوْكِلًا إِنْ كُنْتُ مُسْلِمِينَ﴾ . ﴿فَقَالُوا عَلَى اللَّهِ تَوْكِنَّا رَبِّنَا لَا جَعَلَنَا فِتْنَةً لِلْقَوْمِ أَظْلَلَنَا﴾ وَمَيْتَنَا بِرَبِّنَا كَيْفَ تَعْمَلُونَ﴾ .

وقولهم : ﴿فَالَّذِينَ أُوذِنَا مِنْ قَبْلِ أَنْ تَأْتِيَنَا وَمِنْ بَعْدِ مَا جَعَلْنَا﴾ أي قد كانت الأبنية تقتل قبل مجئك وبعد مجئك إلينا ﴿قَالَ عَسَى رَبُّكُمْ أَنْ يَهْلِكَ عَدُوكُمْ وَسَسْخَلْنَكُمْ فِي الْأَرْضِ فَنَظَرُكُمْ كَيْفَ تَعْمَلُونَ﴾ . وقال الله تعالى في سورة غافر : ﴿وَلَقَدْ أَرَسْلَنَا مُوسَى بِثَابِتَنَا وَسُلْطَنِنَا مُهَيْبِنِ﴾ . ﴿إِلَى فِرْعَوْنَ وَهَامَنْ وَقَرْوَنَ فَقَالُوا سَاحِرٌ كَذَّابٌ﴾ .

وكان فرعون الملك ، وهامان الوزير ، وكان قارون إسرائيلياً من قوم موسى ، إلا أنه كان في دين فرعون ومثله ، وكان ذا مال جزيل جداً ، كما ستأتي قصته فيما بعد إن شاء الله تعالى . ﴿فَلَمَّا جَاءَهُمْ بِالْحَقِّ مِنْ عِنْدِنَا قَالُوا أَفْتَأْلُو أَنَّاءَ الَّذِينَ أَمْسَأْنَا مَعَهُمْ وَاسْتَحْيُونَا نِسَاءَهُمْ وَمَا كَيْدُ

الْكَفَرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ ﴿١﴾ وهذا القتل للغلمان من بعد بعثة موسى إنما كان على وجه الإهانة والإذلال ، والقليل لملأ بني إسرائيل لثلا يكون لهم شوكة يمتنعون بها ، ويصولون على القبط بسببها وكانت القبط منهم يحذرون ، فلم ينفعهم ذلك ، ولم يرد عنهم قدر الذي يقول لكل شيء: كن فيكون .

﴿وَقَالَ فِرْعَوْنٌ ذَرْرُونِي أَقْتُلْ مُوسَى وَلَيَدْعُ رَبَّهُ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَنْ يُظْهِرَ فِي الْأَرْضِ النَّسَادَ﴾ ولهذا يقول الناس على سبيل التهكم : «صار فرعون مذكرة» وهذا منه ، وفرعون في زعمه خاف على الناس أن يضلهم موسى عليه السلام !

﴿وَقَالَ مُوسَى إِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُمْ مِنْ كُلِّ مُتَكَبِّرٍ لَا يُؤْمِنُ بِيَوْمِ الْحُسَابِ﴾ أي عذت له ولجأت إليه واستجرت بجناه ، من أن يسطو فرعون وغيره على بسوء . قوله : ﴿إِنْ كُلَّ مُتَكَبِّرٍ﴾ أي جبار عنيد لا يرعوي ولا ينتهي ، ولا يخاف عذاب الله وعقابه ، لأنه لا يعتقد معادا ولا جزاء ، ولهذا قال : ﴿مِنْ كُلِّ مُتَكَبِّرٍ لَا يُؤْمِنُ بِيَوْمِ الْحُسَابِ﴾ .

وقال رجل مؤمن من عالي فرعون يكتُم إيمانه ، أقتلوه رجالاً أن يقول رب الله وقد جاءكم بالبيت المقدس من ربكم وإن يكُوكنْ كاذباً فعليه كذبه وإن يكُوكنْ صادقاً يصيّبكم بعض الذي يعذكم إن الله لا يهدى من هو مشرِّف كاذب ﴿٢٨﴾ ينقوم لكم الملك اليوم ظاهرين في الأرض فمن ينصرئكم بأسم الله إن جاءكم قاتل فرعون ما أريكم إلا ما أرى وما أهديكم إلا سيل الرشاد﴾ [غافر : ٢٨ - ٢٩] .

وهذا الرجل من آل فرعون ، وكان يكتُم إيمانه من قومه خوفاً منهم على نفسه ، وزعم بعض الناس أنه كان إسرائيليا ، وهو بعيد ومخالف لسياق الكلام لفظاً ومعنى .. والله أعلم .

قال ابن جريج : قال ابن عباس : لم يؤمن من القبط بموسى إلا هذا ، والذي جاء من أقصى المدينة وامرأة فرعون . رواه ابن أبي حاتم .

والمقصود أن هذا الرجل كان يكتُم إيمانه ، فلما هم فرعون - لعنه الله - بقتل موسى عليه السلام ، وزعم على ذلك وشاور ملأه فيه خاف هذا المؤمن على موسى ، فتطفَّ في رد فرعون بكلام جمع فيه الترغيب والترهيب ، فقال على وجه المشورة والرأي .

قال : ﴿أَقْتَلُونَ رَجُلًا أَنْ يَقُولَ رَبِّكُمْ اللَّهُ﴾ أي من أجل أنه قال : رب الله فمثل هذا لا يقابل بهذا بل بالإكراه والاحترام أو المواجهة وترك الانتقام ، يعني لأنه : ﴿وَقَدْ جَاءَكُمْ بِالْبَيِّنَاتِ مِنْ رَبِّكُمْ﴾ أي بالخوارق التي دلت على صدقه فيما جاء به عنمن أرسله ، فهذا إن وادعتموه كتم في سلامه ، لأنه : ﴿وَإِنْ يَكُوكنْ كاذباً فعلى كذبه﴾ ولا يضركم ذلك ﴿وَإِنْ يَكُوكنْ صادقاً﴾ وقد تعرضتم له ﴿يُصِيبُكُمْ بَعْضُ الَّذِي يَعْذِذُكُمْ﴾ أي وأنتم تشفقون أن ينالكم أيسر جزاء مما يتوعدهم به ، فكيف بكم إن حل جميعه عليكم؟ وهذا الكلام في هذا المقام ، من أعلى مقامات التلطيف والاحتراز والعقل التام .

قوله : ﴿يَنْقُومُ لَكُمْ الْمُلْكُ الْيَوْمَ ظَاهِرِينَ فِي الْأَرْضِ﴾ يحذرهم أن يسلبوه هذا الملك العزيز ، فإنه ما تعرّضت الدول للدين إلا سلبوه ملكهم وذروا بعد عزهم ! .

وكذا وقع لآل فرعون ، ما زالوا في شك وريب ، ومخالفة ومعاندة لما جاءهم موسى به حتى أخرجهم الله مما كانوا فيه من الملك والأملأك والدور والقصور ، والنعمة والجبور ، ثم حولوا إلى البحر مهانين ، ونقلت أرواحهم بعد العلو والرفة إلى أسفل السافلين . ولهذا قال هذا الرجل المؤمن الصادق ، البار الراشد ، التابع للحق ، الناصح لقومه ، الكامل العقل : « يَقُولُ لَكُمْ أَنَّكُلَّ أَيْمَنَ ظَاهِرِينَ فِي الْأَرْضِ » أي : عاليين على الناس حاكمين عليهم ، « قَمَنْ يَصْرُرُنَا مِنْ بَأْسِ اللَّهِ إِنْ جَاءَنَا »؟ أي لو كتم أضعاف ما أنت فيه من العدد والعدة ، والقوية والشدة لما نفعنا ذلك ، ولا رد عننا بأس مالك الممالك .

« قَالَ فَرَعَوْنُ » أي في جوابه لهذا كله : « مَا أُرِيكُمْ إِلَّا مَا أَرَى » أي ما أقول لكم إلا ما عندي « وَمَا أَهْدِيْكُمْ إِلَّا سَبِيلَ الرَّشَادِ ». وكذب في كل من هذين القولين وهاتين المقدمتين ، فإنه قد كان يتحقق في باطنه وفي نفسه أن هذا الذي جاء به موسى من عند الله لا محالة ، وإنما كان يظهر خلافه بغيانا وعدوانا ، وعتوا وكفرانا .

قال الله تعالى إخباراً عن موسى : « قَالَ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا أَنْزَلَ هَؤُلَاءِ إِلَارَبُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ بَصَائِرَ وَإِنِّي لَأَظُنُكَ يَنْفَرِعُونَ شَهُورًا » فَأَرَادَ أَنْ يَسْتَفْزِهِمْ مِنَ الْأَرْضِ فَأَغْرَقْتَهُمْ وَمِنْ مَعْلُومٍ جَمِيعًا وَقَلَّنَا مِنْ بَعْدِهِ لَيْلَ أَسْرَهُ يَلِ أَسْكُنُوا الْأَرْضَ فَإِذَا جَاءَهُ وَعْدُ الْآخِرَةِ جَنَّا كُلُّ فَنِيفًا » [الإسراء : ١٠٢ - ١٠٤] .

وقال تعالى : « فَلَمَّا جَاءَهُمْ بِمَبْرَرَةِ قَالُوا هَذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ وَجَهَدُوا بِهَا وَاسْتَيقْنَتْهَا أَنَفُسُهُمْ ظَلَّمًا وَعَلُوًا فَانْظَرْ كَيْفَ كَانَ عَيْنَةُ الْمُفْرِيْنَ » [النمل : ١٣ - ١٤] .

وأما قوله : « وَمَا أَهْدِيْكُمْ إِلَّا سَبِيلَ الرَّشَادِ » فقد كذب أيضاً ، فإنه لم يكن على رشاد من الأمر ، بل كان على سفه وضلال وخبيل وخيال ، فكان أولًا من يعبد الأصنام والأوثان ، ثم دعا قومه الجهلة الضالين إلى أن اتبعوه وطاعوه وصدقوه فيما زعم من الكفر والمحال في دعواه أنه رب ، تعالى الله ذو الجلال !

قال الله تعالى : « وَنَادَى فَرَعَوْنَ فِي قَوْمِهِ قَالَ يَقُولُ أَنَّيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ وَهَذِهِ الْأَنْهَرُ تَجْرِي مِنْ تَحْتِي أَفَلَا يُبْصِرُونَ » أَرَأَنَا خَيْرًا مِنْ هَذَا الَّذِي هُوَ مِنْهُمْ وَلَا يَكُادُ يُبْيِنُ فَلَوْلَا أَلْقَى عَلَيْهِ أَسْوَرَةً مِنْ ذَهَبٍ أَوْ جَاءَ مَعَهُ الْمَلَكِيَّةُ كُمَّ مُمْرِنِينَ فَاسْتَحْفَفَ قَوْمَهُ فَأَطَاعُوهُ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ فَلَمَّا أَسْفَوْنَا أَنْقَمَنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَاهُمْ أَجْمَعِينَ فَجَعَلْنَاهُمْ سَلَفًا وَمُثَلَّا لِلْآخِرِينَ » .

وقال تعالى : « فَأَرَى إِلَيْهِ الْأَيْمَنَ فَكَذَّبَ وَعَصَى ثُمَّ أَذْبَرَ يَسْعَى فَحَسِرَ فَنَادَى فَقَالَ أَنَا رَبُّ الْأَعْلَى فَلَخَدَهُ اللَّهُ تَكَالَ الْآخِرَةَ وَالْأُولَى إِنَّ فِي ذَلِكَ لِعْنَةً لَمَنْ يَشَاءُ » .

وقال تعالى : « وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَى بِإِيمَنِنَا وَسُلْطَنِنِ مُمِينِ إِلَيْ فَرَعَوْنَ وَمَلِئِيهِ فَلَمَّا سَمِعُوا أَنَّهُ فَرَعَوْنَ بَرَشِيدٍ يَقْدُمُ فَوْمَهُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ فَأَوْرَدَهُمُ الْتَّارِ وَيَسَّرَ الْوَرْدَ الْمُوَرْدَ وَأَتَسْبِعُوا فِي هَذِهِ الْأَيْمَنَةِ وَيَسَّرَ الْأَرْقَدَ الْمُرْفُودَ ». والمقصود بيان كذبه في قوله : « مَا أُرِيكُمْ إِلَّا مَا أَرَى » وفي قوله : « وَمَا أَهْدِيْكُمْ إِلَّا سَبِيلَ الرَّشَادِ » .

« وَقَالَ الَّذِي ءَامَنَ يَقُولُ إِنِّي أَخَافُ عَيْكُمْ مِثْلَ دَأْبٍ قَوْمٍ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودٍ وَاللَّذِينَ مِنْ =

بَعْدَهُمْ وَمَا اللَّهُ بِرِيدٍ طُلَّا لِلْجَادَادِ وَيَقُولُونَ مُذْبِرِينَ مَا لَكُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَإِلَيْهِ مِنْ هَادِ وَلَقَدْ جَاءَكُمْ يُوسُفُ مِنْ قَبْلِ الْيَتِيمَ فَأَرْلَمْتُمْ فِي شَكٍّ مَمَّا جَاءَكُمْ بِهِ حَقَّ إِذَا هَلَكَ فَلَمْ كُنْ يَعْشَكَ اللَّهُ مِنْ بَعْدِهِ رَسُولًا كَذَلِكَ يُضْلِلُ اللَّهُ مِنْ هُوَ مُسِرِّفٌ مُرْتَابٌ الَّذِينَ يُجَدِّلُونَ فِي أَيَّتِ اللَّهُ بِعِيرِ سُلْطَنِ أَنَّهُمْ كَبُرُّ مُغَنِّمًا عِنْدَ اللَّهِ وَعِنْدَ الَّذِينَ آمَنُوا كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَى كُلِّ قَلْبٍ مُتَكَبِّرٍ جَبَارٍ .

يحدّرهم ولِي الله إن كذبوا برسول الله موسى أن يحل بهم ما حل بالأمم من قبلهم ، من التقمات والمثلات ، مما تواتر عندهم عند غيرهم ، مما حل بقوم نوح وعاد ثمود ومن بعدهم إلى زمانهم ذلك ، مما أقام به الحجج على أهل الأرض قاطبة ، في صدق ما جاء به الأنبياء ، لما أنزل من النعمة بمكذبهم من الأعداء ، وما أنجى الله من اتبعهم من الأولياء وخوفهم يوم القيمة ، وهو يوم الت寰دي ، أي حين ينادي الناس بعضهم بعضاً ، حين يولون إن قدروا على ذلك ، ولا إلى ذلك سبيلاً : «يَقُولُ الْإِنْسَنُ يُوَمِّدُ أَنَّ الْقَرْنَى كَلَّا وَزَدَ إِلَى رِبِّكَ يُوَمِّدُ الْأَنْقَرَ» ، وقال تعالى : «يَمْتَشِرُ الْمُغْنِي وَالْإِنْسَانُ إِنْ أَسْتَطَعْتُمْ أَنْ تَقْدُمُوا مِنْ أَقْطَارِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ فَأَنْفَدُوا لَا تَنْفَدُوكُتْ إِلَّا يُسْلَطِنُونَ فَيَأْتِيَ إِلَيْكُمْ كَذَبَكُمْ بِرُسُلٍ عَلَيْكُمْ شُوَاظٌ مِنْ تَأْرِيَخِهِنَّ فَلَا تَنْصُرُوكُنَّ فَيَأْتِيَ إِلَيْكُمْ كَذَبَكُمْ [الرحمن : ٣٣ - ٣٦] .

وقرأ بعضهم : «يَوْمَ النَّيَادِ» بتشديد الدال ، أي يوم الفرار ، ويحمل أن يكون يوم القيمة ، ويتحمل أن يكون يوم يُحلُّ الله بهم البأس ، فيودون الفرار ولات حين مناص «فَلَمَّا أَحَسُوا بِأَسْنَانَ إِذَا هُمْ مِنْهَا يَرْكُضُونَ لَا تَرْكُضُوا وَرَجُعوا إِلَى مَا أَرْفَقْتُمْ فِيهِ وَمَسَكِنَكُمْ لَعَلَّكُمْ تُشَلُّونَ» [الأنبياء : ١٢ - ١٣] .

ثم أخبرهم عن نبوة يوسف في بلاد مصر ، وما كان منه من الإحسان إلى الخلق في دنياه وأخراهم . وهذا من سلالته وذريته ، ويدعو الناس إلى توحيد الله وعبادته ، وألا يشركوا به أحداً من بريته ، وأخبر عن أهل الديار المصرية في ذلك الزمان ، وأن من سجيتهم التكذيب بالحق ومخالفته الرسل . ولهذا قال : «فَأَرْلَمْتُمْ فِي شَكٍّ مَمَّا جَاءَكُمْ بِهِ حَقَّ إِذَا هَلَكَ فَلَمْ كُنْ يَعْشَكَ اللَّهُ مِنْ بَعْدِهِ رَسُولًا» أي وكذبتم في هذا . ولهذا قال : «كَذَلِكَ يُضْلِلُ اللَّهُ مِنْ هُوَ مُسِرِّفٌ مُرْتَابٌ الَّذِينَ يُجَدِّلُونَ فِي أَيَّتِ اللَّهُ بِعِيرِ سُلْطَنِ أَنَّهُمْ» أي يردون حجج الله وبراهينه ودلائل توحيد بلا حجة ولا دليل عندهم من الله ، فإن هذا أمر يمقته الله غاية المقت ، أي يبغض من تلبس به من الناس ، ومن اتصف به من الخلق ، «كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَى كُلِّ قَلْبٍ مُتَكَبِّرٍ جَبَارٍ» قرئ بالإضافة وبالنعت ، وكلاهما متلازم : أي هكذا إذا خالفت القلوب الحق ولا تخالفه إلا بلا برهان - فإن الله يطبع عليها ، أي يختم عليها بما فيها .

وعند ذلك قال موسى : «يَقُولُونَ إِنْ كُنْتُمْ مَأْمَنْتُمْ بِاللَّهِ فَعَيْنُوهُ وَوَكُلُّا إِنْ كُنْتُمْ مُسْلِمِينَ فَقَالُوا عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا لَا يَحْمِلُنَا وَقْتَهُ لِلْقَوْمِ الظَّلَّابِيِّينَ وَرَحِمَنَا رَحِمَتِكَ مِنَ الْقَوْمِ الْكَفَرِيِّينَ» فأمرهم بالتوكل على =

الله والاستعana به ، والالتجاء إليه ، فائتمروا بذلك فجعل الله لهم مما كانوا فيه فرجاً ومخرجاً .

﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى وَإِلَيْهِ أَنْ تَبَرُّ الْقَوْمَكُمَا بِمَصْرَبَتِهِ وَاجْعَلُوا يُوتَكُمْ قِشْلَةً وَأَقِمُوا الصَّلَاةَ وَبَرِّرُوا الْقَوْمَيْنِ﴾ .

أوحى الله تعالى إلى موسى وأخيه هارون عليهما السلام أن يتخذا لقومهما بيوتاً متميزة فيما بينهم عن بيوت القبط ، ليكونوا على أبهة الرحيل إذا أمروا به ، ليعرف بعضهم بيوت بعض . قوله : ﴿وَاجْعَلُوا يُوتَكُمْ قِشْلَةً﴾ قيل : مساجد ، وقيل معناه : كثرة الصلاة فيها . قاله مجاهد وأبو مالك وإبراهيم النخعي والريبع والضحاك وزيد بن أسلم وابنه عبد الرحمن وغيرهم . ومعناه على هذا : الاستعana على ما هم فيه من الضر والشدة والضيق بكثرة الصلاة ، كما قال تعالى : ﴿وَاسْتَعِنُوا بِالصَّابِرَةِ وَالصَّلَاةِ﴾ وكان رسول الله ﷺ إذا حزبه أمر صلي . وقيل معناه : أنهم لم يكونوا حينئذ يقدرون على إظهار عبادتهم في مجتمعاتهم ومعابدهم ، فأمرموا أن يصلوا في بيوتهم ، عوضاً عما فاتهم من إظهار شعائر الدين الحق في ذلك الزمان ، الذي اقتضى حالهم إخفاء خوفاً من فرعون وملته ، والمعنى الأول أقوى لقوله : ﴿وَبَرِّرُوا الْقَوْمَيْنِ﴾ وإن كان لا ينافي الثاني أيضاً . والله أعلم . وقال سعيد بن جبير : ﴿وَاجْعَلُوا يُوتَكُمْ قِشْلَةً﴾ أي مقابلة .

[غرق فرعون وجنوده] :

﴿وَقَالَ مُوسَى رَبِّنَا إِنَّكَ مَأْتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَأَ زَرْتَهُ وَأَمْوَالًا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا رَبِّنَا لِيُضْلُّوا عَنْ سَبِيلِكُمْ رَبِّنَا أَطْمِسْ عَلَى أَمْوَالِهِمْ وَأَسْدِدْ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُوا حَتَّى يَرُوا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ﴾ قَالَ فَدُلِّيْجَيْتَ دَعْوَتَكُمْ فَأَسْتَقِيمَا وَلَا تَنْعَيْنَ سَبِيلَ الْبَيْكَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [يونس : ٨٨ - ٨٩] .

هذه دعوة عظيمة دعا بها كليم الله موسى على عدو الله فرعون ، غضباً لله عليه ، لتكبره عن اتباع الحق ، وصله عن سبيل الله ومعاندته وعتوه وتمرده ، واستمراره على الباطل ، ومكابرته الحق الواضح الجلي الحسي والمعنوي ، والبرهان القطعي ، فقال : ﴿رَبِّنَا إِنَّكَ مَأْتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَأَهُ﴾ يعني قومه من القبط ، ومن كان على ملته ودان بدينه ﴿زِينَةً وَأَمْوَالًا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا رَبِّنَا لِيُضْلُّوا عَنْ سَبِيلِكُمْ﴾ أي وهذا يغتر به من يعظم أمر الدنيا ، فيحسب الجاهل أنهم على شيء ، ولكن هذه الأموال وهذه الزينة ، من اللباس والمركبات الحسنة الهنية ، والدور الأنثقة والقصور المبنية ، والمآكل الشهية والمناظر البهية ، والملك العزيز والتمكين ، والجاه العريض في الدنيا لا الدين .

﴿رَبِّنَا أَطْمِسْ عَلَى أَمْوَالِهِمْ﴾ قال ابن عباس ومجاهد : أي أهلكها .

وقوله : ﴿وَأَسْدِدْ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُوا حَتَّى يَرُوا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ﴾ قال ابن عباس : أي اطبع عليها ، وهذه دعوة غضب الله تعالى ولدينه ولبراهينه . فاستجاب الله تعالى لها ، وحققها وتقبلها ، كما استجاب لنوح في قومه حيث قال : ﴿رَبِّنَا لَا نَدْرُ عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكُفَّارِ دَيَارًا﴾ إِنَّكَ إِنْ تَدْرُهُمْ

يُضْلُّوا عَبَادَكَ وَلَا يَلِدُوا إِلَّا فَاجْرَاكَ فَارَأَهُ^١ ولهذا قال تعالى مخاطباً لموسى حين دعا على فرعون وملئه ، وأمن أخوه هارون على دعائه فنزل ذلك منزلة الداعي أيضاً: ﴿ قَالَ فَقَدْ أُجِيبَتْ دَعْوَتُكُمْ مَا سَقَيْتُمْ وَلَا تَنْعَمُ سَكِيلَ الظِّبَابِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾

قال الله تعالى: ﴿ وَأَوْجَسْتَ إِلَى مُوْسَى أَنْ أَشْرِكَنِي إِنَّكُمْ مُتَّبِعُونَ ﴾ فَأَرْسَلَ فِرْعَوْنَ فِي الْمَدِينَ حَشِيشَةَ ^٢ إِنَّهُ تُولَّهُ لِشَرِذَمَةَ فَلَيْلُوْنَ ^٣ وَأَنْتُمْ لَنَا لَغَيْطُونَ ^٤ وَلَيْنَا بَعْيَعُ حَدَرُونَ ^٥ فَأَخْرَجْنَاهُمْ مِنْ جَهَنَّمَ وَعَيْنُونَ ^٦ وَلَيْلُوْنَ وَمَقَارِبَ كَرِيمَ ^٧ كَذَلِكَ وَأَرْسَلْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ ^٨ فَأَتَبِعْنُهُمْ مُشَرِّقَنَ ^٩ فَلَمَّا تَرَكَ الْجَمْعَانَ قَالَ أَصْحَبُ مُوْسَى إِنَّا لَمُذْرُكُونَ ^{١٠} قَالَ كَلَّا إِنَّ مَعِيَ رَبِّ سَبَهِينَ ^{١١} فَأَوْجَسْتَ إِلَى مُوْسَى أَنْ أَصْرِبَ بَعْصَكَ الْبَحْرَ فَانْفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَالْطَّوِيدَ الْعَظِيمَ ^{١٢} وَأَزْفَنَ ثَمَّ الْآخَرِينَ ^{١٣} وَأَبْعَدْنَا مُوْسَى وَمَنْ مَعَهُ أَجْعَنَ ^{١٤} ثُمَّ أَغْرَقْنَا الْآخَرِينَ ^{١٥} إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِيَّةَ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ ^{١٦} وَإِنَّ رَبَّكَ هُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ^{١٧} ﴾ [الشعراء: ٥٢ - ٦٨].

قال علماء التفسير: لما ركب فرعون في جنوده طالباً بني إسرائيل يقفوا أثراً لهم كان في جيش كثيف عمر من.

والمقصود أن فرعون لحقهم بالجند ، فأدركهم وتراءى الجمuan ، ولم يبق ثمَّ رب ولا ليس ، وعاين كل من الفريقين صاحبه وتحققه وراءه ، ولم يبق إلا المقابلة والمجادلة والمحاكمة. فعندها قال أصحاب موسى وهم خائفون: ﴿ إِنَّا لَمُذْرُكُونَ ﴾ وذلك لأنهم اضطروا في طريقهم إلى البحر فليس لهم طريق ولا مجيد إلا سلوكه وخطوه ، وهذا ما لا يستطيعه أحد ولا يقدر عليه ، وفرعون قد غالتهم وواجههم ، وعاينوه في جنوده وجيشه وعدده وعده ، وهم منه في غاية الخوف والذعر ، لما قاسوا في سلطانه من الإهانة والمكر.

فشكوا إلى نبي الله ما هم فيه مما قد شاهدوه وعاينوه ، فقال لهم الرسول الصادق المصدق: ﴿ كَلَّا إِنَّ مَعِيَ رَبِّ سَبَهِينَ ﴾ وكان في الساقية فتقدم إلى المقدمة ، ونظر إلى البحر وهو يتلاطم بأمواجه ، ويتزايد زيد أجراه ، وهو يقول: هنا أمرت . ومعه أخوه هارون ، ويوشع بن نون ، وهو يومئذ من سادات بني إسرائيل وعلمائهم وعبادهم الكبار ، وقد أوحى الله إليه وجعله نبياً بعد موسى وهارون عليهم السلام ، كما سذكره فيما بعد إن شاء الله ، ومعهم أيضاً مؤمنو الـ فرعون ، وهم وقوف ، وبنو إسرائيل بكمالهم عليهم عكوف.

فلما تفاقم الأمر وضاق الحال واشتد الأمر ، واقترب فرعون وجنوده في جدهم وحدهم وحديدهم ، وغضبهم وحقهم ، وزاغت الأنصار وبلغت القلوب الحناجر ، عند ذلك أوحى الحليم العظيم القدير ، رب العرش الكريم ، إلى موسى الكليم: ﴿ أَنِّي أَصْرِبَ بَعْصَكَ الْبَحْرَ ﴾ فلما ضربه ، انفلق بإذن الله.

قال الله تعالى: ﴿ فَأَوْجَسْتَ إِلَى مُوْسَى أَنْ أَصْرِبَ بَعْصَكَ الْبَحْرَ فَانْفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَالْطَّوِيدَ الْعَظِيمَ ^{١٨} وَيَقَالُ: إِنَّهُ انْفَلَقَ اثْنَيْ عَشَرَ طَرِيقًا ، لِكُلِّ سَبْطٍ طَرِيقٌ يَسِيرُونَ فِيهِ ، وَهَكُذَا كَانَ مَاءُ الْبَحْرِ قَائِمًا مُثْلِجًا ، مَكْفُوفًا بِالْقَدْرَةِ الْعَظِيمَةِ الصَّادِرَةِ مِنَ الْذِي يَقُولُ لِلشَّيْءِ كَنْ فِيكُونَ .

قال الله تعالى : « ولَقَدْ أَوْحَيْنَا إِلَيْ مُوسَى أَنَّ أَسْرِي بِعِبَادِي فَأَضْرِبْ لَهُمْ طَرِيقًا فِي الْبَحْرِ يَسِّرًا لَا تَخْفَ دَرَكًا وَلَا تَخْشَى [١] فَابْتَغُهُمْ فِي عَرَوْنَ يَخْتُورُهُ فَقَشِّيهِمْ مِنَ الَّذِي مَا غَشَّاهُمْ [٢] وَأَضْلَلَ فِرْعَوْنَ قَوْمَهُ وَمَا هَدَى [٣] » والمنصود أنه لما ألم أمر البحر إلى هذه الحال ، فإذا ذكر العظيم الشديد المحال ، أمر موسى عليه السلام أن يجوزه ببني إسرائيل ، فانحدروا فيه مسرعين مستبشرين مبادرين ، وقد شاهدوا من الأمر العظيم ما يحير الناظرين ، وبهدي قلوب المؤمنين . فلما جاوزه وجاوزوه وخرج آخرهم منه ، وانفصلوا عنه ، وكان ذلك عند قدوم أول جيش فرعون إليه ، ووفدهم عليه .

فأراد موسى عليه السلام أن يضرب البحر بعصاه ليرجع كما كان عليه . لثلا يكون لفرعون وجنته وصول إليه ، ولا سبيل عليه ، فأمره القدير ذو الجلال أن يترك البحر على هذه الحال ، كما قال وهو الصادق في المقال : « [٤] وَلَقَدْ فَتَنَّا فِيْهِمْ فَوْمَ فَرَعَوْنَ وَجَاهَهُمْ رَسُولُكَرَبِّهِمْ [٥] أَنْ أَدْوِإِلَيْ عِبَادَ اللَّهِ إِنِّي لَكُمْ رَسُولُ أُبَيْنَ [٦] وَأَنْ لَا تَقْلُوْعَلَى اللَّهِ إِنِّي أَتِيكُمْ سَلَطْنَ مَيْنَ [٧] وَلَوْلَى [٨] عَدْتُ بِرَبِّكُمْ أَنْ تَرْجُوْنَ [٩] وَلَمْ تُؤْنُوا لِي فَاعْلَمُوْنَ [١٠] فَدَعَارَيْهِ أَنْ هَنَوْلَهُ قَوْمَ شَجَرِمُونَ [١١] فَأَسْرِي بِعِبَادِي لِيَلَا إِنْكُمْ مُتَّبِعُونَ [١٢] وَأَتَرُكَ الْبَحْرَ رَهْوَأَ إِنْهُمْ جُنْدُ مَعْرُوفَ [١٣] كَمْ تَرَكُوْمَ مِنْ جَنَّتَ وَعِيْنَ [١٤] وَرَفِعَ وَمَقَامِ كَرِبِّيَّ [١٥] وَعَمَّةَ كَانُوا فِيهَا فَكَهِيَنَ [١٦] كَذَلِكَ وَأَوْرَثَهَا قَوْمًا مَاحْرِيَنَ [١٧] فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ وَمَا كَانُوا مُنْظَرِيَنَ [١٨] وَلَقَدْ بَحَثَنَا بَيْنَ الْعَدَابِ الْمُهِينِ [١٩] مِنْ قَوْعَدَكَ إِنَّهُ كَانَ عَالِيًّا مِنَ الْمُسْرِفِينَ [٢٠] وَلَقَدْ أَخْرَنَهُمْ عَلَى عِلْمٍ عَلَى الْعَنَمَيَنَ [٢١] وَأَنْتَهُمْ مِنَ الْأَبَيَتْ مَا فِيهِ بَلَوْأَ مُيْتَ [٢٢] ». [الدخان: ١٧ - ٣٣].

فقوله تعالى : « وَأَتَرُكَ الْبَحْرَ رَهْوَأَ » أي ساكناً على هيئته ، لا يُغيّر عن هذه الصفة . قاله عبد الله بن عباس ومجاهد وعكرمة والربيع والضحاك وقادة وكعب الأحبار وسماك بن حرب وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم ، وغيرهم .

فلما تركه على هيئته وحالته وانتهى فرعون ، فرأى ما رأى ، وعاين ما عاين ، هاله هذا المنظر العظيم ، وتحقق ما كان يتحقق قبل ذلك من أن هذا من فعل رب العرش الكريم ، فأحجم ولم يتقدم ، وندم في نفسه على خروجه في طلبهم والحالة هذه حيث لا ينفعه الندم ، لكنه أظهر لجنوده تجلداً وعاملهم معاملة العدا ، وحملته النفس الكافرة والسعيدة الفاجرة على أن قال لمن استخفهم فأطاعوه ، وعلى باطله تابعوه : انظروا كيف انحرس البحر لي لأدرك عبيدي الآبقين من يدي ، الخارجين على طاعتي وبدلي ؟ وجعل يوري في نفسه أن يذهب خلفهم ، ويرجو أن ينجو وهياته ويقدم تارة ويحجم تارات ! ..

فبادر هذا وفرعون لا يملك من نفسه ضرراً ولا نفعاً ، فلما رأته الجنود قد سلك البحر اقت桓وا وراءه مسرعين ، فحصلوا في البحر أجمعين أكتعن أبععين ، فعند ذلك أمر الله تعالى كليمه فيما أوحاه إليه أن يضرب بعصاه البحر .

فضربه فارتطم عليهم البحر كما كان ، فلم ينج منهم إنسان .

قال تعالى : « وَأَنْجَيْنَا مُوسَى وَمَنْ مَعَهُ أَجْمَيْنَ [٢٣] ثُمَّ أَعْرَقْنَا الْأَخْرَيْنَ [٢٤] إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِيَّةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ =

ثُمَّ قَوْمِيْنَ ﴿٧﴾ وَلَئِنْ رَبَّكَ هُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ أي في إنجائه أولياءه فلم يغرق منهم أحد ، وإن رافقه أعداءه فلم يخلص منهم أحد آية عظيمة ، وبرهان قاطع على قدرته تعالى العظيمة ، وصدق رسوله فيما جاء به عن ربها من الشريعة الكريمة ، والمناهج المستقيمة .

وقال تعالى : « وَجَزَوْنَا بَنَى إِسْرَائِيلَ الْجَحْرَ فَأَتَبَعَهُمْ فَرَعَوْنُ وَجُنُودُهُ بَعْنَى وَعَدْوًا حَتَّى إِذَا أَدْرَكَهُ الْفَرَقُ قَالَ إِنَّمَا أَمَّنْتَ أَنَّمَا لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ إِنَّمَا أَمَّنْتَ بِهِ بَنَوَ إِسْرَائِيلَ وَإِنَّمَا لِلنَّاسِ مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴿٨﴾ ، إِنَّمَا وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنْتَ مِنَ الْمُقْسِدِينَ ﴿٩﴾ فَإِلَيْهِمْ نُنْجِيَكَ بِيَدِنَّكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلَقَكَ أَيَّهَا وَإِنَّ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ عَنْ مَا يَنْهَا لَغَنِيْلُوكَ » [يونس : ٩٠ - ٩٢] .

يخبر تعالى عن كيفية غرق فرعون زعيم كفرة القبط ، وأنه لما جعلت الأمواج تخفضه تارة وترفعه أخرى ، ويبني إسرائيل ينظرون إليه وإلى جنوده ، ماذا أحل الله به وبهم من البأس العظيم والخطب الجسيم ، ليكون أقرب لأعينبني إسرائيل ، وأشفي لتفوسهم . فلما عاين فرعون الهلكة وأحيط به ، وبasher سكرات الموت وأتاب حينئذ وتاب ، وامن حين لا ينفع نفسها إيمانها ، كما قال تعالى : « إِنَّ الَّذِينَ حَفَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتَ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١١﴾ وَلَوْ جَاءَهُمْ كُلُّ مَا يَعْلَمُ حَتَّى يَرَوُا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ ﴿١٢﴾ » . وقال تعالى : « فَلَمَّا رَأَوْا بِأَسْنَا قَالُوا إِنَّمَا أَمَّنَا بِاللَّهِ وَهَذُو وَكَفَرْنَا بِمَا كَانَ يَهُدِيهِ مُشَرِّكِينَ ﴿١٣﴾ فَلَمَّا يَكُنْ يَنْعَهُمْ إِيمَانُهُمْ لَمَّا رَأُوا بِأَنْسَانَتَ اللَّهَ الَّتِي قَدْ خَلَتْ فِي عِبَادَتِهِ وَخَيْرِهِ هُنَّا لَكَ الْكُفَّارُونَ » [غافر : ٨٤ - ٨٥] .

وهكذا دعا موسى على فرعون ومثله أن يطمس على أموالهم ، ويشدد على قلوبهم فلا يؤمنوا حتى يروا العذاب الأليم ، أي حين لا ينفعهم ذلك ، ويكون حسرة عليهم . وقد قال تعالى لهما - أي لموسى وهارون - حين دعوا بهذا : « قَدْ أَيْجَبَتْ ذَعَوْتُكُمَا » فهذا من إجابة الله تعالى دعوة كليمه وأخيه هارون عليهم السلام .

وقوله تعالى : « إِنَّكُنَّ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلَ وَكُنْتَ مِنَ الْمُقْسِدِينَ » استفهام إنكارى ، ونص على عدم قبوله تعالى منه ذلك . لأنـه - والله أعلم - لورـد إلى الدنيا كما كان لـعاد إلى ما كان عليه ، كما أخبر تعالى عن الكفار إذا عاينوا النار وشاهدوها أنـهم يقولون : « يَلِيَّنَا نَرْدُ وَلَا تَكْبَرْ بِيَقِيْنَتِنَا وَكُنْوَنَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ » ، قال الله : « بَلْ بَدَأْهُمْ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ مِنْ قَبْلِ وَلَوْ رُدُوا لَعَادُوا لِمَا هُوَ عَنْهُ وَلَمْ يَهُمْ لَكَلْبِيُونَ » ، قوله : « فَإِلَيْهِمْ نُنْجِيَكَ بِيَدِنَّكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلَقَكَ أَيَّهَا » .

قال : « فَإِلَيْهِمْ نُنْجِيَكَ بِيَدِنَّكَ » أي مصاحباً درعك المعروفة بك : « لِتَكُونَكَ » أي أنت آية « لِمَنْ خَلَقَكَ » أي من بنـي إسرائيل ، ودلـيلاً على قدرة الله الذي أهـلكـك ، ولـهـذا قـرأـ بعضـ السـلفـ : « لـتـكـونـ لـمـنـ خـلـقـكـ آيـهـ » ويـحـتمـلـ أنـ يـكـونـ المرـادـ : نـنجـيكـ بـجـسـدـكـ لـتـكـونـ عـلامـةـ لـمـنـ وـرـاءـكـ مـنـ بـنـيـ إـسـرـائـيلـ عـلـىـ مـعـرـفـتـكـ وـأـنـكـ هـلـكـتـ .. وـالـهـ أـعـلـمـ ، وـقـدـ كـانـ هـلاـكـهـ وـجـنـودـهـ فـيـ يـوـمـ عـاشـورـاءـ .

كما قال الإمام البخاري في صحيحه : حدثنا محمد بن بشار ، حدثنا غندر ، حدثنا شعبة بن أبي بشر ، عن سعيد بن جبير ، عن ابن عباس قال : قدم النبي ﷺ المدينة واليهود تصوم يوم

عاشراء ، قال : « ما هذا اليوم الذي تصومونه؟ » ، فقالوا : هذا يوم ظهر فيه موسى على فرعون . قال النبي ﷺ لأصحابه : « أنتم أحق بموسى منهم فصوموا ». وأصل هذا الحديث في الصحيحين وغيرهما .. والله أعلم [صحيح البخاري / ح ٤٦٨٠] ومسلم [١٣ / ١٩٢٧]. وقد قال الله تعالى في كتابه العزيز المهيمن على ما عاده من الكتب : « وَجَزَوْنَاكُمْ بِمَا إِنْتُمْ بِهِ تَعْمَلُونَ إِنَّ هَؤُلَاءِ مُتَّبِرُ مَا هُمْ فِيهِ وَيَطْلُبُ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ » . قالوا : هذا الجهل والضلال ، وقد عاينوا من آيات الله وقدرته ما دلهم على صدق ما جاءهم به رسول ذي الجلال والإكرام ، وذلك أنهمروا على قوم يعبدون أصناما ، قيل : كانت على صور البقرة ، فكأنهم سألوهم : لم يعبدونها؟ فزعموا لهم أنها تفعهم وتضرهم ويسترزقون بها عند الضرورات ، فكان بعض الجهال منهم صدقوهم في ذلك ، فسألوا نبيهم الكليم الكريم العظيم ، أن يجعل لهم الهة كما لأولئك الهة ، فقال لهم مبيناً : إنهم لا يعقلون ولا يهتدون : « إِنَّ هَؤُلَاءِ مُتَّبِرُ مَا هُمْ فِيهِ وَيَطْلُبُ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ » .

ثم ذكرهم نعمة الله عليهم ، في تفضيله إياهم على عالي زمانهم بالعلم والشرع ، والرسول الذي بين أظفهم ، وما أحسن به إليهم ، وما امتن به عليهم من إنجائهم من قضية فرعون الجبار العنيد ، وإهلاكه إياه وهم ينظرون ، وторيشه إياهم ما كان فرعون ومملؤه يجمعونه من الأموال والسعادة ، وما كانوا يعيشون ، وبين لهم أنه لا تصلح العبادة إلا لله وحده لا شريك له ، لأنه الخالق الرازق القهار ، وليس كل بني إسرائيل سأل هذا السؤال ، بل هذا الضمير عائد على الجنس في قوله : « وَجَزَوْنَاكُمْ بِمَا إِنْتُمْ بِهِ تَعْمَلُونَ إِنَّ الْبَحْرَ قَاتَرًا عَلَى قَوْمٍ يَعْكُفُونَ عَلَى أَصْنَامِ لَهُمْ قَالَ الْأَنْجَلُ مَالِكُ الْبَحْرِ قَاتَرًا مَالِكُ الْأَنْجَلِينَ أَجَعَلَ لَنَا إِلَهًا كَمَا لَهُمْ إِلَهٌ قَالَ بَعْضُهُمْ كَمَا قَالَ مَلِكُ الْأَنْجَلِينَ وَحَسْنَتْهُمْ فَلَمْ يَغَدُ مِنْهُمْ أَحَدًا وَغَرِضُوا عَلَى رَبِّكَ صَفَاقَدْ جَثَمُونَا كَمَا حَلَقْنَاكُمْ أَوْلَ مَرَّةٍ بَلْ زَعْمَمْ أَنَّنَجَعَ لَكُمْ مَوْعِدًا » فالذين زعموا هذا بعض الناس لا كلامهم .

وقد قال الإمام أحمد : حدثنا عبد الرزاق ، حدثنا معاذ ، عن الزهري ، عن سنان بن أبي سنان الديلي ، عن أبي واقد الليثي ، قال : خرجنا مع رسول الله ﷺ قبل حنين ، فمررنا بسدرة فقلنا : يا رسول الله .. أجعل لنا هذه ذات أنواع ، كما للكفار ذات أنواع ، وكان الكفار ينوطون سلاحهم بسدرة يعكفون حولها ، فقال النبي ﷺ : « الله أكبير .. هذا كما قالت بنو إسرائيل لموسى : « أَجَعَلَ لَنَا إِلَهًا كَمَا لَهُمْ إِلَهٌ » إنكم تربون سنن الذين من قبلكم ». ورواه النسائي عن محمد بن رافع ، عن عبد الرزاق به . ورواه الترمذى عن سعيد بن عبد الرحمن المخزومى ، عن سفيان بن عيينة ، عن الزهري به ، ثم قال : حسن صحيح [أحمد/٢١٩٥٩] والترمذى [٢١٨٠].

وقد روى ابن جرير من حديث محمد بن إسحاق ومعاذ وعقيل عن الزهري ، عن سنان بن أبي سنان ، عن أبي واقد الليثي ، أنهم خرجوا من مكة مع رسول الله ﷺ إلى حنين ، قال :

وكان للكفار سدرة يعكفون عندها ، ويعلقون بها أسلحتهم ، يقال لها: «ذات أنواط» قال: فمررنا بسدرة خضراء عظيمة ، قال: فقلنا: يا رسول الله .. اجعل لنا ذات أنواط كما لهم ذات أنواط قال: «قلتم والذى نفسي بيده كما قال قوم موسى: ﴿أَجْعَلْ لَنَا إِلَهًا كَمَا لَهُمْ إِلَهٌ﴾ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ ﴿إِنَّ هؤُلَاءِ مُتَّبِعُونَ مِنْهُمْ فِيهِ وَيَنْظَلُ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [جامع البيان/٩/٤٥].

* * *

والمحصود أن موسى عليه السلام ، لما انفصل من بلاد مصر وواجه بلاد بيت المقدس وجد فيها قوماً من الجبارين ، من الحيثانيين والفزاريين والكتعنانيين ، وغيرهم . فأمرهم موسى عليه السلام بالدخول عليهم ومقاتلتهم ، وإجلائهم إياهم عن بيت المقدس ، فإن الله كتب لهم ، ووعدهم إياه على لسان إبراهيم الخليل وموسى الكليم الجليل ، فأبوا وتكلوا عن الجهاد ، فسلط الله عليهم الخوف ، وألقاهم في التي يسرون ويرحلون ويرتحلون ويدهبون ويجهبون ، في مدة من السنين طويلة هي من العدد الأربعون ، كما قال الله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يَنْقُوْمُهُ أَذْكُرُوْنَا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَعَلَ فِيْكُمْ أَنْبِيَاءً وَجَعَلَكُمْ مُلُوكًا وَأَنْتُمْ كَمَا تَمْ يُوتَنَّ أَحَدًا مِنَ الْعَالَمِينَ ﴾ يَنْقُوْمُهُ أَذْخُلُوْا الْأَرْضَ الْمُقَدَّسَةَ الَّتِي كَبَّ اللَّهُ لَكُمْ وَلَا زَرَدُوا عَلَى أَذْبَارِكُمْ فَنَنْقَلِبُوْا خَسِيرِينَ ﴾ قَالُوا يَنْقُوْمُهُ إِنَّ فِيهَا قَوْمًا جَبَارِينَ وَإِنَّا نَدْخُلُهَا حَتَّى يَخْرُجُوْا مِنْهَا فَإِنَّا دَخَلُوْنَ ﴾ قَالَ رَجُلًا مِنَ الَّذِينَ يَنْقُوْمُهُ أَتَعْمَمُ اللَّهُ عَلَيْهِمَا أَذْخُلُوْا عَنْهُمُ الْأَبَابَ فَإِذَا دَخَلَتُمُوهُ فَإِنَّكُمْ عَلَيْهِنَّ وَعَلَى اللَّهِ فَتَوَكَّلُوْا إِنَّ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴾ قَالُوا يَنْقُوْمُهُ إِنَّا لَنَدْخَلَهَا أَبْدًا مَا دَامُوا فِيهَا فَأَذْهَبَ أَنَّ وَرَبِّكَ فَفَتَّلَا إِنَّا هُنَّا فَتَعِدُوْنَ ﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّي لَا آتِكُمْ إِلَّا نَفْسِي وَآخِي فَأَفْرَقَ بَيْنَنَا وَبَيْنَ الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ ﴾ قَالَ فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ أَتَيْعِنَ سَنَةً يَتَهُوْنُ فِي الْأَرْضِ فَلَا تَأْسَ عَلَى الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ ﴾ [سورة المائدة: ٢٠ - ٢٦].

يذكرهم النبي الله نعمة الله عليهم وإحسانه إليهم بالنعم الدينية والدنيوية ، ويأمرهم بالجهاد في سبيل الله ومقاتلة أعدائه فقال: ﴿ يَنْقُوْمُهُ أَذْخُلُوْا الْأَرْضَ الْمُقَدَّسَةَ الَّتِي كَبَّ اللَّهُ لَكُمْ وَلَا زَرَدُوا عَلَى أَذْبَارِكُمْ ﴾ أي تنكروا على أعقابكم ، وتكلوا عن قتال أعدائكم ﴿ فَنَنْقَلِبُوْا خَسِيرِينَ ﴾ أي فتخرسوا بعد الربح ، وتنتصروا بعد الكمال .

﴿ قَالُوا يَنْقُوْمُهُ إِنَّ فِيهَا قَوْمًا جَبَارِينَ ﴾ أي عنة كفرة متربدين ﴿ وَإِنَّا نَدْخُلُهَا حَتَّى يَخْرُجُوْا مِنْهَا فَإِنَّا دَخَلُوْنَ ﴾ خافوا من هؤلاء الجبارين وقد عاينوا هلاك فرعون ، وهو أجبر من هؤلاء وأشد بأساً ، وأكثر جمعاً وأعظم جنداً . وهذا يدل على أنهم ملومون في هذه المقالة ، ومذمومون على هذه الحالة ، من الذلة عن مساولة الأعداء ، ومقاومة المردة الأشياء .

وقد ذكر كثير من المفسرين هاهنَا آثاراً فيها مجازفات كثيرة باطلة ، يدل العقل والتقل على خلافها من أنهم كانوا أشكالاً هائلة ضخاماً جداً ، حتى إنهم ذكروا أن رسل بني إسرائيل لما قدموا عليهم تلقاءهم رجل من رسل الجبارين ، فجعل يأخذهم واحداً واحداً ، ويلقيهم في =

أكمامه وحجزة سراويله ، وهم اثنا عشر رجلاً ، فجاء بهم فتشرهم بين يدي ملك الجبارين ، فقال : ما هؤلاء؟ ولم يعرف أنهم من بني آدم حتى عرفوه . وكل هذه هذياتات وخرافات لا حقيقة لها .

وأن الملك بعث معهم عبناً كل عنبة تكفي الرجل ، وشيناً من ثمارهم ليعلموا ضخامة أشكالهم ، وهذا ليس بصحيح .

وذكرروا ها هنا أن عوج بن عنق خرج من عند الجبارين إلى بني إسرائيل ليهلكهم ، وكان طوله ثلاثة ألف وثلاثمائة وثلاثة وثلاثين ذراعاً وثلث ذراع . هكذا ذكره البغوي وغيره ، وليس بصحيح ، كما قدمنا بيانه عند قوله ﷺ : «إِنَّ اللَّهَ خَلَقَ آدَمَ طُولَهُ سَتُونَ ذَرْعًا ثُمَّ لَمْ يَزُلْ الْخَلْقَ يَنْقُصُ حَتَّى الْآنِ». قالوا: فعمد عوج إلى قمة جبل فاقتلعها ثم أخذ بيده ليلقيها ، فجاء طائر فنقر تلك الصخرة فخرقها فصارت طوقاً في عنق عوج بن عنق . ثم عمد موسى إليه ، فوثب في الهواء عشرة أذرع ، وبيده عصاه وطولها عشرة أذرع ، فوصل إلى كعب قدمه فقتله .

يروى هذا عن نوف البكري ، ونقله ابن جرير عن ابن عباس وفي إسناده إليه نظر ، ثم هو مع هذا كله من الإسرائيлик ، وكل هذه من وضع جهاب بنى إسرائيل ، فإن الأخبار الكاذبة قد كثرت عندهم ولا تميز لهم بين صحيحها وباطلها ، ثم لو كان هذا صحيحاً لكان بنو إسرائيل معدورين في النكول عن قتالهم ، وقد ذمهم الله على نكولهم ، وعاقبهم بالتيه على ترك جهادهم ومخالفتهم رسولهم ، وقد أشار عليهم رجال صالحان منهم بالإقدام ، ونهياهم عن الإيجام ، «قَالَ رَجُلٌ مِّنَ الَّذِينَ يَحَاوُرُونَ» أي: يخافون الله ، وقرأ بعضهم: «يَحَاوُرُكُمْ» أي: يهابون «أَنَّمَّا اللَّهُ عَلَيْهِمَا» أي: بالإسلام والإيمان والطاعة والشجاعة «أَدْخُلُوا عَنْهُمُ الْبَابَ فَإِذَا دَخَلْتُمُوهُ فَإِنَّكُمْ عَنِّيهِنَّ وَعَلَى اللَّهِ فَتَوَكُّلُوا إِنْ كُنْتُمْ مُّؤْمِنِينَ» أي: إذا توكلتم على الله ، واستعتم به ولجمأت إليه ، نصركم على عدوكم وأيدكم عليهم وأظفركم بهم .

«قَالُوا يَكُوشُونَ إِنَّا لَنْ نَذْخُلَهَا أَبَدًا مَا دَامُوا فِيهَا فَأَذْهَبْتَ أَنَّتَ وَرَبِّكَ فَقَدِّتِلَا إِنَّا هُنَّا قَعْدُونَ» فقسم ملؤهم على النكول عن الجهاد ، ووقع أمر عظيم ووهن كبير «قَالَ رَبِّي إِنِّي لَا أَمْلِكُ إِلَّا نَفْسِي وَآخِي فَأَفَرُّقُ بَيْنَنَا وَبَيْنَ الْقَوْمَ الْفَسِيقِينَ» قال ابن عباس: أقض بيني وبينهم «قَالَ إِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ أَرْبَعِينَ سَنَةً يَتَهَوَّنُ فِي الْأَرْضِ فَلَا تَأْسَ عَلَى الْقَوْمِ الْفَسِيقِينَ» عوquia على نكالهم بالتيهان في الأرض ، يسيرون إلى غير مقصد ، ليلاً ونهاراً وصباحاً ومساءً .

لكن أصحاب محمد ﷺ يوم بدر لم يقولوا له كما قال قوم موسى لموسى ، بل لما استشارهم في الذهاب إلى التهير تكلم الصديق فأحسن وتكلم غيره من المهاجرين . ثم جعل يقول: «أشيراً على» ، حتى قال سعد بن معاذ: كأنك تعرضنا بنا يا رسول الله؟ فوالذي بعثك بالحق لو استعرضت بنا هذا البحر فخضته لخضناه معك ، ما تختلف منا رجل واحد ، وما نكره أن تلقى بنا عدونا غداً ، إنما لصبر في الحرب ، صُدِّقَ في اللقاء ، لعل الله أن يريك منا ما تقر به =

ذكر يوشع بن نون عليه السلام

فقال بعضهم: لم يسْرِ يوشع إلى أريحا ، ولا أُمِرَ بالمسير إليها إلَّا بعد موت موسى ، وبعد هلاك جميع من كان أَبِي المسير إلَيْها مع موسى بن عمران ، حين أُمِرَّهُم الله تعالى بقتال مَنْ فيها من الجبارين ، و قالوا: مات موسى وهارون جميعاً في التيه قبل خروجهما منه^(١) . (٤٣٥ : ١) .

عينك ، فسر بنا على بركة الله . فسر رسول الله ﷺ يقول سعد ونشطه ذلك . =
وقال الإمام أحمد: حدثنا وكيع ، حدثنا سفيان ، عن مخارق بن عبد الله الأحمسي ، عن طارق - هو ابن شهاب - أن المقداد قال لرسول الله ﷺ يوم بدر: يا رسول الله .. إننا لا نقول لك كما قالت بنو إسرائيل لموسى: «فَأَذَهَبْتَ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقَتْلَاهَا إِنَّا هُنَّا قَاعِدُونَ» ولكن أذهب أنت وربك فقاتلا فإننا معكم مقاتلون . وهذا إسناد جيد من هذا الوجه ، وله طرق أخرى . [مسند أحمد/ ح ١١٤٩]

قال أحمد: حدثنا أسود بن عامر ، حدثنا إسرائيل ، عن مخارق ، عن طارق بن شهاب ، قال: قال عبد الله بن مسعود رضي الله عنه ، لقد شهدت من المقداد مشهداً ، لأن أكون أنا صاحبه ، أحب إلى مما عدل به ، أتى رسول الله ﷺ وهو يدعى على المشركين فقال: والله يا رسول الله لا نقول لك كما قالت بنو إسرائيل لموسى: «فَأَذَهَبْتَ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقَتْلَاهَا إِنَّا هُنَّا قَاعِدُونَ» ولكننا نقاتل عن يمينك ، وعن يسارك ومن بين يديك ومن خلفك ، فرأيت وجه رسول الله ﷺ يشرق لذلك وسر بذلك . رواه البخاري في التفسير ، والمغازي من طرق عن مخارق به . [مسند أحمد/ ح ٣٦٩٨] وصحيح البخاري [كتاب المغازي/ ح ٣٩٥٢]

وقال الحافظ أبو بكر بن مردوه: حدثنا علي بن الحسين بن علي ، حدثنا أبو حاتم الرazi ، حدثنا محمد بن عبد الله الأنصاري ، حدثنا حميد ، عن أنس ، أن رسول الله ﷺ لما سار إلى بدر استشار المسلمين ، فأشار عليه عمر ، ثم استشارهم فقالت الأنصار: يا معاشر الأنصار.. إياكم يريد رسول الله ﷺ قالوا: إذا لا نقول له كما قال بنو إسرائيل لموسى: «فَأَذَهَبْتَ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقَتْلَاهَا إِنَّا هُنَّا قَاعِدُونَ» والذى بعثك بالحق لو ضربت أكبادها إلى برك الغمام لاتبعناك .

رواه الإمام أحمد عن عبيدة بن حميد ، عن حميد الطويل ، عن أنس به ، ورواه النسائي ، عن محمد بن المنى ، عن خالد بن الحارث ، عن حميد ، عن أنس به نحوه . وأخرجه ابن حبان في صحيحه عن أبي يعلى ، عن عبد الأعلى ، عن معتمر ، عن حميد ، عن أنس به نحوه .

(١) صحيح .

ذكر من قال ذلك :

حدثني عبد الكرييم بن الهيثم ، قال : حدثنا إبراهيم بن بشار ، قال : حدثنا سفيان ، قال : قال أبو سعيد ، عن عكرمة ، عن ابن عباس ، قال : قال الله تعالى : لما دعا موسى يعني بدعائه قوله : ﴿رَبِّ إِنِّي لَا أَمْلِكُ إِلَّا نَفْسِي وَأَخِي فَأَفْرُقَ بَيْنَنَا وَبَيْنَ الْقَوْمَ الْفَسِيقِينَ ﴾^{٢٦} ﴿قَالَ فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ أَرْبَعِينَ سَنَةً يَتَهُوَّكُ فِي الْأَرْضِ﴾ . قال : فدخلوا التيه ، فكل من دخل التيه من جاوز العشرين سنة مات في التيه ، قال : فمات موسى في التيه ، ومات هارون قبله . قال : فلبثوا في تيههم أربعين سنة ، وناهض يوشع بمن بقي معه مدينة الجبارين فافتتح يوشع المدينة^(١) . (٤٣٥) .

(١) صحيح .

لقد ذكر الطبرى روايات عددة في ذكر يوشع بن نون فتى موسى عليه السلام وجلها مأخوذ من الإسرائيليات ونحن ذاكرون هنا ما صحي سنده في خبر يوشع هذا علماً أننا لم نجد نصاً نبوياً صريحاً ينص على نبوته إلا أن ابن كثير ذكر أنه نبي وقال : اتفق أهل الكتاب على ذلك كما في قصص الأنبياء لابن كثير ، ولم نجد كما ذكرنا نصاً نبوياً يؤكّد ذلك إلا أن مفهوم حديثين نبويين يحملان ذلك :

الأول : ما أخرجه أحمد في مسنده من حديث أبي هريرة مرفوعاً (٨٣١٥) إن الشمس لم تحبس على بشر إلا ليوشع ليالي سار إلى بيت المقدس ، وقال الحافظ ابن كثير : انفرد به أحمد من هذا الوجه وهو على شرط البخاري (قصص الأنبياء / ٣٣١) . وأخرجه الطحاوى كذلك (شرح مشكل الآثار ح ١٠٦٩) .

الثاني : ما أخرجه البخاري (كتاب فرض الخمس / ح ٣١٢٣) عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال النبي ﷺ : «غزا نبي من الأنبياء فقال لقومه : لا يتبعني رجل ملك بضم امرأة وهو يريده أن يبني بها ولما بين بها ، ولا أحد بي بيوتاً ولم يرفع سقفها ، ولا أحد اشتري غنمأً أو خلفات وهو ينتظر ولادها ، فغزا ، فدنا من القرية صلاة العصر أو قريباً من ذلك فقال للشمس : إنك مأمورة وأنا مأمور ، اللهم احسها علينا ، فحبست حتى فتح الله عليهم فجمع الغنائم الحديث وفي آخره : ثم أحل الله لنا الغنائم رأى ضعفنا وعجزنا فأحل لها» .

والحديث أخرجه مسلم (ح ١٧٤٧) وأحمد (ح ٨٢٣٨) وغير واحد ، والله أعلم . قلنا : فإذا كانت الشمس لم تحبس إلا يوشع بن نون كما في الحديث الأول وأن نبياً من الأنبياء خرج غازياً فدعا فحبس الله الشمس له ولجيشه حتى فتحوا مصر ، فالجتمع بين الحديدين يشير إلى أن يوشع بن نون نبي ، وهو الذي خرج غازياً فحدث للشمس ما قدر الله لها من الحبس . وهذا استنباط وفهم للنصوص ولعله لا يكون كذلك والله أعلم .

قال أبو جعفر : فلما نزلت نسمة الله بقارون حمِدَ الله على ما أَنْعَمَ به عليهم المؤمنون الذين وعظوه وأنذروه بأمر الله ، ونصحوا له من المعرفة بحقه والعمل بطاعته ، ونَدِمَ الذين كانوا يتمنّون ما هو فيه من كثرة المال ، والسعنة في العيش على أمنيتهم ، وعرفوا خطأ أنفسهم في أمنيتها ، فقالوا ما أَخْبَرَ الله عزَّ وجَلَّ عنهم في كتابه : ﴿وَيَكَذِّبُونَ اللَّهَ يَسْمُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَوْلَا أَنَّ مِنَ اللَّهِ عَلَيْنَا هُنَّ﴾ ، فصرَفَ عنا ما ابتلى به قارون وأصحابه مما كنا نتمناه بالأمس لخسف بنا كما خسف به وبهم . فنجَى الله تعالى من كلّ هول وبلاء نبيه موسى والمؤمنين به المتمسكون بعهده من بني إسرائيل ، وفتاه يوشع بن نون المتبوعين له بطاعتهم ربهم ، وأهلك أعداءه وأعداءهم : فرعون وهامان وقارون والكتناعيين بكفرهم وتمردhem عليه وعتوهم ، بالغرق بعضاً ، وبالخسف بعضاً ، وبالسيف بعضاً ، وجعلهم عبراً لمن اعتبر بهم ، وعظة لمن اتعظ بهم ، مع كثرة أموالهم وكثرة عدد جنودهم ، وشدة بطيشهم ، وعظم خلقهم وأجسامهم ، فلم تغُنْ عنهم أموالهم ولا أجسامهم ولا قواهم ولا جنودهم وأنصارهم عنهم من الله شيئاً؛ إذ كانوا يجحدون بآيات الله ، ويسعون في الأرض فساداً ، ويتحذرون عباد الله لأنفسهم خَوْلَأَ ، وحاق بهم ما كانوا منه آمنين ؛ نعوذ بالله من عمل يقرّب من سخطه ، ونرحب إليه في التوفيق لما يلدي من محبته ، ويزلف إلى رحمته^(١) ! فلما ملك

وأما الحافظ ابن حجر فقد قال رحمة الله أثناء شرحه للحديث : قوله (غزا نبي من الأنبياء) أي أراد الغزو ، وهذا النبي هو يوشع بن نون كما رواه الحاكم من طريق كعب الأحبار وبين تسمية القرية كما سبأته ، وقد ورد أصله من طريق مرفوعة صحيحة أخرجها أحمد من طريق هشام عن محمد بن سيرين عن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ «إن الشمس لم تحبس لبشر إلا ليوشع بن نون ليالي سار إلى بيت المقدس» (فتح الباري ٣٤٦ / ٦ ط الفكرة) .
قلنا : وقال القاضي عياض رحمة الله في شرح مسلم (ح ١٧٤٧ - غزا نبي من الأنبياء .. الحديث) وقال : إن الذي حبست عليه الشمس هو يوشع بن نون (إكمال المعلم ٥٣ / ٦ والله تعالى أعلم بالصواب .
صحيح . (١)

ذكر خبر داود عليه السلام

لقد أخرج الطبرى روايات عدة في أخبار داود عليه السلام من (٤٧٦ / ١ - ٤٨٥ / ١) وجميعها =
بأسانيد ضعيفة جداً أو ضعيفة على الأقل ولم يصح في تفاصيل متونها بل أغلبها مستقاة من

سلیمان بناءه وشرفه، وكان عمر داود - فيما وردت به الأخبار عن رسول الله ﷺ - مئة سنة . (٤٨١ : ١) .

الإسرائيликas و حتى تفسير الآيات خلطها رحمة الله بعض الإسرائيликas .

فأثروا أن ذكر الآيات القرآنية مع تفسيرها اللغوي عند الحافظ ابن كثير بعد حذف ما في التفسير من الإسرائيликas ، ولكتنا لا نرى بأساساً أن ذكر ما صحّ سنته من حديث روی في قصة داود عليه السلام قبل أن ذكر الآيات القرآنية مع تفسيرها :

١ - أخرج البخاري في صحيحه عن البراء بن عازب رضي الله عنه قال: كنا أصحاب محمد ﷺ نتحدث أن عدة أصحاب بدر على عدة أصحاب طالوت الذين جاؤوا معه النهر ولم يجاوز معه إلا بضعة عشر وثلاثة مؤمن (صحيح البخاري / كتاب المغازي / ح ٣٩٥٨). قلنا: والملاحظ أن الروايات الصحيحة لا تبالغ في ذكر الأعداد والأرقام ، بينما الروايات الضعيفة المتأثرة أو المستقاة من الإسرائيликas تذكر أرقاماً خيالية .

٢ - أخرج البخاري في صحيحه قال رسول الله ﷺ : «أحب الصلاة إلى الله صلاة داود وأحب الصيام إلى الله صيام داود ، كان ينام نصف الليل ويقوم ثلثه وبينما يصوم يوماً وينظر يوماً ولا يفتر إذا لاقى» صحيح البخاري / كتاب الأنبياء (ح ٣٤١٩) ومسلم (١١٥٩ / ١٨٩) .

قلنا: وهذه صورة داود العابد الناسك المجاهد وهي صورة في الأعلى كالثريا ، بينما صورته الإسرائيликas كما يشهي اليهود من تشويه صورة الأنبياء بما لا يليق بعصمتهم عليهم الصلاة والسلام .

٣ - لقد رزق الله سبحانه داود صوتاً جميلاً يتلو به كلام الله سبحانه ، وعندما سمع رسول الله ﷺ صوت أبي موسى الأشعري وهو يتلو القرآن قال عليه الصلاة والسلام: «لقد أعطي أبو موسى م Zimmermanاً من مزامير داود» مسند أحمد / ح ٨٦٥٤ من حديث أبي هريرة / وقال ابن كثير: على شرط مسلم .

٤ - وأخرج البخاري في صحيحه من حديث أبي هريرة مرفوعاً: «خفف الله على داود القرآن فكان يأمر بدوابه فتسريج ، فيقرأ القرآن قبل أن تسريج دوابه ، ولا يأكل إلا من عمل يده» صحيح البخاري / كتاب الأنبياء (ح ٣٤١٧) .

و سنذكر الآن بعض الآيات القرآنية الكريمة الواردة في ذكر النبي الله داود عليه السلام مع شيء يسير من التفسير اللغوي :

١ - قال الله تعالى: ﴿فَهَزَمُوهُمْ بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ قال الطبرى: قتلواهم بقضاء الله وقدره وقال الشوكانى: أي بأمره وإرادته .
 ﴿وَقَتَلَ دَاؤُدُّ جَالُوتَ وَءَاتَهُ اللَّهُ الْمُلْكَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَمَهُ مَا يَشَاءُ﴾ المعنى: الملك السلطان والحكمة النبوة .
 ﴿وَلَوْلَا دَفَعَ اللَّهُ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِعَيْنِ لَفْسَدَتِ الْأَرْضُ﴾

ذكر خبر سليمان بن داود عليهما السلام

ثم ملك سليمان بن داود بعد أبيه داود أمر ببني إسرائيل ، وسحر الله له الجن والإنس والطير والريح ، واتاه مع ذلك النبوة ، وسأل ربّه أن يؤتيه ملكاً لا ينبعى لأحد من بعده ، فاستجاب الله له فأعطاه ذلك^(١) . (٤٨٦ : ١) .

وَلَكُنَّ اللَّهُمَّ دُوْقَصِلِ عَلَى الْمُكْلِمِينَ قال الطبرى : يعني الله تعالى ذكره بذلك : ولو لا دفع الله أى أن يدفع الله الناس بعضهم بعض وهم أهل الطاعة له والإيمان به .

٢ - وقال تعالى في سورة سبا ﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوِدَ مِنْ فَضْلِنَا يَنْجِيلًا أَوْفَى مَعَهُ وَالظِّيرَ وَأَنَّا لَهُ الْحَدِيدَ ﴾ أَنْ أَعْمَلَ سَدِيقَتِ وَقَدَرَ فِي السَّرَّدِ وَأَعْمَلُوا صَلِحًا إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾ .

٣ - وقال تعالى : « وَإِذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوِدَ ذَا الْآيَةِ إِنَّهُ أَوَّلُو بَشَرٍ إِنَّا سَخَّنَاهُ إِلَيْهِ مَعْهُ يُسَيِّحُنَّ بِالْأَرْضِ وَالْأَشْرَاقِ ﴾ وَالظِّيرَ تَحْشُورَةً كُلَّهُ أَوَّلُو بَشَرٍ ﴾ وَشَدَّدَنَا مُلْكَهُ وَأَيْتَنَاهُ الْحِكْمَةَ وَفَصَلَ الْحَطَابَ » يعني ذا قوة في العبادة والعمل الصالح .

٤ - وقال سبحانه وتعالى في سورة (ص) : « وَهَلْ أَنْكَنَّ نَبْرًا الْحَصْنَ إِذْ سَوَّرُوا الْمِحْرَابَ ﴾ إِذْ دَحْلُوا عَلَى دَاؤِدَ فَقَرَبُوهُمْ فَأَلْوَاهُ الْأَنْجَفَ حَصْمَانٌ بَعَنْ بَعْضِهِمْ كَيْنَانٌ بَعْضُهُمْ كَيْنَانًا يَالْحَقِّ وَلَا شُطُطٌ وَأَعْدَنَا إِلَى سَوَاءِ الْأَصْرَاطِ ﴾ إِنَّ هَذَا أَخْرَى لِمَرْسَى وَسَعْوَنْ بَعْجَةً وَرَجَدَةً فَقَالَ أَكَفَلْنَاهَا وَعَزَّزَنَاهَا فِي الْمُطَابِ ﴾ قَالَ لَقَدْ ظَلَمَكَ سُؤَالٌ تَعْجِيزُكَ إِلَى نَعْيَاهُ وَإِنَّ كَثِيرًا مِنَ الْمُطَابَ لَيَنْبَغِي بِعَصْمِهِمْ عَلَى بَعِصِّ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَقَلِيلٌ مَا هُمْ وَظَنَّ دَاؤِدُ أَنَّمَا فَتَنَنَّهُ فَاسْتَغْفَرَ رَبَّهُ وَخَرَ رَأْكَاهُ وَأَنَابَ ﴾ فَغَفَرَ رَبُّهُ ذَلِكَ وَإِنَّ لَهُ عِنْدَنَا زَلْقَنٌ وَحَسْنَ مَنَابٍ ﴾ .

قلنا : والآية القرآنية بينت أنه عليه السلام أيقن أن الله ابتلاه فاستغفر لذنبه وسجد لله سبحانه ، فما هو هذا الابتلاء ومن أي ذنب استغفر وتاب وسجد ؟

ظاهر الآيات القرآنية وهي **﴿ يَلْسَانٌ عَرَقِيٌّ مُّبِينٌ ﴾** تشير إلى أن داود عليه السلام حكم لأحد الخصميين قبل أن يسمع من الآخر .

(١) صحيح .

نَبِيُّ اللَّهِ سُلَيْمَانُ
عَلَيْهِ السَّلَامُ

[وراثة النبوة] :

قال الله تعالى : « وَوَرِثَ سُلَيْمَانُ دَاؤِدَ وَقَالَ يَكْتَبُهَا النَّاسُ عُلِّمْنَا مِنْ طَقَ الظِّيرِ وَأَوْتَنَا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ إِنَّ هَذَا الْمَوْرُ الْفَصَلُ الْتَّبِيْنُ » أي : ورثه في النبوة والملك ، وليس المراد ورثه في المال ، لأنّه قد كان له بنون غيره ، فما كان ليخص بالمال دونهم ، ولأنه قد ثبت في الصحاح من غير وجه عن جماعة من الصحابة أن رسول الله ﷺ قال : « لا نورث ما تركنا فهو صدقة » وفي لفظه : « نحن =

معاشر الأنبياء لا نورث» فأخبر الصادق المصدوق أن الأنبياء لا تورث أموالهم عنهم كما يورث غيرهم ، بل تكون أموالهم صدقة من بعدهم على الفقراء والمحاويج لا يخصون بها أقرباءهم ، لأن الدنيا كانت أهون عليهم وأحقر عندهم من ذلك كما هي عند الذي أرسلهم واصطفاهم وفضلهم ، وقال : ﴿يَأَيُّهَا النَّاسُ عِلْمَنَا مِنْ طَيِّرٍ وَأُوْتَنَا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ﴾ يعني : أنه عليه السلام كان يعرف ما تناطبه به الطيور بلغاتها وتعبر للناس عن مقاصدتها وإرادتها ﴿وَأُوْتَنَا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ﴾ أي : من كل ما يحتاج الملك إليه من العدد والآلات والجنود والجيوش والجماعات من الجن والإنس والطيور والوحوش والشياطين السارحات والعلوم والفهم والتعبير عن ضمائر المخلوقات من الناطقات والصامتات ، ثم قال : ﴿إِنَّ هَذَا هُوَ الْفَضْلُ الْمُبِينُ﴾ أي : من بارئ البريات وخلق الأرض والسموات كما قال تعالى : ﴿وَجَهَنَّمَ جُهُونُمُّ مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسَنِ وَالْطَّيْرِ فَهُمْ يُرَوُونَ حَقَّ إِذَا أَتَوْا عَلَىٰ وَإِذَا نَسَلَ قَاتَ نَمَلٌ يَتَأَيَّهَا النَّمَلُ أَذْهَلُوا مَسَكِنَكُمْ لَا يَمْطِعُنَّكُمْ شَيْئاً وَجُنُونُمْ وَهُرُّ لَا يَشْعُرُونَ فَنَسَرَ ضَاحِكًا مِنْ قَوْلِهَا وَقَالَ رَبُّ أَزْعَاجِنِي أَشْكُرُ يَعْمَلَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَلِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَلِحًا تَرْضَهُ وَأَذْخُلَنِي يَرْحَمِكَ فِي عِبَادَكَ الصَّالِحِينَ﴾ .

يخبر تعالى عن عبده ونبيه وابن نبيه سليمان بن داود عليهما الصلاة والسلام أنه ركب يوماً في جيشه جميعه من الجن والإنس والطير ، فالجن والإنس يسيرون معه والطير سائرة معه تظله بأجنحتها من الحر وغيره ، وعلى كل من هذه الجيوش الثلاثة وزعة - أي نقابة - يردون أوله على آخره . فلا يتقدم أحد عن موضعه الذي يسير فيه ولا يتاخر عنه ، قال الله تعالى : ﴿حَقَّ إِذَا أَتَوْا عَلَىٰ وَإِذَا نَسَلَ قَاتَ نَمَلٌ يَتَأَيَّهَا النَّمَلُ أَذْهَلُوا مَسَكِنَكُمْ لَا يَمْطِعُنَّكُمْ شَيْئاً وَجُنُونُمْ وَهُرُّ لَا يَشْعُرُونَ﴾ فأمرت وحدرت واعتذررت عن سليمان وجندوه بعدم الشعور .

ومقصود أن سليمان عليه السلام فهم ما خاطبت به تلك النملة لأمته من الرأي السديد والأمر الحميد ، وترسم من ذلك على وجه الاستبشر ، والفرح والسرور بما أطلعه الله عليه دون غيره ، وليس كما يقوله بعض الجهلة من أن الدواب كانت تنطق قبل سليمان ، وتحاطب الناس حتى أخذ عليهم سليمان بن داود العهد وألجمها فلم تكلم مع الناس بعد ذلك ، فإن هذا لا ي قوله إلا الذين لا يعلمون ، ولو كان هذا هكذا لم يكن سليمان في فهم مقالها مزية على غيره ، إذ قد كان الناس كلهم يفهمون ذلك ، ولو كان قد أخذ عليها العهد لا تكلم مع غيره وكان هو يفهمها ، لم يكن هذا أيضاً فائدة يعول عليها ولهذا قال : ﴿رَبِّ أَزْعَاجِنِي﴾ أي : ألهمني وأرشدني ﴿أَنْ أَشْكُرُ يَعْمَلَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَلِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَلِحًا تَرْضَهُ وَأَذْخُلَنِي يَرْحَمِكَ فِي عِبَادَكَ الصَّالِحِينَ﴾ فطلب من الله أن يقيمه للشكر على ما أنعم به عليه وعلى ما خصه به من المزية على غيره ، وأن ييسر عليه العمل الصالح ، وأن يحشره إذا توفاه مع عباده الصالحين ، وقد استجاب الله تعالى له .

وقال الله تعالى : ﴿وَنَقَدَ أَطَيَرَ فَقَالَ مَالِكٌ لَا أَرَى الْمَذْهَدَ أَمْ كَانَ مِنَ الْكَافِرِ لَأُعْذِنَهُ﴾

عَذَابًا شَدِيدًا أَوْ لَا ذَبْحَةَ أَوْ لِيَأْتِيَنِي سُلْطَنٌ مُّبِينٌ ﴿١﴾ فَمَكَثَ عَيْرَ بَعِيدٍ فَقَالَ أَحَاطْتُ بِمَا لَمْ تُحْطِبْ يَهُ
وَجِئْتُكَ مِنْ سَيِّئَاتِنِي ﴿٢﴾ إِنِّي وَجَدْتُ أَمْرَأَةً تَنْلَكُهُمْ وَأُوْتِتَ مِنْ كُلِّ شَغْوٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ ﴿٣﴾
وَجَدْهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّيْءِ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَزَيْنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْنَاهُمْ فَصَدَهُمْ عَنِ السَّبِيلِ فَهُمْ لَا
يَهْتَدُونَ ﴿٤﴾ لَا يَسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي يَخْرُجُ الْحَبَّ، فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا مُحْفَوْنَ وَمَا تَعْلَمُونَ ﴿٥﴾ اللَّهُ لَا
إِلَهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ ﴿٦﴾ قَالَ سَنَنْتُرُ أَصَدَقَ أَمْ كُنْتَ مِنَ الْكَذَّابِينَ ﴿٧﴾ اذْهَبْ يَكْتُبِي
هَذَا فَأَفْلَغَهُ إِنَّهُمْ تَوَلَّ عَنْهُمْ فَأَنْظُرْنَاهُمْ إِذَا بَرَجُوْنَ ﴿٨﴾ قَالَتْ يَكْتُبُهَا الْمَلَوْأُ إِنِّي لَكَبِيرٌ كَبِيرٌ ﴿٩﴾ إِنَّهُ مِنْ
سُلَيْمَانَ وَلَيَهُ يَسِيرُ اللَّهُ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ ﴿١٠﴾ لَا أَعْلَمُ عَلَىٰ وَأَنْوَفُ مُسْلِمِينَ ﴿١١﴾ قَالَتْ يَكْتُبُهَا الْمَلَوْأُ أَفْتُوْنَ فِي أَمْرِي مَا
كُنْتُ فَأَطْلَعْتُهُ أَنَّ حَيَّتِنِي تَهْدُونَ ﴿١٢﴾ فَأَلَوْا عَنْهُمْ أَنْوَافُهُمْ وَأَلَوْا بَأْسَ شَدِيدًا وَالْأَنْزَلْتُكَ فَأَنْظُرْيَ مَا دَأَبْتُمْ ﴿١٣﴾ قَالَتْ
إِنَّ الشَّوْكَ إِذَا دَخَلُوا قَرْبَكَ أَصْدُوْهَا وَعَلَمُوا أَعْلَمَهَا أَوْلَهُ وَكَذَّاكَ يَفْكُلُوكُ ﴿١٤﴾ وَلَيَ مُرْسَلَةُ النَّهْرِ يَهْدِيْكُ
فَنَاطِرَةٌ يَمِّ يَرْجِعُ الْمَرْسَلُونَ ﴿١٥﴾ فَلَمَّا جَاءَهُ سُلَيْمَانَ قَالَ أَنْدُوْنِي بِمَالِ فَمَا تَأْتِيَنِي اللَّهُ خَيْرٌ مِّمَّا أَتَنْتُكُمْ بَلْ أَنْتُ
يَهْدِيْكُمْ تَفَرُّحُونَ ﴿١٦﴾ أَرْجِعُ إِلَيْتُمْ فَلَنْأَيْسَهُمْ يَخْتُوْرُ لَا قَبْلَ لَهُمْ بِهَا وَلَنَخْرُجَهُمْ مِّنْهَا إِذَلِهُمْ هُمْ صَرْعَوْنُ ﴿١٧﴾ [المل]:

٢٠ - [٣٧]

يذكر تعالى ما كان من أمر سليمان والهدهد ، وذلك أن الطيور كان على كل صنف منها مقدمون يقدمون بما يطلب منهم ، ويحضرون عنده بالتبوية ، كما هي عادة الجنود مع الملوك ، فلما تطلبه سليمان عليه السلام ذات يوم فقهه ولم يجده في موضعه من محل خدمته «فَقَالَ مَا لِي لَا أَرَى الْهَدْهَدَمْ كَانَ مِنَ الْكَافِرِ» أي: ما له مفقود من هاهنا ، أو قد غاب عن بصري فلا أراه بحضرتي «لَا عِذْشَةَ عَذَابًا شَدِيدًا» توعده بنوع من العذاب اختلف المفسرون فيه ، والمقصود حاصل على تقدير «أَوْ لَا ذَبْحَةَ أَوْ لِيَأْتِيَنِي سُلْطَنٌ مُّبِينٌ» أي: بحججة تنجيه من هذه الورطة.

قال الله تعالى: «فَمَكَثَ عَيْرَ بَعِيدٍ» أي: فغاب الهدهد غيبة ليست بطويلة ثم قدم منها «فَقَالَ» سليمان: «أَحَاطْتُ بِمَا لَمْ تُحْطِبْ يَهُ» أي: اطلع على ما لم تطلع عليه «وَجِئْتُكَ مِنْ سَيِّئَاتِنِي» أي: بخبر صادق «إِنِّي وَجَدْتُ أَمْرَأَةً تَنْلَكُهُمْ وَأُوْتِتَ مِنْ كُلِّ شَغْوٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ» يذكر ما كان عليه ملوك سبا في بلاد اليمن من المملكة العظيمة والتتابعة المتوجين ، وكان الملك قد آل في ذلك الزمان إلى امرأة منهم ابنة ملوكهم لم يخلف غيرها فملوكها عليهم.

وقال الشعبي: أخبرني أبو عبد الله بن قبحونة ، حدثنا أبو بكر بن حرجة ، حدثنا ابن أبي الليث ، حدثنا أبو كريب ، حدثنا أبو معاوية ، عن إسماعيل بن مسلم ، عن الحسن ، عن أبي بكرة ، قال: ذكرت بلقيس عند رسول الله ﷺ فقال: «لا يفلح قوم ولو أمراهم امرأة» إسماعيل بن مسلم هذا هو المكي الضعيف.

وقد ثبت في صحيح البخاري من حديث عوف ، عن الحسن ، عن أبي بكرة أن رسول الله لما بلغه أن أهل فارس ملكوا عليهم ابنة كسرى قال: «لن يفلح قوم ولو أمراهم امرأة». بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

ورواء الترمذى والنسائى من حديث حميد ، عن الحسن ، عن أبي بكرة ، عن النبي ﷺ بمثله وقال الترمذى : حسن صحيح . قوله : ﴿ وَأُوْتِتَ مِن كُلِّ شَيْءٍ ﴾ أي : مما من شأنه أن تؤتاه الملوك ﴿ وَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ ﴾ يعني : سرير مملكتها كان مزخرفاً بأنواع الجواهر واللالىء والذهب والحلب الباهر .

ثم ذكر كفراهم بالله ، وعبادتهم الشمس من دون الله ، وإضلال الشيطان لهم ، وصدده إياهم عن عبادة الله تعالى وحده لا شريك له ، الذي يخرج الخباء في السموات والأرض ويعلم ما يخفون وما يعلون ، أي يعلم السرائر والظواهر من المحسوسات والمعنيات : ﴿ أَللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ ﴾ أي : له العرش العظيم الذي لا أعظم منه في المخلوقات .

فبعد ذلك بعث سليمان عليه السلام كتاباً يتضمن دعوته لهم إلى طاعة الله وطاعة رسوله والإنباء والإذعان إلى الدخول في الخضوع لملكه وسلطانه ؛ ولهذا قال لهم : ﴿ أَلَا تَلْعَوْعَلَكُمْ ﴾ أي : لا تستكبروا عن طاعتي وامتثال أوامرِي ﴿ وَأَتُؤْنِي مُسْلِمِينَ ﴾ أي : وأقدموا على سامعين مطعين بلا معاودة ولا مراودة ، فلما جاءها الكتاب مع الطير - ومن ثم اتخد الناس البطائق - ولكن أين الثريا من الثرى ، تلك البطاقة كانت مع سائر سامع مطعيب فاهم عالم بما يقول ويقال له ، فذكر غير واحد من المفسرين وغيرهم أن الهدى حمل الكتاب وجاء إلى قصرها فألقاه إليها وهي في خلوة لها ثم وقف ناحية ينتظر ما يكون من جوابها عن كتابها ، فجمعت أمراءها وزراءها وأكابر دولتها إلى مشورتها ﴿ قَالَتْ بَنَائِهَا الْمَلَوْأُ إِنَّ أَنْقَى إِنْ كَيْنَ كَرْمٌ ﴾ ثم قرأت عليهم عنوانه أولاً ﴿ إِنَّمَا مِنْ سُلَيْمَانَ ﴾ ثم قرأت أنه : ﴿ وَإِنَّمَا يُسَيِّرُ اللَّهُ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ ﴾ ﴿ أَلَا تَلْعَوْعَلَكُمْ وَأَتُؤْنِي مُسْلِمِينَ ﴾ ثم شاروتهما في أمرها وما قد حل بها وتأدبت معهم وخطبتهما وهم يسمعون : ﴿ قَالَتْ بَنَائِهَا الْمَلَوْأُ أَقْتُوْفُ فِي أَمْرِي مَا كُنْتُ قَاطِعَةً أَلَّا حَتَّى تَشَهَّدُونَ ﴾ يعني : ما كنت لأبت أمراً إلا وأنتم حاضرون ﴿ قَالُوا نَحْنُ أُولَوْنَوْقَةٍ وَأُولَوْنَ بَأْسٍ شَدِيدٍ ﴾ يعنيون لنا قوة وقدرة على الجلا ووالقتال ومقاومة الأبطال ، فإن أردت منا ذلك فإننا عليه من القدارين ﴿ وَ ﴾ مع هذا ﴿ وَالْأَمْرُ إِلَيْكُ فَانظُرْ إِلَيْهَا مَاذَا تَأْمُرُنَّ ﴾ فيذلوا لها السمع والطاعة ، وأخبروها بما عندهم من الاستطاعة ، وفوضوا إليها في ذلك الأمر لترى فيه ما هو الأرشد لها ولهم .

فكان رأيها أتم وأشد من رأيهما ، وعلمت أن صاحب هذا الكتاب لا يغالب ولا يمانع ولا يخالف ولا يخادع ﴿ قَالَتْ إِنَّ الْمَلَوْأَ إِذَا دَخَلُوا قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوا أَغْرِيَاهُمْ أَدْلَهَ وَكَذَّلَكَ يَقْعُلُوْكُمْ ﴾ تقول برأيها السيد : إن هذا الملك لو قد غلب على هذه المملكة لم يخلص الأمر من بينكم إلا إلى ، ولم تكن الحدة والشدة والسيطرة البليغة إلا علىي ﴿ وَلِيَ مُرْسِلَةٌ إِلَيْهِمْ يَهْدِيَهُمْ فَنَاظَرَهُمْ يَمْرِجُ الْمُؤْسَوْنَ ﴾ أرادت أن تصانع عن نفسها ، وأهل مملكتها بهدبة ترسلها وتتحف بعثها . ولم تعلم أن سليمان عليه السلام لا يقبل منهم والحالة هذه صرفاً ولا عدلاً ، لأنهم كافرون ، وهو وجندوه عليهم قادرٌ .

ولهذا : ﴿ فَلَمَّا جَاءَ سُلَيْمَانَ قَالَ أَتَيْدُ وَتَنِّي بِمَا أَتَيْنَنَّهُ اللَّهُ خَيْرٌ مِمَّا أَتَنَاكُمْ بِلَأَنَّمَا يَهْدِيَكُمْ فَرَّوْنُونَ ﴾ هذا

وقد كانت تلك الهدايا مشتملة على أمور عظيمة ، ذكره المفسرون .

ثم قال لرسولها إليه ووافدها الذي قدم عليه والناس حاضرون يسمعون : ﴿أَنْجِعُ إِلَيْهِمْ فَلَنَانِتْهُمْ بِجُنُودِ لَا قَبَلَ لَهُمْ بِهَا وَلَنَخْرِجُهُمْ مِنْهَا أَذْلَهُ وَهُمْ صَفَرُونَ﴾ يقول : ارجع بهديتك التي قدمت بها إلى من قد من بها ، فإن عندي مما قد أنعم الله علي وأسداه إلى من الأموال والتحف والرجال ما هو أضعف هذا ، وخير من هذا الذي أنت تغرون به وتغدون على أبناء جنسكم بسيبه ﴿فَلَنَانِتْهُمْ بِجُنُودِ لَا قَبَلَ لَهُمْ بِهَا﴾ أي : فلأبعش إليهم بجند لا يستطيعون دفاعهم ولا نز لهم ولا ممانعتهم ولا قاتلهم ، ولآخر جنهم من بلادهم وحوزتهم ومعاملتهم ودولتهم أذلة ﴿وَهُمْ صَفَرُونَ﴾ عليهم الصغار والعار والدمار .

فلما بلغهم ذلك عن النبي الله لم يكن لهم بد من السمع والطاعة ، فبادروا إلى إجادته في تلك الساعة وأقبلوا صحبة الملكة أجمعين ساميدين مطاعين خاضعين . فلما سمع بقدومهم عليه ووفودهم إليه قال لمن بين يديه من هو مسخر له من الجان ما قصه الله عنه في القرآن : ﴿قَالَ يَكْتَبُهَا الْمَلَوْأُ أَكْثَرُمْ يَأْتِيَنِي بِعَيْنِهَا قَبْلَ أَنْ يَأْتُونِي مُسْلِمِينَ﴾ قال عفريت من الجن أنا عليك به ، قبل أن تؤم من مقاميك وإني عليه لقوى أمين ﴿قَالَ اللَّهُ أَعْلَمُ عَلَمْ مِنَ الْكِتَبِ أَنَا عَلَيْكَ بِهِ، قَبْلَ أَنْ يَرْتَدَ إِلَيْكَ طَرْفَكَ فَلَمَّا رَأَهُ مُسْتَقْرِرًا عَنْهُمْ قَالَ هَذَا مِنْ فَضْلِ رَبِّ الْبَلْوَةِ أَشْكُرُ أَكْثَرَمَ مِنْ شَكْرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِفَسِيهِ، وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّ عَيْنٍ كَرِيمٌ﴾ قال نكروا لها عرشها نظر أهنتون من الذين لا ينتدون ﴿فَلَمَّا جَاءَتْ قَبْلَ أَهْدَكَذَا عَرْشَكِي قَاتَتْ كَانَتْ هُوَ وَأَوْتَنَا الْعِلْمَ مِنْ قَبْلِهَا وَكَانُوا مُسْلِمِينَ﴾ وَصَدَّهَا مَا كَاتَتْ شَهِيدٌ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِلَيْهَا كَانَتْ مِنْ قَوْمٍ كَثِيرِينَ ﴿قَلَّ مَا آذَخَلَ أَصْرَحَ فَلَمَّا رَأَتْهُ حَسِبَتْهُ لَجَةً وَكَنَّتْ عَنْ سَاقِهَا قَالَ إِنَّهُ صَرْحٌ مُمَرَّدٌ مِنْ قَوَابِرِهِ قَالَتْ رَبِّ إِنِّي طَلَمْتُ نَفْسِي وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَنَ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [النمل : ٣٨ - ٤٤] .

لما طلب سليمان من الجن أن يحضروا له عرش بلقيس ، وهو سرير مملكتها التي تجلس عليه وقت حكمها ، قبل قدومها عليه ﴿قَالَ عَفْرِيتٌ مِنَ الْجِنِّ أَنَا عَلَيْكَ بِهِ، قَبْلَ أَنْ تَؤمَ مِنْ مَقَابِكِ﴾ يعني : قبل أن ينقضى مجلس حكمك ، وكان فيما يقال من أول النهار إلى قرب الزوال يتصدى لمهامات بني إسرائيل وما لهم من الأشغال ﴿وَإِنِّي لَهُ لَقَوْيٌ أَمِينٌ﴾ أي : وإنني لذو قدرة على إحضاره إليه وأمانة على ما فيه من الجواهر النفيسة لديك ﴿قَالَ اللَّهُ أَعْلَمُ عَنْهُ مِنَ الْكِتَبِ﴾ وقيل : هو رجل من مؤمني الجن ، أو جبريل : ﴿أَنَا عَلَيْكَ بِهِ، قَبْلَ أَنْ يَرْتَدَ إِلَيْكَ طَرْفَكَ﴾ قيل : معناه قبل أن تبعث رسولا إلى أقصى ما ينتهي إليك طرفك من الأرض ثم يعود إليك . وقيل : قبل أن يصل إليك أبعد من تراه الناس . وقيل : قبل أن يكل طرفك إذا أدمنت النظر به ، قبل أن تطبق جفنك . وقيل : قبل أن يرجع إليك طرفك إذا نظرت به إلى أبعد غاية منك ثم أغمضته . وهذا أقرب ما قيل .

﴿فَلَمَّا رَأَهُ مُسْتَقْرِرًا عَنْهُمْ﴾ أي : فلما رأى عرش بلقيس مستقراً عنده في هذه المدة القريبة من بلاد اليمن إلى بيت المقدس في طرفة عين ﴿قَالَ هَذَا مِنْ فَضْلِ رَبِّ الْبَلْوَةِ أَشْكُرُ أَكْثَرَمَ أَكْفَرَ﴾ أي : هذا من فضل الله علي ، وفضله على عبيده ، ليختبرهم على الشكر أو خلافه ﴿وَمَنْ شَكَرَ فَإِنَّمَا

يشكرُ لغشيهِ ﴿أَيْ: إِنَّمَا يَعُودْ نفعَ ذَلِكَ عَلَيْهِ﴾ وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ رَبَّهُ غَنِيمٌ كَرِيمٌ﴾ أي: غني عن شكر الشاكرين ، ولا يتضرر بـكفر الكافرين .

ثم أمر سليمان عليه السلام أن يغير حلي هذا العرش ، وينكر لها ليختبر فهمها وعقلها ، ولهذا قال :

﴿تَنْظُرْ أَنْهَدِي أَمْ تَكُونُ مِنَ الظَّالِمِينَ لَا يَهْتَدُونَ﴾ فَلَمَّا جَاءَتْ قِلَّةً هُوَ ﴿وَهَذَا مِنْ فَطْنَتِهِ وَغَزَارَةِ فَهْمِهِ ، لَأَنَّهَا اسْتَبَدَتْ أَنْ يَكُونَ عَرْشُكَ أَنْتَ هُوَ﴾ وهذا من ولم تكن تعلم أن أحداً يقدر على هذا الصنع العجيب الغريب ، قال الله تعالى إنـجـارـاً عن سليمان وقومه : «وَأَوْتـيـنا الـعـلـمـاـنـا مـنـ قـبـلـهـا وـكـانـا مـسـلـيـمـاـنـا وـصـدـقـهـا مـاـ كـانـتـ تـعـدـهـا مـنـ دـوـنـ اللـهـ إـنـهـا كـانـتـ مـنـ فـوـقـهـا كـفـرـيـنـا» أي: ومنعها عبادة الشمس التي كانت تسجد لها هي وقومها من دون الله اتباعاً للدين آباءـهـمـ وـأـسـلـافـهـمـ ، لا لـدـلـيلـ قـادـهـمـ إـلـىـ ذـلـكـ وـلـاـ جـادـلـهـمـ عـلـىـ ذـلـكـ .

وكان سليمان قد أمر ببناء صرح من زجاج وعمل في ممره ماء ، وجعل عليه سقفاً من زجاج ، وجعل فيه السمك وغيرها من دواب الماء ، وأمرت بدخول الصرح وسليمانجالـسـ على سريره فيه ﴿فَلَمَّا رَأَتْهُ حِبْنَتْهُ لُجَّةً وَكَثَفَتْ عَنْ سَاقِيَهَا قَالَ إِنَّمَا صَرْحٌ مُمَرَّدٌ مِنْ قَوَابِرٍ قَالَتْ رَبِّي إِلَيْكَ طَلَمْتُ فَسَرَّى وَأَشَمَّتُ مَعَ شَلِيمَنَ لِلَّهِ وَرِبِّ الْعَالَمِينَ﴾ .

وقال تعالى في سورة ص: ﴿وَوَهَبْنَا لِدَاؤِدَ سَلِيمَنَ زَعْمَ الْعَبْدِ إِنَّهُ أَوَّلُهُ إِذْ عَرَضَ عَلَيْهِ بِالْعَيْنِ الْأَصْنَافَتُ الْجَيَادُ﴾ فَقَالَ إِلَيْهِ أَحْبَبْتُ حَبَّ الْحَيَّرِ عَنْ ذِكْرِ رَبِّي حَتَّى تَوَرَّطَ بِالْحِجَابِ رُدُوهَا عَلَى فَطْفَقَ مَسْطَحًا بِالْسُّوقِ وَالْأَغْنَافِ وَلَقَدْ فَتَنَّا سَلِيمَنَ وَأَقْبَلَنَا عَلَى كُرْسِيِهِ جَسَدَأَمَّا أَنَابَ﴾ قَالَ رَبِّي أَغْفَرْ لِي وَهَبْ لِي مُلْكًا لَا يَبْغِي لِأَحَدٍ مِنْ بَعْدِي إِنَّكَ أَنْتَ الرَّوَاهُ﴾ فَسَعَرَنَا لَهُ الْأَرْيحُ بَجْرِي بِأَمْرِهِ رُؤْلَهُ حَيْثُ أَصَابَ وَالشَّيَطِينُ كُلُّ بَنَاءً وَغَوَّاصًا وَآخَرِينَ مُفَرَّيْنَ فِي الْأَصْفَادِ هَذَا عَطَافُنَا فَانْمَلَّ أَوْ أَنْسَكَ يَعْتَرِ حَسَابَ وَحَسْنَ مَنَابِ﴾ [ص: ٤٠ - ٣٠] .

يدركـيـ تعالى أنه وهب لـداودـ سـلـيمـانـ عـلـيـهـماـ السـلامـ ، ثم أـثـنـيـ اللهـ تـعـالـيـ عـلـىـهـ فقالـ: ﴿تَقْمَ الْعَبْدِ إِنَّهُ أَوَّلُهُ﴾ أي: رجاع مطيع الله ، ثم ذكر تعالى ما كان من أمره في الخيل ﴿الْأَصْنَافَتُ﴾ وهي التي تقف على ثلاثة وطرف حافر الرابعة ، ﴿الْجَيَادُ﴾ وهي المضمرة السراع .

﴿فَقَالَ إِلَيْهِ أَحْبَبْتُ حَبَّ الْحَيَّرِ عَنْ ذِكْرِ رَبِّي حَتَّى تَوَرَّطَ بِالْحِجَابِ﴾ يعني: الشمس . وقيل: الخيل على ما سـنـذـكـرـهـ مـنـ القـولـينـ رُدُوهـاـ عـلـىـ فـطـفـقـ مـسـطـحـ بـالـسـوقـ وـالـأـغـنـافـ قـيلـ: مـسـحـ عـرـاقـيـهـاـ وـأـعـنـاقـهـ بـالـسـيـوـفـ . وـقـيلـ: مـسـحـ عـنـهـاـ عـرـقـاـهـاـ لـمـ أـجـرـاـهـاـ وـسـابـقـ بـيـنـهـاـ بـيـنـ يـدـيـهـ عـلـىـ القـولـ الآخـرـ .

والـذـيـ عـلـيـهـ أـكـثـرـ السـلـفـ الـأـوـلـ ، فـقـالـواـ: اـشـتـغلـ بـعـرـضـ تـلـكـ الـخـيـولـ حـتـىـ خـرـجـ وـقـتـ الـعـصـرـ وـغـرـبـتـ الشـمـسـ . وـرـوـيـ هـذـاـ عـنـ أـبـيـ طـالـبـ وـغـيـرـهـ . وـالـذـيـ يـقـطـعـ بـهـ أـنـ لمـ يـتـرـكـ الـصـلـاـةـ عـمـدـاـ مـنـ غـيـرـ عـذـرـ ، اللـهـمـ إـلـاـ أـنـ يـقـالـ إـنـهـ كـانـ سـائـغاـ فـيـ شـرـيعـتـهـ ، فـأـخـرـ الـصـلـاـةـ لـأـجـلـ أـسـبـابـ الـجـهـادـ وـعـرـضـ الـخـيـلـ مـنـ ذـلـكـ .

وأما من قال: الضمير في قوله: «**حَتَّى تَوَارِثْ بِالْجَابِ**» عائد على الخيل ، وأنه لم ينته وقت الصلاة وأن المراد بقوله: «**رُوْهَا عَلَى فَطْنَقَ مَسْطَحًا بِالسُّوقِ وَالْأَعْتَاقِ**» يعني: مسح العرق عن عراقيبها وأعنقتها ، فهذا القول اختاره ابن جرير ، ورواه الوالي عن ابن عباس في مسح العرق . ووجه هذا القول ابن جرير بأنه ما كان ليذهب الحيوان بالعرقة ، وبهلك مالا بلا سبب ولا ذنب لها ، وهذا الذي قاله فيه نظر لأنه قد يكون هذا سائغاً في ملتهم ، وقد ذهب بعض علمائنا إلى أنه إذا خاف المسلمين أن يظفر الكفار على شيء من الحيوانات من أغذام ونحوها جاز ذبحها وإهلاكها لئلا يتقووا بها ، وعليه حمل صنيع جعفر بن أبي طالب يوم عقر فرسه بمؤته . وقد قيل: إنها كانت خيلاً عظيمة .

وقوله تعالى: «**وَلَقَدْ فَتَنَّا إِيمَانَنَا عَلَى كُرْسِيهِ حَكَمَّاً ثُمَّ أَنَّابَ**». ذكر ابن جرير وابن أبي حاتم وغيرهما من المفسرين هاهنا آثاراً كثيرة عن جماعة من السلف ، وأكثرها أو كلها متلقة من الإسرائييليات ، وفي كثير منها نكارة شديدة ، وقد نبهنا على ذلك في كتابنا التفسير واقتصرنا هاهنا على مجرد التلاوة .

ومضمون ما ذكره أن سليمان عليه السلام غاب عن سريره أربعين يوماً ثم عاد إليه ، ولما عاد أمر ببناء بيت المقدس فبناء بناء محكماً ، وقد قدمنا أنه جده ، وأن أول من جعله مسجداً إسرائيل عليه السلام ، كما ذكرنا ذلك عند قول أبي ذر ، قلت: يا رسول الله أي مسجد وضع أولاً؟ قال: «المسجد الحرام» قلت: ثم أي؟ قال: «مسجد بيت المقدس» ، قلت: كم بينهما؟ قال: «أربعون سنة».

وأما الحكم الذي يوافق حكم الله تعالى فقد أثني الله تعالى عليه وعلى أبيه في قوله: «**وَدَاؤَدَ وَسُلَيْمَانَ إِذْ يَحْكُمُ كُلَّاً فِي الْأَرْضِ إِذْ نَفَشَتْ فِيهِ غَنْمُ الْقَوْمِ وَكُلَّاً لَكِهِمْ شَهِيدِينَ**» فَفَهَمْنَاهَا سُلَيْمَانَ وَكُلَّاً أَيْتَاهُ كُلَّاً وَعِلْمَانَا» وقد ذكر شريح القاضي وغير واحد من السلف أن هؤلاء القوم كان لهم كرم فنفشت فيه غنم قوم آخرين ، أي: رعته بالليل فأكلت شجره بالكلية ، فتحاكموا إلى داود عليه السلام فحكم لأصحاب الكرم بقيمتها ، فلما خرجوا على سليمان قال: بم حكم لك نبي الله؟ فقالوا: بكتنا وكذا ، فقال: أما لو كنت أنا لما حكمت إلا يتسليم الغنم إلى أصحاب الكرم فيستغلونها نتاجاً ودرأً حتى يصلح أصحاب الغنم كرم أولئك ويردوه إلى ما كان عليه ، ثم يتسلموا غنهم ، فبلغ داود عليه السلام ذلك فحكم به .

و قريب من هذا ما ثبت في الصحيحين من حديث أبي الزناد ، عن الأعرج ، عن أبي هريرة قال: قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «بينما أمرأتان معهما ابنتهما إذ عدا الذئب فأخذ ابن إحداهما فتنازعتا في الآخر فقالت الكبرى: إنما ذهب بابنك . وقالت الصغرى: بيل إنما ذهب بابنك . فتحاكمتا إلى داود فحكم به للكبرى ، فخرجتا على سليمان فقال: أتوني بالسكن أشقة نصفين لكل واحدة منكمما نصفه . فقالت الصغرى: يرحمك الله هو ابنها . فقضى به لها» . (البخاري / ح ٣٤٢٧)

ولعل كل من الحكمين كان ساعغاً في شريعتهم ، ولكن ما قاله سليمان أرجح ، ولهذا أثني الله عليه بما ألهمه إياه بعد ذلك فقال : ﴿ وَكُلًاً أَيْنَا حَكِيمًا وَعَلَيْنَا سَخْرَنَا مَعَ دَاؤِدَ الْجِبَالِ يُسَيِّحُونَ وَالْطَّيرُ وَكُنَّا فَنِعِيلِينَ ﴾ ^{٧٦} وَعَلَمْنَاهُ صَنْعَةَ لَبُوْسِ لَكُمْ لِتُخْصِنُكُمْ مِنْ بَاسِكُمْ فَهَلْ أَتْمَ شَكِرُونَ ﴾ .

ثم قال : ﴿ وَلِسُلَيْمَنَ الرَّبِيعَ عَاصِفَةً ﴾ أي : وسخرنا لسليمان الريح عاصفة ﴿ تَحْرِي يَأْمُرِهِ إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي بَرَكَنَا فِيهَا وَكُنَّا بِكُلِّ شَيْءٍ عَلَيْنَا ﴾ ^{١١} وَمِنَ الشَّيَاطِينِ مَنْ يَغُصُّونَ لَهُ وَيَعْمَلُونَ عَمَلًا دُونَ ذَلِكَ وَكُنَّا لَهُمْ حَفَظِينَ ﴾ وقال في سورة ص : ﴿ فَسَخَّرَنَا لَهُ الرَّبِيعَ تَحْرِي يَأْمُرِهِ رُعَاءَهُ حِبْطَ أَصَابَ ﴾ ^{١٢} وَالشَّيَاطِينَ كُلَّ بَنَاءٍ وَعَوَاصِرٍ ^{١٣} وَآخَرِينَ مُفَرِّينَ فِي الْأَصْفَادِ ^{١٤} هَذَا عَطَّلَنَا فَامْتَنَّ أَوْ أَنْسَكَ يَعْنِي حِسَابٌ ^{١٥} وَإِنَّ لَهُ عِنْدَنَا لِرُقْبِي وَجْهَنَّمَ مَأْبِي ﴾ .

لما ترك الخيل ابتلاء وجه الله عوضه الله منها الريح التي هي أسرع سيراً وأقوى وأعظم ولا كلفة عليه لها ﴿ تَحْرِي يَأْمُرِهِ رُعَاءَهُ حِبْطَ أَصَابَ ﴾ أي : حيث أراد من أي البلاد . قال تعالى : ﴿ وَلِسُلَيْمَنَ الرَّبِيعَ عَدُوُّهَا شَهْرٌ وَوَاحِدًا شَهْرٌ وَأَسْلَنَا لَهُ عَيْنَ الْقَطْرِ وَمِنَ الْجِنِّ مَنْ يَعْمَلُ بَيْنَ يَدَيْهِ يَادِنَ رَبِيعٍ وَمَنْ يَرْعِي مِنْهُمْ عَنْ أَمْرِنَا نُذْقِهِ مِنْ عَذَابِ السَّعِيرِ ﴾ ^{١٦} يَعْمَلُونَ لَهُ مَا يَشَاءُ مِنْ حَكَرِيَ وَتَمَثِيلَ وَجْهَانِ كَلْبَوَابٍ وَقُدُورِ رَاسِبَتٍ أَعْمَلُوا إَلَى دَاؤِدَ شَكَرٌ وَقَلْلٌ مِنْ عَيْدَى الشَّكُورُ ﴾ [سبأ: ١٢ - ١٣]

وقوله : ﴿ وَمِنَ الْجِنِّ مَنْ يَعْمَلُ بَيْنَ يَدَيْهِ يَادِنَ رَبِيعٍ وَمَنْ يَرْعِي مِنْهُمْ عَنْ أَمْرِنَا نُذْقِهِ مِنْ عَذَابِ السَّعِيرِ ﴾ أي : وسخر الله له من الجن عملاً يعملون له ما يشاء لا يفترون ولا يخرجون عن طاعته ومن خرج منهم عن الأمر عذبه ونكل به ﴿ يَعْمَلُونَ لَهُ مَا يَشَاءُ مِنْ حَكَرِيَ ﴾ وهي الأماكن الحسنة وصدور المجالس ﴿ وَتَمَثِيلَ ﴾ وهي الصور في الجدران ، وكان هذا ساعغاً في شريعتهم وملتهم ﴿ وَجْهَانِ كَلْبَوَابٍ ﴾ قال ابن عباس : الجفنة كالجوبة من الأرض ، وعنه كالحياض . وكذا قال مجاهد والحسن وقتادة والضحاك وغيرهم . وعلى هذه الرواية يكون الجواب جمع جایة وهي الحوض الذي يجبي فيه الماء .

وأما القدور الراسيات فقال عكرمة : أثافيتها منها ، يعني : أنهن ثوابت لا يزلن عن أماكنهن ، وهكذا قال مجاهد وغير واحد . ولما كان هذا بقصد إطعام الطعام والإحسان إلى الخلق من إنسان وحيوان قال تعالى : ﴿ أَعْمَلُوا إَلَى دَاؤِدَ شَكَرٌ وَقَلْلٌ مِنْ عَيْدَى الشَّكُورُ ﴾ وقال تعالى : ﴿ وَالشَّيَاطِينَ كُلَّ بَنَاءٍ وَعَوَاصِرٍ ^{١٧} وَآخَرِينَ مُفَرِّينَ فِي الْأَصْفَادِ ﴾ أي : قد عصوا فقيدوا مقرنين اثنين اثنين في الأصفاد وهي القيود ، وهذا كله من جملة ما هياه الله وسخر له من الأشياء التي هي من تمام الملك ؛ الذي لا ينبغي لأحد من بعده ، ولم يكن أيضاً لمن كان قبله .

وقد قال البخاري : حدثنا محمد بن بشار ، حدثنا محمد بن جعفر ، حدثنا شعبة ، عن محمد بن زياد ، عن أبي هريرة ، عن النبي ﷺ قال : « إن عفريتاً من الجن تفلت على البارحة ليقطع على صلاتي فأمكنتني الله منه فأخذته فأردت أن أربطه إلى سارية من سوراري المسجد =

حتى تنظروا إليه كلكم فذكرت دعوة أخي سليمان: «رَبِّ أَغْفِرْ لِي وَهَبْ لِي مُلْكًا لَا يَنْبَغِي لِأَحَدٍ مِنْ بَعْدِي» فرددته خاسئًا وكذا رواه مسلم والنسائي من حديث شعبة [انظر صحيح البخاري / ٣٤٢٣].

وقال مسلم: حدثنا محمد بن سلمة المرادي ، حدثنا عبد الله بن وهب ، عن معاوية بن صالح ، حدثني ربيعة بن يزيد ، عن أبي إدريس الخوارزمي عن أبي الدرداء قال: قام رسول الله ﷺ يصلي فسمعناه يقول: «أعوذ بالله منك ألعنك بلعنة الله» ثلاثاً ، وبسط يده كأنه يتناول شيئاً ، فلما فرغ من الصلاة قلت: يا رسول الله قد سمعناك تقول في الصلاة شيئاً لم نسمعك تقوله قبل ذلك ، ورأيناك بسطت يدك قال: «إن عدو الله إبليس جاء بشهاب من نار ليجعله في وجهي فقلت: أعوذ بالله منك ثلاث مرات ، ثم قلت: ألعنك بلعنة الله التامة ، فلم يستأخر ثلث مرات ، ثم أردت أحده ، والله لو لا دعوة أخينا سليمان لأصبح موئلاً يلعب به ولدان أهل المدينة» [انظر صحيح مسلم / كتاب المساجد ومواضع الصلاة / ٤٠ / ٢].

وقال أحمد: حدثنا أبو أحمد ، حدثنا مرة بن معبد ، حدثنا أبو عبيد حاتم سليمان ، قال: رأيت عطاء بن يزيد الليثي قائماً يصلي ، فذهبت أمر بين يديه فرندي ثم قال: حدثني أبو سعيد الخدري أن رسول الله ﷺ قام فصل صلاة الصبح وهو خلفه فقرأ فالتبست عليه القراءة. فلما فرغ من صلاته قال: «لو رأيتمني وإبليس فأهويت بيدي فما زلت أختنه حتى وجدت برد لعابه بين أصبعي هاتين الإبهام والتي تلتها ، ولو لا دعوة أخي سليمان لأصبح مربوطاً بسارية من سورى المسجد يتلاعب به صبيان المدينة ، فمن استطاع منكم ألا يحول بيته وبين القبلة أحد فليفعل». روى أبو داود منه: «فمن استطاع» إلى آخره عن أحمد بن سريج ، عن أحمد الزبيري به [مسند أحمد / ١١٧٨٠] وسنن أبي داود / ح ٦٩٩.

نَبِيُّ اللَّهِ رَّزَكَرِيَا
عَلَيْهِ السَّلَامُ

قال الحافظ ابن كثير رحمه الله تعالى:
[قصة زكريا ويعيسي عليهما السلام]:

قال الله تعالى في كتابه العزيز: بسم الله الرحمن الرحيم: «كَهِيَعَصْ ذَكْرُ رَحْمَتِ رَبِّكَ عَبْدَمْ زَكَرِيَا إِذْ نَادَى رَبَّهُ نِدَاءَ حَفْيَاتِ قَالَ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ الظُّلْمُ مِنِّي وَأَشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْبَارَلَمْ أَكُنْ يَدْعَلِكَ رَبِّ شَقِيَّا وَإِنِّي خَفَثَ الْمَوَالِيَ مِنْ وَرَاءِي وَكَانَتْ أَمْرَأَنِي عَاقِرًا فَهَبْ لِي مِنْ لَدُنِكَ رَبِّكَ بِرَتْنِي وَبِرَثَ مِنْ مَالِي يَعْقُوبَ وَاجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيَّا يَزَكَرِيَا إِنَّا بَشَرُوكَ بِعَلَمِ أَسْمُهُ يَخْيَنَ لَمْ يَجْعَلْ لَهُ مِنْ قَبْلِ سَمِيَّا قَالَ رَبِّ أَنَّ يَكُونُ لِي غَلْمَ وَكَانَتْ أَمْرَأَنِي عَاقِرًا وَفَدَ بَلَغَتْ مِنَ الْكِبِيرِ عَيْنِي قَالَ كَذَلِكَ قَالَ رَبِّكَ هُوَ عَلَيَّ هَيْنَ وَقَدْ خَلَقْتَكَ مِنْ قَبْلُ وَلَمْ تَكْ شَيْنَا قَالَ رَبِّ أَنْجَعَكَ لِي مَا يَأْتِكَ أَلَا تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلَاثَ لِيَالٍ سَوِيَّا فَخَرَجَ عَلَى قَوْمِهِ مِنْ

الْمُحَرَّابِ فَأَوْحَى إِلَيْهِ أَنْ سَيَّحُوا بِكُرَّةً وَعَشِيَّاً [١] يَبِيَحِيَ حَدَّ الْكِتَابِ يُقُوَّةً وَإِيْسَهُ الْحَكْمَ صِبَّاً [٢] وَحَانَاهَا مِنْ لَدُنَّا وَرَكْوَةً وَكَانَ تَقْيَّاً [٣] وَبَرَّا بِوَلَدِيهِ وَلَرَّا يَكْنُ جَبَارًا عَصِيَّاً [٤] وَسَلَمُ عَلَيْهِ يَوْمَ وُلْدَهُ وَيَوْمَ يَمُوتُ وَيَوْمَ يَعُثُّ حَيَاً» [مريم: ١ - ١٥].

وقال تعالى: «وَكَفَلَهَا زَكِيرِيَاً كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهِمَا زَكِيرِيَاً الْمُحَرَّابَ وَجَدَ عِنْدَهَا رِتْفًا قَالَ يَنْهِمُ أَنْ لَكَ هَذَا قَالَتْ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مِنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ [٥] هُنَالِكَ دَعَازَكَرِيَّا رَبِّهِ قَالَ رَبِّهِ هَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ دُرْبَيَّ طَبِيَّةً إِنَّكَ سَيْمَعُ الدُّعَاءَ [٦] فَنَادَهُ أَمْلَاتِكَهُ وَهُوَ قَائِمٌ يُصْلِي فِي الْمُحَرَّابِ أَنَّ اللَّهَ يُشَرِّكُ بِيَعْنَى مُصَدِّقًا يُكْلِمَةً مِنْ اللَّهِ وَسَيِّدِنَا وَحَصُورًا وَبَيْتًا مِنَ الْمُصَدِّقِينَ [٧] قَالَ رَبِّهِ أَنَّ يَكُونُ إِلَيْهِ مُؤْمِنًا فَقَدْ بَلَغَنِي الْكَبَرُ وَأَمْرَأَيْنِي عَاقِرًا قَالَ كَذَلِكَ اللَّهُ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ [٨] قَالَ رَبِّهِ أَجْعَلْنِي إِلَيْهِ مُؤْمِنًا قَالَ إِيَّاكَ لَا تُكَلِّمَ النَّاسَ تَلَكَّهَ أَيَّامٌ إِلَّا رَمَّا وَادِكُرْ رَبِّكَ كَثِيرًا وَسَيْمَعُ بِالْعَنْيِ وَالْإِنْكَرِ» [آل عمران: ٣٧ - ٤١].

وقال تعالى في سورة الأنبياء: «وَرَكَرِيَاً إِذَا نَادَى رَبَّهُ رَبَّهُ لَا تَذَرِّنِي فَرَزْدَا وَأَنَّتْ خَيْرُ الْوَرَثَيْنِ [٩] فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَهَبْنَا لَهُ يَحِيفَ وَأَصْلَحْنَا لَهُ زَوْجَهُ إِنَّهُمْ كَانُوا يُسْرِعُونَ فِي الْخَيْرَتِ وَيَدْعُونَنَا رَغْبًا وَرَهْبًا وَكَانُوا أَخْشَعِينَ» [الأنبياء: ٨٩ - ٩٠].

وقال تعالى: «وَزَكِيرِيَاً وَيَحِيفَ وَعِيسَى وَإِيَّاسَ كُلُّمَا مِنَ الْمُصَدِّقِينَ» [الأعراف: ٨٥].

والملخص أن الله تعالى أمر رسوله ﷺ أن يقص على الناس خبر زكريا عليه السلام وما كان من أمره حين وفاته ولذا على الكبير ، وكانت امرأته مع ذلك عاقراً في حال شبيبتها قد أنسنت أيضاً ، حتى لا يأس أحد من فضل الله ورحمته ولا يقطن من فضله تعالى: « ذَكْرُ رَحْمَتِ رَبِّكَ عَبْدُهُ رَكَرِيَاً [١] إِذَا نَادَى رَبَّهُ نَدَاءَ حَقِيقَةً » قال قتادة عند تفسيرها: إن الله يعلم القلب النقى ويسمع الصوت الخفى ، وقال بعض السلف: قام من الليل فنادى ربه مناداة أسرها عنمن كان حاضراً عنده مخافتة فقال: يا رب يا رب يا رب . فقال الله: ليك ليك ليك . « قَالَ رَبِّهِ إِنِّي وَهَنَ الظُّمُرُّ مِنِّي » أي: ضعف وخار من الكبر « وَأَشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَكِيَّاً » استعراء من اشتعال النار في الحطب ، أي: غلب على سواد الشعر شيبة ، قوله: « وَلَمْ أَكُنْ يُدْعَأَبِكَ رَبِّ شَيْقَيَاً » أي: ما عودتنى فيما أسألك إلا الإجابة وكان الباعث له على هذه المسألة أنه لما كفل مريم بنت عمران وكان كلما دخل عليها محرابها وجد عندها فاكهة في غير إيانها ولا في أوانها وهذه من كرامات الأولياء ، فعلم أن الرزاق للشيء في غير أوانه قادر على أن يرزقه ولذا وإن كان قد طعن في سنه « هُنَالِكَ دَعَازَكَرِيَّا رَبِّهِ قَالَ رَبِّهِ هَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ دُرْبَيَّ طَبِيَّةً إِنَّكَ سَيْمَعُ الدُّعَاءَ » قوله: « وَإِنِّي خَفْتُ الْمَوْلَى مِنْ وَرَاءِي وَكَانَتْ أَمْرَأَيْنِي عَاقِرَأً » قيل: المراد بالموالي العصبة ، وكأنه خاف من تصرفهم بعده فيبني إسرائيل بما لا يوافق شرع الله وطاعته فسأل وجود ولد من صلبه يكون برآ تقىاً مرضياً ولهذا قال: « فَهَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ » أي: من عندك بحولك وقوتك « وَلَيْتَ [١٠] رَبِّي شَيْئَيَاً » أي: في النبوة والحكم فيبني إسرائيل « وَبَرِثْ مِنْ إِلَيْكَ يَعْقُوبَ وَأَجْعَكْلَهُ رَبِّي رَضِيَّاً » يعني: كما كان آباًه وأسلافه من ذرية يعقوب أنبياء فاجعله مثلهم في الكرامة التي أكرمتهم بها من النبوة والوحى ، وليس المراد =

ها هنا وراثة المال كما زعم ذلك من زعمه من الشيعة ووافقهم ابن جرير هاهنا وحكاه عن

أبي صالح من السلف ، لوجوهه :

أحدها : ما قدمناه عند قوله تعالى : ﴿ وَرِثَتْ سُلَيْمَانَ دَاؤِدَّ﴾ أي : في النبوة والملك لما ذكرنا في الحديث المتفق عليه بين علماء المواريث في الصحاح والمسانيد والسنن وغيرها من طرق عن جماعة من الصحابة أن رسول الله ﷺ قال : « لا نورث ما تركنا فهو صدقة » [صحيح البخاري / ٦٧٢١] نص على أن رسول الله ﷺ لا يورث ، ولهذا من الصديق أن يصرف ما كان يختص به في حياته إلى أحد من ورثته الذين لو لا هذا النص لصرف إليهم ، وهم ابنته فاطمة وأزواجه التسع وعمه العباس رضي الله عنهم ، واحتج عليهم الصديق في منعه إياهم بهذا الحديث ، وقد وافقه على روايته عن رسول الله ﷺ عمر بن الخطاب وعثمان بن عفان وعلي بن أبي طالب والعباس بن عبد المطلب وعبد الرحمن بن عوف وطلحة والزبير وأبو هريرة وأخرون رضي الله عنهم .

والثاني : أن الترمذى رواه بلفظ يعم سائر الأنبياء : « نحن معاشر الأنبياء لا نورث » وصححه . الثالث : أن الدنيا كانت أحرى عند الأنبياء من أن يكتنوا لها أو يلتقطوا إليها أو يهتموا أمرها حتى يسألوا الأولاد ليحوزوها بعدهم ، فإن من لا يصل إلى قريب من منازلهم في الزهادة لا يهتم بهذا المقدار أن يسأل ولداً يكون وارثاً له فيها .

الرابع : أن زكريا عليه السلام كان نجاراً يعمل بيده ويأكل من كسبها ، كما كان داود عليه السلام يأكل من كسب يده ، والغالب ولا سيما من مثل حال الأنبياء أنه لا يجهد نفسه في العمل إجهاضاً يستفضل منه مالاً يكون ذخيرة له ولم يخلفه من بعده . وهذا أمر بين واضح لكل من تأمله وتدبّره وتفهمه إن شاء الله .

قال الإمام أحمد : حدثنا يزيد ، يعني : ابن هارون ، أبناؤنا حماد بن سلمة ، عن ثابت ، عن أبي رافع ، عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال : « كان زكريا نجاراً » وهكذا رواه مسلم وابن ماجه من غير وجه ، عن حماد بن سلمة به [مسلم / ح ٢٣٧٩] و[أحمد / ح ١٧٩٥٢] .

وقوله : ﴿ فَنَادَهُ الْمَلَائِكَةُ وَهُوَ قَائِمٌ يَصْكِلُ فِي الْمَحَرَابِ أَنَّ اللَّهَ يُشَرِّكُ يَعْجِي مُصَدِّقاً بِكَلْمَةٍ مِّنْ أَنَّ اللَّهَ وَسَيِّدَا وَحَصُورَا وَنَبِيِّاً مِّنَ الصَّابِرِينَ﴾ [آل عمران : ٣٩] .

فلما بشر بالولد وتحقق الشارة شرع يستعلم على وجه التعجب وجود الولد له والحالة هذه ﴿ قَالَ رَبِّي أَنِّي يَكُونُ لِي عَلَمٌ وَكَانَتِ امْرَأَيْ عَاقِرًا وَقَدْ بَلَغَتْ مِنَ الْكِبَرِ عِتِيَّا﴾ أي : كيف يوجد ولد من شيخ كبير ، ﴿ وَكَانَتِ امْرَأَيْ عَاقِرًا﴾ يعني : وقد كانت امرأة في حال شبيتها عاقراً لا تلد ، والله أعلم .

كما قال الخليل : ﴿ أَشْرَتُمُونِي عَلَى أَنَّ مَسِيَّ الْكِبَرِ فِيمَ بَشَرُونَ﴾ وقالت سارة : ﴿ يَنَوِّلُنِي أَلَدُ وَأَنَا عَجُورٌ وَهَذَا بَعْلِي سَيِّحًا إِنَّ هَذَا لَئِنَّهُ عَجِيبٌ ﴾ قالواً أَنْعَجِينَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ رَحْمَتِ اللَّهِ وَرِزْكِنِي عَلَيْكُمْ

أَهْلُ الْبَيْتِ إِنَّهُ حَيْدُ مَجِيدٌ ﴿فَلَمَّا ذَهَبَ عَنْ إِنْزَهِمُ الرَّوْعُ وَجَاءَهُمُ الْبَشَرَى يُجَدِّلُنَا فِي قَوْمٍ لُّوطٍ﴾ [هود: ٢٧٤ - ٧٧٢]

وهكذا أجب زكرياء عليه السلام ، قال له الملك الذي يوحى إليه بأمر ربه : « كذلِكَ قالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَىٰ هَيْنَ » أي : هذا سهل يسيراً عليه « وَقَدْ خَلَقْتَكَ مِنْ قَبْلٍ وَلَمْ تَكُ شَيْئًا » أي : قدرته أوجدتك بعد أن لم تكن شيئاً مذكوراً ، أفالاً يوجد منك ولد وإن كنت شيئاً ! وقال تعالى : « فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَوَهَبْنَا لَهُ يَحْيَىٰ وَأَصْلَحْنَا لَهُ رَوْجَكَهُ إِنَّهُمْ كَانُوا يُسْكِرُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَا رَغْبًا وَرَهْبًا وَكَانُوا لَنَا خَائِشِعِينَ » ومعنى إصلاح زوجته أنها كانت لا تحি�ض فحاضت . وقيل : كان في لسانها شيء ، أي : بذاعة .

« قَالَ رَبِّ أَجْعَلْ لِيْهُ مَاءَيْهُ » أي : علامة على وقت تعلق مني المرأة بهذا الولد المبشر به « قَالَ إِيَّاكَ أَلَا تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلَثَ لِيَالٍ سَوِيَّاً » يقول علامة ذلك أن يعتريك سكت لا تنطق معه ثلاثة أيام إلا رمزاً ، وأنت في ذلك سوي الخلق صحيح المزاج متعدل البنية ، وأمر بكثرة الذكر في هذه الحال بالقلب ، واستحضار ذلك بفواده بالعشي والإبكار ، فلما بشر بهذه البشرة خرج مسروراً بها على قومه من محاربه « فَأَوْحَىٰ إِلَيْهِ أَنْ سَيَّحُوا بَكْرَةً وَعِيشَيْاً » والوحى لها هو الأمر الخفي إما بكتابه ، كما قاله مجاهد والسدي ، أو إشارة كما قال مجاهد أيضاً ووهد وقتادة ، قال مجاهد وعكرمة ووهد والسدي وقتادة : اعتقل لسانه من غير مرض . وقال ابن زيد : كان يقرأ ويسبح ولكن لا يستطيع كلام أحد .

وقوله تعالى : « يَبِعَحِي خُذْ الْكِتَابَ بِقُوَّةٍ وَمَائِنَةَ الْحُكْمِ صَيْبَيْاً » يخبر تعالى عن وجود الولد ، وفق البشرة الإلهية لأبيه زكرياء عليه السلام ، وأن الله علمه الكتاب والحكمة وهو صغير في حال صباح .

وأما قوله : « وَحَنَانَانِ مِنْ لَدُنَّا » وعن ابن عباس ومجاهد وعكرمة وقتادة والضحاك : « وَحَنَانَانِ مِنْ لَدُنَّا » أي : رحمة من عندنا ، رحمنا بها زكرياء فوهبنا له هذا الولد ، وعن عكرمة : « وَحَنَانَانِ » أي : مجبة عليه ، ويتحمل أن يكون ذلك صفة لتحقن يحيى على الناس ولا سيما على أبيه ، وهو محبتهم والشفقة عليهم وبره بهما .

وأما الزكاة فهي طهارة الخلق وسلامته من النقائص والرذائل . والتقوى طاعة الله بامتثال أوامره وترك زواجره . ثم ذكر بره بوالديه وطاعته لهما أمراً ونهياً وترك عقوبهما قولًا وفعلاً فقال : « وَبِرًا بِوَالِدَيْهِ وَلَا يَكُنْ جَنَاحًا عَصِيَّاً » ثم قال : « وَسَلَمًا عَلَيْهِ يَوْمَ وِلَادَتِهِ وَيَوْمَ يَمُوتُ وَيَوْمَ يُبَعْثَ حَيَّاً » هذه الأوقات الثلاثة أشد ما تكون على الإنسان ، فإنه ينتقل في كل منها من عالم إلى عالم آخر ، فيفقد الأول بعدما كان ألفه وعرفه ، ويصير إلى الآخر ولا يدرى ما بين يديه ، ولهذا يستهل صارخاً إذا خرج من بين الأحساء وفارق لينها وضمها ، ويتناهى إلى هذه الدار ليكابد هموها وغمها ! .

وكذلك إذا فارق هذه الدار وانتقل إلى عالم البرزخ بينها وبين دار القرار ، وصار بعد الدور

والقصور إلى عرصة الأموات سكان القبور ، وانتظر هناك النفخة في الصور ليوم البعث والنشور ، فمن مسرور وممحور ومن محزون ومثبور ، وما بين جبير وكسير وفريق في الجنة وفريق في السعير .

ولما كانت هذه المواطن الثلاثة أشق ما تكون على ابن آدم سلم الله على يحيى في كل موطن منها فقال : «**وَسَلَّمَ عَلَيْهِ يَوْمُ وُلُودِهِ يَوْمُ مَوْتِهِ يَوْمُ يَبْعَثُ حَيَاً**» .

وأما قوله في الآية الأخرى : «**وَسَكِينَةً وَحَضُورًا وَبَيْنَ مَنَ الْكَلِيلُ بَعْدَ**» فقيل : المراد بالحضور الذي لا يأتي النساء ، وقيل غير ذلك ، وهو أشبه لقوله : «**هَذِهِ لِي مِنْ لَدُنْكَ دُرِّيَّةً طَيْبَةً**» .

وقال الإمام أحمد : حدثنا عفان ، أبأنا أبو خلف موسى بن خلف ، وكان يعد من البدلاء حدثنا يحيى بن أبي كثیر ، عن زيد بن سلام ، عن جده ممطور ، عن الحارث الأشعري أن النبي ﷺ قال : «إِنَّ اللَّهَ أَمَرَ يَحْيَى بْنَ زَكْرِيَّا بِخَمْسِ كَلِمَاتٍ أَنْ يَعْمَلَ بِهِنَّ وَأَنْ يَأْمُرَ بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنْ يَعْمَلُوا بِهِنَّ ، فَإِمَّا أَنْ تَبْلُغُهُنَّ وَإِمَّا أَنْ أَبْلُغُهُنَّ». فقال : يا أباي إني أخشى إن سبقتني أُنذَّبُ أَوْ يَخْسَفُ بِي ، قال : فجَمِعَ يَحْيَى بْنَ زَكْرِيَّا بِخَمْسِ كَلِمَاتٍ حَتَّى امْتَلأَ الْمَسْجِدُ فَقَعَدَ عَلَى الشَّرْفِ فَحَمَدَ اللَّهَ وَأَثْنَى عَلَيْهِ ثُمَّ قَالَ : إِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَ أَمْرَنِي بِخَمْسِ كَلِمَاتٍ أَنْ أَعْمَلَ بِهِنَّ وَأَمْرَكُنَّ أَنْ تَعْمَلُوا بِهِنَّ . وَأَوْلَاهُنَّ أَنْ تَعْبُدُوا اللَّهَ لَا تَشْرُكُوا بِهِ شَيْئًا ، فَإِنْ مُثِلَّ ذَلِكَ مُثِلُّ مَنْ اشترى عبدًا مِنْ خالصِ مَالِهِ بُورْقًا أَوْ ذَهْبًا فَجَعَلَ يَعْمَلُ وَيَؤْدِي غَلَطَةً إِلَى غَيْرِ سَيِّدِهِ ، فَإِنَّكُمْ يَسِّرُهُ أَنْ يَكُونَ عَبْدَكُمْ كَذَلِكَ ، وَإِنَّ اللَّهَ خَلَقَكُمْ وَرَزَقَكُمْ فَاعْبُدُوهُ وَلَا تَشْرُكُوا بِهِ شَيْئًا .

أمركم بالصلوة فإن الله ينصب وجهه قبل عبده ما لم يلتفت فإذا صلیتم فلا تلتفتوا . وأمركم بالصيام فإن الله مثل ذلك كمثل رجل معه صرة من مسك في عصابة كلهم يجد ريح المسك ، وإن خلوف فم الصائم أطيب عند الله من ريح المسك .

أمركم بالصدقة ، فإن مثل ذلك كمثل رجل أسره العدو فشدوا يده إلى عنقه وقدموه ليضربوا عنقه فقال : هل لكم أن أفتدي نفسي منكم ف يجعل يفتدي نفسه منهم بالقليل والكثير حتى فك نفسه .

أمركم بذكر الله عز وجل كثيراً ، فإن مثل ذلك كمثل رجل طلبه العدو سراعاً في إثره فأتى حصناً حصيناً فتحصن فيه ، وإن العبد أحصن ما يكون من الشيطان إذا كان في ذكر الله عز وجل .

قال : وقال رسول الله ﷺ : «أَوَّلَنَا أَمْرَكُمْ بِخَمْسِ كَلِمَاتٍ يَهِنُّ بِهِنَّ : بِالْجَمَاعَةِ وَالسَّمْعِ وَالطَّاعَةِ وَالْهَجْرَةِ وَالْجَهَادِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ، فَإِنْ مِنْ خَرْجٍ عَنِ الْجَمَاعَةِ قَدْ شَبَرَ فَقَدْ خَلَعَ رِبَّةَ الْإِسْلَامِ مِنْ عَنْقِهِ إِلَّا أَنْ يَرْجِعَ ، وَمِنْ دُعَاءِ بَدْعَوِيِّ الْجَاهِلِيَّةِ فَهُوَ مِنْ جَثَّا جَهَنَّمَ ، قَالَ : يَا رَسُولَ اللَّهِ وَإِنْ صَامَ وَصَلَّى وَزَعَمَ أَنَّهُ مُسْلِمٌ ، ادْعُوا الْمُسْلِمِينَ بِأَسْمَائِهِمْ بِمَا سَمِّاهُمْ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَ الْمُسْلِمِينَ الْمُؤْمِنِينَ عِبَادَ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَ» (أحمد / ح ١٧١٧٠) .

وهكذا رواه أبو يعلى عن هدبة بن خالد ، عن أبان بن زيد ، عن يحيى بن أبي كثیر به .

وكذلك رواه الترمذى من حديث أبي داود الطيالسى وموسى بن إسماعيل ، وكلاهما عن أبىان بن يزيد العطار به ، ورواه ابن ماجه عن هشام بن عمار ، عن محمد بن شعيب بن سابور ، عن معاوية بن سلام ، عن أخيه زيد بن سلام ، عن أبي سلام ، عن الحارث الأشعري به ، ورواه الحاكم من طريق مروان بن محمد الطاطرى ، عن معاوية بن سلام ، عن أخيه به . ثم قال : تفرد به مروان الطاطرى ، عن معاوية بن سلام . [انظر «أبو على» ١٥٧١] والطبرانى / ٣٤٣٠ / ٣].

قلت : وليس كما قال . ورواه الطبرانى عن محمد بن عبدة ، عن أبي توبة الربيع بن نافع ، عن معاوية بن سلام ، عن أبي سلام ، عن الحارث الأشعري . فذكر نحوه فسقط ذكر زيد بن سلام ، عن أبي سلام ، عن الحارث الأشعري فذكر نحو هذه الرواية ، قلنا الحديث أخرجه أحمد (٦٠٥ / ١).

نبىُ الله عيسىٌ عليه السلام

قال تعالى وهو أصدق القائلين : ﴿ إِنَّ اللَّهَ أَسْطَقَنَ مَادَمْ وَوَجَّهَ وَمَا لَإِبْرَاهِيمَ وَمَا لَعَمَرَنَ عَلَى الْمَلَائِكَةِ ذُرِّيَّةَ بَعْضَهَا مِنْ بَعْضٍ وَاللَّهُ سَمِيعُ عَلِيهِ إِذْ قَاتَ أَمْرَاتُ عَمْرَنَ رَبِّ إِنِّي لَذَرَتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي مُحَرَّرًا فَفَقِيلَ لِيَ إِنَّكَ أَنْتَ أَسْبَعُ الْعَلِيَّةِ فَلَمَّا وَصَعَّبَتْهَا قَاتَ رَبِّ إِنِّي وَصَعَّبَتْهَا أُنْتَ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَصَعَّبَتْ وَلَيَسَ الَّذِكَرُ كَالْأَنْثَى وَلَيَنِ سَمِّيَّتْهَا مَرِيمَ وَلَيَنِ أَعْيَدَهَا يَلِكَ وَذَرَيَّتْهَا مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ فَفَقِيلَهَا رَبِّهَا يَقُبُولُ حَسَنٌ وَأَذَبَيَّتْهَا بَنَانًا حَسَنًا وَكَلَّهَا رَكِيَّا كَمَا دَعَلَ عَلَيْهَا رَكِيَّا الْعِزَابَ وَجَدَ عَنْهَا رُقَقاً قَالَ يَعْمَمُ إِنَّ لَكَ هَذَا قَاتَ هُوَ مِنْ عِنْدَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَرْدُقُ مَنْ يَشَاءُ بِعَيْنِ حِسَابٍ ﴾ آل عمران : ٣٣ - ٣٧ .

يدرك تعالى أنه اصطفى آدم عليه السلام والخلص من ذريته المتبعين شرعه الملائمين طاعته ، ثم خصص فقال : ﴿ وَمَا لَإِبْرَاهِيمَ ﴾ فدخل فيهم بنو إسماعيل ، ثم ذكر فضل هذا البيت الظاهر الطيب وهم آل عمران ، والمراد بعمران هذا والد مرريم عليها السلام .

﴿ وَلَيَنِ سَمِّيَّتْهَا مَرِيمَ ﴾ وقرىء باسم النساء ﴿ وَلَيَسَ الَّذِكَرُ كَالْأَنْثَى ﴾ أي : في خدمة بيت المقدس ، وكانوا في ذلك الزمان ينذرؤون لبيت المقدس خداماً من أولادهم .

وقولها : ﴿ وَلَيَنِ سَمِّيَّتْهَا مَرِيمَ ﴾ استدل به على تسمية المولود يوم يولد ، وكما ثبت في الصحيحين عن أنس في ذهابه بأخيه إلى رسول الله ﷺ فحنك أخاه وسماه عبد الله . وجاء في حديث الحسن عن سمرة مرفوعاً : «كل غلام رهينة بعقيته تذبح عنه يوم سابعه ويسمى ويحلق رأسه» رواه أحمد وأهل السنن وصححه الترمذى . [أحمد / ٤ / ٢٠١ . الترمذى / ح ١٥٢٢].

وقولها : ﴿ وَلَيَنِ أَعْيَدَهَا يَلِكَ وَذَرَيَّتْهَا مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ ﴾ قد استجيب لها في هذا كما تقبل منها نذرها ، فقال الإمام أحمد : حدثنا عبد الرزاق ، حدثنا معمر ، عن الزهرى ، عن ابن

المسيب ، عن أبي هريرة ، أن النبي ﷺ قال: «ما من مولود إلا والشيطان يمسه حين يولد ليستهل صارخاً من مس الشيطان إلا مريم وابنها» ، ثم يقول أبو هريرة: واقرؤوا إن شئتم: «وَلَيَأْتِيَ عَيْدُهَا إِلَكَ وَذَرِّيْتَهَا مِنَ الْشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ».

آخر جاه من حديث عبد الرزاق ورواه ابن جرير عن أحمد بن الفرج عن بقية ، عن عبد الله بن الزبيدي ، عن الزهرى ، عن أبي سلمة ، عن أبي هريرة ، عن النبي ﷺ بنحوه . ذكر كثيرون من المفسرين أن أمها حين وضعتها لفتتها في خرقها ثم خرجت بها إلى المسجد فسلمتها إلى العباد الذين هم مقيمون به ، وكانت ابنة إمامهم وصاحب صلاتهم فتنازعوا فيها ، والظاهر أنها إنما سلمتها إليهم بعد رضاعها وكفالة مثلها في صغرها .

ثم لما دفعتها إليهم تنازعوا في أيهم يكفلها ، وكان زكريا نبيهم في ذلك الزمان ، وقد أراد أن يستبدل بها دونهم من أجل زوجته أختها أو خالتها على القولين . فشاحوه في ذلك وطلبوه أن يقترب معهم ، فساعدته المقادير فخرجت فرقعة خالية لهم ، وذلك أن الخالة بمنزلة الأم . قال الله تعالى: «وَكَلَّهَا رَكْيَا» أي: بسبب غلبه لهم في القرعة كما قال تعالى: «ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ تُوحِيهِ إِلَيْكَ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَقُولُونَ أَقْدَمُهُمْ أَيْمَنُهُمْ يَكْفُلُ مَرِيمَ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْصِمُونَ» .

قال الله تعالى: «كُلَّمَا دَعَلَ عَيْنَيْهَا رَكْيَا الْمُحَرَّابَ وَجَدَ عِنْدَهَا رِزْقًا قَالَ يَعْرِمُونَ أَنَّ لَلَّهِ هَذِهِ قَاتَلَتْهُ مُوْمَنْ عَنْدَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ» قال المفسرون: اتخذ لها زكريا مكاناً شريفاً من المسجد لا يدخله سواها ، فكانت تعبد الله فيه وتقوم بما يجب عليها من سداناً البيت إذا جاءت نوبتها ، وتنقوم بالعبادة ليلها ونهارها ، حتى صارت يضرب بها المثل بعبادتها فيبني إسرائيل ، واشتهرت بما ظهر عليها من الأحوال الكريمة والصفات الشريفة ، حتى إنه كاننبي الله زكريا كلما دخل عليها موضع عبادتها يجد عندها رزقاً فيسأله: «أَنَّ لَكَ هَذِهِ» فتقول: «هُوَ مَنْ عِنْدَ اللَّهِ» أي: رزق رزقني الله «إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ» . فعد ذلك وهناك طمع زكريا في وجود ولد من صلبه وإن كان قد أحسن وكبر «قَالَ رَبِّ هَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ دُرْيَةً طَيْبَةً إِنَّكَ تَبِعُ الدُّعَاءَ» .

«وَإِذْ قَاتَلَ الْمَلَائِكَةُ يَعْرِمِينَ إِنَّ اللَّهَ أَصْطَفَنَا وَظَاهَرَكَ وَاصْطَفَنَا عَلَىٰ شَكَرِ الْعَلَمَيْنِ ⑪ يَعْرِمِينَ أَقْتُنِي لِرِبِّكَ وَاسْجُدُهُ وَأَرْكُنُهُ مَعَ الْأَرْكَعِينَ ⑫ ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ تُوحِيهِ إِلَيْكَ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَقُولُونَ أَقْدَمُهُمْ أَيْمَنُهُمْ يَكْفُلُ مَرِيمَ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْصِمُونَ ⑬ إِذْ قَاتَلَتِ الْمَلَائِكَةُ يَعْرِمِينَ إِنَّ اللَّهَ يَبْشِرُكَ بِكَلْمَةٍ مِنْهُ أَسْمَهُ السَّيْرُ عِيسَى ابْنُ مَرِيمَ وَجِيْهَا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمِنَ الْمُفَرِّيْنَ ⑭ وَيُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهَدِ وَكَهْلَأَ وَمِنَ الصَّابِرِيْجِينَ ⑮ قَاتَلَ رَبِّ أَنَّ يَكُونُ لِي وَلَدٌ وَلَمْ يَسْتَسْتَيْ بَشَرٌ قَاتَلَكَ اللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ إِذَا فَضَّى أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ⑯ وَيَعْلَمُهُ الْكِتَابُ وَالْحِكْمَةُ وَالْتَّوْرِيدُ وَالْإِنْجِيلُ ⑰ وَرَسُولًا إِلَيْنَى إِسْرَائِيلَ أَنِّي قَدْ جِئْتُكُمْ بِأَيْقَاظِكُمْ أَنِّي أَخْلُقُ لَكُمْ مِنَ الْطَّيْرِ فَانْتَفِعُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًا يَأْذِنُ اللَّهُ وَأَتَرَى الْأَكْمَةَ وَالْأَبْرَصَ وَأَنْجَى الْمَوْقِيْنَ يَأْذِنُ اللَّهُ وَأَتَيْتُكُمْ بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدَخُرُونَ فِي ⑱

يُوَتِّكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَكَيْةً لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ [١٦] **وَمُصْدِقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيِّ مِنَ التَّوْرِثَةِ وَلَا حِلَّ لَكُمْ بَعْضُ الَّذِي حُرِّمَ عَيْنَكُمْ وَجِئْتُكُمْ بِنَيَّاتِهِ مِنْ رَبِّكُمْ فَأَنْقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونَ** [١٧] **إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ وَرَبِّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هَذَا صَرْطٌ مُسْتَقِيمٌ** » [ال عمران : ٤٢ - ٥١]

يدرك تعالى أن الملائكة بشرت مريم باصطفاء الله لها من بين سائر نساء عالم زمانها ، بأن اختارها لإيجاد ولد منها من غير أب ، وبشرت بأن يكون نبيا شريفا «**وَيُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْهَدَى**» أي : في صغره يدعوهم إلى عبادة الله وحده لا شريك له ، وكذلك في حال كهولته ، فدل على أنه يبلغ الكهولة ويدعو إلى الله فيها ، وأمرت بكثرة العبادة والقنوت والسجدة والركوع لتكون أهلاً لهذه الكرامة ، ولتقوم بشكر هذه النعمة .

قول الملائكة : «**يَتَرَمَّمُ إِنَّ اللَّهَ أَصْطَفَنَاكِ**» أي : اختارك واجتباك «**وَطَهَرَكِ**» أي : من الأخلاق الرذيلة ، وأعطاك الصفات الجميلة «**وَأَصْطَفَنَاكَ عَلَى نِسَاءِ الْعَالَمِينَ**» يحتمل أن يكون المراد عالمي زمانها كقوله لموسى : «**إِنِّي أَصْطَفَيْتُكُمْ عَلَى النَّاسِ**» وك قوله عنبني إسرائيل : «**وَلَقَدِ اخْتَرْتُهُمْ عَلَى عِلْمِ الْعَالَمِينَ**» ومعلوم أن إبراهيم عليه السلام أفضل من موسى ، وأن محمدا **صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ** أفضل منه ، وكذلك هذه الأمة أفضل من سائر الأمم قبلها وأكثر عددا وأفضل علماء وأذكي عملاً منبني إسرائيل وغيرهم .

ويحتمل أن يكون قوله : «**وَأَصْطَفَنَاكَ عَلَى نِسَاءِ الْعَالَمِينَ**» محفوظ العموم فتكونن أفضل نساء الدنيا من كان قبلها أو وُجد بعدها لأنها إن كانت نبية على قول من يقول بنبوتها ونبوة سارة أم إسحاق ونبوة أم موسى محتاجاً بكلام الملائكة والوحى إلى أم موسى ، كما يزعم ذلك ابن حزم وغيره ، فلا يمتنع على هذا أن تكون مريم أفضل من سارة وأم موسى لعموم قوله : «**وَأَصْطَفَنَاكَ عَلَى نِسَاءِ الْعَالَمِينَ**» إذ لم يعارضه غيره . . . والله أعلم .

وأما قول الجمهور كما قد حكاه أبو الحسن الأشعري وغيره عن أهل السنة والجماعة من أن النبوة مختصة بالرجال ، وليس في النساء نبية فيكون أعلى مقامات مريم ، كما قال الله تعالى : «**مَا أَمْسِيَحُ أَبْنَتْ مَرِيمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ وَأَمْمُهُ صَدِيقَةٌ**» فعلى هذا لا يمتنع أن تكون أفضل الصديقات المشهورات من كان قبلها ومنمن يكون بعدها . . . والله أعلم . وقد جاء ذكرها مقوونة مع ايسية بنت مراح وخدیجة بنت خویلد وفاطمة بنت محمد **صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ** ورضي الله عنهن وأرضاهن .

وقد روى الإمام أحمد والبخاري ومسلم والترمذى والنسائى من طرق عديدة ، عن هشام بن عروة ، عن أبيه ، عن عبد الله بن جعفر ، عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه قال : قال رسول الله **صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ** : «**خَيْرُ نِسَائِهَا مَرِيمَ بَنْتُ عُمَرَ ، وَخَيْرُ نِسَائِهَا خَدِيجَةَ بَنْتُ خَوْلِدٍ**» [البخاري / ح ٣٤٣٢] و[أحمد ٦٤٠] و[مسلم ٢٤٣٠].

وقال الإمام أحمد : حدثنا عبد الرزاق ، أباً أنا معمر ، عن قتادة ، عن أنس ، قال : قال رسول الله **صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ** : «**حَسِبْكَ مِنْ نِسَاءِ الْعَالَمِينَ بَارِبعٍ** : مريم بنت عمران ، وأيسية امرأة فرعون ، =

وخدیجة بنت خویلد ، وفاطمة بنت محمد» [أحمد/ ح ١٢٣٩٤].
ورواه الترمذی عن أبي بکر بن زنجویه ، عن عبد الرزاق به وصححه ، ورواه ابن مردویه من طریق عبد الله بن أبي جعفر الرازی وابن عساکر من طریق تمیم بن زیاد ، کلاهما عن أبي جعفر الرازی ، عن ثابت ، عن أنس قال: قال رسول الله ﷺ: «خیر نساء العالمین أربع: مریم بنت عمران ، وآسیة امرأة فرعون ، وخدیجة بنت خویلد ، وفاطمة بنت محمد رسول الله».

وقال الإمام أحمد: حدثنا عبد الرزاق ، حدثنا معمر ، عن الزهری ، عن ابن المسیب ، قال: كان أبو هریرة يحدث أن النبي ﷺ قال: «خیر نساء رکب الابل صالح نساء قریش أحناه على ولد في صغره وأرعاه لزوج في ذات يده» قال أبو هریرة: لم ترکب مریم بعیراً فقط. [مسند أحمد/ ٧٦٥٤].

وقد رواه مسلم في صحيحه عن محمد بن رافع وعبد بن حمید ، کلاهما عن عبد الرزاق به. [صحيح مسلم / ٢٠١ / ٢٥٢٧].

وقال أحمد: حدثنا زید بن الحباب ، حدثني موسی بن علی ، سمعت أبي يقول: سمعت أبو هریرة يقول: قال رسول الله ﷺ: «خیر نساء رکب الابل نساء قریش أحناه على ولد في صغره وأرأفه بزوج على قلة ذات يده» ، قال أبو هریرة: وقد علم رسول الله ﷺ أن ابنة عمران لم ترکب الابل. تفرد به وهو على شرط الصحيح. ولهذا الحديث طرق أخرى عن أبي هریرة.

وقال أبو يعلى الموصلي: حدثنا یونس بن محمد ، حدثنا داود بن أبي الفرات ، عن علباء بن أحمر ، عن عکرمة ، عن ابن عباس قال: خط رسول الله ﷺ في الأرض أربع خطوط فقال: «أتدرؤن ما هذا؟ قالوا: الله ورسوله أعلم ، فقال رسول الله ﷺ: «أفضل نساء أهل الجنة خدیجة بنت خویلد وفاطمة بنت محمد ومریم بنت عمران وآسیة بنت مزارم امرأة فرعون» ورواه النسائي من طرق عن داود بن أبي هند.

وقد رواه ابن عساکر من طریق أبي بکر عبد الله بن أبي داود سليمان بن الأشعث ، حدثنا يحیی بن حاتم العسكري: أنبأنا بشر بن مهران بن حمدان ، حدثنا محمد بن دینار ، عن داود بن أبي هند ، عن الشعبي ، عن جابر بن عبد الله ، قال: قال رسول الله ﷺ: «حسبك منهن أربع سيدات نساء العالمین: فاطمة بنت محمد ، وخدیجة بنت خویلد ، وآسیة بنت مزارم ، ومریم بنت عمران».

وقال أبو القاسم البغوي: حدثنا وهب بن بقیة ، حدثنا خالد بن عبد الله الواسطي ، عن محمد بن عمرو ، عن أبي سلمة ، عن عائشة ، أنها قالت لفاطمة: «أرأیت حين أکبیت على رسول الله ﷺ فبکیت ثم ضحکت؟ قالت: أخبرنی أنه میت من وجعه هذا فبکیت ، ثم أکبیت عليه فأخبرنی أني أسرع أهله لحقاً به وأنی سيدة نساء أهل الجنة إلا مریم بنت عمران =

فضحكت». وأصل هذا الحديث في الصحيح. وهذا إسناد على شرط مسلم وفيه أنهما أفضل الأربع المذكورات.

وهكذا الحديث الذي رواه الإمام أحمد: حدثنا عثمان بن محمد ، حدثنا جرير ، عن يزيد - هو ابن أبي زياد - عن عبد الرحمن بن أبي نعيم ، عن أبي سعيد ، قال: قال رسول الله ﷺ: «فاطمة سيدة نساء أهل الجنة إلا ما كان من مريم بنت عمران» إسناد حسن وصححه الترمذى ولم يخرجوه ، وقد روی نحوه من حديث علي بن أبي طالب ولكن في إسناده ضعف .

والمقصود أن هذا يدل على أن مريم وفاطمة أفضل هذه الأربع. ثم يحتمل الاستثناء أن تكون مريم أفضل من فاطمة ويحتمل أن يكونا على السواء في الفضيلة .

ولكن ورد حديث إن صح عين الاحتمال الأول فقال الحافظ أبو القاسم بن عساكر: أَبْنَا أَبُو الْحَسِينِ بْنَ الْفَرَاءِ وَأَبُو غَالِبٍ وَأَبُو عَبْدِ اللَّهِ ابْنَا الْبَنِي ، قَالُوا: أَبْنَا أَبُو جَعْفَرِ بْنِ الْمُسْلِمَةِ ، أَبْنَا أَبُو طَاهِرِ الْمُخْلَصَ ، حَدَّثَنَا أَحْمَدُ بْنُ سَلِيمَانَ ، حَدَّثَنَا الزَّبِيرُ هُوَ أَبْنَابَكَارٍ ، حَدَّثَنَا مُحَمَّدُ بْنُ الْحَسِينِ ، عَنْ عَبْدِ الْعَزِيزِ بْنِ مُحَمَّدٍ ، عَنْ مُوسَى بْنِ عَقْبَةَ ، عَنْ كَرِيبٍ ، عَنْ أَبْنَابِ عَبَاسٍ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «سَيِّدَةُ نِسَاءِ أَهْلِ الْجَنَّةِ مَرِيمٌ بَنْتُ عُمَرَانَ ثُمَّ خَدِيجَةٌ ثُمَّ أَسْيَةٌ امْرَأَةُ فَرْعَوْنَ». فَإِنْ كَانَ هَذَا الْفَظْوَ مَحْفُوظًا بِشَمِّ التَّرْتِيبِ فَهُوَ مِبْيَنٌ لِأَحَدِ الْاحْتِمَالَيْنِ الَّذِيْنِ دَلَّ عَلَيْهِمَا الْاسْتِثْنَاءُ ، وَتَقْدِيمُهُ عَلَى مَا تَقْدِيمُ مِنَ الْأَلْفَاظِ الَّتِي وَرَدَتْ بِوَأْوَيْنِ الْعَطْفِ الَّتِي لَا تَقْتَضِي التَّرْتِيبَ وَلَا تَنْفِيْهَ ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ .

وقد روی هذا الحديث أبو حاتم الرازى عن داود الجعفرى ، عن عبد العزيز بن محمد وهو الدراوردى ، عن إبراهيم ، عن عقبة ، عن كريب ، عن ابن عباس مرفوعاً ، فذكرة بواو العطف لا بشم التربية ، فالخلف إسناداً ومتناً . . . فالله أعلم .

فأما الحديث الذي رواه ابن مردوه من حديث شعبة ، عن معاوية بن قرة ، عن أبيه قال: قال رسول الله ﷺ: «كمل من الرجال كثير ولم يكمل من النساء إلا ثلاثة: مريم بنت عمران وآسية امرأة فرعون وخديجة بنت خويلد ، وفضل عائشة على النساء كفضل الثريد على سائر الطعام» وهكذا الحديث الذي رواه الجماعة إلا أبا داود من طرق ، عن شعبة ، عن عمرو بن مرة ، عن مرة الهمданى ، عن أبي موسى الأشعري ، قال: قال رسول الله ﷺ: «كمل من الرجال كثير ولم يكمل من النساء إلا آسية امرأة فرعون ومريم بنت عمران ، وإن فضل عائشة على النساء كفضل الثريد على سائر الطعام».

فإنه حديث صحيح كما ترى اتفق الشيخان على إخراجه ، ولفظه يقتضي حصر الكمال في النساء في مريم وآسية ، ولعل المراد بذلك في زمانهما فإن كلاً منها كفلت نبياً في حال صغرها ، فآسية كفلت موسى الكليم ، ومريم كفلت ولدها عبد الله ورسوله ، فلا ينفي كمال غيرهما في هذه الأمة كخديجة وفاطمة .

فخديجة خدمت رسول الله ﷺ قبلبعثة خمسة عشر سنة وبعدها أزيد من عشر سنين ، وكانت له وزير صدق بنفسها ومالها ، رضي الله عنها وأرضها . وأما فاطمة بنت رسول الله ﷺ فإنها خصت بمزيد فضيلة على أخواتها لأنها أصبحت برسول الله ﷺ وبقية أخواتها متوفية في حياة النبي ﷺ .

وأما عائشة فإنها كانت أحب أزواج رسول الله ﷺ إليه ولم يتزوج بكرًا غيرها ، ولا يعرف في سائر النساء في هذه الأمة - بل ولا في غيرها - أعلم منها ولا أفهم ، وقد غار الله لها حين قال لها أهل الإفك ما قالوا فأنزل الله براءتها من فوق سبع سموات ، وقد عمرت بعد رسول الله ﷺ قريباً من خمسين سنة تبلغ عنه القرآن والسنة وتتفى المسلمين وتصلح بين المختلفين وهي أشرف أمهات المؤمنين حتى خديجة بنت خويلد أم البنات والبنين في قول طائفة من العلماء السابقين واللاحقين ، والأحسن الوقف فيما رضي الله عنهم ، وما ذاك إلا لأن قوله ﷺ : «فضل عائشة على النساء كفضل الثريد على سائر الطعام» يتحمل أن يكون عاماً بالنسبة إلى المذكورات وغيرهن ، ويتحمل أن يكون عاماً بالنسبة إلى ما عدا المذكورات . . . والله أعلم .

والملخص هنا ذكر ما يتعلّق بمريم بنت عمران عليها السلام ، فإن الله طهرها واصطفاها على نساء عالم زمانها ، ويجوز أن يكون تفضيلها على النساء مطلقاً كما قدمنا .

[مِلَادُ عَيْسَى ابْنُ مَرِيمَ]:

قال الله تعالى : « وَأَذْكُرْ فِي الْكِتَابِ مَرِيمَ إِذَا أَنْبَذَتْ مِنْ أَهْلِهَا مَكَانًا شَرِيقًا [١] فَأَضَدَّتْ مِنْ دُونِهِمْ حَيَاةً فَأَرْسَلَنَا إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بِشَرًا سَوِيًّا [٢] قَالَتْ إِنِّي أَعُوذُ بِالرَّحْمَنِ مِنْكَ إِنْ كُنْتَ تَقْبِيَ [٣] قَالَ إِنَّمَا أَنَا رَسُولُ رَبِّكَ لَا أَهَبَ لَكَ غُلَمًا زَكِيًّا [٤] قَالَتْ إِنِّي لَكُوْنُ لِي عِلْمٌ وَلَمْ يَمْسِتِنِي شَرٌّ وَلَمْ أَكُ بِعِيْنًا [٥] قَالَ كَذَلِكَ قَالَ رَبِّكَ هُوَ عَلَىٰ هَنْ [٦] وَلَنْ جُعَلَهُ [٧] إِيمَانَ النَّاسِ وَرَحْمَةً مِنْ أَنْوَافِكَ أَمْرًا مَقْضِيًّا [٨] فَحَمَّلَهُ فَانْتَدَتْ بِهِ مَكَانًا مَنْسِيًّا [٩] فَجَاءَهَا الْمَخَاضُ إِلَىٰ جَنْعَ الْأَنْخَلَةِ قَالَتْ يَا لَيْتَنِي مَثَ قَبْلَ هَذَا وَكُنْتُ سَيِّئًا مَنْسِيًّا [١٠] فَنَادَاهَا مِنْ عَنْهَا الْأَخْرَقُ فَدَجَّلَ رَبِّكَ تَحْنَكَ سَرِيًّا [١١] وَهُرِيَّ إِلَيْكَ بِمَعْنَى الْأَنْخَلَةِ سُقْطَ عَلَيْكَ رُطْبًا جَنِيًّا [١٢] فَكَلَّ وَأَسْرَى وَقَرِيَ عَيْنَنَا فَامَّا تَرَنَّ مِنَ الْبَشَرِ أَحَدًا فَقُولَيْ إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَنِ صَوْمًا فَلَنْ أَكُلَّ الْيَوْمَ إِنْسِيًّا [١٣] فَاتَّ بِهِ قَوْمَهَا حَمْلَهُ قَالُوا يَمْرِيدُ لَقَدْ جَعَلَتْ سَيِّئًا فَرِيًّا [١٤] يَأْخُذَ هَذِهِنَّ مَا كَانَ أَبُوكَ أَمْرًا سَوْءً وَمَا كَانَ أَمْكَ بِعِيْنًا [١٥] فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ قَالُوا كَيْفَ تُكَلِّمُ مَنْ كَانَ فِي الْمَهْدِ صَيْنًا [١٦] قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ أَتَنْتَيِ الْكِتَابَ وَجَعَلْتَنِي مَبَارِكًا إِنَّمَا مَا حَكَنْتُ وَأَصَنَّى بِالصَّلَاةِ وَالرَّكْوَةِ مَا دُمْتُ حَيًّا [١٧] وَبَرَّا بِوَلَدِي وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَارًا شَرِيقًا [١٨] وَأَسْلَمَ عَلَىٰ يَوْمٍ وُلِدَتْ وَيَوْمَ أُمُوتُ وَيَوْمَ أُنْتَمُ حَيًّا [١٩] ذَلِكَ عَيْنَى أَبْنِي مَرِيمَ قَوْلَكَ الْحَقُّ الَّذِي فِيهِ يَمْرُونَ [٢٠] مَا كَانَ لِلَّهِ أَنْ يَجْدُدَ مِنْ وَلِيٍّ سُبْحَانَهُ إِذَا قَفَنَى أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ [٢١] وَلَمَّا كَانَ اللَّهُ رَبِّي وَرَبِّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هَذَا صَرْطٌ مُسْتَقِيمٌ [٢٢] فَأَخْنَفَ الْأَحْرَابَ مِنْ بَيْنِهِمْ قَوْلَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ مَشْهَدِ يَوْمٍ عَظِيمٍ » [مريم : ١٦ - ٣٧].

ذكر تعالى هذه القصة بعد قصة زكريا التي هي كالمقدمة لها والتوضئة قبلها ، كما ذكر في =

سورة آل عمران ، وقرن بينهما في سياق واحد ، وكما قال في سورة الأنبياء : « وَرَكِيَّا إِذْ نَادَى رَبُّهُ رَبِّ لَا تَدْرِي فَكَرِداً وَأَنَتْ خَرُّ الْوَارِثِينَ ۝ فَاسْتَجَنَّا لَهُ وَهَبْنَا لَهُ يَحْيَىٰ وَأَصْلَحْنَا لَهُ زَوْجَهُ ، إِنَّهُمْ كَانُوا يُسْرِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَا رَغْبًا وَرَهْبًا وَكَانُوا لَنَا خَشِيعِينَ ۝ وَالَّتِي أَخْصَنَتْ فَرِجَاهَا فَنَفَخْنَا فِيهَا مِنْ رُوحِنَا وَجَعَلْنَاهَا إِعْيَةً لِلْعَلَمِينَ ۝ » [الأنبياء : ٩١ - ٨٩].

وقد تقدم أن مريم لما جعلتها أمها محررة تخدم بيت المقدس ، وأنه كفلها زوج اختها أو خالتها نبي ذلك الزمان زكريا عليه السلام ، وأنه اتخد لها محرابا وهو المكان الشريف من المسجد ، لا يدخله أحد عليها سواه ، وأنها لما بلغت اجتهدت في العبادة ، فلم يكن في ذلك الزمان نظيرها في فنون العبادات ، وظهر عليها من الأحوال ما غبطها به زكريا عليه السلام ، وأنها خاطبته الملائكة بالبشرارة لها باصطفاء الله لها وبأنه سيهب لها ولدا زكيًا يكوننبيًا كريماً ظاهراً مكرماً مؤيداً بالمعجزات ، فتعجبت من وجود ولد من غير والد ، لأنها لا زوج لها ، ولا هي من متزوج ، فأخبرتها الملائكة بأن الله قادر على ما يشاء إذا قضى أمرًا فإنما يقول له : كن فيكون ، فاستكانت لذلك وأنابت وسلمت لأمر الله ، وعلمت أن هذا في محنـة عظيمة لها ، فإن الناس يتكلمون فيها بسبـيه ، لأنـهم لا يـعلمون حـقيقة الـأمر ، وإنـما يـنظـرون إلى ظـاهرـ الحالـ منـ غيرـ تـدـبرـ ولاـ تـعـقلـ.

وكانت إنما تخرج من المسجد في زمن حيسـها أو لـحاجـة ضـرورـية لا بدـ منهاـ من استـقاءـ مـاءـ أو تحـصـيلـ غـذاـ ، فـبـينـماـ هيـ يـومـاـ قدـ خـرجـتـ لـبعـضـ شـؤـونـهاـ وـ«ـأـنـبـدـتـ»ـ أيـ:ـ انـفـرـدتـ وـحدـهاـ شـرقـيـ المسـجـدـ الأـقصـىـ إذـ بـعـثـ اللـهـ إـلـيـهـ الرـوـحـ الـأـمـيـنـ جـرـيـلـ عـلـيـهـ السـلـامـ ۝ فـتـمـثـلـ لـهـاـ بشـرـاـ سـوـيـاـ ۝ فـلـمـ رـأـنـهـ ۝ قـالـ إـنـ أـعـوذـ بـالـرـحـمـنـ مـنـكـ إـنـ كـنـتـ تـقـيـاـ ۝ قـالـ أـبـوـ العـالـيـةـ:ـ عـلـمـتـ أـنـ التـقـيـ ذـوـ نـهـيـةـ .ـ وـهـذـاـ يـرـدـ قـولـ مـنـ زـعـمـ أـنـ كـانـ فـيـ بـنـيـ إـسـرـائـيـلـ رـجـلـ فـاسـقـ مـشـهـورـ بـالـفـسـقـ اـسـمـهـ تـقـيـ ۝

فـإـنـ هـذـاـ قـولـ باـطـلـ بـلاـ دـلـيلـ ،ـ وـهـوـ مـنـ أـسـخـفـ الـأـفـوـالـ .ـ

«ـ قـالـ إـنـمـاـ آنـمـاـ رـسـوـلـ رـبـيـكـ ۝ـ أيـ:ـ خـاطـبـهـ الـمـلـكـ ۝ـ قـالـ إـنـمـاـ آنـمـاـ رـسـوـلـ رـبـيـكـ ۝ـ أيـ:ـ لـسـتـ بـبـشـرـ وـلـكـنـ مـلـكـ بـعـشـيـ اللـهـ إـلـيـكـ ۝ـ لـأـهـبـ لـكـ عـلـمـاـ زـكـيـاـ ۝ـ أيـ:ـ وـلـدـ زـكـيـاـ .ـ

«ـ قـالـ أـنـ يـكـونـ لـيـ غـلـمـ ۝ـ أيـ:ـ كـيـفـ يـكـونـ لـيـ غـلامـ أـوـ يـوـجـدـ لـيـ وـلـدـ ۝ـ وـلـمـ يـمـسـتـقـيـ بـشـرـ وـلـمـ أـكـ بـعـيـاـ ۝ـ أيـ:ـ وـلـسـتـ ذـاتـ زـوـجـ وـمـاـ أـنـاـ مـنـ يـفـعـلـ الـفـاحـشـةـ ۝ـ قـالـ كـذـلـكـ قـالـ رـبـيـكـ قـالـ رـبـيـكـ هـوـ عـلـىـ هـيـنـ ۝ـ أيـ:ـ فـأـجـابـهـ الـمـلـكـ عـنـ تـعـجـبـهـ مـنـ وـجـودـ وـلـدـ مـنـهـ وـالـحـالـهـ هـذـهـ قـائـلـاـ ۝ـ كـذـلـكـ قـالـ رـبـيـكـ ۝ـ أيـ:ـ وـعـدـ أـنـهـ سـيـخـلـقـ مـنـكـ غـلامـاـ وـلـسـتـ بـذـاتـ بـعـلـ ،ـ وـلـاـ تـكـوـنـيـ مـنـ تـبـغـيـنـ ۝ـ هـوـ عـلـىـ هـيـنـ ۝ـ أيـ:ـ وـهـذـاـ سـهـلـ عـلـيـهـ وـيـسـرـ لـدـيـهـ ،ـ فـإـنـهـ عـلـىـ مـاـ يـشـاءـ قـدـيرـ .ـ

وقـولـهـ:ـ «ـ وـلـنـجـعـكـلـهـ مـاـيـةـ لـنـائـسـ ۝ـ أيـ:ـ وـلـنـجـعـ خـلـقـهـ وـالـحـالـهـ هـذـهـ دـلـيـلـاـ عـلـىـ كـمـالـ قـدـرـتـاـ

عـلـىـ أـنـوـاعـ الـخـلـقـ ،ـ فـإـنـهـ تـعـالـيـ خـلـقـ اـدـمـ مـنـ غـيرـ ذـكـرـ وـلـاـ أـنـثـيـ ،ـ وـخـلـقـ حـوـاءـ مـنـ ذـكـرـ بـلـاـ

أـنـثـيـ ،ـ وـخـلـقـ عـيـسـىـ مـنـ أـنـثـيـ بـلـاـ ذـكـرـ ،ـ وـخـلـقـ بـقـيـةـ الـخـلـقـ مـنـ ذـكـرـ وـأـنـثـيـ .ـ وـقـولـهـ:ـ «ـ وـرـحـمـةـ

إِنَّمَا أي: نرحم به العباد بأن يدعوهم إلى الله في صغره وكبره في طفولته وكهولته ، لأن يفردوا الله بالعبادة وحده لا شريك له ، وينزهوه عن اتخاذ الصاحبة والأولاد والشركاء والنظراء والأضداد والأنداد.

وقوله: «**وَكَانَ أَمْرًا مَقْضِيًّا**» يحتمل أن يكون هذا من تمام كلام جبريل معها ، يعني: أن هذا أمر قضاه الله وحتمه وقدره وقرره ، وهذا معنى قول محمد بن إسحاق واختيار ابن جرير ، ولم يحك سواه... والله أعلم. ويحتمل أن يكون قوله: «**وَكَانَ أَمْرًا مَقْضِيًّا**» كناية عن نفح جبريل فيها كما قال تعالى: «**وَمَنِيمَ أَبْنَتْ عِمْرَنَ الَّتِي أَحْصَنَتْ فَرَجَهَا فَنَفَخَنَا فِيهِ مِنْ رُوْحِنَا**».

والصحيح أن تعقيب كل شيء بحسبه ، كقوله: «**فَصَبَرْتُ الْأَرْضَ مُخْصَرَةً**» وكقوله: «**فَرَأَخْلَقْنَا الْطَّفْلَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْعِفَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْعِفَةَ عَظِيمًا فَكَسَوْنَا الْعَظِيمَ لَحْيَانًا فَأَشَانَاهُ خَلْقًا إِذْ أَخْرَقْنَا إِلَهَ أَحْسَنَ الْخَلْقَيْنَ**» ومعلوم أن بين كل حلين أربعين يوماً كما ثبت في الحديث المتفق عليه. قال محمد بن إسحاق: شاع واشتهر فيبني إسرائيل أنها حامل ، فما دخل على أهل بيته ما دخل على آل بيته زكريا.

وقوله: «**فَأَجَاءَهَا الْمَحَاضُ إِلَى جَنْعِ النَّخْلَةِ**» أي: فأجلأها واضطرها الطلق إلى جذع النخلة ، وهو بنص الحديث الذي رواه النسائي يأسناد لا بأس به عن أنس مرفوعاً والبيهقي يأسناد وصححه عن شداد بن أوس مرفوعاً أيضاً بيت لحم الذي بنى عليه بعض ملوك الروم فيما بعد على ما سنذكره هذا البناء المشاهد الهائل.

«**فَالَّتِيَنِي مِنْ قَلَّ هَذَا وَكُنْتُ سَيِّدًا مَنْسِيًّا**» فيه دليل على جواز تمني الموت عند الفتنة ، وذلك أنها علمت أن الناس يتهمونها ولا يصدقونها بل يكتذبونها حين تأتيهم بغلام على يدها ، مع أنها قد كانت عندهم من العابدات النساكوات المجاورات في المسجد المنقطعت إليه المعتقدات فيه ، ومن بيت النبوة والديانة فحملت بسبب ذلك من لهم ما تمنت أن لو كانت ماتت قبل هذا الحال أو كانت **سَيِّدًا مَنْسِيًّا** أي: لم تخلق بالكلية. وقوله: «**فَنَادَهَا مِنْ مَحْيَا**» وقريء (من تَحْتَهَا).

وفي المضمير قوله ، أحدهما أنه جبريل ، قاله العوفي عن ابن عباس قال: ولم يتكلم عيسى إلا بحضور القوم. وبهذا قال سعيد بن جبير وعمرو بن ميمون والضحاك والسدسي وقتادة. وقال مجاهد والحسن وابن زيد وسعيد بن جبير في رواية: هو ابنها عيسى ، واختاره ابن جرير.

وقوله: «**أَلَا تَتَرَزَّنِي قَدْ جَعَلَ رَبِّي تَحْكِي سَرِيًّا**» قيل: النهر ، وإليه ذهب الجمهور. وجاء فيه حديث رواه الطبراني لكنه ضعيف واختاره ابن جرير وهو الصحيح. وعن الحسن والربيع بن أنس وابن أسلم وغيرهم أنه ابنها. وال الصحيح الأول لقوله: «**وَهُرِيَّ إِلَيْكَ بِمِنْجَعِ النَّخْلَةِ سَقُوطَ عَلَيْكَ رُطْبَأَ جَنِيًّا**» فذكر الطعام والشراب ، ولهذا قال: «**فَكُلْيَ وَأَشْرِبْ وَفَرِي عَيْنَاهُ**».

قوله: «فَإِمَّا تَرَيْنَ مِنَ الْبَشَرِ أَحَدًا فَقُولِي إِنِّي نَذَرْتُ لِرَحْمَنِ صَوْمًا فَلَنْ أَكُلَّ يَوْمَ إِنْسِيًّا» وهذا من تمام كلام الذي نادها من تحتها قال: «فَكُلْيَ وَأَشْرِي وَفَرِي عَيْنَا إِمَّا تَرَيْنَ مِنَ الْبَشَرِ أَحَدًا» أي: فإن رأيت أحداً من الناس «فَقُولِي» له أي بلسان الحال والإشارة «إِنِّي نَذَرْتُ لِرَحْمَنِ صَوْمًا» أي: صمتاً، وكان من صومهم في شريعتهم ترك الكلام والطعام. قاله قنادة والسدي وابن أسلم. ويدل على ذلك قوله: «فَلَنْ أَكُلَّ يَوْمَ إِنْسِيًّا» فأما في شريعتنا فيكره للصائم صمت يوم إلى الليل.

وقوله تعالى: «فَآتَيْتُ بِهِ قَوْمَهَا حَمْلَةً قَالُوا يَمْرِيدُ لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا فَرِيًّا» ١٧ يتأخَّتْ هَرُونَ مَا كَانَ أَبُوكَ آمِرًا سَوْءً وَمَا كَانَتْ أُمُّكَ يَعِيًّا» ١٨ يَمْرِيدُ لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا فَرِيًّا» أي: أمراً عظيماً منكراً. ظاهر سياق القرآن العظيم يدل على أنها حملته بنفسها وأتت به قومها وهي تحمله. والمقصود أنهم لما رأوها تحمل معها ولدها «قَالُوا يَمْرِيدُ لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا فَرِيًّا» والفرية هي الفعلة المنكرة العظيمة من الفعال والمقال.

ثم قالوا لها: «يتأخَّتْ هَرُونَ» قيل: شبهاها بعبد من عباد زمانهم كانت تساميه في العبادة ، وكان اسمه هارون. قاله سعيد بن جبير. وقيل: أرادوا بهارون أخي موسى شبهاها به في العبادة ، وأخطأ محمد بن كعب القرظي في زعمه أنها أخت موسى وهارون نسباً فإن بينهما من الدهور الطويلة ما لا يخفى على أدنى من عنده من العلم ما يرده عن هذا القول الفطيع ، وكأنه غره أن في التوراة أن مريم أخت موسى وهارون ضربت بالدف يوم نجى الله موسى وقومه وأغرق فرعون وملأه ، فاعتقد أن هذه هي هذه.

وهذا في غاية البطلان والمخالفة للحديث الصحيح مع نص القرآن كما قررناه في التفسير مطولاً والله الحمد والمنة. وقد ورد في الحديث الصحيح الدال على أنه قد كان لها آخر اسمه هارون، وفي ذكر قصة ولادتها وتحرير أمها لها ما يدل على أنها ليس لها آخر سواها، والله أعلم.

قال الإمام أحمد: حدثنا عبد الله بن إدريس، سمعت أبي يذكره، عن سماك، عن علقة بن وائل، عن المغيرة بن شعبة قال: بعثني رسول الله ﷺ إلى نجران فقالوا: أرأيت ما تقرؤون: «يتأخَّتْ هَرُونَ» وموسى قبل عيسى بكذا وكذا؟ قال: فرحت فذكرت ذلك لرسول الله ﷺ فقال: «ألا أخبرتهم أنهم كانوا يسمون الأنبياء والصالحين قبلهم» [مسند أحمد/ ح ١٨٢٦].

وكذا رواه مسلم والنسائي والترمذى من حديث عبد الله بن إدريس ، وقال الترمذى: حسن صحيح غريب لا نعرفه إلا من حديثه ، وفي رواية: «ألا أخبرتهم أنهم كانوا يتسمون بأسماء صالحهم وأنبيائهم» [مسلم / ٩٢١٣٥] والترمذى [ح / ٣١٥٥].

والمقصود أنهم قالوا: «يتأخَّتْ هَرُونَ» ودل الحديث على أنها قد كان لها آخر نسبي اسمه هارون ، وكان مشهوراً بالدين والصلة والخير ، ولهذا قالوا: «مَا كَانَ أَبُوكَ آمِرًا سَوْءً وَمَا كَانَ

أُمِّكَ بَعْيَاتَا أي : لست من بيت هذه شيمتهم ولا سجيتهم ، لا أخوك ولا أملك ولا أبوك ، فاتهموها بالفاحشة العظمى ، ورموها بالداهية الدياء .

فلما ضاق الحال وانحصر المجال وامتنع المقال ، عَطَمَ التوكل على ذي الجلال ، ولم يبقَ إلا الإخلاص والاتكال **﴿فَأَشَارَتِ إِلَيْهِ﴾** أي : خطبوا وكلموه فإن جوابكم عليه وما تبغون من الكلام لديه ، فعندها **﴿قَالُوا﴾** من كان منهم جباراً شقياً : **﴿كَيْفَ تُكَلِّمُ مَنْ كَانَ فِي الْمَهْدِ صَيْئًا﴾** أي : كيف تحيلينا في الجواب على صبي صغير لا يعقل الخطاب ، وهو مع ذلك رضيع في مهده ولا يميز بين مخيف وذلة ، وما هذا منك إلا على سبيل التهكم بنا والاستهزاء والنقض لنا والازدراء ، إذ لا تردين علينا قولها نطقياً ، بل تحيلين في الجواب على من كان في المهد صيئاً فعندها : **﴿قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ إِنَّمَا تَنْهَىَ الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي بَيْتَنِي شَقِيقَتَا﴾** **﴿وَالسَّلَامُ عَلَىٰ يَوْمِ وُلْدُتِي وَيَوْمَ أَمُورُتِي وَيَوْمَ أَبْعَثُ حَيَا﴾** [مريم : ٣٠ - ٣٣].

هذا أول كلام تفوه به عيسى ابن مريم ، فكان أول ما تكلم به أن **﴿قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ﴾** اعترف لربه تعالى بالعبودية ، وأن الله ربها ، فنزعه جناب الله عن قول الظالمين في زعمهم أنه ابن الله ، بل هو عبده ورسوله وابن أمته ، ثم برأ منه مما نسبها إليه الجاهلون وقدفوا به ورموها بسببه بقوله : **﴿إِنَّمَا تَنْهَىَ الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي بَيْتَنِي شَقِيقَتَا﴾** فإن الله لا يعطي النبوة من هو كما زعموا لعنهم الله وقبفهم ، وكما قال تعالى : **﴿وَيَكْفُرُهُمْ وَقُولُهُمْ عَلَىٰ مَرِيدٍ هُمْكُنُوا عَظِيمًا﴾** وذلك أن طائفة من اليهود في ذلك الزمان قالوا : إنها حملت به من زنى في زمن الحبيب ، لعنهم الله فبرأها الله من ذلك ، وأخبر عنها أنها صديقة واتخذ ولدها نبياً مرسلاً أحد أولي العزم الخمسة الكبار ، ولهذا قال : **﴿وَجَعَلَنِي مُبَارِّكَانِ مَا كُنْتُ﴾** وذلك أنه حيث كان دعا إلى عبادة الله وحده لا شريك له وزره جنابه عن النقض والعيب من اتخاذ الولد والصاحبة تعالى وتقديس **﴿وَأَوْصَنِي بِالصَّلَوةِ وَالرَّكْوَةِ مَا دَمَتُ حَيَا﴾** وهذه وظيفة العبيد في القيام بحق العزيز الحميد بالصلوة ، والإحسان إلى الخلقة بالزكاة ، وهي تشتمل على طهارة النفوس من الأخلاق الرذيلة وتطهير الأموال الجزيلة بالعطية للمحاويج على اختلاف الأصناف وقرى الأضياف والنفقات على الزوجات والأرقاء والقرابات وسائر وجوه الطاعات وأنواع القربات .

ثم قال : **﴿وَبَرِّ بِوَالِدَتِي وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَارًا شَقِيقَتَا﴾** أي : وجعلني برأ بوالدي ، وذلك أنه تأكد حقها عليه لمحض جهتها إذ لا والد له سواها ، فسبحان من خلق الخلقة وبرأها وأعطى كل نفس هداتها . **﴿وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَارًا شَقِيقَتَا﴾** أي : لست بفظ ولا غليظ ، ولا يصدر مني قول ولا فعل ينافي أمر الله وطاعته . **﴿وَالسَّلَامُ عَلَىٰ يَوْمِ وُلْدُتِي وَيَوْمَ أَمُورُتِي وَيَوْمَ أَبْعَثُ حَيَا﴾** وهذه المواطن الثلاثة التي تقدم الكلام عليها في قصة يحيى بن زكريا عليهم السلام .

ثم لما ذكر تعالى قصته على الجلية وبين أمره ووضمه وشرحه قال : **﴿ذَلِكَ عِيسَى ابْنُ مَرِيمٍ قَوْلَكَ الْحَقِّ الَّذِي فِيهِ يَمْرُدُونَ﴾** ما كان الله أن يُشَحِّدَ مِنْ وَلِكَ سُبْحَنَهُ إِذَا قَضَى أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ =

فَيَكُونُ ، كما قال تعالى بعد ذكر قصته وما كان من أمره في آل عمران: «**ذَلِكَ تَنْلُوُهُ عَلَيْكَ مِنَ الْأَيَتِ وَالَّذِي أَنْعَمْتِ** ^{٢٨} **إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ عَادَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ** ^{٢٩} **الْحَقُّ** مِنْ رَبِّكَ فَلَا يَكُونُ مِنَ الْمُمْتَنَنِ ^{٣٠} **فَمَنْ حَاجَكَ فِيهِ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ فَقُلْ شَاعُوا نَعْدُ أَبْنَاءَكَا وَأَبْنَاءَكُمْ وَنِسَاءَكُمْ وَنِسَاءَكُمْ ثُمَّ تَبَهَّلْ فَتَجْعَلَ لَعْنَتَ اللَّهِ عَلَى الْكَذَّابِينَ** ^{٣١} **إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْقَصْصُ الْحَقُّ وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلَّا اللَّهُ وَإِنَّ اللَّهَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ** ^{٣٢} **فَإِنْ تَوْلَوْا إِنَّ اللَّهَ عَلَيْهِ مِنْ أَمْضِيَنَّهُ**» [آل عمران: ٥٨ - ٦٣].

ولهذا لما قدم وفد نجران وكانوا ستيون راكباً يرجع أمرهم إلى أربعة عشر منهم ، ويؤول أمر الجميع إلى ثلاثة هم أشرافهم وساداتهم وهم العاقب والسيد وأبو حارثة بن علقة ، فجعلوا ينظرون في أمر المسيح فأنزل الله صدر سورة آل عمران في ذلك ، وبين أمر المسيح وابتداء خلقه وخلق أمه من قبله . وأمر رسوله بأن يباهلهم إن لم يستجيبوا له ويتبعوه ، رأوا ثم نكسوا وامتنعوا عن المباهلة ، وعدلوا إلى المسالمة والمواعدة ، وقال قائلهم وهو العاقب عبد المسيح : يا معشر النصارى .. لقد علمتم أن محمداًنبي مرسلاً ، ولقد جاءكم بالفصل من خير صاحبكم ، ولقد علمتم أنه ما لاعن قوم نبياً قط فبقي كبيرهم ولا نبت صغيرهم ، وإنها للاستصال منكم إن فعلتم ، فإن كنتم قد أبیتم إلا إلف دينكم والإقامة على ما أنتم عليه من القول في صاحبكم فوادعوا الرجل وانصرفوا إلى بلادكم ، فطلبوا ذلك من رسول الله صلی اللہ علیہ وسلم وسألوه أن يضرب عليهم جزية وأن يبعث معهم رجالاً أمنياً ، فبعث معهم أبا عبيدة بن الجراح وقد بينا ذلك في تفسير آل عمران وقد بسطنا هذه القصة في السيرة النبوية .

والمقصود أن الله تعالى بين أمر المسيح فقال رسوله: «**ذَلِكَ عِيسَىٰ ابْنُ مَرْيَمَ قَوْلُكَ الْحَقُّ الَّذِي فِيهِ يَمْرُدُونَ**» يعني من أنه عبد مخلوق من امرأة من عباد الله ، ولهذا قال: «**مَا كَانَ اللَّهُ أَنْ يَنْجِذَبْ مِنْ وَلَدٍ سُبْحَنَهُ إِذَا قَضَى أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ**» أي: لا يعجزه شيء ولا يكربه ولا يؤوده بل هو القدير الفعال لما يشاء «**إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا فَيَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ**» قوله: «**إِنَّ اللَّهَ رَبَّ وَرَبُّكُمْ فَأَعْبُدُهُ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ**» هو من تمام كلام عيسى لهم في المهد ، أخبرهم أن الله ربهم وربهم والله والهؤم ، وأن هذا هو الصراط المستقيم .

قال الله تعالى: «**فَأَخْتَلَفَ الْأَخْرَابُ مِنْ يَنْهِمُهُ فَوْلِلَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ مَشَهِدِ يَوْمٍ عَظِيمٍ**» أي: فاختطف أهل الزمان ومن بعدهم فيه . فمن قائل من البهود: إنه ولد زينة ، واستمروا على كفرهم وعندتهم . وقابلهم آخرون في الكفر فقالوا: هو الله ، وقال آخرون: هو ابن الله .

وقال المؤمنون: هو عبد الله ورسوله ، وابن أمته وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه ، وهؤلاء هم الناجون المثابون والمؤيدون المنصوروون ، ومن خالفهم في شيء من هذه القيود فهم الكافرون الضاللون الجاهلون ، وقد توعدهم العلي العظيم الحكيم العليم بقوله: «**فَوَلِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ مَشَهِدِ يَوْمٍ عَظِيمٍ**» .

قال البخاري: حدثنا صدقة بن الفضل ، أبنا الوليد ، حدثنا الأوزاعي ، حدثني عمير بن =

هانيء ، حديثي جنادة بن أبي أمية ، عن عبادة بن الصامت ، عن النبي ﷺ قال : «من شهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأن محمداً عبده ورسوله ، وأن عيسى عبد الله ورسوله وكلمته ، ألقها إلى مريم وروح منه ، والجنة حق والنار حق ، أدخله الله الجنة على ما كان من العمل».

قال الوليد : فحدثني عبد الرحمن بن يزيد بن جابر ، عن عمير ، عن جنادة وزاد : «من أبواب الجنة الثمانية أيها شاء». وقد رواه مسلم عن داود بن رشيد ، عن الوليد ، عن جابر به ومن طريق أخرى عن الأوزاعي به [البخاري / ح ٣٤٣٥ و مسلم كتاب الإيمان / ٤٦ / ٢٨]. [تنزيل الله عن الولد] :

وقال تعالى في آخر سورة مريم : ﴿ وَقَاتُلُوا أَخْذَ الرَّجْنَنَ وَلَدًا ﴾ لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا إِذَا ﴿ شَيْئًا عَظِيمًا مِنَ الْقَوْلِ وَزُورًا ﴾ تَكَادُ السَّمَوَاتُ يَنْفَطَرُنَ مِنْهُ وَتَسْقُي الْأَرْضَ وَتَجْزِعُ الْجَبَالَ هَذَا ﴿ أَنْ دَعَوْنَ لِلرَّجْنَنَ وَلَدًا ﴾ وَمَا يَنْبَغِي لِرَجْنَنَ أَنْ يَنْجُذِدَ وَلَدًا ﴿ إِنْ كُلُّ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا أَنْ يَنْهَى الرَّجْنَنَ عَبْدًا ﴾ لَقَدْ أَحْصَنْتُمْ وَعَدَّهُمْ عَدَّا ﴾ وَكُلُّهُمْ مَا تَبَرَّهُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ فَرَدًا ﴾ .

في بين أنه تعالى لا ينبغي له الولد لأنه خالق كل شيء وما له ، وكل شيء فقير إليه ، خاضع ذليل لديه وجميع سكان السموات والأرض عبيده ، هو ربهم لا إله إلا هو لا رب سواه كما قال تعالى : ﴿ وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ لَمَّا نَحْنُ خَلَقْنَاهُمْ وَخَرَقْنَا لَهُمْ بَيْنَ أَيْمَانِنَا وَبَيْنَ أَيْمَانِ أَعْمَاقِنَا يَصْفُونَ ﴾ يَدِيهِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَنْ يَكُونُ لَهُ وَلَدٌ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ صَاحِبَةٌ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿ ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ حَكِيمٌ كُلُّ شَيْءٍ وَفَاعْبُدُوهُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكَلِيلٌ لَا تَدْرِكُهُ الْأَقْسَرُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَقْسَرَ وَهُوَ الْأَطْيَفُ الْخَيْرُ ﴾ .

في بين أنه خالق كل شيء فكيف يكون له ولد؟ والولد لا يكون إلا بين شيئين متناسبين ، والله تعالى لا نظير له ولا شيء ولا عديله ، فلا صاحبة له ، فلا يكون له ولد كما قال تعالى : ﴿ قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ﴾ اللَّهُ أَصْكَدُ ﴿ لَمْ يَكِلْ وَلَمْ يُؤْكَدْ ﴾ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُواً أَحَدًا ﴾ يقرر أنه الأحد الذي لا نظير له في ذاته ولا في صفاتاته ولا في أفعاله ﴿ أَصْكَدُ ﴾ وهو السيد الذي كمل علمه وحكمته ورحمته وبلغ جميع صفاتاته ﴿ لَمْ يَكِلْ ﴾ أي : لم يوجد منه ولد ﴿ وَلَمْ يُؤْكَدْ ﴾ أي : ولم يتولد عن شيء قبله ﴿ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُواً أَحَدًا ﴾ أي : وليس له عدل ولا مكافئ ولا مساو ، فقط النظير المداني والأعلى والمساوي ، فانتفى أن يكون له ولد ، إذ لا يمكن الولد إلا متولداً بين شيئين متعادلين أو متقاربين ، تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً.

وقال تبارك وتعالي وتقدس : ﴿ يَأَهِلُ الصِّكْرَبَ لَا تَنْلُوْا فِي دِينِكُمْ وَلَا تَقُولُوا أَنَّ اللَّهَ إِلَّا الْحَقُّ إِنَّمَا الْمُسِيَّحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمٍ رَسُولُ اللَّهِ وَكَلِمَتُهُ أَنَّهُمْ أَنْتُمُ فَقَامُوا بِاللَّهِ وَرَوْسِلِهِ وَلَا تَقُولُوا ثَلَاثَةَ أَنْتُهُوا خَيْرَ الْكُلُّمُ إِنَّمَا اللَّهُ إِلَهٌ وَحْدَهُ سُبْحَنَهُ وَأَنْ يَكُونَ لَهُ وَلَدٌ لَمْ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَكَفَنَ بِاللَّهِ وَكَلِيلًا ﴾ لَمْ يَسْتَكْنَ الْمَسِيَّحُ أَنْ يَكُونَ عَبْدًا لَهُ وَلَا أَمْلَأَكَهُ الْمُرْبَوْنَ =

وَمَن يَسْتَكِفُ عَنْ عِبَادَتِهِ، وَيَسْتَكِفُ فَسِيحَرُوهُمْ إِلَيْهِ جَمِيعًا ﴿٧﴾ فَامَّا الَّذِينَ اَمْتُوا وَعَيْمَلُوا
الصَّلَاحَاتِ فَيُوَقِّيْهِمْ أُجُورَهُمْ وَرِزْقُهُمْ مِنْ فَضْلِهِ، وَامَّا الَّذِينَ اسْتَكَفُوا وَاسْتَكَبُوا فَيُعَذَّبُهُمْ
عَذَابًا أَلِيمًا وَلَا يَحْدُوْنَ لَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَا تَنْصِيرًا» [النساء: ١٧١ - ١٧٣] .

وقال تعالى وهو أصدق القائلين : «إِذْ قَالَ اللَّهُ يَعْلَمُ اِنَّ مَرِيمَ اَذْكُرَتْ يَعْمَلِي عَلَيْكَ وَعَلَى وَلَدِيْكَ اِذْ
اَيَّدْتُكَ بِرُوحِ الْقُدُّسِ تُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلًا وَإِذْ عَلَمْتُكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالْتَّوْرِيدَ
وَالْإِنْجِيلَ وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ الطَّلَبِينَ كَهْيَةً الطَّيْرِ يَأْذِنَ فَتَنْفَخُ فِيهَا فَتَكُونُ طَيْرًا يَأْذِنَ وَتَبْرُئُ الْأَكْمَةَ
وَالْأَبْرَصَ يَأْذِنَ وَإِذْ تُخْرِجُ الْمَوْقَى يَأْذِنَ وَإِذْ كَفَّتْ بَعْيَ إِسْرَائِيلَ عَنْكَ اِذْ جَشَّتْهُمْ بِالْبَيْتِ فَقَالَ
الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ اِنَّ هَذَا اِلَّا سُحْرٌ مُّبِينٌ وَإِذْ أَوْحَيْتَ إِلَى الْحَوَارِيْنَ اَنْ اَمْتُوا بِوَرِسُولِيْ قَالُوا اَمْتُوا
وَآشَهَدُ بِاِنَّا مُسْلِمُوْنَ» [المائدة: ١١٠ - ١١١] .

يذكره تعالى بنعمته عليه وإحسانه إليه في خلقه إياه من غير أب ، بل من أم بلا ذكر ، وجعله
له آية للناس ودلالة على كمال قدرته تعالى ثم إرساله بعد هذا كله « وَعَلَى وَلَدِيْكَ » في
اصطفافها واختيارها لهذه النعمة العظيمة وإقامة البرهان على براءتها مما نسبه إليها الجاهلون
ولهذا قال : «إِذْ اَيَّدْتُكَ بِرُوحِ الْقُدُّسِ» وهو جبريل يلقاه روحه إلى أمه وقرنه معه في حال
رسالته ومدافعته عنه لمن كفر به « تُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلًا » أي : تدعوا الناس إلى الله
في حال صغرك في مهدك وفي كهولتك « وَإِذْ عَلَمْتُكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ » أي : الخط
والفهم ، نص عليه بعض السلف « وَالْتَّوْرِيدَ وَالْإِنْجِيلَ » قوله : « وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ الطَّلَبِينَ كَهْيَةً
الْطَّيْرِ يَأْذِنَ » أي : تصوره وتشكله من الطين على هيئة الطير على أمر الله له بذلك « فَتَنْفَخُ فِيهَا
فَتَكُونُ طَيْرًا يَأْذِنَ » أي : بأمرني ، يؤكد تعالى بذكر الإذن له في ذلك لرفع التوهّم .

وقوله : « وَتَبْرُئُ الْأَكْمَةَ » وقال بعض السلف : وهو الذي يولد أعمى ولا سبيل لأحد من
الحكماء إلى مداواته « وَالْأَبْرَصَ » هو الذي لا طب فيه بل قد مرض بالبصر وصار داؤه
عنصلاً « وَإِذْ تُخْرِجُ الْمَوْقَى » أي : من قبورهم أحياه « يَأْذِنَ » وقد تقدم ما فيه دلالة على وقوع
ذلك مراراً متعددة بما فيها كفاية .

وقوله : « وَإِذْ كَفَّتْ بَعْيَ إِسْرَائِيلَ عَنْكَ اِذْ جَشَّتْهُمْ بِالْبَيْتِ فَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ اِنَّ هَذَا اِلَّا
سُحْرٌ مُّبِينٌ » وذلك حين أرادوا صلبه فرفعه الله إليه وأنقذه من بين أظهرهم صيانة لجنباته
الكريم عن الأذى ، وسلامة له من الردى .

وقوله : « وَإِذْ أَوْحَيْتَ إِلَى الْحَوَارِيْنَ اَنْ اَمْتُوا بِوَرِسُولِيْ قَالُوا اَمْتُوا وَآشَهَدُ بِاِنَّا مُسْلِمُوْنَ » قيل :
المراد بهذا الوحي وحي إلهام أي أرشدهم الله إليه ودلهم عليه كما قال : « وَأَوْحَى رَبُّكَ إِلَى
الْحَقْلِ » ، « وَأَوْحَيْنَا إِلَيْكَ مُوسَى اَنْ اَرْضِعِيهِ فَإِذَا خَفَتْ عَلَيْهِ قَاتِلِيهِ فِي الْيَمِّ » وقيل : المراد وحي
بواسطة الرسول وتوفيق في قلوبهم لقبول الحق ، ولهذا استجابوا قائلين : « اَمْتُوا وَآشَهَدُ بِاِنَّا
مُسْلِمُوْنَ » .

وهذا من جملة نعم الله على عبده ورسوله عيسى ابن مريم أن جعل له أنصاراً وأعواناً ينصرونه

ويدعون معه إلى عبادة الله وحده لا شريك له ، كما قال تعالى لعبدة محمد ﷺ **﴿هُوَ الَّذِي أَيْدَكَ بِتَصْرِيفِهِ وَبِالْمُؤْمِنِينَ ﴾** **وَالَّذِي يَكُونُ قُلُوبُهُمْ لَوْأَنْفَقْتَ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مَا أَلْفَتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ أَلْفَ بَيْنَهُمْ إِنَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ** » ، وقال تعالى : **﴿وَيَعْلَمُهُمُ الْكِتَابُ وَالْحِكْمَةُ وَالْوَرَةُ وَالْإِنجِيلُ ﴾** **وَرَسُولًا إِلَيْهِ أَنْشَرَهُ إِلَيْهِ أَنْقَحَتْكُمْ بِعِيَاتِهِ إِنَّ رَبَّكُمْ أَنْعَلَ كَثُمَّ مِنْ أَطْبَعَهُ كَثُمَّ أَطْلَقَهُ فَأَنْفَعَ فِيهِ كُوْنُ طَبَاعَهُ يَأْتِيَنَّ اللَّهُ وَأَنْزَلَهُ الْأَكْمَهُ وَالْأَبْرَصَ وَأَتَى الْمَوْتَ يَأْتِيَنَّ اللَّهُ وَأَنْتَشَكُمْ بِمَا تَأْكُونُ وَمَا تَنْخَرُونَ فِي بَيْوَتِكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذَّةً لَكُمْ إِنْ كَنْتُمْ مُّؤْمِنِينَ ﴾** **وَمُعَذِّفًا لَمَا يَبْرُئَنَّ يَدَيَهُمْ أَنَّوْرَةَهُ وَلَأَجْلَلَ لَكُمْ بَعْضَ الَّذِي حُرِمَ عَيْنَكُمْ وَجَشْتُكُرْ بِيَاتِهِ مِنْ رَبِّكُمْ فَأَنْقَوْهُمْ وَأَطْبَعُوهُنَّ إِنَّ اللَّهَ رَبِّ رَبِّكُمْ فَأَعْبُدُهُ هَذَا صِرَاطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴾** **فَلَمَّا أَحَسَ عِسَى مِنْهُمْ الْكُفَّارَ قَالَ مَنْ أَنْصَارِي إِلَى اللَّهِ فَاقْعُدْ الْمُحَارِبَوْنَ مِنْ أَنصَارِي الْمُحَارِبَوْنَ مِنْ أَنْصَارِي إِلَيْهِ أَمَّا مَا إِنْزَلْتَ مِنْ أَنْصَارِي اللَّهَ أَمَّا مَا إِنْزَلْتَ مِنْ أَنْصَارِي وَأَتَبَعْنَا الرَّسُولَ فَأَكْتَبْنَا مَعَ الشَّهِيدِيْنَ ﴾** **وَمَكَرُوا وَمَكَرَ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَتَكَبِّرِينَ ﴾**

[آل عمران : ٤٨ - ٥٤] .

كانت معجزة كل نبي في زمانه بما يناسب أهل ذلك الزمان ، فذكروا أن موسى عليه السلام كانت معجزته بما يناسب أهل زمانه و كانوا سحرة أذكياء ، فبعث بآيات بهرت الأ بصار و خضعت لها الرقاب ، ولما كان السحراء خبيثين بفنون السحر وما ينتهي إليه و عاينوا ما عاينوا من الأمر الباهر الهائل الذي لا يمكن صدوره إلا عن أيده الله وأجرى الخارق على يديه تصديقا له ، أسلموا سراعا ولم يتلعثموا .

وهكذا عيسى ابن مريم بعث في زمن الطبائعية الحكماء ، فأرسل بمعجزات لا يستطيعونها ولا يهتدون إليها ، وأنى لحكيم إبراء الأكمه الذي هو أسوأ حالاً من الأعمى ، والأبرص والمجنون ومن به مرض مزمن ، وكيف يتوصل أحد من الخلق إلى أن يقيس الميت من قبره؟ هذا - مما يعلم كل أحد - معجزة دالة على صدق من قامت به وعلى قدرة من أرسله .

وهكذا محمد ﷺ وعليهم أجمعين بعث في زمن الفصحاء البلغاء ، فأنزل الله عليه القرآن العظيم الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلقه تنزيل من حكيم حميد ، فلفظه معجز تحدى به الإنس والجن أن يأتوا بمثله أو بعشر سور من مثله أو بسورة ، وقطع عليهم بأنهم لا يقدرون لا في الحال ولا في الاستقبال ، فإن لم يفعلوا ولن يفعلوا وما ذاك إلا لأنه كلام الخالق عز وجل ، والله تعالى لا يشبهه شيء لا في ذاته ولا في صفاته ولا في أفعاله .

ومقصود أن عيسى عليه السلام لما أقام عليهم الحجج والبراهين استمر أكثرهم على كفرهم وضلالهم وعنادهم وطغيانهم ، فانتدب من بينهم طائفة صالحة فكانوا له أنصارا وأعواضاً قاماوا بمتابعته ونصرته و مناصحته ، وذلك حين هم به بنو إسرائيل ووشوا به إلى بعض ملوك ذلك الزمان ، فعززوا على قتلهم وصلبه فأنقذه الله منهم ورفعه إليه من بين أظهرهم ، وألقى شبهه على أحد أصحابه فأخذوه فقتلوه وصلبوه وهو يعتقدونه عيسى ، وهو في ذلك غالطون ، وللحق مكابرلون ، وسلم لهم كثير من النصارى ما ادعوه ، وكلا الفريقين في ذلك مخططون =

قال تعالى: ﴿ وَمَكَرُوا وَمَكَرَ اللَّهُ وَاللَّهُ حَذَرَ الظَّاكِرِينَ ﴾ ، وقال تعالى: ﴿ إِذْ قَالَ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ يَسْأَلُ إِنَّ رَسُولَ اللَّهِ إِلَيْكُمْ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْتَّوْرَةِ وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي أَتَمْهُ أَحَدٌ فَلَمَّا جَاءَهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ قَالُوا هَذَا سِحْرٌ مِّنْ ﴿ وَمِنْ أَطْلَامِ مَنْ أَفْتَرَى عَلَى اللَّهِ الْكَوْبَ وَهُوَ يَدْعُ إِلَى الْإِسْلَامِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴾ يَرِدُونَ لِطْفَلَوْرُ اللَّهِ بِأَغْوِيَهِمْ وَاللَّهُ مُمِّ ثُورِهِ وَلَوْ كَيْرَةُ الْكَافِرُونَ ﴾ إلى أن قال بعد ذلك: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُفُوا أَنْصَارَ اللَّهِ كَمَا قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ لِلْحَوَارِيْنَ مَنْ أَنْصَارَ إِلَى اللَّهِ قَالَ الْمَوَارِيْنَ تَحْنُنُ أَنْصَارَ اللَّهِ فَقَامَتْ طَائِفَةٌ مِّنْ بَيْتِ إِسْرَائِيلَ وَكَفَرَتْ طَائِفَةٌ فَآتَيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَى عَذَابِهِمْ فَاصْبَحُوا أَنْجَاهِيْرُهُنَّ ﴾ .

فعيسى عليه السلام هو خاتم الأنبياء بني إسرائيل ، وقد قام فيهم خطيباً بخاتم الأنبياء الآتي بعده ونوه باسمه وذكر لهم صفتة ليعرفوه ويتابعوه إذا شاهدوه ، إقامة للحججة عليهم وإحساناً من الله إليهم كما قال تعالى: ﴿ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ الَّذِي أَتَيْنَاهُ الَّذِي يَعْلَمُونَ مَكْتُوبًا عَنْهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنجِيلِ يَأْمُرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَا مُنْكِرَهُ وَتَحِيلُ لَهُمُ الظَّنِّيْتَ وَتَحِيرُهُمْ عَلَيْهِمُ الْخَيْرَ وَيَضْعُعُ عَنْهُمْ إِيمَانَهُمْ وَالْأَغْلَلُ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّزُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنْزِلَ مَعَهُ، أُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾ .

وقال محمد بن إسحاق: حدثني ثور بن يزيد ، عن خالد بن معدان ، عن أصحاب رسول الله ﷺ أنهم قالوا: يا رسول الله ، أخبرنا عن نفسك . قال: « دعوة أبي إبراهيم ، وبشرى عيسى ، ورأيت أمي حين حملت بي كأنه خرج منها نور أضاءت له قصور بصرى من أرض الشام ». .

وقد روی عن العرباض بن سارية وأبي أمامة عن النبي ﷺ نحو هذا وفيه: « دعوة أبي إبراهيم وبشرى عيسى » وذلك أن إبراهيم لما بني الكعبة قال: ﴿ رَسَّا وَأَبَقَ فِيهِمْ رَسُولاً مِّنْهُمْ ﴾ الآية . ولما انتهت النبوة في بني إسرائيل إلى عيسى قام فيهم خطيباً فأخبرهم أن النبوة قد انقطعت عنهم ، وأنها بعده في النبي العربي الأمي خاتم الأنبياء على الاطلاق أحمد ، وهو محمد بن عبد الله بن عبد المطلب بن هاشم الذي هو من سلالة إسماعيل بن إبراهيم الخليل عليه السلام ، وفيه قال الله تعالى: ﴿ فَلَمَّا جَاءَهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ قَالُوا هَذَا سِحْرٌ مِّنْ ﴾ يحتمل عود الضمير إلى عيسى عليه السلام ويحتمل عوده إلى محمد ﷺ .

ثم حرض تعالى عباد المؤمنين على نصرة الإسلام وأهله ونصرة نبيه ومؤازرته وتعاونته على إقامة الدين ونشر الدعوة فقال: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُفُوا أَنْصَارَ اللَّهِ كَمَا قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ لِلْحَوَارِيْنَ مَنْ أَنْصَارَ إِلَى اللَّهِ ﴾ أي: من يساعدني في الدعوة إلى الله ﴿ قَالَ الْحَوَارِيْنَ تَحْنُنُ أَنْصَارَ اللَّهِ ﴾ ، قال الله تعالى: ﴿ فَقَامَتْ طَائِفَةٌ مِّنْ بَيْتِ إِسْرَائِيلَ وَكَفَرَتْ طَائِفَةٌ ﴾ يعني: لما دعا عيسى ابن مريم بنى إسرائيل وغيرهم إلى الله تعالى ، منهم من أمن و منهم من كفر ، وكان من من أمن به أهل أنطاكيه بكاملها فيما ذكره غير واحد من أهل السير والتاريخ والتفسير وكفر آخرون من بني إسرائيل وهم جمهور اليهود ، فأيد الله من أمن به على من كفر فيما بعد وأصبحوا ظاهرين عليهم قاهرين لهم كما قال تعالى: ﴿ إِذْ قَالَ اللَّهُ يَعِيسَى إِلَيْ مُوتَقِيْكَ وَرَأَيْتُكَ إِلَيْ وَمَطْهُرُكَ مِنْ الَّذِينَ كَفَرُوا =

وَجَاءُكُلُّ الَّذِينَ أَتَيْتُكُمْ فَوْقَ الْأَرْضِ كَفَرُوا إِلَيْ يَوْمِ الْقِيَامَةِ» الآية فكل من كان إليه أقرب كان غالباً لمن دونه ، ولما كان قول المسلمين فيه هو الحق الذي لا شك فيه - من أنه عبد الله ورسوله - كانوا ظاهرين على النصارى؛ الذين غلووا فيه، وأطروه، وأنزلوه فوق ما أنزل الله به.

[رفع عيسى والكذب في دعوى الصلب]:

قال الله تعالى: «وَمَكَرُوا وَمَكَرَ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَنْكِرِينَ» [٢١] إِذْ قَالَ اللَّهُ يَعْلَمُ إِنِّي مُتَوَفِّيَكُمْ وَرَأَيْتُكُمْ إِلَيْ وَمَطْهَرُكُمْ مِنْ الَّذِينَ كَفَرُوا وَجَاءُكُلُّ الَّذِينَ أَتَيْتُكُمْ فَوْقَ الْأَرْضِ كَفَرُوا إِلَيْ يَوْمِ الْقِيَامَةِ ثُمَّ إِلَيْ مَرْجِعِكُمْ فَأَخْكُمُ بِمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْلُقُونَ» [آل عمران: ٥٤ - ٥٥].

وقال تعالى: «فَمَا نَقْضَيْنَا مِيثَاقَهُمْ وَكُفُّرُهُمْ بِتَائِبَتِ اللَّهِ وَقُلُّهُمُ الْأَنْيَاءُ يُغَيِّرُ حَقًّا وَقُولُهُمْ قُلُّمَا غُلْفُّ بَلْ طَبِيعَ اللَّهِ عَنْهَا بِكُفُّرُهُمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا» [٦٦] وَكُفُّرُهُمْ وَقُولُهُمْ عَلَى مَرِيمَ مُهَبَّتًا عَظِيمًا [٦٧] وَقُولُهُمْ إِنَّا قَلَّلْنَا مِسْبِحَ عِيسَى ابْنَ مَرِيمَ رَسُولَ اللَّهِ وَمَا قَاتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَكِنْ شَيْهَهُمْ وَإِنَّ الَّذِينَ أَخْلَلُوهُ فِيهِ لَقِيَ شَكَّ مِنْهُ مَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا إِنَّاعَ الظَّنِّ وَمَا قَاتَلُوهُ يَقِيْنًا» [٦٨] بَلْ رَفَعَهُ اللَّهُ إِلَيْهِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا [٦٩] وَإِنْ مِنْ أَهْلِ الْكِتَبِ إِلَيْ يَوْمِنَ يَدِهِ قَبْلَ مَوْتِهِ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكُونُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا» [النساء: ١٥٥ - ١٥٩].

أخبر تعالى أنه رفعه إلى السماء بعدما توفاه بالنوم على الصحيح المقطوع به ، وخلصه وأخبر تعالى بقوله: «وَإِنْ مِنْ أَهْلِ الْكِتَبِ إِلَيْ يَوْمِنَ يَدِهِ قَبْلَ مَوْتِهِ» أي: بعد نزوله إلى الأرض في آخر الزمان قبل قيام الساعة ، فإنه ينزل ويقتل الخنزير ويكسر الصليب ويضع الجزية ولا يقبل إلا الإسلام ، كما بتنا بذلك بما ورد فيه من الأحاديث عند تفسير هذه الآية الكريمة من سورة النساء ، كما أوردنا ذلك مستقصيا في كتاب «الفتن والملاحم» عند أخبار المسيح الدجال ، فذكرنا ما ورد في نزول المسيح المهدى عليه السلام من ذي الجلال لقتل المسيح الدجال الكذاب الداعي إلى الضلال ، وهذا ذكر ما ورد في الآثار في صفة رفعه إلى السماء: قال ابن أبي حاتم: حدثنا أحمد بن سنان ، حدثنا أبو معاوية ، عن المنهاج بن عمرو ، عن سعيد بن جبير ، عن ابن عباس ، قال: لما أراد الله أن يرفع عيسى إلى السماء خرج على أصحابه وفي البيت اثنا عشر رجلاً منهم من الحواريين ، يعني فخرج عليهم من عين في البيت ورأسه يقطر ماء ، فقال: إن منكم من يكفر بي التي عشرة مرة بعد أن آمن بي ، ثم قال: أيكم يلقى عليه شبهي فيقتل مكاني فيكون معي في درجتي؟ فقام شاب من أحدهم سناً فقال له: اجلس. ثم أعاد عليهم فقام الشاب فقال: أنا. فقال: أنت هو ذاك. فالقي عليه شبه عيسى ، ورفع عيسى من روزنة في البيت إلى السماء.

قال: وجاء الطلب من اليهود فأخذوا الشبه قاتلواه ثم صلبوه فكفر به بعضهم التي عشرة مرة بعد أن آمن به وافترقوا ثلاثة فرق ، فقالت طائفة: كان الله فيما شاء ، ثم صعد إلى السماء ، وهؤلاء اليعقوبية ، وقالت فرقه: كان فيما أبى الله ما شاء ثم رفعه الله إليه ، وهؤلاء النسطورية ، وقالت فرقه: كان فيما عبد الله ورسوله ما شاء ثم رفعه الله إليه ، وهؤلاء =

ال المسلمين ، فتظاهر الكافرatan على المسلمين فقتلواها ، فلم يزل الإسلام طامساً حتى بعث الله محمداً ﷺ .

قال ابن عباس : وذلك قوله تعالى : «فَإِنَّا لِلَّذِينَ آمَنُوا عَلَى عَدُوِّهِمْ فَأَصْبَحُوا ظَاهِرِينَ». وهذا إسناد صحيح إلى ابن عباس على شرط مسلم . ورواه النسائي عن أبي كريب ، عن أبي معاوية به نحوه ، ورواه ابن حجرير عن مسلم بن جنادة ، عن أبي معاوية . وهكذا ذكر غير واحد من السلف ، وممن ذكر ذلك مطولاً محمد بن إسحاق بن يسار [جامع البيان / ٢٨].

نبِيُّ اللَّهِ يُونُسَ

عَلَيْهِ السَّلَامُ

قال الحافظ ابن كثير رحمه الله تعالى :
[يونس في القرآن] :

قال الله تعالى في سورة يونس : «فَلَوْلَا كَانَتْ قَرِيبَةً أَمَنَتْ فَنَفَعَهَا إِيمَانُهَا إِلَّا فَقَوْمٌ يُؤْسِسُ لَهَا أَمَانًا كَشَفَنَا عَنْهُمْ عَذَابَ الْجَنَاحِيِّ فِي الْجَهَنَّمِ وَمُنْتَهِيُّ إِلَيْهِ حِلْيَنَ» [يونس : ٩٨].

وقال تعالى في سورة الأنبياء : «وَذَا الْوُئْنَ إِذْ دَهَبَ مُغَضِّبًا فَظَلَّ أَنَّ لَنْ تَقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَى فِي الْأَطْلَمَدَتِ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَّ سُبْحَنَكَ إِلَيْكَ كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ» [١٧] فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَجَنَّبْنَاهُ مِنَ الْغَمْ وَكَذَلِكَ نُسْجِي الْمُؤْمِنِينَ» [الأنبياء : ٨٧ - ٨٨].

وقال تعالى في سورة الصافات : «وَإِنَّ يُؤْسِسُ لَهُنَّ الْمُرْسَلِينَ» [١١] إِذْ أَبْقَى إِلَى الْفَلْكِ الْمَسْحُورِنَ [١١] سَاهَمَ فَكَانَ مِنَ الْمُدْحَضِينَ [١١] فَالنَّفَرَةُ الْمُغْوِثُ وَهُوَ مُلِيمٌ [١١] فَلَوْلَا أَنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُسْتَعِذِينَ [١١] لِلَّذِي فِي بَطْنِهِ إِلَيْهِ يَوْمَ يُبَعَّثُونَ [١١] فَنَبَذَتْهُ بِالْعَرَاءِ وَهُوَ سَيِّدٌ [١١] وَلَبَثَتْنَا عَلَيْهِ شَجَرَةً مِنْ يَقْطِينِ [١١] وَأَنْسَلْنَاهُ إِنْ مِائَةً أَلْفِ أَوْ يَرِيدُونَكَ [١١] فَنَامَوا فَسَعَنَهُمْ إِلَيْهِ حِلْيَنَ» [الصفات : ١٣٩ - ١٤٨].

وقال تعالى في سورة القلم : «فَأَصْبَرَ لِمَنْ كَرِيْكَ رَبِّكَ وَلَا تَكُنْ كَصَاحِبِ الْمَغْوِثِ إِذْ نَادَى وَهُوَ مَكْرُومٌ» [١٦] لَوْلَا أَنْ تَذَكَّرَ كَهْفَهُ مِنْ رَبِّهِ، لَتَذَكَّرَ بِالْعَرَاءِ وَهُوَ مَذْمُومٌ» [١٦] فَاجْبَهَهُ رَبِّهِ فَجَعَلَهُ مِنَ الظَّالِمِينَ» [القلم : ٤٨ - ٥٠].

[موقف أهل نينوى] :

قال أهل التفسير : بعث الله يونس عليه السلام إلى أهل «نينوى» من أرض الموصل ، فدعاهم إلى الله عز وجل ، فكتبوه وتمردوا على كفرهم وعندتهم ، فلما طال ذلك عليه من أمرهم خرج من بين أظهرهم ، ووعدهم حلول العذاب بهم .

قال ابن مسعود ومجاحد وسعيد بن جبير وقتادة ، وغير واحد من السلف والخلف : فلما خرج من بين ظهرانيهم ، وتحققو نزول العذاب بهم قذف الله في قلوبهم التوبة والإناية ، وندموا على ما كان منهم إلى نبيهم ، ثم عجو إلى الله عز وجل ، وتضرعوا إليه ، وتمسكونا =

لديه ، وكانت ساعة عظيمة هائلة .

فكشف الله العظيم - بحوله وقوته ورأفته ورحمته - عنهم العذاب الذي كان قد اتصل بهم سببه .

ولهذا قال تعالى : « فَلَوْلَا كَانَتْ قَرِيَّةً أَمَنَتْ فَنَعَّهَا إِيَّنَاهَا » أي هلا وجدت فيما سلف من القرون قريه آمنت بكمالها ، فدل على أنه لم يقع ذلك ، بل كما قال تعالى : « وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرِيَّةٍ مِنْ نَبِيٍّ إِلَّا قَالَ مُرْفُوهاً إِنَّا إِنَّا أَرْسَلْنَاكُمْ بِهِ كُفَّارُونَ » ، قوله : « إِلَّا قَومٌ يُؤْسَنُ لَمَّا آتَيْنَا كُشْفَنَا عَنْهُمْ عَذَابَ الْخَزْنِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَغْنِثَتُمُ إِلَى جِينِ » أي آمنوا بكمالهم .

وقد كانوا مئة ألف لا محالة ، واختلفوا في الزيادة : فعن مكحول عشرة آلاف ، وروى الترمذى وابن حجر وابن أبي حاتم من حديث زهير عن سمع أبي العالية : حدثني أبي بن كعب ، أنه سأله رسول الله ﷺ عن قوله : « وَأَرْسَلْنَاهُ إِلَى مِائَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ » قال : « يزيدون عشرين ألفاً » فلو لا هذا الرجل المبهم لكان هذا الحديث فاصلاً في هذا الباب .

[ابتلاع الحوت يونس]

والمقصود أنه عليه السلام لما ذهب مغاضباً بسبب قومه ، ركب سفينة في البحر فلجم بهم ، واضطربت وساحت بهم وثقلت بما فيها ، وكادوا يغرقون على ما ذكره المفسرون . قالوا : فاشتوروها فيما بينهم على أن يقتربوا ، فمن وقعت عليه القرعة أقوه من السفينة ليختفوا منه . فلما اقتربوا وقعت القرعة على النبي الله يونس لما يريده الله به من الأمر العظيم .

قال الله تعالى : « وَلَئِنْ يُؤْسَنَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ إِذَا أَتَى إِلَى الْقُلُكَ الْمَسْحُورِنَ فَسَاهَمَ فَكَانَ مِنَ الْمُدْخَنِينَ فَالنَّفَمَهُ الْمُهُوتُ وَهُوَ مُلِيمٌ ». وذلك أنه لما وقعت عليه القرعة ألقى في البحر . وبعث الله عز وجل حوتاً عظيماً من البحر ، فعند ذلك وهنالك ، قال ما قال بلسان الحال والمقال ، كما أخبر عنه ذو العزة والجلال ؛ الذي يعلم السر والنحو ، ويكشف الضر والبلوى ، يسمع الأصوات وإن ضعفت ، وعالم الخفيات وإن دقت ، ومجيب الدعوات وإن عظمت ، حيث قال في كتابه المبين ، المنزل على رسوله الأمين ، وهو أصدق القائلين ورب العالمين وإله المرسلين : « وَدَا الْتُّوْنِ إِذَا ذَهَبَ » أي إلى أهله « مُعْنِضِبًا فَظَنَّ أَنَّ لَنْ تَقْدِرَ عَلَيْهِ فَكَادَ فِي الظُّلْمَتِ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَّ شَبَّهَنَكَ إِنِّي كُسْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ فَاسْتَجَبْتَنَاهُ وَبَعْتَنَاهُ مِنَ الْفَحَمِ وَكَذَلِكَ ثَسَحَ الْمُؤْمِنِينَ » ، « فَظَنَّ أَنَّ لَنْ تَقْدِرَ عَلَيْهِ » أن نضيق عليه ، وقيل معناه : نقدر من التقدير وهي لغة مشهورة ، قيل وقدر كما قال الشاعر :

فلا عائد ذاك الزمان الذي مضى تبارك ، ما تقدر يكن لك الأمر
 « فَكَادَ فِي الظُّلْمَتِ » قال ابن مسعود وابن عباس وعمرو بن ميمون وسعيد بن جبير
 ومحمد بن كعب والحسن وقادة والضحاك : ظلمة الحوت ، وظلمة البحر ، وظلمة الليل .
 وقوله تعالى : « فَلَوْلَا أَنَّمُ كَانَ مِنَ الْمُسَرِّحِينَ لَلَّا يَتَبَيَّنُ إِلَى يَوْمِ يُبَعَّثُونَ » قيل : معناه فلو لا أنه

سبع الله هنالك ، وقال ما قال من التهليل والتسبيح ، والاعتراف لله بالخصوص ، والتوبة إليه والرجوع إليه للبث هنالك إلى يوم القيمة .

وقيل معناه: ﴿فَلَوْلَا أَنَّمُ كَانَ﴾ من قبل أخذ الحوت له ﴿مِنَ الْمُسْتَحِجِينَ﴾ أي المطيعين المصلين الذاكرين الله كثيراً ، قاله الضحاك بن قيس وابن عباس وأبو العالية ووهب بن منبه وسعيد بن جبير والضحاك والسدي وعطاء بن السائب والحسن البصري وقتادة وغير واحد ، واختاره ابن جرير .

ويشهد لهذا ما رواه الإمام أحمد وبعض أهل السنن عن ابن عباس أن رسول الله ﷺ قال له: «يا غلام.. إني معلمك كلمات: احفظ الله يحفظك ، احفظ الله تجده تجاهك ، تعرف إلى الله في الرخاء يعرفك في الشدة» [سنن أحمد / ٢٦٦٩ ح / ٢٥١٦].

قال ابن جرير: حدثني عمران بن بكار الكلاعي ، حدثنا يحيى بن صالح ، حدثنا أبو يحيى بن عبد الرحمن ، حدثني بشر بن منصور ، عن علي بن زيد ، عن سعيد بن المسيب قال: سمعت سعد بن مالك - وهو ابن أبي وقاص - يقول: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «اسم الله الذي إذا دعي به أجاب ، وإذا سئل به أعطى: دعوة يونس بن متى» ، قال: فقلت: يا رسول الله... هي ليونس خاصة أم لجماعة المسلمين؟ قال: هي ليونس خاصة وللمؤمنين عامة إذا دعوا بها ، ألم تسمع قول الله تعالى: ﴿فَنَادَىٰ فِي الظُّلْمِتِ أَنَّ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَّ سُبِّحَنَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ ﴿فَأَسْتَجَبْنَا لَهُ وَجَعَلْنَاهُ مِنَ الْفَ�ِّيْدِ وَكَذَلِكَ نُشِّيْ
الْمُؤْمِنِينَ﴾ فهو شرط من الله لمن دعا به . [جامع البيان ج ١٧ / ٨٢].

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبو سعيد الأشجع ، حدثنا أبو خالد الأحمر ، عن كثير بن زيد ، عن المطلب بن حنطبل قال أبو خالد: أحببه عن مصعب - يعني ابن سعد - عن سعد قال: قال رسول الله ﷺ: «من دعا بدعاء يونس استجيب له» قال أبو سعيد الأشجع ، يزيد به: ﴿وَكَذَلِكَ نُشِّيْ
الْمُؤْمِنِينَ﴾ . وهذا طريقان عن سعد [وانظر أبو يعلى ٢٧٠٧ / ٢].

وثالث أحسن منهما: وقال الإمام أحمد: حدثنا إسماعيل بن عمير ، حدثنا يونس بن أبي إسحاق الهمданى ، حدثنا إبراهيم بن محمد بن سعد ، حدثني والدى محمد ، عن أبيه سعد - وهو ابن أبي وقاص رضي الله عنه - قال: مررت بعثمان بن عفان في المسجد فسلمت عليه ، فملا عينيه مني ثم لم يرد على السلام ، فأتيت عمر بن الخطاب فقلت: يا أمير المؤمنين... هل حدث في الإسلام شيء؟ قال: لا ، وما ذاك؟ قلت: لا ، إلا أنني مررت بعثمان إنما في المسجد فسلمت عليه فملا عينيه مني ثم لم يرد على السلام قال: فأرسل عمر إلى عثمان فدعاه ، فقال: ما منعك ألا تكون رددت على أخيك السلام؟ قال: ما فعلت ، قال سعد: قلت: بلى ، حتى حلف وحلفت ، قال: ثم إن عثمان ذكر فقال: بلى ، وأستغفر الله وأتوب إليه ، إنك مررت بي آنفاً ، وأنا أحدث نفسي بكلمة سمعتها من رسول الله ﷺ لا والله ما ذكرتها قط إلا تغنى بصرى وقلبي غشاوة ، قال سعد: فأنا أنبئك بها ، إن

رسول الله ﷺ ذكر لنا أول دعوة ، ثم جاء أعرابي فشغله حتى قام رسول الله ﷺ فاتبعته ، فلما أشفقت أن يسبقني إلى منزله ضربت بقدمي الأرض ، فالتفت إلى رسول الله ﷺ فقال : «من هذا؟ أبو إسحاق؟» ، قال : قلت : نعم يا رسول الله ، قال : «مه؟» قلت : لا والله ، إلا أنك ذكرت لنا أول دعوة ، ثم جاء هذا الأعرابي فشغلك ، قال : «نعم .. دعوة ذي التون إذ هو في بطن الحوت : ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَنَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ فإنه لم يدع بها مسلم ربه في شيء إلا استجاب له». ورواه الترمذى والسائلى من حديث إبراهيم بن محمد بن سعد به [أحمد/ ١٤٦٢ ح / ٣٥٠٠] ، والترمذى [١٤٦٢ ح / ٣٥٠٠].

[فضل يونس عليه السلام]:

قال الله تعالى : ﴿وَإِنْ يُؤْسِرُ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾ وذكره تعالى في جملة الأنبياء الكرام في سورتي النساء والأنعام ، عليهم من الله أفضل الصلاة والسلام .

وقال الإمام أحمد : حدثنا سفيان ، عن الأعمش ، عن أبي وائل ، عن عبد الله قال : قال رسول الله ﷺ : «لا ينبغي لعبد أن يقول أنا خير من يونس بن متى» ورواه البخاري من حديث سفيان الثوري به . [مسند أحمد / ٣٧٠٣].

وقال البخاري أيضاً : حدثنا حفص بن عمر ، حدثنا شعبة ، عن قتادة ، عن أبي العالية ، عن ابن عباس ، عن النبي ﷺ قال : «ما ينبغي لعبد أن يقول إني خير من يونس بن متى ، ونسبة إلى أبيه». رواه أحمد ومسلم وأبو داود من حديث شعبة به ، قال شعبة فيما حكاه أبو داود عنه : لم يسمع قتادة من أبي العالية سوى أربعة أحاديث ، وهذا أحدها [صحيح البخاري / ح / ٣٤١٣].

[قوم يس]:

وهم أصحاب القرية أصحاب يس قال الله تعالى : ﴿وَاضْرِبْ لَهُمْ مَثَلًا أَصْحَبَ الْفَرْيَةِ إِذْ جَاءَهَا الْمُرْسَلُونَ ﴿١﴾ إِذَا رَسَلْنَا إِلَيْهِمْ أَشْيَانَنَا كَذَبُوهُمْ سَاعَةً فَقَالُوا إِنَّا إِلَيْكُمْ مُّرْسَلُونَ ﴿٢﴾ قَالُوا مَا أَنْتُمْ إِلَّا شَرُّ ﴿٣﴾ مَنْنَا وَمَا أَنْزَلَ الرَّحْمَنُ مِنْ شَيْءٍ إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا تَكْبُرُونَ ﴿٤﴾ قَالُوا رَبُّنَا يَعْلَمُ إِنَّا إِلَيْكُمْ مُّرْسَلُونَ ﴿٥﴾ وَمَا عَيْنَا إِلَّا الْبَلْعُ الْمُبِينُ ﴿٦﴾ قَالُوا إِنَّا أَطَيَّبُنَا إِنَّكُمْ لَمْ تَنْهَا لَنَرْجُوكُمْ وَلَمْ يَسْتُرُوكُمْ مَنَّا عَذَابُ رَبِّكُمْ ﴿٧﴾ قَالُوا طَرِيكُمْ مَعْكُمْ أَئِنْ دُكَّرُ قُرْبَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ مُّشْرِفُونَ ﴿٨﴾ وَجَاءَ مِنْ أَقْصَا الْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَى قَالَ يَنْقُومُ أَئِنْ يَعُوْا الْمُرْسَلِينَ ﴿٩﴾ أَئِنَّ عَوْمَانَ لَا يَسْتَكْثِرُ أَجْرًا وَهُمْ مُّهْتَدُونَ ﴿١٠﴾ وَمَا لِي لَا أَعْبُدُ اللَّوْيَ فَطَرَنِ وَإِلَيْهِ تَرْجَعُونَ ﴿١١﴾ أَئِنَّ دُونِيَّةَ إِلَهَكَةَ إِنْ يُرِدُنَ الرَّحْمَنُ بِضُرٍّ لَا تُغْنِ عَيْنَ شَفَعَهُمْ شَيْئًا وَلَا يُنْقَذُونَ ﴿١٢﴾ أَئِنِّي لَدَلِيْلٍ ضَلَّلَ مُّبِينٍ ﴿١٣﴾ إِذْ أَتَ ءامِنْتُ بِرَبِّكُمْ فَاسْتَمْعُونَ ﴿١٤﴾ قَيلَ أَدْخُلُ الْجَنَّةَ قَالَ يَلِيَّتَ فَوْيَ يَعْلَمُونَ ﴿١٥﴾ إِيمَانَعَرَّ لِي رَقِيَ وَيَعْلَمُنِي مِنَ الْمُكَرَّبِينَ ﴿١٦﴾ وَمَا أَنْزَلْنَا عَلَى قَوْمِهِ مِنْ بَعْدِهِ مِنْ جُنْدِ رَبِّ السَّمَا وَمَا كَانَ مُّزَلِّنِ ﴿١٧﴾ إِنْ كَانَتِ إِلَّا صِحَّةً وَنِجَادَةً فَإِذَا هُمْ حَمِيدُونَ﴾ [يس: ٢٩ - ١٣]

هذه القرية «أنطاكية» رواه ابن إسحاق فيما بلغه عن ابن عباس وكعب الأحبار و وهب بن منبه ، وكذا روى عن بريدة بن الخطيب وعكرمة وقتادة والزهري وغيرهم . قال ابن =

إسحاق: فيما بلغه عن ابن عباس وكتب ووهب ، أنهم قالوا: وكان له ملك اسمه أنطيخس بن أنطيخس وكان يعبد الأصنام . فبعث الله إليه ثلاثة من الرسل وهم: صادوق ومصدوق وشلوم ، فكذبهم .

وهذا ظاهر أنهم رسل من الله عز وجل ، وزعم قادة أنهم كانوا رسلاً من المسيح ، وكذا قال ابن جرير ، عن وهب ، عن ابن سليمان ، عن شعيب الجبائي : كان اسم المسلمين الأولين . شمعون ، ويوحنا ، وأسم الثالث: بولس ، والقرية أنطاكية .

وهذا القول ضعيف جداً ، لأن أهل أنطاكية لما بعث إليهم المسيح ثلاثة من الحواريين كانوا أول مدينة آمنت باليسوع في ذلك الوقت ، ولهذا كانت إحدى المدن الأربع التي تكون فيها بطاقة الصارى . وهن: أنطاكية ، والقدس ، والإسكندرية ، وروميا ، ثم بعدها القدسية ولم يهلكوا ، وأهل هذه القرية المذكورة في القرآن أهلكوا ، كما قال في آخر قصتها بعد قتلهم صديق المسلمين: «إِن كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَجَدَهُ إِذَا هُمْ حَمِيدُونَ» ولكن إن كانت الرسل الثلاثة المذكورون في القرآن . بعثوا إلى أهل أنطاكية قديماً فكذبواهم وأهلكتهم الله ، ثم عمرت بعد ذلك ، فلما كان في زمن المسيح آمنوا برسله إليهم ، فلا يمنع هذا... والله أعلم .

فأما القول بأن هذه القصة المذكورة في القرآن هي قصة أصحاب المسيح ضعيف لما تقدم ، ولأن ظاهر سياق القرآن يقتضي أن هؤلاء الرسل من عند الله .

قال الله تعالى: «وَأَضَرَبَ لَهُمْ مَثَلًا» يعني لقومك يا محمد «أَصْحَابَ الْقَرْيَةِ» يعني المدينة «إِذْ جَاءَهَا الْمُرْسَلُونَ ﴿٢﴾ إِذَا رَأَسْنَا إِلَيْهِمْ اثْنَيْنِ فَكَذَبُوهُمَا فَعَزَّزَنَا بِشَالِثٍ» أي أيدناهما بثالث في الرسالة ، «فَقَالَ الْمُؤْمِنُونَ إِنَّمَا إِلَيْكُمْ مُّرْسَلُونَ» فردو عليهم بأنهم مثلهم ، كما قال التأمة الكافرة لرسلهم ، يستبعدون أن يبعث الله نبياً بشريتاً ، فأجابوا بأن الله يعلم أنها رسلاً إليكم ، ولو كنا كذبنا عليه لعاقبنا وانتقم منا أشد الانتقام . «وَمَا عَلِمْنَا إِلَّا الْآتَئُونُ أُلْبَيْثُ» أي إنما علينا أن نبلغكم ما أرسلنا به إليكم ، والله هو الذي يهدي من يشاء ويضل من يشاء «قَالُوا إِنَّا نَاطَرِيْنَا بِكُمْ» أي تشاءمنا بما جئمنا به . «لَئِنْ لَّمْ تَنْتَهُوا لَتَرْجِعُنَّكُمْ» قيل: بالفعال ، وقيل: بالفعل ، ويعني الأول قوله: «وَلَيَسْكُنُوكُمْ مَنْ أَعْذَابُ أَلِيْرِ» توعدهم بالقتل والإهانة . «قَالُوا طَهِّرُوكُمْ مَعْكُمْ» أي مردود عليكم «أَئِنْ ذُكْرُكُمْ» أي بسبب أنا ذكرنا بالهداي ودعوناكم إليه ، توعدتمونا بالقتل والإهانة «بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ مُّسَرِّفُوْرُكُمْ» أي لا تقبلون الحق ولا تريدونه .

وقوله تعالى: «وَجَاءَهُمْ مِنْ أَفْصَا الْمَدِيْنَةِ رَجُلٌ يَسْعَى» يعني لنصرة الرسل وإظهار الإيمان بهم «قَالَ يَنْقُوْرُمْ أَتَيْعُوا الْمُرْسَلِيْنَ ﴿٣﴾ أَتَيْعُوا مَنْ لَا شَكُّ لَكُمْ أَجْرًا وَهُمْ مُهَمَّدُونَ» أي يدعونكم إلى الحق المحض بلا أجرا ولا جعلة . ثم دعاهم إلى عبادة الله وحده لا شريك له ، ونهاهم عن عبادة ما سواه مما لا ينفع شيئاً لا في الدنيا ولا في الآخرة . «إِنِّي إِذَا لَقَيْتُ ضَلَالًا مُّبِيْنًا» أي إن تركت عبادة الله وعبدت معه سواه .

ذكر الخبر عن أصحاب الكهف

وكان أصحاب الكهف فتيةً آمنوا برَبِّهم؛ كما وصفهم الله عزَّ وجلَّ به من

ثم قال مخاطباً للرسل: ﴿إِنَّتُمْ أَنْتُمْ بِرُّكُمْ فَاتَّسِعُونَ﴾ قيل: فاستمعوا مقالتي واشهدوا لي بها عند ربكم ، وقيل معناه: فاستمعوا يا قومي إيماني برسول الله جهرة ، فعند ذلك قتلوه ، قال تعالى: ﴿قَالَ ادْخُلُوا الْجَنَّةَ﴾ يعني لما قتله قومه أدخله الله الجنة ، فلما رأى فيها من النصرة والسرور ﴿قَالَ يَأَيَّتَ فَوْيَ يَعْلَمُونَ ﴿١١﴾ بِمَا غَفَرَ لِرَبِّ وَجَعَلَيْ مِنَ الْمُكَرَّمِينَ﴾ يعني: ليؤمنوا بما آمنت به فيحصل لهم ما حصل لي .

قال ابن عباس: نصح قومه في حياته بقوله: ﴿يَنْقُوْرُ أَتَيْعُوا الْمُرْسَلِكَ﴾ وبعد مماته في قوله: ﴿قَالَ يَأَيَّتَ فَوْيَ يَعْلَمُونَ ﴿١١﴾ بِمَا غَفَرَ لِرَبِّ وَجَعَلَيْ مِنَ الْمُكَرَّمِينَ﴾ رواه ابن أبي حاتم . وكذلك قال قتادة: لا يلقى المؤمن إلا ناصحاً ، لا يلقى غاشياً ، لما عاين ما عاين من كرامة الله . ﴿يَأَيَّتَ فَوْيَ يَعْلَمُونَ ﴿١١﴾ بِمَا غَفَرَ لِرَبِّ وَجَعَلَيْ مِنَ الْمُكَرَّمِينَ﴾ تمنى والله أن يعلم قومه بما عاين من كرامة الله وما هو عليه ! .

قال قتادة: فلا والله ما عاتب الله قومه بعد قتلهم: ﴿إِنْ كَانَتِ إِلَّا صَيْحَةً وَجَدَهُ فَإِذَا هُمْ خَنِيدُونَ﴾ . وقوله تعالى: ﴿وَمَا أَنْزَلْنَا عَلَى قَوْمِهِ مِنْ بَعْدِهِ مِنْ جُنُدِنَا السَّمَاءَ وَمَا كَانُوا مُنْزَلِنَ﴾ أي وما احتاجنا في الانتقام منهم إلى إنزال جند من السماء عليهم .

هذا معنى ما رواه ابن إسحاق عن بعض أصحابه ، عن ابن مسعود ، قال مجاهد وفتاده: وما أنزل عليهم جنداً ، أي رسالة أخرى . قال ابن جرير: والأول أولى .

قلت: وأقوى ، ولهذا قال: ﴿وَمَا كَانُوا مُنْزَلِنَ﴾ أي وما كان يحتاج في الانتقام إلى هذا حين كذبوا رسالتنا وقتلوا ولينا ﴿إِنْ كَانَتِ إِلَّا صَيْحَةً وَجَدَهُ فَإِذَا هُمْ خَنِيدُونَ﴾ .

أي قد أخدمت أصواتهم ، وسكنت حرakanهم ، ولم يق منهم عين تطرف . وهذا كله مما يدل على أن القرية ليست أنطاكية ، لأن هؤلاء أهلدوا بتكتيدهم رسول الله إليهم ، وأهل أنطاكية آمنوا واتبعوا رسول المسيح من الحواريين إليهم ، فلهذا قيل: إن أنطاكية أول مدينة آمنت بال المسيح .

فاما الحديث الذي رواه الطبراني من حديث حسين الأشقر ، عن سفيان بن عيينة ، عن ابن أبي نجيع ، عن مجاهد ، عن ابن عباس ، عن النبي ﷺ قال: «السبق ثلاثة: فالسابق إلى موسى: يوشع بن نون ، والسابق إلى عيسى: صاحب يس ، والسابق إلى محمد: علي بن أبي طالب» ، فإنه حديث لا يثبت ، لأن حسيناً هذا متزوك شيعي من الغلاة ، وتفرد بهذا مما يدل على ضعفه بالكلية .. والله أعلم . [الحديث أخرجه الطبراني ١١١٥٢ / ١١] .

صفتهم في القرآن المجيد؛ فقال لنبيه محمد ﷺ : «أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَابَ الْكَهْفِ
وَالرَّقِيمِ كَانُوا مِنَ الْمُعْجَجِينَ» .

والرّقيم هو الكتاب الذي كان القوم الذين منهم كان الفتية كتبوه في لوح بذكر خبرهم وقصصهم ، ثم جعلوه على باب الكهف الذي أتوا إليه ، أو نقوش في الجبل الذي أتوا إليه ، أو كتبوه في لوح وجعلوه في صندوق خلفه عندهم ، «إذ أوى الفتية إلى الكهف» .

وكان عدُّ الفتية - فيما ذكر ابن عباس - سبعة ، وثامنهم كلّهم ^(١) . (٢ : ٥)

حدّثنا ابن بشّار ، قال: حدّثنا عبد الرحمن ، قال: حدّثنا إسرائيل ، عن سمّاك ، عن عُكْرِمة ، عن ابن عباس: «مَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا قَلِيلٌ» ، قال: أنا من القليل ، كانوا سبعة ^(٢) . (٢ : ٥) .

حدّثنا بشر ، قال: حدّثنا يزيد ، قال: حدّثنا سعيد ، عن قتادة ، قال: ذكر لنا أنّ ابن عباس كان يقول: أنا من أولئك القليل الذين استثنى الله تعالى؛ كانوا سبعة وثامنهم كلّهم ^(٣) . (٢ : ٥) .

يونس بن متى

فكان - فيما ذُكر - من أهل قرية من قرى الموصل يقال لها: نينوى ، وكان قومه يعبدون الأصنام ، فبعث الله إليهم يونس بالنّهي عن عبادتها ، والأمر بالتنوّة إلى الله من كفرهم ، والأمر بالتوحيد ، فكان من أمره وأمر الذين بعث إليهم ما قضه الله في كتابه ، فقال عزّ وجلّ: «فَلَوْلَا كَاتَ قَرْيَةً أَمَّنَتْ فَنَعَهَا إِيمَنَهَا إِلَّا قَوْمٌ يُؤْسَى لَمَّا آمَنُوا كَشَفَنَا عَنْهُمْ عَذَابَ الْخَرَقِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَعْنَاهُمْ إِلَى حَيْنٍ» وقال: «وَذَا النُّونِ إِذْ دَهَبَ مُعَضِّبًا فَظَنَّ أَنَّ لَنْ تَقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَى فِي الظُّلْمَاتِ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَّ

(١) صحيح.

(٢) إسناده حسن وانظر ما بعده.

(٣) صحيح.

قلنا: ذكر ابن كثير طرق هذا الأثر عن ابن عباس ثم قال: فهذه أسانيد صحيحة إلى ابن عباس انهم كانوا سبعة وهو موافق لما قدمنا (تفسير القرآن العظيم/ ٢١٥٤).

سُبْحَنَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ ﴿٨﴾ **فَأَسْتَجِبْنَا لَهُ وَجَعَلْنَاهُ مِنَ الْعَمَّ وَكَذَلِكَ نُثْجِي
الْمُؤْمِنِينَ** ﴿١١﴾ . (٢: ١١) . (٢: ٢) . (١)

حدثنا ابن حميد ، قال: حدثنا سلمة عن ابن إسحاق ، عن يزيد بن زياد ، عن عبد الله بن أبي سلمة ، عن سعيد بن جُبَير ، عن ابن عباس ، قال: خرج به - يعني الحوت - حتى لفظه في ساحل البحر ، فطرحه مثل الصبي المفوس ، لم ينقص من خلقه شيء . (٢: ١٦) . (٢: ٢) . (١: ١٦)

إرسال الله رسلاه الثلاثة

الذين ذكرهم في تنزيله ، فقال: **﴿وَأَضَرِبْ لَهُمْ مَثَلًا أَصْحَابَ الْقَرْيَةِ إِذْ جَاءَهَا
الْمُرْسَلُونَ ﴾** إِذْ أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمْ أَنْبِيَاءً فَكَذَبُوهُمَا فَعَزَّزَنَا بِشَالِثٍ فَقَالُوا إِنَّا إِلَيْكُمْ مُّرْسَلُونَ . . .

الآيات التي ذكر تعالى ذكره في خبرهم . (٣) . (٢: ١٨) . (٢: ٢)

ذكر بقية خبر تبع أيام قباد وزمن أنوشروان

حدثنا ابن حميد ، قال: حدثنا سلمة ، عن ابن إسحاق ، عن أبي مالك بن ثعلبة بن أبي مالك القرطسي ، قال: سمعت إبراهيم بن محمد بن طلحة بن عبيد الله يحدّث أنّ تبعاً لما دنا من اليمن ليدخلها ، حالت حمیر بينه وبين ذلك ، وقالوا: لا تدخلها علينا وقد فارقت ديننا ، فدعاهم إلى دينه ، وقال: إنه دين خير من دينكم ، قالوا: فحاكمنا إلى النار ، قال: نعم - قال: وكانت باليمن فيما يزعم أهل اليمن نار تحكم بينهم فيما يختلفون فيه ، تأكل الظالم ولا تضر المظلوم - فلما قالوا ذلك لتبّع قال: أنصفتهم ، فخرج قومه بأوثانهم وما يتقرّبون به في دينهم ، وخرج العبران بمصاحفهم في أعناقهما متقدّلديها حتى قعدوا للنار عند مخرجها الذي تخرج النار منه ، فخرجت النار إليهم ، فلما أقبلت نحوهم حادوا عنها وهابوها ، فذمّرهم من حضرهم من الناس ، وأمروهـم بالصبر فصبروا ،

(١) صحيح.

(٢) صحيح.

(٣) صحيح.

حتى غشيتهم وأكلت الأولان وما قربوا معها ، ومنْ حمل ذلك من رجال حمير ، وخرج الحبّان بمصاحفهم في أعناقهما تعرق جماههما ، لم تضرّهما ، فأصفقت حمير عند ذلك على دينه ؛ فمن هناك وعن ذلك كان أصل اليهودية باليمن^(١) .

(٢) ١٠٨ / ١٠٩ .

ذكر مولد رسول الله ﷺ

حدّثنا ابن المتن ، قال: حدّثنا وهب بن جرير ، قال: حدّثنا أبي ، قال: سمعت محمد بن إسحاق يحدّث عن المطلب بن عبد الله بن قيس بن محرمة ، عن أبيه ، عن جده ، قال: ولدت أنا ورسول الله ﷺ عام الفيل^(٢) . (٢: ١٥٥) .

وحدّثت عن يحيى بن معين ، قال: حدّثنا حجاج بن محمد ، قال: حدّثنا يونس بن أبي إسحاق ، عن أبي إسحاق ، عن سعيد بن جبير ، عن ابن عباس ، قال: ولد رسول الله ﷺ عام الفيل^(٣) . (٢: ١٥٥) .

حدّثت عن إبراهيم بن المنذر ، قال: حدّثنا عبد العزيز بن أبي ثابت ، قال: حدّثنا الزبير بن موسى ، عن أبي الحويرث ، قال: سمعت عبد الملك بن مروان يقول لقباث بن أشيم الكتاني الليثي: يا قباث ، أنت أكبر أم رسول الله ﷺ ؟ قال: رسول الله ﷺ أكبر مني وأنا أنسن منه ، ولد رسول الله ﷺ عام الفيل ، ووقفت بي أمي على روث الفيل محياً أعقله^(٤) . (٢: ١٥٦) .

(١) والخبر أخرجه ابن هشام (٢٧/١) وأبو مالك هذا مقبول عن ابن عسر وانظر البداية والنهاية . ٩٥/٢

(٢) الحديث أخرجه أحما . (ح ٣٦٢٨) والحاكم في المستدرك (٦٠٢/٢) وأحمد (٦٦٨٩، ٦١١) وابن سعد في طبقاته (١٠١/١) ورجا له بين الثقة والصادق والحديث حسن والله تعالى أعلم .

(٣) بين الطري وابن معين انقطاع إلا أن الحديث صحيح أخرجه الحاكم (٦٠٢/٢) وصححه على شرط الشعixin وأخرجه الطبراني (١٢٤٣٢) .

(٤) قال الهيثمي: رجاله موثوقون (مجمع الزوائد ١٩٦/١) والبيهقي (٧٥/١) . قال الحافظ ابن كثير: نص عليه ابن إسحاق ورواه ابن أبي شيبة في مصنفه عن عفان عن سعيد بن مينا عن جابر وابن عباس أنهمما قالا: ولد رسول الله ﷺ عام الفيل يوم الإثنين الثاني عشر من شهر ربيع الأول وفيه بعث وفيه عرج به إلى السماء وفيه هاجر وفيه مات ، وهو المشهور عند الجمهور والله أعلم .

حدثنا ابن حميد ، قال : حدثنا سلمة ، عن محمد بن إسحاق ، عن ثور بن يزيد ، عن خالد بن معدان الكلاعي ، أنّ نفراً من أصحاب رسول الله ﷺ قالوا : يا رسول الله ، أخبرنا عن نفسك ، قال : نعم ، أنا دعوة أبي إبراهيم ، وبشرى عيسى ، ورأيت أمي حين حملت بي الله خرج منها نور أضاء لها قصور بصرى من أرض الشام ، واستقرت في بني سعد بن بكر ، فبینا أنا مع أخي لي خلف بيوتنا نرعي بهما لنا ، أتاني رجلان عليهما ثياب بيض بسطت من ذهب مملوءة ثلجاً ، فأخذاني ، فشققا بطني ، ثم استحرجا منه قلبي ، فشققاه فاستخرجا منه علقة سوداء ، فطرحاها ، ثم غسلا بطني وقلبي بذلك الثلج حتى أفقاها ، ثم قال أحدهما لصاحبه : زنه عشرة من أمته ، فوزنني بهم فوزنتهم ، ثم قال : زنه بمئة من أمته ، فوزنني بهم فوزنتهم ، ثم قال : زنه بألف من أمته ، فوزنني بهم فوزنتهم ، ثم قال : دعه عنك ، فلو وزنته بأمتة لوزنها^(١) . (٢: ١٦٥) .

ذكر من قال ذلك :

حدثني القاسم بن الحسن ، قال : حدثني الحسين ، قال : حدثني حجاج ، عن أبي بكر بن عبد الله ، عن عكرمة : أن الروم وفارس اقتتلوا في أدنى الأرض . قال : وأدنى الأرض يومئذ أذرعات ، بها التقوا فهزمت الرؤوم ، فبلغ ذلك

(١) قلنا : الحديث في سيرة ابن هشام هكذا كما عند الطبرى (١٤٦/١) وأما شق صدره عليه السلام وغسله (وهو صغير) فصحيح كما أخرج مسلم (الإيمان/٢٦١) عن أنس رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ أتاه جبريل عليه السلام وهو يلعب مع الغلمان فأخذه فصرعه فشق عن قلبه فاستخرج منه علقة فقال هذا حظ الشيطان منك ثم غسله في طست من ذهب بماء زمزم ثم لأمه ثم أعاده في مكانه وجاء الغلمان يسعون إلى أمه فقالوا إن محمداً قد قتل فاستقبلوه وهو متყع اللون ، قال : إنني كنت أرى أثر ذلك المحيط في صدره . والحديث أخرجه أحمد (ح/١٢٢٢١) .

وأورد البوصيري عن أبي يعلى بسنده إلى عتبة بن عبد أن رجلاً سأله رسول الله ﷺ كيف كان أول شأنك يا رسول الله؟ قال : كانت حاضتي من بني سعد بن بكر فانطلقت أنا وابن لها في بهم لنا ولم نأخذ منها زاداً فقلت : يا أخي اذهب فائتنا زاد من عند أمينا فانطلق أخي ومكثت عند البئم فأقبل إلى طيران أبيضان كأنهما نسران فقال أحدهما لصاحبه : أهو هو؟ قال : نعم فأقبل يبتدراني فأخذاني بطحانى للقفاف شقا بطني . . . إلخ الحديث وفي آخره : قالت : إني رأيت خرج مني نور أضاءت منه قصور الشام .

النبي ﷺ وأصحابه وهم بمكة؛ فشق ذلك عليهم - وكان النبي ﷺ يكره أن يظهر الأئمّيون من المجروس على أهل الكتاب من الروم - وفرح الكفار بمكة وشمتوا ، فلقو أ أصحاب النبي ﷺ ، فقالوا: إنكم أهل كتاب والنصارى أهل كتاب ونحن أمميون ، وقد ظهر إخواننا من أهل فارس على إخوانكم من أهل الكتاب ، وإنكم إن قاتلتمونا لنظهرنَّ عليكم؛ فأنزل الله: ﴿الَّذِي غُلِطَتْ رُؤُومُهُ﴾ - إلى - ﴿وَهُمْ عَنِ الْآخِرَةِ هُمْ غَافِلُونَ﴾ ، فخرج أبو بكر الصديق إلى الكفار فقال: أفر حتم بظهور إخوانكم على إخواننا! فلا تفروا ولا يقرنَّ الله أعيينكم ، فوالله ليظهرنَّ الروم على فارس ، أخبرنا بذلك نبيانا ، فقام إليه أبي بن خلف الجمحي ، فقال: كذبَ يا أبا فصيل! فقال له أبو بكر: أنت أكذب يا عدوَ الله! فقال: أنا حبك! عشرَ قلائص مني ، وعشرَ قلائص منك ، فإن ظهرت الروم على فارس غرمتُ ، وإن ظهرت فارس غرمت إلى ثلاث سنين ، ثم جاء أبو بكر إلى النبي ﷺ ، فأخبره ، فقال: ما هكذا ذكرتُ ، إنما البعض ما بين الثلث إلى التسع ، فزأدْه في الخطر وماده في الأجل . فخرج أبو بكر فلقى أبياً فقال: لعلك ندمت ، قال: لا ، تعال أزيدك في الخطر وأمادك في الأجل ، فاجعلها مئة قلوص إلى تسع سنين ، قال: قد فعلت^(١). (٢: ١٨٤). (١٨٥: ٢).

حدثني إبراهيم بن سعيد الجوهرى ، قال: حدثنا يحيى بن صالح ، عن الحسن بن أيوب الحضرمي ، قال: حدثنا عبد الله بن يسر ، قال: قال لي رسول الله ﷺ : «لتدركنَّ قرناً» ، فعاش مئة سنة^(٢). (٢: ٢٣٦).

ذكر رسول الله ﷺ

فتوفي عبد المطلب بعد الفيل بثماني سنين؛ كذلك حدثنا ابن حميد ، قال: حدثنا سلمة ، قال: حدثني محمد بن إسحاق ، عن عبد الله بن أبي بكر: وكان عبد المطلب يوصي برسول الله ﷺ عمه أبو طالب ، وذلك أن أبو طالب ، وعبد الله أبو رسول الله ﷺ كانوا لأم ، فكان أبو طالب هو الذي يلي أمره

(١) هذا الخبر أخرجه الطبرى هنا عن عكرمة مرسلاً ، وصححه على شرط الشيفيين ووافقه الذهبي.

(٢) صحيح.

رسول الله ﷺ بعد جده ، وكان يكون معه . ثم إن أبي طالب خرج في ركب من قريش إلى الشام تاجراً ، فلما تهيأ للرحيل وأجمع السير ضَبَّ به رسول الله ﷺ - فيما يزعمون - فرق له أبو طالب ، فقال: والله لأنخرجن به معي ، ولا يفارقني ولا أفارقه أبداً ، أو كما قال: فخرج به معه ، فلما نزل الركب بُصْرِي من أرض الشام ، وبها راهب يقال له بَحِيرَى في صومعة له ، وكان ذا علم من أهل النصرانية ، ولم يزل في تلك الصومعة مذقط راهب ، إليه يصير علمهم عن كتاب - فيما يزعمون - يتوارثونه كابرًا عن كابر ، فلما نزلوا ذلك العام بِبَحِيرَى ، صنع لهم طعاماً كثيراً ، وذلك أنه رأى رسول الله ﷺ وهو في صومعته ، عليه غمامه تُظَلِّه من بين القوم ، ثم أقبلوا حتى نزلوا في ظلّ شجرة قريباً منه ، فنظر إلى الغمامه حين أظللت الشجرة ، وتهضرت أغصان الشجرة على رسول الله ﷺ ، حتى استظل تحتها ، فلما رأى ذلك بَحِيرَى ، نزل من صومعته ، ثم أرسل إليهم فدعاهم جميعاً ، فلما رأى بَحِيرَى رسول الله ﷺ جعل يلحظه لحظاً شديداً ، وينظر إلى أشياء من جسده قد كان يجذُّها عنده من صفتة . فلما فرغ القوم من الطعام وتفرقوا ، سأله رسول الله ﷺ عن أشياء في حاله ؛ في يقظته وفي نومه ، فجعل رسول الله ﷺ يُخْبِرُه فيجذُّها بَحِيرَى موافقةً لما عنده من صفتة ، ثم نظر إلى ظهره فرأى خاتم النبوة بين كتفيه ، ثم قال بَحِيرَى لعمه أبي طالب: ما هذا الغلام منك؟ قال: ابني ، فقال له بَحِيرَى: ما هو بابنك ، وما ينبغي لهذا العلام أن يكون أبوه حياً . قال: فإنه ابن أخي ، قال: مما فعل أبوه؟ قال: مات وأمه حُبلى به ، قال: صدقت ، ارجع به إلى بلدك ، واحذر عليه يهود؛ فوالله لِئن رأوه وعرفوا منه ما عرفت ، ليُبْعَثُ شرّاً ، فإنه كائن له شأن عظيم ، فأسرع به إلى بلدك ، فخرج به عمّه سريعاً حتى أقدمه مكة .

وقال هشام بن محمد: خرج أبو طالب برسول الله ﷺ إلى بُصْرِي من أرض الشام؛ وهو ابن تسع سنين^(١). (٢: ٢٧٧).

حدّثني العباس بن محمد ، قال: حدّثنا أبو نوح ، قال: حدّثنا يونس بن أبي إسحاق ، عن أبي بكر بن أبي موسى ، عن أبي موسى ، قال: خرج

أبو طالب إلى الشام ، وخرج معه رسول الله ﷺ في أشياخ من قريش ، فلما أشرفوا على الراهن هبطوا فحلوا رحالهم ، فخرج إليهم الراهن - وكانوا قبل ذلك يمرون به فلا يخرج إليهم ولا يلتفت . قال : فهم يحلون رحالهم ؛ فجعل يتخللهم حتى جاء فأخذ بيد رسول الله ﷺ ، فقال : هذا سيد العالمين ، هذا رسول رب العالمين ؛ هذا يبعثه الله رحمة للعالمين . فقال له أشياخ قريش : ما علّمك ؟ قال : إنكم حين أشرفتكم من العقبة لم تبق شجرة ولا حجر إلا خر ساجدا ؛ ولا يسجدون إلا لنبي ، وإنني أعرفه بخاتم النبوة ، أسفل من غضروف كتفه مثل التفاحة .

ثم رجع فصَنَعَ لهم طعاما ، فلما أتاهم به كان هو في رعيَّةِ الإبل . قال : أرسلوا إليه ، فأقبل عليه غمامه ، فقال : انظروا إليه ؛ عليه غمامه تُظلُّه ! فلما دنا من القوم وجدهم قد سبقوه إلى فيء الشجرة فلما جلس مال فيء الشجرة عليه فقال : انظروا إلى فيء الشجرة مال عليه ؛ قال : فيبينما هو قائما عليهم ؛ وهو ينادُهم ألا يذهبوا به إلى الرؤوم ؛ فإن الرؤوم إن رأوه عرفوه بالصفة فقتلوه ؛ فالتفت فإذا هو بسبعة نفر قد أقبلوا من الرؤوم ؛ فاستقبلهم ، فقال : ما جاء بكم ؟ قالوا : جئنا أن هذا النبي خارج في هذا الشهر ، فلم يبق طريق إلا بعث إليها ناس ، وإنما اخترنا خيراً بعثنا إلى طريقك هذا ؛ قال لهم : هل خلَّفْتُم خلفكم أحداً هو خير منكم ؟ قالوا : لا ؛ إنما اخترنا خيرة لطريقك هذا ، قال : أفرأيتم أمراً أراد الله أن يقضيه ، هل يستطيع أحد من الناس رده ؟ قالوا : لا ؛ فتابعوه وأقاموا معه ، قال : فأتأتهم ، فقال : أنسدكم الله ، أيكم ولية ؟ قالوا : أبو طالب ، فلم يزل يناديه حتى رده ، وبعث معه أبو بكر رضي الله تعالى عنه بلا ، وزوجته الراهن من الكعك والزيت ^(١) . (٢٧٨ / ٢٧٩).

(١) قلنا : الحديث أخرجه الترمذى من طريق أبي نوح هنا وقال هذا حديث حسن غريب لا نعرفه إلا من هذا الوجه وقال الجزري : إسناده صحيح ورجاته رجال الصحيح أو أحدهما وذكره أبي بكر وبلال فيه غير محفوظ وعده أئمننا وهمما فإن سن النبي ﷺ إذ ذاك اثنا عشر سنة وأبو بكر أصغر منه بستين وبلال لعله لم يكن ولد في ذلك الوقت .

قلنا : والحديث أخرجه الحاكم وقال صحيح على شرط الشيخين ولم يوافقه الذهبي وقال : أطنه موضوعاً وبعضه باطل ، وقال ابن كثير : وهكذا رواه غير واحد من الحفاظ من حديث أبي نوح عبد الرحمن بن غزوan الخزاعي ويقال الضبي ويعرف بقراد سكن بغداد ، وهو من =

حدثنا ابن حميد ، قال : حدثنا سلمة ، قال : حدثني محمد بن إسحاق عن محمد بن عبد الله بن قيس بن مخرمة ، عن الحسن بن محمد بن علي بن أبي طالب ، عن أبيه محمد بن علي ، عن جده علي بن أبي طالب ، قال : سمعت رسول الله ﷺ ، يقول : ما هممت بشيء مما كان أهل الجاهلية يعملون به غير مررتين ، كل ذلك يحول الله بيتي وبين ما أريد من ذلك . ثم ما هممت بسوء حتى أكرمني الله عز وجل برسالته ؟ فإني قد قلت ليلة لغلام من قريش كان يرعى معي بأعلى مكة : لو أبصرت لي غنمي حتى أدخل مكة ، فأسمرا بها كما يسمرون الشباب ! فقال : أفعل ؟ فخرجت أريد ذلك ؟ حتى إذا جئت أول دار من دور مكة ، سمعت عرفاً بالدفوف والمزامير ، فقلت : ما هذا ؟ قالوا : فلان بن فلان تزوج بفلانة بنت فلان . فجلست أنظر إليهم ، فضرب الله على أذني فنممت بما أيقظني إلا مَنْ الشمس ؟ قال : فجئت صاحبي ، فقال : ما فعلت ؟ قلت : ما صنعت شيئاً ، ثم أخبرته الخبر . قال : ثم قلت له ليلة أخرى مثل ذلك ، فقال : أفعل ، فخرجت فسمعت حين جئت مكة مثل ما سمعت حين دخلت مكة تلك الليلة ، فجلست أنظر ، فضرب الله على أذني ؟ فوالله ما أيقظني إلا مَنْ الشمس ؟ فرجعت إلى صاحبي فأخبرته الخبر . ثم ما هممت بعدها بسوء حتى أكرمني الله عز وجل برسالته^(١) . (٢٧٩ : ٢) .

الثقات الذين أخرج لهم البخاري ، ووثقه جماعة من الأئمة الحفاظ ، ولم أر أحداً جرمه مع هذا ، وفي حديثه هذا غرابة . وقال ابن حجر : رجاله ثقات وليس فيه سوى هذه اللفظة فيحتمل أنها مدرجة فيه منقطعة من حديث آخر وهماً من أحد رواته .
قلنا : ولقد ذكر ابن كثير ما في هذه الرواية من الغرائب في البداية والنهاية ، وحكم الذهبي على بطلان هذا الحديث في ميزان الاعتدال .

(١) إسناده ضعيف والحديث حسن صحيح آخرجه الحاكم في المستدرك (٤/٤٥٢) وصححه على شرط مسلم وقال الهيثمي رواه البزار ورجاله ثقات (المجمع ٨/٦٦٢) .
قلنا : والحديث ذكره ابن كثير برواية البيهقي من طريق محمد بن إسحاق عن محمد بن عبد الله بن قيس به . . .

ثم قال ابن كثير : وهذا حديث غريب جداً (البداية والنهاية ٢/٤٨) . ط . دار الفكر .
قلنا : والحديث ضعفه المحدث الألباني وعقب على تصحيح الحاكم له على شرط مسلم ووافقه الذهبي لهذا التصحيح قائلاً (أي الألباني) :
وهو وهم منه لأمررين :

وأختلف السَّلَفُ فِي سِنِّ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ حِينَ تُبَيَّءُ كُمْ كَانَتْ؟ فَقَالَ بَعْضُهُمْ: تُبَيَّءُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ بَعْدَمَا بَنَتْ قَرِيشُ الْكَعْبَةَ بِخَمْسِ سَنِينَ؛ وَبَعْدَمَا تَمَّ لَهُ مِنْ مُولْدَهُ أَرْبَعُونَ سَنَةً.

ذَكْرُ مَنْ قَالَ ذَلِكَ:

حَدَّثَنِي مُحَمَّدُ بْنُ خَلْفِ الْعَسْقَلَانِيُّ، قَالَ: حَدَّثَنَا آدَمُ، قَالَ: حَدَّثَنَا حَمَّادُ بْنُ سَلَمَةَ، قَالَ: حَدَّثَنَا أَبُو جَمْرَةَ الْضَّبْعَيِّ، عَنْ أَبْنِ عَبَّاسٍ، قَالَ: بُعِثَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ لِأَرْبَعِينَ سَنَةً^(١). (٢٩٠: ٢).

حَدَّثَنَا عُمَرُ بْنُ عَلَيٍّ وَابْنُ الْمَشْنَى، قَالَا: حَدَّثَنَا يَحْيَى بْنُ مُحَمَّدٍ بْنُ قَيْسٍ قَالَ: سَمِعْتُ رَبِيعَةَ بْنَ أَبِي عَبْدِ الرَّحْمَنِ يَذَكُّرُ عَنْ أَنَّسَ بْنَ مَالِكٍ، أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ بُعِثَ عَلَى رَأْسِ أَرْبَعِينَ^(٢). (٢٩١: ٢).

حَدَّثَنَا الْعَبَّاسُ بْنُ الْوَلِيدِ، قَالَ: أَخْبَرَنِي أَبِي، قَالَ: حَدَّثَنَا الْأَوْزَاعِيُّ، قَالَ: حَدَّثَنِي رَبِيعَةَ بْنَ أَبِي عَبْدِ الرَّحْمَنِ، قَالَ: حَدَّثَنِي أَنْسُ بْنُ مَالِكٍ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ بُعِثَ عَلَى رَأْسِ أَرْبَعِينَ^(٣). (٢٩١: ٢).

حَدَّثَنِي أَبُنْ عَبْدِ الرَّحِيمِ الْبَرْقَيِّ، قَالَ: حَدَّثَنَا عُمَرُ بْنُ أَبِي سَلَمَةَ، عَنِ الْأَوْزَاعِيِّ، قَالَ: حَدَّثَنِي رَبِيعَةَ بْنَ أَبِي عَبْدِ الرَّحْمَنِ، قَالَ: حَدَّثَنِي أَنْسُ بْنُ مَالِكٍ، أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ بُعِثَ عَلَى رَأْسِ أَرْبَعِينَ^(٤). (٢٩١: ٢).

- الأول: أن ابن إسحاق إنما يروي له مسلم مقوروناً بغيره كما ذكر الذهبي نفسه في الميزان والحاكم لم يروه عنه مقوروناً بغيره كما ترى! فليس هو على شرط مسلم.

- الثاني: أن محمداً بن عبد الله بن قيس ليس بمشهور العدالة فلم يوثقه غير ابن حبان، وتوثيقه عندما ينفرد به لا يوثق به لأن من قاعدته أن يوثق المجهولين كما أفاده المحققون كالحافظ ابن حجر في اللسان.

(١) قلتنا: في إسناده حماد بن سلمة لما كبر ساء حفظه وبقيه رجاله ثقات وأدم وأبو جمرة من رجال الصحيح والحديث صحيح كما سيأتي بعد قليل.

(٢) حديث أنس حديث صحيح وهو جزء من حديث أخرجه البخاري في صحيحه عن أنس (ح ٣٥٤٧) وفيه (أنزل عليه وهو ابن أربعين) وكذلك (ح ٣٥٤٨).

(٣) حديث صحيح.

(٤) ضعيف.

حدّثني أبو سُرْحَبْيل الْحِمْصِي ، قال: حدّثني أبو اليمان ، قال: حدّثنا إسماعيل بن عيّاش ، عن يحيى بن سعيد ، عن ربيعة بن أبي عبد الرحمن ، عن أنس بن مالك ، قال: أنزل على النبي ﷺ وهو ابن أربعين^(١) (٢: ٢٩١) .

حدّثنا ابن المثنى ، قال: حدّثنا الحجاج بن المنهاج ، قال: حدّثنا حماد ، قال: حدّثنا عمرو بن دينار ، عن عروة بن الربيير ، قال: بعث رسول الله ﷺ وهو ابن أربعين^(٢) (٢: ٢٩١) .

حدّثنا ابن المثنى ، قال: حدّثنا الحجاج ، عن حماد ، قال: أخبرنا عمرو ، عن يحيى بن جعده ، أنّ رسول الله ﷺ قال لفاطمة: إنّه كان يعرض علي القرآن كلّ عام مرّة؛ وإنّه قد عرض عليّ العام مرتين؛ وإنّه قد خيّل إليّ أن أجلي قد حضر؛ وأنّ أول أهلي لحاقاً بي أنتِ؛ وإنّه لم يبعثنبي إلّا بعث الذي بعده بنصفِ من عمره ، وبعث عيسى لأربعين ، وبعث لعشرين^(٣) (٢: ٢٩١) .

حدّثني عبيد الله بن محمد الوراق ، قال: حدّثنا رفح بن عبادة ، قال: حدّثنا هشام ، قال: حدّثنا عكرمة ، عن ابن عباس ، قال: بعث رسول الله ﷺ لأربعين سنة ، فمكث بمكة ثلاثة عشرة سنة^(٤) (٢: ٢٩٢) .

حدّثنا أبو كُريّب ، قال: حدّثنا أبوأسامة ومحمد بن ميمون الرّغرااني ، عن هشام بن حسان ، عن عكرمة ، عن ابن عباس ، قال: بعث رسول الله ﷺ وأنزل عليه وهو ابن أربعين سنة ، فمكث بمكة ثلاثة عشرة سنة^(٥) (٢: ٢٩٢) .

* * *

- (١) صحيح.
- (٢) صحيح.
- (٣) صحيح.
- (٤) صحيح.
- (٥) صحيح.

فهرس الموضوعات

٥	المقدمة
	أولاً
٥	١ - تعريف التاريخ
٦	أسباب اهتمام الأمة المسلمة بكتابه التاريخ
٩	نشأة التاريخ عند المسلمين رواية ثم تدويناً وتبويباً أو تصنيفاً
١١	أ - مدرسة المدينة
١٢	ب - مدرسة الشام
١٢	ج - مدرسة مصر في التاريخ
١٣	د - مدرسة العراق
١٣	ه - مدرسة اليمن
١٤	الأخباريون الثقات وغير الثقات
٢٠	النصف الثاني من القرن الهجري الثالث وظهور المؤرخين الكبار أو العمالة
٢٣	الإمام المؤرخ المحدث المفسر محمد بن جرير الطبرى
٢٣	عصره
٢٤	نشأته وطلبه للعلم ورحلاته
٢٥	أقوال العلماء فيه وترجمتهم له
٢٦	وفاته
٢٧	شيوخه في التاريخ
٣١	الطبرى مؤرخاً ومنهجه في التاريخ ماله وما عليه
٣٢	ميزات منهج الطبرى في تاريخه
٣٥	النقد الموجّه لتأريخ الطبرى

الطبرى والتفسير الإسلامى للتاريخ	٣٨
نقد الرواية التاريخية ومسألة إعادة كتابة التاريخ الإسلامى	٣٨
الشروط والضوابط المنهجية لكتابه التاريخ الإسلامى	٤٣
فصل من كتاب إسلامية المعرفة ، مخطط مقترن لإسلامية علم التاريخ ..	٤٧
ثانياً	
كتاب تاريخ الطبرى	٦١
ثالثاً	
الإمام الطبرى مؤرخاً	٧٣
المبحث الأول : علم التاريخ والطبرى	٧٣
أولاً: تعريف علم التاريخ	٧٣
ثانياً: أهمية علم التاريخ ومشروعيته	٧٤
ثالثاً: تدوين علم التاريخ	٧٦
رابعاً: الطبرى يدرس التاريخ	٧٧
المبحث الثاني : كتب الطبرى في التاريخ	٧٩
أولاً: ذيل المذيل للطبرى	٧٩
ثانياً: تاريخ الأمم والملوک	٨١
ثالثاً: محتويات تاريخ الأمم والملوک	٨٢
رابعاً: مصادر الطبرى في تاريخه	٨٥
خامساً: أهمية تاريخ الطبرى وقيمةه العلمية	٨٨
سادساً: ثناء العلماء على تاريخ الطبرى	٩٠
سابعاً: ذيول تاريخ الطبرى وتكلماته	٩٢
ثامناً: مختصرات تاريخ الطبرى وترجماته	٩٤
تاسعاً: تحقيق تاريخ الطبرى وطبعه ونشره	٩٥
المبحث الثالث : منهج الطبرى في تاريخه	٩٩
أولاً: المنهجية عند الطبرى	٩٩
ثانياً: سمات منهج الطبرى في التاريخ قبل الإسلام	١٠٠
ثالثاً: معالم منهج الطبرى في التاريخ الإسلامي	١٠١
١ - نظام الحوليات	١٠١

٢ - نقل الروايات	١٠٢
٣ - الاعتماد على المصادر	١٠٤
٤ - جمع الأخبار وضبط النصوص	١٠٥
٥ - الاستطراد في ذكر الأسباب والتفصيلات المصاحبة	١٠٥
٦ - وضع العناوين للأحداث	١٠٥
٧ - التوسيع في سيرة الخلفاء	١٠٦
٨ - الإكثار من الوثائق التاريخية	١٠٦
٩ - تسجيل النصوص الأدبية	١٠٦
رابعاً: المأخذ على تاريخ الطبرى	١٠٧
خامساً: المأخذ على منهج الطبرى	١١٠
رابعاً	
تاريخ الطبرى - قسم الصحيح	١١٥
ترجم رواة أسانيد الطبرى	١١٧
الكتنى	١٤٩
مقدمة الطبرى	١٥٥
القول في الزمان ما هو	١٥٨
القول في كم قدر جميع الزمان من ابتدائه إلى انتهائه وأوله إلى آخره	١٥٩
القول في الدلالة على حدوث الأوقات والأزمان الليل والنهار	١٦٦
القول في الإبانة عن فناء الزمان والليل والنهار وأن لا شيء يبقى	
غير الله تعالى ذكره	١٦٧
القول في الدلالة على أنَّ الله عز وجل القديم الأول قبل كل شيء وأنَّه هو المحدث كل شيء بقدرته تعالى ذكره	١٦٨
القول في ابتداء الخلق ما كان أوله	١٧١
القول في الذي ثنى خلق القلم	١٧٥
القول فيما خلق الله في كل يوم من الأيام الستة التي ذكر الله في كتابه أَنَّه خلق فيهن السموات والأرض وما بينهما	١٧٩
القول في الليل والنهار أيهما خلق قبل صاحبه وفي بدء خلق الشمس والقمر وصفتها إذ كانت الأذمنة تعرف	١٨١

ذكر السبب الذي به هلك عدو الله وسولت له نفسه من أجله الاستكبار	
١٨٢ على ربه عز وجل	
الآيات القرآنية والأحاديث الصحيحة الواردة في خلق إبليس وقصته مع	
١٨٣ آدم عليه السلام	
القول في قدر مكث آدم في الجنة ووقت خلق الله عز وجل إياه ووقت	
١٩٢ إهابطه إياه من السماء إلى الأرض	
ذكر الوقت الذي فيه خلق آدم عليه السلام من يوم الجمعة والوقت الذي	
١٩٤ أهبط إلى الأرض	
القول في الموضع الذي أهبط آدم وحواء إليه من الأرض حين أهبطا إليها .	١٩٥
ذكر الأحداث التي كانت في عهد آدم عليه السلام بعد أن أهبط إلى الأرض ..	١٩٩
ذكر وفاة آدم عليه السلام ..	٢٠١
نبي الله آدم عليه السلام ..	٢٠٧
ذكر الأحداث التي كانت في أيامبني آدم من لدن ملك شيث بن آدم إلى	
أيام يرد ..	٢١٣
نبي الله إدريس عليه السلام ..	٢١٤
ذكر الأحداث التي كانت في عهد نوح عليه السلام ..	٢١٥
نوح في القرآن ..	٢١٧
عبادة الأصنام ..	٢٢١
نوح يدعو لعبادة الله ..	٢٢٢
صنع السفينة ..	٢٢٥
محتويات السفينة ..	٢٢٦
نهاية الطوفان ..	٢٢٧
ذكر الأحداث التي كانت بين نوح وإبراهيم خليل الرحمن عليهمما السلام ..	٢٢٨
ذكر إبراهيم خليل الرحمن عليه السلام وذكر من كان في عصره من	
ملوك العجم ..	٢٣٢
ذكر أمر بناء البيت ..	٢٣٧
ذكر ابتلاء الله إبراهيم بكلمات	٢٤٢

٢٤٣	ذكر لوط بن هاران وقومه
٢٤٤	نبي الله لوط عليه السلام
٢٤٧	لوط والشواذ
٢٥٠	عقابهم
٢٥١	نبي الله إبراهيم الخليل عليه السلام
٢٥١	دعوته لأبيه
٢٥٣	عبادة الكواكب
٢٥٣	البابليون وعبادة الأصنام
٢٥٥	موقفه من الأصنام
٢٥٦	حرق إبراهيم
٢٥٨	مناظرة إبراهيم مع خصمه
٢٥٩	هجرة الخليل عليه السلام
٢٦١	هجرة إبراهيم بابنه إسماعيل وأمه
٢٦٤	قصة الذبيح
٢٦٧	نبي الله إسحاق عليه السلام
٢٦٧	مولده
٢٦٩	بناء البيت العتيق
٢٧٢	ثناء الله على خليله إبراهيم
٢٧٩	نبي الله أويوب عليه السلام
٢٧٩	ابتلاوه بالمرض
٢٨٠	شفاؤه
٢٨١	نبي الله شعيب عليه السلام
٢٨١	قصة مدين في القرآن
٢٨٢	مدین وشعيب
٢٨٩	نبي الله يوسف عليه السلام
٢٨٩	من الأمور العجيبة في حياة إسرائيل
٢٩٠	حلم يوسف عليه السلام
٢٩٣	انتقاله من الجب إلى بيت عزيز مصر

٢٩٥	وشهد شاهد من أهلها
٢٩٧	سجين يوسف عليه السلام
٢٩٨	خروج يوسف من السجن
٣٠٠	تولي يوسف وزارة المالية
٣٠٦	يوسف وأبواه
٣٠٧	ذكر يعقوب وأولاده
٣١٤	قصة الخضر وخبره وخبر موسى وفتاه يوشع عليه السلام
٣٢٢	نبي الله موسى عليه السلام
٣٢٣	قتل غلمان بنى إسرائيل
٣٢٣	طفلة موسى في بيت فرعون
٣٢٥	إقامة موسى في مدين
٣٣٦	موسى والسحرة
٣٤١	كبار قوم فرعون يحرضونه على إيذاء موسى
٣٥٢	ذكر يوشع بن نون عليه السلام
٣٥٤	ذكر خبر داود عليه السلام
٣٥٦	ذكر خبر سليمان بن داود عليهما السلام
٣٥٦	نبي الله سليمان عليه السلام
٣٥٦	وراثة النبوة
٣٦٤	نبي الله زكريا عليه السلام
٣٦٤	قصة زكريا ويحيى عليهما السلام
٣٦٩	نبي الله عيسى عليه السلام
٣٧٤	ميلاد عيسى ابن مريم
٣٨٠	تنزية الله عن الولد
٣٨٤	رفع عيسى والكذب في دعوى الصلب
٣٨٥	نبي الله يُونس عليه السلام
٣٨٥	يونس في القرآن
٣٨٥	موقف أهل نينوى
٣٨٦	ابتلاع الحوت يُونس

٣٨٨	فضل يونس عليه السلام
٣٨٨	قوم يس
٣٩٠	ذكر الخبر عن أصحاب الكهف
٣٩١	يونس بن متى
٣٩٢	إرسال الله رسله الثلاثة
٣٩٢	ذكر بقية خبر تُبع أيام قباد وزمن أنوشروان
٣٩٣	ذكر مولد رسول الله ﷺ
٣٩٥	ذكر رسول الله ﷺ
٤٠١	فهرس الموضوعات

